

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عضو اللجنة العلمية لمراجعة مصحف المدينة النبوية

ولجنة الإشراف على التسجيلات القرآنية

بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

قدم له : معالي الدكتور / عبد الله بن عبد المحسن التركي

والأستاذ الدكتور / صالح بن غانم السدلان

ونخبة من العلماء المتخصصين

المجلد الحادي عشر

من أول سورة سبأ إلى آخر سورة غافر


بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ سُورَةِ سَبَأٍ (٣٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (سبأ) هي السورة الرابعة والثلاثون في ترتيب المصحف، والثامنة والخمسون في ترتيب النزول، وعدد آياتها أربع وخمسون آية عند جمهور أهل العدد، وخمس وخمسون آية في المصحف الشامي.

وهي ثمان مئة وثلاث وثمانون كلمة، وألف وخمس مئة واثنا عشر حرفًا.

وهي سورة مكية، نزلت بعد سورة (لقمان)، وقبل سورة (الزمر).

وسُمِّيَتْ هذه السورة، سورة (سبأ): لذكر قصة أهل سبأ فيها.

وهي رابع سورة بُدئت بحمد الله تعالى والثناء عليه وتمجيده سبحانه، فهو -جلَّ شأنه- مالِكُ هذا الكون وخالقه، وحصاد هذه الدنيا راجع إليه بعدله ورحمته.

وشأن سورة (سبأ) شأن السور المكية:

فهي تعالج أوَّلًا: قضية الشرك، والتوحيد، فتُبطل قواعد الشرك، وتقيم الأدلة على انفراده تعالى بالإلهية، وتنفي الإلهية عن أصنامهم، أو أن تكون لهم شفعاء عند الله تعالى، ويأتي ذلك في تقرير أن لله تعالى ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في الآية الأولى من السورة.

ومن الآيات التي تبطل الشرك في أثناء السورة قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

وفي إبطال إلهية الملائكة والجن قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾.

وفي نفي شفاعة الملائكة عند ربهم إلا بإذنه تعالى يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ

عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [٢٣].

أما القضية الثانية من قضايا السور المكية: **فهي قضية البعث والجزاء** التي يستبعدها كفار الأمس واليوم، وقد جاء ذلك في مواطن كثيرة من السورة، منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ قال تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾.

وفيما يكون بين الضعفاء والأقوياء يوم القيامة من تلاوُم وعتابٍ مريرٍ، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ .

وتُختَم السورة بالحديث عن القيامة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾، إلى آخر السورة.

وتقرير قاعدة الجزاء العادل يوم لقاء رب العالمين، جاء في قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ .

أما القضية الثالثة: وهي قضية الوحي والرسالة:

فقد جاءت في مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [٣١].

وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

كما تحدثت السورة عن جوانب من قصة داود وسليمان، وتسخير الجن له في الرد على من

يعبدون الجن من دون الله، إلى جوار قصة أهل سبأ التي لم تُذكَر في غير هذه السورة.

هذا، ويمكن تقسيم السورة إلى **أربعة مقاطع**:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية التاسعة، نهاية ثلاثة أرباع الحزب، ويشتمل هذا المقطع على تقرير وحدانية الله تعالى، وملكه لهذا الكون بما فيه، وأنه سبحانه يعلم ما في جوف الأرض وما هو فوق ظهرها، وما يهبط من السماء وما يصعد إليها.

ويحكي هذا المقطع إنكار الكفار للبعث والنشور في كل زمان ومكان، ويرد عليهم بأن الذي يعلم حركة كل ذرة سيبعثهم يوم القيامة؛ ليتم جزاء المؤمنين بمغفرة الذنوب والرزق الحسن في جنات النعيم، وجزاء الكافرين بعذاب شديد الألم.

ومع أن الكفار يُنكرون البعث والحساب والجزاء، ويستبعدون عودة الإنسان إلى الحياة بعد أن تمزَّقت أشلاؤه وتقطَّعت أوصاله، فإن أصحاب العلم الحقيقي يعلمون أن ما في القرآن من حقائق وثوابت، هو الحق الذي أخبر به رب العالمين، ولو شاء الله لخسف بهم الأرض، أو أسقط السماء عليهم كسفًا، فتنقلب النعمة إلى نقمة.

المقطع الثاني: يبدأ من الآية العاشرة إلى الآية الحادية والعشرين، وهذا القدْر من الآيات اشتمل على **ثلاث قصص**:

القصة الأولى: فيها إشارة سريعة إلى نبي الله داود ﷺ، وقد جاءت هذه الإشارة في آيتين اثنتين من السورة، تشير الآية الأولى إلى تسبيح الطيور والجبال مع داود ﷺ.

وتشير الآية الثانية إلى اشتغاله ﷺ بصناعة الحديد لاستخدامها في الحروب وغيرها.

القصة الثانية: فيها إشارة سريعة إلى تسخير الريح والجن لسليمان ﷺ، وأنها ظلت تعمل في الصناعات الشاقة إلى ما بعد موته، وهي لا تعلم عن موته شيئًا، وقد جاء هذا في ثلاث آيات متتابعة.

القصة الثالثة: عن أهل سبأ، وقد جاء ذكرها في سبع آيات تليها.

المقطع الثالث: جاء في آيات ست، تقيم الأدلة الكونية والعقلية على وحدانية الله تعالى وإبطال الشركاء والشفعاء من دون الله تعالى، وهذا في الآيات من [٢٣-٢٧].

وفي المقطع الرابع والأخير من السورة: حديث عن الوحي والرسالة وموقف المترفين منهما في كل زمان ومكان.

ويأتي تعقيب على كل آية في هذا المقام، بذكر مصير المؤمنين والمكذبين، مع ذكر عدة مشاهد لهم يوم القيامة، حين يَبْرأ المتبوعون من التابعين، وتتبرأ الملائكة ممن عبدوهم، وذلك حين يذوق المكذبون عذاب النار، ويصيبهم الفزع الأكبر، ويحال بينهم وبين ما يشتهون، وهو مقطع متنوع يدور في هذا الفلك، وهو من الآية الثامنة والعشرين إلى الآية الرابعة والخمسين، نهاية السورة.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَالِكُ هَذَا الكَوْنِ وَمُدَبِّرُ أَمْرِهِ

١- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾

سورة (سبأ) إحدى سور خمس مفتتحة بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ من براعة الاستهلال، وكلها سور مكية، وقد جاءت هذه السور في أول القرآن، ووسطه، وفي الربع الأخير منه، فكأن كل خُمْس من القرآن مفتتح بالحمد، والسور الخَمس هي سور: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، وفي كلٍّ منها معنى يختلف عن غيره؛ لما في السورة من نعم تختلف عن غيرها.

والحمد: هو الثناء الجميل على الله سبحانه؛ لأنه المستحق لجميع المحامد، فكل شيء صادر منه وراجع إليه سبحانه.

والحمد أعم من الشكر؛ لأن الحمد يكون على نعمة وصلتْ إليك وإلى غيرك.

أما الشكر فيكون على نعمة وصلتْ إليك وحدك.

والمؤمنون يحمدون الله تعالى في الدنيا على ما وهبهم من نعم، ويحمدونه في الآخرة على ما منحهم من جنة عرضها السموات والأرض، كما قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٤]

وقال عنهم أيضًا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]

وقال سبحانه: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

وهكذا قال سبحانه في أول هذه السورة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: الثناء بالصفات الحميدة والأفعال الحسنة، والشكر الكامل لله وحده وقد حمد الله نفسه على ملكيته لهذا الكون، فهو ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فهو خالقهم ومالكهم، وهم عبيده تحت قهره وتصرفه.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ أي: له الثناء التام في الآخرة، وفي هذا قصْرُ الحمد على الله تعالى في

الدار الآخرة، لأن الله تعالى إذا قضى بين عباده يوم القيامة، يَظْهَر لهم عظِم حكمة الله تعالى، وكمال عدله وفضله، حتى أهل العقاب، فتمتلئ قلوبهم بحمد الله تعالى حين يعلن سبحانه انفراده بالملك والملكوت، كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟ فيكون الجواب: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وقال سبحانه: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

وقد تواترت الأدلة العقلية والنقلية على تمام النعم على الموحدين في دار النعيم فوق ما يتمنوه، فيكون هذا جديرا بأن تُلهَج ألسنتهم دائمًا وأبدًا بحمد الله تعالى وشكره.

أما في الدنيا فقد يُجري الله تعالى على يد بعض خلقه شيئًا من نعمه فيُحمد عليها، وكل نعمة من الله تعالى جديرة بأن يُحمد عليها، ويُثنَى عليه من أجلها، والنعم من الله تعالى حاصلة في الدارين، فكما أنه سبحانه محمود على نعم الدنيا، فهو أيضًا محمود على نعم الآخرة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص].

وأهل الجنة يحمدون الله في الجنة، وهم يُلْهَمون التسبيح والتحميد، كما يُلْهَمون النفَس، أي: إن أنفاسهم ذاتها تحميد وتسبيح، وتقديس وشكرٌ وثناء...

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأمره ونهيه وتدبيره لهذا الكون ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بشؤون خلقه، المطلع على الخفايا والسرائر، وعلى كل ما كان وما يكون.

فالحكمة: إتقان الصنع والتصرف. **والخبرة**: تقتضي العلم بأوائل الأمور وعواقبها.

والخبير: هو العليم بدقائق الأشياء وظواهرها، لا يخفى عليه شيء من أحوالها.

عِلمُ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا خَفِي وَمَا ظَهَرَ

٢- ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾

هذه **أربعة** أمور غيبية لا يعلمها إلا الله: **اثنان في الأرض**، وهما: ما يدخل فيها وما يخرج منها، **واثنان في السماء**، وهما: ما ينزل منها وما يصعد إليها.

أي: ومن علمه تعالى الشامل المحيط، أنه يعلم ما يدبُّ على وجه الأرض وما يزحف فوقها، وما يستتر في باطنها، فهو سبحانه:

١- ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما يدخل فيها، فكل بذرة تُوضع في أعماق الأرض يعلمها، ويعلم ما يدخل في جوف الأرض من: المطر، والكنوز، والبذور، والأموات، والحشرات والزواحف والديدان، والدواب والمغارات.

٢- وكما يعلم الداخل في الأرض يعلم الخارج منها من: ثمرات ونبات وحبوب، وكنوز، وماء العيون والآبار، والمعادن وهذا معنى ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾.

٣- ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي ويعلم قطرات المطر، وحبات الثلج والبرَد، والصواعق، والرزق والأجل، والسعادة والشقاء والرحمة، والملائكة، والكتب المنزلة من عند الله، ويعلم ما في الأجواء والفضاء من الكائنات المرئية وغير المرئية، ويعلم سير الكواكب ونظامها

٤- ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي ويعلم: ما يصعد إلى السماء من الملائكة، والأرواح عند مفارقة الأجساد ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]

ويعلم سبحانه ما يصعد إليه من الأعمال الصالحة، والدعوات الزاكية، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

ويعلم ما يتبخر في طبقات الجو، وما يسبح في الفضاء، وما يطير في الهواء.

إن الكون كله صفحة مفتوحة أمام الخالق سبحانه، لا يخفى عليه منها شيء، وعندما تثور عاصفة ترابية، فهو سبحانه يعلم حركة كل ذرة فيها.

وعندما تثور عاصفة حرارية، فهو - جلَّ شأنه - يعلم متى تهيج ومتى تهبط.

ولو أن أهل الأرض جميعًا حاولوا إحصاء مخلوقات الله تعالى في أرضه أو سمائه ما استطاعوا، فضلًا عن أن يعلموا: أحجامها وأنواعها وأجناسها، وأحوالها وأشكالها، وحركاتها وسكناتها، فسبحان الخلاق العليم!!

ولما ذكر - سبحانه- مخلوقاته وحكمته فيها، وعلمه بأحوالها، ذكر مغفرته ورحمته فقال:

﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده، فلا يعاجلهم بالعقوبة في الدنيا، ولا يُحْرمهم رزقه.

﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب التائبين إليه، المتوكلين عليه، المنيبين إليه، المخبتين له.

الرَّدُّ عَلَى مُنْكِرِي البَعْثِ

٣- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ(١) ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ(٢) عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾

ولما ذكر سبحانه في الآية الأولى قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِۚ﴾ وذكر في الآية الثانية قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ وكان ذلك مشعرًا بحال الموتى عند دخولهم القبور وعند خروجهم منها، كما في ذِكْرِ الأرواح عند مفارقة الأجساد في الدنيا، ثم نزولها، لِتُرَدَّ إليها يوم القيامة.

فمما يخرج من الأرض: الأرواح التي تعرج إلى ربها عند مفارقة الأجساد.

ومما ينزل من السماء: الأرواح حين تُرد إلى الإنسان، وتعود إليه يوم القيامة.

وقد كان هذا كله توطئة إلى ذكر إنكار المشركين والكفار، للحشر والنشر في كل زمان ومكان وهو أهم مقاصد هذه السورة، وأول شبهة عندهم.

واستبعاد البعث غباء شديد، فما يمنع الخالق أن يعيد الخلق؟ هل عجز عنه أوَّلًا حتى يعجز عنه أخيرًا؟ ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ﴾ [ق: ١٥].

والتكذيب باليوم الآخر أمر شائع بين الأولين والآخرين، وبعض الناس لا يهتمون بالحديث عنه والعمل له، كما يهتمون بالحياة الدنيا والعمل لها!

والحديث عن اليوم الآخر، جاء بعد أن حمد الله تعالى نفسه على أنه مالك هذا الكون ومدبر أمره، فكان هذا موجبًا لتعظيمه وتقديسه، وبيان أصناف الناس تجاه اليوم الآخر، فمنهم من كفَر به، فأنكر قدرة الله تعالى على إعادة الأموات، وقيام الساعة، ومنهم من آمن وصدّق تصديقًا جازمًا، فاستعد لهذا اليوم بالإيمان والعمل الصالح.

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ورويس برفع (عالم) خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو عالم، على وزن فاعل، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وروح وخلَف بالخفض في (عالم) بدلًا من (ربي) على وزن فاعل، وقرأ حمزة والكسائي (علّام) بتشديد اللام وخفض الميم على وزن فعّال، بدلًا من (ربي) أيضًا.

(٢) قرأ الكسائي بكسر زاي (لا يعزِب) والباقون بضمها، وهما لغتان.

وفي هذه الآية ذكرٌ للصنف الأول:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، قالوا على سبيل الاستبطاء لِمَا وعدهم به محمد ﷺ من البعث والحساب والجزاء، من باب الاستهزاء والسخرية: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: لا قيامة ولا بعث ولا نشور، فنحن نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، والأرض ستأكل أجسادنا ولا نعود إلى الحياة مرة أخرى.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية].

ثم إن الله تعالى لقَّن رسوله الجواب بما يُبطل قولهم على وجه التأكيد، فأقسم لهم على أن البعث حق وصدق ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى﴾ عالم الغيب ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ بغتة، أُقسِمُ بالله العظيم لتأتينكم الساعة، فإنها واقعة لا محالة، ولكن لا يعلم وقت مجيئها أحد سوى علَّام الغيوب.

ثم استدل سبحانه على البعث بما يلزمهم التصديق به حتمًا، وهو علمه - سبحانه - بما غاب وما شوهد، وعلمه بدقائق الأمور وكبيرها، وعلمه بأجزاء الذرة، وما جرى به القلم مما كان ويكون، فهو سبحانه ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ وهو الذي أخبر محمدًا ﷺ بقيام الساعة، وهو جلَّ شأنه يعلم ما خفي عن الأبصار وما غاب عن الأنظار، لا يغيب عن علمه مقدار وزن الذرة في جوف الأرض ولا في جو السماء، مهما دق وصغر، وغاب عن الأنظار، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] مع أن الذرة أصغر الجزئيات.

وقد أشارت الآية إلى وجود ما هو أصغر منها، وهذا ما أثبته العلم التجريبي، وكانت الذرة تطلق قديمًا على الهباءة أو الغبار الذي يتطاير ويظهر في أشعة الشمس، ولكن العلم الحديث أثبت أن الذرة أصغر من ذلك بكثير، ولو أن الله تعالى اقتصر على ذكر الأصغر؛ لتَوهَّم مُتوهِّم أن الجِرْم الكبير غير داخل فيها، وإذا كان الأمر كذلك فكيف

يخفى عليه سبحانه شيء من أحوال الخلق في العالم السفلي أو العالم العلوي؟! وكيف لا يبعثهم بعد موتهم؟

فالعظام وإن تفرقت وتلاشت وتمزقت، فهو سبحانه يعلم أين ذهبتْ وأين تفرقتْ، ثم يعيدها يوم القيامة فتلْتئم الأجسام من الذرات التي كانت مركبة منها في آخر لحظات حياتها قبل الموت، وقد سمى الله ذلك النشأة الأخرى في قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ [النجم].

وهو سبحانه يعلم ما تنقصه الأرض وتلفظه من أموات، وما يبقى فيها من أجساد ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾ [ق].

وقد أقسم الله تعالى على إحياء الناس بعد موتهم ثلاث مرات: الأولى هنا، في الآية التي نحن بصددها، والثانية في قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣] والثالثة في قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن]. وكلاهما في الرد على من أنكر البعث والنشور.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق].

وكل ذلك مسطور في كتاب واضح هو اللوح المحفوظ، فقد أحاط به علم الله تعالى، وجرى به القلم، وقدّره في الأزل، ثم ذكر سبحانه العلة والحكمة في البعث والنشور فقال:

٤، ٥- ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ[١] أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ[٢] ﴿٥﴾﴾

بيَّن ﷻ في هاتين الآيتين، الحكمة من إعادة الحياة إلى البشر والحكمة من قيام الساعة، وأن ذلك لإثابة المطيعين على صلاح اعتقادهم وحُسْن أعمالهم أحسن الجزاء، بمغفرة الذنوب، والرزق الحسن في جنات النعيم، ورضوان من الله أكبر.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (معجِّزين) بحذف الألف وتشديد الجيم، اسم فاعل من عجَّزه إذا ثبطه، وقرأ الباقون (معاجزين) اسم فاعل من المعاجزة، بمعنى: المبالغة والمسابقة.

(٢) قرأ ابن كثير وحفص ويعقوب برفع ميم (أليم) صفة لعذاب، وقرأ الباقون بخفضها صفة لرجز.

أما المفسدون الذين سعوا في إبطال آيات الله وتكذيب رسله، محاولين تعجيز قدرة الله فيهم، ومثبطين الناس عن الإيمان به، وهم الذين بذلوا جهدهم للطعن في الإسلام والتشكيك في القرآن، بإثارة الشبهات ظنًّا منهم أنَّ بإمكانهم أن يطفؤوا نور الله بأفواههم، فلهم أسوأ الجزاء وأشد العقاب؛ لأنهم كفروا بالله واجتهدوا في الصد عن سبيل الله، وتكذيب رسله، وإبطال آياته، وهم يُشاقون الله تعالى ويُغالبونه فلهم أسوأ العذاب وأشده، والرجز هو سوء العذاب، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [الحج].

وقال جلَّ شأنه: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩].

والناس متفاوتون في الصلاح والفساد، والضرر الذي يصيب الناس من جرَّاء المفسدين متفاوت أيضًا، ولو لم يكن هناك حساب ولا ثواب ولا عقاب على الأقوال والأفعال، لانتهت الدنيا ولم يلق كلٌّ من المحسن والمسيء جزاء عمله، فكانت الحياة الآخرة لإقامة العدل بين الناس، وعدم تسوية الكافر بالمؤمن، والعاص بالمطيع، كما قال تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وقال جل شأنه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون]

وقال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر].

وقال جلَّ شأنه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص].

المُصَدِّقُونَ بِالبَعْثِ هُمُ العُلَمَاءُ العَامِلُونَ

٦- ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ[1] ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾

أي: فإذا كان أهل الكفر والجهل لا يصدقون بالبعث، ويروْن أن ما جاء به محمد ﷺ ليس بحق، فإن أهل العلم ممن صدَّق النبي ﷺ واتَّبعه من أمته، ومن أهل الكتاب الذين

(١) قرأ قنبل ورويس بالسين في (صراط) وقرأ بإشمام الصاد صوت الزاي بخلْف عنه حمزة، وقرأ الباقون بالصاد الخالصة.

أسلموا، وممن جاء بعدهم من العلماء العاملين، الذين انتفعوا بعلمهم وسخَّروه لخدمة الحق، فإنهم يعتقدون أن الساعة حق، وأن الحساب والجزاء حق، وأن القرآن الذي نزل على الرسول ﷺ حق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهم لا يشكُّون فيه، ولا يُثيرون حوله الشُّبه، كحال الذين يسعون في الأرض معاجزين.

﴿وَيَرَى﴾ أي: يعلم ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من كل صاحب فقه ومعرفة، آمن بمحمد ﷺ أن ﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ -أيها الرسول- وهو القرآن الذي فيه قيام الساعة ﴿هُوَ الْحَقَّ﴾ لا يرتاب فيه مرتاب ﴿وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي: يُرشد من يتمسك به إلى سعادة الدنيا والآخرة، ويرى في أوامره ونواهيه أنها تهدى إلى الصراط المستقيم.

والذين أوتوا العلم هم أصحاب محمد ﷺ ومن جاء بعدهم من العلماء العاملين، ويدخل فيهم من دخل في الإسلام بعد ذلك من أهل الكتاب.

وفي صدر النبوة كان الواحد من أهل مكة يكون فظًّا غليظًا، فإذا أسلم رقَّ قلبه وامتلأ صدره بالحكمة، واهتدى إلى الحق، وكانوا إذا لقوا النبي ﷺ أشرقت عليهم أنوار النبوة، فملأت قلوبهم حكمة وتقوى، وبذلك فتحوا الممالك، وسادوا البلاد، وأقاموا العدل، فكانوا أعزة بدينهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

ولأن الآية في سياق الحديث عن قيام الساعة، فلا يمنع أن يكون المعنى شاملًا لكل ما جاء به محمد ﷺ سيَّمَا البعث والنشور، بمعنى: أن الذين صدَّقوا بمحمد ﷺ عبْر الأجيال، وكانوا من أولي العلم والبصائر، إذا شاهدوا قيام الساعة، وجزاء الأبرار والفُجَّار، علموا علم اليقين أن ما أخبرهم به محمد ﷺ في الدنيا من قيام الساعة حق وصدق، فيقولون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢] ويقولون لمن كذب به ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦] وهو سبحانه لا يُغالب ولا يُمانع، وهو المحمود في أقواله وأفعاله.

وفي الاستشهاد بأولي العلم في هذه الآية، تمهيد لإبطال قول المكذبين بخاتم المرسلين في الآية بعد التالية ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ وهم بهذا يردُّون ما جاء به القرآن، ومنه قيام الساعة.

القُرْآنُ يَحْكِي مَقَالَةَ مُنْكِرِي البَعْثِ وَيَتَوَعَّدُهُمْ بِالعَذَابِ الدُّنْيَوِيِّ

٧- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

ذكرت هذه الآية مقالة الكفار المتعجبين من قيام الساعة، فجلَّت شبهة منكري البعث، وبيَّنت استغرابهم حديث الرسول ﷺ عنه، حيث قال بعضهم لبعض استهزاء، كما يقول الرجل لصاحبه: هل أدلك على أضحوكة نادرة؟! لأن البعث في زعمهم بعيد محال، فكأن من يخبر عنه في موضع العجب والسخرية!

هل ندلكم على رجل يخبركم أنكم إذا تفرقت أجسامكم، ونخرت عظامكم، وتقطعت أوصالكم، وصرتم ترابًا ورفاتًا، أنكم ستُخلقون خلْقًا جديدًا، حديثو العهد بالوجود، غير الخلق الأول، بعد هذا التمزيق والتفرق؟ فإذا سمعتم منه ما سمعنا، فإنكم ستعلمون عذرنا في مناصبته العداء، قالوا ذلك من فرط إنكارهم.

وكان المشركون في عهد النبي ﷺ قد هيؤوا الجواب لمن يَقْدم على مكة في موسم الحج، من قبائل العرب الذين يسألون عن أخبار النبي الجديد.

كما جاء في خبر الوليد بن المغيرة، حين قال لقريش: إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستَقْدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا فيُكذِّب بعضكم بعضًا، قالوا: فأنت يا أبا عبدْ شمس، قل وأقم فينا رأيًا نقول به، قال: بل أنتم قولوا، أسمع.

قالوا: نقول كاهن؟ قال: لا، والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهنة، فما هو بمزمزة الكاهن ولا بسجعه.

قالوا: فنقول مجنون؟ قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخلجه، ولا وسوسته.

قالوا: فنقول شاعر؟ قال: لقد عرفنا الشعر كله، فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول ساحر؟ قال: ما هو بنفْثه ولا عقْده.

قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: إن أقرب القول فيه أن تقولوا: ساحر، جاء

بسحر يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته، فكان المشركون يستقبلون الوافدين على مكة بهذه المقالة، ومن ذلك قولهم:

٨- ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾

هذا من تتمة قول منكري البعث بعضهم لبعض، فهم قد جعلوا حال النبي ﷺ دائرًا بين الكذب والجنون؛ لأن هذا القول لا يصدر إلا عن أحد هذين كما زعموا!

فإن كان حديثه عن يوم القيامة عن عمد وسلامة عقل، فهو -في زعمهم- كذَّاب مفترٍ، وإن كان قد قال ذلك بلسان أملاه عليه عقل مختل، فهو مجنون، وكلام المجنون لا يوصف بالافتراء، فهو إما أن يكون كاذبًا، وإما أن يكون مجنونًا، ولا وسط بين الوصفين.

ثم إن الله تعالى رد عليهم استدلالهم بأنهم ضالون مضلون، فقد علموا أنه ﷺ أصدق الخلق وأعقلهم، ولذلك فقد بذلوا أنفسهم وأموالهم لصد الناس عنه، ولو كاذبًا مجنونًا ما اجتهدوا في صرف الناس عنه، ولا اهتموا بأمره، لأن المجنون لا يلتفت إليه.

ولذا: قابل وصفهم للرسول ﷺ بأنه افترى على الله كذبًا، بأنهم سيكونون في العذاب يوم القيامة؛ لأن من يَكْذب على رسوله يسلط الله عليه عذابه.

وقابل وصفهم للرسول ﷺ بالجنون بأنهم في الضلال البعيد الموجب لعذاب الله لهم، وليس الأمر كما زعموا، بل الحق أنهم كافرون بالبعث والنشور، وهم -بهذا- غارقون في العذاب الذي لا نهاية له، وهم بعيدون عن الحق غاية البعد.

ثم لفت القرآن أنظارهم إلى دليل عقلي يدل على عدم استبعاد البعث، وهو أنهم لو نظروا إلى ما بين السموات والأرض وما فيهما، لرأوْا أنها أعظم من إعادة الناس بعد موتهم، فما الذي يحملهم على هذا التكذيب؟

٩- ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ[1] نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا[2] مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩﴾

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بياء في هذه الأفعال الثلاثة (إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط)، والباقون بنون العظمة فيها، وأدغم الكسائي الفاء في الباء من (نخسف بهم).

(٢) قرأ حفص بفتح السين من (كسَفا) اسم جمع، كقطْعة وقطَع، والباقون بإسكان السين، كسدْرة وسدْر.

أفلم ير هؤلاء الكفار -الذين لا يؤمنون بالآخرة- عظيم مخلوقات الله تعالى في السماء والأرض، وقد أحاطت بهم من كل جانب بما يبهر العقول، فإن من شأن ذلك أن يهديهم، ويأخذ بأيديهم إلى الإيمان بالبعث والنشور لو تأملوا حق التأمل.

أفلم يلتفتوا ليلًا إلى ما وراءهم، وينظروا في النصف الشمالي من السماء، ثم ينظروا إلى النصف الجنوبي منها، فيَرَوْا كواكب ساطعة، بعضها طالع من مشرقه، وبعضها هاوٍ إلى مغربه، ويروا قمرًا مختلف الأشكال باختلاف الأيام، ويروا السماء في ارتفاعها واتساعها.

وإن نظروا في النهار إلى الشمس وهي بازغة وآفلة، في أوقات: الإسفار والأصيل والشفق، ثم ينظروا إلى: جبال الأرض وبحارها وأوديتها، وطولها وعرضها، وارتفاعها وانخفاضها، وما عليها من أنواع الحيوان واختلاف أصنافه، وسائر المخلوقات الأرضية.

أعَمِيَ الكفار، فلم يعتبروا ويتعظوا بما يشاهدونه من مظاهر قدرة الله تعالى المحيطة بهم من كل جانب، والمنتشرة في الآفاق وفي أرجاء الأرض؟! فإن من شأن هذا التفكير أن يهديهم إلى الحق، ومن شأنه أن يجعلهم يوقنون بأننا مبعوثون ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين، فإن الإنسان أينما توجَّه، وحيثما نظر، رأى السماء والأرض وما فيهما وما بينهما أمامه وخلفه، وعن يمينه وعن شماله، وهما يدلان على وحدانية الخالق سبحانه، ولو شاء الله لعذَّب المنكرين بالبعث، المكذبين لله ورسوله، بأرضه وسمائه، فخسف بهم الأرض كما خسف بمن قبلهم، أو أسقط السماء عليهم قطعًا.

﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما فعلنا بقارون، ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أو ننزل عليهم قطعًا من العذاب فتهلكهم، كما فعلنا بقوم شعيب الذين أهلكناهم بسبب تكذيبهم وجحودهم، فأمطرت السماء عليهم نارًا وأحرقتهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرنا من عظيم قدرتنا ﴿لَءَايَةً﴾ أي: دلالة ظاهرة ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى ربه بالتوبة، ومقر له بالتوحيد، ومخلص له بالعبادة، والمنيب من شأنه أن ينظر في آيات الله الدالة على أنه تعالى قادر على كل شيء، ومن قدرته تعالى البعث والحساب، وعقاب الكافر وإثابة المؤمن.

وكلما كان العبد أكثر إنابة كلما كان انتفاعه بالآيات أعظم، لأن المنيب مقبل على ربه، قد توجّه إليه بكل همته وإرادته، ورجع إليه في كل أموره، فهو مشتغل بمرضاة الله تعالى منصرف عما سواه.

مِنْ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ دَاوُدَ عليه السلام

١٠، ١١- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

ومن عباد الله تعالى المنيبين إليه، عبده ونبيه داود عليه السلام، فقد كان راعيًا للأغنام، إلى أن اصطفاه الله نبيًّا ومَلِكًا صالحًا ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي: آتيناه خيرًا ومُلْكًا كبيرًا بسبب إنابته إلى ربه، فقد آتيناه علمًا نافعًا، وعملًا صالحًا، ونعمًا دينية ودنيوية.

آتيناه النبوة والملك والزَّبور، والعناية بإصلاح الأمة، والقضاء بين الناس بالعدل، والشجاعة في الحرب، وحسن الصوت الذي أطرب الإنس والجن والطيور والجبال، وتسخير الجبال والطير، وإلانة الحديد له، وتعليمه صناعة الدروع.

وأمرْنا الجبال والطيور، أن تُردِّد التسبيح معه بلغة يفهمها داود عليه السلام، وكان هذا معجزة له أيَّده الله بها، وقد أثنى الله على داود في قوله تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص].

وقوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص]

وقوله أيضًا: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [الأنبياء].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت الطيور تُسبِّح معه إذا سبَّح، وإذا قرأ الزَّبور لم تَبْقَ دابة إلا استمعت لقراءته وبكت لبكائه.

وفي الحديث: أن النبي ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل، فوقف، فاستمع لقراءته ثم قال: «**لقد أوتيتَ مزمارًا من مزامير آل داود**»[1].

---

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٩٤، ١٠٩٥، ٧٩٩٧) وعبدالرزاق في مصنفه (٤١٧٧) وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٦٣)، (١٢/ ١١٢) والحميدي (٢٨٢) وأحمد في «المسند» (٢٤٠٩٧) قال محققوه: حديث صحيح، وأخرجه ابن حبَّان (٧١٩٥) والدارمي (١٤٩٧).

فكان سليمان إذا سبَّح، أجابته الجبال بصداها، وعكفت الطير عليه من فوقه، وكان داود إذا فتر أو لَحِقه ملل أسمعه الله تسبيح الجبال والطير، فينشط لذلك.

كما سخَّر الله لداود إلانة الحديد، فكان الحديد في يده كالشمع أو العجين، يعمل منه ما يشاء طوع أمره من غير نار ولا ضرْب مطرقة، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء]

وهذا من خوارق العادات التي أيده الله تعالى بها.

وكان داود عليه السلام قد سأل ربه أن يغنيه عن بيت المال بما يُقيتُه ويُطْعِم عياله، فألان الله له الحديد، وعلَّمه صناعة الدروع، وهو أول من صنعها، وكانت قبل ذلك صفائح، فكان يصنع الدروع ويبيعها ويأكل منها ويُطعم عياله، ويتصدق على الفقراء والمساكين.

وفي الحديث: عن المقدام بن معدي كرب أن رسول الله ﷺ قال: **«ما أكل أحد طعامًا قطُّ خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»**[1].

ثم بيَّن سبحانه كيف استثمر داود إلانة الحديد له دون إدخاله النار، فصنع منه بأمر الله تعالى دروعًا واسعات سابغات كوامل تامَّات، محكمة حلقة الدرع، فليست ضيقة فلا يدخل فيها المسمار، ولا واسعة حتى لا يتحرك المسمار فيها، وهذا معنى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي: أحْكِم صُنعها، .وقَدِّر المسامير في حِلَق الدروع، فلا تجعل الحلقة صغيرة . فتضعُف، ولا تقوى الدروع على الدفاع عن لابسها، ولا تجعلها كبيرة فتثقُل على لابسها، ولا تؤدي وظيفتها.

واعمل يا داود أنت وأهلك بطاعة الله، إنه سبحانه مطَّلع على كل شيء، ومحيط بكل ما تعملون، ولا يخفى عليه شيء منها.

هذا، وداود عليه السلام في سيرته جمع بين عملين متباعدين:

١- التغني بآلاء الله تعالى وأمجاده، بصوت رخيم، حيث كانت الطيور ترجِّع صداه

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (٢٠٧٢) وأحمد برقم (١٧١٨١، ١٧١٩٠) حديث صحيح، والطبراني في مسند الشاميين (١١٢٣) وفي الكبير ٢٠/(٦٣٣) والبيهقي في السنن (١٢٧/٦) وانظر «كنز العمال» (٩٢٢٣) و«الترغيب والترهيب» (١٢٠٣).

وتشارك معه في مزاميره.

٢- والمهارة في الصناعات العسكرية والمدنية التي تحوِّل الحديد إلى: سيوف ورماح ودروع، وإلى أوانٍ شتى من جفان وقدور.

(إن الفقه في الدنيا جزء من العقل الذي يفقه الآخرة، ولن يستطيع نصرة الإسلام أبله، ولا قاعد متخلف، وهذا ما تحتاج إليه الأمم الفقيرة التي انتمت إلى الإسلام، وعاشت تتسول الصناعات من أعدائها، فكانت عارًا على دينها، وعندما تحوَّل المسلمون إلى عالم ثالث أو رابع نال منهم خصومهم وأمسوا معرة لدينهم[1].

وتعلُّم الحِرَف والصناعات لا يحُطُّ من قيمة أهل الفضل، ولا يُنقِص من شأنهم، بل فيه زيادة في فضلهم وفضائلهم، فيُكسبهم التواضع، ويغنيهم بالكسب عن سؤال الناس.

مِنْ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ سُلَيمَانَ عليه السلام

١٢- ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ[2] غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ[3] وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾

أما ابنه سليمان عليهما السلام، فقد أعطاه الله خوارق أخرى، ذُكِر منها في هذه الآية: تسخير الريح والجن، وإذابة النحاس.

(أ) أما تسخير الريح، فهي تجري له من أول النهار إلى منتصفه، مسيرة سفر شهر على القدمين أو على الإبل، ومن منتصف النهار إلى الليل، مسيرة شهر أيضًا بالسيْر المعتاد، أو السيْر على الإبل.

والغدُوُّ يكون أول النهار، وهو الذهاب، والرواح يكون آخر النهار، وهو العودة أو الإياب.

---

(١) يُنظَر: «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن» للشيخ محمد الغزالي ص ٣٣١.

(٢) قرأ شعبة برفع الحاء من لفظ (الريحُ) مبتدأ مؤخر، وما قبله خبر مقدم، وقرأ الباقون بنصبها، مفعول لفعل محذوف، أي: وسخرنا لسليمان الريحَ، وكلهم يقرؤون بالإفراد إلا أبا جعفر فبالجمع.

(٣) اتفقوا على ترقيق راء (القطر) وصلًا، ويجوز فيها وقفًا الترقيق نظرًا للوصل وعملًا بالأصل، ويجوز فيها التفخيم لوجود حرف الاستعلاء قبلها، ولعله الأرجح؛ لأن الترقيق فيه تكلف وتأثير على الطاء.

ومعنى **تسخير الريح**: خلْق ريح تُلائم سيْر سُفُن سليمان، للغزو في سبيل الله، أو للتجارة ونحوها، وقد جعل الله تعالى لمراسي سليمان في شواطئ فلسطين، رياحًا موسمية، تَهُبُّ شهرًا في جهة الشرق، لتذهب سُفُنه في هذا الموسم، وتهب شهرًا آخر في جهة الغرب لترجع السفن إلى شواطئ فلسطين[1].

وهذه الريح تَقْطع في كلٍّ من الغدوة أو الروحة، ما يقْطَعُه الناس في شهر من الزمان على أقدامهم، قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء]

وقال سبحانه: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص].

قال سعيد بن المسيب: كان سليمان عليه السلام يركب الريح من (إصْطَخْر) -وهي بلدة في إيران- فيتغدَّى في بيت المقدس، ثم يعود فيتعشَّى في إصطخر[2].

وقال الحسن: كان سليمان يغْدُو من بيت المقدس، فيقيل بإصْطَخْر، ثم يروح من إصْطَخْر فيبيت بقلعة خراسان [3].

وقال أيضًا: كان سليمان يخرج من (تدْمرَ) التي بنتْها له الجن، فيقيل في إصطخر، ويبيت في (كابل)[4].

والله أعلم بصحة هذه الآثار الثلاثة،ويبدو أنها لا أصل لها.

(ب) ومما أعطاه الله لسليمان: أن جعل له **النحاس مذابًا سائلًا**، يخرج مما يشبه الفَساقي أو الأنابيب، كما يخرج الماء من العين لشدة انصهار النحاس وتدفُّقه، فيصنع منه الأواني والأسلحة وغيرهما، قال تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي: فجَّرنا له من الأرض عينًا بُرْكانية من النحاس المذاب.

أو أن الله تعالى ألهمه إذابة النحاس حتى يسيل ويصبح قابلًا للصَّب كما يسيل الماء.

---

(١) «تفسير الشيخ الطاهر بن عاشور» (١١/ ١٢٨).

(٢) ،(٣) «الدر المنثور» (١٢/ ١٧٠).

(٤) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٤٠٨) وابن كثير (٦/ ٤٩٩).

قال تعالى على لسان ذي القرنين: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۝٩٦﴾ [الكهف] **والقطر**: هو النحاس.

وهل ﴿عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ﴾ عين حقيقية في مكان معين، أم هي عين مستعارة لصبٍّ ما يُصهر في مصانعه من النحاس؟ الله أعلم.

قال ابن عباس ﷺ: النحاس لم يُقدَر عليه بعد سليمان، وإنما يَعْمَل الناس بعْدُ فيما كان أُعطِيَ سليمان[1].

(ج) ومما أعطاه الله تعالى لسليمان: **تسخير الجن له**، تعمل بأمره وإرادته ما شاء، مما يعجز عنه البشر بمشيئة الله وقدرته ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ﴾ والجن عالم مستور لا يراه البشر.

وقد سخَّر الله لسليمان طائفة منهم تطيع أمره، ولم يسخِّر له جميع الجن.

ومن يعدل منهم أو ينحرف عن أمر الله له بطاعة سليمان، فهو معرَّض للعقاب من الله تعالى ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: النار المسعرة في الآخرة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧﴾ [ص]

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

وفي ذلك يقول جل شأنه:

١٣- ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ[2] وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ[3] ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾

ثم أخبر سبحانه عمَّا كلف به سليمان الجن من أعمال، وذكر في هذه الآية **أربعة أشياء**:

أولها: قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ أي: يعمل الجن لسليمان ما يشاء

(١) أخرجه ابن المنذر من طريق ابن جريج، يُنظَر: «الدر المنثور» (١٢/ ١٧١).

(٢) قرأ ورش وأبو عمرو بإثبات الياء وصلًا في (كالجواب) وأثبتها ابن كثير ويعقوب في الحالين، والباقون بحذفها في الحالين.

(٣) قرأ حمزة بإسكان الياء من (عبادي) وصلًا ووقفًا، وحذفها وصلًا حتى لا يلتقي ساكنان، والباقون بفتحها وصلًا وإسكانها وقفًا.

من مساجد للعبادة، **والمحاريب**: جمع محراب، وهو كل مكان مرتفع، ويطلق على المكان الذي يقف فيه الإمام في المسجد، وعلى أشرف أماكن العبادة، ويطلق على القصور المرتفعة الحصينة، والأبنية الفخمة المشيدة.

والمحراب أيضًا هو: الحصن الذي يُحارَب منه العدوُّ المهاجِم للمدينة؛ لأنه يُرْمَىٰ من شُرفاته.

ولذا: فإن قصور غُمدان في اليمن، سُمِّيت محاريب غُمدان، وهي المعْنيَّة في هذه الآية، وكان لداود محراب يجلس فيه للعبادة، قال تعالى: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص].

واتخاذ المحاريب للإمام في المساجد، حدَث في المئة الثانية للهجرة في حياة أنس بن مالك ﷺ، وهو آخر من مات من الصحابة، وكان يسمى: الطاق، أو الطاقة.

ولعل أول مسجد وُضع فيه محراب، هو المسجد الأموي بدمشق، في عهد الوليد بن عبد الملك.

وهو الذي أمر ببناء وتوسعة محراب المسجد النبوي في الموضع الذي كان يصلي فيه النبي ﷺ، ولكنه لم يكن محرابًا منفصلًا عن المسجد، وهو علامة على تحري موقف النبي ﷺ في صلاته، وكان هذا في إمارة عمر بن عبد العزيز على المدينة.

ومن المحاريب التي بناها سليمان: بيت المقدس، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ عن رسول الله ﷺ: **«أن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل الله ﷻ حُكْمًا يوافق حُكْمه فأوتيه، وسأل الله مُلْكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأُوتيَه، وسأل الله ﷻ حين فَرغ من بناء المسجد ألَّا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه، إلا أخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه»**[1].

وثانيها: جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ أي: صور من نحاس، وزجاج، وخشب على هيئة إنسان أو حيوان.

---

(١) أخرجه النسائي برقم (٦٩٤)ن وصححه الألباني في صحيح النسائي (٦٦٩) وصحيح ابن ماجه (١٤٠٨).

قال الحسن: ولم تكن التماثيل يومئذ مُحَرَّمة، وقد حُرِّمتْ في شريعتنا سدًّا للذريعة؛ لئلَّا يُعبد غير الله تعالى.

والتماثيل: جمع تمثال، وهو الصورة المجسَّمة، وكان النحَّاتُون يعملون لسليمان صورًا مختلفة وهْمِيَّة للملائكة أو الصالحين الذين ماتوا، أو للحيوان، كالأسُود وغيرها، وكان كرسي سليمان محفوفًا بِصُوَرِ أسُود أربعة عشر، وفي الهيكل جابية عظيمة من نحاس مصقول[1].

وكان معظم الأصنام تماثيل، فحرَّم الإسلام اتخاذها لكونها ذريعة للشرك، واتفق الفقهاء على تحريم اتخاذ ما له ظل من تماثيل ذوات الأرواح، مكتملة الأعضاء، واتفقوا على كراهة التماثيل ذات النصف، والرقم في الثوب، ورخَّص في لعب الأطفال.

وثالثها: جاء في قوله تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ أي: قصاع كبيرة كالأحواض والبِرَك التي يجتمع فيها الماء، فكانت الجن تصنع لسليمان جفانًا كبيرة للطعام، تشبه الجوابي.

والجفان: جمع جَفْنة، وهي القصعة العظيمة التي يخزَّن فيها الماء، وتتَّسع الواحدة منها للجَزُور.

ورابعها: جاء في قوله تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ أي: قدور للطعام لا تتحرك من أماكنها لكبر حجمها وضخامتها.

والقدور: جمع قِدْر، وهي الآنية التي يُطبخ فيها الطعام، من نحاس أو فخَّار أو غيرهما، وكان يُطبخ في هذه القدور لجنود سليمان، ولسَدنة الهيكل وللخدم والأتباع، وكان يوضع تحتها (أثافي) أي: ثلاثة أحجار ضخمة، ليوقد تحتها النار.

وبعد أن ذكر الله بعض نعمه ومننه على عبده ورسوله سليمان ﷺ أمرهم بشكره تعالى، حيث قال الله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ لله على ما أعطاكم من فضله ونعمه، اشكروه بطاعته وامتثال أمره، اشكروا هذه النعم العظيمة التي حباكم الله بها، واصرفوها في طاعة الله.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ أي: وكثير منهم لا يشكر، وكان

---

(١) جاء ذلك في الإصحاح العاشر من «سفر الملوك الأول».

داود وآله من هذا القليل، وفي هذا حثٌّ للناس على شكر الله تعالى.

والشكر: اعتراف القلب بنعمة الله، وذلك بإظهار الافتقار إليها، وصرفها في طاعة الله، وصوْنها عن معصية الله.

لقد كان داود وسليمان نبيين ومَلِكَيْن فما شغلهما هذا الملك والسلطان عن واجبات العبودية:

جاء في الصحيحين: عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إن أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثُلثه، وينام سُدسه، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ولا يفرُّ إذا لاقى»**[1].

١- وورد في الأثر: أن داود ﷺ قال: يارب، كيف أشكرك والشكر نعمة منك؟ قال: الآن شكرْتني حين علمت أن النعمة مني[2].

٢- وعن ثابت البناني قال: كان داود ﷺ قد جزَّأ الصلاة على أهله وولده ونسائه، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي، فعمّتْهم هذه الآية ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[3].

٣- وَوَرَدَ عن الحسن أنه قال: قال داود: إلهي، لو أن لكل شَعْرة مني لسانيْن يسبِّحانك الليل والنهارَ الدهر كله، ما قضيتُ حق نعمة واحدة من نِعَمِك عليَّ[4].

٤- وجاء في الأثر: أن داود ﷺ أعطاه الله تعالى العدل في الغضب والرضى، والقصد في الفقر والغنى، وذِكْر الله في السر والعلانية[5].

٥- وعن إبراهيم التَّيْمي أن رجلًا قال عند عمر ﷺ: اللهم اجعلني من القليل، فقال عمر: ما هذا الدعاء الذي تدعو به؟! قال: إني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ فأنا أدعو الله أن يجعلني من ذلك القليل، فقال عمر: كل الناس أعلم من عمر[6].

---

(١) البخاري برقم (١١٣١) ومسلم برقم (١١٥٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن الفضيل كما في «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤٨٩).

(٣) ابن أبي شيبة (١١/ ٥٥٣) والبيهقي في «الشعب» (٣١٨٧) وأحمد في «الزهد» وابن أبي حاتم.

(٤) ابن أبي شيبة (١١/ ٥٥٣) وأحمد في «الزهد» ص ٦٩ .

(٥) أخرجه ابن المنذر عن عطاء بن يسار.

(٦) ابن أبي شيبة (١٠/ ٣٢٢).

ولم يزل الشياطين يعملون لسليمان كل بناء، وهم يضللون الإنس ويخبرونهم أنهم يعلمون الغيب، فأراد الله أن يظهر كذبهم، فظلوا في عملهم، وسليمان قد مات وهو متكيء على عصاه، وكلما مرُّوا عليه ظنوه حيًّا، ولم يزالوا كذلك حتى سلط الله دابة الأرض فأكلت عصاه، وسقط على الأرض، وتفرقت الشياطين، وتبيّن للإنس أنهم لا يعلمون شيئًا من الغيب:

مَشْهَدُ وَفَاةِ سُلَيمَانَ عليه السلام

١٤- ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ[1] فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ[2] ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

أخبر ﷻ في هذه الآية عن كيفية موت سليمان عليه السلام، وأن الجن ظلوا في عملهم الشاق يعملون إلى ما بعد موت سليمان بعام، وهم لا يعلمون أنه قد مات.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: لما انتهى عمْر سليمان وجاءه الموت، ونفذ قضاؤنا المتقدم في الأزل إلى حيز الوجود، ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ﴾ أي ما دلَّ الجن على موت سليمان ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ الأَرَضَة -وهي السوس الذي ينخر الخشب- ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ أي تأكل عصاه التي كان متكئًا عليها، فوقع سليمان على الأرض.

وقد عمَّى الله موت سليمان عن الجانِّ الذين كانوا مسخرين في الأعمال الشاقة، فظلوا يعملون مسخرين فيما كلفهم به سليمان من العمل، ولم يدركوا أنه قد مات، وهو متكئ على عصاه نحو عام كامل، حتى ضعفت العصا من نخر السوس، وسقط سليمان على الأرض، بعدما كان واقفًا في محرابه متكئًا على عصاه.

وعندئذ علمت الجن أنهم كانوا واهمين في زعمهم أن سليمان حيٌّ يراقبهم، وأنهم لو كانوا يعلمون شيئًا من الغيب ما ظلوا في هذا العمل الشديد، هذه المدة الطويلة بعد موته.

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بألف بعد السين بدلًا من الهمزة في (منسأته) لغة أهل الحجاز، وقرأ ابن ذكوان وهشام بخلف عنه بهمزة ساكنة بعد السين، والباقون بهمزة مفتوحة على الأصل، اسم آلة، على وزن مِفْعَلة، كمِكْنَسة، وهي : العصا، وهو الوجه الثاني لهشام.

(٢) قرأ رويس (تُبُينت الجن) على البناء للمجهول، والباقون بالبناء للمعلوم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: سقط سليمان على الأرض ﴿تَبَيَّنَتِ﴾ تحققت الجن وتيقنت أنهم ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾ ما خفي عليهم موت سليمان، و﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

وفي هذا إبطال لاعتقاد بعض الناس أن لكل كاهن جنيًا، يُعلمه الغيب.

أخرج عبدُ بن حُميد عن قتادة قال: كانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء، وأنهم يعلمون ما في غد، فابتُلوا بموت سليمان، فمات، فلبث سنة على عصاه، وهم لا يشعرون بموته، وهم مسخرون تلك السنة، ويعملون دائبين[١].

وأخرج إبراهيم بن طهمان، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﷺ، عن النبي ﷺ قال: **«كان نبي الله سليمان إذا قام في مصلَّاه رأى شجرة نابتة بين يديه، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخرنوب، قال: لأي شيء أنت؟ فقالت: لخراب هذا البيت، فقال: اللهم عمِّ عليهم موتي حتى يعلم الإنس أن الجن لا تعلم الغيب، قال: فنحتها عصًا يتوكأ عليها، فأكلتْها الأَرَضَة، فسقطت فخرَّ، فحزرُوا أَكْلَها الأرَضة، فوجدُوه حوْلًا، فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين»** وكان ابن عباس يقرؤها هكذا: فشكرت الجنُّ الأَرَضَة، فكانت تأتيها بالماء حيث كانت[٢].

ذكر أهل التاريخ أن سليمان ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنةً، وبقي في الملك مدة أربعين سنة، وشرع في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضت من ملكه، وتُوفِّيَ وهو ابن ثلاثة وخمسين عامًا، وقد دُفن في بيت المقدس سنة (٩٢٣) قبل الميلاد.

---

(١) «الدر المنثور» (١٢/ ١٨٣).

(٢) رواه الذهبي بسنده إلى إبراهيم بن طهمان في «سير أعلام النبلاء» (٤/٣٢٨) وقال: إسناده حسن، وأخرجه البزار في «كشف الأستار» (٢٣٥٥) والطبري في التفسير (١٩/ ٢٤٠) والطبراني في الكبير (١٢٢٨١) وابن أبي حاتم، وقال ابن كثير: الأقرب أنه موقوف (٦/ ٤٩٠).

قِصَّةُ أَهْلِ سَبَأٍ وَمَا فِيهَا مِنْ عِبَرٍ

١٥- ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ(١) فِي مَسْكَنِهِمْ(٢) ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ(٣) كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

المقصود من هذه القصة: تحذير الناس من كفران النعمة؛ لئلَّا يحل بهم ما حلَّ بأهل سبأ، وبعد أن ذكر الله - سبحانه - مثلًا للشاكرين الذين أسبغ عليهم النعمة، ممثلًا في قصة داود وسليمان عليهما السلام.

ذكر جلَّ شأنه ما يقابل ذلك ممن بطروا النعمة ولم يشكروها، فسلبها الله عنهم، وأذاقهم لباس الجوع والخوف، وهو تمثيل حال أمة بأمة، وبلاد ببلاد.

ولِمَا بيْن مُلك سليمان ومملكة سبأ من الاتصال، بسبب قصة بلقيس ومملكتها المضادة لأحوال داود وسليمان عليهما السلام، من أجل ذلك كانت قصة سبأ.

وفي هذا تعريض بكل من ينطبق عليه الوصف في الحالتين:

والمعنى: لقد كان لقبيلة سبأ آية في حال مساكنهم ونظام بلادهم التي كانوا يسكنونها قرب مدينة (مأرب) باليمن، على بُعد مسيرة ثلاثة فراسخ من صنعاء، لقد كان لكم فيهم عبرة وعلامة دالة على قدرة الله تعالى، حيث عاقبهم الله تعالى بالغرق في السيل الجارف لَمَّا بدَّلوا نعمة الله كفرًا، ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ وكانت أرضهم مخصبة ذات بساتين وأشجار متنوعة في جنوب اليمن، وزاد نعيمهم وخيرهم بعد أن أقاموا سدًّا عظيمًا بالحجارة في رأس الوادي بين جبلين لحجز الماء فيه، وليأخذوا من مياه الأمطار على قدْر حاجتهم ويخزِّنوا ما بقي منها، في السد الذي يعرف بسد مأرب غالبًا، وهو مورد عظيم للماء.

---

(١) قرأ البزي وأبو عمرو بفتح همزة (لسبأ) بدون تنوين، ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث، وقرأ قنبل بإسكانها إجراءً للوصل مجرى الوقف، وقرأ الباقون بالكسر والتنوين، عَلَم على الحيِّ.

(٢) قرأ حفص وحمزة بسكون السين وفتح الكاف من غير ألف في (مسْكَنهم) على الإفراد، بمعنى المصدر، وقرأ الكسائي وخلف بإفراد (مسكنهم) وكسر الكاف على لغة فصحاء اليمن، موضع السكنى، لأنه مضاف إلى الجمع. والباقون بالجمع (مساكنهم).

(٣) عدّ (عن يمين وشمال) المصحف الشامي وتركه غيره.

وكانت لهم حديقتان عظيمتان، فيهما من كل أنواع الفواكه والثمار، عن يمين الوادي بساتين نَضِرَة، وعن شماله كذلك، وليس المراد: بُستانيْن فقط، بل المراد: أنها عدد من البساتين عن يمين المساكن وعدد عن شمالها.

وقيل: كان لكل واحد في مسكنه جنتان: جنة عن يمين المسكن، وجنة عن شماله، يتفيَّأ ظلالهما في الصباح والمساء، ويجني ثمارهما من نخيل وأعناب وغيرهما.

﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ وكان عندهم وادي عظيم تأتيه السيول الكثيرة، فبنوْا سد مأرب وجعلوه مجمعًا لهذا الماء، وكانت السيول تأتيه، فيجتمع فيه الماء الكثير فيوزعونه على بساتينهم يمينًا وشمالًا.

وكانت المرأة -من كثرة الفواكه والثمار- تمرُّ بمِكْتلها على رأسها تحت الأشجار فيمتلئ المِكْتل دون أن تمد يدها، بلا كلفة ولا قطاف.

لقد أعطاهم الله هذه النعم، وقال لهم على ألسنة الرسل: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أي: كلوا من فضل الله وإنعامه عليكم، واشكروا ربكم بالتوحيد والطاعة، فإن هذه البلدة التي تسكنونها بلدة كثيرة الخيرات؛ لأن فيها كل ما تحتاجون إليه من نعم وخير، فهي ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ وربكم الذي أعطاكم هذه النعم رب واسع المغفرة والرحمة، لمن تاب إليه وأناب، يعفو عن ذنوب عِباده بفضله وإحسانه.

وهكذا كان حال أهل سبأ بعد لقاء بَلْقيس بسليمان، ودخولها في الإسلام، وأنهم ظلوا على شُكْر ما هم عليه من نعيمٍ مدةً من الزمن، وكانت سبأ مقرًّا لملوك اليمن، وكانت التبابعة منهم، وبلقيس منهم، وكانت دولة ذات حضارة عريقة قامت باليمن (٩٥٠-١١٥) قبل الميلاد، ورثت دولة مَعِن، وكان عاصمتها مأرب وجاء بعدها الدولة الحميرية.

وكلمة سبأ في الأصل: اسم لرجل من العرب اسمه سبأ بن يشْجُب بن يعْرُب، وهو أول من جمع السبايا، وأول من غنم في الغزْو، وسميت القبيلة باسمه.

أصول القبائل العربية:

وكانت سبأ قبيلة عظيمة تنقسم إلى عشرة أفخاذ، وهم: الأزد، وكندة، ومَذحج، والأشعريون، وأنمار، وبَجيلة، وعاملة، وهم خزاعة، وغسَّان، ولَخم، وجُذام.

فلما فارقوا أوطانهم بقيت الست الأولى في اليمن، أما الأربع الباقية فقد لحقت الأزد بعُمان، ولحقت خُزاعة بتهامة في مكة، ولحقت الأوس والخزرج بيثرب، وهم من (لَخَم)، ولحقت غسَّان ببُصرى من بلاد الشام، ولحقت لَخَم بالعراق.

قال الشعبيُّ: أما غسَّان فلحقوا بالشام، وأما الأنصار فَلَحِقُوا بيثْرب، وأما خُزاعة فلحِقُوا بتهامة، وأما الأزْد فلحِقُوا بِعُمان، فمزَّقهم الله كل ممزق[1].

جاء في الحديث عن ابن عباس ﷺ: أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن سبأ: ما هو؟ رجل، أم امرأة، أم أرض؟ فقال ﷺ: **«بل هو رجل، كان له عشرة من الأولاد، سكن اليمن منهم ستة، وهم: مَذْحِج، وكِنْدَة، والأَزْد، والأشعريُّون، وأنْمار، وحِمْير، وسكن الشام منهم أربعة، وهم: لَخَم، وجُذَام، وعامِلَة، وغسَّان»**.

ولفظ الترمذي: **«فتيامَن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة، فأما الذين تشاءموا: فلخم، وجذام، وغسان، وعاملة. وأما الذين تيامنوا: فالأزْد، والأشعريون، وحِمْير، ومَذحج، وأنمار، وكِنْدة»** فقال رجل: يا رسول الله، وما أنمار؟ قال: **«الذين منهم: خثعم، وبَجِيلَة»**[2].

والأنصار من الأوس والخزرج من عرب اليمن من سبأ، وكانوا قد نزلوا بيثرب لَمَّا تفرقت سبأ في البلاد حين أرسل الله عليهم سيل العَرِم، ونزلت طائفة منهم بالشام، كقبيلتي غسَّان وعاملة، وقبيلة أخرى إلى عُمَان، وهي الأزد. قال ابن كثير: واختلفوا في قحطان على **ثلاثة أقوال**:

أحدها: أنه من سلالة إرم بن سام بن نوح.

وثانيها: أنه من سلالة عابَر، وهو هود عليه السلام.

وثالثها: أنه من سلالة إسماعيل عليه السلام.

---

(١) أخرجه عبد بنُ حُميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٢٠١).

(٢) يُنظَر: «المسند» (١/ ٣١٦) برقم (٢٨٩٨) وهو حديث حسن، ورواه الترمذي في سننه (٢/ ١٥٤) (٣٢٢٢) وقال: حديث غريب حسن، ورواه الطبري (٢٢/ ٧٦) وأبو داود (٣٩٨٨) والحاكم (٢/ ٤٢٣) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٥٧٤): حسن صحيح، وقال ابن كثير (٦/ ٥٠٧): إسناده جيد.

وفي حديث أم سلمة ﷺ: أن النبي ﷺ مرَّ بنفر من (أسلم) ينتضِلُون، فقال: **«ارْمُوا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميًا»**[١].

فـ(أسلم) قبيلة من الأنصار، والأنصار: أوْسها وخَزْرجها من غسَّان، من عرب اليمن، من سبأ، نزلوا بيثرب، لَمَّا تفرقت سبأ في البلاد حين بعث الله عليهم سيل العَرِم، ونزلت طائفة منهم بالشام[٢]. قال تعالى:

أَهْلُ سَبَأٍ كَانُوا قَبْلَ سَيلِ العَرِمِ فِي أَمْنٍ وَرَخَاءٍ

١٦، ١٧- ﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ[٣] خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ[٤] إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

لم يستمر أهل مدينة سبأ على التوحيد وشكر النعمة، وإنما رجعوا إلى عبادة الشمس، بعد أن أقلعوا عنها في زمن سليمان وبلقيس، فلما كفروا بالله بعد إيمان قُضِي عليهم بالعقاب، فتهدَّم سدُّ مأرب، وأرسل الله عليهم سيل العرم، وهو السيل الذي تشكّل بعد انهيار سدّ مأرب قبل ظهور الإسلام بنحو أربع مئة سنة.

وقيل: العرم، اسم للوادي الذي أقيم عليه السد حين اندفع الماء نحوهم، فغرقوا، وتلِفتْ أشجارهم وأنعامهم بسبب الجفاف الذي لحق بهم.

وقال ابن عباس ﷺ: ذُكر لي أن جُرْذًا ابتعثه الله على سدِّهم فثقب فيه ثقبًا[٥].

والجُرْذ: هو ذكَرُ الفئران.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٥٠٧).

(٢) «تفسير الطبري» (١٩/ ٢٥١).

(٣) قرأ نافع وابن كثير بإسكان الكاف من (أُكْل) وتنوين اللام، على أنه مقطوع عن الإضافة.
وقرأ أبو عمرو ويعقوب بضم الكاف وترك التنوين من إضافة الشيء إلى جنسه، وقرأ الباقون بضم الكاف والتنوين، وهم: ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف.

(٤) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة وأبو جعفر (يُجَازَى) بالياء والبناء للمفعول ورفع (الكفورُ) نائب فاعل، وقرأ الباقون بالنون في (نُجازِيَ) والبناء للفاعل و (الكفورَ) مفعول به منصوب.

(٥) أخرجه الطبري عن علي بن أبي طلحة بسند حسن.

قال قتادة عن أهل سبأ: هم قوم أعطاهم الله تعالى نعمة، وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته. . . ، فلما ترك القوم أمر الله بعث عليهم جُرَذًا فنقبه من أسفله، فاتسع حتى أغرق الله به حُروثهم، وخرَّب به أراضيهم عقوبة لهم[١].

وكان سدُّ مأرب الذي يُحفظ فيه الماء، يسمَّى ﴿سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾ وقد شرع في بنائه (سبأ) أول ملوك هذه الأمة، وأتمَّه بعده ابنه (حمير). هذا قول.

وقيل: إن (سيل العرم) بُني بعد انهيار سد مأرب، وأنه هو الذي أغرق أهل سبأ.

أما بلقيس فقد بَنتْ خزانات أخرى فرْعية، ورمَّمت بناء السد، وكان يَصُبُّ في سد مأرب سبعون واديًا.

ويبلغ طول السدِّ من الشرق إلى الغرب ثمان مئة ذراع، وارتفاعه بضع عشرة ذراعًا، وعرضه مئة وخمسون ذراعًا.

يقول تعالى واصفًا حال أهل مدينة سبأ: ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾ عن أمر الله وشكره، وكذَّبوا رسل الله تعالى.

قيل: إن الله تعالى بعث إليهم ثلاثة عشر نبيًّا، فدعوهم إلى توحيد الله تعالى، وذكَّروهم نعمة الله عليهم، وأنذرهم عاقبة تكذيبهم وجُحودهم، وهؤلاء الأنبياء الذين بُعثوا إليهم ممن قال عنهم القرآن الكريم:

﴿وَرُسُلًا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلًا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ﴾ [النساء: ١٦٤].

فكان عاقبة كفرهم ما قاله رب العزة: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾ أي: أرسل الله عليهم السيل الجارف الشديد الذي خرَّب السد، وأغرق البساتين.

وقال الضحاك: كانت أودية اليمن تسيل إلى وادي سبأ، وهو وادٍ بين جبلين، فعمَد أهل سبأ فَسَدُّوا ما بين الجبلين بالقير والحجارة، وتركوا ما شاؤوا لجنَّاتهم، فعاشوا بذلك زمانًا من الدهر، ثم إنهم عَتَوْا وعملوا بالمعاصي، فبعث الله على ذلك السدِّ، جُرَذًا فنقبه عليهم، فأغرق الله مساكنهم وجناتهم، وبدَّلهم بمكان جنَّتَيْهم جنتين[٢].

---

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١٩/٢٤٨) بتصرف.

(٢) مختصر من «تفسير ابن كثير» (٦/٥٠٦).

والعرم: اسم للوادي الذي كان يأتي منه السيل، أو اسم للسدود التي كانت تحْجز الماء، أو اسم للمطر الشديد الذي نتج عنه هذا السيل.

ثم إن الله تعالى غيَّر حدائقهم المثمرة النافعة بحدائق غير مثمرة، وفيها أشجار لا فائدة فيها، كما قال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ المثمرتين ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ بلا ثمر ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ وهو شجر الشمَر المر، كريه الطعم، وقيل: هو شجر الأراك ﴿وَأَثْلٍ﴾ شجر لا ثمر له من شجر العضاة شبيه بالطرْفاء ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ أي: وقليل من شجر النبق، كثير الشوك[1].

والمعنى: أعطيناهم أشجار خمط وأثل وسدر عوضًا عن جنتيهم، فأصبحت بلادهم قاحلة، ليس فيها إلا شجر العِضاة والبادية.

قال تعالى معقِّبًا على قصتهم: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ أي: بسبب كفرهم وعبادتهم للشمس من دون الله، فقد بدَّل الله حالهم من خير إلى شر، وتلك سُنَّة الله في خلقه، لا يعاقب بهذا العقاب الشديد إلا الجَحُود المبالغ في الكفر، فإنه يجازَى بمثل عمله ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾؟

١٨- ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾

هذا وصف لحال أهل سبأ قبل مجيء السيل، من أنَّ الله تعالى قد أصلح البلاد، فجعلها عامرة بالناس والمرافق، وجعلها متصلة البنيان، مع ما منحهم الله من الجنتيْن والنعم الخاصة بهم.

أي: وكان من نتيجة عقاب الله تعالى لهم أن تبدلت أحوالهم، فقاسوا شدة العطش، وفقدان الثَمر، حتى اضطروا إلى مفارقة البلاد، فكانت هذه نهايتهم، وطوى القرآن ذكرهم، وطوى التاريخ صفحتهم.

وبعد ذِكْرِ نعمة الله تعالى على أهل سبأ بالرخاء وطيب العيش، ذَكَر سبحانه نعمة أخرى

---

(١) قال الأزهري: والسدر نوعان: سدر لا يُنتفَع به ولا يصلح ورقه للغسول، وله ثمرة عصفة لا تؤكل، وسدر ينبت على الماء وثمره النبق، وورقه غسول.

أنعمها عليهم، هي نعمة الأمن، وتيسير الأسفار، وعمارة البلاد، فقال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ بين أهل سبأ باليمن ﴿وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي الشام وغيرها من البلاد التي مروا بها، جعلنا فيها قوافل للتجارة وبيع الطعام، فقد سلكوا طريق تهامة، ثم الحجاز، ثم الشام.

وجعلنا بينها ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ أي: مُدُنًا متصلة يُرَى بعضُها من بعض، فكلما سارُوا مرحلة وجدُوا قرية أو بلدًا أو دارًا، فاستراحوا فيها وتزوَّدوا، وكانوا -حين خرجوا من مأرب- لا يتيهون ولا يحملون معهم شيئًا من الطعام والمتاع لعدم حاجتهم له في الطريق.

قال تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي: قدَّرْنا مسافات السير بين المدن، فجعلناها متقاربة من منزل إلى منزل، ومن بلد إلى بلد لا يجدون فيها مشقة، ولا يحتاجون إلى حمل ماء أو زاد، وقلنا لهم: ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا﴾ صباحًا ومساء، وفي أي وقت شئتم من ليل أو نهار، وكانوا يسيرون ﴿ءَامِنِينَ﴾ مطمئنين في السير في تلك الأيام والليالي لا يخافون عَدُوًّا ولا جُوعًا ولا عطشًا، ولكنهم أعرضوا عن المنعم، وبطروا النعمة، حتى إنهم تمنَّوْا أن تتباعد المسافات بين تلك القرى، فاستبدلوا الذي هو خير بالذي هو أدنى.

عُقُوبَةُ مَنْ بَدَّلَ نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا

١٩- ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ[1] بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

هذه مقالة قالوها على وجه البطر وكفر النعمة، حيث قابل أهل سبأ هذه النعمة الثانية بالطغيان والجحود، فقد بطروا النعمة، وملُّوا العافية، واستمرؤوا الراحة، فطلبوا من الله تعالى أن يباعد بين قراهم المتصلة؛ ليمشُوا في الجبال والصحاري والفيافي، ويحملوا معهم الزاد للسفر ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ أي: اجعل قرانا متباعدة، ليبعُد سفرنا بينها، فلا نجد قُرى عامرة في طريقنا.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام (رَبَّنَا بَعِّدْ) فعل طلب، وقرأ يعقوب (رَبُّنَا بَاعَدَ) الأول مبتدأ، والثاني فعل ماض، والجملة خبر، وقرأ الباقون (رَبَّنَا باعِدْ) فالأول منصوب على النداء، والثاني فعل طلب.

ويمكن أن يكون قولهم هذا ردًّا على مواعظ أنبيائهم والصالحين منهم، الذين ينهوهم عن الشرك، كما فعل بنو إسرائيل، حين طلبوا استبدال المن والسلوى بالبصل والثوم والعدس.

ومن أكبر أسباب زوال النعم كفرانها، كما قال بعضهم[1]: ومن لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها.

وقد عجَّل الله لهم العقوبة بسبب ظلمهم لأنفسهم بالشرك والمعاصي ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ فأهلكهم الله لكفرهم وتكذيبهم رسل الله، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: قصة يتحدث بها السابق للاحق، وعبرة يعتبر بها مَن بعدهم ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: خرَّبنا بلادهم، وشتَّتناهم في أرجاء البلاد كل تشتُّت، فصاروا هنا وهناك، وأصبحت قصتهم مضرب المثل، فيقال: ذهبوا أيدي سبأ، أي: تفرقوا تفرُّق سبأ، بعد أن كانوا أمة واحدة يظلها الأمن والرخاء والاطمئنان والجاه

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إن فيما حلَّ بأهل سبأ لعبرة لكل صبار على المكاره والشدائد، شَكُور لأنعم الله عليه.

وفي حديث صهيب ﷺ: أن النبي ﷺ قال: **«عجبًا للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»**[2].

وآفة الناس أنهم يحسبون الغنى دليل الرضوان من الله تعالى، وأن المال إذا قلَّ عند الآخرين كان علامة على عدم القبول، ونسي الناس أن الله تعالى يَخْتبر بالعطاء وبالحرمان، وبالبأساء والضراء، وبالنعماء والخذلان، وأن النجاح يكون في الصبر على ابتلاء الإنسان إزاء أقدار الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

---

(١) الشيخ ابن عطاء الله السكندري.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٩٩) وهو في «المسند» (٣١/ ٢٦٤) (١٨٩٣٤) وغير هذا الموضع، بإسناد صحيح على شرط مسلم، وأخرجه ابن حبان (٢٨٩٦) والطبراني في الكبير (٧٣١٦) وفي الأوسط (٣٨٦١).

وأهل سبأ قد سقطوا في الامتحان عندما استهانوا بنعمة الله عليهم ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم].

وعندما تزول النعمة تذهب الوحدة، والصحة، والأمن، ويأتي أضدادها.

وقصة سبأ تحذر الناس من كفران النعمة حتى لا يحل بهم ما حلَّ بمن قبلهم.

١- قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص].

٢- وقال جلَّ شأنه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل].

٣- وقال عز شأنه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنبياء].

٤- وقال سبحانه: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج].

٥- وقال أيضًا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج].

وفي هذه القصة عدة عبر أشار إليها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾:

١- فَرَغَدُ عيشهم، وأَمْنُ أوطانهم، آية دالة على قدرته تعالى وإنعامه على خلقه.

٢- وفي إرسال سيل العرم عليهم آية دالة على انفراد الله تعالى بالتصرف.

٣- وفي انعكاس حالهم من الرفاهية إلى شظَف العيش، آية دالة على تقلُّب الأحوال.

٤- وعدم الاطمئنان إلى دوام الحال في الخير أو الشر آية من آيات الله تعالى.

٥- وفي حضارة العمران واتساع البلاد آية دالة على عظم السلطان وتصرُّف الأفعال.

٦- وفيما صاروا إليه من النزوح عن الأوطان والتشتت في البلاد، آية يعتبر بها العصاة والمذنبون.

وفي الجمع بين ﴿صَبَّارٍ﴾ و ﴿شَكُورٍ﴾ إفادة أن واجب المؤمن هو التخلُّق بالخُلُقيْن: الصبر على المكاره، والشكر على النعم.

وأهل سبأ لم يشكروا النعمة، ولم يصبروا على زوالها، فعمَّهم الجزع، وتفرقوا في البلاد.

وفي الآية دلالة على ضرورة تأمين الطرق وتعبيدها، وتيسير المواصلات، وتقريب البلدان؛ لتيسير تبادل المنافع وجلْب الأرزاق.

وفي الإجحاف بالنعمة، وعدم شكر الله عليها بتوحيده وطاعته والإحسان إلى خلقه، تعريضها للزوال، وتغيُّر أحوال أهلها.

من أجل هذا كان واجبًا على كل ولاة الأمور، في كل أمة من الأمم، أن يسْعَوْا جهدهم في تأمين البلاد، وحراسة السبل، وتيسير الأسفار، وتقرير الأمن في أرجاء البلاد بمختلف الوسائل، وهذا من أهم ما تُنفَق عليه الأموال، وعلى علماء الأمة أن يقدموا لهم النصيحة، ويرشدوهم إلى طريق الخير.

سُلْطَانُ الشَّيطَانِ عَلَى ضُعَفَاءِ الإيمَانِ

٢٠- ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ[1] عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾

نبَّه ﷻ المؤمنين في هذه الآية إلى مكائد الشيطان، وسوء عاقبة أتباعه؛ ليحْذرُوه ويستيقظوا لكيده، فلا يقعوا في إغوائه ووسوسته، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ لقد ظن إبليس ظنًّا غير يقين أنه سيضل بني آدم، وأنهم سيطيعونه في معصية الله، فصدق ظنه عليهم في قدرته على إغوائهم، وحقَّق ما يريده منهم بالانصراف عن طاعة الله تعالى بسبب انغماسهم في الفسوق والعصيان.

والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعود على الناس جميعًا ومنهم أهل سبأ.

قال تعالى مخبرًا عن إبليس: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

وقال تعالى عنه: ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى عنه ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص]

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتشديد الدال من (صدَّق) على التضعيف، والباقون بالتخفيف على أصل الفعل، وأدغم دال (لقد) في (صدق) أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف.

قال ابن قُتيبة: إن إبليس لما سأل النظرة، فأنظره الله تعالى، قال: لأغوينهم ولأضلنهم، ولم يكن مستيقنًا وقت هذه المقالة، أنَّ ما قاله فيهم سوف يتم، وإنما قاله ظنًّا، فلما اتبعوه وأطاعوه صدَق عليهم ظنه فيهم.

وقال الحسن: لما أهبط الله آدم من الجنة ومعه حواء، هبط إبليس فرِحًا بما أصاب منهما، وقال: إذا أصبتُ من الأبويْن ما أصبت، فالذرية أضعف وأضعف، وكان ذلك ظنًّا من إبليس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ فقال إبليس عند ذلك: لا أفارق ابن آدم ما دام فيه الروح، أعدُه وأمنِّيه وأخدعُه، فقال الله تعالى:

«وعزتي وجلالي لا أحجب عنه التوبة مالم يغرغر بالموت، ولا يدْعُوني إلا أجبْته، ولا يسألني إلا أعطيته، ولا يستغفرني إلا غفرت له» رواه ابن أبي حاتم(١).

ولهذا فإن الشيطان قد سوَّل للمشركين الشرك وألوان المعاصي وحسَّنها لهم، وكرَّه إليهم نصائح الناصحين، فصدَق عليهم ما توسَّمه فيهم، فقبلوا دعوته لهم وأعرضوا عن دعوة الصالحين ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ اتبعه الناس فيما دعاهم إليه من الضلال، باستثناء فريق منهم، هم المؤمنون المخلصون، فإنهم لم يتبعوه، وهم الذين ذكَرهُم الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

وفي قوله تعالى مخبرًا عن إبليس: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحجر].

فهؤلاء هم الذين ثبتوا على طاعة الله سبحانه. قال تعالى:

٢١- ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ۝٢١﴾.

بيَّن سبحانه في هذه الآية أن إغواء الشيطان لأهل سبأ ولغيرهم من سائر الخلق، لم يكن عن قهر وإكراه، وإنما كان عن اختيار منهم؛ ليتميز الخبيث من الطيب، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: وما كان لإبليس على الخارجين عن طاعة الله تعالى من قسْر ولا تسلُّط ولا إجبار، فهو لا يملك إلا الوسوسة والإغواء، فإبليس لم يقهر أحدًا على الكفر أو المعصية، وإنما كان منه الدعاء والتزيين.

---

(١) كما في «تفسير ابن كثير» (٦/ ٥١١) و«الدر المنثور» (١٢/ ٢٠٤).

قال الحسن: إنه لم يسِلَّ عليهم سيفًا، ولا ضرَبهم بسوط، إنما وعَدهم ومنَّاهم.

وهذا الإغواء من الشيطان لبني آدم، لحكمة أرادها الله تعالى؛ ليتميز من يُصَدِّق بالدار الآخرة فيعمل لها، ممن هو في شك وارتياب، وهذا معنى ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي: نُظهر عِلْمنا للخلائق، فتسجل الملائكة عليهم أعمالهم في صحائفهم، حتى تقوم الحجة عليهم، ويظهر ﴿مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾.

وقد اقتصرت الآية على تمييز من يؤمن بالآخرة ومن لا يؤمن بها؛ لأن جحود الآخرة قرين للشرك ومساوٍ له، فلو أنهم آمنوا بالآخرة لآمنوا بربهم الواحد الأحد، الذي لا شريك له ولا ولد، وإلا فإن عِلَل وسوسة الشيطان وإغوائه كثيرة، لا حصر لها، وكلها ترجع على تمييز الكافر من المؤمن، والمطيع من العاصي.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ فلا يخرج عن حفظه وهيمنته شيء، ومع حفظه لهم فقد ضلَّ من ضلَّ من أتباع الشيطان، وسلم بحفظ الله ورعايته من سلم من المؤمنين أتباعِ الرسل، وفي الآيات التالية:

خَمْسٌ مِنْ خَصَائِصِ الإِلٰهِ الحَقِّ

٢٢- ﴿قُلِ[١] ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا[٢] مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾

في هذه الآية تعجيز لأهل الشرك لإقامة الحجة عليهم، وذلك أنه بعد الحديث عن شرك أهل سبأ، وعبادتهم للشمس من دون الله، تسوق السورة، بأسلوب التلقين عددًا من الأدلة على وحدانية الله تعالى، وعظيم قدرته، ضمن القضية الأولى من قضايا القرآن المكي، وهي قضية التوحيد، فيأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن ينادي المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، فيخبرهم بأن هؤلاء الشركاء من: الأصنام، والكواكب، والملائكة، والبشر، لا يملكون شيئًا من خصائص الألوهية، ومن أهمها:

---

(١) قرأ عاصم وحمزة ويعقوب بكسر اللام من (قل ادعوا) على الأصل في التخلص من التقاء الساكنين، والباقون بضمها.

(٢) قرأ يعقوب بضم الهاء من (فيهما)، والباقون بكسرها.

١- أنهم لا يملكون مثقال ذرة في هذا الكون.

٢- وليس لهم مشاركة مع الله تعالى في هذا الكون.

٣- وليس لله تعالى مُعين من مخلوقاته.

٤- ولا تُقبَل الشفاعة عند الله تعالى إلا ممن أذن الله له في الشفاعة، ورضي عن المشفوع له.

٥- وليس في استطاعة الشركاء أن يرزقوا أحدًا، ولا أن يخلقوا ذبابة.

ولَمَّا كان من العرب صابئة، يعبدون الكواكب، وهي في زعمهم موجودة في السماء، أبطل الله تعالى هذا الزعم ببيان أن الشركاء، وهي الكواكب -كما يزعمون- لا تملك مثقال ذرة في السموات.

ولَمَّا كانوا يعتقدون أن الكواكب تؤثر في الأرض وتتصرف فيها، فقد نفى سبحانه هذا الزعم، بأنها لا تملك أيضًا مثقال ذرة في الأرض.

ومن العرب أيضًا من يزعم أن الأصنام شركاء لله تعالى في الإلهية، فنفى ذلك بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾.

ومنهم من يزعم أن الأصنام تشفع لهم عند الله، كما قال تعالى عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

فنفى الله ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

الخَاصِّيَّةُ الأُولَى: تَفَرُّدُ اللهِ تَعَالَى بِالمُلكِ وَالمَلَكُوتِ:

قل -أيها الرسول- للكفار وجميع المشركين بالله: ادعوا شركاءكم الذين عبدتموهم، وزعمتم أنهم آلهة من دون الله، ادعوهم اليوم ليجلبوا لكم الخير، أو يدفعوا عنكم الضر، إنهم بالقطع لا يستطيعون شيئًا من ذلك.

وهذا السؤال على سبيل التعجيز، فهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من خير أو شر، مهما قلَّ أو كثر، لا في العالم العلوي ولا في العالم السفلي، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

الخَاصِّيَّةُ الثَّانِيَةُ: نَفْيُ الشُّرَكَاءِ:

وبعد أن نفى سبحانه أن يكون لآلهتهم مُلْك مستقل، نفى أن تكون لهم المشاركة في شيء من هذا الكون، فقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا﴾ أي: في السموات والأرض ﴿مِن شِرْكٍ﴾ فهم لا يملكون شيئًا مستقلًّا، ولا على سبيل الشركة لغيره، لا في الخلق، ولا في الملك، ولا في التصرف، بل الكل خلقه وعبيده ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم]. ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف].

فليس للشركاء مِلْكٌ ولا شَركة في مِلْكٍ، بقي أن يقال: إن المَلِكَ يكون له أعوانًا ووُزراء يقضون حوائج من تعلق بهم، فنفى الله ذلك في الخاصية التالية:

الْخَاصِّيَّةُ الثَّالِثَةُ: نَفْيُ الْمُعِينِ الْمُؤَازِرِ:

ثم نفى سبحانه أن يكون له مُعين يعينه على تدبير أمور هذا الكون بما فيه ومن فيه، بل هو سبحانه الخالق لكل شيء، المتفرد بالإيجاد والإعدام، لا يحتاج إلى عون من أحد، وجميع الخلق مفتقر إليه ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: ليس له مُعين يُعينه ويناصره، فلَمْ يبق بعد ذلك إلا الشفاعة، ولهذا نفاها الله تعالى فيما يأتي:

الْخَاصِّيَّةُ الرَّابِعَةُ: نَفْيُ الشَّفَاعَةِ إِلَّا بِإِذْنِهِ تَعَالَى

٢٣- ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ[(١)] لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ[(٢)] عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

ثم نفى سبحانه أن تكون هناك شفاعة من أحد لأحد إلا بإذنه تعالى، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أي: لا يجترئ أحد على أن يشفع عند الله تعالى لأحد، في أمر من الأمور إلا بإذنه، وفي هذا إبطال لشفاعة الأصنام المزعومة.

وكذلك لا يقبل الله تعالى شفاعة نبي مرسل، ولا ملَك مقرب، ولا ولي صالح، إلا

---

(١) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف بالبناء للمفعول في (أُذِن له)، والباقون بالبناء للفاعل (أَذِن له).

(٢) قرأ ابن عامر ويعقوب بالبناء للفاعل في (فَزَّع) والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، أي: إذا أزال الله الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بالإذن، وقرأ الباقون بالبناء للمفعول، ونائب الفاعل (عن قلوبهم).

بإذنه سبحانه، فلا يوجد من يقبل الله تعالى شفاعته تعظيمًا له، أو حياء منه، فإن المشركين يزعمون أن شفاعة الأصنام لازمة، تعالى الله عن ذلك، قال تعالى:
﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر].

وقال سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال جلَّ شأنه: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

فأبطلت الآية رجاء المشركين في أن تشفع لهم آلهتهم المزعومة عند الله تعالى، فينتفعوا بشفاعتها.

وقد ذكر الله - سبحانه - شرط الشفاعة في قوله: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم].

وقوله ﷻ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ].

فلابد من إذن الله تعالى لمن يريد أن يشفع، ولابدّ من رضاه سبحانه عن المشفوع له.

وهكذا قطع الله تعالى أنواع العلائق بين المشركين ومن يتقربون بهم إلى الله، من البشر، أو الجن، أو الحيوان، أو الكواكب أو الحجر، فبيّن سبحانه أنهم لا يملكون لمن يعبدوهم نفعًا ولا ضرًا، ولا شريكًا للمالك، ولا عونًا له، ولا شفيعًا عنده، وبهذا يبطل الشرك كله، ويوم القيامة يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضًا، ويكونون لهم أعداءً!! لقد استكبر المشرك عن الانقياد لرسل الله، ورضى بعبادة من ضره أقرب من نفعه!!.

الشفاعة العظمى:

ثم بيَّن سبحانه الحالة التي يكون عليها المنتظرون للشفاعة يوم القيامة، من شِدَّة وقلَق ولَهْفة على قبول الشفاعة فيهم؛ كي يؤذَن لهم في الانصراف من أرض المحشر إلى الجنة أو النار.

والشفاعة في هذا الموقف العصيب، خاصة بسيد ولد آدم ﷺ، إظهارًا لمقامه الشريف بين الخلائق، يوم يقوم في الناس المقام المحمود، ليشفع في الخلق كلهم، كي يفصل الله بينهم،

فيقضي لأهل الجنة بالجنة، ولأهل النار بالنار، وذلك بعد أن يظل الناس في انتظار وترقُّب، لمن يؤذَن له في الشفاعة فيهم، وهم في فزع ورُعب وخوف، ألَّا يؤذن لأحد في هذه الشفاعة، وبعد أن يمضي عليهم وقت طويل وهم في هذا الانتظار الرهيب، يأتي الفرج من الله تعالى، فيأذن سبحانه لسيد الخلق أن يشفع فيهم، بعد أن يتخلى عن هذه الشفاعة سائر الرسل، معتذرين عنها بسبب أو بدون سبب، وعندئذ يزول الفزع والخوف عنهم.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: إذا زال الخوف عن قلوب الملائكة، فإنهم يسألون مَنْ فوقهم من الملائكة، ليتحققوا من هذه البشرى.

فالضمير في ﴿قُلُوبِهِمۡ﴾ عائد على الملائكة الذين عبدهم بعض المشركين، فنفى ﷻ أن تكون للملائكة شفاعة فيمن عبدوهم من دون الله تعالى كما يزعمون، ويُحتمل أن يعود الضمير على المشركين، إذا زال الخوف منهم ورجعوا إلى عقولهم، وهم أقرب مذكور في الآية.

فالمشركون يعترفون أنهم كانوا على باطل، ويقرون بتكذيبهم للحق الذي جاءت به الرسل، فقد بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل، وعلموا أن الحق لله واعترفوا بذنوبهم.

ولكن تظاهرت الأحاديث على أن ذلك الفزع، المذكور في الآية، يكون عند سماع الملائكة نزول الوحي بالأمر من الله تعالى على جبريل، كأنه سلسلة حديد على حجر أملس، فيقولون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾ أي: في أمر الشفاعة؟ فتجيبهم الملائكة: ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾ أي: إن الله تعالى أذن في الشفاعة للمؤمنين دون المشركين.

قال القرطبي: إن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة، وهم في غاية الشدة والفزع من أهوال يوم القيامة خوفًا من التقصير، فإذا سُرِّي عنهم قالوا للملائكة فوقهم: ماذا قال ربكم؟ أي: بماذا أمر؟ قالوا: الحق، أي: إنه تعالى أذن في الشفاعة للمؤمنين[1].

قال ابن عباس ﷺ: وصوت الوحي كصوت الحديد على الصفا.

كما جاء ذلك في حديث أنس ﷺ في الشفاعة العظمى لأهل المحشر كلهم؛ ليدخُل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

(١) «تفسير القرطبي» (١٤/ ٢٩٥) بتصرف.

وفي الحديث: أن الأنبياء أبَوْا أن يشفعوا، وكلٌّ منهم يقدم عذرًا، وأن أهل المحشر يأتون محمدًا ﷺ فيستأذن ربه في الشفاعة، فيقول له: **«ارفع رأسك، وسَل تُعط، واشفع تُشفع»** وحينئذٍ يقضي الله بالحق لكل أحد من الخلق بما يستحق، فلا يخفى عليه حال أحد، ولا يُمنع من الوصول إليه أحد، ولا يحول بينه سبحانه وبين أي أحد من خلقه حائل.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ أي: بذاته وقهره وعُلُوِّ قدْره بما له من الصفات العظيمة ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ على كل شيء، في ذاته وصفاته.

والنصف الأخير من هذه الآية وهو قوله تعالى على سبيل الحكاية على لسان الملائكة: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ هذه الكلمات القرآنية بذاتها هي الحوار الذي يدور بين الملائكة، وهي تتلقى الوحي من الله تعالى، فيسأل بعضهم بعضًا عن الكلام الذي بلغه بهذه الصيغة ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ﴾؟

١- كما في حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إذا قضى الله الأمر في السماء ضَرَبت الملائكة بأجنحتها خُضْعَانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير»**[1].

والحديث يصف تلقِّي الملائكة للوحي من الله تعالى.

ومعنى **«قضى الله الأمر»** أي: صدر منه الأمر الذي تتولى الملائكة تنفيذه، فيصل هذا الأمر إلى السماء التي هي مقر الملائكة، فتضرب بأجنحتها خشية وخوفًا من الله تعالى، فإذا زال الخوف عنهم تساءلوا عن الوحي المنزل.

٢- ومثله حديث ابن عباس ﷺ: **«أن الله تعالى إذا أراد أمرًا، سبَّح له حملة العرش، ثم سبَّح الذين يلونهم فالذين يلونهم، حتى ينتهي الخبر إلى سماء الدنيا»**[2].

٣- وفي حديث النواس بن سمعان ﷺ: أن النبي ﷺ قال: **«إذا أراد الله أن يوحي بأمره تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخَذت السموات منه رجفة -أو قال: رعدة شديدة- من خوف الله**

---

(١) يُنظَر: البخاري برقم (٤٨٠٠) وأبو داود برقم (٣٩٨٩) والترمذي برقم (٣٢٢٣) وابن ماجه برقم (١٩٤) والبيهقي (٤٣١).

(٢) يُنظَر: «المسند» (١/ ٢١٨) ومسلم برقم (٢٢٢٩) والترمذي برقم (٣٢٢٤) والنسائي في الكبرى برقم (١١٢٧٢).

تعالى، فإذا سمع بذلك أهل السموات صُعِقوا وخَرُّوا لله سجدًا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فيقول: قال الحق، وهو العلي الكبير، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي، حيث أَمَره الله من السماء والأرض»[١].

وفي الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام، وهي أكثر من خمسة قرون ونصف، لم تسمع الملائكة فيها صوت وَحْي، فلما بُعث محمد ﷺ كلَّم الله جبريل بالرسالة إليه، فلما سمعت الملائكة ذلك، ظنُّوا أنها الساعة؛ لأن بَعْثة محمد ﷺ عند أهل السموات من أشراط الساعة، فصُعِقوا مما سمعوا خوفًا من قيام الساعة، فلما نزل جبريل أخذ يمُرُّ بأهل كل سماء، فيرفعون رؤوسهم، ويقول بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ قالوا: قال الحق، أي: الوحي، وهو العلي الكبير[٢].

وهذه الأحاديث الثلاثة لا علاقة لها بتفسير الآية، وإنما هي تبيِّن صفة تلقي الملائكة للوحي، وقد سيقت بمناسبة قوله تعالى على لسان الملائكة: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾.

الخَاصِّيَةُ الخَامِسَةُ: الرِّزْقُ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ

٢٤- ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾

ويأتي السؤال الثاني في هذا السياق، حيث يأمر الله رسوله أن يسأل الكافرين المكذبين عن من يرزقهم من دون الله: هل تملك آلهتهم أن ترزقهم؟ إنها أحجار لا تعي، فكيف يُلتمس الرزق منها، وهل المرزوق يكون رازقًا؟

والمعنى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لجميع المشركين، واسألهم عن حجة شركهم: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فينزل عليكم الماء، ويخرج لكم الزرع والثمر، ويُدِرُّ لكم الضرع؟ إنهم -ولا بد- مقرون بأن الله سبحانه هو الخالق الرازق، كما أخبر تعالى عنهم

---

(١) «تفسير الطبري» ٢٢/٦٣ والحديث في كتاب «التوحيد» لابن خزيمة ص ٩٥ -٢٠٦ وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» برقم (٥١٥) وضعَّفه الألباني في «ظلال الجنة»، قلت: وله شواهد كثيرة صحيحة منها ما صحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٣٩٦٤) وحديث أبي هريرة المذكور.

(٢) من «تفسير الخازن» (٣/٤٨٨) وأخرجه عبد الرزاق (٢/ ١٣٠) عن قتادة والكلبي، وابن أبي حاتم عن قتادة وحده.

في قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

فإذا كنتم مقرين بهذا، فلم تعبدون معه ما لا يملك رزقا ولا حياة ولا نشورا؟

فإن لم يقروا بألسنتهم، فتولَّ أنت -أيها الرسول- الإجابة عنهم ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ الله وحده هو الذي يرزقكم، قل لهم ذلك لِتُشْعِرَهم بأنهم مقرون بذلك بقلوبهم، ولكنهم يخافون من إقامة الحجة عليهم.

وفي هذا السؤال إقامة للحجة عليهم، وإلزامهم بالإقرار، وما دام الله تعالى هو الرازق، فهو الذي يستحق العبادة وحده، ويستحق الشكر وحده، وهذا يستلزم انفراده تعالى بالألوهية.

في أَدَبِ الْحِوَارِ

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

وهذا الحوار المتعلق بوحدانية الله تعالى وتدبيره شؤون خلقه، يدور بين **فريقين**، هما: **المتكلِّمون**، وهم أهل الهدى. **والمخاطَبون**، وهم أهل الضلال.

وقد أشار سبحانه إلى أن أحد الفريقين على هُدًى أو على ضلال، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: فأحد الفريقين مُحِقٌّ، والآخر مُبْطِل، وهذا نهاية اللطف، والإنصاف مع الخصم، فقد أخرج الكلام مخرج الشك، مع أن من عَبَد الله وحده فهو المهتدي، ومن عبد غيره من جماد أو بشَر أو ملَك فهو الضال، وهذا أبلغ من الرد بالتصريح، ومن شأنه أن يحمل القلوب النافرة عن الحق إلى الاستسلام والدخول في ساحة الهدى، وستعلمون -علم اليقين- بعد التفكر والتدبر أننا على الحق، وأنتم على الباطل، وهذا كما تقول للمخالف: تثبَّت وتنبَّه، والمفهوم أن المخالف هو المخطئ.

وهذا الكلام يقوله من تبين له الحق، فجزم أنه على صواب، وأن خصمه على باطل، قال تعالى:

٢٥- ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

ولما كان الضلال يأتي بالإجرام، أمر الله رسوله أن يقول للمكذبين: إذا نحن أجرمنا، فأنتم غير مؤاخَذين بِجُرْمنا، وإذا أنتم عملتم عملًا باطلًا فنحن غير مؤاخذين به، فكل فريق منا مؤاخَذ بعمله دون عمل غيره.

فالأجدى أن ينظر كلٌّ منا: أيُّ الفريقين أحق بالفوز والنجاة عند الله؟
وليكن هدفه طلب الحق والانتصار له.

وفي هذا تعريض للمجرمين بأن يغيِّروا أعمالهم، فيؤمنوا بالله بعد كفرهم، فأنتم لا تُسألون عن ذنوبنا وإجرامنا، ونحن لا نُسأل عن أعمالكم؛ لأننا بريؤون منكم ومِنْ كُفْركم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس].

فلن أعبد ما تعبدون حالًا ولا مستقبلًا، وأنتم كذلك، ولا تؤاخَذون عمَّا ارتكبنا من إجرام، ونحن كذلك لا نؤاخذ بما اقترفتم من ذنوب، وكلٌّ منا يُعاقَب بجرمه.

ومع ذلك فقد جاء الإجرام مسندًا إلى أهل الهدى، والعمل مسندًا إلى أهل الضلال، وهذا في غاية اللطف والإنصاف؛ إذ إن كلًّا من الفريقين مسؤول عن عمله ومؤاخَذ به.

وهذا الإسناد على حدِّ زعم المخاطبين، فهم يزعمون أن المهتدين هم المجرمون، وهكذا كانوا يقولون عنهم في الدنيا، كما أخبر سبحانه في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين].
أما أعمال العباد فإن لها دارًا أخرى، يحكم الله فيها بين عباده، ويفصل فيها بين المختصمين، قال تعالى:

٢٦- ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾

وفي يوم القيامة، يجمع الله بين الأولين والآخرين، ويحكم بينهم حكمًا يتبيّن فيه الصادق من الكاذب، والمستحق للثواب من المستحق للعقاب، وهكذا:

فإنّ في هذه الآية إخبار ببعث الخلق من القبور، وجمعهم يوم القيامة في صعيد واحد، وقد بيَّن سبحانه أن الذي يسأل الناس عن أعمالهم ويفصل بينهم يوم القيامة هو رب العالمين، فيجازي المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء على إساءته.

﴿قُلْ﴾ يا محمد للمكذبين بالله ورسوله، المنكرين للبعث والنشور: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ ويجمع بينكم يوم القيامة، ثم يقضي بيننا بالحق والعدل ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ أي: الحاكم بين خلقه بحكمه العادل ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم وما ينبغي أن يقضي به، فهو سبحانه يعلم حقائق الأمور، لا تخفى عليه خافية، كما قال تعالى على سبيل الحكاية: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

فالفتح هو الحكم والقضاء الفصل، والله - سبحانه - هو الفاتح، أي: الحاكم العادل الذي لا يظلم أحدًا ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم].

وقد تبيَّن بهذا أن الله تعالى هو الذي يسأل الناس، وهو الذي يحكم بينهم يوم القيامة، ويفصل بين أهل الحق والضلال. قال تعالى:

٢٧- ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

ويأتي الأمر المجدد للبلاغ بلفظ: ﴿قُلْ﴾ للمرة الخامسة في هذه الآيات المتابعة، ليختم به هذا التوجيه لرسوله ﷺ، ولكل داع إلى دين الله إلى يوم القيامة.

﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول للمشركين وكذلك الدعاة من بعدك ﴿أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾ أي: أروني بالحجة والدليل، أو أطلعوني على الذين ألحقتموهم بالله، وجعلتموهم شركاء له في العبادة، أين هم في ساحة العدل الإلهية؟ أين السبيل إلى معرفتهم، هل هم في الأرض، أم هم في السماء؟ إن عالم الغيب والشهادة أخبرنا أنهم ليس لهم وجود ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨] قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يونس]، وهل هؤلاء الشركاء خَلَقوا شيئًا حتى تشركوهم مع الله تعالى في العبادة؟

والمقصود: إشهاد المشركين على عجز هذه الآلهة المزعومة، وتبكيتهم على جهالتهم، وحضهم على ترك الشرك بالله، وإخلاصهم العبادة لله الواحد القهار.

ولفظ: ﴿أَلْحَقْتُم﴾ مشعر بأن هذه الآلهة ليست أصلية قديمة، وإنما ألحقها واخترعها (عَمْرو بن لُحيٍّ) ولم تكن الأصنام موجودة عند العرب من قبل، فأين هي اليوم؟ أروني إياهم؟ ما صفتهم؟ وما مكانتهم؟ وبأي شيء استحقوا العبادة؟ هل خَلَقوا شيئًا؟ هل رَزَقوا

أحدًا؟ هل أحيوْا؟ هل أماتوا؟ إنه استنكار عليهم وتوبيخ لهم، وإلزام لهم بالحجة.

ويأتي الرد حاملًا للردع لهم، والزجر لأقوالهم وأفعالهم الشركية، وإثبات الوحدانية للإله الحق ﴿كَلَّا﴾ ليس له شريك ولا ضد ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ووصفوا، بل الله وحده هو المعبود بحق دون سواه، لا شريك له ولا نِدَّ ولا نظير، وهو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ممن أشرك به، الغالب على أمره، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله وتدبيره شؤون خلقه.

وقد تدرَّج هذا الجدل في الآيات المبدوءة بـ﴿قُلْ﴾ من التلميح، إلى الإشارة، إلى التصريح، على سبيل الترقي، وأخَّر الاستفسار إلى آخر المناظرة، ليُفضي إلى إبطال دعوى الخصم بحذافيرها، وليكون كل دليل قبله مناديًا على خطأ الخصم وباطله[١]، وإرخاء العنان للخصم، فيه تخجيل له وإلزام له بالحجة.

الرِّسَالَةُ الْعَالَمِيَّةُ

٢٨- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

هذا إعلام من الله تعالى بأنه بعث محمدًا ﷺ إلى جميع العالم وكافة البشر، ليبشر وينذر، ويرغب ويرهب، ويدعو إلى وحدانية الله تعالى، حيث تنتقل الآيات من ضلال المشركين في شأن الإله الحق، إلى ضلالهم في شأن الرسول ﷺ، وهذه الآيات التالية تتناول جانبًا كبيرًا من قضية الإيمان باليوم الآخر.

وتبدأ الآية بالرد على من يزعمون أن محمدًا ﷺ رسولٌ إلى العرب خاصة، فيقول سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا رسولنا ﴿إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ أجمعين: عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم، على اختلاف ألسنتهم وأجناسهم وجنسياتهم وألوانهم:

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].

فرسالتك -أيها الرسول - عامة للخلق جميعًا، الإنس والجن وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان].

---

(١) يُنظَر: «تفسير الطاهر بن عاشور» (٢٢/١٩٦).

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

وكل رسول أرسله الله تعالى بلسان قومه ليتيسر لهم التلقي عنه، قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم].

أما أنت يا محمد، فقد أُرسلت إلى كافة البشر، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم.

واختيرت العربية من بين اللغات؛ لتكون منطلقًا إلى ألسنة العالم، وانطلقت الرسالة من مكان يتوسط العالم.

«وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبعثتُ إلى الناس عامة»[1].

وفي الحديث، عن جابر ﷺ: **«بُعثت إلى الأسود والأحمر»**[2].

أي: العرب والعجم، والإنس والجن.

ومهمتك -أيها الرسول- أن تبشر المؤمن بجنات النعيم، وتنذر الكافر بعذاب الجحيم.

أما حقيقة أن يكون العبد من الْمُبشَّرين بالجنة، أو من الْمُنذَرين بالنار، فمردُّهُ إلى الله تعالى، وعلمه عنده ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحق فهم معرضون عنه، جهلًا أو عنادًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف].

وقال ﷻ: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦].

والمراد بالناس في الآية: الكافرون، الذين لا يعلمون الحق، فيحملهم جهلهم على ما هم فيه من الغي والضلال. قال تعالى:

٢٩- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

هذه الآية لحكاية ما يقوله المنكرون للحساب والجزاء على وجه التكذيب والاستبعاد، فمن أعظم ما أنكره الكفار، ما جاءهم به الرسول ﷺ من ذكر البعث والنشور، ومن

---

(١) من حديث جابر في البخاري برقم (٣٣٥) ومسلم برقم (٥٢١) وابن المنذر عن أبي هريرة.

(٢) من حديث جابر عند مسلم برقم (٥٢١) والحاكم عن أبي ذر (٢/ ٤٢٤) وعند أحمد عن ابن عباس (٤/ ٤٧١) (٢٧٤٢) قال محققوه: إسناده حسن، والطبراني (١١٠٤٧).

جهلهم ما قررته هذه الآية ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: المشركون المكذبون، على سبيل الاستهزاء والسخرية: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الذي تعدُنا به من أن الله تعالى يجمعنا فيه ويقضي بيننا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تعدوننا فأْتُوا به.

قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى].

ثم قال تعالى مؤكدًا وقوعه في لحظة معينة:

٣٠- ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يرد عليهم بألا يتعجلوا، فإن ما وعدّهم الله به من الحساب والجزاء في يوم القيامة آت لا محالة، وإن لهم وقتا محدّدا، ويوّما معلوّما، لا يتقدمون عنه ساعة ولا يتأخرون، وعلمه عند الله وحده، قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود]. فاحذروا ذلك اليوم، وأعدوا له عدته.

وليس المراد بلفظ الساعة: هذا الوقت المحدد بستين دقيقة، وإنما المراد: لحظة محددة من الزمن، هو لحظة قيام الساعة.

مَنْطِقُ أَهْلِ الإِلْحَادِ وَالْعَلْمَانِيَّةِ

٣١- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

ويمتد إنكار المكذبين للبعث والحساب والجزاء، من إنكارهم له في الكتب السابقة، إلى إنكارهم له في الماضي والحاضر عبر الأجيال والقرون، فهم لن يؤمنوا بما في هذا القرآن، ولم يؤمنوا بما جاء قبله في الكتب المنزلة من عند الله تعالى الدالة على البعث والنشور، من: التوراة والإنجيل والزبور، فقالوا: ولن نؤمن أيضًا بشيء يأتي بعد هذه الكتب، لأنهم لا يؤمنون بالوحي المنزل على رسل الله جملة وتفصيلًا، وهذا مفهوم من السياق، فقد كذّبوا بجميع كتب الله، وأصروا على رفض مصادر الهدَى جميعًا، فهم غير مستعدِّين للإيمان به، لا اليوم، ولا غدًا، ولا بعد غد، وهم لن يؤمنوا بهذا الكتاب ولا

بذاك، ولن يؤمنوا بهذا الرسول ولا بذاك ، ولن ينظروا في دلائل الهُدَى أبدًا.

وكما كفروا بجميع الكتب وجميع الرسل، كفروا بالتوحيد والرسالة والحشر والنشر، فهم منكرون للتوحيد، منكرون للنبوات، منكرون للبعث والحساب، مصرون على عدم الإيمان بهذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، ومصرون على عدم الإيمان بالكتب السماوية التي بشرت بمحمد ﷺ ووقع الاحتجاج بها عليهم، فهم مصممون على الباطل مهما تعددت مصادر الحق.

وهذا الإنكار من المكذبين للرسالة والوحي، قد مرَّ بمراحل متعددة، سلكوا فيها طرائق مختلفة لقمع الدعوة الإسلامية، وإبطال رسالة محمد ﷺ، فمن ذلك:

١- أنهم لما جاء الإسلام اضطربت أقوالهم، فقالوا **أوّلًا**: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]. فأنكروا القرآن، وأنكروا صاحب الرسالة.

٢- ثم لجؤوا إلى اليهود في خيبر وقريظة والمدينة؛ ليأخذوا منهم ما يُفحمون به محمدًا ﷺ، فأملى اليهود عليهم ما يُموِّهون به على الناس عدم صحة الرسالة:

(أ) فقالوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص].

مع أنهم كفروا بما نزل على موسى، وهم لا يحتجون بموسى، إيمانًا منهم بصحة رسالته، ولكنهم يجعلون ذلك وسيلة لإبطال رسالة محمد ﷺ.

(ب) وقالوا مرة أخرى: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣].

(ج) وكثيرًا ما قاسوا محمدًا ﷺ على سائر البشر، ولم يميزوه بالوحي، فقالوا:

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

(د) ولما دمغتْهم حجج القرآن بأن محمدًا ليس بدعًا من الرسل حاجَّهم الله بقوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٩﴾ [القصص].

فلما لم يجدوا سبيلًا للإنكار، قالوا للنبي ﷺ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

الحوارُ بَيْنَ الرُّؤَسَاءِ وَالأَتبَاعِ فِي عَرَصَاتِ القِيَامَةِ

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾.

وبعد أن استوفت الآيات أصناف الكفار وأقوالهم، أردفت ذلك بذكر جزائهم في الآخرة، وتصوير فظاعته، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لو شاهدت يا محمد، حال الظالمين لأنفسهم بالشرك والكفر، وإنكار البعث والحساب والجزاء، لو شاهدتهم في موقف الحساب يوم القيامة، وهم محبوسون عند ربهم، يلوم بعضهم بعضًا على ما كان منهم في الدنيا، فتنكشف العلاقةَ بينهم وبين من كانوا يُحِبُّون التفاف الناس حولهم، وخفْقَ الأقدام وراءَهم، وتقبيل الأيدي والجِباه منهم، ممَّن كانوا يَعْشقُون الذل، ولا يُحْسنون إلا الجرْي وراء الكبار.

والثراء والفقر، والقوة والضعف، من أكبر العوامل في ذلك.

وفي ساحة العرض يظهر ما كان مستورًا، ويتضح ما كان مخبوءًا، فيكون الخصام والحوار بين أهل النار، ولكنه لا يطول؛ لأن خزنة النار يَحْسِمُون الموقف.

ووقوف المجرمين طويلًا بين يدي الله تعالى أمْر يستوجب الضجر، ويملأ القلوب رعبًا، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ [المزمل].

وقوله ﷺ في وصف أهل المحشر: **«تدنو الشمس من رؤوس الخلائق فيشتد عليهم حرُّها، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا»**[1].

وفي هذا الموقف: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ أي: يتحاورون ويتراجعون الكلام فيما بينهم، كلٌّ يُلقي باللوم والعتاب على الآخر في ضلاله عن طريق الهدى والإيمان، لو أبصرت ذلك -أيها المخاطب- لشاهدت أمرًا عجيبًا وشيئًا فظيعًا ترتعد له

(١) من حديث أنس وأبي هريرة في الصحيحين في باب الشفاعة، وانظر: صحيح الترهيب برقم (٣٥٨٧) عن المقداد ﷺ بنحوه.

الفرائص، وتتفطر منه القلوب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص].

ثم فصَّل سبحانه جانبًا من حوارهم وتلاوُمِهم حيث يقول المستضعفون من الفقراء والأتباع وعامة الناس، للمستكبرين من القادة والزعماء والرؤساء والأثرياء: لولا إضلالكم لنا لكنا مهتدين.

إنهم يقولون ذلك بغيظ وحسْرة في موقف الحساب يوم القيامة، وقد كانوا في الدنيا عاجزين عن ذلك؛ لأنهم كانوا أذلاء لهم، خاضعين لسطْوتهم وسلْطانهم.

ومقتضى ذلك أن المستضعفين ادَّعوْا أن وجود المستكبرين كان مانعًا لهم من الإيمان، وقد جاء ذلك في غير هذا الموضع من القرآن، في مثل قوله تعالى:

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب].

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [فصلت].

وهم يتقطعون ندمًا وحسرة على أنهم ساروا في ركابهم، وتأثروا بهم في ضلالهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان].

وهنا يجيب الرؤساء على المستضعفين في استنكار وضيق:

٣٢- ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾

أي: فيقولون لهم على سبيل التوبيخ والتقريع: أنحن منعناكم عن الإيمان، وحُلْنا بينكم وبين التوحيد واتِّباع الحق بعد أن اهتديتم؟

والجواب: لا، ليس الأمر كما تقولون، بل إن الإجرام متأصل فيكم، فأنتم قد اتبعتمونا باختياركم، ورضيتم بالضلال طواعية، فكيف تتبعون غيركم دون إعمال فكر ولا نظر؟ وتمضي الآيات في تكملة الحوار، فيقول تعالى:

٣٣- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

لم يقتنع الضعفاء بما قاله لهم السادة الكبراء، فيردُّون عليهم للمرة الثانية قائلين: لقد كنتم دائبين مستمرين في إغوائنا ليلًا ونهارًا، تُحسِّنون إلينا الكُفر، وتطلُبون منا أن نكفر بالله ونجعل له شركاء في العبادة، وتُلِحُّون علينا في ذلك، وتدبرون لنا الشر والحِيَل، حتى أوقعتُمونا في التَّهلُكة، ولولا تزيينكم الباطل لنا ما كفرنا ولا أشركنا.

وقد سُمِّي هذا الإغواء مكرًا، وأُسنِد إلى الليل والنهار؛ لأنه وقع فيهما.

وأخفى كلٌّ من الفريقين الحسرة والندامة في نفسه على ترك الإيمان بالله واليوم الآخر حين رأوا العذاب، وهذا معنى ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ لقد تخلّوْا عن هذا الجدال، وأيقنوا أنهم ظالمون مستحقون للعذاب، فندموا غاية الندم، وتمنّوْا أنهم لو كانوا في الدنيا على حق.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام].

إنها حالة من الكمد الذي يَدْفِنُ الكلمات في الصدور، فلا تتفوّه به الألسنة، ولا تتحرك به الشفاه، وهذا الندم يحصل في مواقف عدة.

منها قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفرقان]

ومنها قوله تعالى عنهم ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك].

وقد أعلن الظالمون هذه الحسْرة التي كانوا يُسرونها في أنفسهم فأظهروها فيما بعد، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: ٣١].

وكما قال سبحانه عنهم: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزمر].

إن الحوار بين الفريقين يوم القيامة، حوار بائس، لا يُنجِّي الضعفاء ولا الكُبراء، فلكلٍّ إثمه وجريمته، يتحمل تبعة نفسه، فاستحقوا العذاب جميعًا، وقد أصابهم الكمد والحسرة، وهم يروْن العذاب أمام أعينهم مهيَّأ لهم ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم إلى أعناقهم، زيادة في تعذيبهم جميعًا، سواء مَنْ كان منهم تابعًا، أم مَنْ كان متبوعًا.

وهذا النوع من التعذيب جاء في مثل قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ﴾ [الرعد].

وقوله سبحانه: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر].

وقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة].

يقول سبحانه معقبًا على هذا المشهد: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إنهم لا يُعَاقبون بهذا العقاب إلا بسبب كفرهم بالله تعالى وإصرارهم على الجحود والعناد، وعملهم السيئات في الدنيا.

وفي الآية تحذير شديد من متابعة أهل الضلال وأئمة الطغيان.

المُتْرَفُونَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ يَرْفُضُونَ الْوَحْيَ الْمُنَزَّلَ

٣٤- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يخبر سبحانه أن حال المكذبين لرسول الله ﷺ في الوقت الحاضر، كحال من سبقهم من الأمم الماضية المكذبة لرسل الله، فما من رسول أرسل في مدينة من المدن إلا كفر به مترفوها وطغاتها، ذلك أن الذين تمردوا على رسل الله فكذبوهم، هم كبار القوم من الأغنياء المترفين في كل أمة، ومع كل رسالة، فهم الذين يبادرون إلى تكذيب الرسل؛ لأن الترف يبعث على الغرور والتطاول، ويدعو إلى التحلل من القيم والفضائل، والذين سقطوا في امتحان النعَم كثيرون، وإن أُممًا بَطِرَتْ معيشتها، فكان مِنْ أول ما فعلت: أن

خاصمت الوحي، وعادت الرسل، وزعمت أن ما لديها من المال والبنين دليل علَى رِضَا الله تعالى عنهم في الدنيا، ولو كانت هناك دار أخرى، فإنهم سيكونون فيها أكثر سعادة، على حد زعمهم.

والمعنى: إنّا لم نَبعث في أمة من الأمم رسولًا من الرسل، يدعوهم إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، ويخوفهم عذاب الله إن لم يؤمنوا، إلا قال المنغمسون في الملذات والشهوات من أهلها: إنا بالذي جئتم به - أيها الرسل - جاحدون، فلن نؤمن برسالتكم، ولن نصدق بما تقولون.

وهكذا: فالمترفون والجبابرة وأهل الشر، هم الذين يبادرون إلى تكذيب الأنبياء في كل زمان ومكان.

وذلك لأن المال هو فتنة الأمم في الماضي والحاضر والمستقبل في غالب الأحيان، وبدل أن يُحْسن كثير من الأثرياء التصرف فيما أعطاهم الله تعالى من النعم، طغوا على الفقراء والضعفاء، وعادوا الدعاة والمصلحين، وعابُوا على رسل الله أن يكون أتباعهم من الضعفاء والفقراء.

كما قال قوم نوح عليه السلام له: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء].

وكما قال قوم ثمود لنبيهم صالح عليه السلام: ﴿إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف].

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٣].

ويقرر سبحانه هذا المعنى في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣].

وفي إيمان الضعفاء والفقراء، فتنة وابتلاء للمترفين والمتكبرين، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣].

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على ما مُني به من تكذيب قومه، وكُفرهم بما جاء به.

أخرج ابن أبي حاتم، وغيره عن رُزَيْن قال: كان رجلان شريكان، خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر، فلما بُعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل محمد ﷺ؟ فكتب إليه أنه لم يتْبعه أحد من قريش، إنما اتّبعه أراذل الناس ومساكينهم، فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال: دلني عليه -وكان يقرأ الكتب، فأتى النبي ﷺ فقال: إلام تدعو؟ قال: **«إلى كذا وكذا»**، قال: أشهد أنك رسول الله، قال: **«وما عِلْمُك بذلك؟»** قال: إنه لم يُبعث نبي إلا اتَّبعه رَذالةُ الناس ومساكينهم، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

قال: فأرسل إليه النبي ﷺ: **«إن الله قد أنزل تصديق ما قلت»**[١].

وهكذا قال هرقل لأبي سفيان لما سأله عن النبي ﷺ قائلًا: سألتك، أضعفاء الناس اتَّبعه أم أشرافهم؟ فزعمتَ: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل.

قال أبو حيان: نصَّ الله تعالى على المترفين، لأنهم أول المكذبين للرسل لِمَا شُغلوا به من زخرف الدنيا، وما غَلَب على عقولهم منها، فقلوبهم أبدًا مشغولة منهمكة، بخلاف الفقراء، فإنهم خالون من ملذات الدنيا، فقلوبهم أقبل للخير، ولذلك كانوا أتباع الرسل[٢]. قال تعالى عن المترفين:

٣٥- ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾

تقرِّر هذه الآية أن الجاه وكثرة الأموال سبب رئيس في الكفر والطغيان، فتشير إلى أن هؤلاء المترفين لم يكتفوا بإعلان كفرهم، وتكذيبهم لرسل الله، بل إنهم جعلوا كثرة أموالهم وأولادهم في الدنيا، حجة على أن لهم حظًّا عند الله، وأنهم على حق في مواقفهم، وأنهم لن يُعذَّبوا في الآخرة؛ لأن من كان سعيدًا في الدنيا فهو سعيد في الآخرة -على حد زعمهم.

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ أي: أكثر مالًا وجاهًا من هؤلاء الضعفاء الفقراء،

---

(١) «الدر المنثور» (٦/ ٧٠٤) عن ابن أبي شيبة وابن المنذر أيضًا.

(٢) «البحر المحيط» (٧/ ٢٨٥).

ولولا أننا أحب إلى الله تعالى منهم، وأفضل لما أعطانا الله هذه النعم، فهي دليل الرضى، وإن الذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا سيعطينا أكثر منه في الآخرة ولا يعذبنا!!

والله سبحانه ينفي هذا الزعم في مثل قوله سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ۝﴾ [التوبة].

وليست الأموال ولا الأولاد هي التي تقرب العبد إلى الله زلفى، إنما يقربه الإيمان والعمل الصالح، والعبد لا يدري أيّ الأبناء أنفع له، بل إن الله تعالى يقرر في كتابه أن من الأبناء والأزواج ما يكون فتنة وبلاء للعبد، وأكبر من ذلك فقد يكون الابن عدوًّا لأبيه!!

وهكذا فقد زعم بعض أرباب الأموال، أن الله تعالى كما أعطاهم الثراء في الدنيا، فلن يعذبهم في الآخرة، فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝﴾ لأن الله راضٍ عنا، ومن ذلك قوله تعالى على لسانهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

بَسْطُ الرِّزْقِ وَقَبْضُهُ لِلنَّاسِ كَافَّةً، ابْتِلَاءٌ وَاسْتِدْرَاجٌ

٣٦- ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝﴾

ثم إن الله تعالى صحّح لهؤلاء المترفين خطأهم، وكشف لهم عن جهلهم، وبيّن أن الثواب والعقاب لا يخضعان للغنى والفقر، ولكن يخضعان للإيمان والكفر، فالله تعالى يوسّع الرزق لمن يشاء، ويضيّقه على من يشاء، ويعطي المال لمن يحب ولمن لا يحب، وقد يغدق الله - سبحانه - الرزق على من هو غاضب عليه، وقد يغدقه على من هو راضٍ عنه، وربما يوسّع رزق العاصي، ويضيّق رزق المطيع، وربما يوسّع على إنسان في وقت، ويضيّق عليه في وقت آخر، وكل هذا وفق حكمة الله تعالى في تدبير شؤون خلقه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حيث زعموا أن سعة الرزق دليل الشرف والكرامة، وأن ضيق العيش دليل الذل والمهانة، ولم يدركوا حقيقة الابتلاء والاستدراج، فبسْطُ الرزق وتضييقُه بالنسبة للكافر والمؤمن، والطائع والعاصي معلق بمشيئة الله تعالى وفق حكمته سبحانه في خلْقه، فقد

يكون هذا ابتلاء أو استدراجًا، ونحو ذلك، وليس فيه دليل على رضى الله تعالى أو سخطه.

الْقُرْبُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى يَكُونُ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَلَيْسَ بِالْمَالِ وَالْوَلَد

٣٧، ٣٨ - ﴿وَمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَلَا أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ[1] ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ[2] ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ[3] أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

أي: ليست الأموال والأولاد التي تفتخرون بها -أيها الناس- هي التي تقربكم عند الله تعالى وترفع من درجاتكم، ولكن الذي يقربكم منه سبحانه هو الإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فالإيمان بالله واليوم الآخر هو الذي جاءت به جميع الرسل، والعمل الصالح من لوازم الإيمان، وإلى جوار ذلك أنفق العبد من ماله على نفسه وأهله وولده، من غير إسراف ولا تقتير، وأنفق منه في سبيل الله ووجوه الخير، وعلَّم ولده الخير وأدَّبه، فإن هذا هو الذي ينجيكم من عذاب الله، ويرفع من درجاتكم، ويضاعف حسناتكم، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله.

قال قتادة: لا تعتبروا الناس بكثرة المال والولد، فإن الكافر يُعطَى المال، وربما حُبس هذا المال عن المؤمن[4].

وفي صحيح مسلم وغيره: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**[5].

---

(١) قرأ رويس بنصب (جزاءً) مع التنوين، وكسره وصلًا، حتى لا يلتقي ساكنان، والنصب على الحال من الضمير المستقر في الخبر المقدم، و (الضعفُ) بالرفع مبتدأ مؤخر، وقرأ الباقون برفع (جزاءُ) من غير تنوين، مبتدأ مؤخر، و (الضعفِ) بالجر على الإضافة.

(٢) قرأ حمزة بإفراد (الغرفات) مع تسكين الراء، وقرأ الباقون بالجمع مع ضم الراء.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بحذف الألف من (معاجزين) مع تشديد الجيم، والباقون بإثبات الألف وتخفيف الجيم.

(٤) الطبري (١٩/ ٢٩٦) بتصرف.

(٥) «صحيح مسلم» (٢٥٦٤) وابن ماجه (٤١٤٣).

وكان طاوس يقول: اللهم ارزقني الإيمان والعمل، وجنِّبني المال والولد، فإني سمعت فيما أوحيتَ: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾.

وقد أوضح القرطبي هذا المعنى بأن المراد بدعاء طاوس: أن يجنِّبه الله المال والولد إذا كان فيهما طغيان، أما المال الصالح للرجل الصالح فنِعْمَ هو[1].

وقال محمد بن كعب: إذا كان المؤمن غنيًّا تقيًّا آتاه الله أجره مرتين[2].

والمؤمنون الصالحون، في منازل عالية في الجنة، مطمئنون منعَّمون، آمنون من عذاب الله، آمنون عند الموت ومن جميع الأحزان، آمنون من المكدِّرات والمنغصات.

وعن عليٍّ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن في الجنة لَغُرَفًا يُرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها**»، قالوا: لمن هي؟ قال: «**لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلَّى بالليل والناس نيام**»[3].

أما الذين يسعون جاهدين لإبطال حججنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا، ويسعون في صد الناس عن اتباع رسل الله، محاولين أن يغلبونا ويعجزونا، فهؤلاء تحضُرهم الزبانية إلى نار جهنم، فيعذبون فيها يوم القيامة.

بَسْطُ الرِّزْقِ لِلْمُؤْمِنِ يَتَطَلَّبُ الْإِنْفَاقَ مِنْهُ

٣٩- ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾

ولما بيَّن سبحانه أنه يبسط الرزق لغير المؤمنين في الآية السابقة المماثلة لهذه الآية، وهم الذين لم يشرُفوا بالإضافة إلى الله تعالى فيها، بعد ذلك امتنَّ الله على عباده المؤمنين الذين شرفهم بالإضافة إليه سبحانه في هذه الآية في قوله: ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ امتنَّ

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٤/ ٣٠٥) بتصرف.

(٢) الحكيم الترمذي (٢/ ٢١٢) بتصرف.

(٣) ابن أبي شيبة (٣/ ١٠١) و«صحيح الترمذي» بإسناد حسن، وفي مشكاة المصابيح (١٢٣٣) (٢٠٥١). والمسند (١٣٣٨) وهو حديث حسن لغيره (محققوه) وأخرجه البزار (٧٠٢) وأبو يعلى (٤٣٨) وابن أبي شيبة (٨/ ٦٢٥).

عليهم بسعة الرزق، فجمَع لهم بين فضل الإيمان والعمل الصالح، وبسط الرزق، وفيه تسلية لمن قدَّر الله عليهم أرزاقهم من أهل الإيمان والعمل الصالح، بأنهم نالوا فضْل الإيمان وفضْل الصبر على ضيق العيش.

هذا ولما بيَّن الله - سبحانه - أن الإيمان والعمل الصالح، هو الذي يقرِّب العبد إلى ربه، ويكون مؤديًا إلى تضعيف حسناته، بيَّن سبحانه أن نعيم الآخرة لا ينافي سعة الرزق في الدنيا، بل الصالحون قد يُبسط لهم الرزق في الدنيا مع ما لهم في الآخرة من الجزاء الأوفى، والمثوبة الحسنى بمقتضى الوعد الإلهي[1].

وقد كُرِّرَت هذه الآية، بقصد ترغيب المؤمنين في النفقة الواجبة والمستحبة على مستحقيها من جار أو قريب أو فقير أو مسكين أو يتيم ونحو ذلك، فختمها الله تعالى بقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: قليلًا أو كثيرًا ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أي: يعوِّضه لكم عاجلًا في الدنيا بالبدل، أو آجلًا في الآخرة بالثواب والأجر المضاعف ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فاطلبوا الرزق منه وحده، واسلكوا الأسباب التي أمركم بها لتحصيله.

ولا تتوهموا أن الإنفاق في سبيل الله ينقص المال،بل يباركه وينميه ويطهره.

ففي الآية دليل على أن نعيم الآخرة لا ينافي نعيم الدنيا، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ [البقرة: ٢٠١، ٢٠٢].

ونعيم الدنيا مسبَّب على أحوال دنيوية، يسرها الله - سبحانه - لمن أخذ بالأسباب، ونعيم الآخرة مسبَّب على الإيمان والعمل الصالح، وكثير من الصالحين ينعمون في الدنيا والآخرة، وقد جرت سُنَّة الله تعالى أن يزيد الأتقياء الأسخياء من فضله وكرمه. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فاطلبوا الرزق من الله، واسعوْا في الأسباب التي أمركم بها، وكل منكم يأتيه ما قُدِّر له:

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١].

وقال سبحانه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ

(١) «زاد المسير» لابن الجوزي (٦/ ٦٤٢).

﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقال جلَّ شأنه: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)﴾ [الإسراء].

١- وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافًا، وقنَّعه الله بما آتاه»**[١].

٢- وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة أيضًا عن رسول الله ﷺ يقول تعالى: **«أنفق يا ابن آدم أُنفق عليك»**[٢].

٣- وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أن مَلَكَيْن يصيحان كل يوم، يقول أحدهما: اللهم أعطِ ممسكًا تلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ منفقًا خلفًا»**[٣].

٤- وفي صحيح مسلم وغيره: عن أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: **«ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»**[٤]

استجواب الملائكة في ساحة الحشر

٤٠- ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ[٥] جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ[٦] لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠)﴾

عطف سبحانه وتعالى على قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [٣١]. استجواب الملائكة في ساحة العرض والحساب، عن عبادة المشركين لهم؛ ليستكمل موقف الظالمين لأنفسهم بالشرك في عرصات القيامة، حين تتبرأ الملائكة من عبادتهم لهم، ويشهدون عليهم أنهم كانوا يعبدون الجن.

فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: اذكر -يا محمد- يوم يحشر الله المشركين جميعًا، للحساب والجزاء، مَنْ تقدَّم منهم ومَنْ تأخر، ويحشر المعبودين من الملائكة وغيرهم،

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٠٥٤).

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٤٦٨٤، ٥٣٥٢) ومسلم برقم (٩٩٣).

(٣) البخاري برقم (١٤٤٢) ومسلم برقم (١٠١٠) عن أبي هريرة.

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٨٨).

(٥)، (٦) قرأ حفص ويعقوب بالياء في (نحشرهم) و (نقول) لمناسبة ما قبله، وقرأ الباقون بالنون على الالتفات.

كما يحشر المستضعفين والمستكبرين، يُحشرون جميعًا على رؤوس الخلائق والأشهاد.

ثم خصَّ الله تعالى الملائكة بالذكر من بين المعبودين، كما خصهم بالسؤال يوم الحشر، لأن المقصود من الآية إبطال قول المشركين عن الملائكة: إنهم بنات الله! والرد عليهم في قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠].

وكان المشركون يخلطون بين الملائكة والجن، ويجعلون بينهم نسبًا.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨].

فقالوا: إن الله تعالى تزوَّج من الجن فأنجب الملائكة، وكان حيٌّ من خُزاعة يقال لهم: بنو مُليح، يعبدون الجن والملائكة.

والآية تبيِّن ردَّ الملائكة على مَنْ عبدوهم مِن دون الله في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ على وجه التوبيخ لمن عبدوهم ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ أي: كانوا يعبدونكم في الدنيا؟

وفي سورة (الفرقان) يقول تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [١٧].

والخطاب في الآية موجه للملائكة، ولكنه تقريع للكفار وتوبيخ لهم، كما قال تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

والله ﷻ يبيِّن أن عيسى عليه السلام، والملائكة وعزيرًا، أبرياء من عبادة المشركين لهم، وأنهم منزهون عما نُسِبَ إليهم، فيقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء]. قال تعالى على لسان الملائكة:

٤١- ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾

هذا هو جواب الملائكة على السؤال عن عبادة المشركين لهم، وفيه تنزيه لهم عن كونهم معبودين من دون الله ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: قالت الملائكة: تنزيهًا لك يا ربنا، أن يكون غيرك مستحقًا للعبادة، وكيف ندعوهم لعبادتنا ونحن مفتقرون إليك، ولا نصلح أن نتخذ أولياء من دونك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أنت الذي نطيعه ونعبده وحده، ونحن نتبرأ إليك منهم، فلن نرضى من المشركين أن يعبدونا.

فالعبادة: ولاية وطاعة بين العابد والمعبود، ورضى المعبود بعبادة العابد وولايته،

والملائكة عباد لله، والعابد لا يكون معبودًا، فنحن ننكر عبادتهم لنا، ولم نأمرهم بها، ولكن الجن سوَّلت لهم عبادة غير الله تعالى، فعبدوهم وكان ذلك برضى الجن وإغوائهم لهم، وهذا معنى ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ وأكثر المشركين مصدقون بالجن ومطيعون لهم ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ وبعضهم يعبدون آلهة آخرى.

قال تعالى ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس]

وقال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾ [النساء:١١٧]. فلما تبرؤوا منهم قال تعالى:

٤٢- ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

وجَّه الله - سبحانه - في هذه الآية الخطاب للعابدين والمعبودين -المشركين والملائكة والجن- بقصد توبيخ الذين عبدوا الملائكة والجن، فقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: في يوم الحشر والحساب لا ينفع العابدُ المعبود، لا ينفع المعبودُ العابد ، ولا بدفع عذاب، ولا بشفاعة، ولا غير ذلك.

وهذا الخطاب يكون على رؤوس الأشهاد يوم القيامة، إظهارًا لعجْز المعبودين عن نفع عابديهم بوجه من الوجوه، وأن الأسباب قد تقطعت بينهم، وانقطع بعضهم عن بعض.

وفي هذا اليوم، يقال للذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي: ذوقوا عذاب النار الهائل الذي كذبتم به في الدنيا، فها أنتم الآن قد وردتموه، ودخلتموه بعدما عاينتموه.

كما في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

والتعبير بالذي دون التي في آية السجدة؛ لأن القائل هناك هم ملائكة العذاب.

والقائل هنا هو رب العالمين على لسان الملائكة.

المُكَذِّبُونَ بِالإِسْلَامِ لَا يَسْتَنِدُونَ إِلَى دَلِيلٍ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا

٤٣- ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

أخبر - سبحانه - عن المكذبين بالقرآن ورسول الإسلام، بأنهم في الدنيا إذا تتلى عليهم آيات القرآن، وفيها حجج الله الظاهرة، وبراهينه القاطعة، كذّبوها وردّوها من ثلاثة أوجه:

١- فقالوا أوّلًا: إن محمدا يريد أن يصرفنا عن عبادة آبائنا.

٢- وقالوا ثانيًا: إن محمدا افترى هذا القرآن واختلقه.

٣- وقالوا ثالثًا: إن هذا القرآن سحر واضح.

وهكذا: بيّن ﷻ في هذه الآية لونًا آخر من كفر المكذبين بالإسلام، وضلالهم فيما يتعلق بالقرآن ورسول الإسلام، حيث قال بعضهم عن القرآن: إنه افتراء، وقال آخرون: إنه سحر، وقالوا عن رسول الإسلام: إنه يريد أن يقطع الصلة بيننا وبين عبادة آبائنا الأولين.

فاسم الإشارة الأول (ما هذا) يعود أوّلًا على الرسول ﷺ، ويعود ثانيًا على القرآن، ويعود ثالثًا على تعاليم الإسلام كلها.

فهم قد كذّبوا بالوحي الذي يُتلى عليهم، وكذبوا بالرسول الذي جاء بالوحي، وكانوا إذا تليت عليهم آيات القرآن واضحات المعاني، بينات الإعجاز، وسمعها المشركون غضّة طريّة من لسان رسولنا ﷺ، أو سمعها المكذبون بالإسلام من أفواه الدعاة إلى الله تعالى، قال المشركون والمكذبون: ما هذا الذي يتلو علينا القرآن إلا رجل، يريد أن يمنعنا من العبادة التي ورثناها عن آبائنا ومجتمعنا، وأنْ يقطع الصلة بيننا وبين مَنْ سبقونا، سواء أكان هذا الرجل هو رسول الله ﷺ أم من يبلغ الدعوة إلى الناس بعده، وبعد تكذيبهم للرسول ﷺ كذبوا القرآن نفسه، أي: الوحي الذي يُتلى عليهم، فقالوا: ما هذا القرآن إلا كذب مختلق.

ثم أضافوا تكذيبًا **ثالثًا**، فوصفوا القرآن بأنه سحر، ووصفوا الذي أتى به بأنه ساحر ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ المراد بالحق: ما هو أعم من القرآن، فيشمل السُّنَّة

والمعجزة، وكل ما يمثل دين الإسلام، قالوا عن هذا الحق: إنه سحر واضح بيِّن لا يخفى على عاقل.

إنها سلسلة من الاتهامات يوجِّهونها إلى القرآن؛ ليصرفوا الناس عنه، فهم قد كذَّبوا القرآن، وكذَّبوا الرسول، وكذَّبوا تعاليم الإسلام.

ثم بيّن - سبحانه - أن هذه الشبه الثلاث، ليس لهم عليها مستند يُعتمد عليه، لا عن طريق الكتب المنزلة، ولا عن طريق الرسل المرسلة، فقال تعالى:

٤٤- ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية أن الكفار لم يطعنوا في القرآن ولا في الرسول الخاتم عن بينة، وأنهم لم يكذِّبوا محمدًا ﷺ عن يقين، ولا عن مستند يستندون إليه، بل عن ظن وتخمين، فأقوالهم لا تستند إلى دليل ولا ما يشبهه، وقد رد الله عليهم **بأمرين:**

الأمر الأول: أن المكذبين بالوحي والرسالة، لم ينزل عليهم قبل القرآن كتابًا يقرؤون فيه ويتدارسونه، فكيف رفضوا اتباع الرسول، وتلقي القرآن، وكان الأجدر بهم أن يفرحوا بهما؟

الأمر الثاني: أن الله تعالى لم يُرسل إليهم قبل محمد ﷺ رسولًا ينذرهم عذاب الله تعالى، فهم لم يكونوا على دين منسوب إلى الله تعالى، وهم يخشوْن الوقوع في الضلالة إن فرطوا فيه، فكيف كذَّبوك -أيها الرسولْ- ورفضوا قبول الحق، مع أنه لا مانع يصدُّهم عنه ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي: لم نُنْزل على المكذبين بالقرآن كتبًا قبل نزول القرآن تدلهم -كما يزعمون- أن ما جاء به محمد ﷺ سحر.

أو أنه مفترى، قد اختلقه ﷺ أو أنه يريد أن يصرفهم عما ورثوه عن أجدادهم.

قال السدِّي: لم يكن عندهم كتاب يدرسونه، فيعلمون أن ما جئت به حق أو باطل.

وقال قتادة: ما أنزل الله على العرب كتابًا قبل القرآن، وما بعث إليهم نبيًّا قبل محمد ﷺ[1].

وهذا معنى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ أي: وما بعثنا إليهم رسولًا ينذرهم بأسنا، فمن أين أتوْا بهذا الشرك؟ وقد أرسل الله في العرب نبيه إسماعيل، ولكنه لم يتجرد

(١) يُنظَر: الطبري (١٩/ ٣٠٢).

للإنذار، ولم يقاتل على تبليغ الدعوة لإزالة عوائقها، وقبل إسماعيل ﷺ أرسل الله شعيبًا وصالحًا وهودًا عليهم السلام في هذا المكان من العالم، ولم تخلُ الأرض من داعٍ إلى توحيد الله تعالى، ولكن محمدًا ﷺ، هو الذي أُرسل بالنذارة إلى العالم أجمع.

وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الروم].

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الزخرف].

ثم إن الله تعالى خوف المكذبين ما لحق بالأمم المكذبة قبلهم من هلاك، فقال:

٤٥- ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ[1]﴾

طيَّب الله - سبحانه - خاطر رسوله ﷺ بالإشارة إلى هلاك الأمم التي كذَّبت رسل الله في الأمم الغابرة بقوله: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كقوم عاد وثمود وفرعون وغيرهم، فعاقبهم الله واستأصل شأفتهم.

فلا تحزن -أيها الرسول الكريم- ولا تأسف على تكذيبهم لك، فإنه سيلحق بهم ما لحق بغيرهم.

ثم هدَّد الله سبحانه المكذبين لرسالة محمد ﷺ بأن الأمم السابقة التي كذبت رسلها كانوا أشد منهم قوة، وأعظم منهم سطوة، وأقوى بيانًا وحجة، فأهلكهم الله، مع أنكم - يا من كذبتم محمدًا ﷺ - لم تُؤتَوْا معشار ما أُوتي هؤلاء السابقون من القوة والمال وطول العمر، وهذا معنى ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾.

وهو كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم].

وقوله سبحانه: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ [الزخرف: ٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ

(١) قرأ ورش بإثبات ياء (نكير) وصلًا وحذفها وقفًا، وأثبتها يعقوب في الحالين، وحذفها غيرهما في الحالين.

عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف].

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى﴾ أي: فيما جاؤوهم به، فأهلكناهم، ولم يُغْنِ عنهم ما كانوا فيه من القوة والمال والحضارة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: انظروا كيف كان إنكاري عليهم وعقوبتي لهم بالتدمير والهلاك، منهم من أهلكه الله بالريح العقيم، ومنهم من أهلكه بالصيحة، أو الرجفة، أو بالخسف، أو بالغرق، أو بالحجارة، فاحذروا أن تدوموا على التكذيب فيصيبكم ما أصابهم.

خَمْسُ حَقَائِقَ تَنْسِفُ شُبُهَاتِ أَهْلِ الْبَاطِلِ

٤٦- ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟(١) ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

في هذه الآيات الخمس - هذه الآية وما بعدها - نسفٌ لشبهات المكذبين المجادلين للنبي ﷺ، فقد أمره الله تعالى أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده، والنظر في أمر نبوته ﷺ، وأن يعظهم بكلام قريب إلى أفهامهم.

وجاء هذا المعنى في خمسة نداءات متوالية، وهي على وجه الإجمال:

١- نظرة إنصاف في صدق رسالة محمد ﷺ، وما جاء به من الهدى والنور.

٢- عدم تقاضيه أجرًا أو نفعًا على تبليغ دعوته للناس، ولا يلتمس الأجر إلا من الله تعالى.

٣- عدم قدرة المنكرين لرسالة الإسلام على مناظرة الدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان.

٤- ثبات الحق وذهاب الباطل، فالمستقبل للإسلام بإذن الله تعالى.

٥- الداعي إلى الله مسؤول أمام الله تعالى إن كان يُضِل قومه أو يهديهم.

وفي هذه القضايا الخمس إعذار وإنذار للأمة ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

---

(١) قرأ رويس بإدغام التاء في التاء من (ثم تتفكروا) وصلًا، ويكون البدء بتاءين، وقرأ الباقون بتاءين مظهرتين.

فالله تعالى خاطب المكذبين لرسول الله ﷺ بخمس دعوات يدعوهم فيها إلى المنهج الصحيح في البحث عن الحق الذي يُزيل الشبه التي يرمون بها النبي ﷺ.

الحقيقة الأولى: نفى تهمة الجنون عن النبي ﷺ: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾

وقد بُدئت هذه الدعوات كلها بلفظ ﴿قُلْ﴾.

فدعاهم القرآن - أوَّلًا - إلى أن يقوموا بالحق لله تعالى على أي حال كانوا، مجتمعين أو منفردين، فيشمِّروا عن ساعد الجد، لتلَقِّي ما جاءهم به النبي ﷺ بقلب مفتوح، وعقل واعٍ، ونفس خالية من التعصب والحقد والعكُوف على التقليد، وذلك بأن يستعين كل واحد منهم بصاحبه، أو ينفرد بنفسه، للنظر الخالص الذي لا يغالط فيه صاحب هوى ولا شبهة، حتى يصيبوا الحق ويتخلَّصوا من الباطل فيما يتعلق بشأن النبي ﷺ، وعند ذلك سوف يروْن أنه على حق، وأنه قد جاءهم بما يسعدهم في الدارين.

ولن أُطيل النقاش معكم، وإنما سأختصر المجادلة وأقتصر على كلمة واحدة، حتى لا أضيِّع وقتكم ولا أكلفكم جهدًا:

النداء الأول: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لكل مكذب برسالتك ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم﴾ أي: أنصح لكم ﴿بِوَاحِدَةٍ﴾، أي: بكلمة واحدة، وخصلة واحدة، أشير عليكم بها، وهي طريق نَصف، لا أدعوكم فيها إلى اتباع قولي ولا إلى ترك قولكم.

ثم فسَّر سبحانه معناها، فقال: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ أي: أن تنهضوا في طاعة الله، وتُخْلصوا في طلب الحق وإصابته وتحرِّيه، والنظر فيما جاءكم به محمد ﷺ، وأنتم ﴿مَثْنَىٰ﴾ أي: اثنين اثنين ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي: أن يقوم كل واحد منكم بنفسه، يخاطبها ويستخلص ما بداخلها من فكر ونظر إلى الحق بإخلاص و تجرّد وإنصاف.

فإن الاثنين إذا نظرا بإنصاف وإخلاص وموضوعيَّة، وعرَض كلٌّ منهما وجهة نظره على الآخر، فدَرَساها وحلَّلاها، فإن الصواب لا يعْدُوهما، بخلاف العدد الكبير من الناس، فقد يكون فيه تشويش أو مضادة أو مغالبة في الرأي.

وكذا الشخص الواحد، إذا كان ثاقب النظر، صائب الرأي، جيد الفكر، فإنه يصل إلى معرفة الحق بنفسه.

فهذه دعوة من الله تعالى إلى من لم يؤمنوا بمحمد ﷺ أن يتحرَّوْا الحق لوجه الله تعالى، سواء أكانوا مجتمعين، أم اثنين اثنين، أم واحدًا واحدًا، فيقروا هل هو مجنون، فيه صفات المجانين، أم هو نبي صادق، فإن قبلوا هذه الموعظة، تبيّن لهم أن رسول الله ﷺ أكمل الخَلْق أدبًا وعقلًا وتواضُعًا وسكينة ووقارًا، وتَبيَّن لهم أن دعوته تزكى النفوس وتطهر القلوب، وتبعث على مكارم الأخلاق، وتملأ القلب أمنًا وإيمانًا وهذا معنى:

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ أي: في شأن محمد ﷺ؛ لتعلموا أنه لا يمكن أن يكون به شيء من جنون كما يزعم المغالطون ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ أي: محمد ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ -كما تزعمون.

ونفْيُ الجنون يطوي تحته نفي السحر والشعر والكهانة.

وما هو إلا منذر ومخوِّف لكم من عذاب الله إن لم تؤمنوا ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ فآمنوا به قبل أن تذُوقوا عذاب جهنم، وتُقاسُوا حرَّها ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ إن كفرتم ولم تؤمنوا.

والطعن في نبوة محمد ﷺ هو أصل الكفر، وقد نفيُ الجنون عن النبي ﷺ في عدد من الآيات منها:

قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القلم].

وقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢﴾ [التكوير].

وقوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤﴾ [الدخان].

وكان الاتهام بالجنون أرْوج دعوى عند أهل مكة.

أما السحر والشعر والكهانة والكذب فإن نفيها يتم بنفي خصائصها، وخصائص هذه الصفات منتفية عن النبي ﷺ بشهادة أعدائه، فهي دعاوَى كاذبة.

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ قال: صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال: **«يا صباحاه»**، فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: ما لك؟ فقال: **«أرأيتم لو أخبرتكم أن العدوَّ يصبحكم أو يمسيكم، أما كنتم تصدقوني»**؟ قالوا: بلى، قال: **«فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»**، فقال أبولهب: تبًّا لك! ألهذا جمعْتنا؟ فأنزل الله ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد] (١).

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٣٩٤، ٤٨٠١) وأخرجه مسلم (٢٠٨).

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ يومًا فنادى ثلاث مرات فقال: «**أيها الناس، أتدرون ما مثلي ومثلكم**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**إنما مَثَلِي وَمثَلُكُم، مَثَلُ قوم خافوا عدوًّا يأتيهم، فبعثوا رجلًا يترآى لهم، فبينما هم كذلك أبصر العدوَّ، فأقبل لينذرهم، وخشي أن يدركه العدوُّ قبل أن ينذر قومه، فأهوى بثوبه: أيها الناس أُتيتم، أيها الناس أُتيتم، ثلاث مرات**»[1].

الْحَقِيقَةُ الثَّانِيَةُ: النَّبِيُّ ﷺ لَا يَطْلُبُ أَجْرًا عَلَى تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ

٤٧- ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ[2] إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾

بعد أن دعا القرآن المكذبين به إلى التفكير الهادئ المتأني في صدق دعواه ﷺ، بيَّن لهم أن النبي ﷺ لم يُرِدْ بدعوته لهم نفعًا أو أجرًا على نُصْحه وإرشاده لهم، فإن طلب الأجرة يكون مانعًا من اتباع الداعي للحق، والرسول ﷺ منزه عن هذا ولا يطلب الأجر إلا منه سبحانه، وقد تكرر في القرآن الكريم التبرؤ من دعوى أن النبي ﷺ يطلب منهم أجرًا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص]. وجاء مثل ذلك عن رسل الله جميعًا، كنوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فليس هناك من فائدة دنيوية تعود على النبي ﷺ من جرَّاء هذه الدعوة.

﴿قُلْ﴾ أيها الرسول للكفار: ﴿مَا سَأَلْتُكُم﴾ على الخير الذي جئتكم به ﴿مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ فإن كنت قد سألتكم أجرًا فلا تعطوني إياه، وإن كنتم قد أعطيتموني شيئًا فاستردوه وخذوا أنتم هذا الأجر ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ فلا أنتظر أجرًا من غيره على أعمالي، فهو الذي كلَّفني، وهو الذي يأجرني ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وسيحاسب الجميع على ما قدمت أيديهم ويجازيهم بما يستحقونه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ.

---

(١) «المسند» (٥/ ٣٤٨)، ورقمه (٢٢٩٤٨) وهو حديث صحيح لغيره وإسناده حسن كما قال محققوه.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إن أجريَ إلا) وصلًا، والباقون بإسكانها.

الْحَقِيقَةُ الثَّالِثَةُ: الْوَحْيُ يَدْحَضُ بَاطِلَ الْمُكَذِّبِينَ

٤٨- ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ[(١)] (٤٨)﴾

ثم أمر الله نبيَّه في المرة الثالثة أن يبيِّن لمنكري التوحيد، ومنكري رسالة الإسلام، أنهم لا قدرة لهم على مجادلة النبي ﷺ، ولا على محاورته؛ فإن الله تعالى قد سلَّحه بأسباب النصر، وأمده بقوة من عنده، ولقَّنه الدليل والبرهان، ليتبيّن الحق من الباطل، والهدى من الضلال.

﴿قُلْ﴾ لهم أيها الرسول ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ أي: يلقي بالحجة الواضحة على الباطل فيكشفه ويُظهره، وهذه سنة من سنن الله تعالى في خلقه يرد بها أقوال المكذبين، وهذا القرآن الذي جئتكم به هو الحق القوي الذي يقذف به الباطل والكفر والتكذيب، فيبطله ويفضحه.

قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

والحق: هو الوحي وآيات القرآن وهدْي النبي ﷺ.

والباطل: هو الكفر وعدم الإيمان بخاتم المرسلين ﷺ.

ومن القذف بالحق: إنزال الوحي على من اصطفاهم الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)﴾ [النحل].

والله سبحانه يعلم النوايا، ويعلم حيث يجعل رسالته، وهو سبحانه ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ لا تخفى عليه خافية، وفي هذا تهديد وتخويف لكل من كذَّب بنصر الله تعالى لرسوله ﷺ وخذلان أعدائه.

الْحَقِيقَةُ الرَّابِعَةُ: ثَبَاتُ الحَقِّ وَذَهَابُ البَاطِلِ

٤٩- ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩)﴾

ثم أمر الله نبيه ﷺ في المرة الرابعة أن يبيِّن للكافرين أن باطلهم -وهو الشرك بالله

(١) قرأ شعبة وحمزة بكسر الغين من (الغيوب)، والباقون بضمها.

والكفر برسول الله، الذي هم عليه- سيزول لا محالة، ويهال عليه التراب، وأن الحق - الذي هو دين الإسلام الذي جاء به إليهم- سيمحقه ويُذهبه.

﴿قُلْ﴾ يا محمد للمكذبين المعاندين: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الهدى والنور والشرع العظيم من الله سبحانه، فاصدع يا محمد بهذا النبأ، وقرِّر هذا الحدَث، وأعلِنْه للملأ، فإن الباطل لا يقدم ولا يؤخر ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أي: إن الباطل قد زال وهلك، ولم يبق له أثر، والبدء والإعادة من صفات الحي، كقوله تعالى:

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء].

وعن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ دخل مكة وحول الكعبة أصنام، فجعل يطعنها بعود معه، ويقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء].

فالأوثان باطل، والشيطان الذي سوَّل للناس عبادتها باطل، والأصنام وإبليس لا يَخْلُقانِ أحدًا ولا يَبْعثانه، والله تعالى هو المبدئ المعيد، وإذا جاء الحق انقشع الباطل من الموضع الذي حلَّ فيه الحق، فلا يَبْقى للباطل شيء يبدؤه ويعيده.

وقد ظهر الحق واضحًا وثبت أن ما يدعو إليه محمد ﷺ هو الحق الذي لا محيد عنه واضمحل الباطل وذهب سلطانه، وتبيّن عجزه، فهو لايُبديء ولا يعيد.

الْحَقِيقَةُ الْخَامِسَةُ: مَسْؤُولِيَّةُ الدَّاعِي عَنْ دَعْوَتِهِ

٥٠- ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ[1] إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾

ويأتي النداء الخامس والأخير بلفظ: ﴿قُلْ﴾ أيضًا للنبي ﷺ؛ ليبيِّن للأمة أنه مسؤول أمام الله تعالى عما يدعوهم إليه، وأنه لو كان ضالًّا في دعوته - على سبيل الفرض - فإثم ضلاله يعود عليه، فإن زعمتم أني غير صادق في دعوى الرسالة، فإن ضلالي وكَذِبي في هذه الحالة -على حدِّ زعمكم- يعود عليَّ لا عليكم ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾عن الحق، فإن ضلالي يعود على نفسي ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ أي: استقمتُ على منهج الله تعالى، فإن هذه الاستقامة وحْي أوحى الله به إليَّ ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ فالوحي هو مادة

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (ربيَ إنه) وصلًا، والباقون بإسكانها.

هدايتي ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده ولجميع الأصوات ﴿قَرِيبٌ﴾ يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، كما قال ﷺ: **«إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا إنما تدعون سميعًا قريبًا مجيبًا»**[1].

وهذا النداء مُؤذن بترك جدالهم، لعدم الجدوى من مناظرتهم، وفيه بيان أن النبي ﷺ سيتركهم وشأنهم، فإن اهتدوا فلأنفسهم، وإن ضلوا فعليها.

وهكذا: فإن هذه النداءات الخمسة قد أمرت الرسول ﷺ خمس مرات أن يخاطب المشركين بالله والمكذبين بالإسلام بما يزيل كل شبهة، ويقطع كل شك في دعوته ﷺ، ويدعوهم إلى طريق الهداية والسعادة في الدارين.

حَالُ المُجْرِمِينَ عِنْدَمَا يَرَوْنَ العَذَابَ المُعَدَّ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ

٥١- ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾

وتُختتم السورة بأربع آيات تصور حال المجرمين، وتتعجب من حالهم عندما يَخْرُجون من قبورهم للبعث والنشور، حيث يصابون بالرعب والفزع، ويُحال بينهم وبين التوبة؛ لأنها جاءت في غير أوانها ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ - يا رسولنا - حال المكذبين بك ﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾ حين رأوُا العذاب الذي أخبرتْهم به الرسل.

أي: لو أبصرت وقت فزع الكفار عند معاينة العذاب، حين يخرجون من قبورهم، لرأيت شيئًا هائلًا وأمرًا عظيمًا، وفي هذا اليوم، لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، فلا مهرب ولا نجاة لهم من الوقوف بين يدي الله تعالى للحساب ومعاقبتهم على كفرهم وهذا معنى ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي: لا مخلص لهم ولا مفرَّ من عذاب الله، حيث يؤخذ الكفار من أرض المحشر إلى النار ليلْقَوْا مصيرهم المحتوم، فليس لهم عنه مهرب ولا فوت.

والأماكن والأزمنة لا توصف بالقرب أو البعد بالنسبة إلى الله تعالى، فكلها سواء، ولكن هذا يكون بالنسبة إلى البشر.

والمكان القريب هو أرض المحشر، وهو قريب من جهنم، فَيُمْسَكُون ويُقْبَض عليهم لِيلْقَوْا ما أُعد لهم من العذاب في وقت سريع، فيؤخذون ثم يقذفون في النار.

(١) النسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٤٢٧) والبخاري برقم (٤٢٠٥) ومسلم برقم (٢٧٠٤).

هذا: ويرى بعض المفسرين أن هذا الفزع الذي يصيب الكافر يكون في الدنيا، كما فسَّر سعيد بن جبير الآية بقوله: هم الجيش الذي يُخسَف بهم بالبيداء، ويبقى منهم رجل يخبر الناس بما لقي أصحابه[١]:

١- عن عبد الله بن صفوان عن حفصة ﵂: أنها سمعت النبي ﷺ يقول: **«ليَؤُمَّنَّ هذا البيت جيش يَغْزُونه، حتى إذا كانوا ببيداء[٢] من الأرض يُخسَفُ بأوسطهم، وينادي أولُهم آخرَهم، ثم يُخْسَف بهم، فلا يبقى إلا الشريد الذي يُخبِر عنهم، فقال رجل: أَشْهَدُ عليك -أي: على عبد الله بن صفوان- أنك لم تَكْذِب على حفصة، وأَشْهَدُ على حفصة أنها لم تَكْذِب على رسول الله ﷺ»**[٣].

٢- وعن عبد الله بن القبطية قال: دخل الحارث بن أبي ربيعة، وعبد الله بن صفوان وأنا معهما، على أم سلمة أم المؤمنين﵂، فسألاها عن الجيش الذي يُخسف به، وكان ذلك في أيام ابن الزبير، فقالت: قال رسول الله ﷺ: **«يعوذ عائذ بالبيت، فيُبعث إليه بَعْث، فإذا كانوا ببيداء من الأرض، خُسِف بهم»**، فقلت: يا رسول الله، فكيف بمن كان كارهًا؟ قال: **«يُخسف معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته»**[٤].

٣- وفي حديث أبي هريرة ﵁: أن النبي ﷺ قال: **«لا تنتهي البعوث عن غزو بيت الله حتى يُخسف بجيش منهم»**[٥].

وهكذا صحَّ الحديث بغزو الكعبة، وبعقاب الله تعالى لمن يفعل ذلك، وأن الأرض تُخْسَف بهم، ولكني أرى أن اتصال هذا المعنى بالآية، فيه بُعد، والله أعلم.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٢٣٤) وانظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٣١٠).

(٢) البيداء : كل أرض ملساء ليس فيها شيء.

(٣) «صحيح مسلم» برقم : ٢٨٨٣ وابن ماجه (٤٠٦٣) و«المسند» (٤٤/ ٤٠) (٢٦٤٤٤) بإسناد صحيح على شرط مسلمن والحاكم (٤/ ٤٢٩) والحميدي (٢٨٦) وأبو يعلى (٧٠٤٣).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٨٢) وابن أبي شيبة (١٥/ ٤٣) والحاكم (٤/ ٤٢٩).

(٥) الحاكم (٤/ ٤٣٠) و«السلسلة الصحيحة» للألباني (٢٤٣٢).

الْعَوْدَةُ إِلَى الدُّنْيَا أَمْرٌ مُحَالٌ

٥٢- ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ[1] مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾

أي: وعندما يرى الكفار العذاب يوم القيامة يقولون: آمنا بالله وحده، لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه، وآمنا بالدين الذي جاء به رسوله ﷺ، وصدقنا ما كُنَّا به كذّبنا، وهذا معنى ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: قال الكفار عندما يَرَوُا العذاب في الآخرة: آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله، قال تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ أي: العودة إلى الدنيا لتناول الإيمان الذي كذّبوه، وهم الآن في الدار الآخرة.

والتناوش: هو التناول من بُعْد، فقد ذهبت الدنيا وصارت بعيدة عنهم، وحيل بينهم وبين الإيمان، وصار العودة إليه أمرًا محالًا، فكيف ينالون مرادهم.

والمكان البعيد هو الدنيا؟! وهم يتمنون العودة إليها، ولكن ذلك أمر بعيد المنال، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة].

والمعنى: كيف يتسنى لهم تناول الإيمان في الآخرة، وقد كفروا بالقرآن وبالرسول من قبل، وما الذي يصلهم به في الدنيا؟ فإظهار الإيمان في هذا الوقت لا ينفعهم، وقد كان قريبًا منهم فضيعوا وقته.

ومحلُّ قبول الإيمان يكون في الدنيا، وهم الآن في الآخرة، وقد ذهبت الدنيا وأصبحت بعيدة المنال، لقد فات الأوان، فذهب الامتحان وظهرت النتائج، ولو عقلوا لعرفوا الله وعبدوه، واتبعوا سيد المرسلين قبل البعث والحساب. قال تعالى:

٥٣- ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾

أي: وكيف يقولون آمنا بالله في هذا الوقت المتأخر، والحال أنهم كفروا به في وقت المهلة والتمكن، ولو أنهم آمنوا وقت المهلة لكان إيمانهم مقبولًا، وقد فات هذا الوقت

(١) قرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي وخلف بهمزة مضمومة بعد الألف في (التناوش) فيصير المد متصلًا، على أنه مصدر تناءش، وقرأ الباقون بواو مضمومة، مصدر تناوش.

﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٣].

إنهم كفروا بالله في الدنيا وكذَّبوا الرسل، وكانوا يَرْجُمون بالغيب، ويَرْمُون بالظن من جهة بعيدة عن إصابة الحق، فيقولون: لا بعث ولا حساب، ولا جنة ولا نار، وليس لهم في هذا مستند سوى ظنهم الباطل، فلا سبيل لإصابتهم الحق، كما لا سبيل للرامي إلى إصابة الغرض من مكان بعيد، هذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ وذلك حين أنكروا يوم البعث ولم يؤمنوا به، والعرب تقول لكل من تكلم بما لا يعرف: هو يقذف ويرجُم بالغيب، كمن يرمي ولا يصيب، فهو يرمي من بعيد ليصيب الغرض ولكنه لا يصيب، فكذلك الباطل من المحال أن يغلب الحق أو يدفعه، وقد يكون له صولة في وقت الغفلة عن الحق، فإذا برز الحق قاوم الباطل وقمعه.

الشَّكُّ فِي الرِّسَالَةِ وَالْبَعْثِ يَحْرِمُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ

٥٤- ﴿وَحِيلَ[1] بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾

وفي الختام بيَّن سبحانه أن الكافرين بالله، والمكذبين برسالة محمد ﷺ محرومون تمامًا من دخول الجنة، ومن تحقيق كل ما يشتهون، فقد منعهم الكفر من الوصول إليه، وجاء يوم القيامة فاصلًا بينهم وبين ما يتمنونه، فقد حيل بينهم وبين التوبة والإيمان، ودخول الجنان، وحيل بينهم وبين العودة إلى الدنيا، كما حيل بينهم وبين نعيم الدنيا ولذاتها، من الملذات والشهوات والأموال والأولاد والجاه والسلطان والخدم والحشم، وجاؤوا إلى الله فرادى كما خلقوا وتركوا كل شيء وراء ظهورهم، وحيل بينهم وبين الجنة ونعيمها يوم لقاء الله، فليس لهم مأوى في الآخرة إلا النار وبئس القرار، كما فعل الله بأمثالهم من كفار الأمم السابقة، فالأشياع هم المشابهون لهم في النِّحْلة.

ومِنَ الأشياع الذين حلَّ بهم العذاب في الدنيا ولم يُقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب: فرعون حين قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

(١) قرأ ابن عامر والكسائي ورويس بإشمام كسرة حاء (وحيل) للضم، والباقون بالكسرة الخالصة.

وقوم نوح حين رأوا الطوفان، وقوم يونس لما آمنوا وهم في الدنيا، فكشف الله عنهم العذاب.

وقد كان هؤلاء المكذبون وهم في الدُّنيا في شك من أمر الرسل والبعث والحساب، لقد ملأت الريبة والقلق نفوسهم، فلذلك لم يؤمنوا.

وعن شكهم في قيام الساعة يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية].

قال قتادة: إياكم والشك والريبة، فإنه من مات على شك بُعث عليه، ومن مات على يقين بُعث عليه[1].

وسُنَّة الله في خلقه لا تتخلف، فالإيمان عند الموت وعند رؤية العذاب لا ينفع، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر].

وتمنِّي العودة إلى الدنيا لإدراك ما ينجي من النار بالنسبة للكافر لا ينفع، وقد جاء في ذلك آيات كثيرة، منها قوله تعالى على سبيل الحكاية:

﴿فَقَالُوا يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ قال تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام].

وقال جل شأنه أيضًا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون]

وقال سبحانه حكاية عن أهل النار: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر].

وقال عنهم أيضًا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٧].

تم تفسير (سورة سبأ) ولله الحمد والمنة

---

(١) أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٢٤٨).

تَفْسِيرُ سُورَة فَاطِر(٣٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (فاطر) هي السورة الخامسة والثلاثون في ترتيب المصحف، والثالثة والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الفرقان)، وقبل سورة (مريم).

وعدد آياتها خمس وأربعون آية في العدد الكوفي والمكي والمدني الأول، وست وأربعون آية في العدد المدني الأخير والدمشقي، وأربع وأربعون آية في العدد الحمصي.

وهي تسع مئة وسبعون كلمة، وثلاثة آلاف ومئة وثلاثون حرفًا.

وتُسمَّى سورة (فاطر) لوجود لفظ: ﴿فَاطِرِ﴾ في أولها دون غيرها من السور الأخرى.

وفي صحيح البخاري، وجامع الترمذي، أنها تُسمَّى (سورة الملائكة) لِذِكْرِ وصف الملائكة فيها دون غيرها.

وهي سورة مكية نزلت قبل الهجرة، وهي آخر سورة مفتتحة بلفظ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ من خمس سور في القرآن هي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر.

أغراض السورة:

(أ) وقد اشتملت هذه السورة على الدعوة إلى توحيد الله تعالى، وإقامة البراهين على وحدانيته سبحانه، وهدْم قواعد الشرك، جاء ذلك في الآيات الدالة على قدرة الله تعالى، مثل قوله تعالى:

١- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ﴾ [١].

٢- وقوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [٩].

٣- وقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًاۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

٤- وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [١٢].

٥- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [١٣].

٦- وقوله سبحانه: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ﴾ [١٤].

٧- وقوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ﴾ [٢٧].

وقد أحْصت السورة كثيرًا من نعم الله تعالى وفضله على خلْقه، وبيَّنتْ أن الله تعالى هو المعطي المانع، لا مانع لما أعطى ولا مُعطي لما منع ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ﴾ [٢].

فالخير كله منبعه رب العالمين، وما عدا ذلك أصفار على الشمال، وعدم الاعتراف بهذه النعم مصدر من مصادر الشرك والإلحاد.

إن التفكير في ذات الله تعالى، لا يصل به العبد إلى نتيجة، ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بالنظر والتأمل في الْمُلْك والملكوت، ومن ذلك خلق الإنسان وموته، وجَعْلُ النبات والزرع مختلف الطعم والشكل والرائحة، ومِنْ خلق الله تعالى: الدواب والأنعام، والشجر والجبال، وطبقات الأرض.

وهكذا تتحدث السورة عن خلق: الملائكة والإنس والجن، ونزول الغيث، وخروج الزرع والفواكه والثمار، وتعاقُب الليل والنهار، وأشكال الجبال وتنوُّعها ما بين أبيض وأسود وأحمر، وكلها ناطقة بعظمة الواحد القهار.

ولذا: فإن السورة تحدثت عن الفارق الكبير بين: المؤمن والكافر، والظلمات والنور، والظل والحرور... فالإيمان بالله تعالى وليد عقل باحث متأمل، والإيمان التقليدي ليس له قرار في قلب المؤمن، بخلاف الإيمان الناتج عن عقل وتفكير ورَوِيَّة، ومن هنا فإن الذين ورثوا الكتاب، كان منهم: الظالم لنفسه، ومنهم المقتصد، ومنهم السابق بالخيرات بإذن الله.

(ب) كما اشتملت السورة على الرسالة والوحي (ميراث الأمة) في مثل.

١- قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾.

٢- وقوله سبحانه: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا

خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

٣- وقوله ﷻ: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾.

٤- وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [٣١].

٥- وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [٣٢].

(ج) واشتملت السورة على اليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب، وجنة ونار، في مثل:

١- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [٥].

٢- وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

٣- وقوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [٣٣].

٤- وقوله سبحانه: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾

٥- وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [٣٦].

وقد رفض المكذبون عقيدة التوحيد والبعث، والإيمان بخاتم الرسل ﷺ، ولقي الرسول ﷺ من قومه عنادًا وتكذيبًا وجدلًا وخصومة، فواساه ربهُ مرتين في هذه السورة، ببيان أن الرسل قبله قد كُذِّبوا وأوذوا، وأن الله تعالى قد يُمْهل العباد أمدًا طويلًا حتى يَصْحو النائم، ويفيق الغافل، ولكنه لا يهملهم، وهو سبحانه قادر على مَحْو العالم بما فيه ومن فيه، ولكنه سبحانه يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار.

وسورة فاطر، تشبه سورة النحل في إحصاء عدد كثير من النعم، وبيان فضل الله تعالى على خلقه.

وقد خاطبت السورة الناس بصفة عامة ثلاث مرات:

١- تسألهم في أول نداء عن مصدر هذه النعم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [٣].

٢- وتحذرهم في المرة الثانية من إغواء الشيطان لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ [٥، ٦].

٣- ويأتي النداء الثالث ليبيِّن فقر الناس إلى ربهم وغناه عنهم: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾.

وقد خُتِمت السورة ببيان سعة رحمة الله بخلقه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ﴾ [٤٥].



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

خَمْسَةُ أَدِلَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ

الدَّلِيلُ الأَوَّلُ: ابْتِدَاءُ الخَلْقِ وَمِنْهُ المَلَائِكَةُ

١- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾

افْتُتِحت سورة فاطر ببيان أن الله تعالى هو المستحق للحمد المطلق، والثناء التام الكامل، والذكر الحسن، المشمول بالتعظيم والتبجيل.

وإسناد الحمد لله تعالى من الباقيات الصالحات.

وقد أقام سبحانه في هذه السورة خمسة أدلة على تفرُّد الله تعالى بالألوهية، وهذه الأدلة تتلخص في:

١- خلق هذا الكون ومنه الملائكة -كما في هذه الآية.

٢- تصريف الأحوال بين السماء والأرض، كما في الآية التاسعة.

٣- خلق الإنسان من تراب، كما في الآية الحادية عشرة.

٤- مشهد البحريْن: العذب والملح، وما فيهما من نعم، كما في الآية الثانية عشرة.

٥- تصريف الليل والنهار بالطول والقصر، كما في الآية الثالثة عشرة.

وافتتاح السورة بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يُؤذن بأن صفات عظيمة لله تعالى ستُذكر في هذه السورة.

والله تعالى يَحْمد نفسه بنفسه؛ ليعلِّمنا كيف نحمده سبحانه، ونثني عليه الثناء الكامل، ويمدح نفسه على خلْق هذا الكون، لِنُثْنى عليه ونعظمه ونقدسه ونُمجِّده، وفي ذلك دليل على كمال قدرته تعالى وبديع حكمته، وسعة ملكه، وإحاطة علمه، وعموم رحمته.

وقد أعقب هذا الحمد **صفتان** من صفات الأفعال لله تعالى:

الصفة الأولى: خلْق السموات والأرض، وإبداعهما على غير مثال سبق، ويتْبع ذلك

خلْق ما فيهما وما بينهما من العوالم، بما يشمل الكون كله، ونبَّه سبحانه بالخلق الأول؛ لِيُسْتَدَل به على أن القادر على البدء قادر على الإعادة، فهو سبحانه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والفَطْرُ: هو الخلق السريع، والإبداع الذي لا نظير له.

قال ابن عباس ﵄: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرْتُها، أي: أنا بدأتها وأنشأتها[1].

ومثله قوله تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ١٠١].

وكلها بمعنى: خالق ومنشئ ومبدع، وهو وصفٌ سبق به القرآن الكريم.

ولما ذكر - سبحانه - خلق السموات والأرض، أتبع ذلك بما يتضمن تدبير أمور هذا الخلق بواسطة ملائكة الله الكرام:

الصفة الأخرى: أنه سبحانه ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ أي: جاعل الملائكة وسائط بينه وبين أنبيائه، والصالحين من عباده، يُبلغون إليهم رسالته بالوحي والإلهام والرؤيا الصادقة، ويوصِّلون إليهم آثار قدرته من الأمطار والرياح وغيرهما، والملائكة هم أفضل خلق الله في السموات وأشرفُهم، وهم رسل الله بالوحي المنزل على من يختاره من عباده في الأرض، وهذه الرسالة هي أعظم شيء وأجلُّه، وهي التي تصل ما بين السماء والأرض؛ لتبليغ أمر الله تعالى ونهيه، وليس كل الملائكة رسلًا، بل بعضهم، ولكن الله تعالى لم يستثن منهم أحدًا في الآية، لبيان أنهم منقادون جميعًا لأمر ربهم، فهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم].

وصف الملائكة بأنهم أولو أجنحة:

سبق وصف الملائكة من ناحية طبيعتهم ووظيفتهم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء].

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (١٦٨٢) من طريق يحيى بن سعيد عن سفيان ورواه أبو عبيد في فضائله ص.٢٠٦

ويأتي هنا وصف وحيد في القرآن الكريم للملائكة، يتعلق بتكوينهم الخلْقي، ويشير إلى قوتهم وسُرعتهم في تنفيذ ما أُمروا به من تدبير أوامر الله تعالى القدرَية، في قوله سبحانه: ﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ أي: إن الأجنحة ذاتية لهم، وهي من مقوِّمات خِلْقتهم، يطيرون بها فيسرعون في تنفيذ ما أمرهم الله به.

والأجنحة جمع جَناح، وهو ما يكون للطائر في موضع اليد للإنسان، وهم يخترقون بها الآفاق، في السموات صعودًا ونزولًا، ولا يعلم حقيقتها إلا الله، وهؤلاء الملائكة المكرمون ذوُو أجنحة عديدة مصفوفة، منهم مَن له جناحان في الصف الواحد، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له ست مئة جناح، وغير ذلك.

والآية تشير إلى كثرة الأجنحة لا إلى حصرها.

والملائكة تطير بهذه الأجنحة لتبليغ ما أمر الله به إلى رسله، فهم الواسطة بين الله تعالى وأنبيائه لتنفيذ مراد الله تعالى في مخلوقاته، فمنهم ملائكة للموت، وآخرون للحياة والولادة، وغيرهم للإحصاء والرقابة، . . . ، وقدراتهم متفاوتة تفاوتًا بعيدًا، والأجنحة تُعدُّ في الآية باثنين وثلاثة في كل صف من صفوف الأجنحة، وتُعدُّ في الأحاديث بالمئات والألوف، كما جاء في الحديث: عن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء والعروج وله ست مئة جناح[1].

والمراد بـ﴿مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ تكرار الأجنحة، لا عددها، بمعنى أنهم: ذَوُو أجنحة بعضها مصففة جناحين جناحين في الصف، وبعضها ثلاثة ثلاثة، وبعضها أربعة أربعة، وتتعدد الصفوف، فتبلغ أعدادًا كثيرة.

روَى الزهري بسنده، أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: يا محمد، كيف لو رأيت إسرافيل، إن له لَاثْنَيْ عشر ألف جناح، منها جناح بالمشرق، وجناح بالمغرب، وإن العرش لعلَى كاهله[2]. ولو كُشِف لنا الحجاب لرأينا العجب العجاب.

والملائكة أجسام لطيفة نورانية أخيار، ذوُوا قوة عظيمة، ومن خصائصهم القدرة على

---

(١) من حديث ابن مسعود في البخاري (٣٢٣٢، ٤٨٥٦) ومسلم (١٧٤).

(٢) ابن عاشور (٢٢/ ٢٥٠).

التشكُّل بأشكال مختلفة[١].

وقد يكون التشكُّل في انقباض وانكماش لإعطاء صورة جسمانية، وقد ثبت تشكُّل جبريل ﷺ في صورة (دحية الكلبي)، وثبت تشكُّله في صورة رجل لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه أحد، كما في حديث عمر بن الخطاب ﷺ[٢].

وكما ثبت أن النبي ﷺ رأى جبريل في غار حراء، وهو على كرسي بين السماء والأرض في صورته الحقيقية[٣].

ورأى كثير من أصحاب رسول الله يوم بدر خَلْقًا لا يعرفونهم، على خيل يقاتلون معهم..، وبيّنت السنة أنهم الملائكة.

ثم قال تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ أي: يزيد في الأجنحة، ويزيد في خلْق كل شيء ما يشاء أن يزيده من الأمور المختلفة، وفق مقتضى الحكمة والتدبير، من طول القامة وقِصَرِها، وتمام الأعضاء وتناسقها، واعتدال الصورة، وقوة البطش، وحصافة العقل، وجزالة الرأي، وسماحة النفْس، وذلاقة اللسان، ولباقة الكلام، وحُسن التأني، وما أشبه ذلك مما لايحيط به الوصف[٤].

فالمراد بالخلق: الخلق كلهم، بما يشمل الملائكة وغيرهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يُعجزه شيء، ولا يستعصي عليه أمر، له الأمر والقوة والسلطان، لا يمتنع عليه فعل شيء أراده، ومن ذلك زيادة بعض المخلوقات على بعض.

وهكذا وصف الله تعالى نفسه في هذه الآية بصفتين جليلتين تَحْمِل كلٌّ منهما صفة القدرة وكمال الإنعام:

الأولى: أنه خالق السموات والأرض ومبدعهما على غير مثال يُحتذى، ولا قانون يُنْتمى، وفي ذلك دليل على كمال قدرته وشمول نعمته، فهو الذي رفع السماء بغير عمد،

(١) كما جاء في «صحيح مسلم» برقم (٨) عن عمر بن الخطاب ﷺ.

(٢) عن حديث الإسلام والإيمان والإحسان السابق.

(٣) من حديث جابر بن عبد الله في «صحيح البخاري» برقم (٤، ٣٢٣٨، ٤٩٢٢، ٤٩٢٣) و«صحيح مسلم» (١٦١).

(٤) يُنظَر: «تفسير الكشاف» (٣/ ٥٩٥).

وزيَّنها بالكواكب والنجوم، وهو الذي بسط الأرض وأودعها الأرزاق والأقوات، وبثَّ فيها البحار والأنهار، وفجَّر فيها العيون والآبار.

الأخرى: اختيار الملائكة ليكونوا رسلًا بين الله وأنبيائه، وقد جعل الله لهم أشكالًا عجيبة، وصورًا غريبة، وأجنحة عديدة، فسبحان الله ما أعظم خلقه، وما أبدع صنعه!!

العَطَاءُ وَالمَنْعُ بِيَدِ اللَّهِ وَحْدَهُ

٢- ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

بعد أن وصف الله تعالى نفسه بأنه فاطر السموات والأرض، وأنه جاعل الملائكة رسلًا، وصف نفسه في هذه الآية **وصفًا ثالثًا**، بأنه سبحانه منفرد بالتدبير والعطاء والمنع، فاتح الرحمة للناس، وممسكها عنهم، فلا يقدر أحد على إمساك ما فَتَحه، ولا على فتْح ما أمسكه، كما قال تعالى عن الكافر: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقوله سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

والفتح والإمساك بمعنى: الإعطاء والمنع، فهو سبحانه الذي يضر وينفع، ويعطي ويمنع.

وفي الحديث: عن أبي سعيد والمغيرة ﭫ، أن النبي ﷺ كان يقول: **«اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»**[1].

أي: لا ينفع الغنى غناه، وإنما ينفعه العمل الصالح.

ومن نعم الله تعالى التي يرحم بها عباده: الصحة، والأمن، والعلم، والحكمة، والرزق، وإرسال الرُّسل، وإنزال الكتب... إلخ، ورحمة الله تعالى لا تُمنع دون طالب لها في أي زمان وفي أي مكان، ولا في مختلف الأحوال.

هذه الرحمة وجدها إبراهيم في النار، ووجدها يوسف في الجُبِّ والسجن، ووجدها يونس في بطن الحوت وهو في ظلمات ثلاث، ووجدها موسى في اليمِّ وفي قصر فرعون، ووجدها أصحاب الكهف في الكهف، ووجدها محمد ﷺ وصاحبه في الغار، وصلوات

(١) يُنظَر: البخاري برقم (٨٤٤) ومسلم برقم (٤٧٧، ٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة وأبي سعيد الخدري ومعاوية و«المسند» (٤/ ٢٥٤) برقم (١٦٩٢٩، ١٨٢٣٣) والشافعي في «الأم» (١/ ١١٢).

الله وسلامه على جميع رسله وأنبيائه.

وهكذا تأتي الرحمة، ويأتي الفرج بعد الضيق، لكل من يفتح الله عليه بها.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ كالنصر على العدو، والعلم الغزير، والرزق الواسع ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ أي: لا أحد يقدر أن يمسك هذه الرحمة، فالفتح والإمساك هما العطاء والمنع، والله تعالى هو الذي يضر وينفع، ويعطي ويمنع ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ من هذه الرحمة ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: لا أحد يقدر أن يرسلها بعد الله تعالى، فهو الملك الوهَّاب ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شيء ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه، الذي يرسل الرحمة إلى خلقه وفق حكمته، ويضع الأمور في مواضعها.

أخرج ابن المنذر عن عامر بن عبد قيس قال: أربع آيات من كتاب الله إذا قرأتهن فما أبالي ما أُصبحُ عليه وما أُمسي، وهي قوله تعالى:

١- ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

٢- وقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧].

٣- وقوله: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

٤- وقوله ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[١] [هود: ٦].

وفي وصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنه: **«يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف»**[٢].

---

(١) «الدر المنثور» (١٢/ ٢٥٣).

(٢) يُنظَر: الحديث في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٠٤٣) وقال الترمذي (٢٥١٦) حسن صحيح وفي «المسند» بتصحيح أحمد شاكر (٤/ ٢٣٣) برقم (٢٦٦٩)، وإسناده قوي، وأخرجه أبو يعلى (٢٥٥٦) وابن أبي عاصم في السنة (٣١٦) والطبراني (١٢٩٨٨).

ثَلَاثة نِدَاءَاتٍ لِلنَّاسِ فِي السُّورَةِ:

النِّدَاءُ الأَوَّلُ: وُجُوبُ شُكْرِ المُنْعِمِ سُبْحَانَهُ

٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ[١] ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ[٢] ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾

ولما ذكر سبحانه رحمته التي أنعم بها على الناس، وجَّه النداء الأول للناس عامة في هذه السورة، فأمرهم أن يتذكر كلٌّ منهم ما أنعم الله به عليه على وجه الخصوص.

وتَذَكُّر النعمة يعني: حفظها وعدم كفرها والقيام بحقها، والاعتراف بها، وعدم إنكارها وجحودها، ويعني أيضًا: طاعة من أنعم بها وامتثال أمره تعالى واجتناب نهيه، فذِكْر النعمة يشمل اعتراف القلب بها، وثناء اللسان عليها، وانقياد الجوارح لها، وذكر النعم موجب لشكرها وعدم الاستعانة بها على معصية الله تعالى.

وهذا يعني: حمد الله تعالى وشكره عليها بقلبه ولسانه، وعمل الجوارح لها.

وليس شكر النعمة خاصًا باللسان، بل لا بد من امتثال الأوامر واجتناب النواهي، كما قال عمر ﷺ: أفضل مِنْ ذكرِ الله باللسان، ذِكْرُ الله عند أمره ونهيه، أي: العمل بالأوامر والنواهي.

فيا أيها الناس: اشكروا ربكم على نعمه التي لا تعدُّ ولا تحصى، اشكروها بألسنتكم وقلوبكم وجوارحكم، واستعملوها فيما أمركم الله به.

ثم ذكر - جل شأنه- أصول النعم التي تستوجب الشكر، فهو سبحانه الخالق الرازق، يرزقكم من السماء بالمطر، ويرزقكم من الأرض بالنبات والمعادن، والخلق والرزق وغيرهما، من أدلة توحيد الله سبحانه.

---

(١) وقف ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بالهاء على (نعمت) ووقف الباقون بالتاء وفق رسم المصحف، وأمالها الكسائي وقفًا.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بجر (غيرِ) نعت لخالق على اللفظ، والباقون بالرفع نعت على المحل، و (من) مؤكدة، وخالق مبتدأ، والجملة خبر يرزقكم، وقرأ أبو جعفر بإخفاء نون (من) عند خاء (خالق) وإخفاء التنوين عند غين (غير).

ولما كان من المعلوم أنه لا يخلق ولا يرزق إلا الله، نتج عن ذلك أنه لا يعبد إلا الله، فلا تصرفوا العبادة لغيره، فهو المستحق لها دون سواء، فكيف تشركون معه ما لا يَخْلُق ولا يَرْزُق؟ وكيف تُصْرَفون بعد هذا البيان عن عبادته وتوحيده إلى عبادة غيره مما لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، ولا خلْقًا ولا رزقًا؟!

وهذا النداء فيه تعجب من انصراف بعض الناس عن دلائل الوحدانية وصرفُ العبادة لغير الله.

لَا تَحْزَنْ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - عَلَى مَنْ لَمْ يَشْكُرْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ

٤- ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ(١) الْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾

انتقل سبحانه من مخاطبة الناس إلى مخاطبة الرسول ﷺ؛ ليبيِّن له أن الكفار إذا انصرفوا عن توحيد الله تعالى، وانصرفوا عن شكر نعمة الله تعالى عليهم بإرسالك إليهم، واستمرُّوا على تكذيبهم لك، وعدم قبول دعوتك، فلا عليك من تكذيبهم، فلستَ بدعًا من الرسل، فلك أسوة بمن قبلك من المرسلين، فقد كَذَّب أقوام آخرون رسل الله قبلك، فلا تأسَ ولا تحزن، واصبر كما صبروا ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ فيما بلَّغْتهم به من الحق المبين ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ من الأنبياء الذين سبقوك فصبروا على تكذيبهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال سبحانه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

فهذه سُنَّة الله في الأنبياء قبلك، فلك فيهم أسوة، ولا بد أن ينصرك الله على أعدائك.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ وتصير إليه أحوال الخلائق في الآخرة، فيجازي كلًّا بما يستحق، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ ولكل داعية إلى الله على بصيرة.

النِّدَاءُ الثَّانِي لِلنَّاسِ فِي السُّورَةِ: وُجُوبُ العَمَلِ لِلدَّارِ البَاقِيَةِ

٥- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾

ويأتي النداء الثاني للناس كافة في هذه السورة، لِيُعذِرَهم ويُنذِرَهم بتحقيق وعد الله

(١) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلَف، بالبناء للفاعل في (ترجع) والباقون بالبناء للمفعول.

تعالى الذي توعَّد به المكذبين لرسله، والمكذبين بالبعث والنشور والحساب والجزاء، فبيِّن لهم هذا النداء أن وعد الله واقع لا يتخلف، وأن الساعة آتية لاريب فيها، وأن الناس محاسبون ومجزيون على أعمالهم إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ، وذلك بعد أن أقام لهم دلائل التوحيد وصدق النبوة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والحساب والثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ ثابت لاشك فيه، فهو آتٍ لا محالة، بلا ريب، وقد دل على ذلك الأدلة السمعية والبراهين العقلية، ويجب عليكم أن تستعدوا له بالإيمان والعمل الصالح ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: لا تخْدعنَّكم الدنيا بشهواتها وزينتها ومطالبها، فتصرفكم عما خُلقتم لأجله، فإنها إلى زوال وفناء، ولا تشغلكم عن أداء فروض الله وما أمركم به أو نهاكم عنه، ولا تلهكم الدنيا عن الآخرة.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ **الغَرور** بفتح الغين: هو الشيطان، أي: لا يخدعنكم الشيطان عن طاعة ربكم، فيمنِّيكم بالمغفرة مع الإصرار على المعاصي، ويُطَمِّعكُم في عفو الله تعالى بدون عمل صالح، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤].

التَّحْذِيرُ مِنْ عَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ

٦- ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية عداوة الشيطان لابن آدم، وهذه العداوة موجودة في جبلَّة الشيطان، فقد أخذ على عاتقه إيقاع الناس في الفساد، وفي أسوأ العواقب بعد تحسينها وتزيينها ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف].

فلا تهملوا محاربته في كل وقت، فإنه يراكم وأنتم لا ترونه، وهو يترصدكم دائمًا لتقعوا في حبائله، وتكونوا من حزبه أصحاب السعير.

واستثنى من ذلك أقوياء الإيمان ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص].

وكثيرًا ما حذَّرنا الله تعالى من فتنته، قال تعالى﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ [البقرة]

وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وفي الحديث عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»(١).

ولا يَسْلَم من وساوس الشيطان عدوٌّ له ولا صديق، فالشيطان يضمر العداوة لأوليائه ويأنس بهم؛ لأنه يقضي بهم وطَرَه ويُنفِّذ فيهم غريزته، وهو ينْفر ويغتاظ من مقاومتهم له، إلى درجة الفرار من عظماء الأمة، فالنبي ﷺ يقول عن نفسه: «**إن الله قد أعانني على شيطاني حتى ملكته فلا يأمرني إلا بخير**».

ويقول عن عمر ﷺ: «**ما سلك عمر فجًّا إلا وسلك الشيطان فجًّا غيره**»(٢)

وهناك أحوال لا مجال فيها للشيطان ففي حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «**إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان وله ضراط**»(٣).

«**ولم يُر الشيطان أخسأ ولا أحقر منه في يوم عرفة لَمَا يرى من تنزل الرحمات**»(٤).

وقد أمر الله سبحانه بالعفو والصفح والصلح إذا وقعت عداوة بين المسلم وأخيه المسلم، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشورى: ٤٠].

لأنها عداوة عارضة يمكن زوالها، ولا يترتب عليها ضرر فادح، قال سبحانه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

ولم يأمر الإسلام بالعفو مع أعداء الدين، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١].

أما عداوة الشيطان فإنه لا يُرْجَى زوالها، وإذا لم يتخذه المسلم عدوًّا فإنه لن يتجنب

(١) من حديث أنس وصفية ﷺ عند أحمد وأبي داود وابن ماجه والبيهقي كما في صحيح الجامع الصغير برقم (١٦٥٨).

(٢) ينظر: ظلال الجنة ج٢ برقم (١٢٦٠) ومصنف ابن أبي شيبة عن محمد بن سعد عن أبيه برقم (٣١٩٩٩).

(٣) عن أبي هريرة في البخاري (٥٨٣) وأبي داود (٥١٦) والنسائي وانظر صحيح مسلم (٣٨٩).

(٤) ضعفه الألباني عن طلحة بن عبيد الله في ضعيف الترغيب والترهيب برقم (٧٣٩).

مكايده ومخادعته ووسوسته(١).

ومن عجب أن نجد في زماننا من يعبدون الشيطان اتقاءً لعداوته!

ثم حذَّرنا اللهُ سبحانه من قبول دعوة الشيطان، وحثَّ على وجوب اليقظة إلى غروره ووسوسته لتجنُّب أخطاره ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وهذا غايته ومقصوده أي: إنما يدعو أتباعه إلى العقائد الباطلة، والأقوال الفاسدة، والأفعال القبيحة، إنه يدعوهم إلى الضلال، والنار الموقدة المستعرة، التي تَشْوي الوجوه والجلود، فهو عدوٌّ لدود، وعداوته قديمة، فكونوا على حذر منه، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج].

قال قتادة: عادُوا الشيطان فإنه يحق على كل مسلم عداوته، وعداوته أن تعاديه بطاعة الله تعالى.

وقال بعض الصالحين: عجبًا لمن عصى المحسن بعد معرفته بإحسانه، وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف: ٥٠].

وقد بيَّن سبحانه ما يترتب على السير في ركاب الشيطان في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

ثم بيّن سبحانه أن الناس بالنسبة إلى طاعة الشيطان وعدمها على قسمين، منهم من سار في ركابه، ومنهم من خالفه ولم يكن له عليه سلطان، منهم من آمن ومنهم من كفر:

عِقَابُ الكَافِرِ وَجَزَاءُ المُؤْمِنِ

٧- ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(٢) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾

بيَّن ﷻ في هذه الآية أن الناس يوم القيامة فريقان: كافر، ومؤمن، فالكافر مخلَّد في العذاب الشديد الدائم الذي لا يوصف هولُه؛ لأنه من حزب الشيطان.

والمؤمن له مغفرة وأجر كبير؛ لأنه جمَع بين الإيمان والعمل الصالح، فصدَّق عمله قوله، فالذين جحدوا وحدانية الله تعالى وما جاءت به رسله ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ مؤلم يوم

(١) يُنظَر: «تفسير الشيخ الطاهر بن عاشور» للآية (١٢/ ٢٦٣).

(٢) عدّ البصري والشامي (عذاب شديد) آية، وتركها غيرهما.

لقاء رب العالمين ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وصدَّقوا بالله ورسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي: ستر لذنوبهم ورفع لدرجاتهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ هو الجنة؛ لأنهم من حزب الرحمن.

أما المؤمنون العصاة فليسوا من حزب الشيطان؛ لأنهم يعلمون كيده ويلعنونه ويتبرؤون منه، ولكن دافع الشهوات قد يُوقعهم في حبائله.

وقد رضي الشيطان من عباد الله المؤمنين أن يوقعهم في بعض المعاصي بعد أن عجز عن عبادتهم له، كما في حديث أبي هريرة ﷺ: **«إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي منكم بما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم»**[١].

وفي حديث جابر ﷺ: أن النبي ﷺ قال: **«إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم»**[٢].

وبهذا فإن الله تعالى حذَّر عباده من غرور الشيطان، وأيْقظهم إلى عداوته، وقسَّم الناس إلى فريقين:

فريق انخدع واغتر بالشيطان ولم يناصبه العداء، وفريق أخذ حذره واحترز من كيده.

وقسَّم الناس إلى: كافر مُعذَّب، ومؤمن مُنعَم عليه، وأعقب ذلك باستحقاق حزب الشيطان عذاب السعير.

أَسْبَابُ الْغِوَايَةِ وَأَسْبَابُ الْهِدَايَةِ

٨- ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ[٣] نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية، أن الوقوع في حبائل الشيطان، ناشئ من تزيينه للناس

---

(١) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد في «المسند» (٨٨١٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه البزار (٢٨٥٠) كشف الأستار، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٨٦) والبيهقي في «الشعب» (٧٢٦٤).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٨١٢) و«المسند» (١٤٣٦٦)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٥/ ٢٧).

(٣) قرأ أبو جعفر بضم التاء وكسر الهاء من (تُذهِب) مضارع أذهب و (نفسَك) بالنصب مفعول به، والباقون ببناء (تَذهب) للفاعل من ذهب ورفع (نفسُك) فاعل.

الأعمال السيئة فيرونها حسنة، ولم يقبلوا نصيحة ناصح، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤] فرأوا الحق باطلًا، والباطل حقًّا.

والتزيين: تحسين ما ليس بحسَن، كله أو بعضه، أي: إن أعمالهم السيئة صوَّرها الشيطان لهم بصورة حسنة؛ لِيُقْدموا عليها بِشَرَهٍ ونشاط، وهذه هي طبيعة الغواية، وهو الباب الذي يفتح طريق الضلال، فيُعجَب الإنسان بنفسه وما يصدُر عنها، معتقدًا أنه على صواب، ولا يطيق مراجعة أحد، فهو في غنى عن نصائحهم على حد زعمه.

والله تعالى يَذْكُر مثال الضال الهالك، ويتركه بلا جواب فيقول: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ أي: أفمن حسَّن الشيطان له أعماله السيئة من المعاصي والكفر، وحسَّن له عبادة غير الله تعالى، فرأى عمله حسنًا جميلًا، كمن هداه الله، فرأى الحسن حسنًا والسيئ سيئًا؟

كلَّا، إنهما لا يستويان في عرف عاقل، فالاستفهام للإنكار، وجوابه محذوف، تقديره ما ذكر.

فإن من ارتكب الأقوال والأفعال القبيحة، التي زيَّنها له الشيطان والهوى، والنفس الأمارة، فمصيره إلى الشقاء والتعاسة.

ومَنْ خالَف الشيطان والنفس والهوى، فمصيره إلى السعادة والفلاح.

وذلك لأن من استحسن ما هو عليه من الكفر والضلال، لا يستوي بمن استقبحه واجتنبه، واختار طريق الإيمان والهدَى والرشاد.

وهكذا لا يستوي من هداه الله إلى الصراط المستقيم بمن ضل عن سبيل الله:

فالأول: عمل الأعمال الحسنة، ورأى الحق حقًّا والباطل باطلًا.

والثاني: عمل الأعمال السيئة، ورأى الحق باطلًا والباطل حقًّا.

ثم قرَّر سبحانه أن الهدى والضلال بيد الله تعالى؛ لأنه خالق أسباب الاهتداء وخالق أسباب الضلال، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: يصرف من يشاء عن طريق الهدى وفق علمه تعالى عن رغبته واختياره، ويوفِّق من يشاء هدايته للإيمان والعمل الصالح، وفق علمه تعالى عن استعداده الفطري، وكلٌّ من الفريقين

قد عَمل بمقتضى ميوله وتوجُّهه إلى الهدى أو الضلال، فلا قدرة لك - يارسولنا ويا كل من تدعو إلى الله - على هدايتهم أو إضلالهم.

قال ابن عباس ﷺ: أُنزلت هذه الآية حيث قال النبي ﷺ: **«اللهم أعزَّ دينك بعمر بن الخطاب، أو بأبي جهل بن هشام»** فهدى الله عمر، وأضل أبا جهل، ففيهما أُنزلت[1].

فالله تعالى أرشد عباده بإرسال رسله لهدايتهم إلى ما يرضيه، وأضلهم في تكوين نفوسهم النافرة عن الهدى وفق علمه الأزلي عنهم، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾ [الزمر].

وهو سبحانه خالق أسباب الهدى والضلال ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

وما دام الأمر كذلك ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ﴾ أي: لا تُهلك نفسك حُزنًا على كفر الضالين، وامضِ في طريق دعوتك وتبليغ رسالة ربك ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، فليس عليك إلا البلاغ، وهدايتهم على الله سبحانه.

والمعنى: أفأنت تهدي من زُين له سوء عمله فرآه حسنًا؟ أفتتحسر على من اختاروا لأنفسهم طريق الضلال؟ فإن الله تعالى قد أضلهم، وهدى غيرهم بمشيئته تعالى وإرادته فيهم، وليس بأمره لهم ورضاه عنهم، فقد أرسل الله إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وجعل لهم عقولًا تميِّز الحق من الباطل، ودعاهم إلى طريق الهدى والرشاد، وكلٌّ ميسر إلى العمل بما يعلمه الله تعالى عنه في تكوينه الأزلي ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ؟ [الملك: ١٤].

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء من أعمالهم القبيحة، وسيجازيهم عليها أسوأ الجزاء، وفي هذا تهديد ووعيد لهم على سوء صنيعهم.

عن عبد الله بن الديلمي قال: أتيت عبد الله بن عمرو، وهو في حائط بالطائف، يقال

---

(١) أخرجه جويبر عن الضحاك، كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٢٥٥). والحديث عند أحمد بتحسين الألباني له كما في مشكاة المصابيح برقم (٦٠٣٦) وعند الحاكم (٤٤٨٦)، وهو في المسند عن ابن عمر بنحوه (٥٦٩٦) وأخرجه الترمذي (٣٦٨١) وقال: حديث حسن صحيح غريب وابن حبان (٦٨٨١).

له: الوهط، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى، ومن أخطأه منه ضل، فلذلك أقول: جفَّ القلم على ما عَلِمَ الله ﷻ**»[١].

الدَّلِيلُ الثَّانِي عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ: تَصْرِيفُ الأَحْوَالِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ

٩- ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ[٢] فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ[٣] فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾

هذه الآية فيها احتجاج على منكري البعث، حيث تأتي عطفًا على الاستدلال بأن الله تعالى فطَر السموات والأرض وما فيهما وما بينهما في أول السورة.

والله تعالى لم يأت بفعل الإرسال في هذه الآية بصيغة المضارع، وإنما أتى بصيغة الماضي ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ لأن القصد: هو الاستدلال بما هو واقع فعلًا، أما قوله تعالى: ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الروم: ٤٨]. فهي للاستدلال على تجديد صنع الله تعالى ونعمه.

والمعنى: أن الله تعالى أرسل الرياح، فجعلها بقدرته النافذة، تُهيِّج وتُثير السحب الساخنة أو الباردة من البحار، ثم يسوق الله بقدرته هذه السحب بالتيار الهوائي في طبقات الجو، فتذهب حيث يشاء الله شمالًا أو جنوبًا أو شرقًا أو غربًا ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي: سقنا السحاب الذي يحمل الغيث إلى أرض مجدبة، فتدب فيها الحياة بما يحمل من مطر، فتحيا به البلاد والعباد، وترتزق به الحيوانات، وترتع في الخيرات،

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه برقم (١٨١٢) من «موارد الظمآن» وابن ماجه (٣٣٧٧) وابن حبان في الإحسان (٥٣٥٧) والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٠) ورواه الترمذي في «السنن» برقم (٢٦٤٢) وقال الترمذي: حديث حسن، وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢١٣٠) و«السلسلة الصحيحة» للألباني (١٠٧٦) وصححه السيوطي في «الجامع الصغير» (١٧٣٣) وهو في «المسند» (٢/ ١٧٦) برقم (٦٦٤٤)، من حديث طويل إسناده صحيح ورجاله ثقات. (محققوه).

(٢) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف بإفراد (الرياح)، والباقون بالجمع.

(٣) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بتشديد (ميِّت)، والباقون بالتخفيف.

والماء مصدر الحياة لكل شيء في هذه الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

ومن ذلك الأرض الميتة تحيا بالماء، كما قال تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي: إن الله تعالى أحيا الأرض بهذا الماء بعد أن كانت جامدة يابسة، فتخضر بالنبات والثمر والشجر.

ويستدل القرآن بهذا الدليل العقلي والحسِّي على البعث والنشور في كثير من آياته.

أي: ومِثْلُ ذلك الإحياء للأرض بعد موتها، يكون إحياء الناس بعد موتهم، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها، فإذا أرسل الله السحاب حَمَل الماء وأنزله عليها، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وكذلك الأجساد إذا أراد الله بعثها ونشورها ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾، أي: ومثل ذلك الإحياء للأرض يحيي الله الموتى يوم القيامة، ووجه التشبيه بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ :

١- أن الأرض الميتة لما قبلت الحياة اللائقة بها، كذلك الأعضاء تقبل الحياة.

٢- وكما أن الريح يجمع القِطَع السحابية، كذلك يجمع الله بين أجزاء الأعضاء.

٣- وكما أن الله يسوق الريح والسحاب إلى البلد الميت، كذلك يسوق الروح والحياة إلى البدن الميت[(١)].

جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**كل ابن آدم يبلى ويأكله التراب، إلا عَجْبَ الذَّنب، منه خُلق، ومنه يركّب**»[(٢)].

فإذا أراد الله بعْث الأموات، أنْزل من تحت العرش مطرًا يعمُّ الأرض جميعًا، فتنبت الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض.

قال ابن مسعود ﷺ: يرسل الله تعالى ماء من تحت العرش كمنيِّ الرجال، قال: فتنبت

---

(١) «التفسير الكبير» (٧/ ٣٢).

(٢) من حديث أبي هريرة في صحيح مسلم (٢٩٥٥) و«المسند» (٩٥٢٨)، قال محققوه: حديث صحيح، إسناده قوي، ورجاله ثقات، وهو في والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢٢٨٩).

لُحمانُهم وجُسْمانهم من ذلك الماء، كما تنبت الأرض من الثرى[١].

وفي حديث عروة بن مسعود ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال: **«أمَا مررتَ بوادي قومِك ممحلًا** -أي: مجدبًا- **ثم مررتَ به يهتزُّ خَضِرًا»**؟ قلت: بلى، قال: **«فكذلك يحيي الله الموتى وتلك آية الله في خلقه»**[٢].

وإذا تهيأت الأجسام لقبول الأرواح، أمر الله بالنفختين الأولى والثانية، فإذا الأجساد قائمة، ماثلة لأمر الله تعالى بنفخ الأرواح في الأجساد، فالأرض الميتة كما قَبِلت الحياة، كذلك الأعضاء تقبل الحياة.

وكما أن الريح يجمع السحاب، فإن الله تعالى يجمع بين أجزاء الأعضاء.

وكما يسوق الله الريح والسحاب إلى البلد الميت، يسوق الروح والحياة إلى البدن الميت، فتحيا الأجساد والأرواح من القبور، ويقوم الخلق بين يدي الله تعالى ليحكم بينهم، ويفصل فيهم بحكمه العادل.

عِزَّةُ المُؤمِنِ فِي التَّمَسُّكِ بِدِينِهِ

١٠- ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾

ولما بيَّن سبحانه أن علاج خداع الشيطان وغروره للإنسان، يتمثل في اتخاذه عدوًّا، وعدم قبول دعوته وإشارته، بيَّن سبحانه في هذه الآية، أن علاج الغرور بالدنيا والافتتان بها، يكْمن في الركون إلى الله تعالى، والاعتزاز بجنابه.

فإن أهل الضلال يقلِّدون قادتهم وأغنياءهم معتزين بقوتهم ونفوذهم.

وأهل الشرك يتمسكون بشركهم؛ حتى لاتذهب منهم زعامتهم ورئاستهم.

وقد بيَّن جلَّ شأنه أن العزة في اتباع الإسلام، فمن كان يطلب العزة، فإن العزة بيد الله، لا

---

(١) من «تفسير ابن كثير» للآية (٦/ ٥٣٦) و«تفسير الطبري» (١٩/ ٣٣٦).

(٢) الطيالسي (١١٨٥) وأحمد (١٦١٩٢) والبيهقي (١٠٦٩) قال محققو المسند: وإسناد ضعيف، لجهالة حال وكيع بن حدس، وأخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٢٦٥).

تُنال إلا بطاعته، فليستجب العبد إلى دعوة الإسلام، ففيها العزة؛ لأن العزة لله جميعًا.

أما العزة التي يتشبث بها غير المسلمين، ويلتمسونها في غير ذلك فهي ذاهبة كخيط العنكبوت ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي: من كان يطلب عزة في الدنيا أو الآخرة فليطلبها من الله، ولا تُنال العزة إلا بتوحيد الله وطاعته، أما من انصرف عن دعوة الحق فلا عزة له ولا كرامة، فمن اعتز بالله أعزه الله، ومن اعتز بغير الله أذله الله.

والعزة: هي الشرف والاستعلاء والحصانة من أن يُنال المرء بسوء.

ومصدر العزة هو الله سبحانه، وليست العزة في الكبر ولا في عبادة الأوثان.

وقد كانت قريش تعتز بوثنيتها، وكان عبد الله بن أبيٍّ بن سلول يعتز بزعامته، وكذا أبو جهل وأبو سفيان قبل أن يسلم، وفي هذا قلب للقيم والموازين، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم].

وكذلك من يطلب العزة في موالاة الكافرين دون المؤمنين، فإنه مخذول، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء].

وقد ذمَّ الله سبحانه من يتقربون من المسلمين لغيرهم التماسًا للحماية والنصرة، فقال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٢].

وقال سبحانه في الرد عليهم: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

فمن طلب العزة من الله وجدها عنده ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥].

ومن طلبها من غير الله وَكلَه إلى من طلبها عنده.

جاء في الأثر: من أراد عزَّ الدارين فلْيُطع العزيز.

وعزة الرسول ﷺ مستمدة من قُربه من الله تعالى، وعزة المؤمنين مستمدة من إيمانهم بالله ورسوله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. فطلب العزة له **ثلاثة معانٍ:**

المعنى الأول: هو طلب العزة عن طريق المغالبة والقوة، وهذه العزة ليست لغير الله

تعالى، ولا تتم إلا له سبحانه، فكل مَن غلب أحدًا من خلق الله، يكون مغلوبًا لله تعالى.

ومن هذا القبيل: التمسك بما عليه الآباء والأجداد، كمن يتمسكون بعبادة غير الله تعالى، ويرون أن في ذلك عزًا لهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [مريم] وبه قال مجاهد.

وكان المشركون يتقربون إلى الأوثان بالثناء والتمجيد والتعظيم.

المعنى الثاني: طلب العزة عن طريق الاستقامة والطريق القويم، وهذه العزة لا تُنال إلا بطاعته تعالى وامتثال أمره واجتناب نهيه.

فالعزة: تكْمُن في الحق الذي دعا الله تعالى إليه على لسان رسوله ﷺ.

المعنى الثالث: أن من أراد عِلْم العزة ومعرفتها فإن المتصف بها هو الله سبحانه، وقد يتصف بها بعض عباده المؤمنين الذين نصروا دينه وشرعه، كما اتصف بها رسول الله ﷺ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

وقد أوضح الله تعالى طريق العزة، فبيّن سبحانه أنها تكون في أمرين اثنين، هما: الكلم الطيب، والعلم الصالح:

وأقوال المؤمنين وأعمالهم الصالحة هي سبب عزهم وهي التي تنفعهم وترفع درجاتهم عند الله تعالى، أما أقوال المشركين وأعمالهم فهي سعي باطل لا تنفع أصحابها.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أي: إلى الله تعالى يصعد طيب الكلام من الذكر والتلاوة والدعاء والاستغفار، وكل كلام يُرضي الله تعالى كالتسبيح والتحميد والتكبير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما إلى ذلك، فكل كلام طيب حسن، يُرفع إلى الله تعالى ويُعرض عليه، ويثنى الله على صاحبه في الملإ الأعلى.

اختراق الكلمة للموجات الهوائية:

١- وصعود الكلم الطيب إلى الله تعالى معناه: قبول هذا الكلم الطيب والرضى عنه، والإثابة عليه، وهو يصعد، أي: يرتفع ويرتقي إلى الله تعالى على وجه الحقيقة، أو يصعد إليه في صحف الأعمال.

قال النسفي: هو صعوده إلى مكان القبول والرضى.

والكلم الطيب، هو كلمة التوحيد، كما قال ابن عباس وغيره.

والعمل الصالح، هو العبادة الخالصة لوجه الله تعالى.

والرافع للعمل الصالح هو الكلم الطيب، لأنه لا يقبل عمل إلا من مُوَحِّد، فمن أراد العزة فليعمل عملًا صالحًا موافقًا للسنة، لأن هذا العمل هو الذي يرفع صاحبه عند الله.

وقال ابن عاشور: إن الكلم يتكيف في الهواء، فإسناد الصعود إليه مناسبٌ لِمَاهيَّته، وأما العمل الصالح، فهو كيفيات عارضة لذوات فاعلة ومفعولة، فلا يناسبه إسناد الصعود إليه، وإنما يحسن أن يُجْعَل متعلّقا برفع يقع عليه ويُسخِّره إلى الارتفاع.

قلت: إن جهاز التلفاز يوصل إلينا ما يلتقطه من طبقات الجو وتموج الهواء من الصوت والصورة كما تَوصَّل إليه العلم الحديث، مما يُثبت معجزة القرآن في صعود الكلم الطيب ورفع العمل الصالح.

٢- وكذا الأعمال الصالحة فإنها تُرفع إلى الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أي: إن الله تعالى يرفع الأعمال الصالحة ويقبلها عنده من عباده المؤمنين، ولا يقبل الله عملًا إلا بالتوحيد والاتباع، وكلمة التوحيد هي أعظم الكلم الطيب.

والعمل الصالح يشمل كل عمل يحبه الله ويرضاه، وفي مقدمة ذلك: أداء الفرائض، والإكثار من النوافل، وتحري الحلال والحرام.

والأعمال الصالحة في جملتها أوسع نفعًا من الكلم الطيب في جملته عدا الشهادتين، وما ورد في فضل دعاء يوم عرفة، ونحو ذلك.

والكلِم يناسبه الصعود؛ لأنه يتكيَّف في الهواء، أما العمل فيناسبه الرفع؛ لأنه كيفية تعْرض لفاعله.

وقيل في معنى الآية: إن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فإذا لم يكن للعبد عمل صالح لم يرفع له قول، فالأعمال الصالحة هي التي ترفع الكلم الطيب.

أما العمل السيء فإنه يعود إلى صاحبه ولا يزداد إلا إهانة ونزولًا.

ولذلك فإن الله تعالى أسند إلى نفسه رفع العمل الصالح، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من تصدَّق بعدْل تمرة من كسب طيب** -ولا يقبل

الله إلا الطيب- وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يُربِّي أحدكم فُلُوَّه حتى تكون مثل الجبل»[١].

ولا يقبل الله قولًا يستلزم العمل إلا به، ولا يقبل عملًا إلا بنية.

قال قتادة: لا يقبل الله قولًا إلا بعمل، فمن قال وأحسن العمل قبل الله منه[٢].

وقال الحسن: يُعرض القول على العمل، فإن وافقه رُفع، وإلا رُدَّ[٣].

وقال الحسن: ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلِّي، ولكن ما وقر في القلوب وصدَّقته الأعمال، من قال حسنًا وعمل غير صالح رده الله على قوله، ومن قال حسنًا وعمل صالحًا رفعه العمل[٤].

قال كعب الأحبار: إن لسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لَدَوِيًّا تحت العرش كدويِّ النحل، يُذْكَرْن بصاحبهن، والعمل الصالح في الخزائن[٥].

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: إذا حدثتكم حديثًا أتيتكم بمصداقه من كتاب الله، ما من عبد مسلم يقول خمس كلمات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وتبارك الله، إلا أخذهن ملَك تحت جناحه، ثم يصعد بهن، فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن، حتى يَجيءَ بهنَّ وجهَ رب العالمين ﷻ، ومصداقه من كتاب الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[٦].

وعن النعمان بن بشير ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«الذين يُذْكَرون من جلال الله من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله، يتعاطفْن حول العرش، لهن دويٌّ كدويِّ النحل،**

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٤١٠) و«صحيح مسلم» (١٠١٤).

(٢) ابن جرير (١٩/ ٣٤٠).

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٩١).

(٤) البيهقي (٦٦).

(٥) «تفسير الطبري» (٢٢/ ٨٠) قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح إلى كعب الأحبار، وقد رُوي مرفوعًا.

(٦) هذا حديث موقوف على ابن مسعود، وفي إسناده الحجاج بن نصير، ضعيف، يُنظَر: الطبري (١٩/ ٣٢٨) والطبراني (٩١٤٤) والحاكم (٢/ ٤٢٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٦٦٧).

يُذَكرُون بصاحبهن، ألا يحب أحدكم ألَّا يزال له عند الله شيء يُذْكر به»[(١)].

ولما ذكر سبحانه الكلام الطيب والعمل الصالح أتبع ذلك بذكر الكلام السيئ والعمل الخبيث، مِنَ الذين يطلبون العزة من غير الله تعالى، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

والمكر: هو إلحاق الضرر بالآخر في خفية؛ لئلَّا يأخذ حذره.

والسيئات: هي الأقوال والأعمال الخبيثة، والذين يدبرون الأمر سرًّا، ويحتالون لإطفاء نور الله، والكيد للإسلام والمسلمين، لن ينالوا أغراضهم بالنيل من الإسلام وأهله، كالذين اجتمعوا في دار الندوة وتآمروا على قتل النبي ﷺ، فأحبط الله عملهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [٤٣].

أي: إن الله تعالى سيُبطل مكرهم، فلا ينتفعون به في الدنيا ويُخذَلون بسببه في الآخرة، وهذا هو مقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾

والبوار: هو كساد التجارة، وخسران العمل، وفيه تعريض بأن الله تعالى يمكر بهم، أي: يجازيهم بأسوأ ماكانوا يعملون.

كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران].

وما أسرَّ أحد سريرة إلا كساه الله رداءها، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: دَلِيلُ الخَلْقِ وَالنَّشْأَةِ

١١- ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ[(٢)] مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾

---

(١) «المسند» (٤/ ٢٦٨) برقم (١٨٣٦٢)، و(١٨٣٨٨) إسناده صحيح ورجاله ثقات (محققوه) والبخاري في التاريخ الكبير (٧/ ٢٩٦) برقم (١٢٦) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٦٩) وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٨٩) والحاكم (١/ ٥٠٠).

(٢) قرأ يعقوب بخلف عن رويس بالبناء للفاعل في (ولا ينقص)، والباقون بالبناء للمفعول وهو الوجه الثاني لرويس.

ويأتي الدليل الثالث من دلائل الوحدانية في السورة، في هذه الآية:

أ- حيث يذكِّر الله تعالى الإنسان بأصل التكوين الأول لخلق آدم من تراب.

ب- ثم ينتقل إلى خلق النسل من نطفة؛ وذلك ليتفكروا ويتأملوا في خلق أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات].

وقال جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ﴾ [الروم: ٨].

والإشارة إلى النشأة الأولى، وأولى مراحل الحمل تتردد كثيرًا في القرآن؛ لأنها معجزة هذه الحياة، ولا يعلم أحد كيف جاءت، ولا تزال سرًّا غامضًا على البشر، ودلالتها على الخالق القادر المحيي المميت حقيقة مشاهدة ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: والله ابتدأ خلقكم ضمن خلق أبيكم آدم من تراب ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثم خلق نسله من سلالة من ماء مهين هو **المني**: وهو ماء التلقيح من الرجل للمرأة.

١- قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات].

٢- وقال سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ [الطارق].

٣- وقال جلَّ شأنه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس].

٤- وقال أيضًا: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة].

جـ - ثم إن الله تعالى جعلكم رجالًا ونساء، وزوَّج بعضكم من بعض؛ ليكون التناسل وتعمر الأرض، وهذا معنى: ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ﴾ من تركيب النطفة بين الرجل والمرأة، ولابد للذكر من أنثى، وللأنثى من ذكر، لا يستغني أحدهما عن الآخر.

ولا بدّ من التلقيح بين نطفتي الرجل والمرأة، وما ينشأ عن ذلك من أطوار النطفة في

الرحم، من الحمل إلى الوضع.

د- وعلْم الله تعالى محيط بهذه الأطوار، ومحيط بالكائنات الخفية والظاهرة ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: لا يحصل حمل للأنثى، ولا تلد ما في بطنها، إلا والله تعالى عالم به، يعلم أطواره ونوعه ورزقه، وأجله وعمله، وشقاه أو سعادته، لا يخفى عليه شيء من أحواله.

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ [الرعد].

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

والاستدلال بخلق الإنسان من نطفة، من أعظم الأدلة على دقة خلق الإنسان، وفيه الكفاية عن النظر في خلق بقية الحيوان!

وكما أن الله تعالى خلق الخلق من العدم، فإنه سبحانه يميتهم بقدرته، فالحياة والموت بيد الله سبحانه، ولكل أجل كتاب، والله يعلم مقدار عمر كل مخلوق في هذه الدنيا طال أو قصُر.

هـ - ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ المعمَّر - بفتح الميم - هو مَن يجعل الله له عمرًا، طال أو قصُر، أو هو من يمدُّ الله له في عمره، فيزيد عمره على متوسط أعمار الأمة، أو ينقص عنه.

﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ فلا يزيد عمر الإنسان عن متوسط أعمار الأمة، ما بين الستين والسبعين، فيزيد على السبعين، أو ينقص عنه، فيموت دون الستين، أو أكثر من ذلك أو أقل، إلا وهو مسطَّر في كتاب، هو اللوح المحفوظ، ثابت في علم الله تعالى.

وطول العمر أو قصره، قد يكون بسبب أو بغير سبب، فالزنى وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم، ونحو ذلك من أسباب قصر العمر، كما وردت السنة بذلك، وقد يكون طول العمر أو قصره بمعنى البركة فيه وعدم البركة، فقد يعيش إنسانًا خمسين عامًا ويترك وراءه من العلم والأثر ما تنتفع به الأجيال، وقد يعيش إنسانًا مئة عام ويترك خلفه ميراثًا سيئًا كالطرب والرقص ونحوهما، مما تفسد به الأجيال بعده وكل منهما تجري له حسناته أو سيئاته بعد موته، فهذا سن في الناس سنة حسنة، وذاك سن فيهم سنة سيئة.

قال سعيد بن جبير: مكتوب في أول الصحيفة: عمره كذا وكذا، ثم يكتب في أسفل ذلك: ذهب يوم، ذهب يومان، حتى يأتي آخر عمره[١].

وقال أبو مالك الغِفاري: ليس من يوم يُسلب عمره إلا في كتاب، ولا بقي من عمره إلا في كتاب.

وقال أبو مسلم الخراساني: لا يذهب من عمر الإنسان يوم ولا شهر ولا ساعة إلا ذلك مكتوب محفوظ معلوم.

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ: اللهم متِّعني بزوجي رسول الله ﷺ، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، فقال لها رسول الله ﷺ: **«إنك سألت لآجال مضروبة، وآثار موطوءة، وأرزاق مقسومة، لا يُعجِّل شيئًا منها قبل حلِّه، ولا يُؤخِّر شيئًا منها بعد حلِّه، ولو سألتِ الله أن يُعافيَك من عذاب في النار، وعذاب في القبر، لكان خيرًا لك»**[٢].

ويعلم الله سبحانه سبب زيادة العمر، كالصدقة وصلة الرحم، فصدقة المتصدق دليل على أن الله تعالى قد عَلِمَ طول عمره، وهكذا من يصل رحمه.

وخلْقُ الناس من تراب ثم من نطفة... وموتهم وحياتهم، وطول أعمارهم أو نقصانها، كل ذلك سهل يسير على الله تعالى ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

عن أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من سرَّه أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره فليصل رحمه»**[٣].

ورُبَّ ساعة تعدل عمرًا، لما فيها من طاعة ونفع للعباد والبلاد، ورُبَّ عام لا وزن له عند الله، ولا قيمة له في ميزان الحياة.

وهكذا ذكرت هذه الآية خمسة أدلة على قدرة الله تعالى ووحدانيته وهي:

١- خلق آدم من تراب. ٢- وخلق ذريته من نطفة.

---

(١) أبو الشيخ في «العظمة» (٤٥٤).

(٢) البخاري برقم (٢٠٦٧) و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٦٣) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٩٤) وابن أبي شيبة (٣/ ٣٧٤).

(٣) مسلم برقم (٢٥٥٧) و«السنن الكبرى» للنسائي برقم (١١٤٢٩) وأبو داود برقم (١٦٩٣).

٣- والتناكح والتناسل بينهما. ٤- وشمول علم الله تعالى.

٥- وزيادة العمر أو نقصانه. وكل ذلك يسير على الله تعالى.

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: مَشْهَدُ البَحْرَيْنِ وَمَا فِيهِمَا مِنْ نِعَمٍ

١٢- ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[1]﴾

أما الدليل الرابع على وحدانية الله سبحانه في هذه السورة، فهو الاستدلال بما على الأرض من بحار وأنهار، وما فيهما من أسماك وحُليٍّ وسفُن جارية.

وفي هذه الآية تذكير الخلق بنعم أربع:

النعمة الأولى: الماء العذب والماء الملح:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾ أي: وما يستوي ماء البحر وماء النهر، وسُمِّي النهر بحرًا: من باب التغليب.

والبحر في كلام العرب: اسم للماء الكثير المستقر في مساحة واسعة، فالفرات ودِجْلة مثلًا مياههما عذبة، ومياه خليج العرب مثلًا ملحة

﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ أي: ماؤه حلو يَرْوي العطشان، ويَسْهُل مُرورُه في الحلق لعذُوبته، وهي مياه الأنهار، فالفرات هو السائغ للشرْب، المزيل للعطش، ينتفع به الشاربون والغارسون والزارعون.

﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شديد الملوحة والمرارة، يزيد العطشان تعبًا وَحَرقانًا، وهي مياه البحار، وقد جعلها الله أجاجًا:

١- لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض بروائح ما يموت في البحر من الحيوانات.

٢- ولأنه ساكن لا يجرى، فملوحته تمنعه من التغيّر.

٣- ولتكون حيواناته ألذّ وأحسن. فهذه ثلاث أسباب للماء الأجاج.

---

(١) لم يعد الحمصى (تشكرون) آية، وعدها غيره.

وقد خلَق الله سبحانه البحرين: العذب والأُجاج على صورة واحدة، وخالف بينهما، كما قال تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

النعمة الثانية: الأسماك وما يشبهها:

ومن كِلا البحرين تخرج الأسماك والحيوانات البحرية على اختلافها ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ أي: من البحرين العذب والملح ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ سمكًا شهيَّ الطعم، غضًّا، مختلف المذاق والشكل، مفيدًا لأجسامكم.

وفي هذا تنبيه إلى أنه ينبغي المسارعة إلى أكله وهو طري قبل أن يموت ويفسُد أو يتغير.

وقد كره العلماء أكل ما يطفو منه على وجه الماء؛ لأنه يموت في الماء حتْف أنفه، لحديث جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما نضب عنه الماء فكلوه، وما لفظه الماء فكلوه، وما طفا فلا تأكلوه**».

والمراد بميتة البحر في حديث أبي هريرة ﷺ: «**هو الطهور ماؤه، الحل ميتته**»(١).

ما لفظه البحر، وليس ما مات في البحر حتف أنفه.

النعمة الثالثة: الحليُّ والزينة:

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ منها ﴿حِلْيَةً﴾ أي: زينة هي اللؤلؤ والمرجان وغيرهما ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ أي: تلبسها نساؤكم لِيحْسُنَّ في أعين الرجال، كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن].

وقيل: يخرج من البحر الحِلْية من اللؤلؤ والمرجان.

ويتكون **اللؤلؤ** من جسم غريب كحبَّة الرمل، أو نقطة ماء تدخل في نوع من القواقع داخل الصدَفة، فيفرز إفرازًا خاصًّا يحيط به هذا الجسم الغريب، ثم يتصلَّب هذا الإفراز بعد مدة، ويتحوَّل إلى لؤلؤة.

---

(١) من حديث أبي هريرة بتصحيح الألباني عند أبي داود (٨٣) وابن ماجه (٣٨٦) وهو في المسند (٨٧٣٥) والترمذي (٦٩) حديث صحيح كما قال محققو المسند.

أما المرجان: فهو نبات حيواني يعيش في الماء ويُكَوِّن شعابًا مُرجانية تمتد وتتكاثر، ثم تقطَّع بطرق خاصة، وتُتخذ منه الحلي(١).

فمن النعم التي تأتيكم عن طريق البحر: استخراجكم منه ما ينفعكم، وما تتحلى به نساؤكم وتتزين بلبسه من اللؤلؤ والمرجان.

وفي هذا تنبيه إلى الانتفاع بالثروة البحرية، وما فيها من كنوز نافعة، ينبغي على المسلمين أن يستخرجوها بأنفسهم، وألا يتركوها لأعدائهم ينتفعون بها دونهم.

وفي الآية دليل على أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحر والنهر معًا، وليس من البحر الملح فحسب(٢).

وأجود شيء في اللؤلؤ والمرجان هو ما يوجد في بحر العرب، حيث مصبّ النهرين: العذب مع اختلاطه بماء البحر الملح، فلهذا الاختلاط أثر في جودة اللؤلؤ(٣).

النعمة الرابعة: حمل السفن في البحار:

ثم ذكر سبحانه نعمة السفن التي تطفو فوق سطح الماء بقدرة الله تعالى؛ حتى لا يغرق الناس والمال والمتاع، وهي تَقْطع المسافات البعيدة في وقت قصير، وتُيسِّر سبل السفر، ونَقْل ما هو ثقيل وخفيف، وكبير وصغير، عبر القارات والبلاد، وتنقُل التجارات وغيرها، هذا معنى ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ وهي السفن تشق المياه، وتمخَر عُباب البحر، مُقْبِلة ومدبرة، تحمل الأثقال والبضائع، والرجال والنساء، من دولة إلى دولة، فتحمل السائرين وأثقالهم وتجاراتهم، وتنقل عابرات القارات، وهي مسخَّرة بقدرة الله تعالى، لا تغرق في البحر إلا إذا أراد الله ذلك ﴿لِتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الإسراء: ١٢] أي: كي تطلبوا رزق الله تعالى بأنواع التجارة والسفر إلى البلدان البعيدة في مدة قريبة.

وهذا الرزق الحاصل من التجارة ومن تسخير البحر للإنسان، هو من فضل الله تعالى ومن رحمته بعباده ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على آلائه ونعمه، فإن مَنْ شكَره زاده من

---

(١) يُنظَر: «في ظلال القرآن» (٥/ ٢٩٣٤). سيد قطب.

(٢) يُنظَر: «أضواء البيان» (٦/ ٦٤٠) للشيخ الشنقيطي.

(٣) «التحرير والتنوير» (٢٢/ ٢٧٩). ابن عاشور.

فضله وعطائه.

وقال تعالى في سورة النحل: ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [النحل: ١٤] فأخر لفظ (فيه) على (مواخر) وقال في هذه السورة: ﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ فقدَّم الظرف هنا وأخَّره هناك؛ وذلك لأن الآية هنا مسوقة للتذكير بنعمة الله سبحانه والامتنان على خلقه، ولذا قدَّم ما يدل عليه وهو الظرف، فهو الأهم.

أما في سورة (النحل) فالقصد هو الاستدلال على عظيم صنع الله تعالى في المخلوقات، بسيْر السفُن وشقِّها عباب البحر، وهي طافية على وجه الماء، ولذا أخَّر الظرف.

الدَّلِيلُ الخَامِسُ: تَصْرِيفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِالطُّولِ وَالقِصَرِ

١٣- ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾

أما الدليل الخامس من أدلة السورة، المسوقة للتذكير بنعم الله تعالى على خلقه، وهي دالة على عظيم قدرة الله تعالى وبديع صنعه، وهو مشهد الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر، ففي هذه الآية نعمتان:

النعمة الأولى: إنه سبحانه ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ أي: يُدخل من ساعات الليل في النهار، فيزيد النهار بقدر ما ينقص من الليل، والعكس صحيح، فيتفاوت بذلك طول الليل والنهار بالزيادة والنقصان، وقد يستويان، حسب الفصول والأمصار، فيصل النهار صيفًا إلى ست عشرة ساعة في بعض البلاد، وينقص الليل إلى ثماني ساعات، ويختلف الأمر عند القطبين الشمالي والجنوبي، وعند مطلع الشمس ومغربها، وبهذا تقوم مصالح العباد في أبدانهم وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم.

وكلٌّ من الليل والنهار يتعاقبان حسب اختلاف المطالع والمغارب، وكلما أتى أحدهما ذهب الآخر، وهذه آية مُشاهدة يراها الأعمى والبصير، وهو دستور لا يتغير، ونظام محكم لا يتبدل، ولا يمكن له أن يكون صُدْفة ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النمل: ٨٨].

والنعمة الأخرى في هذه الآية: **نعمة تذليل الشمس والقمر** بالضياء والنور، والسكون

والحركة، وانتشار الناس في الأرض لطلب الرزق، وتذليل ما فيهما من نضج الثمار، وصحة الأبدان، وتجفيف ما يجفف، ولو لا ذلك للحق الضرر بالناس، وكل ذلك لمصالح العباد والبلاد، بتسخير الكواكب والنجوم السيَّارة، والثوابت الثاقبة بأضوائها في أجرام السموات، كلٌّ منها يدور في مداره الذي قدره الله له، لا يتعداه إلى يوم القيامة.

وقد أثبت العلم أن الشمس تجري في الفضاء الكوني باتجاه واحد، بسرعة اثني عشر ميلًا في الثانية، كما حسبها الفلكيون، وحجم الشمس يبلغ نحو مليون ضعف حجم الأرض، قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس]، وهذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجري في الفضاء الهائل لا يسندها شيء[١].

وهي في حركة دائمة لا تفتر ولا تختل، قال تعالى ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾، وكل من الشمس والقمر يسيران في فلكهما إلى ما شاء الله، فإذا جاء الأجل، وقرُب انتهاء الدنيا، وتعطل سيرهما، خسف القمر، وكورت الشمس، وانتثرت النجوم، وسُيِّرت الجبال، وعُطِّلت العِشاء، وسُجِّرت البحار..

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ من سورة [لقمان: ٢٩]. جئ بإلى بدل اللام.

وهو تفنن في الأسلوب، فاللام تكون بمعنى: إلى، في الدلالة على الانتهاء.

والمراد: التذكير بنهاية العالم، ونهاية الآجال.

والخطاب في سورة (لقمان) موجَّه إلى الرسول ﷺ، وهو خطاب عام لكل الناس، أما الخطاب هنا فهو موجه إلى المشركين، فالسورة مكية، وما تسوقه من دلائل القدرة إنما هو لإثبات التوحيد، وتفرد الله سبحانه بالإلهية.

الأثر المترتب على إقامة الأدلة السابقة هو التوحيد:

وبعد ذكر هذه الأدلة الكونية من العالم المشاهد، فإن الله تعالى يأخذ بيد العبد إلى التوحيد ونبذ الشرك، فيقول سبحانه: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي: إن الذي أوجد هذه المخلوقات هو الله سبحانه، مالك الكون كله، لا يشاركه فيه مشارك، ولا ينازعه منازع، فله الملك والسلطان، وله التصرف في الملك كله.

---

(١) من «تفسير الجوهري» للآية.

ولفظ: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ يشير إلى ما سبق ذكره من فَطْر السموات والأرض، وجعْل الملائكة أولي أجنحة، وإرسال الرياح بالسحاب، وإحياء الأرض بعد موتها، وخلْقكم من تراب، وجعْلكم أزواجًا، وعلم الحمل والولادة، وطول العمر وقصره، وخلْق البحرين، وإدخال الليل في النهار والعكس، وتذليل الشمس والقمر، وربكم الذي فعل ذلك كله، وأوجد هذه المخلوقات لمنفعتكم، هو صاحب هذا الملك بعالميه: العلوي، والسفلي، فهو المستحق للعبادة دون سواه.

أما الآلهة التي تعبدونها من دون الله، سواء أكانت بشرًا أم حيوانًا، أم جمادًا أم كواكب، أم ملائكة أم جنًّا . . . ، فإنهم لا يملكون شيئًا، قليلًا ولا كثيرًا، صغيرًا ولا كبيرًا، عظيمًا ولا حقيرًا، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي: تعبدونهم من دون الله، وتزعمون أنهم آلهة ﴿مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾.

والقطمير: هو القشرة الرقيقة التي تكون بين التمرة والنواة، وهو مثل يُضرب للقلة والحقارة.

ولضعف الآلهة المزعومة، وهوان شأنها، وعجْزها عن أي تصرف، صارت مضرب المثل، بأنها لا تملك فتيلًا، ولا نقيرًا، ولا قطميرًا.

والفتيل: هو ما يشبه الخيط في ظهر النواة، **والنقير**: هو النقطة التي تكون في ظهر النواة.

والمقصود أن هذه الأصنام على اختلافها لا تملك من هذا الكون شيئًا لا حقيرًا ولا تافهًا، ولا ما فوق ذلك. قال تعالى:

١٤- ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

أي: ومع أن آلهة المشركين لا تملك أحقر شيء فإنهم لو دعوْها لا تسمع دعاءهم، لأنها ما بين جماد وأموات وملائكة، وكلها لا تسمع دعاء ولا نداء، ولو سمعت - على سبيل الجدل - فهي لا تملك استجابة، ولا ترضى بعبادة غيرها لها.

وقد أكد سبحانه أن ما يعبده الوثنيون جمادات، لا تعي ولا تستجيب، وقد كان المشركون يزعمون أن الأصنام تسمع دعاءهم، ولذا فإنهم كانوا يكلِّمونها، فيحْمدونها ويمدحونها، وقد أبطل الله سبحانه هذا الزعم، فبيَّن عجز هذه الأصنام، وبيَّن أنها لا تنفع ولا تضر، فهي

معبودات باطلة لا تملك شيئًا، لا تسمع، ولا تبصر، ولا تغيث ملهوفًا، ولا تجيب داعيًا، فهي جمادات لا تفهم ولا تدرك، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض، أو أنهم سمعوا كالجن والملائكة ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ أي: إن الجن لا يملكون الاستجابة، والملائكة لا تستجيب للضالين، لأنهم لا يرضون بعبادتهم لهم وهذا في الدنيا، أما في الآخرة فإنهم يتبرؤون من عبادتهم إياهم، ومن إشراكهم مع الله تعالى في العبادة.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ حيث يُنطق الله الجمادات، فتتبرأ من عبادة الناس لهم، ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ [سبأ: ٤١]. والآيات المماثلة لهذا المعنى كثيرة.

منها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف].

وقوله سبحانه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وهذه الحقائق التي لا تقبل الشك، ولا يخبر بها إلا عليم ببواطن النفوس وظواهرها، فاجزم بما قاله رب العالمين كأنه رأي عين ولا تشك فيه طرفة عين.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ يعني: نفسه سبحانه، فهو يعلم السر والنجوى، فلا أحد يخبرك باليقين غير الله تعالى.

وهكذا فإن الآيات السابقة تضمنت البراهين الساطعة والأدلة القاطعة على وحدانية الخالق سبحانه، وأن غيره لا يستحق شيئًا من العبادة.

النِّدَاءُ الثَّالِثُ: عَدَمُ اسْتِغْنَاءِ النَّاسِ عَنْ رَبِّهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ

١٥- ﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝١٥﴾

وبعد هذه المواعظ والعبر التي تشهد بوحدانية الله تعالى، وعظيم قدرته، وبديع صنعه، يأتي النداء الثالث لعموم البشر، والمشركين على وجه الخصوص؛ لتذكيرهم بنعم الله

سبحانه عليهم، وأن جميع الناس محتاجون إلى إحسان الله تعالى وإنعامه في جميع أحوالهم، لا يستغني عنه أحد طَرْفة عين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أنتم المحتاجون إلى الله في الدنيا والآخرة في جميع أحوالكم، وفي حركاتكم وسكناتكم، فأنتم فقراء إليه في وجودكم في هذه الحياة وقد كنتم عدمًا.

فقراء إليه في إعدادكم بالحواس والأعضاء والجوارح والقوة البدنية والروحية.

فقراء إليه في إمدادكم بالقُوت والرزق والنعم الظاهرة والباطنة.

فقراء إليه في جلب الخير ودفع الضر، وإزالة المكروه والشدائد وتفريج الكربات.

فقراء إليه في التربية والتعليم، والتوفيق للهداية، وإخلاص العبادة.

والموفَّق هو الذي يستشعر فقره إلى الله تعالى في كل أموره الدينية والدنيوية، فهو يتضرع إلى ربه صباح مساء، ويسأله ألا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه في جميع أحواله، فلا حول ولا قوة إلى بالله.

وبعد أن مهَّد سبحانه بأن جميع الناس مفتقر إليه، أتبع ذلك بوصف نفسه بالغنى والحمد، فهو الغني بذاته عن مخلوقاته، المحمود في ذاته وأسمائه وصفاته.

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ غني عن العالم على وجه الإطلاق، منعم عليهم بجميع النعم، وهو سبحانه المستحق للحمد والثناء.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]. قال تعالى:

١٦، ١٧- ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ[1] ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾

ثم قرر سبحانه استغناءه عن الخلق، وذكر من مظاهر غناه أنه جلَّ شأنه لا يكترث بمن أعرض عن الإسلام، ولو شاء لأبادهم، وخلَّص الأرض من عصاة أمره ونهيه، وأتى

(١) لم يعدّ (ويأت بخلق جديد) آية، البصري والحمصي، وعدّها غيرهما.

بخلق جديد، يعبدوه ويوحدوه، فهو القادر على ذلك، ولكنه سبحانه أمهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة، قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [النساء:١٣٣]. هم أطوع لله منكم، فإن شاء سلط عليكم موتًا يعمُّكم فيهلككم ويبيدكم من الوجود، فكأنه أذهبكم من مكان إلى مكان، ثم أتى بكم إلى الدار الآخرة، ولكن الله تعالى أخَّر عنهم العقوبة، وفي هذا تهديد ووعيد للعصاة والمشركين، وبيان لهم أن حياتهم ووجودهم يتوقف على مشيئة الله وإرادته.

وليس معنى الآية: إن يشأ الله يعجل بموتهم، فيأتي جيل مؤمن من أبنائهم.

وما هذا الذي ذكرناه لكم من إفنائكم والإتيان بغيركم ليس بصعب ولا ممتنع على الله تعالى، بل هو سهل يسير على من يقول للشيء: كن، فيكون ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

فالآية تحتمل أن يكون المراد: إن يشأ يذهبكم - أيها الناس - ويأت بغيركم هم أطوع لله منكم، وتحتمل أن يراد بها البعث والنشور، لبيان أن مشيئة الله تعالى نافذة في كل شيء، ومنها إعادتكم بعد موتكم خلقًا جديدًا، وهذا الوقت علمه عند الله تعالى، والآية التالية ترشح هذا المعنى.

لَا تُعَاقَبُ نَفْسٌ بِذَنْبِ أُخْرَى

١٨- ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

ولما خاطب الله سبحانه عموم الناس وهدَّدهم وتوعَّدهم، أراد طمْأنة المسلمين من عواقب هذا التهديد، فبيَّن سبحانه أن من لم يرتكب جُرمًا ولم يكتسب إثمًا لا تناله عقوبة، فالجزاء شخصي، لا يتجاوز مرتكبه إلى غيره، وكل نفس مسؤولة عن أقوالها وأفعالها، تتحمل نتائجه، ولا تحمله نفس أخرى، ولا تعاقب بذنب غيرها، كما يفعل ذلك بعض الطغاة من التعذيب والضغط على غير الجاني ليعترف بما نُسِبَ إليه، فيعترف اعترافًا غير صحيح حتى يدفع الأذى عن والده مثلًا، أو يمنع انتهاك عرض زوجه أو أمه!

عن عمرو بن الأحوص أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: **«ألا لا يجني جانٍ إلا**

على نفسه، لا يجني والد عن ولده، ولا مولود عن والده»[(١)].

وعن أبي رِمْثَةَ قال: انطلقتُ مع أبي نحو رسول الله ﷺ، فلما رأيته قال لأبي: **«ابنك هذا»؟** قال: إي ورب الكعبة، قال: **«أما إنه لا يجني عليك ولا تجني عليه»** ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [(٢)].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم].

وقال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر].

وقال أيضًا: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤].

فإذا تسبب الإنسان بقوله أو فعله في أن يَسْتنَّ الناس به في فعل حسنة أو سيئة، فإنه يتحمل جزاء ما كان سببًا فيه، كما قال ﷺ: **«من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سُنَّةً سيئة فعليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها مِنْ بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»**[(٣)].

أما قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وقول النبي ﷺ من حديث زينب بنت جحش ﵂ قالت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: **«نعم، إذا كثر الخبث»**[(٤)].

فالآيتان والحديث محمولة على عدم قيام الآخرين بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن

---

(١) «صحيح سنن ابن ماجه» (٢١٦٠) والترمذي (١١٦٣) وقال حسن صحيح، والطبراني في الكبير (١٧/ ٥٩) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢، ٤١٠٠) و«المسند» (٢٥/ ٤٦٥) (١٦٠٦٤)، قال محققوه: حديث صحيح وفيه ابن الأحوص، مجهول الحال، وبقية رجاله الإسناد ثقات.

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٣٥٤٥، ٣٧٧٣) والترمذي في «الشمائل» (٤٤) والنسائي (٤٨٤٧) والبيهقي (٨/ ٢٧)، ومسند أحمد (٧١١٨) قال محققوه: رجاله ثقات رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد فمن رجال النسائي وهو ثقة.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٠١٧) من حديث المنذر بن جرير عن أبيه.

(٤) «صحيح مسلم» (٢٨٨٠) و«صحيح البخاري» (٣٣٤٦، ٣٥٩٨، ٧٠٥٩).

المنكر، فإذا لم تتمعَّر وجوههم غضبًا لله تعالى، ورضوا بأفعالهم، وسكتوا عنها، عمَّهم العقاب، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف].

ولما كانت عادة الناس في الدنيا أن أحدهم إذا استنجد، أو استغاث بغيره من ضرر دنيوي رفَعه عنه، فأغاثه وأنجده، فقد بيَّن سبحانه أن هذه الحالة لا يقاس عليها أحوال الناس في الآخرة، فَحُكْمُ الله تعالى عادل مطَّرد مستمر، وسنته قائمة فيهم، ذلكم ما ينبه عليه قول الله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ﴾ نفس ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ بالذنوب، نفسًا أخرى، فتسألها أن تحمل عنها شيئًا من خطئها، فتدعوها ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ لم تجد من يحمل عنها شيئًا ولو كان أقرب الناس إليها، كالأخ أو الابن أو الأب أو الأم أو الزوجة، فإنه ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾. فحال الآخرة ليس كحال الدنيا، يساعد فيه الحميم حميمه، والصديق صديقه، بل إن يوم القيامة يتمنى فيه العبد لو كان له حق على أحد حتى ولو على والده وولده.

في حديث عمر ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «**إن الميت يُعذَّب ببعض بكاء أهله عليه**»، فقال ابن عباس: فلما مات، ذكرْتُ ذلك لعائشة، فقالت: يرحم الله عمر، لا، والله! ما حدَّث رسول الله ﷺ: إن الله يعذب المؤمن ببكاء أحد، ولكن قال: «**إن الله يزيد الكافر عذابًا ببكاء أهله عليه**»، قال: وقالت عائشة: حسبكم القرآن ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ قال: وقال ابن عباس عند ذلك: والله أضحك وأبكى(١).

فالله تعالى عدل في حكمه، ولا يؤاخِذ نفسًا بذنب غيرها، ولا غيَّاث يومئذ لمن استغاث، وإن كان المستغاث به أقرب الناس إليه، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس]

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣].

وفي هذا بيان أنه إذا استصرخت نفس يوم القيامة، تُريد من يَحْمل عنها شيئًا من أوزارها،

---

(١) «صحيح مسلم» (٩٢٧، ٩٢٩) و«صحيح البخاري» (١٢٨٨).

فإنها لا تجد من يجيبها إلى ذلك.

وهذا لا ينافي الشفاعة العظمى يوم القيامة، ولا ينافي ما جعله الله من مكفرات الذنوب.

ثلاثة أوصاف لمن ينتفع بالموعظة:

ثم أشار سبحانه إلى أن هذا الكلام فيه موعظة لغير المسلمين وتخويف لهم، وإبطال لأوهامهم ومزاعمهم في أمر البعث والحساب والجزاء، ولذا: فإن الآية وجهت الخطاب إلى النبي ﷺ لبيان أن هذه المواعظ لم تُجْدِ في غير أهل الإيمان شيئًا، وأن الذي ينتفع بالمواعظ هم المؤمنون الموصوفون بثلاثة أوصاف، هي:

الخوف من الله تعالى، وإقام الصلاة، وطهارة النفس من الشرك والدنس.

وعن **الوصف الأول** قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ يا رسولنا بالقرآن فينفع إنذارك ووعظك ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ دون أن يروْه سبحانه، أو يروْا عذابه، فهم الذين يخشونه في السر والعلن، والغيب والشهادة، يخافون من الله وهم لم يروْه، ويخشوْن عذابه وهم لم يطلعوا عليه، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١].

فهم يخافون الله تعالى في خلْوتهم وجلْوتهم. وسرِّهم وعلانيتهم.

والوصف الثاني لمن ينتفعون بالموعظة، أنهم لم يفرِّطوا في أداء الصلاة، فحافَظوا عليها بخشوع وخضوع واطمئنان ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بحدودها وشروطها وواجباتها وأركانها وسننها، وأدوها مع جماعة المسلمين في أوقاتها.

وإقامة الصلاة من خصائص المسلم، فهي تنهاه عن الفحشاء والمنكر، والخشية تستدعي العمل بما يرضى الله والهرب مما يسخط الله، وفي هذين الوصفين إخلاص الإيمان في الاعتقاد والعمل.

والوصف الثالث لمن ينتفعون بالوعظ والإرشاد، أنهم الذين زكوا أنفسهم وطهروها من دنس الشرك ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: إن ثمرة التطهر تعود عليه، فصلاحه وتقواه لنفسه، ومن تطهر من دنس الكفر والفسوق والعصيان، والرياء والشرك والكبر والخداع

والنفاق، وتحلى بالأخلاق الحميدة كالصدق والإخلاص، وحصَّن نفسه بالإيمان والعمل الصالح، والتوبة النصوح، فإن ثمرة هذه التزكية ترجع إليه بالأجر والثواب في الآخرة.

وتزكية النفس تشمل: طهارة البدن من الدنس، وطهارة النفس من الذنوب والمعاصي، وطهارتها من الشرك.

وإلى الله المرجع والمصير، فيحاسب كل نفس على ما قدمت، ويجازيها بما عملت.

أَرْبَعَةُ أَمْثِلَةٍ لِلكُفْرِ وَالإِيمَانِ

١٩-٢١- ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ[١] ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ[٢] ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾

ثم ضرب الله سبحانه أربعة أمثلة للمؤمن والكافر، والإيمان والكفر وبيّن أنهما لا يستويان أبدًا ولا يلتقيان، فلا يستوي الأعمى عن الحق الذي لا يبصر طريق الرشاد، بالبصير الذي سلك طريق الهدى واتبع رسول الإسلام.

ولا يستوي ظلمات الكفر بنور الإيمان، ولا يستوي الظل البارد بالريح الحارة المحرقة، ولا يستوي مَنْ أحيا الله قلبه بالإيمان، بمن أمات قلبه بالكفر، وأعمى بصيرته عن الهدى.

فشبَّه سبحانه الكافر بالأعمى والميت، وشبَّه المؤمن بالبصير وبالحي.

وشبه الكفر بالظلمات، وشبه الإيمان بالنور.

وشبه الإيمان بالظل الوارف البارد.

وشبه ريح الكفر، بالحرور -أي: حر الشمس - أو ريح السموم الحارة - بالميت.

وكل ذلك تشبيه للمعقول بالمحسوس، فقابل القرآن بين الأعمى والمبصر، وبين الظلمة والنور، وبين الظل ووهج الشمس، وبين الحي والميت ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ﴾ عن دين الله ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ الذي أبصر طريق الحق واتبعه، فالكفر عمًى في القلب، عَمًى عن دلائل الحق وطريق الهدى.

وكما لا يستوي في عرف عاقل الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن،

---

(١) ،(٢) ترك العدد البصري، لفظ (البصير) ولفظ (ولا النور) من عدّ الآى وعدهما غيره.

ولا تستوي ظلمات الكفر ونور الإيمان، وكما لا تصلح المساواة بين الظلمات والنور، كذلك لا تصلح المساواة بين الكفر والإيمان.

ولا يستوي الظل البارد بالريح الحارة، ولا يستوي المكان الظليل مع المكان الشديد الحرارة.

وهكذا ضرب الله الظلَّ مثلًا للجنَّة، وظلها الظليل، وأشجارها اليانعة، كما ضرب مثلًا للنار بشدة حر الشمس المتوهجة، فالجنة مستقر الأبرار، والنار مستقر الفجار.

وكما أنكم لا تشكون في الأمور المحسوسة، وأن هذه الأمور لا تستوي، فكذلك الشأن في الأمور المعنوية لا تقبل الشك، فلا يستوي المهتدي والضال، ولا العالم والجاهل، ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار، وهكذا، فاختر لنفسك - أيها العبد - ما شئت فإنك محاسب ومُجازَى عليه. قال تعالى:

٢٢، ٢٣- ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ[١] ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ[٢] ﴿٢٣﴾﴾

أي: ولا يستوي أحياء القلوب بالإيمان، وأموات القلوب بالكفر، ولا يستوي العقلاء والجهلاء، وهكذا ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠].

قال قتادة: خَلْقٌ فُضِّل بعضُه على بعض، فأما المؤمن فعبْدٌ حَيٌّ، حَيُّ الأثر، حيُّ البصر، حَيُّ النيَّة، حَيُّ العمَل. والكافر عبْدٌ ميِّت، ميِّت البصَر، ميِّت القلب، ميِّت العمل[٣].

قال أبو حيان: وترتيب هذه الأشياء، في بيان عدم الاستواء، جاء في غاية الفصاحة، فقد ذكر الأعمى والبصير مثلًا للمؤمن والكافر، فذكر ما عليه الكافر من ظلمة الكفر، وما عليه المؤمن من نور الإيمان، ثم ذكر مآلهما، وهو الظل والحرور، فالمؤمن بإيمانه في ظل وراحة، والكافر بكفره في حَرٍّ وتعبٍ.

ثم ذكر مثلًا آخر على أبلغ وجه، وهو الحي والميت، فالأعمى قد يكون فيه بعض النفع، بخلاف الميت.

---

(١) ترك الدمشقي عد (من في القبور) آية، وعدها غيره.

(٢) ترك الحمصى قوله تعالى: (إلا نذير) من العدد، وعدها غيره.

(٣) «تفسير الطبري» (٩/ ٢٥٧)، (١٩/ ٣٥٤).

وجَمَع الظلمات، لأن طرق الكفر متعددة، وأفرد النور، لأن التوحيد والحق واحد لا يتعدد.

وقدَّم الأشرف في المثَلَيْن الأخيرين، وهما الظل والحرور، وقدَّم الأوضح في المثلين الأولين، وهما: الأعمى والظلمات؛ ليظهر الفرق جليًّا.

ولا يقال: إن ذلك لأجل السجع؛ لأن معجزة القرآن ليست في اللفظ وحده، بل في المعنى أيضًا[1].

وفي هذا يقول تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ويقول أيضًا: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود: ٢٤].

وفي وصف (الحرور) يقول تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾ [الواقعة].

ثم إن الله تعالى أعذر نبيه في تبليغ الدعوة لأهل الجنة وأهل النار، فبيَّن سبحانه أن مهمة الرسول هي مجرد البلاغ.

والله تعالى هو الذي يُسمع من يشاء سماع فهم وقبول، أما أنت - أيها الرسول الكريم - فكما أنه ليس بإمكانك أن تُسمع الموتى في قبورهم، فكذلك لا تستطيع أن تُسمع الكفار سماع قبول وفهم؛ لأنهم موتى القلوب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ فينتفع بما يسمع كحال المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٨﴾ [الزمر].

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ وهذا تشبيه للكافر في عدم انتفاعه بهدْي القرآن وإعراضه عن سماعه -بالموتى الذين دُفنوا في القبور، فكما أن سكان القبور لا يستفيدون شيئًا، فإن المعرض المعاند لا يستفيد شيئًا من دعوة الهدى.

وقد كان الكفار يوصي بعضهم بعضًا بعدم الاستماع للقرآن، والتهريج عندما يُلقى على مسامعهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦﴾ [فصلت].

فسبب عدم انتفاعهم بالقرآن، هو موت قلوبهم، فكأنهم أموات في قبورهم، وجسد

(١) «البحر المحيط» باختصار وتصرف (٧/ ٣٠٩).

الميت الذي في القبر أو في غيره لا يَسمع، أما الأرواح فليست في القبر، وقد ورد أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تردُ أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وأن أرواح المؤمنين في شجر أو قناديل تحت العرش، أما أرواح الكفار فهي في سجين.

وفي بعض الأحيان تُردُّ الأرواح إلى الأجساد في القبور فتسمع، كما أخبر النبي ﷺ: **«أن الميت ليسمع خفق نعال أهله عند ردِّ روحه إليه حال سؤال الملَكين»**[(١)].

وكما أخبر ﷺ عن أهل قليب بدر، حين خاطبهم بعد قتلهم قائلًا: **«هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا»**؟ ولما قيل له: أيسمعون ما تقول؟ قال: **«ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»**[(٢)].

فلا تعارض بين هذه الآية وحديث أهل القليب ونحوه؛ لأن الله تعالى يَرُدُّ الأرواح إليهم أحيانًا لتوبيخ الأحياء من الكفرة، أو لبشرى المؤمنين.

ولما كان النبي ﷺ مهتمًّا بإيمان الجاحدين المكذبين، ويشق عليه عدم إيمان المشابهين لمن في القبور، أخبره ربه أن مهمته مقصورة على إنذارهم، وتخويفهم غضب الله ومقته إن لم يؤمنوا، وفي هذا إعذار للنبي ﷺ بأنه ليس بِمُدْخِلِ الإيمان في قلوبهم ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: وما أنت إلا منذر للناس عذاب الله إذا استمروا على كفرهم، أما الهداية والضلال فمن الله وحده.

دَعْوَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّتِ الخَلَائِقَ جَمِيعًا عَلَى مَدَى التَّارِيخِ الإِنسَانِيّ

٢٤- ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية، أن قصْر رسالة النبي محمد ﷺ على الإنذار في الآية السابقة أمر خاص بالمشركين، أما حقيقة الرسالة فهي تجمع بين البشارة والإنذار، فالبشارة لمن قَبِل

---

(١) صححه الألباني بلفظ (إن الميت إذا انصرفوا) الآيات البينات ص٥٥ وفي مسند أحمد (٩٧٤٢) عن أبي هريرة بلفظ (إذا ولّوا مدبرين) قال محققوه: حديث صحيح لغيره، وفيه عبدالرحمن بن كريمة، متكلم فيه، وأخرجه ابن أبي شيبة (٣/٣٧٨) والبزار في كشف الأستار (٧٨٣) وابن حبان (٣١١٨).

(٢) في البخاري عن أبي طلحة (٣٧٥٧) وفي مسلم عن عمر (٢٨٧٣) يُنظرَ الحديث في «المسند» عن عمر (١٨٢) وعن أنس (١٢٠٢٠) وعن أبي طلحة (١٦٣٥٦) وعن ابن عمر (٦١٤٥).

الهدى، والنذارة لمن أعرض عن الإيمان بالله وشرائع الدين، فقد أرسلناك -أيها الرسول- مبشرًا بالجنة من صدَّقك وعمل بهديك، ومحذرًا من كذَّبك وعصاك من عذاب النار.

وما من أمة من الأمم ينتهي نسبها إلى جدٍّ واحد، يجمع قبائل كثيرة في مواطن متجاورة، إلا أرسل الله إليهم رسولًا أو نبيًّا، يخوِّفهم عذاب الآخرة إن لم يؤمنوا، وهذه الأمم: كالفرس والروم والصين والهند واليونان والبربر والعرب... إلخ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

ومن هذه الأمم من عَلِمْناهم، ومنهم من انقرض ولم يبق له أثر ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يحذرها عاقبة كفرها وضلالها، وحكمة الإنذار؛ لئلَّا يبقى الضلال رائجًا، مع استمرار الدعوة، سواء آمنوا أم لم يؤمنوا.

وقد اقتصر القرآن على ذكر الرسل والأنبياء الذين كانوا في بلاد العرب دون غيرها؛ لأن العرب كان لهم علم بأخبارهم، وشهدوا آثارهم، فكان الاعتبار بهم أوقع، ولو ذُكر لهم قصص أمم لا يعرفونها لكانت مجرد حكاية لا عبرة فيها، ولأن القرآن نزل بلغة العرب، ولو نزل بلغة الهند مثلًا لقيل: لماذا لم ينزل بلغة فارس؟! ولو نزل بلغتهم لقيل غير ذلك، وهكذا دواليك.

ولا يمنع أن تكون هذه البقعة من العالم - المنطقة العربية - قد خصها الله تعالى بنزول الوحي على رسله فيها، لمزيد فضل و مزية، ولأنها تتوسط العالم، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

وقد اقتصر عَجُز الآية على أن الله تعالى أرسل في كل أمة نذيرًا دون بشير؛ لأن من الأمم من لم يؤمن، فلم تحصل لهم البشرى، ووَصْفُ النذير أنسب في مقام التكذيب.

فقد جاء في الحديث: عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«عُرِضتْ عليَّ الأمم، فجعل النبي يمرُّ معه الرهيط، والنبي يمرُّ معه الرجل والرجلان، والنبي يمرُّ ليس معه أحد»**[1]. وذلك لأنه لم يستجب له أحد من قومه.

---

(١) من حديث طويل في «صحيح مسلم» (٢٢٠) و«صحيح البخاري» (٣٤١٠، ٥٧٠٥٠، ٥٧٠٥٢).

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

وقوله: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [النحل: ٣٦].

فإن كانت آثار الرسالة باقية فهي لا تخلوا من نذير، وإن اندثرت معالم الرسالة السابقة أرسل الله لهم رسولًا، كما حدث بين عيسى ومحمد عليهما السلام.

فقد أرسل الله محمدا ﷺ على فترة انقطاع من الرسل، اندثرت فيها رسالة عيسى، وأصبح العالم في حاجة ماسة إلى وجود رسول يخرجهم من الظلمات إلى النور، فكانت رسالة محمد ﷺ رحمة للعالمين ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ﴾ [المائدة: ١٩]

فدعوة الله تعالى قد عمَّت الخلائق جميعًا، لأن آدم عليه السلام قد بعثه الله إلى بنيه، ولم تنقطع النذارة والبشارة في بنيه من لدن عهده إلى بعثة محمد ﷺ.

وذكر أهل الفترة على سبيل الفرض، وليس لأنه توجد أمة لا تعلم أن في الأرض دعوة إلى عبادة الله وحده[1].

٢٥- ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾

وإن يكذبك - أيها الرسول - هؤلاء المعرضون عن دعوتك، فلست أول رسول يكذب، فقد كذب الذين من قبلك رسلهم مع مجيئهم لهم بالمعجزات البينات، والآيات الواضحات الدالة على نبوتهم، فكذبوهم وأنكروا ما جاؤوا به من عند الله تعالى، فلا تحزن، ولا تحسب أنهم سيفلِتون من العقاب، بل سيحل بهم ما حلَّ بمن قبلهم من الأمم السابقة الذين جاءتهم رسلهم بالحجج المختلفة، منها خوارق عادات، مثل: قوم صالح، وقوم هود، وقوم لوط.

ومنهم من جاءتهم رسلهم بالصحف وبالزبر، وهي المواعظ التي تُكتب وتُحفظ، وتُرددها الألسنة: كزبور داود، وكتب أنبياء بني إسرائيل مثل: أرمياء، وإيلياء.

(١) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٦/ ٤٣٦).

ومنهم من جاء بالكتب والشرائع مثل: إبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وأشهر الكتب السماوية: التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن، وصحف إبراهيم وموسى، وكلها موزَّعة على الرسل.

وحرف الباء يشير إلى هذا المعنى، فالمراد بالبينات في الآية: الدلائل والبراهين الدالة على صدق الرسل، والمراد بالزبر: الكتب المكتوبة، والمراد بالكتاب المنير، أي الكتاب المضيء بأخباره الصادقة وأحكامه العادلة، فتكذيبهم ناشيء من الظلم والعناد، وليس من قصور أو اشتباه فيما جاءت به الرسل، وهذه الآية سيقت لتسلية النبي ﷺ.

وذلك عكس ما جاء في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران: ١٨٤]. فهي هناك في الرد على زعم أهل الكتاب أنه لا تُقبل معجزة أي رسول حتى يأتي بقربان تأكله النار؛ و كل رسول أتى بأصناف من المعجزات، ومنها القرابين التي تأكلها النار، ولذا جُرِّدت آية سورة (آل عمران) من الباء في الزبر والكتاب، قال تعالى:

٢٦- ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ[1] ﴿٢٦﴾﴾

أي: وبعد إمهال الكفار الذين لم يؤمنوا برسل الله، مع وجود البراهين الواضحة الدالة على صدق دعواهم، أخذ الله الذين كفروا أخذًا عجيبًا بأنواع العذاب المختلفة، فانظر - أيها المخاطب- كيف كان إنكاري عليهم وحلول عقوبتي بهم؟! فقد بدَّل الله نعمتهم نقمة، وسعادتهم شقاء، وقصورهم خرابًا، وهكذا يفعل سبحانه بمن كذَّب رسله، فإياكم وتكذيب الرسل حتى لا يصيبكم ما أصاب من قبلكم من الخزي والعذاب الأليم.

في رحاب العلم التجريبي

٢٧- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾

(١) قرأ ورش بإثبات الياء وصلًا من (نكير) ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

وبعد أن بيَّن سبحانه اختلاف أحوال الناس في قبول الهدى أو رفْضه؛ ليُظْهر في عالم الوجود ما تنطوي عليه نفوسهم من الخير أو الشر، بيَّن جلَّ شأنه أن هذا الاختلاف بيْن جميع الكائنات أمرٌ فطَر الله عليه جميع مخلوقات العالم الأرضي.

١- **ألوان الثمار**: وقد خوطب النبي ﷺ بذلك لدفع غَمِّه وهَمِّه من عدم انتفاع المشركين بالقرآن ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: تبصر أيها المخاطب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي: أنزل المطر من السحاب بقدرته، فسقينا به أشجارًا في الأرض، فأخرجنا به ثمرات ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ أي: أخرجنا من هذه الأشجار ثمارًا متعددة الألوان، منها الأحمر والأصفر والأسود وغير ذلك، بعضها حلو المذاق، وبعضها مر الطعم، وهي تسقى بماء واحد، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

ومن آياته اختلاف ألوان الأصناف من النوع الواحد، كاختلاف ألوان التفاح مع ألوان السفرْجل، وألوان العنب مع ألوان التين، وكذلك اختلاف الألوان في الصنف الواحد، كاختلاف ألوان التمور والزيتون والأعناب والتفاح والرمان.

وقُدِّم اختلاف ألوان الثمرات في الآية على غيرها؛ لأنها تشبه اختلاف الناس في المنافع والمدارك والعقائد، كما جاء في حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة، ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل الثمرة، لا ريح لها وطعمها حُلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مرٌّ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر**»[1].

وثمرات النخيل أكثر الثمار ألوانًا، فإن ألوانها تختلف باختلاف أطوارها، فمنها: الأخضر والأصفر والأحمر والأسود والأبيض.

٢- **ألوان الجبال**: وبعد ذكر ألوان الثمار، يأتي ذكر ألوان الجبال، ففي ألوان الصخور شَبَهٌ عجيب بألوان الثمار وتعددها وتنوُّعها ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا

(١) من حديث أبي موسى الأشعري في «صحيح مسلم» (٧٩٧) والبخاري (٥٢٠، ٥٠٥٩) وغيرهما.

﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي: وخلقنا من الجبال طرقًا وشعابًا مختلفة في درجة اللون، ففي بعض الجبال توجد جُدَد، أي: طرق في صخور بيضاء ذات عروق تشبه المرجان مثل المرمر، أو ما يقرُب من البياض كالتراب الأبيض، والجير والجص، ومنها جبال تتكون من حجارة حمراء، ومن الجبال ما هو أسود شديد السواد، فسبحان الخلاق العليم.

والْجُدَّة: هي الخطة التي تكون في ظهر الحمار، تخالف لونه، وهي الطريقة أيضًا.

والغربيب: هو الشيء الأسود الحالك، شديد السواد، كما يقال: أسود غربيب.

٣- أما ألوان الناس والدواب والأنعام فجاءت في قوله تعالى:

٢٨- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟[(١)] إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

أي: وخلَق الله من الناس ألوان أصناف البشر، وهي الأبيض والأسود والأصفر والأحمر، وبيْن ذلك ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢].

أي وخلَق الله من جميع أنواع الدواب كالخيل والبغال والحمير ألوانًا مختلفة، والدواب أشمل من الأنعام، فاختلاف الألوان ليس مقصورًا على الفواكه والثمار، بل يشمل طبقات الأرض، والجبال الصلبة، ويشمل الناس والدواب والأنعام، هذا أبيض، وهذا أحمر، وهذا أسود ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وهكذا: خلق الله الأشياء المتضادة، أصلها واحد، ومادتها واحدة، وفيها من الفرق والتفاوت ما هو مشاهَد لا ينكَر، ليدل العباد على كمال قدرته تعالى وبديع حكمته، فهذه الأرض واحدة، والماء واحد، ومع ذلك يُخرج الله به ثمرات مختلفة ونباتات متنوعة، الماء واحد، وما يخرج منه متعدد متنوع، وهذه الجبال، مادتها واحدة، وألوانها متعددة، وفيها الأبيض والأصفر والأحمر وشديد السواد، وهؤلاء الناس والدواب والأنعام،

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية من (العلماء إن) وبإبدالها واوًا خالصة، والباقون بتحقيقها.

أصلها واحد، ومادتها واحدة، وهي مختلفة الأشكال والأصناف والأنواع والألوان والألسُن، وهذا التفاوت في المخلوقات دليل عقلي على عظيم قدرة الله تعالى وسعة علمه، وأنه سبحانه يبعث من في القبور.

وقد سيقت هذه الآيات للحث على التأمل وإمعان النظر في عجائب صنع الله تعالى، وعظيم قدرته، وهي دعوة حارة إلى تدبر آيات الله في العالم، وكشف أسراره في الكون.

فالتفكر في ذات الله سبحانه لا يؤدي إلى نتيجة؛ لأن العقل المخلوق لا يدرك كنه الخالق سبحانه، والعقل المحدود لا يدرك الكمال المطلق، كما أن جهاز الحاسوب مثلًا لا يمكنه أن يحيط علمًا بحقيقة المهندس الذي صمَّمه، ولله المثل الأعلى، فلم يبق سبيل إلى معرفة الخالق جلَّ شأنه إلا عن طريق النظر في مخلوقاته، وهو دليل لا يُكذَّب.

إنك تقف في مزرعة أو حديقة، فتجد ألوانًا من الزروع والثمار مختلفة الطعم واللون والروائح، وكلها تخرج من طينة واحدة، وتُسقى بماء واحد.

فإذا رفعْتَ بصرك إلى السماء وجدت شمسًا ساطعة، وقمرًا منيرًا، ونجومًا مبعثرة في الآفاق على أبعاد سحيقة، تدل على عالَم ضخم فخم.

وكل ذلك أثر من آثار قدرة الخالق العظيم؛ ليؤدي ذلك إلى العلم بعظمة الله وجلاله، ويؤدي هذا العلم إلى خشيته سبحانه.

ولذا فإن الله تعالى ختم الآيتين بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ أي: إنما يخشى الله ويتقي عقابه، بطاعته واجتناب معاصيه: العلماء به سبحانه، وبصفاته، وبشرعه، وبقدرته على كل شيء، ومنها اختلاف المخلوقات مع اتحاد سببها؛ كي يتدبروا ما فيها من عظات وعبر، فكل من كان بالله أعلم، كانت خشيته له أكثر، فابتعد من المعاصي، واقترب من الطاعات، واستعدَّ للقاء الله.

وسياق الآية ظاهر في أن المقصود بالعلماء هنا: علماء النبات والحيوان، وعلماء طبقات الأرض، وعلماء الفيزياء والكيمياء، فضلًا عن علماء الطب والهندسة والفلك، وما إلى ذلك.

والشرط الوحيد أن تكون أبحاث هؤلاء العلماء جميعًا مرتبطة بالواحد الأحد، على

أنها من آثار قدرة الله تعالى وبديع صنعه.

فإذا انقطعت الصلة بين الله سبحانه وبين هذه العلوم، فلا قيمة لها، ولا وزن لها عند الله تعالى، وليس لها أثر في إيمان العبد ولا في تقويم أخلاقه، ولا في نفع العباد والبلاد، فقد وصف الله تعالى عِلْمَ الكفار بقوله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم].

أما من أدرك منهم أن الله تعالى أهلٌ للتسبيح والتحميد والتمجيد والإفراد بالعبودية، فهم الذين تعنيهم هذه الآية؛ لأنهم عرفوه حق معرفته، فالكون كتاب مفتوح، والعلماء يتدبرون صفحاته، ويستشعرون عظيم قدرته سبحانه، وحقيقة إبداعه.

فأهل العلم المرتبط بخالق الكون، هم أهل الخشية، وأهل الخشية هم أهل الكرامة ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [البينة: ٨]

ومن العجب العجاب أن تظل المصطلحات الطبية ونحوها تدرس بغير اللغة العربية في بلاد العرب، وليس لها ارتباط بخالق الإنسان ومبدعه، فهي مجردة من الإيمان والخشية.

ومن الأحاديث والآثار الواردة في الخشية

(أ) ما جاء في الصحيحين عن عائشةﷺ قالت: صنع رسول الله ﷺ شيئًا فرخَّص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب، فحمد الله، ثم قال: «**ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية**»[1].

(ب) وعن أنس بن مالك ﷺ قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعتُ مثلها قطُّ، فقال: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**»، فغطَّى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم، ولهم خنين.[2]

والخنين: هو البكاء مع انتشاق الصوت من الأنف.

(ج) وعن أبي أمامة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**فضل العالم على العابد كفضلي على**

(١) «صحيح البخاري» برقم (٦١٠١، ٧٣٠١) و«صحيح مسلم» برقم (٢٣٥٦).

(٢) يُنظَر: «صحيح البخاري» (٦٤٨٦) و«صحيح مسلم» (٢٣٥٩) واللفظ له.

أدناكم»، ثم تلا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ ثم قال: «إن الله وملائكته وأهل السموات وأهل الأرض والنون في البحر ليصلُّون على معلِّمي الناس الخير»[١].

وأخرج الخطيب، عن سعيد بن المسيب قال: وضع عمر بن الخطاب ﷺ للناس ثماني عشرة كلمة، حِكَم كلُّها، قال:

١- ما عاقبْتَ من عصى الله فيك، بمثل أن تطيع الله فيه.

٢- وضَعْ أمر أخيك على أحسنه، حتى يَجيئَك منه ما يَغلبُك.

٣- ولا تَظُنَّن بكلمة خرجتْ من مسلم شرًّا، وأنت تجد لها في الخير محْملًا.

٤- ومن عرَّض نفسه للتُّهمة، فلا يلومنَّ من أساء الظن به.

٥- ومن كتم سرَّه كانت الْخِيرةُ في يده.

٦- وعليك بإخوان الصدق تعِشْ في أكنافهم، فإنهم زينة في الرخاء، عُدة في البلاء.

٧- وعليك بالصدق وإن قتلَك.

٨- ولا تَعْرِض فيما لا يعني.

٩- ولا تسأل عما لم يكن، فإن فيما كان شُغْلًا عما لم يكن.

١٠- ولا تطلُبَنَّ حاجتك إلى من لا يحب نجاحها لك.

١١- ولا تَهاوَن بالحلف الكاذب، فيُهلكك الله.

١٢- ولا تصْحب الفُجَّار لتعْلَمَ من فجورهم.

١٣- واعتزل عدوَّك.

١٤- واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشي الله.

١٥- وتخشَّع عند القبور.

---

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٢١٦١) وصححه الألباني أيضًا في مشكاة المصابيح (٢١٣) التحقيق الثاني، وفي التعليق الرغيب (١/ ٦٠)، وهو عند الدارمي عن مكحول مرسلًا (١/ ٨٨).

١٦- وذِلَّ عند الطاعة.

١٧- واستعصمْ عن المعصية.

١٨- واستشرْ في أمرك الذين يخشون الله، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[1].

قال ابن مسعود ﷺ: كفى بخشية الله علمًا، وكفى بالاغترار بالله جهلًا[2].

وقال مسروق: كفى بالمرء عِلْمًا أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلًا أن يُعجَب بعمله.

وقال رجل للشعبي: أفتني أيها العالم، فقال الشعبي: إنما العالم من خشي الله ﷻ.

وقال مقاتل: أشد الناس خشية لله أعلمهم به.

وقال ربيع بن أنس: من لم يخش الله فليس بعالم، ومن ازداد علمًا بالله تعالى ازداد خشية منه.

وقال سعيد بن جبير: الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله.

وقال ابن مسعود ﷺ: ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية.

وقيل: العلماء ثلاثة:

١- عالم بالله، عالم بأمره ونهيه، وهو الذي يخشى الله، ويعلم الحدود والفرائض.

٢- وعالم بالله، لا يعلم أمر الله، وهو الذي يخشى الله، ولا يعلم الحدود والفرائض.

٣- وعالم بأمر الله، غير عالم بالله، وهو الذي يعلم الحدود والفرائض، ولا يخشى الله، أي: أنه لا يعمل بعلمه[3].

والنوع الأول هم المعنيُّون في الآية، كما قال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [١٨].

وقد ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: قوي لا يغلبه أحد، ومن عزته تعالى

---

(١) الخطيب (١٤١).

(٢) ابن أبي شيبة (١٣/ ٢٩١) وأحمد في «الزهد» ص١٥٨ والطبراني (٨٩٢٧) واللفظ له.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي حيّان التّيمي عن رجل كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٢٧٩) بتصرف.

خلْق هذه المخلوقات المتضادة، وهو سبحانه ﴿غَفُورٌ﴾ لمن تاب وأناب، يقبل منهم التوبة إن تابوا، فيغفر لأهل الطاعة ويعفو عنهم.

وتقديم المفعول به، وهو ﴿ٱللَّهَ﴾ سبحانه، على الفاعل، وهو ﴿ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ معناه: أن الذين يخشون الله من عباده، هم العلماء دون غيرهم؛ لشدة معرفتهم بالله ﷻ.

فِي رِحَابِ القُرْآنِ وَنَعِيمِ أَهْلِهِ

٢٩- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾

وبعد أن أثنى الله تعالى على عباده العلماء العاملين، أخبر سبحانه عن صفات الذين يخافون الله ويرجون رحمته، فوصفهم **بثلاثة أوصاف**:

الوصف الأول: أنهم يتلون كتاب الله:

فكتاب الله تعالى لا يتلوه تعبُّدًا إلا من كان مصدِّقًا به، عاملًا بما جاء فيه، والتَّالُون له يكتسبون منه العلم الشرعي، من: العقائد والأخلاق والتكاليف، وهم مداومون على هذه التلاوة في جميع أحوالهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾ أي: يقرؤون القرآن ويداومون على تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، ويعملون بما فيه.

فهم يتبعونه في أوامره فيمتثلونها، وفي نواهيه فيتركونها، وفي أخباره فيصدقونها، ولا يقدِّمون عليه غيره، وهم أيضا يتلونه حق تلاوته بإقامة ألفاظه وأحكامه العربية،كالغنن والمدود، وتحقيق مخارج الحروف وصفاتها، ومعرفة الوقوف، وما إلى ذلك.

الوصف الثاني: أنهم يقيمون الصلاة:

ثم أتبع تلاوة القرآن - وهو علامة قبول الإيمان والعلْم به - بعلامة أخرى هي أعظم الأعمال البدنية، وهي إقامة الصلاة في قوله: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: داوموا عليها فأدوها في أوقاتها بخشوع وخضوع مع المحافظة على شروطها وأركانها وسُنَنِها.

فالصلاة عماد الدين، وعلامة الإسلام والإيمان، فمن ضيّعها كان لما سواها أضيع، وهي أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة، وهي جواز السفر إلى دار النعيم، فإن صلحت

صلح ما بعدها، وهي أفضل العبادات البدنية.

الوصف الثالث: أنهم ينفقون أموالهم في وجوه الخير:

فقد أتبع الله تعالى تلاوة القرآن وأداء الصلاة بأعظم الأعمال المالية، وهو إنفاق المال في السر والعلن، على سبيل الوجوب أو على سبيل الاستحباب، فقال سبحانه: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ ابتغاء رضوان الله تعالى، لا يراؤون أحدًا.

هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الثلاث ﴿يَرْجُونَ﴾ بهذه الأعمال الصالحة ﴿تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ أي: لن تكسد ولن تهلك، ألا وهو رضى ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه.

وهذه الصفات المذكورة في هذه الآية جاءت في مواضع أخرى، منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [البقرة].

ثم قال تعالى في جزائهم:

٣٠- ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

أي: إن هؤلاء العلماء العاملين، يوفيهم الله ثواب أعمالهم كاملًا غير منقوص، ويضاعف لهم الحسنات من فضله، فيزيدهم فوق أجورهم التي يستحقونها من فضله وإحسانه.

قيل: إن الزيادة هي النظر إلى وجهه الكريم، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وزيادة الحسنات بمضاعفتها جاءت في مثل قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وهو سبحانه كثير المغفرة للذنوب والسيئات، شكور لحسنات الأبرار، يثيبهم على أعمالهم جزيل الثواب، ثم أشاد سبحانه بالكتاب المنزل، فقال:

٣١- ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾

نوّه سبحانه في هذه الآية بشأن القرآن الذي يتلونه، وأشار إلى عظيم شرفه، بأنه وحي من الله تعالى، وهذا يتضمن التنويه بشأن الرسول ﷺ المنزل عليه هذا القرآن، المشار

إليه في قوله تعالى: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾.

وفيه بيان لعلة استحقاق الذين يتلونه لهذا الأجر العظيم الذي أنزلناه عليك يا محمد.

وفي هذا إشارة إلى أن النبي ﷺ كان أميًا، وأن القرآن وحي من عند الله، فهو الكتاب الحق المصدق للكتب التي أنزلها الله على رسله قبلك -يا محمد- كالتوراة والإنجيل والزبور، وكتاب (أرميا) من الوحي الإلهي.

ومن الكتب غير الإلهية: كتاب (زرادشت) المسمى (الزندفستا).

ومنها كتب الصابئة، التي غُيرت وحُرفت.

والقرآن الكريم (هو الحق) فكل ما فيه حق، وكل ما دل عليه حق، وكأن الحق منحصر فيه لكثرة ما اشتمل عليه من الحق، وهو يصدّق ما قبله من الرسل والكتب، والكتب التي قبله بشرت به، فلا يمكن لأحد أن يؤمن بالكتب السابقة ويكفر به، لأن كفره بالقرآن ينقض إيمانه بالكتب السابقة.

والقرآن وحي من الله تعالى، والرسول ﷺ لم يكن قارئًا ولا كاتبًا، وأتى ببيان ما في كتب الله جميعًا، ولا يكون ذلك إلا من الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ويعامل عباده بما يعلمه عنهم، ويصطفي منهم من هو أهلٌ لحمل الرسالة.

وهو سبحانه أعلم بمن ينطويْ قلبه على خشية الله تعالى من عدمه، وأعلم بمن يُقبِل على بعض الطاعات دون بعض.

والخبير: هو العالم بدقائق الأمور المعقولة والمحسوسة، والظاهرة والخفية، والبصير بشؤون خلقه، لا يخفى عليه منها شيء.

وأهل هذا الكتاب هم أهل الله وخاصته، اصطفاهم من خلقه واختارهم:

٣٢- ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾

وبعد أن أثنى الله تعالى على كتابه، وبيَّن أنه الحق الذي يُصدِّق ما قبله، ذكر هنا أنه سبحانه أعطى أمة محمد ﷺ القرآن؛ كي يعملوا به ولا يتركوه كما ترك مَن قبلهم كُتُب

رسلهم، وبيّن سبحانه وتعالى أنه قد اصطفاهم لحمْل كتابه، وهي بشرى عظيمة تحققت على مدى القرون، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فقد حملت هذه الأمة الرسالة بعد رسولها ﷺ ومثَّلته بين الناس.

وكان بنو إسرائيل آخر مَنْ نزل الوحي على رسولهم قبل العرب، ولكنهم استغلُّوه لخدمة شهواتهم ودَعْم غُرورهم، فغضب الله عليهم، وصرَفَهم عن الوحي إلى آخر الدنيا.

واختار الله العرب لأداء هذه الأمانة وحمْلها إلى العالمين، فكانت هي الأمة التي اصطفاها الله لذلك وهؤلاء الذين اصطفاهم الله، هم أمة محمد ﷺ من الصحابة والتابعين ومن أتى بعدهم من المؤمنين إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ [الحج: ٧٨] أي: اختاركم للإيمان والإسلام، فكنتم بهذا أفضل أمة من الناس.

ومناط الاصطفاء هو الانقياد بالقول، والاستسلام لله تعالى، وهذه الأمة هي الأمة الوسط، التي تشهد على الناس يوم القيامة.

قال ابن عباس ﷺ: هم أمة محمد ﷺ؛ لأن الله تعالى اصطفاهم على سائر الأمم، واختصهم بكرامته، بأن جعلهم أتباع سيد المرسلين، وأكرمهم بحَمل أفضل الكتب.

والمعنى: ثم أعطينا القرآن بعد هلاك الأمم السابقة من اخترناهم من أمة محمد ﷺ فورَّثْناهم هذا الكتاب لينتفعوا بْهداياته، ويسْترشدُوا بتوجيهاته، ويعملوا بأوامره ونواهيه، وهْي وِراثةٌ ذات تكاليف ضخمة، وفيها تَبِعة ومسؤولية كبيرة، فهل تستجيب الأمة لهذا الاصطفاء؟

ثم إن الله تعالى عمَّم هذه البشارة بالنسبة لأمة محمد ﷺ فجعلها تشمل جميع المراتب والأصناف.

فأتى سبحانه بقاء التفريع في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ والضمير بعدها يعود غلى ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ وهو قول الحسن، أو يعود على ﴿عِبَادِنَا﴾ وهو قول ابن عباس وعكرمة وقتادة والضحاك، ويسْري هذا الخلاف كذلك على ضمير ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾.

وعوْدُ الضمير الأول على المصطفيْن هو الأرجح والأظهر، وهو يوافق ما رُوي عن عمر وعثمان وابن مسعود وأبي الدرداء وعقبة بن عمرو وعائشة[1] رضي الله عن الجميع.

---

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١١/ ٣١٢).

والذين اختارهم الله لوراثة كتابه **ثلاثة أصناف**:

الصنف الأول: الظالم لنفسه ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾.

قيل: هو من زادت سيئاته على حسناته؛ لأنه فرَّط في بعض الواجبات وارتكب بعض المحرمات، وهو الأرجح، فهو ظالم لنفسه بارتكاب بعض المعاصي التي هي دون الكفر.

والظالمون لأنفسهم هم الذين يرتكبون المعاصي، فإن ارتكاب المعصية ظُلم للنفس؛ لأن صاحبها يَعتدِي عليها، ويورِّطها في العقوبة، ويُقصِّر في حقها، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء].

وقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النمل].

وهم مقصِّرون في عمل الخير، يقرؤون القرآن ولا يعملون به.

وقيل: هو الكافر، وعليه فيكون الضمير في ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ يعود على المقتصد والسابق فقط، والقول بأنه الكافر قول ضعيف، لأن الكافر لا يكون ممن اصطفاهم الله تعالى.

والصنف الثاني: المقتصد ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ متوسط في فعل الخيرات والصالحات، يعمل بالقرآن غالبًا ويُقصِّر في أداء النوافل، وهو المؤدي للواجبات، المجتنب للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبَّات، ويفعل بعض المكروهات.

والمقتصد هو الوسط بين طرفيْن، فهو ليس بظالم لنفسه، وليس بسابق إلى الخيرات، وإنما استوت حسناته وسيئاته.

والصنف الثالث: السابق بفعل الطاعات ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

أي: مسارع مجتهد في الأعمال الصالحة من الفرائض والنوافل، قد أحرز قصب السبق في فعل الطاعات، وترْك المحرمات والمكروهات، بتوفيق الله تعالى وتيسيره.

وهذا السبق بإذن الله تعالى وتوفيقه ومعونته، فلا يغتر أحد بعمله، وعليه أن يعلم أن فضل الله تعالى واسع يعطيه من يشاء، وأكبر الفضل وراثة هذا الكتاب.

وأكثر المفسرين على أن الأصناف الثلاثة في أمة محمد ﷺ فالظالم لنفسه: العاصي، والسابق: التقيُّ، والمقتصد: بينهما.

وقال الحسن البصري: السابق من رجحت حسناته على سيئاته، والظالم لنفسه من رجحت سيئاته، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته، وجميعهم يدخلون الجنة.

والأصناف الثلاثة قد اصطفاهم الله تعالى لوراثة كتابه وإن تفاوتت مراتبهم، فلكل منهم قسط من وراثته حتى الظالم لنفسه، باعتبار ما معه من أصل الإيمان.

وهذه جملة من الآثار في هذا المعنى:

وهذه الأصناف الثلاثة كالأقسام الثلاثة التي في سورة الواقعة: السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، على أن المراد بالظالم لنفسه الكافر:

١- عن أبي الدرداء ﷺ قال: فأما الذين سبقوا، فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا، فأولئك يحاسبون حسابًا يسيرًا، وأما الذين ظلموا أنفسهم، فأولئك الذين يُحبسون في طول المحشر، ثم هم الذين تلقاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ (١).

٢- وأخرج ابن جرير من حديث سفيان الثوري عن الأعمش قال: ذكر أبو ثابت أن رجلًا دخل مسجد دمشق، فجلس إلى جنب أبي الدرداء فقال: اللهم آنس وحْشتي، وارحم غُربتي، ويسِّرْ لي جليسًا صالحًا، قال أبو الدرداء: لئن كنتَ صادقًا لأنا أسعد بما قلت منك، سأحدثك حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ لم أُحدث به منذ سمعته منه، ذكر هذه الآية ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب، وأما المقتصد فيحاسب حسابًا يسيرًا، وأما الظالم لنفسه فيصيبه في ذلك المكان من الغم والحزن، وذلك قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ (٢).

٣- وعن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قرأ هذه الآية على المنبر ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ فقال:

---

(١) يُنظَر: «المسند» (٣٦/ ٢٧) (٢١٦٩٧) وهو جزء من الحديث الآتي، وضعف إسناده محققوه، وأخرجه الطبراني (٧/ ٩٥) والحاكم (٢/ ٣٢٦) والبيهقي (٦٢) وتشهد له آثار أخرى كثيرة.

(٢) «تفسير الطبري» (٢٢/ ٩٠) ورواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٢٦)، والبيهقي في «البعث» برقم (٦٢) و«المسند» (٥/ ١٩٤) قال الهيثمي: رواه أحمد بأسانيد رجال أحدها رجال الصحيح، «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٥) وإسناده صحيح كما في مرويات أحمد في التفسير (٣/ ٤٦٠).

قال رسول الله ﷺ: **«سابِقُنا سابق، ومُقتصدنا ناج، وظالمُنا مغفور له»**[١].

٤- وعن شقيق أبي وائل، عن ابن مسعود ﷺ قال: هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حسابًا يسيرًا، وثلث يجيؤون بذنوب عظام، إلا أنهم لم يشركوا بالله شيئًا، فيقول الرب ﷻ: أدخِلوا هؤلاء في سعة رحمتي، وتلا الآية[٢].

٥- قال قتادة: الناس ثلاثة منازل في الدنيا، وثلاثة منازل عند الموت، وثلاثة منازل في الآخرة، فأما الدنيا فكانوا: مؤمنًا، ومنافقًا، ومشركًا، وأما عند الموت فهم: المقربون، وأصحاب اليمين، والمكذبون. وأما في الآخرة فكانوا أزواجًا ثلاثة: أصحاب الميمنة، وأصحاب الشمال، والمنافقين[٣].

٦- وقال جعفر الصادق: بدأنا بالظالمين، إخبارًا بأنه لا يُتقرب إليه إلا بكَرَمه، وأن الظلم لا يؤثِّر في الاصطفاء، ثم ثنَّى بالمقتصد؛ لأنه بين الخوف والرجاء، ثم ختم بالسابقين؛ لئلَّا يأمن أحد مكره، وكلهم في الجنة.

٧- وقال ابن عباس ﷺ: هم أمة محمد، ورَّثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يُغفر له، ومقتصدهم يحاسب حسابًا يسيرًا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب[٤].

٨- وفي رواية: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه يدخل الجنة بشفاعة الرسول ﷺ.

ثم بيَّن سبحانه أن هذا الإرث، والإعطاء للكتاب، والاصطفاء لحمل أشرف الرسالات وأعظم الكتب، هو من فضل الله الواسع الذي لا يدانيه فضل ولا شرف ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الجامع بين خيري الدنيا والآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٣٠٨) والبيهقي (٦٦).

(٢) «تفسير الطبري» (١٩/ ٣٦٨) وجاء نحو هذا الأثر أيضًا عن عوف بن مالك عند ابن أبي حاتم، والطبراني (١٨/ ٧٩) (١٤٩) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٦): فيه سلامة بن روح، وثَّقه ابن حبَّان، وضعفه جماعة، وبقية رجاله ثقات.

(٣) ابن جرير (١٩/ ٣٧٢) بمعناه.

(٤) ابن جرير (١٩/ ٣٦٨) والبيهقي (٧٣).

صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل].

وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور].

ثم ذكر سبحانه ما أعده من النعيم لورثة كتابه، فقال:

٣٣- ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا[(١)] يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا[(٢)] وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية أن الأصناف الثلاثة: السابق، والمقتصد، والظالم لنفسه، كلهم يدخلون الجنة؛ لأن المؤمنين كلهم مآلهم الجنة، كما دلت على ذلك الأخبار المتضافرة، فكلهم في جنات النعيم، ودار إقامة دائمة للذين أورثهم الله كتابه، وهذه الجنات تشتمل على الأشجار والأنهار والقصور والحدائق والمنازل العالية، والظل والظليل، وفيها أنهار اللبن والعسل والخمر والماء.

والجنات مراتب ودرجات متفاوتة حسْب تفاوت الأعمال، وهي جنات ثمانٍ: جنة الفردوس، وجنة عدن، وجنة النعيم، وجنة رضوان، وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة السلام، وجنة عليين.

وفي كل جنة منازل ومراتب بحسب مراتب العاملين، وهم يتزينون بأجمل الزينات، وبأفخر الملابس، فهم يلبسون أساور من ذهب مرصعة باللؤلؤ.

قال القرطبي: ولما كانت الملوك تلبس الأساور والتيجان في الدنيا، جعل الله ذلك لأهل الجنة، وليس أحد من أهل الجنة إلا في يده أسورة ثلاثة: سوار من ذهب، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ[(٣)].

---

(١) قرأ أبو عمرو بالبناء للمفعول في (يدخلونها)، والباقون بالبناء للفاعل.

(٢) قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بنصب همزة (ولؤلؤًا) الأخيرة، عطفًا على محل من (أساور) ويجوز أن تكون مفعولًا لفعل محذوف، أي: ويؤتون لؤلؤًا، والباقون بخفضها عطفًا على من ذهب، وأبدل الهمزة الأولى شعبة وأبو جعفر وأبو عمرو بخلفه.

(٣) «تفسير القرطبي» (١٢/ ٥٢).

أما لباس أهل الجنة المعتاد فهو الحرير، أي: ثياب رقيقة.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»**[١].

وفي الحديث عن عمر ﷺ: **«من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»**[٢].

وقال ﷺ في حديث حذيفة ﷺ: **«ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»**[٣].

ثم بيَّن الله تعالى حمْد أهل الجنة على فوزهم برضى الله تعالى وبُعدهم عن ناره، بعد أن تم نعيمهم، وكملت لذتهم، فقال تعالى يَحْكِي قولهم:

٣٤- ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾

أخبر سبحانه عما يقوله المصطفون من عباده حين دخولهم الجنة، فهم يحمدون الله الذي أذهب عنهم جميع الهموم والأكدار والأحزان، والحزَن يعم كل ما يكدِّر الصفْو من المرض، والفقر، والموت، وأهوال القيامة، وعذاب النار، وزوال النعم، وتقلُّب القلوب، وخوف العاقبة، وهموم المعيشة . . . إلخ.

فهم في نعيم متزايد، لا يعرض لهم نقص في معايشهم، ولا مرض في أجسادهم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه].

أخرج البغوي بسنده عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ليس على أهل لا إله إلا الله، وحشة في قبورهم ولا في نشورهم، وكأني بأهل لا إله إلا الله يُنفِّضون التراب عن رؤوسهم يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾»**[٤] حيث غفر لنا جميع الزلَّات، وعفا عن جميع السيئات، ورفع لنا الدرجات.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٨٢٤، ٥٨٣٤) و«صحيح مسلم» (٢٠٦٩).

(٣) من حديث حذيفة في البخاري (٥٤٢٦، ٥٦٣٢) وغيرهما، ومسلم (٢٠٦٧).

(٤) وأخرجه الحكيم الترمذي (٣/ ١٩) عن ابن عمر والطبراني في «الأوسط» (٩٤٥٤، ٩٤٧٨) والبيهقي في «الشعب» (١٠٠) وغيرهم، وضعَّف إسناده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٨٣).

والله سبحانه غفور لمن تاب من خلقه ﴿شَكُورٌ﴾ حيث قبل منا الحسنات وضاعفها، فقد تجاوز الله عنهم ما اقترفوه من اللمم، وتجاوز عن حديث النفس بالنسبة للمقتصدين والسابقين، وتجاوَزَ عن تعجيل العذاب في الدنيا، وقبول الشفاعة في الآخرة بالنسبة لمختلف أحوال الظالمين لأنفسهم، وقد أفاض الله الخيرات على الجميع، وضاعف لهم الحسنات بما هو أكثر من أعمالهم الصالحة.

ومن فضل الله تعالى أن جعل الجنة جزاء على الأعمال الصالحة، وكان يمكن أن يكون الجزاء مجرد السلامة من العقاب. ويمضي أهل الجنة في شكرهم لربهم قائلين:

٣٥- ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾

فأهل الجنة يحمدون الله تعالى على ما أنعم به عليهم من دخول الجنة فيقولون: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا﴾ أي: أنزلنا نزول حلول واستقرار، لا نزول معبر واعتبار ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ أي: دار الجنة، التي تدوم فيها الإقامة مع توالي المسرات وزوال المكدرات، فأسكننا فيها، وجعلها مقرًّا لنا وسكنًا، لا نتحول عنها أبدًا، وكل ذلك من فضل الله تعالى وإنعامه علينا، حيث إن أعمالنا لا تساوي ذلك، فلولا فضل الله تعالى لما وصلْنا إلى ما وصلْنا إليه.

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي رافع قال: يؤتَى يومَ القيامة العبدُ بدواوين ثلاثة: فديوان فيه النعم، وديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه حسناتُه، فيقال لأصغر نعم الله عليه: قُومي فاستوفي ثَمنَكِ من حسناته، فتقوم فتستوعب تلك النعمة حسناته كلها، وتبقى بقية النعم عليه، وذنوبُه كاملة، فمن ثَم يقول العبد إذا أدخله الله الجنة: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[1].

كما جاء في الحديث: «**لن يدخل أحدًا منكم عملُه الجنة**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»[2].

وأهل الجنة في الجنة لا يصيبهم فيها تعب ولا مشقة، فقد سقطت عنهم التكاليف الشرعية التي كانت عليهم في الدنيا، وليسوا في حاجة إلى بحث عن أسباب المعيشة، ولا إلى تربية الأبناء، ولا إلى تأمين المستقبل، ونحو ذلك، فقد أصبحوا في راحة تامة

(١) «الدر المنثور» (١٢/ ٢٩٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٦٧٣) و«صحيح مسلم» (٢٨١٦).

مستمرة، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة]. وهم لا يتعبون فيها ولا ينصبون ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ والنصب: تعب البدن، أما **اللغوب**: فهو تعب النفس.

أَهْلُ الشَّقَاءِ وَعَذَابُهُمْ

٣٦- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي[1] كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾

أما أهل الشقاء المقابلون للأصناف الثلاثة السابق ذِكْرُهُم، فهم في قلق دائم وحيرة واضطراب، لا يستقر لهم حال؛ لأنهم جحدوا بآيات الله، وكذَّبوا رسله فأعدَّ الله لهم النار المستعرة جزاءً لهم على كفرهم، يعذبون فيها تعذيبًا دائمًا، لا يُحكم عليهم بالموت الدائم حتى يستريحوا من العذاب، ولا يخفف عنهم العذاب، بل كلما خبت أو هدأت عادت مرة أخرى، فاستعرت وزاد لهيبها، فهم باقون في العذاب بلا موت ولا حياة يستريحون فيها.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ إشارة إلى أن نارَ عقابِ عُصاة المؤمنين، أخف من نارِ عِقاب الكافرين والمشركين التي قال الله عنها: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

وقال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران].

جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون»**[2].

وقال تعالى عن أهل النار: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. إنهم يرون أن الموت راحة، ولكن لا سبيل إلى ذلك ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا

---

(١) قرأ أبو عمرو بالياء في (يُجزى) مبنيًّا للمفعول، و (كلُّ) بالرفع، نائب فاعل، والباقون بالنون مبنيًّا للفاعل و (كلَّ) بالنصب مفعول به.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٨٥).

رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف].

أي: بلا موت ولا حياة ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى].

وهم في يأس من رحمة الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف].

وليس هناك مطمع في نقصان هذه النار ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وخزنة النار يقولون لهم: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ].

وبمثل هذا العذاب يُجزَى كل كافر بالله تعالى مشرك به ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي: نعاقب كل من كان مبالغًا في الكفر، شديد الجحود لآيات ربه الدالة على وحدانيته سبحانه، وهم يَضْرَعُون إلى ربهم يتمنون العودة إلى الدنيا لتدارك ما فاتهم.

قال تعالى يصف ندم أهل النار وعويلهم، وتمنِّيهم العودة إلى الدنيا:

٣٧- ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

بيَّن سبحانه ما يستغيث به أهل النار من صراخ وعويل بعد أن أُلقي بهم فيها، حيث يضجُّون بالدعاء رافعين أصواتهم بالاستغاثة وهم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ من نار جهنم وأعِدْنا إلى الدنيا؛ كي ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فنؤمن ولا نكفر، ونوحِّد ولا نشرك، ونتَّبع ولا نبتدع، ونطيع ولا نعصي، ونمتثل ولا نرفض، وفي هذا ندم وحسرة واعتراف بسوء عملهم.

إنهم يسألون الرجعة إلى الدنيا ليغيِّروا حالهم من الكفر إلى الإيمان، وقد علم الله تعالى أنهم لو رُدُّوا إلى الدنيا لعادوا إلى ما كانوا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقد ورد سؤال الرجعة في كثير من الآيات، منها قوله تعالى على لسان أهل النار: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

وقوله سبحانه: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون].

وهنا يأتي الجواب من رب العالمين: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون].

وعندئذ يكون الاعتراف: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

فيجابون بذكر السبب المانع لخروجهم من النار: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ [غافر: ١٢].

ويكون الجواب على طلبهم الرجعة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ ألم نعطكم عمرًا في الدنيا يكفي لأن يؤمن فيه من آمن، ويتوب فيه من تاب، ويتذكر فيه من تذكر؟! فلماذا لم تؤمنوا؟ وفي أي شيء قضيتم هذا العمر، وفترة الشباب منه على وجه الخصوص؟ ومن بلغ الستين من عمره فقد بلغ أقصى العذر:

١- كما في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**أعذر الله إلى امرئ أخَّر أجله حتى بَلَّغَهُ ستين سنة**»[1].

٢- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من أتت عليه ستون سنة فقد أعذر الله ﷻ إليه في العمر**»[2].

٣- وفي حديث أبي هريرة أيضًا: «**أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك**»[3].

٤- قال ابن عباس ﷺ: العمر الذي أعذر الله فيه لابن آدم في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ ستون سنة.

٥- وقال علي ﷺ: العمر الذي عيرهم الله به في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ ستون سنة.

---

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٦٤١٩) و«المسند» (١٣/ ١٣٩) (٧٧١٣) والنسائي في «تحفة الأشراف» (١٢٩٥٩) والحاكم (٢/ ٤٢٧) والبيهقي (٣/ ٣٧٠).

(٢) «المسند» (٢/ ٣٢٠) برقم (٨٢٦٢) وإسناده قوي، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٣٧٠) برقم (٦٣١١) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٩٤٥).

(٣) «سنن الترمذي» برقم (٢٣٣١، ٣٥٥٠) وابن ماجه برقم (٤٢٣٦) قال الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢/ ٤١٥): حسن صحيح، وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨١٥، ٢٤٤٧) والبيهقي (٣/ ٣٧٠).

وكان مسروق يقول: إذا بلغ أحدكم أربعين سنة فليأخذ حذره من الله ﷻ.

وفضلًا عن إعطائكم هذا العمر المديد، فقد جاءكم النذير الذي ينذركم بسوء العاقبة، إن متم على الكفر وأعرضتم عن الدعوة.

والنذير هو رسول الله ﷺ، وكلُّ رسول في أمته قبله، فهو نذير: قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ [الرعد] وقال جل شأنه ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الملك].

وقيل: النذير هو الشيب، أي: أولم نعمركم حتى شبْتُم، فلم تتعظوا ولم تعتبروا؟!

لقد متعكم الله في الدنيا وأدرّ عليكم رزقه، وهيألكم أسباب الراحة، وأمدّ لكم في العمر، وأرسل إليكم الرسل، وأنزل عليكم الكتب، وابتلاكم بالسراء والضراء كي تعودوا إلى الله سبحانه، فلم يُفد فيكم الوعظ، ولم تستجيبوا للرسل، حتى إذا انقضت آجالكم، ورحَلْتُم عن الدنيا، ووصلتم إلى دار السعادة أو الشقاء، سألتم الرجفة؟ هيهات هيهات، فقد فات وقت العمل، وجاء وقت الحساب والجزاء، واشتدّ غضب الله على الكافرين، فامكثوا في جهنم خالدين مخلدين.

قال تعالى لأهل النار: ﴿فَذُوقُوا۟﴾ عذاب جهنم ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: ليس للكافرين من يدفع عنهم عذاب الله. قال تعالى:

٣٨- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٣٨﴾

وبعد أن ذكر الله تعالى جزاء أهل الدارين، وأعمال الفريقين، أخبر سبحانه وتعالى بأنه يعلم ما خفي عن العباد، وما تخفيه النفوس من الهواجس والوساوس، لا تخفى عليه خافية، ومن ذلك أنه يعلم، أن الكفر قد تمكّن في قلب الكافر، بحيث لو بقى في الدنيا إلى الأبد، ما آمن بالله ولا عبَدَه، وهذا تأكيد لدوام عذاب الكافر في النار ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقد علم الله تعالى أنه لو رَدَّهم إلى الدنيا ما آمنوا ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بخفاياها، فاتقوه أن يطَّلع عليكم، إن كنتم تُضمرون الشك في وحدانية الله تعالى، أو في نبوة محمد ﷺ أو تعصوه وتخالفوا أمره.

استخلاف الإنسان في الأرض

٣٩- ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾

أي: وكيف لا يعلم الله ما غاب في قلوبكم، وهو الذي أوجدكم في الأرض، وجعل بعضكم يخلُف بعضًا، جيلًا بعد جيل، ودولة بعد دولة، وكلٌّ يمضي وينتهي ويزول، ولا يبقى إلا الواحد الأحد، الذي لا يحول ولا يزول ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بعد عاد وثمود ومن مضى قبلكم من الأمم، تخلُفونهم في مساكنهم قرنًا بعد قرن.

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس].

وهو الذي جعلكم متصرفين في الأرض تعمرُونها، وتكونون أهل سلطان فيها، بعد أمم تداولت السيادة على العالم قبلكم، وفي ذلك ظهور لدين الإسلام على الدين كله، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

فاعتبروا - أيها المسلمون - بما أصاب الأمم السابقة من النقم، بسبب إعراضهم عن الهدى واتباع ما جاءهم به رسلهم.

واعلموا أن التبعة فردية، وأنه لا يحمل أحد عن أحد شيئًا، فمن كفر بالله وجحد وحدانيته واستمر على كفره بالحق الذي جاء به محمد ﷺ، فإن ضرر كفره وإعراضه يعود عليه وحده، ولا يحمل عنه أحد شيئًا من أوزاره.

والكافرون ممقوتون عند ربهم ابتداء، وحين يستمرون على كفرهم يومًا بعد يوم، لا يزيدهم هذا إلا شدة وغضبًا ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ **والمقت**: هو البغض الشديد مع الخزي والصَّغار.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [غافر].

وقد سمَّى الإسلام زواج الرجل من زوجة أبيه، (نكاح المقت) وقد كان معمولًا به في الجاهلية، وقال عنه سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢].

وكلما طال عمر الكافر ازداد غضب الله عليه فخسر نفسه وأهله يوم القيامة، وخسر مكانه في الجنة لو كان مؤمنًا ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: هلاكًا وضلالًا.

والآية تنفِّر من الكفر وتؤكِّد سوء عاقبته، فالكفر مبغوض من الله تعالى، ولن يزداد صاحبه إلا خسرانًا ووبالًا، وبدل أن يستثمر الكافر عمره في الطاعة والربح، فإنه خسر رأسماله - عمره- واستجلب سخط الله تعالى وغضبه بالكفر، فأصبح من أهل النار المؤبدة.

انْتِفَاءُ صِفَةِ الإِلَهِيَّةِ عَنْ غَيرِ اللَّهِ تَعَالَى

٤٠- ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ[1] مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

وبعد أن ثبت في السورة، أن الله تعالى هو الذي يدبر الكون في الأرض والجو ومختلف الأحوال، وأنه الخالق الرازق، مالك الملك، نفى سبحانه في هذه الآية صفة الإلهية عن غير الله تعالى، وطالب المشركين بإقامة الدليل على استحقاق آلهتهم للعبادة، واحتج على المشركين ببطلان آلهتهم، بأنه لا يوجد أي مخلوق في الأرض، يدَّعي أن الآلهة خلَقَتْه.

قل - يا رسولنا - لهؤلاء المشركين: أخبروني عن شأن آلهتكم التي عبدتموها من دون الله، وأشركتموها معه في العبادة، أخبروني أيَّ شيء خَلَقوا من الأرْض، حتى استحقوا منكم صفة الألوهية والعبادة مع الله تعالى؟

ثم أخبروني ألهذه الآلهة التي تزعمونها شرك مع الله في خلق السموات وتصريف أحوالها، كسيْر الكواكب، وتعاقب الليل والنهار، وتسخير الرياح وإنزال المطر؟

ولما كان مقر الأصنام في الأرض، كان من الراجح أن يتخيل المشركون أن لهم تصرفًا في الأرض.

ولم يخطر ببال المشركين أن آلهتهم لها تَصَرُّف في السموات، ولكن جاء ذكرها تكملة

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص وحمزة وخلف بالإفراد في (بينة)، والباقون بالجمع، ومن قرأ بالجمع وقف عليها بالتاء، ومن وقف بالإفراد فمنهم من وقف بالهاء وهما ابن كثير وأبو عمرو، ومنهم من وقف بالتاء وهم حفص وحمزة وخلف العاشر.

للدليل على سبيل الفرض والاحتمال، وقد بيَّن سبحانه عجز آلهة المشركين من عدة وجوه:

١- فإذا كانت آلهتكم -أيها المشركون- لم تخلق شيئًا من **الأرض**، كما قال تعالى ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ هل خلقوا بحرًا أو جبلًا أو حيوانًا أو حشَرة، فسيكون جواب الكفار عن هذا أن الله تعالى هو الخالق لجميع الأشياء.

٢- ولم تشارك آلهتكم في خلق **السموات**، كما قال تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ في خلقها وتدبيرها، فإذا لم يخلقوا شيئًا، ولم يشاركوا الخالق في خلقه، فَلِمَ عبدتموهم ودعوتموهم مع إقراركم بعجزها، فانتفى هذا الدليل العقلي.

٣- ثم ذكر الدليل السمعي، وهو منتف أيضًا: فهل **أنزلنا عليهم كتابًا** ينطق بأنهم شركاء لله، فهم على بصيرة وحجة وبرهان منه، كما قال تعالى ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ أي ليس الأمر كذلك، فلم ينزل عليهم كتاب غير القرآن ولم يأتهم نذير إلا محمد ﷺ.

وكل هذا على سبيل التبكيت والإنكار عليهم فآلهتهم لم تشارك في خلق الأرض ولا في السماء ولم ينزل عليهم كتابا يشهد بأنهم شركاء لله في شيء من ملكه.

والمعنى: إن الشركاء لم يخلقوا شيئًا من الأرض ولا من السماء، ولم يُؤتوا كتابًا فيه دليل على أنهم شركاء لله تعالى.

والمقصود: قطع كل حجة يتذرعون بها في شركهم، وإثبات جهلهم وباطلهم بأدلة مختلفة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء] فالرسل والكتب متفقة على إخلاص العبادة لله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

ولما نفى سبحانه أنواع الحجج الثلاث أضرب عنها بذكر السبب الحقيقي الذي حمَلَهم على اتخاذ آلهة من دون الله، فبيَّن أن السبب هو: تضليل الرؤساء للأتباع، حيث يقولون لهم: إن الأصنام تشفع لهم عند الله، وهو زعم باطل، وغرور وزور وخداع.

وإذا كان الدليل العقلي والنقلي قد دلّا على بطلان الشرك، فما الذي حمل المشركين على الشرك؟

إن الذي حملهم على الشرك هو التقليد لآبائهم، وتزيين الشيطان لهم، والتعصب لما ورثوه.

والحق أن الظالمين يخدع بعضهم بعضًا، ويَعِدُ بعضهم بعضًا، بأن هذه الآلهة تقرِّبهم من الله زلفى، فينساق بعضهم وراء بعض، ذلكم قول الله تعالى: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾. وهذا وعد من الظالمين بشفاعة الأصنام للمشركين عند الله تعالى.

وفي الآية توبيخ لمن يعبد ما لا ينفع ولا يضر، ولا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه من الله شيئًا.

قَانُونُ الجَاذِبِيَّةِ

٤١- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ(١) وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

ولما بيَّن سبحانه عجز المعبودات وضعفها، وذكر أنها لا تَقْدرُ على خلْق شيء من السموات والأرض، أتبع ذلك ببيان جانب من عظيم قدرة الله تعالى، فبيَّن أنه سبحانه خالق السموات والأرض وممسكهما، فلا يوجد مخلوق إلا وهو خالقه، ولا يبقى مخلوق إلا بإبقاء الله له، أي: إنه سبحانه بقدرته وحكمته يمنع السموات والأرض من الزوال، ومن السقوط والاضطراب، وعدم الوقوع، كما قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ﴾ [الحج: ٦٥].

فهو قيوم السموات والأرض، الحافظ لهما وجودهما واستقرارهما ونظامهما.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ﴾ [الروم: ٢٥].

وهذا الإمساك هو الذي يُسمى بنظام الجاذبية.

وحقيقة **الإمساك**: القبض باليد على الشيء بحيث لا ينفلت ولا يتفرق.

ثم أشار سبحانه إلى أن مصير الكائنات إلى الزوال والعدم والتغير، فقال: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ أي: عن أماكنهما، أو أشرفتا على السقوط على سبيل الفرض، ما أمسكهما أحد بعد الله، أي: ليس بإمكان أحد أن يمسكهما غير الله تعالى، فهما قائمتان بقدرة الواحد القهار، حتى يأذن الله للسماء أن تتشقق وتتصدع، وللأرض أن تُخرج ما في جوفها من

(١) عدّ البصري قوله تعالى: (أن تزولا) آية، وتركها غيره.

الأموات وتتخلَّى عنه، وللشمس أن تتكوَّر، وللنجوم أن تنكدر، وللجبال أن تُسيَّر، وكل هذا عند قيام الساعة.

عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: **«إن الله ﷻ لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسْطَ ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور أو النار، لو كشَفه لأحرقتْ سبُحات وجهه ما انتهى إليه بصرُه من خَلْقِه»**[1].

ثم ذيَّل الله تعالى الآية بالحلم والمغفرة، فَحِلْمُ الله تعالى ألَّا يزعج خَلقه بالفجائع الكبيرة، فلا يعاجلهم بالعقوبة مع استحقاقهم لها، بل يمهلهم ويؤخرهم، فهو سبحانه واسع المغفرة والرحمة لمن تاب إليه وأناب.

نَكْثُ العُهُودِ وَالوُعُودِ فِي الإِيمَانِ بِخَاتَمِ الرُّسُلِ ﷺ

٤٢- ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾

أي أن المكذبين بمحمد ﷺ أقسموا أيمانًا مغلظة لئن أرسل الله إليهم رسولًا ليكونُن أهدى من اليهود والنصارى، فلما جاءهم محمد ﷺ لم يهتدوا، ولم يوفّوا بِقَسَمِهم، وما ازدادوا إلا بغيًا وضلالًا.

ولا يزال الحديث موصولًا عن الجاحدين للتوحيد، المكذبين للرسول الخاتم ﷺ، وقد كانت قريش تقول: لو أن الله بعث منا نبيًّا ما كانت أمة من الأمم أطوع لخالقها، ولا أسمع لنبيها، ولا أشد تمسُّكًا بكتابها منا؛ فأنزل الله ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الصافات].

١- وكانت اليهود تستفتح على أهل المدينة بقدوم نبي جديد وأنهم أول من سيؤمن به.

وكان مشركو مكة، في لقائهم مع أهل الكتاب أثناء أسفارهم إلى يثرب أو الشام- لا يَجرُؤون على تكذيبهم؛ لأن لهم معرفة بالديانات، وكانوا ينظرون إليهم بعين الوقار،

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٧٩).

ويفضِّلونهم؛ لأنهم ليسوا أُمِّيِّين.

وكان اليهود والنصارى إذا دَعُوا الوثنيين إلى الدخول في دينهم، يعتذرون إليهم بأن رسولهم ليس من العرب، ويقولون: لو جاءنا رسول عربي لكُنَّا أهدى منكم.

٢- وكان النصارى يقولون: إن عيسى أوصاهم أن يُرشدوا بني الإنسان إلى الحق، فكانت الدعوة النصرانية سائدة في بلاد العرب أيام الجاهلية، فتنصرت قبائل: تغلب، ولَخَم، ونجران.

٣- وكان المشركون يحلفون بآبائهم وأعمارهم وأصنامهم، فإذا أرادوا التأكيد والتشديد حلفوا بالله ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: حلف المشركون بالله أشد الأيمان وأبلغها، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: ١٠٩].

وقوله سبحانه: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ [المائدة: ٥٣].

أقسموا بالله ﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أيْ: رسول منذر منهم يخوفهم عقاب الله، ويخبرهم بأن الكفر باطل والإيمان حق، ليكونُنَّ أكثر استقامة واتباعًا للحق من اليهود والنصارى وغيرهم من جميع الأمم الذين أرسل الله إليهم رُسلًا، وكانت قريش قبل مبعث النبي ﷺ يقولون: لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم، فوالله لئن أتانا رسول لنكونَنَّ أهدى من اليهود والنصارى وغيرهم[(١)].

وهذا كقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧].

وقد جاء لفظ: ﴿مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ ليشمل أيَّ أمة من الأمم ذاتِ دين، فإن كان المراد أمة معينة فهي: اليهودية أو النصرانية أو الصابئة، فلما جاءهم محمد ﷺ أشرف الرسل وخاتمهم، أعرضوا عنه ولم يؤمنوا به، وقد كان من المفروض أن تتغير أحوالهم، وأن يؤمنوا به حسب عهودهم وأيمانهم، ولكن ذلك لم يزدهم إلا بُعدًا عن الحق ونفورًا منه، وكانوا يتمنون أن يكون الرسول منهم لا من غيرهم كي يصدقوه، وأقسموا على طاعته واتباعه، ولكنهم خالفوا ونقضوا تكبُّرًا وعنادًا وحسدًا له.

---

(١) يُنظَر: «تفسير أبي السعود» (٤/٢٤٦).

ولو كان المشركون يطلبون الحق لوُفِّقوا إليه، ولكن قولهم هذا صادر عن استكبار على الحق، يريدون به المكر والخداع، قال تعالى:

٤٣- ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ[١] وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ[٢] ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا[٣] وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

أي: وكان سبب عدم إيمانهم بالنبي ﷺ أنهم استكبروا أن يتبعوا واحدًا منهم، فتمسكوا بالشرك، وكذبوا رسولهم، واستولى على نفوسهم الحقد الدفين الذي أضمروه للرسول ﷺ وللمؤمنين عامة، وخاصة الضعفاء منهم، وهو الخداع والكيد الذي دبَّرُوه للإسلام والمسلمين، هذا هو معنى الآية ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾.

أي: إنَّ قسَمهُم المؤكد بأن يؤمنوا بالرسول قبل مبعثه ﷺ ليس لقصدٍ حَسَنٍ، ولا طلبًا للحق، وإنما هو استكبار في الأرض على الخلق، يريدون به المكر السيئ والخداع الباطل، والمكر لا يستعمل إلا في المكروه.

ثم إن الله تعالى توعَّدهم أنْ يدفع عن رسوله مكرَهم، وبيَّن لهم أنَّ ضُرَّ مكرهم سيعود عليهم، ولا يُحيط وَبال المكر السيئ إلا بمن مكَره ودبَّره.

قال كعب لابن عباس ﷺ: إن في التوراة: مَنْ حَفَر حُفْرة لأخيه وقع فيها، فقال ابن عباس: إنا وجدْنا ذلك في كتاب الله: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

وفي الأثر: لا تمكُر ولا تُعِنْ ماكرًا، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ سواء في الدنيا أو الآخرة.

ومن كلام العرب: من حفر لأخيه جُبًّا وقع مُنْكَبًّا.

وقولهم: يا حافرًا حُفرةَ السُّوء، ما تحفِر إلا قِياسَك.

---

(١) قرأ حمزة بإسكان الهمزة وصلًا من (ومكر السيئ) إجراءً للوصل مجرى الوقف، لتوالي الحركات تخفيفًا، وقرأ الباقون بكسرها على الأصل.

(٢) وقف بالهاء على (سنت) في المواضع الثلاثة ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب، والباقون بالتاء، وأمالها الكسائي وقفًا.

(٣) قوله تعالى (فلن تجد لسنة الله تبديلا) عدها آية، المدني الأخير والبصري والشامي، وتركها غيرهم.

والمكر مذموم على كل حال، ولم يرخَّص فيه إلا في الحرب؛ لأنه مقابلة بالمثل، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران].

وقال جلَّ شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠].

فمكرهم هذا يعود عليهم، وهم كذبة، قد ظهر قصدهم السيء.

فهل ينتظر المستكبرون الماكرون إلا أن ينْزِل بهم العذاب الذي نزل بأمثالهم ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ والسُّنَّة هي العادة والطريقة، وطريقة الله في هذا المعنى: هي الانتقام من مكذبي الرسل، وهي سنة لا تتحول ولا تتغير، فليس باستطاعة أحد أن يبدِّل أو يُحوِّل العذاب عن نفسه أو غيره، فهي سنة جارية في الأمم ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ [الرعد: ١١]، فلْيترقب هؤلاء ما فُعل بأولئك.

دَعْوَةٌ إِلَى الاسْتِفَادَةِ مِنَ التَّارِيخِ

٤٤- ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾

بعد أن ذَكر الله سبحانه ما يؤكد عدم تغيير سُنَّته في خلقه، حثَّ المعارضين للنبي ﷺ المكذبين لدعوته، على الاعتبار بأحوال المهلَكين قبلهم، وهم يروْن آثارهم بأعينهم، في شمال الجزيرة وجنوبها ووسطها: كقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم لوط، وأمثالهم، لينظروا ما حلَّ بهم من الهلاك، وبديارهم من الخراب، حين كذَّبوا الرسل.

أفلم يسافروا ويمروا على ديارهم، ويَروْا ما صنع الله بهم؟ فقد دمَّرناهم تدميرًا، مع أنهم كانوا أقوى وأشد من مشركي مكة.

ووصفهم الله بأنهم كانوا: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر: ٢١].

ووصفهم بأنهم كانوا: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ [الروم: ٩].

قال تعالى في وجوب الاعتبار بهم: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ

مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾﴾ [محمد].

وفي الآية حض على السير في الأرض بالقلوب والأبدان للنظر والاعتبار بعاقبة الذين كذبوا الرسل في الأمم السابقة، وكانوا أكثر منهم أموالًا وأولادًا وأشد قوة، وعمروا الأرض أكثر من غيرهم، فلما جاءهم العذاب لم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا قوتهم ونفذت فيهم قدرة الله ومشيئته.

وليس هناك من قوة تمنعهم من عذاب الله، فتدفعه عنهم، أو تشفع لهم، وليس لهم أن يطمعوا في النجاة من عذاب الله ما داموا على عنادهم وتكذيبهم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ﴾ أي: لا يغلبه غالب في هذا الكون، فيُعجزه ويخرُج عن طوعه، أو يسبقه ويفوته ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولو كانوا أقوى وأشد من الأمم الماضية فإن الله لا يغلبه شيء، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾ [الشورى].

فالله تعالى لا يعجزه أو يمنعه شيء عن تحقيق مراده؛ لأن العجز سببه:

١- إما إخفاء المكان على من يريد الانتقام، وهذا معناه نفي إحاطة العلم عن الله تعالى.

٢- وإما أن يكون السبب عدم استطاعة التمكُّن من عدوه، وهذا ينافي القدرة.

ولذا ختم الله الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بأفعالهم وأقوالهم، محيطًا بهم في أي زمان أو في أي مكان ﴿قَدِيرًا﴾ على إهلاكهم والانتقام ممن عصاه، لا يصعب عليه شيء، ولا يغلبه غالب.

خِتَامُ السُّورَةِ فِي شُمُولِ الرَّحْمَةِ الإِلَهِيَّةِ

٤٥- ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾

وفي نهاية السورة يكشف الله سبحانه عن عدله وحلمه ورحمته، إلى جانب علمه وقدرته، فيؤكد أن إمهال الناس بلا عقوبة، إنما هو عن حلم ورحمة، وأن هذا لا يؤثر في دقة الحساب وعدل الجزاء في النهاية.

أي: ولو يعاقب الله الناس في الدنيا بما عملوا من الذنوب والآثام، لا استأصلهم الله بالعذاب في الدنيا، ولم يُبق منهم أحدًا.

وما اكتسبوه من المعاصي، يعم الظلم الذي جاء في سورة النحل من قوله تعالى ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [٦١].

لأن السياق هناك كان بسبب قتل الموؤودة، والسياق هنا عام.

فلو عجَّل الله لعباده بالعقوبة في الدنيا ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ تدبُّ على الأرض من بني آدم وغيرهم، كما أهلك في زمن نوح جميع أصناف المخلوقات بالطوفان، إلا من كان في السفينة.

والوعيد باستئصال الدواب وإهلاكها باعتبارها مخلوقة للإنسان ينتفع بها، فإهلاكها يكون تخويفًا للناس لعلهم يثوبون إلى رشدهم ويرجعون إلى دين ربهم.

قال ابن مسعود ﷺ: إن كاد الجُعل ليعذب في جُحْره من ذنب ابن آدم، ثم قرأ الآية[1].

والأَوْلَى أن يكون التهديد بإهلاك الدواب، من باب التخويف والترهيب، وأن بني آدم أو الإنس أو الجن هم المعاقبون على ذنوبهم.

وظهْرُ الأرض هو وجهها الصّلْب الذي تستقر عليه المخلوقات، وهو يقابل جوف الأرض وباطنها.

وفي سورة (النحل) قال تعالى: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ [٦١] ولم يقل على ظهرها، وهو تفنن في العبارة، ولكن الله تعالى يمهلهم ويؤخر عقوبتهم إلى وقت معلوم، هو يوم القيامة، فإذا جاء وقت عقابهم الذي حدده الله لهم، يكون قد انتهى وقت العمل والكسب، وحان وقت الجزاء ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾ أي: بصيرًا بمن يستحق العقوبة، ومن يستحق الكرامة، لا يخفى عليه أحد منهم، ولا يعزُب عنه شيء من أمورهم، وسيجازيهم بما عملوا من خير أو شر، والآية تتضمن وعيدًا للمجرمين، ووعدًا للمؤمنين.

وفي هذا الختام بيان لحكمة إمهال الظالمين وتأخير عقابهم إلى يوم الدين..

---

(١) أخرجه الطبراني (٩٠٤٠) والحاكم (٤٢٨/٢) وغيرهما.

وقد ختمت آية سورة النحل بقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [٦١] لأن فيها تهديدًا للظالمين.

وحكمة إهلاك الدواب مع الناس حين ينزل بهم الهلاك، هو إنذار العصاة وتخويفهم، لعلهم يُقْلعون عن إجرامهم، أما المؤمنون الصالحون فيسلكون طريقهم إلى النجاة كما نجّى الله هودًا ومن معه، أو يعوضهم في الآخرة، و يحشرون على نياتهم.

تم تفسير (سورة فاطر) ولله الحمد والمنة.



تَفْسِيرُ سُورَةِ يَس (٣٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة يس هي السورة السادسة والثلاثون في ترتيب المصحف، والحادية والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الجن، وقبل سورة الفرقان.

وعدد آياتها عند الكوفيين ثلاث وثمانون آية، وعند غيرهم اثنتان وثمانون آية.

وهي سبع مئة وتسع وعشرون كلمة، وثلاثة آلاف وعشرون حرفًا.

أسماؤها:

١- وسميت سورة ﴿يسٓ ۝﴾ بمسمَّى الحرفين في أولها، فكانا مُمَيِّزَيْن لها عن سائر السور، وصار ذلك علمًا عليها واشتهرت به.

٢- وعنْوَن لها بعضهم بـ(سورة حبيب النجار)[1] وهو صاحب قصة (أصحاب القرية).

٣- وذُكر أنها تسمى: المُعِمَّة. ٤- والمدافعة. ٥- والقاضية.

ومعنى **المُعِمَّة**: التي تعم صاحبها بخير الدارين، والمدافعة، أي: التي تدفع عن صاحبها السوء، والقاضية، أي: التي تقضي كل حاجة بإذن الله[2].

٦- وسماها بعض السلف (قلب القرآن)، فهذه ستة أسماء لها، أشهرها الأول.

وسورة يس سورة مكية بالإجماع.

وقد حفَلَتْ سورة يس بآثار كثيرة لم تصح، تتعلق بقراءتها عند خروج الروح، وفي مكان خروجها، وقراءتها على الميت، وأنها تخفف عنه سكرات الموت.

---

(١) قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره (٢٢/ ٣٤١): رأيت مصحفًا مشرقيًّا نسخ سنة ١٠٧٨هـ أحسبه في بلاد العجم، عنونها: سورة حبيب النجار، قال: وهي تسمية غريبة ليس لها سند.

(٢) «تفسير الألوسي» (٢٢/ ٢٠٩) وقد جاء ذلك في أثر ضعيف عند البيهقي في «الشعب» برقم (٢٢٣٧) والخطيب (٢/ ٣٨٧).

وشاع عند العامة في بعض البلاد ما يطلقون عليه اسم (عِدِّيَّة يس) بمعنى أن جمعًا من القراء يقرؤونها عددًا معينًا على ظالم، فإنه يصاب بسوء، ولاشك أنه إذا حصل شيء من هذا فهو من باب إجابة دعوة المظلوم.

كما أن بعض الجهال يقرأ عددًا منها بنية كفارة الصلاة عن الميت، سِيَّمَا إذا كان لا يصلي، ويقرؤونها كذلك لقضاء الحاجة، ولمغفرة الذنوب، وأنها قلب القرآن، وأن من قرأها فكأنما قرأ القرآن عَشْر مرات، ومن داوم على قراءتها مات شهيدًا، ومن قرأها في ليلته يسَّر الله عليه، . . . ، وهكذا، وكل هذا من باب البدع والجهل والتقليد الأعمى.

فالأحاديث التي وردت في فضل قراءة سورة يس، أو للمعاني السابقة، أحاديث ضعيفة أو موضوعة، وهي مذكورة في أول السورة من تفسير ابن كثير والشوكاني وغيرهما.

وأغلب الظن أن هذه الأحاديث مما وضعها الذين أرادوا أن يصرفوا همة الناس إلى تلاوة القرآن، لَمَّا رأوْهم قد انصرفوا عنه إلى دراسة السنة في وقت من الأوقات، وقالوا: نحن نَكْذِبُ للنبي ﷺ ولا نكذب عليه، وهو كلام لا يصح، فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«من كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»**[1].

ومثل ذلك جاء في بعض السور، وقد انفردت مؤلفات ببيان الصحيح والضعيف من ذلك.

وحديث قراءة يس لتسهيل خروج الروح، أو قراءتها على الميت، أو أنها لما قرئت له، كل هذا ضعَّفه الشيخ الألباني وغيره، وقال الدارقطني: لا يصح في هذا الباب حديث[2].

أغراض السورة: وسورة يس تتكون من **مقدمة وثلاثة عناصر:**

أما **المقدمة** فهي حديث عن القرآن ومستمعيه، والمؤمنين به، والرافضين له، وهذا يستغرق من أول السورة إلى الآية الثانية عشرة.

---

(١) من حديث أنس في صحيح مسلم ٢ وأحمد في المسند (١٢/٥٤) وابن حبان (٣١) وهو حديث متواتر ورد عن جمع من الصحابة.

(٢) تُنظَر هذه الأحاديث في: كتاب «أحكام الجنائز»، للشيخ الألباني و«سلسلة الأحاديث الضعيفة» و«ضعيف الترغيب والترهيب» و«ضعيف الجامع الصغير» و«ضعيف سنن أبي داود» و«ضعيف سنن الترمذي» وكتاب «تلخيص الحبير» وغيرها.

والعنصر الأول يبدأ من الآية الثالثة عشرة إلى الآية الثانية والثلاثين، وهو دليل تاريخي على صدق ما جاء به محمد ﷺ يتضمن قصة موجزة عن قرية أنطاكية، وهي تشبه أم القرى، حيث عاند أهلها رسل الله صلوات الله عليهم، وضاقوا ذرعًا بوحي الله إليهم، فقد ظن أعداء المرسلين، أن الرسل جاؤوا ليسلُبوهم سلطانهم، ويأخذوا ما في أيديهم، فسرعان ما تبرؤوا منهم، وهدَّدوهم وتشاءموا من قدومهم عليهم، مع أن الرسل لم ينشدوا جاهًا ولا مالًا، وهم يدْعُون خلْق الله إلى عبادة الواحد الديَّان، وترْك ما لا يضر ولا ينفع.

وقد تآمر أهل هذه القرية على قتل من قام فيهم ناصحًا أمينًا! فكان نصر الله تعالى حليفًا للمرسلين، وخذَل الله المكذبين، فدفعوا الثمن غاليًا، وهكذا كل من كذَّب خاتم المرسلين ساءت عاقبته وباء بالخسران والبوار.

أما **العنصر الثاني** في السورة، فهو من الآية الثالثة والثلاثين إلى الآية السابعة والأربعين، وهو مجموعة من دلائل وحدانية الله تعالى، وعظيم قدرته، وبديع صنعه في هذا الكون العجيب.

وتبدأ هذه المجموعة بمشهد الأرض الجدباء، والحياة التي تدب فيها، إننا نعطي الأرض أسوأ ما عندنا من فضَلات الإنسان والحيوان والطيور، فتعطينا أحسن ما عندها من الفواكه والثمار والزروع والنبات والشجر، فمن الذي أخرج من الحمأ المسنون هذه الخيرات؟ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

ونصعد بنظرنا من الأرض إلى السماء، لنتأمل النظام الفلكي فيها! فإذا الظلام بعد أن يسود أرجاء الكون تُرسل الشمس أشعتها فتستقبلها الأرض، فإذا جمع الله أشعة الشمس عادت الظلمة الأولى، وهذا هو مشهد الليل والنهار.

ولكل من الشمس والقمر مداره الذي لا ينفك عنه، ولا يلتقيان، فالشمس في مدارها، والقمر يتدرَّج في منازله، فمن الذي يمسك الكواكب في فضائها؟ ومن الذي يدفعها في مجراها؟ وبأي طاقة تسير؟ ومَن الذي أحكم نظامها، فضبط مكانها وزمانها وشرْقها وغرْبها، وهي ألوف؟ ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

إننا نرى البحار تسبح فيها السفن في عالمها الواسع، وهي أكبر من مساحة الأرض أربع مرات، إنها تجري وتغُوص بقدرة الله تعالى، وإذا تعرَّض الناس لأخطار في البحر فلا مُغيث لهم إلا الله، فهل يفزع الناس إلى ربهم في الرخاء كما يهرعون إليه في الشدة؟

وقد تبعث هذه الأدلة على أدلة أخرى قرب نهاية السورة، تتعلق بأنواع أخرى من المخلوقات: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

أما **العنصر الثالث والأخير**، فهو يتضمن الحديث عن البعث والجزاء، وهما عمدة التربية الدينية، وهذا من الآية الثامنة والأربعين إلى نهاية السورة.

وكما يأتي الموت فجأة، وتأتي الساعة بغتة، دون ترقب ولا انتظار، وعلى هذا فقيام الساعة لا يعطي فرصة لعمل شيء مًا، ولا التوجيه بشيء مًا، فهي تقوم والرجُلاَن قد نشرا الثوب بينهما، فلا يَتِمُّ البيع ولا الشراء، ولا يعود الإنسان إلى بيته!! ثم يقوم الناس لرب العالمين بعد موتهم جميعًا، وبعد الحساب يفرق بين المؤمنين والمجرمين، فيستقر السعداء في روضات النعيم، والأشقياء في دركات الجحيم.

وبهذا فإن السورة جمعت عناصر القرآن المكي الثلاثة، وهي: الوحي والرسالة في مقدمتها، وفي العنصر الأول منها، وجمعت أدلة التوحيد في العنصر الثاني، وجمعت أدلة البعث والحساب والجزاء في العنصر الثالث[1].

والسورة قررت أمهات أصول الدين على أبلغ وجه وأتمه، وقررتْ أصول الطاعة بالاعتقاد والعمل، أما الحشر والحساب فهو مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه، فهي سورة جامعة لأصول التدبر، ومنها تتشعب شرايين القرآن.

---

(١) استفدت في هذا التقسيم من كتاب الشيخ محمد الغزالي: «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم».

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

القُرْآنُ الحَكِيمُ بَيْنَ المُؤَيِّدِينَ وَالمُعَارِضِينَ وَجَزَاءُ كُلِّ فَرِيقٍ

١-٥- ﴿يسٓ[(١)] ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ[(٢)] مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ[(٣)] ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿يسٓ ﴿١﴾﴾ آية مستقلة، مكونة من الياء والسين، شأنها شأن الحروف الهجائية المقطعة في أوائل السور، للتنبيه على إعجاز القرآن، وأنه مكوَّن من هذه الحروف التي يعرفونها ويتكلمون بها، ولكن نظْمه البديع المعجز آية على كونه من عند الله تعالى.

وقيل: إنها بمعنى: يا رجل، أو بمعنى: يا إنسان في لغة طيِّئ، أو بلسان الحبشة، ولا يصح كونها من أسماء النبي ﷺ، ولا من أسماء الله ﷻ؛ لأنه ينبغي في هذه الحالة أن يكون لهذه الحروف معنى مقطوع به، ولم يرد في هذا أثر صحيح، والجمع بين ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ يُرجِّح القول الأول.

والأظهر أنَّ قبْل ﴿يسٓ ﴿١﴾﴾ قَسَمًا مضمرًا؛ لأن لفظ ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ مجرور بالعطف على يس، على تقدير كونه مجرورًا بإضمار القسم.

ثم يقسم الله تعالى بحروف يس، ويقسم بالقرآن وما فيه من الأحكام والحِكَم والحُجج، على أن محمدًا ﷺ رسولٌ من عند الله عزَّ وجل.

قال النقاش: لم يقسم الله تعالى لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه، إلا لمحمد ﷺ

---

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت على يا، وسين، سكتة يسيرة، بدون تنفس، ويلزم من ذلك إظهار نون ياسين، وقرأ هشام والكسائي ويعقوب وخلف بإدغام النون من (يس) في الواو بعدها، وأظهرها أبو عمرو وقنبل وحمزة وأبو جعفر، وقرأها بالإظهار والإدغام نافع والبزي وابن ذكوان وعاصم، ونقل ابن كثير حركة الهمزة إلى الراء، ومثله حمزة في الوقف، ولا يُقرأ لحفص بالإدغام على قصر المد المنفصل.

(٢) قرأ قنبل ورويس بالسين في (صراط) وأشمَّ الصاد صوت الزاي خلف عن حمزة، والباقون بالصاد الخالصة.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشعبة وأبو جعفر ويعقوب برفع لام (تنزيلُ) على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو تنزيل، أو ذلك تنزيل، أو القرآن تنزيل، وقرأ الباقون بنصبها على المصدر بفعل من لفظه.

تعظيمًا له وتمجيدًا[١].

والقرآن كتاب محكم لا يلحقه تغيير ولا تبديل، ولا يعتريه باطل ولا تناقض، فهو محكم في نظمه ومعانيه بلا خلل، متضمن للحكمة، وبدائع الحِكَم والإحكام.

والحكمة وضع الشيء في موضعه، وما في القرآن من الأوامر والنواهي والترغيب والترهيب ونحوها، كل منها وُضع في موضعه اللائق به، فأحكام القرآن الشرعية والجزائية كلها مشتملة على غاية الحكمة.

وجواب القسم ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾﴾ أي: إنك -يا محمد- لمن الأنبياء المرسلين بوحي الله تعالى إلى عباده، وهذا ردٌّ على من أنكر رسالته ﷺ من الكفار، كما قال سبحانه عنهم: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣].

فمحمد ﷺ من جملة المرسلين ومن خيارهم، جاء بما جاءت به الرسل من العقيدة والشريعة، ولو لم يكن لرسالة محمد ﷺ دليل، إلا هذا القرآن، لكفى به شاهدًا ودليلًا.

ومهمة هذه الرسالة هي هداية الخلق، وإخلاص العبادة لله وحده، وعدم الإشراك به سبحانه، فقد أقسم الله تعالى بهذا الكتاب المحكم، المعجز في نظمه وبديع معانيه، المتقَن في تشريعه وأحكامه، أقسم على أن محمدًا ﷺ رسول الله ﷻ.

وفي هذا تعظيم وتفخيم لشأن الرسول ﷺ، ومع أن المقصود من القسم: تأكيد المحلوف عليه، إلا أن المقصود الأصلي من هذا القسم هو: الإشادة بِعظَم شأن الرسالة بعد تعظيم المقسم به، فكأنه قال: إن من أنزل القرآن -وهو مَنْ هو في عظم شأنه- هو الذي أرسل محمدًا ﷺ، وهذا وصف له ﷺ بأنه مرسل من عند الله تعالى، وأنه على صراط مستقيم.

ثم وصف الله سبحانه طبيعة هذه الرسالة، بأنها على طريق واضح ونهج مستقيم، يوصِّل إلى الفوز بالجنة في الدار الآخرة، وهذا الطريق هو دين الإسلام، لا إفراط فيه ولا تفريط، لا اعوجاج فيه ولا انحراف عن دين الرسل، وهو التوحيد والإيمان، وهو

---

(١) «فتح القدير» للشوكاني (٤/ ٣٤٩).

طريق موثوق به، يوصِّل السائر فيه إلى المقصود دون تردُّد.

وقد جمعت هذه الآية بيْن وصف النبي ﷺ بالثبات على طريق الحق، إلى جوار وصف الرسالة بأنها في غاية الاعتدال والاستقامة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

والقرآن العظيم، هو دليل هذا الصراط، فكلما سار الإنسان على نهجه وجد الاستقامة والاعتدال، وقد أنزله الله ﷻ على الرسول ﷺ مشتملًا على ما يُصلح القلب والبدن، والدين والدنيا، يزكى النفوس، ويطهر القلوب، ويأخذ بيد العبد إلى دار الكرامة.

وهذا الصراط المستقيم الذي وصف الله به رسوله، ووصف به دينه وكتابه: تنزيل العزيز الرحيم، فهو الذي أنزل كتابه وحماه من التغيير والتبديل ورحم به عباده.

وهو سبحانه العزيز في ملكه، المنتقم ممن كفر به وبرسوله، الرحيم بمن تاب من عباده وعمل صالحًا، والعزيز هو القوي الذي لا يغلب، الفعال لما يريد.

وما اشتمل عليه القرآن من ترغيب وترهيب، ووعد ووعيد، هو أثر من آثار عزة الله تعالى لحمل الناس على الحق وطريق الهدى.

ومع ذلك فهو سبحانه رحيم بعباده، ومن آثار رحمة الله تعالى في القرآن: إقامة الأدلة والبراهين، وكشف الحقائق للناظرين، وتقريب البعيد بضرب الأمثلة الحسية، مع ما فيه من التبشير لمن أطاعه بدخول الجنة، والتوبة على من تاب.

قال تعالى مبينًا شدة الحاجة إلى هذا الكتاب، والضرورة الملحة له:

٦ ٧- ﴿لِتُنذِرَ قَوْمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

أي: أما مهمة هذه الرسالة فهي الإنذار والتبليغ، وقد اقتصرت الدعوة في أولها على الإنذار الذي جاء في قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر] لأن القوم جميعًا كانوا على حالة لا تُرضي الله سبحانه، فكان حالهم يقتضي الإنذار؛ لِيُقلعوا عما هم فيه من شرك وكفر وسوء أخلاق، **والإنذار**: إخبار مع تخويف.

وهذا الإنذار هو المشار إليه في هذه السورة: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ أي: لتحذر بهذا القرآن قومًا ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ وهم العرب الأميون العدنانيون، الذين لم ينزل فيهم كتاب سابق، بعد أن عمتهم الجهالة، وغمرتهم الضلالة، فأرسل إليهم رسولًا منهم يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فيُنذر العرب الأمين ومن لحق بهم، ويُذَكِّر أهل الكتاب بما عندهم من الكتب، فإنه كان قد مضى عليهم وعلى آبائهم قرون لم يأتهم فيها نذير قبل محمد ﷺ، أو هم أهل مكة وما حولها، فهم الذين أراد الله تعالى أن تنْزِل فيهم الرسالة بادئ الأمر، وأن تتأصل فيهم جامعة الإسلام، ثم يحملوها إلى الناس كافة، فانضم إليهم أهل يثرب، وهم عرب قحطانيون، وكانوا أنصارًا لهم، ثم تتابع إيمان قبائل العرب، ومن ثم انتشر الإسلام في أرجاء المعمورة إلى جميع البشر، كما أراد له رب العالمين في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وكانت هذه الرسالة رحمة من الله تعالى للخلق أجمعين، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

فهي رسالة عامة لهم جميعًا قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان].

وقال أيضًا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وهي رسالة قائمة لكل من يأتي بعد عصر الصحابة رضوان الله عليهم إلى قيام الساعة ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣].

وكل من بلغته الرسالة من البشر، وجب عليه الإيمان بها ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

والإنذار بالدعوة، يوقظ الغافلين الذين مضت عليهم قرون، دون أن ينذرهم منذر ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ أي: ساهون عن الإيمان والاستقامة على العمل الصالح، وكل أمة ينقطع عنها الإنذار تقع في الغفلة.

وفي هذا دليل على وجوب الدعوة والتذكير على العلماء بالله وشرعه؛ لإيقاظ الناس من غفلتهم.

وفي الآية قَصْرُ الإنذار على من خشي الله تعالى، وبيان أن الذين لم يتَّبعوا الذكر ولم

يخشوا ربهم، لا فائدة من إنذارهم؛ لأنهم لا ينتفعون بالذكرى.

الناس أمام دعوة الرسول ﷺ صنفان: صنف رد الدعوة ولم يقبل الرسالة، وهم الذين حق عليهم القول؛ وصنف استجاب لله والرسول فاستحق رضوان الله وجنته.

وفي هذه الآية - السابعة - بيان استحقاق المُصرِّين على الكفر، برسالة محمد ﷺ لعقاب الله تعالى، وهو مصير المستمرين في غفلتهم بعد أن جاءهم النذير وخوَّفهم عذاب الله سبحانه.

فبعد إنذار النبي ﷺ للناس، كان منهم من آمن، ومنهم من كفر -وهم الأكثر-

فالذين آمنوا انتفعوا بدعوة الإسلام لهم، فخافوا الله وامتثلوا أمره ونهيه، وكانوا من أهل السعادة في الداريْن.

أما الآخرون الذين عَلِمَ الله في الأزل أنهم لا يؤمنون، بسبب ما جُبلت عليه عقولهم من النفور عن الحق، فقد وجب عليهم ما هو كائن في علم الله تعالى عنهم أنهم لا يؤمنون، فاستحقوا بذلك العذاب، وفي هذه الآية والآيتين بعدها حديث عن الصنف الكافر:

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ أي: وجب العذاب على أكثر الناس، وهم الكافرون بالله ورسوله، بعد أن عُرض عليهم الحق فرفضوه، فحينئذ عوقبوا بالطبع على قلوبهم.

﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدقون بالله ولا برسوله، ولا يعملون بشرعه لا حالًا ولا مآلًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس].

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ، وكشف لما انطوت عليه قلوبهم من الطغيان.

مَوَانِعُ الإِيمَانِ المَعْنَوِيَّةِ وَالحِسِّيَّةِ لَدَى الكَافِرِ

٨- ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾

أخذ الله سبحانه يُبيّن الموانع من وصول الإيمان إلى قلوب المكذبين، فذكر في هذه الآية مانع داخلي في نفوسهم يمنعهم من الإيمان، وذكر في الآية التي تليها مانع خارجي يسد عليهم الطريق إلى الإيمان.

وهكذا: يفصِّل الله سبحانه أحوال من كذَّبوا برسول الله ﷺ فشبَّه حالة إعراضهم عن التدبر في القرآن، والتأمل في دعوة الإسلام وحججه الواضحة، بحال قوم جُعلت في أعناقهم قُيودا غليظة مرتفعة إلى أذقانهم، فارتفعت رؤوسهم، وغضَّت أبصارهم، فلا ينظرون إلى شيء، ولا يلتفتون يمينًا ولا شمالًا، وهذا هو حال المُقمح، أي: المقيد على الصفة المذكورة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ والغُل هو ما يُغلّ به العنُق وهو بمنزلة القيد للرجْل، وفي هذه الآية **ثلاثة أقوال:**

القول الأول: أن المراد بها: تشبيه وتمثيل حال الكفار بمن غُلَّت يداه إلى عنقه، أي: جعلنا هؤلاء الكفار الذين عُرض عليهم الحق فرفضوه، وأصروا على عدم الإيمان به، كمن جُمعت أيديهم مع أعناقهم في قيود صلْبة حديدية، وجُعِلت تحت أذقانهم، فاضطروا إلى رفع رؤوسهم إلى السماء ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ أي: فهم مغلولون عن كل خير، لا يبصرون الحق ولا يهتدون إليه.

واكتفى القرآن بذكر الغل في العنُق عن ذكر اليدين؛ لأن الغُلَّ لا يُعرف إلا بجمْع اليدين مع العنق وطأطأة الرأس.

القول الثاني: أن الآية ليست من باب التشبيه، وإنما تَذْكُرُ مانعًا حسيًّا حدث لأبي جهل ورَجُلَيْن معه من بني مخزوم، أرادوا إيذاء النبي ﷺ فحال الله بينه وبينهم.

فقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنه أن أبا جهل قال: إني أعاهد الله لأجْلِسَنَّ غدًا لمحمد بِحجَر ما أطيق حمْله، فإذا سجد في صلاته فضخْتُ به رأسه، فجاءه وهو يصلي، ومعه حجَر ليدْمغه به، فلما رفعه انْثَنتْ يده إلى عنقه، والْتصق الحجر بيده، فرجع إلى أصحابه وأخبرهم الخبر، فقال رجل من بني مخزوم: أنا قاتله، فأتاه وهو يصلي؛ ليرْميه بالحجَر، فأعمى الله بصره، فجعل يسمع صوته ولا يراه، فلما رجع إلى أصحابه وسألوه، قال: ما رأيتُه، ولقد سمعت صوته، وحال بيني وبينه كهيئة الفحل، لو دنوتُ منه لأكلني، فأنزل الله في أبي جهل هذه الآية، وأنزل في الرجل الآخر الآية التي بعدها[1].

---

(١) أصل هذه الرواية في البخاري (٨/ ٥٥٧) عند تفسير سورة (اقرأ) برقم (٤٩٥٨) نحوه مختصرًا، وقال ابن حجر: رواه ابن إسحاق في «السيرة»، وأبو نعيم في «الدلائل»، وذكره الطبري. قلت: ورواه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ١٩٦).

القول الثالث في الآية: أنها وعيد بما سيحلُّ بالكافرين من عقاب يوم القيامة، ووصْفٌ لنوع عذابهم حين يُساقون إلى جهنم في الأغلال، كما قال تعالى عمن هذه صفة عذابهم: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر].

وقال سبحانه: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحاقة].

وسياق الآيات يرشح المعنى الأول، فإن الكافر قد نفر من الإيمان، وسدَّ على نفسه جميع الطرق المؤدية إليه، ولاشك أن رؤساء الكفر في صدر الدعوة، وفي كل زمان ومكان، في مقدمة هذا الصنف من البشر. قال تعالى:

٩- ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا[1] وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾

وتمضي الآيات في تصوير الموانع بين الكفار وبين دخولهم في الإيمان، فهناك مانع داخلي في نفوسهم منعهم من الإيمان، وجَعلَهم كمن غُلَّت يده إلى عنقه، فلا يرى إلا نفسه، كما في الآية السابقة.

وهناك مانع خارجي يسدُّ عليهم الطريق فلا يبصرون أدلة التوحيد.

أي: جعلنا أمام الكافرين سدًّا، ومن ورائهم سدًّا، حجَب هذا السد بينهم وبين الإيمان والهدى، فهم بمنزلة من سُدَّ طريقه من بين يديه ومن خلفه، فأصبح محصورًا بين سَدَّيْن هائلين، محجوبًا عن النظر في الأدلة والآيات، وقد نسب الله تعالى هذه الموانع إلى نفسه باعتباره خالق السبب والمسبب، وأنه لا يقع في ملك الله تعالى إلا ما يريد.

وهذا تمثيل لسد طرُق الإيمان عليهم، بمن سُدَّت عليه جميع الطرق، فهو لا يهتدي إلى مقصوده ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ أي: أعمينا أبصارهم بسبب كفرهم واستكبارهم ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ طريق الحق ولا يهتدون إليه، وكل من قابل دعوة الإسلام بالإعراض والعناد فهو مستحق لهذا العقاب.

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بفتح السين من (سَدًّا) في الموضعين، والباقون بضمها، وهما لغتان بمعنى واحد.

وعن محمد بن كعب القُرظي: أن نفرًا من قريش فيهم أبو جهل، تآمروا على النبي واجتمعوا عند بابه، فأخذ النبي ﷺ حفنة من تراب في يده فنثرها على رؤوسهم وهو يقرأ هذه الآية، فأخذ الله أبصارهم ولم يروْه، وخرج ﷺ من بين أظهرهم، فأتاهم آتٍ، وقال لهم: ماذا تنتظرون؟ لقد خرج محمد من بينكم، وما ترك واحدًا منكم إلا وضع التراب على رأسه، فوضع كل رجل منهم يده على رأسه وإذا عليه تراب[1].

هِدَايَةُ القُرْآنِ لَا تُحْيِي القُلُوبَ المَيِّتَةَ وَإِنَّمَا تُوقِظُ القَلْبَ المُسْتَعِدَّ لِقَبُولِ الإِيمَانِ

١٠- ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾

ثم إن الكافر الذي حق عليه القول، لن يؤمن بالله ولا برسوله ولا باليوم الآخر، ولذا فإنه يستوي عنده الإنذار وعدمه، فلا جدوى في دعوته، فتحذيرك لهم -أيها الرسول- وعدم تحذيرك سواء، فهم لا يصدقون بالإيمان ولا يعملون به أبدًا؛ لأن من خيَّم على عقله ظلام الضلال، وعَشَّشَتْ في قلبه شهوات الطغيان، لا تنفعه القوارع ولا الزواجر؛ لأن الإنذار لا يحيي القلوب الميتة، إنما يوقظ القلب الحي المستعد لتلقي الإيمان، ولكن هؤلاء قد ماتت قلوبهم فهم لا يتأثرون بشيء، وكيف يؤمن من طُبع على قلبه، ورأي الباطل حقا والحق باطلًا. هذا هو الصنف الأول الذي لم يقبل دعوة النبي ﷺ.

الصنف الثاني: مَنْ قَبِلَ دعوة النبي ﷺ واستجاب لها:

لِلانْتِفَاعِ بِالمَوْعِظَةِ شَرْطَانِ

١١- ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾

فقد بيَّن سبحانه في هذه الآية من ينتفع بالإنذار، فذكر أنه من توافر فيه **شرطان**:

أحدهما: اتّباع الذكر، وهو القرآن، بالعمل بما فيه.

وثانيهما: خشية الرحمن دون أن يراه العبد، أو يطلع على عقابه.

---

(١) يُنظَر: ابن إسحاق، «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٨٣) وأبو نعيم في «الدلائل» (١٥٤) وجاء مثل ذلك عن ابن عباس عند ابن مردويه ليلة الهجرة وفيه أن جبريل أتاه بالسورة وأمره بقراءتها، وجاء مثل ذلك عن مجاهد وعكرمة.

أي: إنما تنفع الدعوة من آمن بالقرآن، واتبع ما فيه من أحكام الله تعالى، وخاف الرحمن حيث لا يراه أحد إلا الله، فهو مع علمه برحمة الله تعالى يخشاه سبحانه، خوفًا من أن يسلبه ما أنعم به عليه.

فهؤلاء هم الذين ينفع معهم الإنذار والتذكير والإرشاد؛ لأنهم فتحوا عقولهم وقلوبهم للحق، فاستجابوا له، وهم المبشَّرون بمغفرة الذنوب والثواب العظيم في الآخرة بدخولهم الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك].

وهناك تلازم بين اتباع القرآن وخشية الرحمن سرًّا وعلانية، فلا تحل الخشية في قلبٍ إلا ويتبعها العمل بما أنزل الله تعالى.

والاستقامة على النهج القويم والتدبر لآي الذكر الحكيم، يُفضي إلى العمل به.

فعمر بن الخطاب ﷺ، لَمَّا تدبر آيات من سورة طه -كانت في لَوْحٍ عند أخته- دخل الإيمان في قلبه فأسلم.

والإقبال على سماع القرآن يُفضي إلى الإيمان، شهد بذلك الوليد بن المغيرة، وهو من أعداء الإسلام، فقال: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر.

ولذا فإن المشركين كانوا يُعرِضون عن سماع القرآن، ويصدُّون الناس عن سماعه، مخافة أن يدخل الإيمان في قلوبهم.

فبعد الهجرة مرَّ النبي ﷺ على مجلس عبد الله بن أُبيِّ بن سلول، وتلا عليهم شيئًا من القرآن، فلما فرغ قال ابن أُبيٍّ: يا هذا، إنه لا أحسن من حديثك إن كان حقًّا، فاجلس في بيتك، فمن جاءك فحدِّثْه، ومن لم يأتِك فلا تغُتَّه به.

إِحْيَاءُ مَوتَى القُلُوبِ بِالإِيمَانِ وَمَوْتَى الأَجْسَادِ بِالبَعْثِ

١٢- ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾

ومع أن الموعظة لا تنفع موتى القلوب، كما قال تعالى ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [٧٠].

وكما قال سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠]. إلا أن الله تعالى قد يحيي قلب

الكافر الذي مات بالضلالة، فيهديه إلى الحق بعد قسوة القلب، ويشرح صدره للإسلام، فيؤمن بعد كفره قبل أن يموت، كما يحيي الله الأرض الجرداء بماء السماء، قال سبحانه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧].

وقال ﷻ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي: أحييناه بالإيمان.

وقد ناسب هذا السياق إثبات البعث والجزاء، وهو من أهم قضايا العقيدة، وقد تحدثت عنه السورة كثيرًا بأساليب متعددة، ومنه هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

أي: نحيي الأموات جميعًا ببعثهم يوم القيامة، ونعيدهم إلى الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء، كما نخرجهم من الشرك إلى الإيمان.

ففي هذه الجملة من الآية، إشارة إلى من يؤمن بالله تعالى، ويصدق بخاتم رسل الله، بعد أن كان كافرًا، وقد تضمن هذا المعنى بعث الناس بعد موتهم يوم القيامة.

فالآية متضمنة للمعنيين معًا، ثم قال تعالى:

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ في حياتهم من أعمال الخير والشر ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ أي: نحن نسجل عليهم أعمالهم التي عملوها في الدنيا من خير أو شر، كالخطى إلى المساجد، أو الخطى إلى مجالس اللهو والفسق، ونكتب آثارهم من أعمال الخير التي تسببوا فيها وهم أحياء، فَنُجْرِي ثوابها لهم بعد مماتهم، كالصدقة الجارية، والعلم النافع، والولد الصالح، والتعليم والنصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من صلاة وصيام وزكاة وحج وعمرة وإحسان، وعمل خير يقتدى به الناس.

كما نُجْري عليهم بعد مماتهم آثارهم السيئة التي تسببوا فيها في دنياهم، كالبدع، ودور اللهو، والشرك وسائر المعاصي، فشتان بين من مات وترك في الناس قرآنًا يتلى بصوته، أو علمًا ينشر إلى يوم القيامة، وبين من مات أو ماتت، وترك رصيدًا من الأغاني أو الرقص! فهذا يجري له عمله الصالح، وتلك يجري لها عملها السيئ، والأول سنّ في الناس سنة حسنة فاقتدوا به، والآخر سنّ فيهم سنة سيئة فاقتدوا به، نعوذ بالله من سوء الخاتمة.

﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ من الأقوال والأفعال والنيات ﴿أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ فعِلْم الله تعالى

محيط بأعمالهم، وهي مكتوبة ومسجلة؛ أي: إن كل شيء ضبطناه وجمعناه في كتاب مسطور واضح هو أم الكتب، وهو اللوح المحفوظ، بأيدي الملائكة فالعاقل يحاسب نفسه؛ ليكون قدوة في الخير في حياته وبعد مماته.

وقد أُطلِق لفظ: (الإمام) على اللوح المحفوظ، وعلى صحف الأعمال التي يسجلها الكرام الكاتبون، وأُطلِق أيضًا على الرسول الذي أُرسِل في كل أمة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] ليشهد عليهم بما عملوا من خير أو شر.

ثم إن الآثار التي يقدمها الناس لأنفسهم قبل الموت؛ ليلْقوْا عليها الجزاء في الآخرة، لها معنيان:

المعنى الأول: أنها الأعمال والأقوال التي باشروها بأنفسهم من خير أو شر، أو صالح أو سيئ، مما جاء موافقًا للتكاليف الشرعية أو مخالفًا لها، وبهذا جاء الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(١).

ومن الآثار التي يتركها الإنسان بعد موته: ما يكون العبد سببًا في شيوعه بين الناس واقتداء غيره به، شريطة أن يكون هذا القول أو العمل له أصل في الشرع، وليس أمرًا مبتدعًا.

وفي هذا يقول ﷺ: «**من سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سُنَّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»(٢).

ففي الحديث وعد ووعيد، كلٌّ يأخذ بحظه منه.

والمعنى الآخر: أن المراد بآثارهم: خطواتهم إلى الطاعة أو المعصية.

قلت: إن آثار العبد تشمل المعنيان معًا، فإن خطوات العبد إلى الطاعة أو المعصية من أعماله.

قال قتادة: لو كان الله مُغفِلًا شيئًا من شأنك يابن آدم، لأغفل ما تعفي الرياح من آثارك.

---

(١) يُنظَر: «صحيح مسلم» برقم (١٦٣١).

(٢) من حديث جرير بن عبد الله البجلي في «صحيح مسلم» برقم (١٠١٧) وابن حبان (٣٣٠٨).

وقال ثابت البناني: مشيتُ مع أنس، فأسرعت المشي، فأخذ بيدي، فمشينا رويدًا، فلما قضينا الصلاة، قال أنس: مشيتُ مع زيد بن ثابت، فأسرعت المشي، فقال: يا أنس، أما شعرت أن الآثار تكتب؟ أما شعرت أن الآثار تكتب؟[١].

قد وردت أحاديث في هذا المعنى، منها:

١- ما رواه جابر بن عبد الله ﷺ قال: خَلَتِ البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قُرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال لهم: «**إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قُرب المسجد**»، قالوا: نعم يا رسول الله، قد أردنا ذلك، فقال: «**يا بني سلمة، دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم**»، فقالوا: ما كان يسرنا أنا قد تحوَّلنا.[٢] أي: الزموا بيوتكم البعيدة فإن خطواتكم محسوبة بأجرها.

٢- وفي حديث عبد الله بن عمرو ﷺ قال: تُوُفِّيَ رجل بالمدينة، فصلى عليه النبي ﷺ، وقال: «**يا ليته مات في غير مولده**»، فقال رجل من الناس: ولِمَ يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل إذا تُوُفِّيَ في غير مولده، قيس له من مولده إلى مُنقطع أثره في الجنة**»[٣].

٣- وقال أُبَيُّ بن كعب ﷺ: كان رجلٌ لا أعلم رجلًا أبعد من المسجد منه، وكان لا تُخطِئه صلاة، قال: فقيل له: أوْ فقلتُ له: لو اشتريتَ حمارًا تركبُه في الظلماء وفي الرمْضَاء، قال: ما يسرني أن منزلي إلى جنب المسجد، إني أريد أن يكتب لي ممشاي إلى المسجد، ورجوعي إذا رجعتُ إلى أهلي، فقال رسول الله ﷺ: «**قد جمع الله لك ذلك كله**»[٤].

٤- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**الأبعد فالأبعد من المسجد أعظم أجرًا**»[٥].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ١٠٠).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٦٦٥) و«صحيح البخاري» (٦٥٦، ١٨٨٧) و «المسند» (٣/ ٣٣٢) برقم (١٤٥٦٦) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٥٧٨) عن أبي سعيد.

(٣) «المسند» (٢/ ١٧٧) برقم (٦٦٥٦) إسناده ضعيف، لضعف ابن لهيعة، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح و«سنن النسائي» (٤/ ٧) و«سنن ابن ماجه» برقم (١٦١٤).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٦٦٣).

(٥) «صحيح سنن أبي داود» (٥٢٠) وابن أبي شيبة (٣/ ٢٠٧) وأحمد (١٤/ ٢٦٦) (٨٦١٨) و(٩٥٣١) وابن ماجه (٧٨٢) والحاكم (١/ ٢٠٨) والبيهقي (٦٤١٣)، وهو حديث حسن لغيره لأن فيه عبدالرحمن بن مهران، متكلّم فيه، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح. (محققو المسند).

وقد نزلت هذه الآية ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ بمكة، واحتج بها الرسول ﷺ على بني سلمة في المدينة، فهي ليست مدنية، وليست الحادثة سببًا في نزولها.

وكل ما يباشره الإنسان بنفسه، أو يترك أثره من بعده، مسجل عند رب العالمين، وسوف يحاسب عليه، ويجازَى به، مهما قلَّ أو كثر: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف].

وقال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة].

وقال سبحانه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ [الانفطار].

وقد اشتملت هذه الآية على أربعة أشياء: إحياء الموتى، وكتابة ما قدموا، وكتابة آثارهم، وإحصاء كل شيء.

قِصَّةُ أَصْحَابِ قَرْيَةِ أَنْطَاكِيَةَ

١٣- ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

وبعد أن وصف القرآن إعراض المكذبين عن رسول الله ﷺ ضرب لهم مثلًا بأصحاب القرية الذين كذَّبوا رسل الله، فأنكروا ما جاؤوا به، وأعرضوا عن دعوتهم، وتطاولوا عليهم، فكانت عاقبتهم أن أرسل الله عليهم صيحة واحدة أخذتهم فإذا هم خامدون، وهكذا هدَّد الله سبحانه من لم يؤمن برسوله محمد ﷺ أن يصيبه في الدنيا من العذاب مثل ما أصاب أهل هذه القرية، وفي هذا وعيد وإنذار لهم وللناس إلى قيام الساعة.

أي: اضرب يا رسولنا لغير المؤمنين بك، الذين ردُّوا دعوتك ولم يقبلوها، اضرب لهم مثلًا يعتبرون به؛ كي يستجيبوا لدعوتك، وهو قصة أصحاب القرية الذين كذبوا الرسل، فأهلكهم الله بصيحة واحدة، فإن حال المكذبين بك كحال أصحاب القرية الممثَّل بهم.

والقرية كما ذكر المفسرون عن ابن عباس هي (أنطاكية) من بلاد الشام في سوريا متاخمة لبلاد اليونان، تقع على نهر العاصي، قُبيل مَصبّه في البحر المتوسط، بيْن الإسكندرونة واللاذقية، بناها سلوقس سنة (٣٠٧) قبل الميلاد، وجعلها عاصمة لملكه بعد

الإسكندر المقدوني، وكانت أيام العباسيين قصبة العواصم من الثغور الشامية [١].

والمرسَلون هم من الحواريين أصحاب عيسى ﷺ، وكان ذلك في حدود سنة أربعين من مولد عيسى ﷺ، أي: بعد رفعه بنحو سبع سنوات.

وقد كان بين موسى بن عمران وعيسى ابن مريم، ألف وتسع مئة سنة، ولم تكن بينهما فترة، وكان بينهما ألف نبي من بني إسرائيل، سوى مَن أُرسل من غيرهم.

وكان بين ميلاد عيسى ومحمد ﷺ، خمس مئة وتسع وستون سنة، بُعث في أولها ثلاثة أنبياء، هم أصحاب هذه القصة، والفترة التي لم يُبعَث فيها رسول بين عيسى ومحمد أربع مئة وأربع وثلاثون سنة[٢].

وهؤلاء الرسل الثلاثة كما قال وهب بن منبه، هم: يوحنا وبولس، وقال كعب: صادق ومصدوق، أما الثالث فهو شمعون، وجاء في العهد الجديد بدل يوحنا: برنابا، وبدل شمعون سمعان، وكثيرًا ما يكون الاسمان لمسمى واحد، فلعله من هذا القبيل، أو هو من تحريف الأسماء.

وخلاصة القصة: أن دعوة عيسى ﷺ كانت خاصة ببني إسرائيل، وكانت مكملة لشريعة التوراة، وقد أوصى عيسى الحواريين قبل رفعه ألا يغفلوا عن نَهْي الناس عن عبادة الأصنام، فكانوا يتوجهون إلى البلاد لتحقيق وصية عيسى ﷺ في الدعوة إلى توحيد الله تعالى.

وعلى هذا فيصح أن يقال: إنهم رسل من جهة عيسى، ويقال: إنهم رسل من عند الله تعالى.

وقد كان بأنطاكية مبعوثان من تلاميذ الحواريين، قيل: هما برنابا وبولس، وكان فيها نفر من اليهود واليونان، يطعنون في رسالتهما، فاضطرا إلى الخروج من أنطاكية، وقصَدا (أيقونية) وما جاورها، فقاومهما يهود هذه المدينة، فرجعا إلى أنطاكية، فحصل لهما من الإيذاء كالمرة الأولى خصوصًا فيما يتعلق بقضية وجوب الختان على من يدخل في الدين، فذهبا إلى أورشليم لمراجعة الحواريين، فأيدوهما برسول ثالث هو (سيلا)؛ كي يعظوا الناس، ولعل ذلك كان بوحي من الله تعالى لتلاميذ الحواريين.

---

(١) يُنظر: أطلس القرآن، د. شوقي أبو خليل ص١٣٣.

(٢) «طبقات ابن سعد» (١/ ٥٣) و«تهذيب ابن عساكر» (١/ ٢٢) عن ابن عباس ﷺ.

وكان أهل أنطاكية والمدن المجاورة لها خليطًا من اليهود وعبدة الأصنام[١].

فكذَّبوا الرسل الثلاثة وأنكروا عليهم، فأقسم الرسل أنهم مرسلون إليهم وما عليهم إلا البلاغ المبين، فتشاءم منهم القوم وهددوهم بالضرب والتعذيب.

وكان في أقصى المدينة رجل يقال له: (حبيب النجار) كان مؤمنًا، وكان رجلًا مريضًا ضعيف الحال، جاء ناصحًا لأهل المدينة، يقول لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [٢٠]. ودعاهم إلى الإيمان بالله تعالى ونبْذ الشرك، فإن عبادة الأصنام تضر ولا تنفع، ولا تشفع لهم عند الله تعالى، ولا تُنقذ عابديها من عذاب النار، وأعلن (حبيب) إيمانه بالله، فما كان منهم إلا أن قتلوه بأن وَثبُوا عليه، قوطئوه بأقدامهم حتى مات، فتقبله الله في الشهداء المجاهدين لإعلاء كلمة الله، وأدخله الله الجنة عقب موته، وأعلمنا الله تعالى بما قاله بعد موته: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٧﴾.

أما عبَدة الأوثان، فكان حظهم ما ذكر الله عنهم ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ۝٢٩﴾. صيحة واحدة من مَلَك واحد أهلكتهم.

قال ابن عطية: إن الله تعالى بعث إلى أهل القرية رسولين، فَدَعَوْا أهلَها إلى عبادة الله تعالى وحده، وإلى الهدى والإيمان، فكذبوهما، فشدد الله أمرهما بثالث، وقامت الحجة على أهل القرية، وآمن منهم الرجل الذي جاء يسعى، وقتلوه في آخر أمره، وكفروا، فأصابتهم صيحة من السماء فخمدوا[٢].

هذا: ولم يرتض ابن كثير ما ذهب إليه المفسرون من أن المراد بالقرية أنطاكية؛ لأن الله تعالى لم يُهلك أمة من الأمم عن آخرها بعد نزول التوراة[٣] بل أمر سبحانه بقتال المشركين، كما جاء ذلك عند تفسير آية سورة القصص ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [القصص:٤٣]. ولم يُعرف أن هذه القرية أُهلكت.

وهي إحدى المدائن الأربع التي فيها بطارقة، وهذه المدن الأربع هي:

---

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٢/٣٥٨) وما بعدها.

(٢) «تفسير ابن عطية» (٤/٤٤٩).

(٣) وقد صرح «العهد الجديد» باسم القرية كما في الإصحاحين الثالث عشر والخامس عشر.

١- القدس؛ لأنها بلد المسيح.

٢- وأنطاكية، وهي أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخرها.

٣- والإسكندرية، وفيها اصطلحوا على اتخاذ: البطارقة والمطارنة والقساوسة والشمامسة والرهابين.

٤- وروميةِ؛ لأن بها الملك قسطنطين الذي نصر دينهم ووطَّده، ولما بنى القسطنطينية نقل العاصمة إليها.

فإذا كانت أنطاكية هي أول مدينة آمنت عن آخرها بالمسيح، فكيف يكذبون رسل الله؟ فقد تكون هذه القرية غير أنطاكية المشهورة المعروفة[1].

قلت: إن الذين كذبوا الرسل لم يكونوا نصارى، بل كانوا من اليهود الذين يكذبون رسالة عيسى ﷺ، وكانوا من عبدة الأوثان من أهل اليونان، ولعل القرية التي أُهلكت كانت من المدن المتاخمة لأنطاكية من جهة اليونان، وذكر المفسرون اسم أنطاكية لأنها معروفة، وبهذا يُجمع بين قول الحافظ ابن كثير وأقوال المفسرين.

ثم إن رفع عذاب الاستئصال، إنما هو عن الأمم التي نزل عليها كتاب سماوي، وأولهم اليهود، ومنهم أمة محمد ﷺ؛ لأنها آخر الأمم، ورسولها آخر الرسل، وقد أراد الله لهذه الأمة وهذه الدعوة الأخيرة أن تبقى إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ أي: عذاب إبادة جماعية ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ يا محمد حيًّا، وبعد موتك أيضًا ببقاء الرسالة ودستورها في الناس، وهو القرآن ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

فهذان أمانان من عذاب الاستئصال الجماعي لأمة محمد ﷺ.

ولذا كان القرآن هو معجزة الرسول ﷺ وهو معجزة باقية إلى يوم الساعة، وليس شأنه شأن المعجزات التي تشاهَد في وقتها ثم ينتهي مفعولها.

كما أن الله تعالى رفع عذاب الاستئصال عن أمة موسى وأمة عيسى عليهما السلام لأن

(١) يُنظَر: «تفسير ابن كثير» للآية (٦/ ٥٧٣).

الله تعالى أنزل عليهما التوراة والإنجيل، وهذا ما تشير إليه آية سورة القصص بأن رسالة موسى عليه السلام كانت بعد أن أهلك الله الأمم السابقة هلاك إبادة ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣].

قلت: ولعل ما أصاب قرية أنطاكية لم يكن عذاب استئصال جماعي، بل كان عذابًا محدودًا.

وأيًّا ما كان الأمر، فإن القرآن لم يُعْنَ بذكر الأماكن ولا الأسماء، ويهدف إلى العبرة المستفادة من القصة لهداية البشر.

ونمضي مع الآيات عندما جاءت رسل الله إلى القرية، قال تعالى:

١٤- ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا[1] بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

أي: اذكر -أيها المخاطب- حين بعثنا إلى أهل القرية المجاورة لأنطاكية رسولين لدعوتهم إلى الإيمان بالله تعالى وترْك عبادة غيره ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ في دعوتهما ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي: قويناهما برسول ثالث، وقال الرسل الثلاثة لأهل القرية: نحن رسل الله، مرسلون لهدايتكم، فبماذا رد عليهم أهل القرية؟

١٥- ﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾

ثم ذكر سبحانه ما دار بين الرسل وأصحاب القرية من حوار، حيث ردُّوا دعوتهم لأسباب ثلاثة زعموها، هي:

١- أنهم أناس مثلهم وليسوا ملائكة.

٢- وأن الله تعالى لم يرسل إليهم شيئًا من الوحي.

٣- وأنهم كاذبون في دعواهم الرسالة.

فقالوا أوّلًا: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فَلِمَ أُوحي إليكم ولم يوح إلينا؟! وما الذي فضلكم علينا وخصكم بالرسالة دوننا؟ ولو كنتم رسلًا لكنتم ملائكة.

---

(١) قرأ شعبة بتخفيف الزاي الأولى من (فعززنا) بمعنى: غلب، أي: فغلبنا أهل القرية بثالث، وهو فعل متعدٍ، ومفعوله محذوف، وقرأ الباقون بالتشديد من عزَّ بمعنى: قوّى، وهو فعل لازم، عُدِّي بالتضعيف، ومفعوله محذوف، أي: فقوينا الرسولين بثالث.

وهذه شبهة كثير من الأمم، كما قال تعالى عنهم: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦].

قالت الرسل لأممهم الذين أوْرَدُوا هذه الشبهة: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١]

وقال سبحانه على لسان المكذبين: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣٤]. فتعجبوا من ذلك وأنكروه ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

وهذه سُنَّة قديمة في الأمم، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء].

وقالوا ثانيًا: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ أي أن أصحاب القرية قالوا: لم يُنْزل الله شيئًا من الوحي والرسالة على أحد من خلقه.

وقد كان اليهود يتجنَّبون ذكر اسم الله تعالى، الذي يُسمَّى في لغتهم (يهوه) ويعوِّضون عن ذلك بالصفات، أما أهل اليونان فهم لا يعرفون اسم الله تعالى.

وقالوا ثالثًا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ أي: ما أنتم -أيها الرسل- إلا قوم تكذبون في دعوى الرسالة، فلستم رسلًا لنا ولا لغيرنا، فبماذا أجابت الرسل الثلاثة؟

١٦، ١٧- ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾

أي: قال المرسلون مؤكدين أنهم رسل الله: الله يعلم أنَّا مرسلون إليكم ولسنا كذَبة، ولو كنا كذلك لانتقم الله منا أشد الانتقام، ولكن الله سيُعِزّنا وينصرنا عليكم، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار.

وقد أُكد لفظ: ﴿لَمُرْسَلُونَ﴾ هنا باللام؛ لأنه جواب للمنكرين، أما التي قبلها ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ فهي مجرد إخبار، فلا تحتاج إلى زيادة تأكيد.

وكان جوابهم في غاية الأدب، وعدم مقابلة السفاهة بمثلها، وهو جواب يحمل الثبات والثقة.

وقالت الرسل لأهل القرية: الهداية بيد الله وحده، ونحن لا نملك هدايتكم، وإنما علينا تبليغ الرسالة إليكم بوضوح، فإن آمنتم فلكم السعادة، وإن كذبتم فلكم الشقاء،

وليس لنا من الأمر شيء.

ومن المعجزات الدالة على صدق الرسل ما جاء في هذه القصة من إبراء الأكمه والأبرص والأجذم على أيديهم بإذن الله تعالى[1]. فماذا قال أصحاب القرية لرسلهم؟:

١٨- ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

لم يقتنع أهل القرية بهذا المنطق السليم، وأنهم رسل من عند الله، يبلّغون لهم أمره ونهيه بل ردُّوا على الرسل ردًّا قبيحًا، قالوا لهم: إنا تَشاءمْنا بكم وبدعْوتكم لنا إلى الإيمان وترْك عبادة الأصنام، لئن لم تنتهوا وتكُفُّوا عن دعوتكم لنا لَنَقْتلنَّكم رمْيًا بالحجارة، وليصيبنَّكم منا عذاب موجع.

وقد تَشاءموا منهم؛ لأنهم دعُوهم إلى غير ما يدينون به، فاستغربوا ذلك، ونفرتْ منه طباعهم المعوجَّة، وكأنهم قالوا لهم: أعاذنا الله مما تدعوننا إليه.

وتوعَّدوهم بالقتل شرَّ قِتلة، إن لم يرْحلوا عن ديارهم، وعادة الناس أن يتفاءلوا بما يميلون إليه، وأن يتشاءموا مما يكرهونه.

وفي الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: **«لا عدوى ولا طيرة، وأحب الفأل الصالح»**[2].

والتطيُّر في الأصل: تكلُّف معرفة ما يدل عليه نوع من الطير، من خير أو شر في ذهابه ومجيئه، ثم أُطلِق على كل حدث يُتوهم منه إصابة الشر.

وهكذا قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقال أهل ثمود لصالح عليه السلام: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل].

ولم يزل اليهود في كل مدينة من هذه المدن يضطهدون الرسل، ويثيرون عليهم الناس، ويَلْحَقُونهم في كل بلد يَحِلُّون فيه حتى أصابهم الضر، فرُجم (بولس) في مدينة (لسترة)

---

(١) يُنظَر: «التسهيل في علوم التنزيل» (٣/ ١٦١).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٢٢٣).

حتى حسبوا أنه قد مات[١].

ثم رد الرسل على أهل القرية فأجابوهم على قولهم ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ بأن:

١٩- ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم[٢] بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

قابلت الرسل تهديد القوم بالثبات على الحق والمنطق الحكيم، فقالوا لأهل القرية: ليس الأمر كما ذكرتم أننا سبب شؤمكم، بل إنَّ شؤمكم معكم، بسبب أعمالكم وإصراركم على الكفر والإعراض عن الحق، فكان مردود ذلك عليكم، فما أصابكم ليس بسببنا ولا من أجلنا، بل هو بسبب بغيكم وكفركم.

ثم قال الرسل لأهل القرية: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ دخلت همزة الاستفهام على إن الشرطية من لفظ (إن) وهذا الشرط جوابه محذوف لدلالة السياق عليه، وتقديره: أئن وُعِظْتُم بما فيه خيركم، تشاءَمْتُم منا، وتوعَّدتمونا بالرجْم والتعذيب؟

ثم قالوا لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ عادتكم الإسراف في العصيان والتكذيب، وإيثار الباطل على الحق، والغي على الرشد، فليس شؤمكم بسبب وجودنا بينكم ودعوتنا لكم.

حَبِيبُ النَّجَّارُ

٢٠، ٢١- ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾

هَمَّ أهل القرية بتعذيب الرسل، أو بقتلهم، وشاع الخبر في المدينة التي هي القرية، فجاء رجل مؤمن من أطراف القرية، هو حبيب النجار، جاء مسرعًا مُهَرْوِلًا يسعى لنُصرة الرسل من أذى قومه، فأقبل عليهم وأظهر دينه، وقال: أنا ناصح لكم، وهؤلاء الرسل جاؤوا لهدايتكم وإنقاذكم من عبادة الأصنام، وكانت الأنبياء تُقتل في بني إسرائيل، فلما سمع (حبيب) بوصولهم إلى مدينته، وعلم ما يراد بهم من أذى، أقبل إليهم يسعى ليدركهم، فيُشهِدهم على إيمانه.

---

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١١/ ٣٦٣).

(٢) قرأ أبو جعفر بتخفيف كاف (ذكرتم)، والباقون بتشديدها.

وفي سورة القصص ٢٠: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ وذلك لأن الرجل الذي في سورة ﴿يسٓ ۝﴾ كان داعيًا قومه إلى الإيمان بالله تعالى، أما الذي في سورة القصص فقد كان ناصحًا لموسى بالخروج من أرض مصر.

وقُدِّمت جملة ﴿أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ هنا، إشارة إلى أن الإيمان قد ظهر أوَّلًا في أطراف المدينة، قبل أن يظهر في قلبها؛ لأن قلب المدينة هو مسكن الحكام وأحبار اليهود، وهم أبعد عن إنصاف الرسل وقبول دعوتهم، وعامة الناس يتَّبعون خاصتهم، بخلاف أطراف المدينة فهم أقرب إلى الاستقلال، فكان هذا التقديم للاهتمام بأقصى المدينة، والثناء على أهلها، وأنه قد يوجد فيها ما لا يوجد في وسطها.

هذا: وجاء عن وهب بن منبه: أن حبيبًا النجار كان يصنع الحرير، وكان يتصدق بنصف كسْبه، وكان مريضًا بالجذام، ومنزله عند أقصى أبواب المدينة، وكان قد ظل يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة، يسألها كشف الضر عنه، فلم تستجب له، فلما رأى الرسل الذين جاؤوا إلى القرية سألهم: هل من آية؟ قالوا: نعم، نحن ندعو ربنا القادر فيفرِّج عنك ما بك! فقال: إن هذا لعجيب، إني أدعو هذه الآلهة سبعين سنة لتفرِّج عني، فلم تستطع، فكيف يفرِّجُه ربكم في يوم واحد؟! قالوا: نعم، ربنا على ما يشاء قدير، وهذه الأصنام لا تنفع شيئًا ولا تضر، فآمن حبيبٌ بدعوة الرسل، ودعَوْا ربهم، فكشف الله ما به[1].

وتابع الرجل دعوته إلى قومه ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ تأليفًا لقلوبهم واستمالة لهم ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الدَّاعين لكم إلى توحيد الله تعالى وطاعته.

ثم كرر قوله لهم تأكيدًا، وبيانًا للسبب الذي دعاهم من أجله، فقال: اتبعوا الذين لا يطلبون منكم مالًا على إبلاغ الرسالة، وإنما جاؤوا ليرشدوكم إلى طريق الحق، وهم على هدى وبصيرة فيما يدعونكم إليه من توحيد الله تعالى.

وقد يقال: إنه لا يأخذ أجرا ولكنه ليس على الحق، فكان الجواب على ذلك بقوله تعالى ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فهم لا يدعون إلا بما يشهد به العقل الصحيح، والفطرة السليمة.

(١) يُنظَر: «تفسير القرطبي» و«الخازن» وغيرهما للآية.

قال قتادة: بلغني أن رجلًا كان يعبد الله في غار اسمه (حبيب)، فسمع بهؤلاء النفر الذين أرسلهم عيسى إلى أهل أنطاكية، فجاءهم فقال: أتسألون أجرًا؟ فقالوا: لا، فقال لقومه: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ قال: فرجموه بالحجارة، فجعل يقول: ربِّ اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون، فلم يزالوا يرجمونه حتى قتلوه، فدخل الجنة، قال: فما نُوظِرُوا بعد قتلهم إياه حتى أخذتهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون[١].

وفي هذا بيان لفضل من سعى إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبيان أن الرسل لن يخسروا شيئًا في دنياهم، وأنهم سيربحون خيري الدنيا والآخرة.

وتابع الرجل المؤمن نصيحته لقومه قائلًا:

٢٢- ﴿وَمَا لِىَ[٢] لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[٣] ﴿٢٢﴾﴾

فلما قال لهم (حبيب) هذه المقولة قالوا له: وهل أنت مخالف لديننا، متبع دين هؤلاء الرسل؟ فأجابهم قائلًا: وأي شيء يمنعني مِنْ أَنْ أعبد الله الذي خلقني فأبدع خلقي، ولم أكن قبل ذلك شيئًا مذكورًا؟! ثم إن مصيركم ومرجعكم إليه بعد الموت، فيحاسبكم على أعمالكم في الدنيا، ويجازيكم عليها بما تستحقونه من ثواب أو عقاب في الآخرة، والحَكَم بين عباده في الدنيا والآخرة هو الذي يستحق أن يُعبد، دون مَن لا يملك نفعًاولا ضرا، ولا عطاءً ولا منعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وقد جمعت هذه الآية القصيرة بين بدء الخلق وإعادته، ومقتضى ذلك هو: الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر.

ويمضي الرجل قائلًا:

٢٣- ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ[٤] ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ[٥]﴾

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ١٤١) والطبري (١٩/ ٤٢١) وغيرهما.

(٢) قرأ حمزة ويعقوب وخلف وهشام بخلف عنه بإسكان ياء (وما لي) وصلًا ووقفًا، والباقون بفتحها وصلًا وإسكانها وقفًا، وهو الوجه الثاني لهشام.

(٣) قرأ يعقوب ببناء (ترجعون) للفاعل، والباقون بالبناء للمفعول.

(٤) قرأ أبو جعفر بإثبات (يردن) مع فتحها وصلًا و إسكانها وقفًا، ويعقوب بإسكانها وقفًا، وحذفها الباقون في الحالين.

(٥) قرأ ورش بإثبات ياء (تنقذون) وصلًا، ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

أنكر الرجل المؤمن على قومه، كيف يعبدون من دون الله تعالى آلهة لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تضر، ولا تغني عن عابديها شيئًا!!

أأعبد من دون الله آلهة أخرى لا تملك من الأمر شيئًا، فلو أراد الله تعالى أن يُنزل بي شيئًا من الضر والأذى، وشفعتْ لي هذه الآلهة فإن شفاعتها لا تنفع، وهي لا تملك الشفاعة أصلًا.

ثم إنها لا تستطيع إنقاذي مما أنا فيه من الضر والأذى، ولا إنقاذي من عذاب الله إن لم أؤمن به.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨].

ويستمر الرجل المؤمن في نصيحته لقومه، فيقول:

٢٤، ٢٥- ﴿إِنِّىٓ[1] إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ[2] ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ[3] ﴿٢٥﴾﴾

أي: وإن أنا عبدت غير الله، واتخذتُ آلهة أخرى من دون الله، فأنا في خسران واضح، وعلى خطأ بيِّن في عبادتي غيره، وهذا الخطأ الظاهر لا يخفى على من له أدنى بصيرة.

ثم إن الرجل الذي كان يكتم إيمانه أعلن إيمانه، على الملأ، فقال في صراحة واضحة: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي خلقني وخلقكم، ورباني ورباكم بنعمه ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ أي: استمعوا إلى هذا الإيمان، واشهدوا لي به، واعملوا بنصيحتي إليكم.

وهذا الخطاب من الرجل المؤمن موجه للرسل، وموجه لأهل القرية معًا.

وهكذا فإن الرجل المؤمن شهد للرسل بالرسالة، ودعا قومه إلى توحيد الله، وذكر الأدلة والبراهين عليها، وأخبرهم بأنهم على ضلال، وأن عبادة غير الله باطلة، وأعلن إيمانه جهرا مع خوفه الشديد من قتلهم له، فقتله قومه لمّا دعاهم إلى التوحيد والإيمان بالرسل، فأدخله الله الجنة، وأخبرهم بما حباه الله به من النعيم بعد وفاته:

---

(١)، (٢) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الياء من (إنيَ إذا)، و(إني آمنت) والباقون بإسكانهما.

(٣) قرأ يعقوب بإثبات ياء (فاسمعون) وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

نِهَايَةُ حَبِيبِ النَّجَّارِ فِي الدُّنْيَا

٢٦ ، ٢٧- ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾

أي إن هذه الدعوة، وهذه النصائح منه لأهل القرية، لم تصادف من القوم أذنًا واعية، فحين قال لهم ذلك معلنًا إيمانه، وثبُوا عليه وثْبة رجل واحد فقتلوه، ولم يكن له أحد يمنعه من ذلك.

قال ابن مسعود ﷺ: إنهم وطئوه بأقدامهم، حتى خرجت أمعاؤه من دبره، وقيل: إنهم رموه بالحجارة حتى مات[١].

فلما قتلوه عرض الله عليه مقعده من الجنة وتحقق له أنه من أهلها برؤيته لها، فلما علم ذلك تمنى أن يُعلِم قومه بذلك إشفاقًا عليهم ونصحًا لهم، فقال مقالته هذه، وأدخله الله الجنة مع الشهداء في سبيل الله لإعلاء كلمته، وقد فُهم قتلُه من الآيات ضمنًا لا تصريحًا، فقد أغمض الله ذلك على المشركين، حتى لايسرَّهم أن قومه قتلوه، فيُجرِّئُهم ذلك على قتل الرسل والدعاة من بعده.

أخرج الحاكم عن ابن مسعود ﷺ قال: لما قال صاحب يس: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ خنقوه ليموت، فالتفت إلى الأنبياء فقال: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ۝﴾ أي: فاشهدوا لي[٢].

ثم قال الله تعالى له بعد موته: ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ إكرامًا له، فالشهداء لهم مزية التعجيل بدخول الجنة.

ففي الحديث عن أُبَيِّ بن كعب بن مالك: إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تأكل من ثمار الجنة، وتأويْ إلى قناديل معلقة في ظل العرش[٣].

---

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» والقرطبي وابن كثير وغيرهم للآية.

(٢) «المستدرك» (٢/ ٤٢٩).

(٣) يُنظَر: «المسند» (٢٧١٦٦) حديث صحيح دون لفظ (الشهداء) ورجال إسناده ثقات رجال الشيخين، وجاء بدل لفظ (الشهداء) (إنما نسمة المؤمن) في كثير من الروايات، وأخرجه الترمذي (١٦٤١) وسعيد بن منصور (٢٥٦٠) وغيرهم.

فلما رأى (حبيب) ما في الجنة من النعيم والكرامة، تمنَّى أن يعلم قومه بحاله؛ ليعْلَموا حُسن المآل لمن آمن وصبر، فيحملهم هذا على ترك الكفر والدخول في الإيمان ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ بالسبب الذي غفر الله لي به ذنبي، وأدخلني به جنات النعيم، حتى يؤمنوا بالله، ويتَّبعوا الرسل، فيدخلوا الجنة مثلي.

قال ابن عباس ﷺ: نصحَ قومه في حياته ونصحهم بعد مماته.

وقال قتادة بن دعامة: نصحهم على حالة الرضى والغضب.

وقال عروة بن مسعود للنبي ﷺ: ابعثْني إلى قومي أدعوهم إلى الإسلام، فقال ﷺ: **«إني أخاف أن يقتلوك»** فقال: لو وجدوني نائمًا ما أيقظوني، فقال له رسول الله ﷺ: **«انطلق»** فانطلق، فمرَّ على اللات والعزى، فقال: لأُصَبِّحنَّك اليوم بما يسوءك، فغضبتْ ثقيف، فقال: يا معشر ثقيف، إن اللات لا لات، وإن العزَّى لا عُزَّى، أسلموا تسْلموا، قال ذلك ثلاث مرات، موجِّهًا كلامه للأحلاف، فرماه رجل فأصاب أكْحلَهُ فقتله، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: **«هذا مَثَلُهُ كمثل صاحب يس، قال: يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المرسلين»**[١].

وذكر ابن إسحاق: أن مسيلمة الكذاب أخذ يسأل حبيب بن زيد بن عاصم: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ فيقول: نعم، ثم يقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع، فيقول مسيلمة: أتسمع هذا ولا تسمع ذاك؟ فيقول: نعم، فجعل يُقَطِّعُه عضوًا عضوًا، كلما سأله لم يزده على ذلك حتى مات في يديه، فقال كعب الأحبار حين قيل له: إن اسمه حبيب، قال: وكان والله صاحب يس اسمه حبيب[٢].

نِهَايَةُ أَصْحَابِ القَرْيَةِ

٢٨، ٢٩- ﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إن

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٦١٥) والبيهقي (٥/ ٢٩٩) مطولًا، وابن أبي شيبة (١٢/ ١٤٦) والطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ١٤٨) (١٢١٥٦) من طريقين، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٣٨٦): فيه أبو عبيدة بن الفضل، وهو مرسل وإسناده حسن.

(٢) «تفسير الطبري» (٢٢/ ١٠٣).

كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً[١] وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾

هذا توجُّه بالخطاب إلى أمة محمد ﷺ؛ حتى لا ينزل بهم ما نزل بقوم حبيب النجار، وقد نفى سبحانه أن يكون قد أرسل إليهم رسلًا من السماء لتعذيبهم، فهم أهون من ذلك وأيسر، والمعنى: فلم نحتج أن نتكلف في عقوبتهم جندًا من السماء تنزل لإهلاكهم، ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ لعدم الحاجة إلى ذلك، ولعظم قدرتنا، وشدة ضعفهم، فأدنى شيء من عذاب الله يكفيهم.

ولما قُتل حبيب النجار غضب الله تعالى له، فعجَّل لهم العقوبة في الدنيا، فأمر جبريل فصاح بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم، ولم تنزل ملائكة من السماء لإهلاكهم، ولم يَخْلُق الله جندًا لإهلاك الأمم التي أبيدت، ولم تعبِّئ السماء قُواها لِتُلْقِي عليهم قذائف فتبيدهم، فما هي إلا صيحة واحدة فإذا هم بلا أنفاس ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

إن تدمير أعداء الإسلام -لو أراد الله ذلك- لا يحتاج إلى أكثر من صيحة!! ذلكم ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي: على قوم حبيب النجار، وهم أهل القرية التي كذبت الرسل ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد موته ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: لم تنزل ملائكة من السماء لِعذَاب القوم وإهلاكهم، بعد أن قتلوا الرجل الناصح لهم، وكذَّبوا رسل الله، بل إن الله تعالى تولى أمرهم بصيحة واحدة مِنْ مَلَك واحد فأهلكهم الله.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ على الأمم التي أهلكناها جنودًا أو ملائكة لعقابهم، فإن أمرهم أهون وأيسر من ذلك على الله تعالى، حيث لم يحتج إلى إنزال قوة عليا تهلكهم.

وما كانت عقوبتنا لهم إلا صيحة واحدة، فإذا هم جثث هامدة، لم يبق لهم أثر، حيث أخمدت أنفاسهم فلم يتحركوا، وكانوا كالنار الخامدة، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٥]. قال تعالى معقبًا على القصة:

(١) قرأ أبو جعفر برفع (صيحة واحدة) على أن كان تامة و(صيحة) فاعل و(واحدة) صفة، أي: ما وقع إلا صيحة واحدة، وقرأ الباقون بنصبها على أن كان ناقصة، واسمها ضمير مضمر، و(صيحة) خبرها، و(واحدة) صفة، أي: إن كانت الأَخْذة إلا صيحة واحدة.

التَّعقِيبُ عَلَى القِصَّةِ

٣٠- ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾

وبعد هلاك القرية ومن فيها، يقدِّم الله تعالى رِثاء لكل من كذَّب رسولًا من رسل الله، وهذا الرثاء يُقصد به من ضُرِب لهم المثل في أول القصة ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ والعباد هم البشر جميعًا، فسُنَّة الله في خلقه مطردة.

وقد بيَّن الله سبحانه وجه الحسرة والأسف، وأن هذه الحسرة تتعلق بكل من كذَّب رسولًا من رسل الله إلى يوم الساعة، وهذا شأن المجرمين الذين بدَّلوا الإيمان بالكفر، والسعادة بالشقاء، وقد خرجت من هذا العموم أمة واحدة هي أمة يونس عليه السلام لما آمنوا كشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا.

والحسرة: انفعال نفسي على حالة مؤسفة، لا يملك الإنسان لها حلًّا سوى أن يتحسر ويتألم.

والله تعالى لا يتحسر على العباد، ولكنه سبحانه يقرر أن حالة المكذبين لرسل الله من العباد تستحق منهم الحسرة والندامة، فهي حالة مؤسفة ونهايتها شر وخيم، وبلاء عظيم.

فيا حسرة العباد وندامتهم يوم القيامة على ما ضيَّعوا من أمر الله، وعلى ما فرَّطوا في جنب الله إذا عاينوا العذاب، وقد أتيحت لهم فرص النجاة في الدنيا فأعرضوا عنها، وعُرِضَتْ عليهم مصارع الغابرين فلم يعتبروا بها، وفُتِحتْ لهم أبواب الرحمة بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ولكنهم أساؤوا الأدب معهم، فكلما جاءهم رسول من عند الله سخروه منه وكذَّبوه.

فما أعظم شقاؤهم، وما أشد جهلهم، وما أعظم عنادهم، حتى وصلوا إلى هذه النهاية الأليمة.

وفي هذا تعريض بمن كذَّب سيد الرسل ﷺ، ووعيد للمكذب بالهلاك والعذاب في الدنيا والآخرة.

العِبْرَةُ المُسْتَفَادَةُ مِنَ القِصَّةِ

٣١، ٣٢- ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا[1] جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

ألم يعلم مكذبو الرسل في كل زمان ومكان، أن الله تعالى قد أهلك قبلهم كثيرًا من الأمم السابقة، بسبب إصرارهم على كفرهم وتكذيبهم لرسلهم، بدءًا من قوم نوح عليه السلام ومَنْ بَعدهم، فيعتبروا بهم ويستفيدوا مما حدث لهم؟!

إن الحيوان ليرجُف حين يرى مصرع أخيه أمامه، ويحاول أن يتوقَّاه قدْر ما يستطيع، فما بال الإنسان يرى المصارع تلو المصارع، ثم يسير مندفعًا في ذات الطريق؟! والأمم التي ذهبت لن تعود إلى الدنيا مرة ثانية على تطاوُل القرون، وتعاقُب السنين، فهو هلاك لا طمع معه في الرجوع إلى الدنيا، وهو مما يزيد الحسرة ألمًا.

فإن جميعهم قد أبيد وهلك، ولم يرجع إلى الدنيا، ولن يرجع إليها، وسيبعثهم الله بعد موتهم.

ثم إن كل القرون التي أهلكها الله تعالى من جميع الخلائق، سيحضُرون للحساب والجزاء يوم القيامة، بين يدي أحكم الحاكمين فيجازيهم بأعمالهم، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ، فالذين أُهلكوا في الدنيا لن يُتركوا بعد هذا الهلاك، وليست هذه نهايتهم، بل هناك بعث وحساب وجزاء، وإن جميع القرون من الأممْ الماضية والآتية ستحضر للحساب والجزاء بين يديْ أحكم الحاكمين، فيجازيهم على ما قدمت أيديهم من ثواب أو عقاب، وليس اجتماعهم في أوقات مختلفة، ولا أماكن متعددة، بل يُبعثون جميعًا في مكان واحد وزمان واحد، فالكل مرجعه إلى الله يوم القيامة، كما قال تعالى:

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾ [هود].

وقال سبحانه ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء].

---

(١) قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وابن جماز بتشديد ميم (لَمَّا) بمعنى: إلَّا، والباقون بتخفيفها، مخففة من الثقيلة.

سِتَّةُ أَدِلَّةٍ كَوْنِيَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ

الدَّلِيلُ الأَوَّلُ: إِخْرَاجُ النَّبَاتِ وَالثِّمَارِ مِنَ الأَرْضِ

٣٣- ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ[1] أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

ويأتي القسم الثاني من السورة لإبطال ما اشتمل عليه القسم الأول من الإشراك بالله تعالى، وتكذيب الرسل، وإنكار البعث والنشور، في جملة من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، والعلامات الظاهرة، الدالة على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته، وهي ستة أدلة، أولها وآخرها من العالم السفلي، والأدلة الأربعة التي بينهما من العالم العلوي، وهذا هو الدليل الأول:

فهذه الأرض التي نعيش فوقها، وفيها نُدفن، ومنها نُبعث، ومنها تخرج الأرزاق، .. كيف أن هذه الأرض تكون جافة يابسة جرداء، خالية من النبات، ميتة لا حياة فيها، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت، وانتفخت، وتفتَّحت، وأخرجت النبات والعشب، والكلأ والزرع والثمر؟! وهذا حياة للأرض بعد أن كانت ميتة، فيأكل من هذا الزرع: الإنسان والحيوان والطير، وهذا أمر مشاهد لا يُنكر، وهي آية باهرة واضحة على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [البقرة: ٧٣]. فيقفوا بين يدي ربهم للحساب والجزاء.

وبمثل ما فُعِل بالأرض يُفعَل بالإنسان، فقد أخرج الله بهذا الماء أنواع الحبوب من النبات الخارج من الأرض؛ ليأكلوا منه ويعيشوا، فمن أحيا الأرض بالنبات أحيا الخلق بعد الممات. قال تعالى:

٣٤، ٣٥- ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ[2] ﴿٣٤﴾

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بتشديد الياء من (الميِّتة)، والباقون بالتخفيف.

(٢) قرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر العين من (العِيون)، والباقون بضمها.

﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ(١) وَمَا عَمِلَتْهُ(٢) أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٣٥﴾

أي: وجعلنا في هذه الأرض ما هو أعجب وأبقى، وهو إخراج حدائق وبساتين من نخيل وأعناب، وهما أشهر وأنفع الفواكه المعروفة، ولذا خصهما الله تعالى بالذكر، فهما طعام وفاكهة

وشققنا في هذه الأرض كثيرًا من المياه في العيون والآبار والأنهار التي تُسقى بها هذه الزروع والثمار والأشجار والنبات، ومنها حياة الإنسان والحيوان والطير، وكل كائن حيٍّ.

وكل هذه النعم خلقها الله تعالى، وأخرجها من الأرض، كالنخيل والعنب ومياه العيون وغيرها؛ ليأكل العباد من ثمرها، قوتًا وفاكهة، ويشكروا الله عليها.

ثم إن الإنسان قد تعاهد هذه الثمار بِحرْثِ الأرض وبَذْرِها، وغَرْسها وسَقْيها، وجذِّ نباتِها، وعصير الناتج منها، وحِفْظِه وتخزينه، فيكون المعنى: ليأكلوا من ثمره، ويأكلوا من الذي عملته أيديهم، وتكون ﴿مَآ﴾ موصولة بمعنى: الذي.

ويصح أن تكون ﴿مَآ﴾ نافية؛ لأن الله تعالى هو الزارع، كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤﴾ [الواقعة].

فيكون المعنى: إنهم يأكلون من شيء لم تعمله أيديهم، وليس لهم فيه صُنع، أي: إن البشر لم يُخْرِجوا هذا النبات، ولم يُحْيُوا هذه الأرض، وإنما الخالق لها هو الله، ومنبت النبات هو الله، وهو خير الرازقين، وإلا فمن الذي أخرج من الطين هذه الخيرات؟ إنها محض فضل منه تعالى، رحمة بخلقه، وليس بكدِّهم ولا سعيهم، ولا بحوْلهم ولا بقوتهم، وهذا المعنى هو الأنسب لختام الآية ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: فهلَّا يشكرون الله تعالى على ما أنعم به عليهم من النعم التي لا تعدُّ ولا تحصى، أليس الذي أحيا الأرض بعد موتها، فأنبت فيها الزرع والأشجار والثمار والأغصان، وفجَّر الأرض اليابسة بالعيون والمياه الجارية، بقادر على أن يحي الموتى؟ بلى إنه على كل شيء قدير.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الثاء والميم من (ثُمُره) جمع ثمرة، وقرأ الباقون بفتحهما، اسم جنس.

(٢) قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف (وما عملت) بحذف الهاء وهي موافقة لرسم مصحف الكوفة، والباقون (عملته) بإثبات الهاء موافقة لرسم بقية المصاحف، وما موصولة، والعائد محذوف، ووصل ابن كثير هاء الضمير بحرف مد، والباقون بالقصر.

٣٦- ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾

وفي نهاية الدليل الأول يعلمنا الله سبحانه كيف نثني عليه بما هو أهله، كما أثنى تعالى على نفسه، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي: تنزه الله العظيم، وتقدس العليُّ الجليل، الذي خلق الأصناف كلها، مختلفة اللون والطعم والشكل، وخلق من كل صنف منها ذكرًا وأنثى، والأزواج هي الأصناف والأنواع، والذكر والأنثى في الإنسان والحيوان والطيور والنخيل والنبات والهوام، وفاوت بين خلقهم وأوصافهم.

وقد ذكر الله سبحانه في هذه الآية نوعًا واحدا منها في قوله تعالى: ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: من النبات والإنسان، فجعل منهما الذكر والأنثى، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [النجم].

ثم عمَّم الله سبحانه سائر الأصناف والأنواع، ما علمنا منها وما لم نعلم، فأدخلها تحت قوله سبحانه: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ فبعض هذه الأصناف نابت من الأرض، وبعضها ممثلٌ في الذكر والأنثى من الإنسان، وبعضها لا يعلمه إلا الله، من سائر المخلوقات الأخرى ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات].

وبما أن الله تعالى قد تفرد بالخلق فلا يُشْرَك معه في العبادة غيره، ولا يجعل معه شريك ولا معين، ولا صاحبة، ولا ولد، ولا يجعل له شبيه ولا مثيل في صفاته وأفعاله.

الدَّلِيلُ الثَّانِي: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ

٣٧- ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

هذا هو الدليل الثاني على عظيم قدرة الله تعالى ووحدانيته، وهو دليل من العالم العلوي: حيث ابتدئ بالليل والنهار من هذا العالم الكبير، لمشاهدتهما وتكرار وقوعهما، فإزالة ضوء النهار عن الليل يُبقيه في الظلمة، والليل آية للبشر حين يزول عنه ضوء النهار، ويدخل في ظلام دامس بانفصاله عنه، وذلك أن الظلمة عدم، والنور وجود، والظلمة هي الحالة السابقة للعوالم، قبل خلق النور في الأجسام النيِّرة، وقد كانت الموجودات في

ظلمة قبل أن يخلق الله الكواكب، ويوصِّل نورها إلى الأجسام التي تستقبل النور، كالأرض والقمر، ولا يلزم أن تكون الظلمة هي الأصل، فالظاهر أن الأرض قد انفصلت عن الشمس وهي نيِّرة(١).

إن الظلام يسود أرجاء الكون، والأرض تدور حول نفسها في مواجهة الشمس، فتمر كل نقطة من الأرض بالشمس وتتحول إلى نهار، فإذا دارت الأرض انسلخ منها النهار ولفَّها الظلام، فسبحان العلي القدير! وفي هذا آية عظيمة دالة على وحدانية الله تعالى وقدرته على البعث والنشور، واستحقاقه للعبادة دون سواه.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: الشَّمْسُ وَمُسْتَقَرُّهَا الزَّمَانِيُّ وَالمَكَانِيُّ

٣٨- ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾

وآية ثانية من العالم العُلوي: هي الشمس بالنسبة إلى نظام الفصول الأربعة، ومنازل تنقلها في البروج الاثني عشر، في سيرها اليومي، الذي يبدأ بشروق الشمس على بعض الكرة الأرضية، وينتهي بغروبها على بعضها الآخر، في خطوط دقيقة، وبتكرار هذا الطلوع والغروب تتكون السنة الشمسية ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان].

والشمس مسخرة بأمر الله تعالى ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت]. فليس لها تصرُّف في نفسها، ولا تستعصي على قدرة الله تعالى، والشمس تدور حول نفسها في اتجاه واحد في الفضاء الكوني بسرعة يحسبها الفلكيون باثني عشر ميلًا في الثانية!

وحجم الشمس يبلغ نحو مليون ضعف حجم الأرض، وهذه الكتلة الهائلة تجري في الفضاء، ولا يَسْنِدُها شيء، فهي ﴿تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾.

والمعنى: وآية أخرى لهم -وهي الشمس- تسير بقدرة الله تعالى في فلك لا تتجاوزه ولا تتخطاه، فهي تسير إلى مكان تستقر فيه، وإلى وقت تنتهي إليه، وهو يوم القيامة،

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (١٩/٢٣).

حيث ينقطع جريانُها عند خراب العالم.

وجَرْيُ الشمس بانتظام وحساب دقيق، هو تقدير الإله العزيز في ملكه، العليم بخلقه وما يصلحهم وينفعهم في دينهم ودنياهم، وللشمس **مستقر مكاني ومستقر زماني**:

فالمستقر المكاني: هو غاية ارتفاعها في السماء صيفًا، وغاية انخفاضها في الشتاء، ويفسره الأحاديث الصحيحة، منها: حديث أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في المسجد عند غروب الشمس، فقال: **«يا أبا ذر، أتدري أين تغرب الشمس»**؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش»**، فذلك قوله سبحانه: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾.

وفي لفظ: أن أبا ذر ﷺ سأل النبي ﷺ عن معنى الآية، فقال: **«مستقرها تحت العرش»**[(١)].

وفي رواية الإمام أحمد أن أبا ذر ﷺ قال: كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد حين وجبت الشمس، فقال: **«يا أبا ذر، تدري أين تذهب الشمس؟»** قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«فإنها تذهب حتى تسجد بين يدي ربها ﷻ، فتستأذن في الرجوع فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت، فترجع إلى مطلعها، وذلك مستقرها»**، ثم قرأ الآية[(٢)].

وفي رواية سفيان الثوري عن أبي ذر ﷺ أيضًا أن النبيَّ ﷺ قال: **«فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن، فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يُقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، ويقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلعُ من مغربها»**، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ﴾[(٣)].

ومن طلوع الشمس من مغربها إلى يوم القيامة ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. حيث يقفل باب التوبة.

---

(١) «صحيح البخاري» بأرقام (٤٨٠٢، ٤٨٠٣، ٧٤٢٤، ٧٤٣٣) وانظر: «صحيح مسلم» برقم (١٥٩) و«سنن أبي داود» برقم (٣٢٢٧) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٤٣٠) والترمذي (٢١٨٦، ٣٢٢٧).

(٢) البخاري (٤٨٠٢) ومسلم (١٥٩) و«المسند» (٥/ ١٥٢) برقم (٢١٣٥٢، ٢١٥٤١)، وأخرجه الطيالسي (٤٦٠) والترمذي (٢١٨٦).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣١٩٩).

والعرش: قبة ذات قوائم تحمله الملائكة ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

وهو فوق العالم مما يلي رؤوس الناس، وجميع المخلوقات - بما فيها الشمس - تحت العرش مما يلي الأرض؛ لأنه سقفها، فالنتيجة أن الشمس تحت العرش أينما كانت.

وفي وقت الظهيرة تكون أقرب إلى العرش؛ لكونها في قبة الفلك وقتئذ، وهو نهاية ارتفاع الشمس.

وفي نصف الليل تصير أبعد ما يكون من العرش، وحينئذ تسجد وتستأذن في الطلوع، وهذا هو ظاهر الأحاديث.

أما المستقر الزماني: فإن منتهى سير الشمس، يكون يوم القيامة حيث يبطل سيرها وتسكن حركتها، فتُلَفُّ وتُكَوَّر، كما قال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير].

وهذا هو نهاية العالم، فهي سائرة ليلًا ونهارًا لا تقف ولا تفتُر إلى يوم القيامة[1].

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وجرْيُ الشمس: تنقلها السريع في منازلها إلى مكان استقرارها، وهو مكان الغروب تحت العرش، ولا قِبَل للناس بمعرفة ذلك، وسجود الشمس يعني: تسخير الله لها، وهو تمييز وإدراك يخلقه الله تعالى فيها.

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: القَمَرُ وَمَنَازِلُهُ

٣٩- ﴿وَالْقَمَرَ[2] قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝٣٩﴾

ثم ذكر سبحانه آية ثالثة من العالم العلوي، تدل على كمال قدرة الله تعالى وتفرده بالألوهية، وهي القمر، آية من آيات الله، قدَّر سيره في منازل، بحيث ينزل كل ليلة في منزل لا ينقص عنه ولا يزيد عليه، يبدأ هلالًا ضئيلًا، حتى يكتمل قمرًا مستديرًا، ثم يرجع ضئيلًا، مثل عذق النخلة المتقوس، في الرقة والانحناء والصفرة، لقِدَمِه ويُبسه.

(١) يُنظَر: (تفسير ابن كثير) وكلام سيد قطب «في ظلال القرآن» في تفسيرهما للآية.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وروح برفع الراء من (والقمرُ) مبتدأ وما بعده خبر، والباقون بالنصب بإضمار فعل على الاشتغال.

والعرجون: هو قنو النخلة، من منبته منها إلى نهاية الشماريخ التي تحمل ثمار النخلة، ويسمى عرجونًا؛ لأنه متقوس ومنعطف، وبه شُبِّه القمر في دقَّته وتقوُّسه واصفراره.

وللقمر ثمانية وعشرون منزلًا في ثمانٍ وعشرين ليلة، ينزل كل ليلة في واحد منها، لا يتخطاها ولا يتعداها، ويكون دقيقًا متقوِّسًا في آخر ليلة، ويغيب ليلة واحدة إن كان الشهر تسعة وعشرين يومًا، ويغيب ليلتين إن كان ثلاثين يومًا، والهلال يزداد نوره ليلة بعد ليلة حتى يكتمل نوره ليلة أربع عشرة، ثم يشرع في النقص حتى يصير كالعرجون القديم.

وقد جعل الله القمر لمعرفة الشهور، وجعل الشمس لمعرفة الليل والنهار.

والشمس تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفًا وشتاء، فيطول النهار ويقصر الليل، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

وقال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وقال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

الدَّلِيلُ الخَامِسُ: دِقَّةُ نِظَامِ الكَونِ

٤٠- ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

أي: ولكلٍّ من الشمس والقمر، والليل والنهار، وقت قدَّره الله تعالى لا يتعداه، فلا يمكن للشمس أن تلحق القمر، فتمحو نوره أو تُغير مجراه، ولا يمكن لليل أن يسبق النهار، فيدخل عليه قبل انقضاء وقته، وكلٌّ من الشمس والقمر والكواكب في فلك يَجْرُون[1].

ولو أن الشمس أدركت القمر لكان الوقت كله نهارًا، ولو أن القمر أدرك الشمس لكان الوقت كله ليلًا، وفي هذا بيان لقدرة الله تعالى في تسيير هذا الكون بنظام دقيق، فالشمس لها مدار، والقمر له مدار، وكل كوكب من الكواكب له مدار لا يتجاوزه، حيث

(١) من «التفسير الميسر» لنخبة من ا لعلماء، في تفسيرهم للآية ص ٤٤٢ .

لا يطغى على الآخر، فهما يسيران وفق نظام يستحيل معه اتصال أحدهما بالآخر؛ لشدة الأبعاد بين مداريهما، مع أن الشمس تبدو مقاربة للقمر في نظر الرائي.

ويظل الحال هكذا حتى يأذن الله بانتهاء العالم، فيجمع الله بين الشمس والقمر، كما قال تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ [القيامة].

وبهذا يختل نظام الكون، فتنتهي حياة البشر على سطح كوكب الأرض وتقوم القيامة.

قال الحسن: الشمس والقمر والنجوم في فلك بين السماء والأرض، غير ملصقة بشيء، ولو كانت ملصقة ما جرت، فهي تجري في اتجاه واحد في الفضاء الكوني.

وقال مجاهد: في قضاء الله وعلمه ألا يفوت الليل النهار حتى يدركه فيُذهب ظلمته، وفي قضاء الله وعلمه ألا يفوت النهار الليل حتى يدركه فيذهب بضوئه[1].

والفلك: هو مجرى الكواكب، سُمّي بذلك لاستدارته، كفلكة المغزل والخيمة، والعلامات النجومية تسمى بالنسبة للشمس: بروجًا، وبالنسبة للقمر: منازل.

وفي هذه الآيات تذكير بنعم الله تعالى على عباده، وتذكير بما في الليل والنهار، والشمس والقمر من فوائد ومنافع للناس، لولاها لتعطلت منافع جمة من حياة الناس، وكل هذا دليل وحدانية الله تعالى، وعلى قدرته سبحانه على البعث والنشور.

الدَّلِيلُ السَّادِسُ: نَجَاةُ أُصُولِ الْبَشَرِ مِنَ الْغَرَقِ فِي سَفِينَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

٤١، ٤٢- ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ[2] فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝٤١ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾

وبعد أن ذكر الله سبحانه آية إخراج النبات من الأرض، وآية النجوم والكواكب، وهي تَسْبح في الفَلك، ذكر سبحانه هنا آية السفن المحملة بالناس والأثقال وهي تطفو فوق سطح مياه البحار، دون أن تغرق، فهذه آيات ثلاث في الأرض والسماء والبحار.

ولا ينسى العبد أن أول سفينة صُنعت على وجه الأرض نجَّى الله فيها أصول ذرية آدم

---

(١) «الدر المنثور» (١٢/ ٣٥٢).

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي وخلف (ذريتهم) بالإفراد، والباقون بالجمع.

من الطوفان العظيم، وهم سام وحام ويافث أبناء نوح ﷺ، ومن كان معهم في السفينة ممن آمن بنوح ﷺ، وقد كانت السفينة مشحونة بأجناس المخلوقات الأخرى وكلّ ما ينفع الناس في حياتهم؛ كي تستمر الحياة بعد الطوفان، وهكذا حملنا ذرية البشر في أصلاب الناجين من الغرق في سفينة نوح، حين أمره الله أن يحمل فيها أهله ومن آمن معه، فكان هذا حَمْلًا لذرية البشر.

قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ [الشعراء].

ولما أراد الله بقاء المخاطبين بهذه الآيات في الأرض، أمر نوحًا ﷺ أن يصنع السفينة وأن يحمل فيها أصولهم الذين يتوالدون منهم، لنجاتهم من الغرق.

وإن من أعظم الأدلة والبراهين على أن الله تعالى هو المستحق للعبادة دون سواه، أنه تعالى أنعم علينا بحمل الناس صغارًا وكبارًا في السفن المملوءة بما ينفع الناس من تجارة ومعدات وسيارات وطائرات وأسلحة ونفط، وغير ذلك دون أن يصيبهم أذى، وهذا بتسخير الله تعالى للسفن، وتسخيره للماء، وتسخيره للهواء، وكلها من خلق الله تعالى وتدبيره، فالسفينة في البحر الخِضَمِّ المتلاطم بالأمواج تكون مع ثقلها وكبر حجمها كالريشة في مهب الريح، فإن لم تدركها رحمة الله تعالى فهي هالكة في لحظة من ليل أو نهار.

والفُلك آية من آيات الله تعالى، ونعمة من نعمه على عباده، وهي نعمة قائمة في كل مكان وزمان، وقد علم الله تعالى أن أن الفُلك سيكون أعظم بعد وقت التنزيل وعصر الصحابة، فتتطور صناعته إلى ماهو متعدد المنافع، كثير الطوابق، كبير الحجم، عظيم الفائدة، وكل هذا سيحدث في ذرية من حُملوا في سفينة نوح ﷺ، فأشار القرآن إلى ذلك.

وكما حملت سفينة نوح مَن كلٍّ زوجين اثنين من أصناف المخلوقات، تحمل سائر السفنْ والمركبات الناس والمتاع من مكان إلى مكان، كذلك خلق سبحانه للبشر وسائل كثيرة يركبون عليها، ويحملون عليها متاعهم وأثقالهم، مثل السفن: كالإبل والخيل والبغال والحمير، والسيارات والطائرات وغير ذلك، فكلها تُماثل السفن في تحقيق الغرض للناس كافة.

وجاء في الأثر أن الإبل سفينة البر[1].

(١) جاء ذلك عن ابن عباس كما في «تفسير الطبري» (١٩/ ٤٤٦).

ومعنى: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أي: مثل سفينة نوح من السفن الأخرى، ومن أجناس المراكب المختلفة في البر والبحر والجو من المراكب التي يركبونها وتبلّغهم أوطانهم، والأماكن الأخرى التي يقصدونها في أسفارهم.

١- كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢].

٢- وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة].

٣- وقال جلَّ شأنه: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [النحل].

٤- وقال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

قال تعالى مُمتنًّا على عباده:

٤٣، ٤٤- ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾

في هذه الآية امتنان من الله تعالى على خلقه، وتذكير لهم بنعم الله عليهم، فقد بيَّن سبحانه أنه لو شاء لأغرق الناس في البحر، فلا يجدون مُغيثًا يُنقِذهم من الغرق، ولا يعاونهم على الشدة، ولا يرفع عنهم المشقة.

والذين ركبوا البحار- سواء في قوارب ذات شراع، أم في عبَّارات صغيرة أو ضخمة تعبُر المحيطات -يدركون هَوْل البحر المخيف؛ إذ ليس هناك من يستغيثون به أو يستنجدون به إلا الله، ولا يوجد من ينقذهم فينتشلهم من لجج البحر، ويخلِّصهم من الغرق سوى رب العالمين وماحادث العبَّارة ذات الطوابق الثلاث، التي غرقت في البحر بين السعودية ومصر وغرق فيها آلاف البشر، عنا ببعيد[١].

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء].

والمنقذ الوحيد: هو إسعاف الله تعالى لمن أشرفوا على الغرق، بأن يسكِّن الريح، ويسكِّن أمواج البحر، فيمكِّنهم من النجاة، فرحمة الله وحدها ولطفه بخلْقه هي التي

(١) كان ذلك عام ١٤٢٨هـ.

تنجيهم من العواصف والمهالك.

والناس يُمتَّعون في الدنيا بعد نجاتهم من الغرق إلى وقت معلوم عند الله تعالى هو انقضاء آجالهم، فإذا نجا العبد من موتة استقبلته موتة أخرى لا فرار له منها، والكل سيلقى هذا المصير، وفي هذا عبرة لهم لعلهم يرجعون إلى ربهم ويستدركون ما فاتهم من التقصير في جنب الله سبحانه.

مَوْقِفُ المُعَارِضِينَ لِلدَّعْوَةِ

٤٥- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

أي: إن المكذبين بالوحي والرسالة، لم ينتفعوا بالآيات السابقة الدالة على وحدانية الله تعالى وعلى البعث والنشور، فإذا بلَّغهم الرسول ﷺ ما نزل عليه من القرآن، أو نصَحهم ناصح بأن يتعظوا بأحوال مَن سبقهم من الأمم المكذبة برسل الله، ويتذكروا ما حلَّ بهم من النقم، ويعملوا لما هو مدَّخرٌ لهم في الآخرة مما يمحو الله به الذنوب والمعاصي، رجاء أن يرحمهم الله تعالى، إذا بلغتهم هذه الدعوة أعرضوا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي: قال قائل للمكذبين والمعارضين للدعوة الإسلامية:

﴿ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: احذروا أمر الآخرة وأهوالها وأحوال البرزخ والقيامة.

﴿وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أي: واعتبروا من أحوال الدنيا، وما حلَّ بالمخالفين للرسل قبلكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: رجاء أن يرحمكم الله، فكانت النتيجة أنهم أعرضوا ولم يستجيبوا للدعوة.

وما بين الأيدي، يراد به: المستقبل، وما هو خلْف يراد به: الماضي، فما بين أيديكم: هو أمر البرزخ والآخرة، وما خلفكم: هو أحوال الأمم السابقة المكذبة لرسل الله.

وجواب ﴿إِذَا﴾ التي في أول الآية محذوف، تقديره: كانوا معرضين، وقد دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ في الآية التالية.

والمعنى: أنهم لا يجيبون ولا يستجيبون. قال تعالى:

٤٦- ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾

أي: إن الجحود والجهل والعناد، بلَغ مبلغه عند هؤلاء المعارضين للدعوة:

فما تأتيهم آية من آيات القرآن الدالة على وحدانية الله تعالى وقدرته، وعلى صدق رسول الله ﷺ في دعوته.

ولا تأتيهم علامة واضحة من ربهم تهديهم للحق، كالمعجزات الباهرات.

ولا تأتيهم آية من آيات الله في الكون، إلا أعرضوا عنها إعراضًا تامًّا.

فهم لا يؤمنون بكل آية، سواء أكانت معجزة حسية، أم آية قرآنية، أم آية كونية، من بديع صنع الله تعالى في العالم العلوي أو السفلي، كما قال تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف].

غيرُ المُسْلِمِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

٤٧- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾

سبب نزول هذه الآية أن المشركين لما أسلم مواليهم وحواشيهم وغيرهم من المستضعفين، منعوا عنهم النفقة والصلة، فأوصى الله المؤمنين أن يحثُّوا قرابتهم من المشركين بالإنفاق على رعاياهم.

والآية عامة تنطبق على مواقف أعداء الإسلام من أهله في جميع الأمصار والأزمان.

ومع أن مشركي العرب كانوا كرماء، إلا أنهم كانوا يَشحُّون بالبذل والعطاء على فقراء المسلمين، تشفِّيًا منهم، فإذا سمع المشركون من القرآن ما يأمرهم بالإنفاق على ضعفاء المسلمين، أو أن أحدًا منهم سألهم أن يعطوه من فُضُول أموالهم، أو مما كانوا يجعلونه لله من أموالهم التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] -منعوا ذلك عنهم.

وكان الفقراء قد اعتادوا من المشركين أن يعطوهم منها قبل إسلامهم، ثم منعوها عنهم بعد إسلامهم، فإذا قال الفقراء لهم: إن الله هو الرازق، وهو المعطي المانع، فإن المشركين يستهزئون بهم ويحتجون عليهم قائلين: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ فلو شاء

الله لأطعمكم كما أطعمنا، ورزقكم كما رزقنا، كما تعلَّلوا بمثل هذا في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ [الزخرف: ٢٠].

وما عَلِمَ هؤلاء أن الله تعالى أفْقَرَ بعضَ خلقه ابتلاء، وأغنى بعضهم ابتلاء؛ كي يظهر شكر الغني وصبر الفقير، ولم يمنع الله الدنيا عن الفقير بخلًا، ولم يأمر الغني ببذل بعض ماله لحاجة إليه، ولكنه ابتلاء الله لكل منهما.

ذكر ابنُ عطية: أن النبي ﷺ أمر المشركين بالإنفاق على المساكين في شدة أصابت الناس، فشحَّ الأغنياء بصدقاتهم على المساكين، ومنعوهم ما كانوا يعطونهم[1] محتجين بأنهم يمسكون أموالهم عمن أمسك الله عنه رزقه، كحال الأعرابي الذي كان يرعى إبله، فيجعل السِّمَان منها في المكان الخصب، والعجاف المهازيل في المكان الجدب، فلما سئل عن ذلك قال: إنه يكرم ما أكرم الله، ويهين ما أهان الله.

والأوْلَى من ذلك أنهم قالوا مقالتهم: استهزاءً وتعلُّلًا، فكأنهم يقولون للنبي ﷺ: إذا كان إلهك هو الرازق، فلماذا لم يرزقهم؟ فنحن لا نطعم من حرمه الله، وكيف تطلب المعونة منا وأنت في غنى عنها؟!

ومما ورد في **أسباب النزول**: أن أبا بكر ﷺ كان يُطعم مساكين المسلمين، فلقيه أبو جهل فقال له: يا أبا بكر، أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء؟ قال: نعم، قال: فما باله لم يطعمهم؟ قال أبو بكر: ابتلى الله قومًا بالفقر، وقومًا بالغنى، وأمر الفقراء بالصبر، وأمر الأغنياء بالإعطاء، فقال أبو جهل: والله يا أبا بكر، إن أنت إلا في ضلال، أتزعم أن الله قادر على إطعام هؤلاء، وهو لا يطعمهم، ثم تطعمهم أنت؟! فنزلت الآية.

لقد مكن الله للعباد، وأعطاهم من قوة الإرادة، وحرية الاختيار، ما يجعلهم قادرين على فعل الأوامر واجتناب النواهي، فإذا تركوا ما أُمروا به، ومنه الإنفاق مما رزقهم الله، كان ذلك اختيارًا منهم، يُسألون عنه ويُحاسبون عليه، وليس جبرًا لهم كما زعموا.

قيل: كان العاص بن وائل السهمي إذا سأله المسكين قال له: اذهب إلى ربك، فهو

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٤٥٦).

أولى مني بك، ثم يقول: قد منعه الله، فأطعمه أنا؟[١].

قال الألوسي في تفسيره: ومما تقدم يقتضى أنها نزلت في كفار مكة، أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله تعالى، وهو عام في الإطعام وغيره، فأجابوا بنفي الطعام الذي لم يفتخروا به، فيكون دلالة على نفي غيره بالطريق الأولى. اهـ.

ويختم المشركون كلامهم للفقراء بقولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ما أنتم -أيها المؤمنون- إلا في ذهاب واضح عن الحق؛ إذ تأمروننا أن نطعم من حَرَمَهُ الله من رزقه، ويحتمل أن يكون هذا من خطاب الله تعالى للكافرين.

جَوْلَةٌ مَعَ نِهَايَةِ الْعَالَمِ وَدَارِ الْبَقَاءِ

٤٨- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

ويأتي العنصر الثالث من السورة، وهو الكلام عن البعث والنشور، وقد كان الكفار -ولا يزالون- يقولون على وجه التكذيب والاستبعاد، مستعجلين قيام الساعة، ونزول العذاب الذي وعدهم به محمد ﷺ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بالبعث والحساب والجزاء ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تقولون من أن هناك بعثًا وحسابًا وجزاء. وفي الآية التالية ردّ عليهم:

نَفْخَةُ الصَّعْقِ وَالْفَزَعِ

٤٩، ٥٠- ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ[٢] ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً

---

(١) «حاشية الجمل على الجلالين» (٣/٥١٧) و«تفسير الخازن» (٤/٨).

(٢) في كلمة (يخصمون) ثماني قراءات:

١- قرأ ورش وابن كثير بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد من (يَخَصّمون).

٢- وقرأ ابن ذكوان وحفص والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بفتح الياء وكسر الخاء وتشديد الصاد.

٣- وقرأ حمزة بفتح الياء وإسكان الخاء وتخفيف الصاد.

٤- وقرأ أبو جعفر بفتح الياء وإسكان الخاء وتشديد الصاد.

٥- وقرأ أبو عمرو بفتح الياء وتشديد الصاد، وله في الخاء الفتح والاختلاس.

٦- وقرأ هشام بفتح الياء وتشديد الصاد، وله في الخاء الفتح والكسر.

٧- وقرأ شعبة بكسر الخاء وتشديد الصاد، وله في الياء الفتح والكسر.

٨- وقرأ قالون بفتح الياء وتشديد الصاد، وله في الخاء الإسكان والفتح والاختلاس.

﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٥٠﴾

أعلم اللهُ رسوله والمؤمنين بأن الوعد بقيام الساعة واقع لا محالة، وأنهم ما ينتظرون إلا صاعقة، أو نفخة واحدة تأخذهم فتهلكهم، فلا يفلِتُون منها، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ۝١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١٥﴾ [الحاقة].

والصُّور: قرن من نور ينفخ فيه الملَك للمرة الأولى فيموتون جميعًا، وينفخ مرة أخرى فيقومون من قبورهم أحياء للبعث والحساب.

فالساعة آتية لاريب فيها، وستحل بهم بغتة، بنفخة يصيح بها إسرافيل في الصور للمرة الأولى يُطَوِّلُها ويَمدُّها، وهي نفخة الفزع، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى إليها، وفي نهايتها يرفع إسرافيل الصوت بالنفخة، فتصعقُهم، وتأتي عليهم جميعًا وهم يتخاصمون ويتنازعون في أمور دنياهم، على عادتهم في الدنيا، فلا يشعرون إلا والصيحة قد أخذتهم فيموتون في أماكنهم، ولا يبقى أحد على وجه الأرض إلا لقى حتفه.

قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧﴾ [النمل].

وقال سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ [الزمر: ٦٨].

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ولتقومنَّ الساعة وقد نشَر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومنَّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لَقْحَتِه فلا يَطْعمه، ولتقومنَّ الساعة وهو يَلِيطُ حَوْضَه فلا يسقى فيه، ولتقومنَّ الساعة وقد رفع أحدكم أكْلته إلى فيه فلا يطعمها**»[1]. **واللَّقْحَةُ**: هي الناقة قريبة العهد من النتاج.

وفي صحيح مسلم، من رواية عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ثم يَنفُخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليْتًا، فأول من يسمعه رجل يلُوط حَوْضَ إبله فيُصَعق ويُصعق الناس**».

ومعنى يلوط حوضه، أي: يُصلحه ويُعدُّه، **واللِّيْتُ**: صفحة العُنق.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٥٠٦، ٧١٢١) و«صحيح مسلم» (٢٩٥٤).

وأخرج الطبري عن ابن عمر ﷺ قال: لَيُنفَخنَّ في الصور والناس في طُرُقهم وأسواقهم ومجالسهم، حتى إن الثوب ليكون بين الرجلين يتساومان، فما يرسله أحدهما من يده، حتى يُنفَخ في الصور فيصعق به، وهي التي قال الله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾[1].

ويصوِّر الله سبحانه حال الناس عندما يسمعون الصيحة المباغتة، وهم في أماكنهم، فلا يستطيع أحد أن يوصي أحدًا بشيء، ولا يستطيعون الرجوع إلى أهليهم؛ لأنهم يموتون حيث يكونون، عند حدوث النفخة الأولى في أسواقهم، أو مكاتبهم، أو دواوينهم، أو بيوتهم، والنفخة الأولى هي نفخة الفزع والصعق والموت، والنفخة الثانية هي نفخة البعث والنشور.

نَفْخَةُ البَعْثِ وَالنُّشُورِ

٥١- ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

وبعد أربعين سنة من نفخة الصعق، تكون نفخة البعث والنشور، حيث يقوم الناس لرب العالمين، فيخرُج الناس من قبورهم وهم يسرعون الخطى متوجهين إلى أرض المحشر بعد أن تُرَدَّ أرواحهم إلى أجسادهم، فيتوجهون إلى عرَصات القيامة، أي: ساحة العدل والقضاء، وهم يمشون مشيًا سريعًا؛ ليقضي فيهم ربهم بقضائه العادل، وهم لا يتمكنون من التأني والتأخر، بل يخرجون من الأجداث والقبور، وهم ينسلون، أي يسرعون للمثول بين يدي رب العالمين:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج].

وقال جلَّ شأنه: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٧، ٨].

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ما بين النفختين أربعون»** قالوا: يا أبا هريرة، أربعين يومًا؟ قال: أبيْت، قالوا: أربعين شهرًا؟ قال: أبيْت، قالوا:

(١) «تفسير الطبري» (١٩/ ٤٥١).

أربعين سنة؟ قال: أبيْت، ثم ينزل من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظمًا واحدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَب، ومنه يُرَكَّبُ الخلق يوم القيامة»[١].

وحين يقوم الناس لرب العالمين، يحزن المكذبون، وتظهر عليهم علامات الحسرة والندم، وتمنَّوْا أنهم لم يقوموا من قبورهم:

مُنْكِرُو الْبَعْثِ يَرَوْنَ بِأَعْيُنِهِمْ صِدْقَ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٥٢- ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ[٢] هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾

أي: وحين يخرج الناس من قبورهم يتعجب الذين كانوا قد أنكروا البعث في الدنيا، وقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [٤٨]. فيقول بعضهم لبعض وهم في أرض المحشر، كما يقول النادم المتحسِّر بينه وبين نفسه: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ لقد كانوا يعتقدون أنهم لا يُبعثون، وقد تحقق لهم البعث حين عاينوا ما كذبوه في الدنيا.

قال ابن عباس: إنما يقولون هذا لأن الله تعالى يرفع عنهم العذاب بين النفختين فيرقدون، فإذا بُعثوا بعد الثانية، وعاينوا أهوال يوم القيامة دَعَوْا على أنفسهم بالويل والثبور[٣].

وحين يقول الكفار: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ تجيبهم الملائكة ويجيبهم المؤمنون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: هذا هو الذي وعدكم الله به في الدنيا من البعث بعد الموت، والحساب والجزاء، وما أخبر به رسل الله الصادقون، فقد رأوْهُ بأعينهم، وتحقق ما أنكروه في الدنيا.

وذِكْرُ (الرحمن) في الآية، للإشارة إلى أنّ العباد سيلْقوْا من رحمة الله في الآخرة، مالم

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٨١٤، ٤٩٣٥) و«صحيح مسلم» (٢٩٥٥).

(٢) قرأ حفص بخلف عنه بالسكت على ألف (مرقدنا) وصلًا سكتة يسيرة بدون تنفس؛ لئلَّا يتوهم أن ما بعدها صفة لما قبلها، والباقون بعدم السكت. قلت: والأولى أن يقف القارئ على (مرقدنا) ويتنفس، ثم يبدأ (هذا ما وعد الرحمن) على أساس أنه وقف لازم، وعدم الوقف يوهم خلاف المعنى المقصود، وهذا مبني على الفصل بين كلام منكري البعث وكلام المؤمنين أو الملائكة، أما السكت فهو مبني على أساس استئناف الكلام من القائلين أنفسهم.

(٣) «تفسير الخازن» (٤/ ٩) وهو عند ابن أبي شيبة عن أبي صالح (١٣/ ٥٤٣).

يخطر لهم على بال، كما قال تعالى ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦].

وقال ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه].

وقال ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ].

وكلها آيات تتحدث عن يوم القيامة وتصف الله عز وجل بأنه رحمن فاللهم ارحمنا يوم تزل الأقدام ويقوم الناس لرب العالمين.

قال قتادة: أول هذه الآية للكفار، وآخرها للمسلمين(١).

وهذه الآية كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾﴾ فيكون الجواب ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الصافات].

ويصح أن يكون هذا من تتمة كلام منكري البعث، بمعنى: أنهم بعدما تحسروا على قيامهم من القبور، لم يلبثوا أن استحضرت نفوسهم ما كانوا يُنْذَرُونَ به في الدنيا، فاستأنفوا قائلين: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

وفيه إبطال لتعجبهم السابق واستهزائهم بما وعدهم به محمد ﷺ من البعث والنشور.

هذا: والأولى الوقف على ﴿مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ مع التنفس، للفصل بين كلام الكفار وكلام الملائكة، قال تعالى يصف سرعة خروج الناس إلى أرض المحشر:

٥٣- ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

بيَّن ﷻ في هذه الآية سرعة امتثال الناس لربهم وحضورهم للحساب في ساحة المحشر، وأن البعث من القبور، لم يكن إلا نتيجة نفخة واحدة، هي النفخة الأخيرة في (القرن) فإذا جميع الخلائق بين يديْ ربهم ماثلون للحساب والجزاء كقوله تعالى:

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

---

(١) عبد الرزاق (٢/ ١٤٤).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء].

إنها صيحة واحدة، تُخرجهم من القبور، فتُسرع بهم وتُحضرهم للحساب في لمح البصر، فلا تُكرَّر هذه الصيحة لاستدعائهم للحضور، ثم إنهم لا يحضرون جماعات وزرافات، بل يحضرون جملة واحدة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

وهذه الصيحة هي قول إسرافيل: أيتها العظام النخرة، والأوصال المتقطعة، والأجزاء المتفرقة، والشعور المتمزقة، إن الله يأمركنَّ أن تجتمعْن لفصل القضاء، ثم يُنفخ في الصور، فإذا هم مجموعون في موقف الحساب[١].

ثم بيَّن سبحانه أن الكفار سيلقوْن يوم القيامة جزاءً قاسيًا عادلًا، لا ظلم فيه:

٥٤- ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾

أي: وبعد أن أيقن المكذبون بالبعث، أن وعد الله حق، حين رأوا العذاب المعدّ لهم، وأيقنوا أن الرسل قد صدَقوا فيما وعدوهم به من البعث والنشور، فإن الملائكة تناديهم من قِبَلِ العلي الكبير يقولون لهم: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ أي: إنه في ذلك اليوم، يتم الحساب بالعدل، وسيكون الجزاء قاسيًا ولكن لا ظلم فيه، فلا يُنقَص شيء من حسناتكم، ولا يُزَاد شيء على سيئاتكم، وسوف يكون الجزاء وفاقًا لما قدموا لأنفسهم في الدنيا، ولا يتحمل الإنسان وزر غيره، وكلٌّ يُجزى بعمله ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء]. فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد شرا فلا يلومن إلا نفسه.

هذا هو حال المجرمين، فما هو حال المهتدين؟

---

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» (٣/ ٣٢٨).

نَعِيمُ أَهْلِ الْجَنَّةِ

٥٥، ٥٦- ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ[1] فَٰكِهُونَ[2] ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ[3] عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ[4]﴾

أي: أما أهل الجنة فقد عُجِّل بهم إلى الجنة، قبل أن يُبعث أهل النار إليها.

وزيادة في حسرة الكافرين يقال لهم في هذا الموقف، إدخالًا للندامة عليهم بسبب ما فرطوا في جنب الله من العمل للآخرة:

إن أهل الجنة في ذلك اليوم مشغولون عن غيرهم بأنواع النعيم الذي يتفكّهون به من كل ما لذَّ وطاب في المأكل والمشرب والملبس والمسكن والزوجات.. إنهم يتلذذون في الجنة بما يشرح صدورهم، ويُرضي نفوسهم، ويُقر أعينهم، ويجعلهم في أعلى درجات التنعُّم والغبطة، فهم مشغولون بما هم فيه من ألوان النعيم عن التفكير في أهل النار، وعن كل ما يخطر بالبال.

إنهم وأزواجهم متلذذون متفكهون بما يؤكل للتلذذ والتسلية، وليس للشبع أو سد الجوع، وهم متنعمون بالجلوس على الأسِرَّة المزيَّنة، تحت الظلال الوارفة، في راحةٍ ونعيم ومُتعة ولذة ومرح وسرور، والمراد بأزواجهم: اللاتي أُعدت لهم في الجنة من الحور العين، بالإضافة إلى مَنْ كُنَّ أزواجًا لهم في الدنيا إن كُنَّ غير ممنوعات من دخول الجنة.

١- كما قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣].

٢- وقال سبحانه: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الطور].

٣- وقال أيضًا: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ [الواقعة].

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بإسكان الغين من (شغل)، والباقون بضمها.

(٢) قرأ أبو جعفر بحذف الألف من (فاكهون) صفة مشبهة، والباقون بإثباتها اسم فاعل.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الظاء وحذف الألف من (ظلال) جمع ظلة، وقرأ الباقون بإثبات الألف وكسر الظاء جمع ظل.

(٤) قرأ أبو جعفر بحذف همزة (متكئون) مع ضم الكاف، ومثله حمزة عند الوقف، وله أيضًا التسهيل بين بين، وإبدالها ياء.

٤- وقال ﷻ: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الإنسان].

٥- وقال جلَّ شأنه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف].

والاتكاء: هو أن يكون الإنسان مضطجعًا على جنبه دون أن يضع كتفه ورأسه على الأرض، طلبًا للراحة وإطالة الجلوس، وهي هيئة المترفين ممن يأكلون متكئين، ومنهم سادة الفرس والروم ومن تشبَّه بهم من العرب، ولذا فإن النبي ﷺ قال في حديث أبي جحيفة: **«أما أنا فلا آكل متكئًا»**[1].

أما في غير حالة الأكل فقد اتكأ النبي ﷺ في مجلسه، كما في حديث ضمام بن ثعلبة وافد بني سعد بن بكر: أنه دخل المسجد فسأل عن النبي ﷺ، فقيل له: هو ذلك الأزهر المتكئ[2]. قال تعالى:

٥٧، ٥٨- ﴿لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾

ولأهل الجنة في الجنة، أنواع الفواكه والثمار اللذيذة، ولهم كل ما يطلبون من أنواع النعيم ﴿لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ﴾ وهي ما يؤكل للتلذذ والتنعم لا للشبع، وخُصَّت الفواكه بالذكر؛ لقلة الحصول عليها في الدنيا بالنسبة للطبقات الفقيرة؛ وهم أهل الجنة غالبًا، وهذا النعيم الموصوف في الآية، هو بالنسبة لأهل اليمين من عامة المسلمين الذين جاء وصف نعيمهم في قوله تعالى: ﴿وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة].

وقوله أيضًا: ﴿فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الرحمن].

أما بالنسبة للسابقين المقربين فقد قال تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ [الرحمن].

وقال أيضًا: ﴿وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الواقعة].

---

(١) البخاري (٥٣٩٩، ٥٣٩٨) وأبو داود (٣٧٦٩) وابن ماجه (٣٢٦٢) والبيهقي في الشعب (٥٩٦٩) والترمذي (١٨٣٠) وفي «الشمائل» (١٣٢، ١٤٠) و«المسند» (١٨٧٥٤)، وابن حبان (٥٢٤٠) و«سنن النسائي الكبرى» (٦٧٠٩)، والدارمي (٢٠٧١).

(٢) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٣/ ٤٣).

ولأهل الجنة في الجنة، تحقيق ما يطلبون مما يشتهون ويتمنوْن في أنفسهم من: تين وعنب ورمان ونحو ذلك دون حاجة إلى سؤال ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ أي: لهم ما يطلبون ويشتهون، دون سؤال، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وفي الحديث: عن سهل بن سعد ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»**[1].

وفوق ذلك كله، فإن لأهل الجنة في الجنة، أن يُسلِّم الله عليهم في الجنة، فيتلقوا السلام من رب العالمين، يَسْمَعونه بآذانهم، كما سمع موسى كلام ربه حين ناداه للرسالة، من جانب الطور الأيمن من الشجرة المباركة، أو بواسطة الملائكة.

وهذا كما قال تعالى بالنسبة لأهل الجنة: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]

أي: أكبر مما هم فيه من النعيم، وقال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]

أي: إن لهم فوق نعيم الجنة نعيمًا أعظم، هو لذة النظر إلى وجهه الكريم.

وبعد أن ذكر سبحانه ألوانًا من نعيم أهل الجنة، ختم ذلك بقوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝٥٨﴾ أي: إن لهم في الجنة نعيمًا آخر أكبر من نعيمهم الشاغل لهم عن كل شيء، وذلك حين يكلمهم رب العالمين الرحيم بهم، فيُلقي السلام عليهم، وحينئذ تحصُل لهم السلامة التامة، والأمن الأبدي، والرضوان الذي لا سخط بعده، والنعيم المقيم في دار الكرامة، وكامل الفرح والبهجة والسرور.

جاء في الأثر بإسناد فيه مقال، عن أنس بن مالك ﷺ: أن أهل الجنة وهم في نعيمهم، يسطع عليهم نور، فيرفعون رؤوسهم، فيقول الله تعالى: السلام عليكم يا أهل الجنة،

(١) مسلم (٢٨٢٥) وفي «المسند» (٢٢٨٢٦) والطبراني (٥٨٢٧، ٦٠٠٣) والحاكم (٢/ ٤١٣) وعبد بن حميد (٤٦٣).

فذلك قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾[1].

فنسأل الله تعالى ألّا يحرمنا النظر إلى وجهه الكريم، وأن يحلّ علينا الرضوان الذي لا سخط بعده.

عُزْلَةُ أَهْلِ الشَّقَاءِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ فِي دَارِ الْبَقَاءِ

٥٩- ﴿وَامْتَٰزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

ما سبق هو بعض ما يقال لأهل الجنة من التحية والتكريم، فماذا يقال للمجرمين؟ الجواب: يقال لهم عند الحشر، وعند الوقوف للحساب، وعندما يؤمر بأهل الجنة إلى الجنة: تميزوا أيها المجرمون عن المؤمنين، وانفصلوا بعيدًا عنهم ﴿وَامْتَٰزُوا﴾ أي: انفردوا واعتزلوا وابتعدوا عن المؤمنين الصالحين، وكُونوا على حدة بعيدًا عن أهل الجنة.

وفي هذا تقريع وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد قبل دخولهم النار.

وقيل: يكون لكل كافر في النار بيت، فلا يَرى غيره ولا يراه غيره.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾﴾ [الهمزة].

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨] أي: ميزنا وفصلْنا بينهم.

وقوله أيضًا: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الروم].

وقوله أيضًا: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] أي: يكونون فِرْقتين (صِدْعين) أهل الجنة وأهل النار، ويقال لأهل النار: ألم آمركم وأوصيكم على ألسنة رسلي ألّا تطيعوا الشيطان فيما يحسنه ويزينه لكم، وهذا أيضًا توبيخ لهم قبل دخولهم النار:

---

(١) من حديث أخرجه ابن ماجه برقم (١٨٤) وقال البوصيري في «الزوائد» (١/ ٨٦): هذا إسناد ضعيف لضعف الفضل بن عيسى بن أبان القرشي، وهو في «ضعيف سنن ابن ماجه» (٣٣) ورواه ابن أبي الدنيا (٩٨) والبزار (٢٢٥٣).

تَوْبِيخُ أَتْبَاعِ الشَّيْطَانِ

٦٠، ٦١- ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١﴾

هذا استفهام على وجه التوبيخ، لجميع أهل الضلال المتَّبعين خطوات الشيطان، ويأتي هذا النداء بلفظ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ أي: إن الذي أخرج أباكم من الجنة يا أبناء آدم، هو الشيطان، فكيف تطيعونه وتتبعون وساوسه، وهو لكم ولآبائكم وأجدادكم عدو مبين ظاهر العداوة، قد أخذ على عاتقه عهدًا ألا يألو جهدًا في إغوائكم وإضلالكم بشتى السبل وجميع الطرق؟! ولو لم يكن الشيطان عدوًا لكم لَمَا أوقعكم في المهالك، ولَمَا كانت إشاراته لكم مضادة لأمر الله تعالى ونهيه، فقد أوصيتكم على ألسنة الرسل ﴿أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ﴾ فهو لكم عدو لدود، وعداوته قديمة معروفة، وهو واضح العداوة وضوح الصراط المستقيم، وهذا أمر مقرر بين الناس، شهدتْ به الأجيال والعصور، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وقد حذرتكم منه غاية التحذير، وأنذرتكم عن طاعته، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه من جميع أنواع الكفر والشرك والبدع والمعاصي وأساليب النفاق.

وقد جاء التحذير من ذلك كثيرًا في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقوله أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

والشيطان يوقع أتباعه في الشرك والبدع والأهواء وسائر المعاصي، وقد أخذ الله العهد المؤكد على بني آدم وهم في عالم الذَّر، أن يوحدوا الله تعالى ولا يشركوا معه غيره بالسير في ركابه وطاعته فيما يزينه ويوسوس لهم به.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وكما نهاكم الله عن عبادة الشيطان بطاعته واتباع إشارته، أمركم بإخلاص العبادة لله

وحده ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِىۚ﴾ أي: لقد أمرتكم بعبادتي وحدي وطاعتي وامتثال أمري، كما أمرتكم بمعصية الشيطان، وبيَّنت لكم أن هذا هو الدين القويم الموصل إلى جنة الله تعالى ورضوانه.

وتركُ عبادة الشيطان الواردة في قوله تعالى: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ﴾ وعبادة الواحد القهار، الواردة في قوله سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِىۚ﴾ هو اتباع للصراط المستقيم الذي يوصلكم إلى عز الدنيا وسعادة الآخرة،﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ولكنكم خالفتم أمري واتبعتم الشيطان.

وعلوم الصراط المستقيم وأعماله ترجع إلى امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وفي ذلك حفظ العهد الذي أخذه الله على بني آدم، وفيه العمل بوصية الله عز وجل، بتوحيده وطاعته وامتثال أمره واجتناب نهيه، ومن لم يعمل بوصية الله، ولم يحفظ عهده، وقع في حبائل الشيطان؛ وهذا معنى قوله تعالى:

٦٢- ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا[1] كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾

ولقد أغوى الشيطان منكم يا بني آدم، خلقًا كثيرًا، ولم يزل يضل الناس إضلالًا ويغويهم إغواء لا يمكن إنكاره، فهل اتعظتم بما فعله مع كثير من أبناء جنسكم؟! أفلم يكن لكم عقل يَرْدَعُكم عن مخالفة أمر ربكم؟ ويزجركم عن اتخاذ الشيطان عدوًّا، فلو كان لكم عقل صحيح، لما فعلتم ذلك، فاتخذوه عدوًّا، وأخلصوا لله العبادة، فإنكم إذا وَالَيْتُمُ الشيطان وعاديْتُم الرحمن وكذّبتم بلقائه، وَرَدتم جهنم:

٦٣، ٦٤- ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

أي أن الله تعالى يحذّر المجرمين على لسان ملائكته بما أعدَّه لهم من العذاب في الآخرة، حيث يقال لهم وهم على شفير جهنم: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ الماثلة أمام أعينكم، فانظروا إليها عيانًا، ففيها الجزاء الأليم الذي ينتظركم، وهي ﴿ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها على ألسنة

---

(١) قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بكسر الجيم والباء وتشديد اللام من (جِبِلًّا)
وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي ورويس وخلف بضم الجيم والباء وتخفيف اللام.
وقرأ روح بضمهما وتشديد اللام.
وقرأ أبو عمرو وابن عامر بضم الجيم وسكون الباء وتخفيف اللام، وكلها لغات، ومعناها: الخلْق.

الرسل، فقابلتم ذلك باستهزاء وسخرية وتكذيب، إنها الآن ماثلة أمامكم ترونها بأعينكم.

كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات].

وقال سبحانه: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الشعراء]. فلا مجال للإنكار والسخرية.

ويوم القيامة يقول خزنة النار لأهل النار: ذوقوا حرها ولهيبها وسعيرها، بسبب كفركم في الدنيا وموتكم عليه، فهذه النار هي التي حذَّرتْكُم منها الرسل فكذَّبتمُوهم، فاليوم تُدفعون إليها دفعًا، ويحيط بكم حَرُّها، فيبلغ منكم كل مبلغ، وتلْقون فيها جزاءكم.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطور].

وهم في هذا اليوم يُخرس الله ألسنتهم فلا يتكلمون، ولا يستطيعون إنكار ما عملوه من الكفر والتكذيب.

شَهَادَةُ الجَوَارِحِ عَلَى الكَافِرِ يَومَ القِيَامَةِ

٦٥- ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾

وفي يوم الحساب يُنكِر المجرمون ما اطَّلعوا عليه في صحف أعمالهم، وفيها أنهم أشركوا مع الله غيره فيْ عبادته وهم في الدنيا، كما قال تعالى في بيان ذلك: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام].

قال تعالى معقِّبًا على قولهم: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام].

كما أن المعبودين ينكرون يوم القيامة عبادة المشركين لهم ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨].

ويُشهِدون الله تعالى على أنهم لم يكونوا يعرفون شيئًا عن عبادتهم لهم، وأنهم كانوا في غفلة تامة عنها، فيقولون: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يونس].

وعندما يُنكر المجرمون أنهم كانوا في الدنيا يشركون مع الله غيره في الطاعة والعبادة، ويُنكر العصاة ارتكاب الآثام والخطايا، يختم الله على أفواههم فلا تنطق، في هذا الموقف العصيب؛ وتتحول الأعضاء التي ارتكبت المعاصي في الدنيا إلى شهود عليهم في الآخرة أمام رب العالمين، لأن إقرار الجوارح غير الناطقة أبلغ في إقامة الحجة من إقرار الجوارح الناطقة، فتتكلم الأيدي وتنْطق بما باشرتْه من المعاصي، وتشهد الأرجل التي كانت حاضرة عند مباشرة الأيدي لارتكاب السيئات، فينطقها الله الذي أنطق كل شيء.

فالأيدي تقرُّ بالمعاصي لأنها الفاعل، فتنطق بما فعلت، والأرجل التي سعت إلى المعاصي تشهد بما فعلت وارتكبت من السيئات، ولأنها حضرت عند ارتكاب الأيدي للمعاصي، ذلكم قول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ وذلك عندما يُنكر اللسان أن صاحبه قد أشرك بالله، أو ارتكب ما حرم الله.

وقد أسند الله فعل الختم إلى نفسه، وأسند الكلام والشهادة إلى الأيدي والأرجل؛ لئلَّا يكون هناك احتمال أن ذلك كان جَبْرًا أو قهرًا؛ لأن إقرار المجبَر غير مقبول[1].

ونُطْق الجوارح بالشهادة باختيارها، يكون بعد أن أقدرها الله تعالى على الكلام؛ ليكون هذا أدل على صدور الذنب منهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور].

وشهادة اللسان تكون قبل إنكار الكافر للكفر والشرك، وبعد إنكاره يُختم على فمه فلا ينطق، وتتكلم الأعضاء.

وفي سورة (فصلت) زاد سبحانه في شهادة الجوارح: شهادة السمع والبصر والجلد على العبد بما اقْترف من المعاصي؛ ليُصبح مجموع الجوارح التي تنطق بالشهادة يوم القيامةسبعًا، هي: الفم واللسان، والأيدي، والأرجل، والسمع، والبصر، والجلد. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١].

ويضاف إلى شهادة الجوارح السبع، شهادة الأرض على العبد بما اقترف فوقها من

(١) يُنظَر: «حاشية الجمل على الجلالين» (٣/ ٥٢٢).

المعاصي، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة].

وفي النهاية يتمنى الكافر لو تُسوى به الأرض، ولا يكْذِب على ربه في ساحة العرض والحساب ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ۝٤٢﴾ [النساء].

وقد صرحت الأحاديث بشهادة الأعضاء على العبد يوم القيامة بما اكتسب من السيئات، ومن ذلك:

١- حديث أنس بن مالك ﷺ قال: كنا عند النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: **«أتدرون مم أضحك»**؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: **«من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: ربِّ، ألم تُجِرْني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز عليَّ إلا شاهدًا من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا، وبالكرام الكاتبين شهودًا، فيُختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقي، فتنطق بعمله، ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعْدًا لكُنَّ وسُحْقًا، فعنكُنَّ كنت أناضل»**[1] أي: أخاصم وأجادل.

٢- وفي حديث أبي هريرة ﷺ عن يوم القيامة أن النبي ﷺ قال: **«... فيُختم على فيه، ويقال لفَخذِه: انطقي، فتنطق فخِذُه ولحمه وعظامه بما كان يعمل...»**[2].

وفي هذا الحديث إضافة الفخِذ في شهادة الأعضاء، فيكون الشهود تسعة بإضافة الأرض والفخِذ إلى شهادة الجوارح السبع السابق ذكرها.

٣- وفي حديث عقبة بن عامر ﷺ: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«إن أول عَظْم من الإنسان يتكلم يوم يُختم على الأفواه: فَخِذُه من الرِّجْلِ الشمال»**[3].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٦٩) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٦٥٣) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٦٧) وابن أبي الدنيا (١٨).

(٢) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (٢٩٦٨) والبيهقي (٤٦٦) من حديث أبي هريرة، وأبي داود (٤٧٣٠).

(٣) رواه أحمد في «المسند» برقم (١٧٣٧٤) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٣٥١): إسناده جيد، وقال محققو «المسند»: حسن لغيره، دون قوله (من الرجل الشمال) وفي سنده رجل مبهم، هو الذي روى عنه عقبة، وأخرجه الطبراني (١٧/ ٣٣٣) (٩٢١) و«تفسير الطبري» (١٩/ ٤٧٣).

٤- وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: «... يُدْعى الكافر والمنافق يوم القيامة للحساب، فيَعرض عليه ربه عمله فيجْحده، ويقول: أيْ رب، وعزتك لقد كتبَ عليَّ هذا الملَك ما لم أعمل، فيقول الملَك: أما عملتَ كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا، وعزتك، أيْ رب ما عملته، فإذا فعل ذلك خُتم على فيه وتكلمت أعضاؤه»، ثم تلا: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾[1].

وبهذا ينتهي المشهد: ألسنة معقودة، وأيدٍ تتكلم، وأرجل تشهد، وجوارح تنطق!!

ومجمل الشهود التسعة التي تشهد على العبد العاصي يوم القيامة هي: الأيدي والأرجل، والألسنة، والسمع، والبصر، والجلد، والأرض، والفخِذ، والفم.

قُدْرَةُ اللّٰهِ تَعَالَى عَلَى إلجَاءِ الكُفَّارِ عَلَى الإِقرَارِ بِوَحْدَانِيَّةِ اللّٰهِ تَعَالَى

٦٦- ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ۝٦٦﴾

وكما أن الله تعالى ألجأ العصاة والمشركين إلى الإقرار في الآخرة بما كانوا عليه في الدنيا من شرك وباطل بعد أن أنكروه، بيَّن سبحانه أنه لوشاء لألجأهم قهرًا إلى الإقرار بوحدانيته تعالى وتصديق رسوله واتباع دينه، ولكنه جلَّ شأنه لم يشأ ذلك؛ لأن نظام الدنيا يقوم على الأسباب والمسببات، وجميع الخلق في قبضة الله تعالى وتحت تصرفه.

ذلكم ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي: أعميناهم وأذهبنا أبصارهم، فيفقدون الرؤية والإبصار، كما أعمينا قلوبهم وختمنا على أفواههم ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي: أنهم ابتدَرُوا الطريق الموصل إلى الجنة وازدحموا عليه، وتسابقوا إليه، ليجُوزُوه على عادتهم في الذهاب والإياب، رجاء أن يَصِلُوا إليه كما كانوا في الدنيا يصلون إلى بيوتهم أو إلى أعمالهم، فهم قد بادروا وتسابقوا إلى الطريق الموصل إلى الجنة، ولكنهم لن يصلوا إليه، وهذا معنى: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ أي: فكيف تتحقق لهم الرؤية وقد عميت أبصارهم؟ ولكنا لم نفعل ذلك، ولم نعجِّل لهم العقوبة في الدنيا، رحمة بهم وفضلًا منًّا، فكان من الواجب أن يقابلوا هذه النعمة بالشكر لا بالكفر.

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٧).

أما في الآخرة فقد برزت النار للغاوين، وليس لأحد نجاة منها إلا بالعبور على الصراط، ولا يعبُر الصراط إلا أهل الإيمان الذين يمشون عليه في نورهم، أما أهل الكفر فليس لهم عهد عند الله بالنجاة من النار، فإن شاء طمس على أعينهم وأبقى حركتهم، فلم يهتدوا إلى الصراط، وإن شاء أذهب حركتهم، فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر، فهم لا يعبرون الصراط، ولا تكون لهم نجاة، وهذا معنى قوله تعالى:

٦٧- ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ[١] فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

هذا هو التهديد الآخر للكفرة المجرمين، المنكرين للبعث، المكذبين للرسل، بأنه سبحانه لوشاء لغيَّر خَلْقهم، فجعلهم في صورة مختلفة كالقردة والخنازير، أو الحجارة التي لا رُوح فيها، ونحو ذلك، بأن يغيِّر صورتهم الإنسانية إلى صورة أخرى قبيحة، ومن شأن هذا المسخ أن يُقعدهم في أماكنهم، ويجعلَهم تماثيل في مجالسهم، فلا يستطيعون أن يمضوا إلى الأمام، ولا يرجعوا إلى الخلف في مجالسهم وأماكنهم، وهذا معنى ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: لا يستطيعون ذهابًا ولا عودة، فهم في قبضة الله تعالى في جميع أحوالهم، والله تعالى قادر على أن يفعل بهم ما يشاء، ولكنه سبحانه رحمهم ولم يفعل بهم ذلك.

سُوءُ الخَاتِمَةِ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ

٦٨- ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ[٢] فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ[٣] ﴿٦٨﴾﴾

أي: وإذا كان الله سبحانه لم يطمس على أعين الكفار المجرمين في الدنيا، ولم يُحوِّل

(١) قرأ شعبة بجمع (مكانتهم)، والباقون بالإفراد.

(٢) قرأ عاصم وحمزة بضم النون الأولى وفتح الثانية وكسر الكاف مشددة من (نُنَكِّسه) مضارع نكَّس بالتشديد للتكثير، إشارة إلى تعدد المراحل من الشباب إلى الكهولة إلى الشيخوخة إلى الهرم، والباقون بفتح النون الأولى وإسكان الثانية وضم الكاف مشددة، مضارع نكَس بالتخفيف، أي: ومن نطل عمره نرده من قوة الشباب إلى ضعف الهرم.

(٣) قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب وابن عامر بخلف عنه بتاء الخطاب في (يعقلون)، والباقون بالياء وهو الوجه الثاني لابن عامر.

ذواتهم الإنسانية إلى أجساد لا تتحرك، بل أمهلهم وأملى لهم، وأبقاهم دون طمس ولا مسخ، فإن الله تعالى أنذرهم عاقبة غير محمودة، هي أيسر في عُرف الناس من مسخهم وطمس أعينهم، وهي أن يعيشوا في حياتهم أذلة مغلوبين، يعتريهم الضعْف بعد القوة، والإذلال بعد العزة، وسوء الحالة بعد حُسْنها وزهْرتها، والنقص بعد الزيادة، والشيخوخة بعد الشباب، ونقص العقل بعد اكتماله.

ذلكم قوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ أي: نطل عمره من بني آدم حتى يهرم ﴿نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أي: نُعِده إلى الحالة التي ابتدأ منها، وهي ضعف العقل وضعف الجسد، وضعف السمع والبصر، وذلك أن الله تعالى خلق الإنسان في ضَعْفٍ من جَسد، وخُلُوٍّ من عقل وعلم حال صغره، ثم جعله في ازدياد وتنقُّل من حال إلى حال، حتى إذا بلغ أشده واستكمل قوته وعقله، وعلم ما له وما عليه، واستكمل الغاية، وبلغ النهاية، رجع في انتقاص حتى يُردَّ إلى ضَعْفِه الأول، فيشبه حال الطفل في ضعف جسده وقلة عقله وخلو علمه، ويصل إلى أرذل العمر.

وأصل **التنكيس**: جعل أعلى الشيء أسفله ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أن الإنسان ناقص من كل وجه، فيعتبروا ويتداركوا قوة أبدانهم وعقولهم فيستعملونها في طاعة ربهم، ويعلموا أن القادر على تصريف أحوال الناس قادر على البعث بعد الموت.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الروم: ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥].

ومن قدر على تنكيس الإنسان إذا هرم، قادر على مسخه وطمس معالمه.

والمقصود من هذه الآيات الثلاث: تهديد الكفار على استمرارهم في الكفر، وبيان أنهم في قبضة الله تعالى، وأنه سبحانه قادر على أن يطمس أبصار الكفار، ويمسخ صورهم، ويردَّهم إلى سوء المصير.

الرَّدُّ عَلَى مَنْ وَصَفَ القُرْآنَ بِالشِّعْرِ

٦٩- ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾

ولما أقسم الله تعالى في أول السورة، على أن محمدًا رسول من عند الله، وبيَّن سبحانه أن الجاحدين المنكرين للتوحيد وللرسالة، أعرضوا عن امتثال ما جاء به القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وكذبوا بالبعث والحساب والجزاء، فقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

بعد ذلك تصدَّت السورة لإبطال هذا التكذيب، فذكرت الكثير من البراهين العقلية والنقلية على البعث والحساب والجزاء.

ثم تصدت السورة للرد على طعن المشركين في القرآن بأنه شعر، وفي الرسول ﷺ بأنه شاعر، فقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ الضمير في ﴿عَلَّمْنَٰهُ﴾ يعود على غير مذكور، وهو مفهوم من سياق السورة، أي: وما علمنا محمدًا الشعر، ولا يصح ولا يليق به أن يكون شاعرًا، وإنما علمناه القرآن المشتمل على ما يُسعِد الناس في دنياهم وأخراهم، فمن المحال أن يكون شاعرًا، لأن الله تعالى أخبر أنه لم يعلِّمه الشعر، والشعراء يتبعهم الغاوون، ورسول الله مهتد رشيد جاء بما يُصلح أحوال البشر في الدنيا والآخرة.

وعليه فالقرآن ليس بشعر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحاقة].

وهو ردٌّ على المشركين في قولهم عن الرسول ﷺ: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء:٥]. فالقرآن موحى به من عند الله، وهو ذكر وقرآن مبين وليس بشعر.

والشِّعر: كلام موزون مقفًّى، له معانٍ مناسبة لأغراضه، وأكثرها هزل وفكاهة، والقرآن ليس كذلك، وما فيه من تساوي الفواصل في نهاية الآيات، لا يجعلها موازية للقوافي كما يَعْلمه أهل الشعر، والمشركون قد أشاعوا ذلك تمويهًا على الناس، وصرفًا لهم عن القرآن:

١- فقد روى البخاري عن ابن عباس، ومسلم عن عبد الله بن الصامت قالا: قال أبو ذر لأخيه: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي عِلْم الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واستمع من قوله ثم ائتني، فانطلَق أخو أبي ذر حتى قدم على النبي ﷺ

وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: إنه يأمر بمكارم الأخلاق، وكلامًا ما هو بالشعر، قال أبو ذر: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر[1].

٢- وكان أنيس بن جُنادة، وهو أحد الشعراء، يقول: لقد سمعتُ قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعتُ قوله على أقَراء الشعر، فما يلْتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون، ثم ذكر قصة إسلام أبي ذر الغفاري.

٣- وكذلك خبر الوليد بن المغيرة، الذي رواه البيهقي وابن إسحاق، وفيه: أن الوليد جمع قريشًا عند حضور الموسم ليتشاوروا في أمر النبي ﷺ، فقال لهم: إن وفود العرب تَرِدُ عليكم، فأَجمِعُوا فيه رأيًا، ولا يُكذِّب بعضكم بعضًا.

فقالوا: نقول كاهن، فقال: والله ما هو بكاهن، ما هو بزمزمة الكاهن ولا بسجْعه.

قالوا: نقول مجنون، فقال: والله ما هو بمجنون، ولا بخنْقه ولا وسوسته.

فذكر تردُّدهم في وصفه إلى أن قالوا: نقول شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفتُ الشعر كله، رَجَزَه وهزَجَه وقريضَه ومبسوطه ومقبوضه، وما هو بشاعر.

وليس معنى هذا أن الله تعالى لم يجعل في طبع النبي ﷺ القدرة على نظم الشعر، وليس معناه أيضًا أن القرآن اشتمل على ما يوافق الشعر في بعض فقراته، وهذا لا يستلزم وجود الشعر في القرآن.

فالقرآن الكريم نزل بأفصح لغات البشر، ولو كان يوجد على وجه البسيطة كلام أفصح من كلام العرب، وأمة أفضل وأسلم طبعًا من الأمة العربية، لاختارها الله تعالى لظهور أفضل الشرائع، وأشرف الرسل، وأعز الكتب السماوية.

وقد جاء القرآن معجزًا لبلغاء العرب، فكانت تراكيبه ومعانيه بالغة حَدًّا يقْصُر عنه كل بليغ، وفوْقَ ما تتسع له اللغة العربية من وجوه الفصاحة والبلاغة.

فإذا أدى مقتضى الحال في مقام من المقامات إلى أن يجيء النظْمُ القرآني جاريًا على ميزان الشعر العربي، فإن هذا لا يُعدُّ شعرًا، وإنما هو تفنن في ضروب البلاغة، وافق

---

(١) في صحيح البخاري برقم (٣٨٦١، ٣٥٢٢) واللفظ للأخير، وصحيح مسلم (٢٤٧٤).

ميزان البحور الشعرية، وقد جاء في القرآن ما يتفق مع بحور الشعر جميعًا:

١- كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] من بحر الطويل.

٢- وقوله سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾ [الماعون] من بحر الخفيف.

٣- وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦] من بحر الكامل.

٤- وقوله تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤﴾ [الإنسان] من بحر الرجز.

٥- وقوله سبحانه: ﴿وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] من بحر الوافر. . . ، وهكذا.

فهذا وأمثاله، لا يُضْفي على القرآن صفة الشعر، وهو بالضرورة ينفي أن يكون الرسول شاعرًا.

وبهذا يكون القرآن الكريم قد أزال من نفوس المشركين أن يكون الرسول شاعرًا، وأن يكون القرآن شعرًا، فلا ينبغي أن يوصف أيٌّ منهما بالشعر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي: وما يصح أن يكون الرسول شاعرًا، ولا يتأتى له ذلك.

فالشعر له أوزان، وقوافٍ، وأغراض: كالغَزل، والنسيب، والهجاء، والمديح، والمُلَح، والغرام، والشجاعة، والحميَّة، والكذب، والإغراق في المبالغة والخيال والأوهام، كما قال تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤﴾ [الشعراء].

ومن ذلك قولهم: أعذب الشعر أكذبه.

ولذا فقد سئلت عائشة رضي الله عنها: هل كان رسول الله ﷺ يُتسامَعُ عنده الشعر؟ قالت: كان أبغضَ الحديث إليه[1].

وإنشاد الشعر غير تعلمه، ومن الشعراء من يُقبل على الخلاعة والمُجون والسُّكْر والميْسِر والنساء.

---

(١) السائل هو نوفل بن أبي عقرب، أخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٥٣٤) والطيالسي (١٤٩٠) والبيهقي في السنن (١٠/ ٢٤٥) وهو في «المسند» (٤١/ ٤٧٥) (٢٥٠٢٠) قال محققوه: إسناده صحيح. ورجاله ثقات رجال الصحيح، قال الهيثمي في المجمع (٨/ ١١٩) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

وقد كان النبي ﷺ في المرتبة العليا من البيان والفصاحة في النثر، وإنما منعه الله من الشعر ترفعًا له عما في قول الشعراء من الخيال والمبالغة.

والقرآن ليس فيه شيء من ذلك، فكله حقائق وبراهين، كما أن الرسول ﷺ لا ينطبق عليه شيء من هذه الأوصاف.

ومن الشعر ما هو من الحكمة والفضيلة والصدق، ومن ذلك استحسان النبي ﷺ لشعر حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن زهير.

وقد أنصف الإمام الشافعي حين قال: الشعر كلام، والكلام منه حسن ومنه قبيح.

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما: «**إن من البيان لسحرًا، وإن من الشعر حُكْمًا**»[1].

وفي الحديث أيضًا: «**أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لُبَيْد:**

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل»[2]

وعن قتادة قال: بلغني أن عائشة رضي الله عنها سُئلت: هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ فقالت: لا، إلا بيت طَرَفَة:

ستُبدي لك الأيام ما كنت جاهلًا ويأتيك بالأخبار من لم تُزوِّدِ

وكان يجعل أوله آخره وآخره أوله، فيقول: «**ويأتيك من لم تُزوِّد بالأخبار**»، فقال له أبو بكر: ليس هكذا، فقال ﷺ: «**إني والله ما أنا بشاعر، ولا ينبغي لي**»[3].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٥٠١٠، ٥٠١٢)، والترمذي (٢٠٢٨) وقال: حسن صحيح، وأحمد (٢/ ٥٩) برقم (٢٧٦١، ٣٠٢٥) والبخاري في الأدب المفرد (٨٧٢) والطيالسي (٢٦٧٠) وأبو يعلى (٢٣٣٢) وهو صحيح لغيره لأن سماك بن حرب حسن الحديث وباقي رجاله ثقات (محققو المسند) وأخرجه ابن حبان (٥٧٩٥).

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري (٣٦٢٨، ٥٧٩٥) ومسلم (٢٢٥٦).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ١٤٥) والطبري (١٩/ ٤٨٠) وغيرهما، وبنحوه في «المسند» (٤٠/ ٢٤) (٢٤٠٢٣) من طريق آخر، وقال محققو «المسند»: حسن لغيره. لأن عامر بن شراجيل لم يسمع من عائشة، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه ابن أبي شيبة (٨/ ٥٢٤) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٠٥٧) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٨٣٤) وغيرهم.

وعن الحسن أن النبي ﷺ كان يتمثل بهذا البيت: «**كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيًا**». فقال أبو بكر: يا رسول الله، إنما قال الشاعر: كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيًا. فأعاده الأول، فقال أبو بكر: أشهد أنك رسول الله، ما علمك الشعر، وما ينبغي لك[1].

وفي حفر الخندق كان الصحابة يَرْتجزُون أبيات عبد الله بن رواحة ﷺ:

لاَ هُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدَّقْنا ولا صلَّينا
فأنزلنْ سكينة علينا وثبِّت الأقدام إن لاقينا
إنَّ الأُلى قد بَغوْا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا[2]

وفي يوم حنين قال ﷺ وهو راكب البغلة يدْفعُها نحو العدوِّ: «**أنا النبيُّ لا كذبْ أنا ابن عبد المطلبْ**»[3]

وعن جُندب بن عبد الله البجلي ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ في غار فنكِبَتْ إصبعه، فقال:

هل أنت إلا إصبع دَميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ[4]

وفي حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**اللهمَّ إنَّ العيش عيش الآخرة، فارحم الأنصار والمهاجرة**»[5]

وكل هذا لا ينافي أن النبي ﷺ ما عُلِّم الشعر، وما جاء من قبيل الشعر فقد وقع اتفاقًا، دون قصد لوزن الشعر.

---

(١) «معجم الشعراء» للمرْزُبانيِّ كما في «الإصابة» (٣/ ٢٥٠) و«طبقات ابن سعد» (١/ ٣٨٢) من طريق عارم عن حماد بن زيد عن علي بن زيد بن الحسن مرسلًا، ينظر: ضعيف الجامع الصغير، برقم (٤٥٣٥).

(٢) من حديث البراء بن عازب في البخاري برقم «٧٢٣٦» ومسلم برقم (١٨٠٣) وأحمد (٤/ ٢٨٥) وابن حبان (٤٥٣٥).

(٣) البخاري برقم (٢٨٦٤) ومسلم برقم (١٧٧٦).

(٤) البخاري (٢٨٠٢) ومسلم (١٧٩٦) والترمذي (٣٣٤٥) وأحمد (٤/ ٣١٢،) برقم ١٨٧٩٧، ١٨٨٠٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه ابن حبان (٦٥٧٧).

(٥) البخاري (٢٨٣٤) ومسلم (١٨٠٥) والمسند (١٢٧٥٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين والنسائي في الكبرى (٨٣١٣) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٠١).

على أن الشعر فيه ما هو مشروع، وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام، كحسَّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة رضي الله عن الجميع.

ومنه ما كان فيه حِكَم ومواعظ وآداب، كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلين.

ولما نفى سبحانه أن يكون القرآن من جنس الشعر قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما هذا القرآن الذي جاء به الرسول ﷺ إلا ذِكْرٌ يتذكر به أولو الألباب، وقرآن مبيِّن لأحكامه وحِكَمِه ومواعظه، لا يلتبس به الشعر بحال من الأحوال.

والذكر: وصف للكتاب المنزل على محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر].

ولا ينتفع بهذا القرآن إلا صاحب النفس التقية، والأُذن الواعية، والفطرة السليمة، أما من أصرَّ على كفره وضلاله فقد وجبت عليه كلمة العذاب، واستحق أن يُلقى في جهنم وبئس القرار، وهذا معنى قوله تعالى:

٧٠- ﴿لِّيُنذِرَ(١) مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

أي: وينتفع بهذا القرآن من كان حيَّ القلب، مستنير البصيرة، وهم المؤمنون الذين ينتفعون بما فيه، فالقرآن لقلوبهم بمنزلة المطر للأرض الخصبة.

وفي هذا تعريض بمن لا ينتفعون بالقرآن، ولا يستعملون عقولهم، وأعرضوا عن دلائله، بعد أن قامت عليهم الحجة، ولم يبق لهم عذر ولا شبهة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾[١١]

وقال أيضًا: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [النمل].

ثم قال سبحانه متوعِّدًا من لم ينتفع بإنذار الرسول ﷺ بأنه قد حقت عليه كلمة العذاب: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ والقول هو كلمة العذاب، وقد وجبت عليهم هذه الكلمة، لأن حجة الله البالغة قامت عليهم بالقرآن، وكلمة العذاب هي قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بتاء الخطاب في (لينذر) والمخاطَب هو الرسول ﷺ، وقرأ الباقون بياء الغيبة، والضمير للقرآن أو للنبي ﷺ.

﴿ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وقد شبههم الله تعالى بالأموات؛ لأنهم لا يعقلون ما يُخاطَبون به، فجعلهم الله في مقابلة الأحياء إشعارًا بأنهم أموات في الحقيقة لكفرهم، وسقوط حجتهم، وعدم تأملهم.

الأَنْعَامُ مَصْدَرٌ لِلثَّرْوَةِ وَمَنْفَعَةٌ لِلإِنْسَانِ، فَهَلْ شَكَرَ اللَّه عَلَيْهَا؟

٧١- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾

وبعد أن أبطل الله سبحانه شُبَه المشركين وظُنونهم، وفنَّد أقوالهم المزعومة في الوحي والرسالة، ذكَّرهم ببعض نعم الله عليهم التي قابلوها بالكفر والجحود، وبدل أن يشكروا المنعم سبحانه فيعبدوه ويوحدوه، أعرضوا عن ذلك، واتخذوا لعبادتهم آلهة لا تضر ولا تنفع.

وفي هذه الآية يمتن الله سبحانه عليهم، بأنْ خلَق لهم الأنعام يملكونها وينتفعون بها، في: الأكل منها، وحمل الأمتعة عليها، واتخاذ الأوبار والأشعار والأصواف، أثاثًا ومتاعًا، واتخاذها زينة وجمالًا واستثمارًا، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ أي: أعَمِيَ هؤلاء المشركون عن مظاهر قدرتنا المنظورة بين أيديهم، ومنها: أنَّا خلقنا لهم من الإبل والبقر والغنم ما يأكلون لَحْمه وما يركبون عليه، فيدعوهم هذا إلى التأمل والتفكير فيما أبدعتْهُ أيدينا بغير واسطة، ولا شريك ولا مُعين، فيستدلوا بذلك على وحدانيتنا وكمال قوتنا وقدرتنا؟!

وذَكَر سبحانه الأيدي دون غيرها؛ لأنها هي المتعارف عليها في الصنع وإيجاد الأشياء، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥].

وهو سبحانه ليس كمثله شيء، ولا يشبه المخلوقات في شيء.

وخُصَّت الأنعام بالذكر، لأنها وقت تَنَزُّل القرآن، كانت أنفَس أموال العرب، وأنفع شيء في حياتهم.

ولو ذَكَر لهم القرآن ما لم يعرفوه من: العقارات والأسهم والبنوك، والطائرات والقنابل

النووية وغير ذلك، لكذَّبوه وأنكروه، وهذه الأنعام خلقها الله لأجلهم وملَّكهم إياها، فهم يتصرفون فيها تصرف المالك في ملكه، وهذا معنى ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾. قال تعالى:

٧٢، ٧٣- ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾

أي: ولم يخلق الله تعالى هذه الأنعام، وحْشيَّة تنفر من بني آدم، ولا يقدرون على ضبطها، بل خلقها منقادة لهم لا تمتنع منهم ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ أي: خلقناها مُهانة للإنسان، وجعلنا في جبلَّتها أنها لا تقاوِم الإنسان، ولا تدفعه إذا أراد منها شيئًا، بل إذا زجرها انزجرت، وإذا أمرها ذلَّت وأطاعت، سواء طُلب منها: السير، أو الحمل عليها، أو حلْبها، أو أخْذ نسلها، أو جزُّ أصوافها وأوبارها وأشعارها، أو ذبحها، أو استعمالها في الحرث، أو السَّعْي أو الدَّرس، أو القتال أو السباق، ونحو ذلك.

بل إن الطفل الصغير لو جاء إلى بعير ضخم لأناخه، ولو أراد أن يقيمه لأقامه، فإذا ساقه ذلَّ وانقاد له، بل لو أمسك الطفل بزمام بعير، وكان خلْفه مئة بعير أو أكثر، لساروُا بسيْر هذا الصغير، فمن كان يقدر على هذه الأنعام، لولا تسخير الله تعالى لها وتذليلها للإنسان؟

ولهذا فإن العبد إذا ركب شيئًا من هذه الدواب، فإنه يشكر الله تعالى على تذليلها له ويسبح بحمده قائلًا: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف].

ثم ذكر تعالى بعض خصائص هذه الأنعام، فقال: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ أي: منها ما يركبون عليها في الأسفار، ويحملون عليها الأثقال والمتاع، وهي الإبل ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ لحومها وشحومها، ومنتجاتها كالأجبان ومشتقات الألبان، وهي البقر والغنم والإبل، وفضلًا عن ذلك فإن لهم فيها منافع أخرى غير الركوب والأكل، كالانتفاع بأصوافها وأوبارها وأشعارها في صنع الأثاث واللباس، ونقل المتاع، وحرث الأرض وغير ذلك، كما ينتفعون بشرب ألبانها.

ثم تعجب سبحانه من عدم شكرهم على هذه النعم في قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله الذي أنعم عليهم بهذه النعم فيخلصوا له العبادة؟ ولكنهم أشركوا مع الله غيره في عبادته. قال تعالى:

٧٤، ٧٥- ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾

هذا بيان لبطلان آلهة المشركين التي اتخذوها مع الله سبحانه، ورجَوْا نفعها وشفاعتها لهم.

أي: وبعد أن ذكر سبحانه شيئًا من دلائل وحدانيته تعالى وجلائل نعمه، بيَّن جلَّ شأنه أن المشركين لم يقابلوا هذه النعم بالشكر، بل قابلوها بالجحود والبطر، فقد استبدلوا عبادة الله سبحانه باتخاذ آلهة لا تضر ولا تنفع، متوهمين أنها تنصرهم عند الله تعالى وتدفع عنهم الضر، وهي حجارة صماء بكْماء، لا تسمع دعاء ولا تستجيب لنداء، اتخذوها آلهة طمعًا في نصْرها لهم وإنقاذهم من عذاب الله، كما حكى الله تعالى قولهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَٰؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان].

وهذه الآلهة لا تستطيع نصْر عابديها، ولا أنفسهم ينصرون، قال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الأعراف]، وإذا كانوا لا يستطيعون نصر أنفسهم فكيف ينصرونهم؟

والمشركون وآلهتهم جميعًا مُحْضَرون في العذاب يوم القيامة، يتبرأ بعضهم من بعض ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ معهم في النار أو عند الحساب.

وضمير ﴿وَهُمْ﴾ يعود على المشركين، وضمير ﴿لَهُمْ﴾ يعود على الآلهة المزعومة، وقيل: بالعكس.

والمعنى على القول الأول: إن هؤلاء المشركين قد صاروا في الدنيا بمنزلة الجند الذين أعدُّوا أنفسهم لخدمة هذه الآلهة، والدفاع عنها والحضور عندها، لخدمتها ورعايتها وحفظها، فهم يمنعون التعدِّي عليها، أو إصابتها بسوء، وهم جنود وحماة لها.

فالكفار جند للأصنام، يغضبون لها ويدافعون عنها، وهي لا تسوق إليهم خيرًا ولا

تدفع عنهم سوءًا.

وعلى القول الآخر يكون المعنى: إن هذه الأصنام تحضر إلى النار مع المشركين ليُلْقوا فيها معًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنبياء].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

والآلهة تحضر عند النار؛ كي تشهد تعذيب المشركين إن كانت تعقل، وهي تعجز عن نفع أو نصر مَن عبدوهم في الدنيا. قال تعالى مسلّيًا للنبي ﷺ:

٧٦- ﴿فَلَا يَحْزُنكَ[1] قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾

حذَّر الله رسوله في هذه الآية أن يحزن لأقوال المشركين وأفعالهم وتكذيبهم وإيذائهم له ﷺ وللمؤمنين، واتهامهم له بأنه ساحر أو شاعر، واستهزائهم به ﷺ، فإنهم قد قالوا في شأن الله تعالى ما هو أشد وأفظع فيما يتعلق بالشرك وإنكار البعث ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ وإعراضهم عن قبول الحق.

ثم طمأن الله رسوله بأنَّ أَمْر المشركين المكذبين مكشوف له سبحانه، فهو محيط بهم يعلم ما يدبرونه وما يمكرونه ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي: نعلم ما يخفون وما يُظهِرون، ولا يغيب عنا شيء من أحوالهم، وسوف نحاسبهم ونجازيهم على ذلك.

والوقوف على ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ وقف لازم؛ أو قل: وقف بيان، لأن الوصل يوهم أن ما بعدها من قول المشركين، وهو من كلام الله تعالى.

والمراد بالقول: ما دل عليه السياق، من قدح المكذبين في رسول الله ﷺ وفيما جاء به من عند الله تبارك وتعالى.

الْبَرَاهِينُ السَّاطِعَةُ عَلَى الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ

٧٧- ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾

(١) قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي من (فلا يُحزِنك) مضارع أحزن، والباقون بفتح الياء وضم الزاي مضارع حزن.

وبما أن قضية البعث والنشور، من عناصر السور المكية، وقد مرَّ بنا في هذه السورة المكية، فقرات تكلّمت عن هذه القضية، ثم عاد الحديث عنها بعد الحديث عن الإشراك بالله تعالى ووجوب توحيده جلَّ وعلا، وفي هذه الآية وما بعدها ذِكْر شبهة منكري البعث وهي: كيف يحيى الله الأجساد والعظام بعدما بليت وتفتت؟ وقد نسى الإنسان وهو يورد هذه الشبهة، أصله الذي خُلق منه، وهو الماء المهين.

وقد ورد في **أسباب نزول هذه الآيات** روايات، منها:

١- جاء أُبَيُّ بن خلف إلى رسول الله ﷺ وفي يده عَظْم رميم، وهو يُفتّه ويُذرّيه في الهواء ويقول: يا محمد، أتزعمُ أن الله يبعث هذا؟ فقال: **«نعم، يُميتك الله ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار»**[(١)].

وعن عكرمة أن النبي ﷺ قال له: **«خلقُها قبل أن تكون أعجبُ من إحيائها وقد كانت»**[(٢)].

ولأُبيّ بن خلف مواقف ومقالات مع النبي ﷺ مستمرة حتى قتلَه النبي ﷺ بحرْبة يوم أحد.

٢- وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ: أن العاص بن وائل أخذ عظمًا من البطحاء ففتَّهُ بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أيُحيي الله هذا بعدما أرم؟ فقال ﷺ: **«نعم، يميتك ثم يحييك ثم يدخلك جهنم»**[(٣)].

٣- ورُوي مثل ذلك بالنسبة لأبي جهل وأمية بن خلف، فهؤلاء أربعة هم: أُبيُّ بن خلف، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، وأبو جهل، ولعل إنكار البعث قد حدث من كل واحد فيهم.

وأيًا ما كان الأمر، فالآية عامة في كل من أنكر البعث، سواء أكان ذلك وقت نزول الآية في مكة، أم بعد نزولها في المدينة ممن انطبق عليه هذا المعنى.

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٠) عن مجاهد وقتادة وعكرمة وعُروة والسُّدِّي، وعليه المفسرون و«أسباب النزول» للواحدي: (٢٠٩) و«الدر المنثور»: (١٢/ ٣٧٩) وابن مردويه عن ابن عباس ﷺ.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (١٢/ ٣٨٠).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٠) و«الدر المنثور» (٥/ ٢٦٩) وغيرهما بإسناد مرسل و«المستدرك» (٢/ ٤٢٩) وصححه الذهبي والبيهقي عن أبي مالك.

والمعنى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المنكر للبعث والشاك فيه، أمرًا يفيده اليقين التام بوقوعه، وهو ابتداء خلقه ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ فيستدِل بهذا البدء على إعادة الخلق بعد موتهم.

والنطفة: هي المني، والماء المهين الخارج من مخرج النجاسة، وهي نطفة قذرة ضعيفة، تحتوي على ألوف الخلايا، وخَلِية واحدة منها هي التي يكون منها الجنين، ثم تمرُّ بأطوار في الرحم حتى يكتمل النموُّ شيئًا فشيئًا، ومع أن الإنسان خُلق من هذا الماء المَهين الذي تشمئز منه النفس، إلا أنه قد يكون شديد الشكيمة، قوي العناد، يكابر ويجادل ويخاصم في شأن البعث وغيره ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ينكر قدرة الله تعالى على البعث والنشور، فهل بلغ الجهل بالإنسان إلى هذا الحدِّ؟ وكان من الواجب عليه أن يستدل بالبدء على الإعادة، وعلى النشأة الأولى بالآخرة، فيعلم أن الذي أنشأه من العدم قادر على أن يعيده بعد ما تمزق وتفرق، من باب أولى.

ولسبب نزول هذه الآية، نظير من كلام الوليد بن المغيرة عند قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ [مريم].

وقوله سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [القيامة].

ويشبه الآية التي معنا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات].

وقوله أيضًا: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢].

وعن بُسْر بن جَحَّاش أن رسول الله ﷺ بصق يومًا في كفه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال: «**قال الله تعالى: ابن آدم، أنَّى تُعجزني وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سوَّيتك وعدلتُك مشيتَ بين بُردَيْك وللأرض منك وئيد، فجمعْت ومنعْت، حتى إذا بلَغَت التراقي قلت: أتصَدَّق، وأنَّى أوان الصدقة؟**»[1]. قال تعالى:

---

(١) «المسند» (٤/ ٣١٠) برقم (١٧٨٤٢، ١٧٨٤٣) بإسناد حسن، والحاكم (٤/ ٣٢٣) والطبراني في الكبير (١١٩٤) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٧٠٧) وقال البوصيري في «الزوائد» (٢/ ٣٦٤): إسناد حديثه صحيح ورجاله ثقات.

٧٨- ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ[1] رَمِيمٌ ۝٧٨﴾

أي: ولم يكتف المجادل بالباطل أن أنكر البعث والنشور، بل ضرب لنا مثلًا لا ينبغي ضرْبه، فقاس قدرة الله تعالى: على قدرة الإنسان، مع عجْزه وضعْفه، وقد نهانا الله تعالى أن نجعل له شركاء، وأن نشبِّهه بخلقه، حيث قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤].

والمعنى: إن هذا الكافر شبَّه قدرة الله تعالى بقدرة الخلق، فاستبعد على الله تعالى إعادة خلق الإنسان بعد موته وفنائه، ولم يفطَن إلى أصل خَلْقه، فنسي أنَّا خلقناه من نطفة ميتة وركَّبنا فيه الحياة، وهذا أعجب من إعادة الحياة إلى عظامه، كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾ [ق].

ولكنه استبعد هذه الإعادة ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أي: وهي بالية أشد البلى، متفتتة متلاشية، بعد أن كانت رطْبة غضَّة في بدَن حيٍّ حساس؟ فالمثل المضروب من الكافر مفسّر بقوله ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ووجه الشبه: هو أن هذا أمر في غاية البُعد على ما يعهده من قدرة البشر، وقد صدر هذا القول من الكافر وهو في غفلة عن خلقه الأول، وقد أجاب الله تعالى عن هذا الاستبعاد بثلاثة أجوبة شافية كافية:

الْبُرْهَانُ الْأَوَّلُ عَلَى إِمْكَانِيَّةِ الْبَعْثِ: الْخَلْقُ الْأَوَّلُ

٧٩- ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد لمن ينكر البعث موبِّخًا ومبكِّتًا: ﴿يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: يعيد العظام ويحييها الذي أوجدها أول مرة من العدم، فأحرى بالقادر على البدء أن يقدر على الإعادة، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢﴾ [الواقعة].

وهو سبحانه عالم علمًا تامًّا بكل صغيرة وكبيرة، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يعلم الغيب والشهادة، ويعلم ما تنقص الأرض من

---

(١) سكَّن الهاء قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وضمها الباقون في(وهو) وكسروها في (وهي).

أجسادهم وهم موتى وما يبقى منها، ومن ذلك أنه يعلم تفرُّق هذه العظام وتمزقها، وأين ذهبت: في باطن الأرض، أو في جوف البحار، أو تقطعت أوصالها أو حُرقت وذُرِّيت، ويعلم وسائل الخلْق التي لا نعلمها، كالخلق من نطفة، أو من ذرَّة، أو من أجزاء النبات، وكلها أعجب من تكوين الإنسان من عظامه، وعظام الحي فيها حياة، ولها إحساس كلحمه ودمه، وبمجرد النظر في هذا الدليل يعلم الإنسان علم اليقين أن البعث حق لا شبهة فيه، وأن الساعة آتية لا ريب فيها.

قال عقبة بن عمرو لحذيفة: ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته يقول: **«إن رجلًا حضره الموت، فلما أيس من الحياة أوصى أهله: إذا أنا مِتُّ، فاجمعوا لي حطبًا كثيرًا جزلًا، ثم أوقدوا فيه نارًا، حتى إذا أكلتْ لَحْمي وخلَصتْ إلى عظمي فامتُحِشْتُ، فخذوها فذرُّوها في اليمِّ، ففعلوا، فجمعه الله إليه -أي: أحيا هذا الميت- فقال له: لِمَ فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك؛ فغفر الله له»**، قال عقبة: أنا سمعته يقول ذلك، وكان نبَّاشًا[1].

وقد جاء هذا الحديث في الصحيحين من حديث عبد الملك بن عُمير بألفاظ كثيرة، منها: **«أنه أمر بنيه أن يحرقوه ثم يسحقوه، ثم يُذرُّوا نصفه في البر، ونصفه في البحر، في يوم رائح، كثير الهواء، ففعلوا ذلك، فأمر الله البحر فجمع ما فيه، وأمر البرَّ فجمع ما فيه، ثم قال له: كنْ، فإذا هو رجل قائم، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: مخافتك وأنت تعلم، فما تلافاه أن غفر له»**[2].

الْبُرْهَانُ الثَّانِي عَلَى إِمْكَانِيَّةِ الْبَعْثِ: خَلْقُ الضِّدِّ مِنْ ضِدِّهِ

٨٠- ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

ثم ذكر سبحانه في هذه الآية دليلًا آخر على إمكانية البعث، وهو إخراج النار من

(١) مسلم (٢٩٣٤) و«المسند» (٥/ ٣٩٥) برقم (٢٣٣٥٣) بسند صحيح على شرط الشيخين، وقد أخرجه البخاري (٣٤٥١) والبزار في مسنده (٢٨٢١) والبيهقي في «الشعب»(٧١٦٠) والطبراني (٦٤٦) وابن حبان (٦٧٩٩) وأبو داود (٤٣١٥) وغيرهم.

(٢) يُنظَر: «صحيح البخاري» برقم (٦٤٨٠، ٦٤٨١) عن حذيفة وعن أبي سعيد وبرقم (٧٥٠٦) عن أبي هريرة و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٥٦) عن أبي هريرة.

الشجر الأخضر، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم﴾ أي: أخرج لكم بقدرته ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ الرطب النديِّ الذي هو في غاية الرطوبة ﴿نَارًا﴾ محرقة ملتهبة مع تضادهما وشدة تخالفهما ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ﴾ أي: من هذا الشجر الأخضر ﴿تُوقِدُونَ﴾ النار وتشعلونها، فهو جلَّ شأنه القادر على إخراج الضدِّ من الضدِّ، وفي ذلك دليل على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته، ومن ذلك: إخراجهم من قبورهم أحياء.

والمراد **بالشجر**: شجر المرْخ، وشجر العَفَار، وهما ينبتان في أرض الحجاز، حيث يؤخذ غُصن من هذا، وغُصن من هذا، قدْر السواك، وهما أخضران يَقطُر منهما الماء، فإذا ضُرب أحدهما بالآخر تولَّدتْ منهما النار، كالزناد، سواء بسواء.

وشجرُ العَفَار: الذكَر، وهو الزَّند، **وشجر المرْخ**: الأنثى، وهو الزندة، ويوضع تحتهما عند ضرْب أحدهما بالآخر شيء قابل للالتهاب، كالورق أو التبن أو العفْس أو الدِّيزل ونحو ذلك، حتى تشتعل النار عند القدح.

ووَصْفُ الشجر بالأخضر لا يراد به اللون المعروف، وإنما المراد لازمُه وهو الرطوبة؛ لأن الشجر يظل أخضر اللون ما دام حيًّا، فإذا جفَّ وزالت منه الحياة تحوَّل اللون إلى غُبْرة، فالخضرة كناية عن رطوبة النبات وحياته.

ووجه الغرابة في إخراج النار من الشجر الرطْب هو: إيجاد الضد، وهو نهاية الحرارة والنار المشتعلة من ضد ذلك، وهو الرطوبة.

جاء في المثل: لكل شجر نار، واستمجد المرْخ والعَفار، أي: لكل شجر حظ من النار، وأكثر الأشجار حظًّا من النار: المرْخ والعَفار، وهو مثل يُضرب لتفضيل بعض الشيء على بعض.

والمعنى: قل -يا محمد- لهؤلاء المنكرين للبعث: يحيي الأجساد البالية :الله الذي أنشأها أول مرة، وهو الذي جعل لكم بقدرته من الشجر الأخضر نارًا، فإذا أنتم من هذا الشجر توقدون النار وتنتفعون به في كثير من أحوالكم، فمَنْ قَدِرَ على إخراج النار من الشجر الأخضر، مع ما فيه من مضادة الماء للنار، كان أقدر على إعادة الأجساد بعد فنائها.

البُرْهَانُ الثَّالثُ عَلَى إمْكَانِيَةِ الْبَعْث: خَلْقُ الْعَالَمِ الْعُلوِيِّ وَالسُّفلِيِّ وَهُمَا أَعْظَمُ

٨١- ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ[1] عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾

ذكر سبحانه في هذه الآية ما هو أعظم من خلق الإنسان في مقام الاستدلال على البعث والنشور، فقال تعالى منكرًا عليهم ومتعجبًا من جهلهم: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مع كبر حجمهما وعظم شأنهما، وخلَق ما فيهما وما بينهما ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ﴾؟ فيعيدهما كما بدأهما، فإن خلق السموات والأرض أكبر وأعظم من خلق الناس، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر].

وهما يشتملان على مجموع العالم العلوي والعالم السفلي، ومن قَدِرَ على ما هو أكبر يكون قادرًا من باب أولى على ما هو أدنى.

ومنه: إعادة أجساد بني آدم بعد فنائها، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف].

ويأتي الجواب من الله تعالى على هذا الاستفهام: ﴿بَلَىٰ﴾ إنه قادر على ذلك ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ لجميع المخلوقات،المتقدم منها والمتأخر، الصغير والكبير، المبدع في الإيجاد والتكوين، وكلها أثر من آثار قدرة الله تعالى ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل ما خلق ويخلق، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يستعصي عليه شيء.

ومن ذلك أن الأموات التي دُفنت وفنيت أجسادها، تُبثُّ فيها الحياة مباشرة.

والأموات التي تفرقت أوصالها وتقطعت يُعاد تصويرها، ثم تُبث فيها الحياة.

والأجساد التي لم تبق منها باقية تُعاد أجسادها على صورها؛ لتُودَع فيها الأرواح.

وهذا يشبه حال الإنسان عندما تتغير حالته بعد الولادة، فينمو شيئًا فشيئًا، وتتغير ملامحه، وفي كل يوم يُجدَّد من اللحم والدم، بقدْر ما تبخَّر واضمحلَّ، ولا يُعدُّ هذا

(١) قرأ رويس (يَقْدِرُ) فعل مضارع من قدر، والباقون (بقادر) اسم فاعل.

تبديلًا لذات الإنسان، وفي القرآن ما يدل على هذه الأحوال بالنسبة للمعاد.

وكل هذا مع بقاء الأرواح بعد فناء الأجسام، في جميع أحوال البعث عن عدم أو عن تفريق.

النَّتِيجَةُ الحَتْمِيَّةُ لِلبَرَاهِينِ السَّابِقَةِ: أَنَّ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ

٨٢- ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ[1] ﴿٨٢﴾﴾

ونتيجة لما تقدم، فإن الله تعالى لا يعجزه شيء، ولا يصعُب عليه أمر، مهما قلَّ أو كثر، أو صغُر أو كبُر، فخلق السموات والأرض كخلْق النملة والبعوضة والحشَرة، الكل عند الله سواء، ليس هناك صعْب ولا سهل، ولا قريب ولا بعيد؛ لأن أمره تعالى كائن لا محالة، فمتى تعلقتْ إرادته سبحانه بإيجاد شيء وُجد مباشرة بدون تعب ولا مشقة، ولا جهد ولا كُلفة ولا عناء، بل يقول له: ﴿كُن﴾ موجودًا ﴿فَيَكُونُ﴾ أي: يوجد في الحال، ومن ذلك: الإحياء والإماتة، والبعث والنشور.

قال قتادة: ليس في كلام العرب أهونُ ولا أخفُّ من ذلك، فأمر الله كذلك[2].

والله تعالى إذا أراد أن يخلق شيئًا فإنه لا يباشر صُنعه بيده، ولا بآلة، ولا يخلط مادة بمادة، كما يفعل الصنَّاع والمهندسون، ومن هنا نشأ عند المشركين توهمُّ استحالة الإعادة بعد الممات، من غير وجود مواد للخلق، فضلًا عن إعداد ما يراد خلقه وتصويره[3].

عن أبي ذر ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله يقول: يا عبادي، كلكم مذنب إلا من عافيت، فاستغفروني أغفر لكم، وكلكم فقير إلا من أغنيت، فسلوني أرزقكم، إني جواد ماجد واجد، أفعل ما أشاء، عطائي كلام، وعذابي كلام، إذا أردت شيئًا فإنما أقول له: كن؛ فيكون**»[4].

---

(١) قرأ ابن عامر والكسائي بالنصب في (فيكون) بعد فاء السببية؛ لأنها مسبوقة بلفظ: (كن) فشُبِّه بالأمر الحقيقي، والباقون بالرفع على الاستئناف.

(٢) «تفسير الطبري» (١٩/ ٤٨٩) وسنده حسن عن الحسن.

(٣) يُنظَر تفسير الآية للشيخ الطاهر بن عاشور (٢٣/ ٧٩).

(٤) مقاطع من حديث أحمد في «المسند» (٥/ ١٧٧) برقم (٢١٥٤٠) حديث صحيح، وفيه شهر بن حوشب، ضعيف، وأخرجه ابن ماجه (٤٢٥٧) والبزار في مسنده (٤٠٥٢).

سُبْحَانَ الْمُبْدِئِ الْمُعِيدِ صَاحِبِ الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ وَمَنْ إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ

٨٣- ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ(١) مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢) ﴿٨٣﴾﴾

وما دام الله سبحانه قادرًا على البعث والنشور، والخلق والإيجاد، والإعطاء والمنع، فإن أنسب ما تُختم به السورة تنزيه الله تعالى عن كل نقص، ووصْفه بكل جلال وكمال، فقد تنزه تعالى وتقدس عن العجز والشرك، فهو المالك لكل شيء ملكًا تامًّا، المتصرف في شؤون خلقه بلا منازع ولا ممانع، وقد ظهرت دلائل قدرته، وتمام نعمته لكل ذي عقل وبصيرة، فوجب توحيده وطاعته، فإليه وحده مرجع الخلائق للحساب والجزاء ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فهو مالك الملك، خالق العالم العلوي والسفلي، يتصرف فيهم بقدرته وحكمته، وهو القادر على بعثهم بعد موتهم، فيحاسبهم ويجازيهم بأعمالهم وأقوالهم.

١- قال حذيفة بن اليمان ﷺ: قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقرأ السبع الطوال في سبع ركعات، وكان إذا رفع رأسه من الركوع قال: **«سمع الله لمن حمده»**، ثم قال: **«الحمد لله ذي الملكوت والجبروت، والكبرياء والعظمة»**، وكان ركوعه مثل قيامه، وسجوده مثل ركوعه، فانصرف وقد كادت تنكسر رجْلاي(٣).

٢- وعنه أيضًا: أنه رأى رسول الله ﷺ من الليل، وكان يقول: **«الله أكبر -ثلاثًا- ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة»** ثم استفتح فقرأ البقرة، ثم ركع، فكان ركوعه نحوًا من قيامه، وكان يقول في ركوعه: **«سبحان ربي العظيم»**، ثم رفع رأسه من الركوع، فكان قيامه نحوًا من ركوعه، يقول: **«لربِّيَ الحمد»** ثم سجد، فكان سجوده نحوًا من قيامه، وكان يقول في سجوده: **«سبحان ربي الأعلى»**.

ثم رفع رأسه من السجود، وكان يقعُد فيما بين السجدتين نحوًا من سجوده، وكان يقول: **«رب اغفر لي، رب اغفر لي»** فصلى أربع ركعات، فقرأ فيهن: البقرة، وآل

(١) قرأ رويس باختلاس كسرة الهاء من (بيده)، والباقون بإشباعها.

(٢) قرأ يعقوب بالبناء للفاعل في (ترجعون)، والباقون بالبناء للمفعول.

(٣) «المسند» (٥/ ٣٨٨) برقم (٢٣٣٠٠)، قال محققوه: إسناده ضعيف لجهالة ابن عم حذيفة.

عمران، والنساء، والمائدة، أو الأنعام[١].

٣- وعن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ قال: قمت مع رسول الله ﷺ ليلة فقرأ سورة البقرة، لا يمرُّ بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمرُّ بآية عذاب إلا وقف فتعوَّذ، قال: ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: **«سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»**، ثم سجد بقَدْر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام، فقرأ بآل عمران، ثم قرأ سورة سورة[٢].

٤- وعن حذيفة ﷺ قال: صليت مع رسول الله ﷺ فكان يقول في ركوعه: سبحان ربي العظيم، وفي سجوده: سبحان ربي الأعلى، قال: وما مر بآية رحمة إلا وقف عندها فسأل، ولا آية عذاب إلا تَعوَّذ منها.[٣]

تم تفسير (**سورة يس**) ولله الحمد والمنة.



(١) هذا لفظ أبي داود ورقمه (٨٧٤) وانظر: «الشمائل» للترمذي برقم (٢٦٠) و«سنن النسائي» (٢/ ١٩٩) وقد صححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٧٧٧).

(٢) «سنن أبي داود» برقم (٨٧٣) وصححه الألباني برقم (٧٧٦) في صحيح أبي داود، وانظر: مسند أحمد (٢٣٩٨٠) بإسناد قوي. وشمائل الترمذي برقم (٢٩٦) و«سنن النسائي» (٢/ ١٩١).

(٣) مسلم (٧٧٢) ومسند أحمد بإسناد صحيح على شرط مسلم، قال محققوه: رجاله ثقات رجال الشيخين، غير المستورد فمن رجال مسلم، وأخرجه الطيالسي (٤١٥) وابن ماجه (٢٦٠٤) وابن خزيمة (٥٤٣) وأبو داود (٨٧١) والترمذي (٢١٢) والنسائي (٢/ ١٧٦).

تفسيرُ سُورَةِ الصَّافَّاتِ (٣٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الصافات هي السورة السابعة والثلاثون في ترتيب المصحف، والسادسة والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الأنعام، وقبل سورة لقمان، في السنة الرابعة أو الخامسة من البعثة، وهي سورة مكية بالإجماع.

وعدد آياتها مئة وإحدى وثمانون آية في العدد البصري والمدني الأول، ومئة واثنتان وثمانون آية عند غيرهما، وهي ثمان مئة وستون كلمة، وثلاثة آلاف وثمان مئة وستة وعشرون حرفًا.

وسُمِّيت سورة الصافات لانفرادها بذكر صفوف الملائكة في أولها، وسماها بعضهم سورة الذبيح؛ لانفرادها بذكر قصة الذبيح إسماعيل عليه السلام فيها.

وشأن سورة الصافات كشأن سائر السور المكية، تتعرض لقضايا الإسلام **الثلاث** وهي: التوحيد، والبعث، والرسالة؛ لغرْس عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر، والوحي المنزل على رسوله ﷺ في نفوس الناس، وتقوية ذلك في نفوس المؤمنين:

١- أما **إثبات التوحيد**، فقد أقسم الله تعالى عليه بثلاثة أيْمان عظيمة في أولها، وكان جواب القسم ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾.

وساقت الآيات على ذلك كثيرًا من دلائل القدرة الإلهية، والمخلوقات التي لا قبَل لغير الله تعالى بخلْقها وصُنعها، من العوالم السماوية بأجزائها وسكَّانها.

وفي ثنايا السورة -أوائلها ووسطها ونهايتها- بيانٌ لكثير من معتقدات غير الموحدين بالله تعالى، ونسبة الشريك والولد له جلَّ شأنه، فذكرتْ: أنهم كانوا إذا قيل لهم: لا إله إلا الله يستكبرون، وأنهم قالوا: الملائكة بنات الله، فزعموا أن الله تعالى تزوج من الجِنَّةِ، فولدتْ له الملائكة، وقد كذَّبتْهم الملائكة على رؤوس الأشهاد ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٥٨﴾.

ونسبوا لله تعالى البنات، ونسبوا لهم البنين على حدِّ زعمهم: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۝١٤٩﴾.

وأثبتوا الولد لله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

وقد تصدَّت السورة في مطلعها للرد على هذه الخرافة، فذكرت طرفيْ القصة، وهما الملائكة في أولها، ونوَّهت بشأنهم ومنزلتهم عند الله تعالى، أما الطرف الآخر وهم الجن، فقد جاء ذكرهم في آخرها وأولها، تاليًا لذكْر الملائكة، فقبَّحتْهم وبيَّنتْ أنهم مرجومون مدحورون.

٢- أما **إثبات البعث** والحشر والحساب والجزاء، فقد تناولتْه السورة في أعقاب الحديث عن التوحيد، بدءًا من قولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [١٦].

ومن ثَمَّ تعْرض السورة إلى مشهد طويل فريد من مشاهد القيامة، حافل بالأحداث والوقائع والمفاجآت، متضمنًا لحوار واقعي مكرر، يدور بين المؤمن والكافر، وبيان ما آل إليه كل منهما من خلود المؤمن في الجنة، وخلود الكافر في النار ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾﴾.

٣- وتناولت السورة **دعوة محمد** ﷺ قومه إلى توحيد الله تعالى، وتناولت كذلك دعوة الرسل أقوامهم إلى وحدانية الله تعالى، وبيّنتْ كيف نصر الله رسله، ورفع شأنهم، وبارك عليهم ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ وقد وعد الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ بالنصر كدأب المرسلين قبله.

وبيَّنت السورة أن عذاب الله تعالى نازل بالمشركين، وأن العاقبة الحسنى للمؤمنين ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

ومن الرسل الذين ذكرت السورة قصتهم: نوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وموسى، وهارون، وإلياس، ولوط، ويونس صلوات الله وسلامه عليهمْ أجمعين.

وأدمجت السورة خلال ذكر قصص هؤلاء الرسل الثمانية، ذكر مناقبهم وفضائلهم، وقُوَّتهم في دين الله، وإنجاء الله لهم من الكروب التي حفَّت بهم.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«من قرأ يس والصافات يوم الجمعة ثم سأل الله أعطاه سؤله»**[١].

---

(١) أخرجه أبو داود في «فضائل القرآن» وابن النجار في تاريخه عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما كما في «الدر» (١٢/ ٣٨٢).

وعن عبد الله بن عمر ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويؤمُّنا بالصافات[١].

ولما قدم ملوك حضرموت على النبي ﷺ، وطلبوا منه أن يقرأ عليهم شيئا مما أنزل الله، قرأ أوائل سورة الصافات[٢].

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى **ثلاثة مقاطع**:

المقطع الأول: يبدأ من أول السورة إلى الآية السبعين، وهذا المقطع يتناول الحديث عن الملائكة والشياطين، ومنكري البعث والحساب والجزاء، ومن ثَمَّ إلى وصف نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار.

المقطع الثاني: من الآية الحادية والسبعين إلى الآية الثامنة والأربعين بعد المئة، وهذا المقطع يتناول قصص ثمانية من المرسلين، وقد بدأ هذا القصص ببيان أن الضالين من خلق الله في كل زمان ومكان لهم نظائر في الأمم السابقة الذين أرسل الله إليهم الرسل، فحذَّروهم وأنذروهم، وبيَّنت الآيات كيف كانت عاقبة المرسلين، وعاقبة المنذَرين.

المقطع الثالث: من الآية التاسعة والأربعين بعد المئة إلى نهاية السورة، وهو مقطع يعيد إلى الأذهان ما سبق في أول السورة من الحديث عن الجن والملائكة، ووعْد الله تعالى بنصر رسله وعباده المؤمنين، إلا أن هذا النصر يأتي بعد زمان يتم فيه التمحيص، ويرتفع فيه مستوى الإيمان والأخذ بالأسباب.

وتُختَم السورة بتنزيه الله تعالى، والسلام على رسله، والإقرار بربوبيته وإلهيته، وهي القضايا التي تناولتْها السورة ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [١٨١، ١٨٢].

---

(١) «المسند» (٢/ ٢٦) وصححه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه عليه برقم (٤٧٩٦) وقال محققو المسند: إسناده حسن، وفيه الحارث بن عبدالرحمن القرشي، صدوق، روى له الأربعة، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه النسائي (٨٢٥) وفي الكبرى (١١٤٣٢) و«صحيح سنن النسائي» (٧٩٦) وأبو يعلى برقم (٥٤٤٥) وابن حبان (٤٧٠) وابن خزيمة (١٦٠٦) والطبراني (١٣١٩٤) والبيهقي (٣/ ١١٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» (١٩٠) عن أنس بن مالك.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

ثَلاثةُ أَيمَانٍ عَظِيمَةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ

١-٤- ﴿وَالصَّافَّاتِ[1] صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾﴾

أقسم الله تبارك وتعالى بطوائف الملائكة، وهي في عبادتها لربها، وفي تدبير ما تُدبره من أمور العباد بإذن ربها .

وأقسم بها، وهي في موكب الوحي النازل على قلب خاتم الرسل، يقوده جبريل الأمين، وتحفُّهُ الملائكة الكرام، فتصْطَفُّ في الملأ الأعلى صفوفًا، يتقدم بعضها على بعض، بالنظر إلى مراتب الملائكة في الفضل والقُرب، وذلك في عبادتهم وذِكْرِهم لله تعالى، كما يصْطَفُّ المؤمنون في الصلاة، وحين يصف الملائكة أجنحتهم في السماء، انتظارًا لأمر الله سبحانه، مع الخشوع والخضوع لله تعالى الذي دانتْ له الخلائق، وخضعت لجلاله الرقاب، بما فيهم حملة العرش الأطهار، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

ومع أن جبريل عليه السلام هو المسؤول عن الوحي، فإن ملائكة كثيرين تنزل معه تشريفًا للرسالة، وتنبيهًا بخطرها ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ٢].

والملائكة إلى جانب ذلك تطرد الشياطين المتطفلة على أخبار الوحي ليبتعدوا عن مساره!

والحديث الشريف يصف حال الملائكة عند تلقِّيهم أمر الله تعالى، ومنه الوحي الشريف:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانًا لقوله كأنه سلسلة على صفوان»**[2].

---

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بإظهار التاء من (والصافات) في الصاد بعدها، وتاء (فالزاجرات) عند الزاي بعدها، وتاء (فالتاليات) عند الذال بعدها، وقرآ بالإدغام أيضًا، وأدغمها حمزة قولًا واحدًا، وهي من قبيل المد اللازم بالنسبة لحمزة، ومن قبيل المد العارض بالنسبة لأبي عمرو ويعقوب.

(٢) من حديث أبي هريرة في البخاري (٧٤٨١) وأبي داود (٣٩٨٩، ٤٧٣٨) والترمذي (٣٢٢٣) وابن ماجه (١٩٤) والطبري (١٩/ ٢٧٧).

أي: يُسمع لخفق أجنحتها صوت كصوت الحديد على الحجَر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: ذهبت عنهم الرهبة والخوف ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

وعن حذيفة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجُعلت لنا الأرض كلها مسجدًا، وجُعلت تُربتها لنا طهورًا إذا لم نجد الماء»**[1].

وعن جابر بن سَمُرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا تصُفون كما تصف الملائكة عند ربهم»**؟ قلنا: وكيف تصُفُّ الملائكة عند ربهم؟ قال: **«يُتِمُّون الصفوف المتقدمة، ويتراصُّون في الصف»**[2].

ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١﴾ وهذا هو القسَم الأول.

ثم أقسم سبحانه مرة ثانية بالملائكة وهي تُنفِّذ أوامر ربها في صور مختلفة من الزجر في الكون كله:

(أ) فتزجُر السحاب وتسوقه إلى الآفاق، وتُصرِّف الرياح.

(ب) وتزجُر البشر، ألَّا يتباطؤوا في تنفيذ أوامر الله تعالى ونواهيه، وأن يكفُّوا عن معاصي الله ومحارمه.

(ج) وتزجُر الملائكة من يستحق الزجر من الناس عند قبض أرواحهم.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ۝٢٧﴾ [محمد].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠].

(د) كما أن الملائكة تزجر المجرمين وتسوقهم عند الذهاب بهم إلىٰ جهنم والعياذ بالله، كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ۝٨٦﴾ [مريم].

(هـ) ومن مواطن زجر المجرم حينما يسوقه الملَك الموكل به إلى أرض المحشر

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٥٢٢).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٤٣٠) و«سنن أبي داود» برقم (٦٦١) واللفظ له، و«سنن النسائي» برقم (٢/ ٩٢) و«سنن ابن ماجه» برقم (٩٢٢).

للعرض والحساب، ويُسَلِّمه في ساحة العدل الإلهية، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۝٢٣﴾ [ق]

وقال أيضًا: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤﴾ [الطور].

ذلكم قول الله تعالى: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝٢﴾ وهو القسَم الثاني.

أما القسَم الثالث والأخير فهو قسم بالملائكة الكرام، عند ترديدهم لكلام الله تعالى الذي يتلقَّوْنه من ربهم ليبلِّغوه إلى الرسل، ويبلِّغه بعضهم بعضًا، فهم يتلون الموحَى به إلى الرسل ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ أي: أُقسم بالملائكة الأبرار، وهم يذكرون الله تعالى ويتلون آياته على أنبيائه ورسله وأوليائه، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ [المرسلات].

وقد أقسم الله تعالى بالملائكة لعُلوِّ شرفهم، وسُموِّ منزلتهم، وامتثالهم التام لأمر الله تعالى، ولا يعصونه طرفة عين، أقسم بهم على ألوهيته ووحدانيته سبحانه.

ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته تنويهًا بشأن المقسَم به، ولفْتًا لأنظار الناس إليه، وليس لأحد من الخلق أن يقسم إلا بالله تعالى.

وهذه الأقسام الثلاثة لتأكيد الحقيقة الكبرى في مهام الوحي الإلهي، وهي توحيد الله تعالى.

فجواب القسم للجميع: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤﴾ أي: إن معبودكم -أيها الناس- لواحد، لا شريك له، فأخلصوا له العبادة والطاعة، والحب والخوف والرجاء، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾ [البقرة].

وقد أُكد جواب القسم هذا بإنَّ واللام؛ لأن الكفار أنكروا أن يكون الإله واحدًا ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص].

والسورة -كسائر السور المكية- يهدف الله تبارك وتعالى فيها إلى بناء العقيدة في النفوس، وتخليصها من شوائب الشرك، وقد شاع في الجاهلية أساطير تمثل صور الشرك المختلفة، ومن ذلك قولهم: الملائكة بنات الله. وقولهم: عيسى ابن الله. وقولهم: كيف يسمعُ هذه الخلائقَ جميعًا إلهٌ واحدٌ؟

واعتقادهم بتعدد الآلهة، وهم لا يُنكرون أن الله تعالى هو الرب العظيم، الخالق

الرازق، ولكنهم جعلوا له شركاء في العبادة، فأبطل الإسلام القول بتعدد الآلهة وحصَرَها في رب واحد، هو الله تعالى رب العالمين.

مِنْ بَرَاهِينِ التَّوْحِيدِ: خَلْقُ العَالَمِ العُلوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ

٥- ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝٥﴾

أقام سبحانه بعض البراهين والدلائل على وحدانية الله تعالى، فبيَّن أنه سبحانه خالق العالم العلْوي وما فيه، ومالكه وقاهره وخالق العالم الأرضي وما فيه، ومالكه وقاهره، وخالق ما بين السموات والأرض من الهواء والسحاب والضوء والنور، وغير ذلك من المخلوقات التي لا يعرف البشر عنها شيئًا، فوجود هذه العوالم وانتظامُها على هذا النمط البديع، من أوضح الدلائل على وحدانية الله تعالى.

ومن لم يخلق، ولا يملك، ولا يرزُق، لا يكون إلهًا، والمشركون لم يدَّعوا أن أصنامهم تخلق أو ترزق، فكيف تكون آلهة؟!

وخلْق هذه الكائنات ورزقها وتدبير شؤونها، دليل على ربوبية الله تعالى، وهو أمر يُقرّ به المشركون، وكما أنه سبحانه لا شريك له في ربوبيته، فهو كذلك لاشريك له في ألوهيته، وكثيرًا ما يُقرن الله سبحانه توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية، لأنه يدل عليه، وهذا أمر ملزم بعبادة الله وحده، وإفراده بالإلٰهية كمْا أفردوه بالربوبية.

فهو سبحانه خالق السموات والأرض وما بينهما: وهو سبحانه خالق الشمس ومصرِّف أحوالها في مطالعها ومغاربها فهو رب المشارق، وخُصت المشارق بالذكر من بين السموات والأرض وما بينهما؛ لأنها مشهودة ومكررة كل يوم، فالناس تألفُها، ومن إلْفهم لها أنهم يغفلون عن قدرة الله فيها، وذكر المشارق يُغني عن ذكر المغارب؛ لأن كل واحد منهما يستلزم الآخر، والشروق يسبق الغروب، وهو أدل على القدرة، وأبلغ في النعمة.

وقد أفرد القرآن الكريم المشرق والمغرب في مثل قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل].

وثنَّاهما في مثل قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ [الرحمن].

وجمعهما في مثل قوله سبحانه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠﴾ [المعارج].

فالإفراد باعتبار: جهة الشروق والغروب.

والتثنية باعتبار: مشرقي الصيف والشتاء، ومغربيْهما.

والجمع باعتبار: عدد المشارق وهي ثلاث مئة وستون مشرقًا، وعدد المغارب مثلها، فكلما مرَّ جزء من الأرض في دوْرتها أمام الشمس كان مشرقًا لها، ويقابله الغروب فيما يقابلها من الكرة الأرضية، وهما قُطريْ المشرق والمغرب.

قال قتادة: المشارق ثلاث مئة وستون مشرقًا، والمغارب ثلاث مئة وستون مغربًا في السنة.

قال: والمشرقان: مشرق الشتاء ومشرق الصيف[(١)].

وقال السُّدِّي: المشارق ثلاث مئة وستون مشرقًا، والمغارب مثل ذلك، تطلع الشمس كل يوم من مشرق، وتغرب في مغرب[(٢)].

وإذا كانت الشمس تُشرِق وتغْرب كل يوم في موضع لا تعود إليه إلا في الحول الذي بعده، ولكل نجم مَشْرق، ولكل كوكب مَشْرق: فهي مشارق كثيرة في جوانب السماء الفسيحة.

مِنْ خَصَائِصِ السَّمَاءِ الأُوْلَى

الخَاصِّيَّةُ الأُولَى: أَنَّهَا زُيِّنَتْ لِأَهْلِ الأَرْضِ بِالنُّجُوم

٦- ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ[(٣)] ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦﴾

---

(١) الأثر عند عبد الرزاق (٢/ ١٤٧).

(٢) الطبري (١٩/ ٤٩٦).

(٣) قرأ شعبة بتنوين (زينةٍ) ونصب (الكواكبَ) على أنها مفعول به والفاعل محذوف، أي: زيَّن الله الكواكب في كونها مضيئة حسنة في أنفسها.

وقرأ حفص وحمزة بتنوين (بزينةٍ) وخفض (الكواكبِ) على أن المراد بالزينة ما يتزين به، وهي مقطوعة عن الإضافة، والكواكب عطف بيان، أو بدل بعض من كل.

وقرأ الباقون بحذف التنوين من (زينةِ) و(الكواكبِ) بالخفض على إضافة زينة للكواكب، إضافة بيانية، من إضافة الأعم إلى الأخص.

وبعد أن قرر سبحانه أنه خالق هذا الكون ومالكه، خص السماء الدنيا بالذكر، فامتنَّ على الناس أوَّلًا، بأن زين لهم السماء الدنيا، القريبة منهم بمحاسن المناظر، فجعل الكواكب منيرة مضيئة كأنها جواهر تتلألأ، ولولا هذه الإنارة لكانت السماء جِرْمًا مظلمًا لا ضوء فيها، وهي زينة تروق للناظرين، وهداية في الصحاري والبراري والقفار، يهتدون بها في سيرهم من مكان إلى مكان في ظلمات البر والبحر.

وخُصَّت السماء الدنيا بالذكر؛ لأنها هي التي تُشاهَد بالأبصار، وفيها وحدها يكون الحفظ من الشياطين.

والمعنى: إنا زينا السماء القريبة من الأرض بزينة هي الكواكب، والكواكب هي النجوم التي تلمع في الليل، عدا الشمس والقمر، وهي أحجام مختلفة، ولكل منها خصائص، فمنها الكواكب السيارة، ومنها الثوابت، ومنها ما يدور حول الشمس، ومنها ما هو زينة في الليل، ومنها ما يرجم به الشياطين عند استراق السمع.

والسماء الدنيا هي التي تحيط بالكرة الأرضية، والكواكب والشهب سابحة في مقعَّر تلك الكرة على أبعاد مختلفة، والسموات السبع يحيط بعضها ببعض، ولها أبعاد عظيمة، واتساع لا يعلم مقداره إلا الله.

أو أن السماء الدنيا ليس فيها شيء من ذلك، وأن الكواكب والشهب تدور في أفلاك السموات الست والعرش.

ومعنى هذا أن أنوار الكواكب تخترق السماء الدنيا في نصف الكرة السماوية الذي يغشاه الظلام من تباعد نور الشمس عنه، وعندئذ تلوح أنوار الكواكب فتضيء السماء الدنيا وتزدان بها، والقرآن لم ينزل لإثبات هذا أو نفيه ولكنه يصلح للاستدلال به على هذا وذاك[1].

الْخَاصِّيَّةُ الأُخْرَى: أَنَّهَا رُجُومٌ لِلشَّيَاطِينِ

٧- ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾

ثم امتنَّ الله سبحانه على المسلمين بأن جعل في تلك الكواكب حراسة للسماء من كل

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٣/ ٨٨).

شيطان مارد، يصل بتمرده إلى الملأ الأعلى، وهم الملائكة، فإذا حاولت أن تستمع قذفتْها بالشهب من كل جانب، فهذه الكواكب، حفظًا من استراق الشياطين للسمع، فيما يقضيه الله تعالى في السموات، لقطع الطريق على الكُهَّان في معرفة بعض ما سيحدث في الأرض؛ حتى لا يفتِنُوا الناس في دينهم، كما فتنوهم في الجاهلية، وليكون هذا تشريفًا للنبي ﷺ؛ لأن الكهانة قُطعت ببعثته، وقطعًا لدابر الشك في الوحي، وحفظًا للسماء بالنجوم من كل شيطان متمرِّدٍ عاتٍ، خارج عن طاعة الله تعالى، متجرد من الخير، حيث تفر الشياطين خوفًا من الشهب، عند محاولتها استراق السمع.

قال قتادة: خُلقت النجوم لثلاث: رجومًا للشياطين، ونورًا يُهتدى بها، وزينة للسماء.

والحفظ من الشياطين خاص بالسماء الدنيا؛ لأنها قبة الأرض المباشرة لها قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ [الملك].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ [الحجر].

وقد سميت شُهبًا تشبيهًا لها بقبس النار الذي هو شعلة أو جمرة منها، كما ذكر الله تعالى عن موسى عليه السلام في قوله: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧].

مَنْعُ الشَّيَاطِينِ مِنِ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ

٨، ٩- ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ[1] إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ[2] ۝٨ دُحُورًا[3] ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾

وقد حفظ الله السماء بهذه الشهب، من استماع الشياطين للملأ الأعلى في السماء الدنيا فما فوقها، فمُنعوا من ذلك، وأصبحت لا تستطيع أن تصل إلى السماء ومن فيها من الملائكة، فلا تستمع إليهم إذا تكلموا فيما يتعلق بأحوال البشر على وجه الخصوص، فإن حاولوا ذلك قُذفوا بالشهب من كل جهة طردًا لهم عن الاستماع ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾.

---

(١) قرأ حفص وحمزة وخلف بتشديد السين والميم من (يسَّمَّعون) مضارع تسمَّع، فأدغمت التاء في السين، فأصلها يتسمعون، والباقون بإسكان السين وتخفيف الميم مضارع سمع.

(٢) ،(٣) ترك الحمصى (من كل جانب) من العدد، وعد (دحورا) آية، وجمهور علماء العدد عكسه، أي أنهم يعدُّون (جانب) ويتركون (دحورا).

وليست الشهب التي يرجم بها الشياطين من الكواكب الثوابت؛ لأن الكواكب الثابتة تجري ولا تُرى حركاتها، أما الشهب، فإن حركتها مرئية، وقبل بعثة النبي ﷺ كانت الشياطين يركب بعضهم فوق بعض، حتى يقتربوا من السماء الأولى، فربما سمعوا بعض كلام الملائكة، وربما أحرقهم شهاب بعد إلقاء الكلام إلى غيرهم، وربما لم يحرقهم جملة، فينزلوا بتلك الكلمة، فيخبروا بها السحرة والكهنة من سكان الأرض، بعد أن يضيفوا على الخبر الواحد مئة كذبة، فيوهموا الناس بذلك أنهم يعلمون الغيب.

ولما بُعث النبي ﷺ مُنعوا من استراق السمع، ولم يعلموا السبب، فأرسل إبليس أبناءهُ في أرجاء الأرض ليأتوا له بسبب هذا المنع، فأعلموه ببعثة محمد ﷺ ليلة أن استمعوا إليه وهو يقرأ القرآن في صلاته، فكانوا بعد ذلك إذا صعدوا إلى السماء يجدونها مليئة بالشهب المعدَّة لإحراقهم إن هم حاولوا ذلك.

قال تعالى على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن].

ولا تزال هذه الشهب مجندة في السماء لرمْي مَن يحاول منهم استراق السمع.

ولم يحصل الرجم للشياطين إلا بعد أن طُرد إبليس من عالم الملائكة، وكانت الكواكب موجودة قبل ذلك.

هذا: والشهب التي يُرجم بها الشياطين عند محاولتها استراق السمع تلوح في الأفق قِطَعًا لامعة مثل النجوم تجري في الفضاء، وهي أجسام معدنية تدور حول الشمس، وعندما تقترب من الأرض تتغلب عليها جاذبية الأرض حتى تسقط في البحر غالبًا، وربما تقع على الأرض، وتحرق ما تصيبه من شجر أو منزل أو غيرهما، فيراها الناس قِطعًا معدنية متفاوتة الحجم، وهي في الأصل أجسام تدور حول الشمس.

وقد سقطت هذه الشهب في بعض البلاد قديمًا وحديثًا، منها: ما سقط في الصين سنة ٦١٦ قبل الميلاد، فقتلت رجالًا وكسَّرت مَرْكبات، وذكَرها العرب في أشعارهم قبل الإسلام، ومنها ما حدث في تونس سنة ٩٤٤ أكثر من مرتين[١].

---

(١) ذكر ذلك الشيخ الطاهر بن عاشور عند تفسيره للآية (٢٣/ ٩٠).

وكثيرًا من ذلك يحدث ولا نراه؛ لأنها تسقط في البحر غالبًا.

وهؤلاء الشياطين الذين يحاولون استراق السمع بعد المنع، يُرجمون بالشهب فيُطردون ويُزجرون ويمنعون من الوصول إلى غرضهم، فهم يُدْحرون ﴿دُحُورًا﴾ هذا في الدنيا، أما في الآخرة فكما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: عذاب دائم أليم موجع، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ [مريم].

وظاهر الأحاديث يفيد أنهم يحاولون السمع إلى الآن، ولكنهم لا يسمعون، وإن سمع منهم أحد شيئًا رُمي بالشهاب، فيُلقي ما سمعه إلى الجن الذي تحته.

والآية التالية قد أوضحت هذا المعنى، قال تعالى:

١٠- ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾

أي وقد يخطف الشيطان المارد خطفة واحدة سريعة خفيفة، على وجه الخِفْية والسرقة مما يدور في الملأ الأعلى ويتعلق بأحوال البشر، دون ما يتعلق بالوحي؛ لأن الله تعالى قد أحاط الوحي بما يستحيل معه تسرُّب ما يوحيه الله من شرعه وقدَره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء].

وقال سبحانه: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الجن].

وهكذا فإن الوحي يُحيط به حفظة من الملائكة من كل جانب؛ حتى لا يظهر للخلق شيء منه، فإن اختلس الشيطان شيئًا من أحوال الناس مسارقة فإنه يُقذَف بالشهب، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ أي: إلا من اختلس من الشياطين الخطفة الواحدة السريعة، وهي الكلمة التي يسمعها بسرعة، فيلقيها إلى الذي تحته ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ فربما أدركه الشهاب المضيء قبل أن يلقيها إلى أوليائه، وربما ألقاها بقدَر الله تعالى إلى من هو تحته قبل أن يأتيه الشهاب، فيذهب بها الآخر إلى الكهنة فيكْذِبون معها مئة كذبة، يُروِّجونها بسبب الكلمة التي اختطفوها.

قال ابن عباس ﷺ: كانت للشياطين مقاعد في السماء، فكانوا يستمعون الوحي، قال:

وكانت النجوم لا تجري، وكانت الشياطين لا تُرمى، قال: فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض، فزادوا في الكلمة تسعًا وتسعين، قال: فلما بُعث رسول الله ﷺ جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاء شهاب فلم يخطفه حتى يُحرقه، قال: فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هو إلا أمر حدث، قال: فبث جنوده، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي بين جَبليْ نخلة، قال وكيع: يعني بطن نخلة، قال: فرجعوا إلى إبليس فأخبروه، فقال: هذا الذي حدث[1]، وبطن نخلة، مكان بين مكة وعسفان.

والشهاب: هو القبس والجمرْ من النار، وهو لا يقتل الشيطان، ولكنه يحرقه ويصيبه بالخبل، فتزول خصائصه، فيضمحل، ولا يمكنه استراق السمع مرة أخرى.

والثاقب: هو الذي يترك ثُقبًا في الجسم الذي يريده، وكل هذا من خصائص ما بعد بعثة النبي ﷺ.

جَولَةٌ مَعَ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ

١١- ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ[2] أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾

أي اسأل منكري البعث والنشور في كل زمان ومكان: هل إيجادهم بعد موتهم أشق وأصعب من هذه المخلوقات العظيمة، كالسموات والأرض؟ فإذا أقروا بذلك وفكّروا في أنفسهم، علموا أن ابتداء خلقهم كان من طيْن لازب، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر] فتكون الإعادة أيسر وأهون.

هذا: وقد تضمن صدر هذه السورة **حقيقتين**:

الأولى: حقيقة التوحيد الذي جاء القسَم عليه في الآيات السابقة.

والأخرى: حقيقة البعث في الآيات التالية.

والغرض من هذه الآية إقامة البرهان على إعادة الإنسان بعد الموت، فالذي خلقه وخلق جميع الكائنات قادر على إعادة الأجساد بعد الفناء.

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/ ٢٥)، برقم (٢٩٢٦١) ورجاله رجال البخاري ومسلم.

(٢) قرأ رويس بضم الهاء من (فاستفتهم)، والباقون بكسرها.

ولما بيَّن سبحانه أنه خلق السموات والأرض وما بينهما وما فيهما من الملائكة والعرش والكرسي والشياطين، وما إلى ذلك؛ أمر الله رسوله أن يسأل المكذبين للبعث: أإعادة خلْقهم أشد علينا، أم هذه المخلوقات العظيمة؟

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: اسأل -يا محمد- المنكرين للبعث على سبيل التوبيخ والإقرار؛ لإقامة الحجة عليهم في إنكارهم للبعث واستبعادهم إعادة خلقهم بعد أن صاروا عظامًا ورفاتًا ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي: فهل إعادتهم للبعث بعد الموت أشد من الخلق الأول؟ أو أشد من المخلوقات الأخرى؟ وهذا معنى: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ أي: أن خلْق البشر، أضعف وأهون ألف مرة من خلق السموات وما فيها، فإن خلْق السموات أشق وأصعب؛ لأنها أقوى وأمتن بُنية، وأضخم جَسَدًا، وأكبر حجمًا!

ومع أن القرآن الكريم يَعْجَبُ من حال المكذبين للبعث، ويستنكر عليهم استبعادهم له، ويسخر من عقولهم، فإنه لا ينتظر جوابًا منهم؛ لأن الجواب ظاهر وواضح، إذ لا يمكنهم إلا أن يقولوا: إنَّ خلق مَن سواهم من الملائكة والسموات والأرض والجن ونحو ذلك، أشد وأعظم من خلقهم، فهم يُقرُّون أن هذه المخلوقات أقوى منهم، وأنهم قد خُلِقوا من ماء ضعيف.

وإذا كان الأمر كذلك، فلِمَ يُنكرون البعث وهم يشاهدون ما هو أعظم وأكبر مما أنكروه؟

ثم يعرض القرآن مادة خلْق الإنسان الأول، فبيَّن سبحانه أن بني آدم خُلقوا من شيء ضعيف ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أي: خلقْنا أباهم آدم من طين رخو لزج، يلتصق بعضه ببعض، ويعْلَق باليد حين يُخلَط بالماء، وما يصنع من الطين لا يوصف بالصلابة والقوة.

وبهذا فإن الآية قدَّمتْ دليلين على حقيقة البعث الذي أنكروه؛ وكلا الدليلين واضح مشاهد لا ينكره المشركون فضلًا عن غيرهم:

أحدهما: ما يعترفون به من أن خلق السموات والأرض والملائكة، . . أعظم وأكبر من خلقهم، ومن كان قادرًا على خلق الأكبر فهو من باب أولى قادر على خلق الأصغر، قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن

﴿يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف].

وقال جلَّ شأنه: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات].

وقال أيضًا: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر].

وثانيهما: أن مَنْ خلق أباهم من طين قادر على أن يعيدهم مرة أخرى بعد أن يصيروا ترابًا وعظامًا.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

ثم ذكر سبحانه ثلاثة من أحوال المكذبين بالبعث يَعْجَبُ منها كل عاقل، وهي:

١- أنهم يسخرون من البعث. ٢- وأنهم إذا وُعظوا لم يتعظوا.

٣- وأنهم إذا رأوْا آية كإنشقاق والقمر، تدل على صدق النبي ﷺ يكذبونها ويسخرون منها. فهذه ثلاثة أمور كلها عجب، قال تعالى:

١٢-١٤- ﴿بَلْ عَجِبْتَ[١] وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾

فموقف الكفار إذن يثير التعجُّب في نفس النبي ﷺ وفي نفس كل مؤمن بعده، إذْ كيف ينكرون البعث، ويكذِّبون به، مع رؤيتهم آثار قدرة الله تعالى في هذه الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة؟!

١- ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وهم يسخرون مما تقول في شأن الإيمان بالله واليوم الآخر، فأنت عجبتَ من تكذيبهم إياك، وهم سخروا من تعجُّبك.

قال قتادة والضحاك: عجب محمد وسخر ضُلَّال بني آدم[٢].

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بتاء المتكلم المضمومة في (عجبتُ) أي قل يا محمد: بل عجبتُ أنا، وقرأ الباقون بتاء الخطاب المفتوحة، والضمير للرسول ﷺ، أي: بل عجبتَ أنت - أيها الرسول - من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة.

(٢) «تفسير ابن جرير» (١٩/ ٥١٤).

وقال أبو السعود: **المعنى**: عجبتَ من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم للبعث، وهم يسخرون من تعجبك وتقريرك للبعث[١].

ويسخرون من نبوتك ومن الحق الذي جئتهم به من عند الله.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

فالله سبحانه وافق رسوله في التعجب منهم واستعظام حالهم، كما في القراءة الأخرى بضم التاء، أي: قل يا محمد: بل عجبتُ أنا.

وحقيقة العَجَب: روعة وانفعال يعتري الإنسان عند المفاجأة بشيء لا يُعرف سببه، وهذا المعنى لا يليق بالذات العلية، بل المراد: استعظام الأمر المتعجَّب منه.

والله تعالى يُظهر من حال المتعجب منه ما يثير التعظيم أو التحقير في نفوس الناس، فقد يكون العجَب بمعنى: إكبار الشيء وتعظيمه، وهو بالنسبة لله تعالى يكون لتعظيم تلك الحالة، وما يترتب عليها من عقاب إن كان الأمر قبيحًا، أو ثواب إن كان حسنًا.

سُئِل الجنيد عن هذه الآية، فقال: إن الله لا يعجب من شيء،ولكن عجب رسوله،ولما عجب رسوله قال سبحانه: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وقد يكون التعجب من الله تعالى بمعنى: الاستحسان والرضى، كما في الأثر: عجب ربكم من شابٍّ ليس له صبوة.

وفي الحديث: عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، يدخلان الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيستشهد**»[٢] أي: أن القاتل الذي كان كافرًا يُسْلِم فيقاتل فيستشهد في سبيل الله.

وفي حديث الأنصاري وزوجه: عن أبي هريرة ﷺ حين استضافا رجلًا فأطعَماهُ عشاءهما

---

(١) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٦٦).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٤٣٥٨، ٤٣٥٩) وهو في البخاري (٢٨٢٦) ومسلم (١٨٩٠) وابن ماجه (١٩١) بنحوه في و«المسند» (٧٣٢٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وابن حبان (٢١٥)، والحميدي (١١٢٢).

وتركا صبيانهما دون طعام، فقال ﷺ: **«عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة»**(١).

وفي الحديث: عن أبي هريرة أيضًا أن النبي ﷺ قال: **«عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل»**(٢).

ولم يأتِ العجب مسندًا إلى الله تعالى في القرآن، إلا في القراءة الأخرى من هذه الآية، بضم التاء من (عجبت).

ولو كان العجب مما يجوز على الله تعالى لعجب من حال المنكرين للبعث.

٢- ثم إن المكذبين بالبعث متمادون في إعراضهم عن الحق، مصرون على ما هم فيه من باطل، فقد بيَّن سبحانه أنهم إذا وُعظوا بما ينفعهم في دينهم فإنهم لا يتعظون، إنهم غافلون عن دلائل التوحيد وآثار القدرة الإلهية في هذا الكون، وهم لشدة إعراضهم لا يستعملون عقولهم في التأمل والإدراك، كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان]. وقد ذُكِّر المكذبون بخلق السموات والأرض والنجوم والكواكب والملائكة والشياطين، ولكنهم لم يعتبروا.

٣- وإذا رأوا - أي المكذبون بالبعث - دلالة وعلامة واضحة على التوحيد، ومعجزة دالة على صدق النبي ﷺ، فإنهم يبالغون في السخرية والاستهزاء بها ويقولون: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢].

قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ [القمر].

والآية هنا هي معجزة انشقاق القمر.

وهناك معجزات أخرى كثيرة كتكليم الشجر والحجر له ﷺ، ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة، وتكثير الطعام بين يديه، وحنين الجذع له، وشكوى البعير إيذاء صاحبه له، وما إلى ذلك.

قال ابن عطية: رُوي أن هذه الآية نزلت في رُكانة، وهو رجل من المشركين من أهل مكة، لقيه النبي ﷺ في جبل خالٍ، وهو يرعى غنمًا له، وكان أقوى أهل زمانه، فقال له

---

(١) يُنظَر الحديث في: البخاري (٣٧٩٨، ٤٨٨٩) ومسلم (٢٠٥٤).

(٢) البخاري (٣٠١٠، ٤٥٥٧).

النبي ﷺ: «يا رُكانة، أرأيت إن صَرَعْتُك أتؤمن بي»؟ قال: نعم، فصرعه النبي ﷺ ثلاثًا، ثم عرض عليه آيات، من دعاءِ شجرةٍ وإقبالِها، فلما فرغ من ذلك كله، لم يؤمن ركانه، وجاء إلى مكة فقال: يا بني هاشم، ساحروا بصاحبكم أهل الأرض، فنزلت هذه الآية فيه وفي نُظرائه[1]، ومعنى يستسخرون: يطلبون أن يكونوا ممن يسخر.

ومن العجب أيضًا أنهم يقيسون قدرة الله تعالى على قدرتهم، قال تعالى:

١٥-١٧- ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا[2] مِتْنَا[3] وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا[4] لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ[5] ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾﴾

أي: وقالوا على سبيل الجحود والعناد: ما هذا الذي أتى به محمد ﷺ إلا سحر واضح ظاهر البطلان، والمشار إليه في الآية بـ ﴿هَٰذَآ﴾ هو إعادة الخلق بعد البعث المفهوم من قوله تعالى: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ ثم بيَّن سبحانه ردَّهم لقضية البعث، وإجابتهم عليها بأن إعادة الحياة بعد الموت كلام قُصد به سحر السامع، فكان جوابهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ وانتهت حياتنا، ووُضِعْنا في قبورنا وتحللت أجسادنا فكنا ترابًا، سوف تعود لنا الحياة بعد أن أصبحت أجسادنا بالية، وتفتتت عظامنا؟! والاستفهام للتعجب والإنكار.

ثم قالوا مضيفين إلى ما سبق: وهل آباؤنا الأولون الذين ماتوا قبلنا، وصاروا عظامًا، يعودون إلى الحياة أيضًا؟ وهذا إمعان وزيادة في الإنكار، أي: أنَّ بَعْثَ مَنْ ماتوا قبلنا أبعد وأبطل، كما يزعمون.

ولما كان هذا منتهي ما عندهم، وغاية ما لديهم، أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يجيبهم بهذا

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/٤٦٨).

(٢) قرأ نافع والكسائي وأبو جعفر ويعقوب بالاستفهام في (أئذا) والإخبار في (أئنا) وقرأ ابن عامر بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني، والباقون بالاستفهام فيهما، وكلٌّ على أصله في التحقيق والتسهيل والإدخال وعدمه، ومثل ذلك في الآية الثالثة والخمسين (أئذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا أئنا) إلا أن أبا جعفر وافق ابن عامر، فقرأ بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني.

(٣)، (٤) قرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي وخلف بكسر الميم من (مِتنا)، والباقون بضمها.

(٥) قرأ قالون وابن عامر وأبو جعفر بإسكان الواو من (أوآباؤنا) على أنها عاطفة، وكذا الأصبهاني إلا أنه ينقل حركة الهمزة إلى ما قبلها، والباقون بفتح الواو، فالعطف بالواو، وأعيدت همزة الاستفهام.

الجواب القاطع لأمر البعث، وفيه زجر وترهيب لهم، فقال تعالى:

١٨، ١٩- ﴿قُلْ نَعَمْ[١] وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾

أي: قل لهم - يا محمد -: نعم، ستبعثون يوم القيامة أنتم وآباؤكم الأولون، أذلاء صاغرين، وأنتم مهانون محقَّرون، تترقبون العقاب الوخيم، والعذاب الأليم، فلا تمتنعون ولا تستعصون على قدرة العلي القدير.

ثم إن بعثهم وشيك الوقوع، فما هي إلا نفخة واحدة، ينفخها إسرافيل في الصور، فإذا هم قائمون من قبورهم حفاة عراة، ينتظرون أهوال يوم القيامة.

والزجرة الواحدة: هي نفخة البعث الأخيرة، ينفخها إسرافيل في البوق ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ قيام من مرقدهم ﴿يَنظُرُونَ﴾ ما يدور حولهم في دهشة وذهول، كما قال تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس].

وهذه النفخة هي التي جاءت في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وعندما يقومون من قبورهم يظهر عليهم الذل والهوان ويتمنّوْا أنهم لم يُبعثوا:

٢٠، ٢١- ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

أي: وعندما يرون بأعينهم جهنم وقد بَرَزتْ للناظرين، وظهر لهم أنَّ ما كانوا يكذِّبونه في الدنيا ماثل أمامهم، لا مفرَّ منه، حينئذ تظهر حسرتهم وندامتهم ويدْعون على أنفسهم بالهلاك والويل والثبور، فيقول بعضهم لبعض في ذُعر وفَزع: يا هلاكنا، هذا هو يوم الجزاء على الأعمال، الذي كنا ننكره ونستبعده ونحن في الدنيا.

وعندما يقول بعضهم لبعض: يا ويلنا هذا هو اليوم الذي يُدان فيه العباد بأعمالهم، فإن الملائكة تقول لهم: ادعوا على أنفسكم بما تشاؤون، فإن هذا هو يوم القضاء بين العباد بالعدل، وقد كنتم تنكرونه في الدنيا، وهو يوم يُفرق فيه بين من أحسن ومن أساء، ممَّن اتبع طريق الهدى أو طريق الضلال، وتُجزى فيه كل نفس بما عملت، سواء في حق الله تعالى، أو في حق العباد.

---

(١) قرأ الكسائي بكسر العين من (نعم)، والباقون بفتحها وهما لغتان.

حَشْرُ الظَّالِمِينَ مَعَ أَشْبَاهِهِمْ وَسَوْقُهُمْ إِلَى جَهَنَّمَ

٢٢، ٢٣- ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ[1] (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾

يأمر الله تعالى الملائكة الموكلون بالناس يوم القيامة، أَنْ تُميِّز بين الكفار والمؤمنين في محشرهم ومنشرهم، وهم في ساحة العدل الإلهية، في عرصات القيامة حيث يجتمع الخلائق، فيقال لهم: ﴿احْشُرُوا﴾ أي: اجمعوا ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالشرك وسائر المعاصي، أو ظلموا غيرهم بالاعتداء عليهم أو أكل أموالهم، أو نقص حقوقهم، اجمعوهم وسوقوهم إلى مكان اجتماعهم الذي يتميزون فيه عن المؤمنين، احشروهم هم ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾. وفي معنى الأزواج **ثلاثة أقوال**:

الأول: المراد بالأزواج: **أشباه الظالمين ونظراؤهم** من المشركين والمبتدعين والعصاة والمجرمين، فكل إنسان يُحشر مع نظيره في الشرك والكفر والظلم ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقد فُسِّر الظلم بالشرك في هذه الآية.

في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢)﴾ [الأنعام]. وقال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

فعابد الصنم يحشر مع عابد الصنم، وعابد الجن يُحشر مع عابد الجن، وعابد الكواكب يحشر مع نظيره، والمشركون يحشرون مع نظرائهم، والملاحدة يحشرون مع أشباههم، والعلمانيون يحشرون مع نظرائهم، والشيوعيون يحشرون مع أضرابهم، وهكذا كلٌّ يُضم إلى من كان يجانسه في العمل وهم في الدنيا.

قال عمر ﷺ فيما يرويه النعمان بن بشير عنه: يُحشَر صاحب الربا مع صاحب الربا، وصاحب الزنى مع صاحب الزنى، وصاحب الخمر مع صاحب الخمر، أزواج في الجنة، وأزواج في النار[2] وهكذا، كل طائفة مع مثلها.

---

(١) ترك البصري (وما كانوا يعبدون) فلم يعدها آية، وعدها غيره.

(٢) «زاد المسير» لابن الجوزي (٧/ ٥٢) وقد أخرجه عبد الرزاق (٢/ ١٨٤) من قول النعمان، دون ذكر عمر، وهو في الطبري (١٩/ ٥١٩) و«المستدرك» (٢/ ٤٣٠).

وقال مجاهد: القتَلة مع القتَلة، والزناة مع الزناة، وأكلة الربا مع أكلة الربا[(١)].

وقال زيد بن أسلم: المراد: أزواجهم في الأعمال، فأصحاب الميمنة زوج، وأصحاب المشأمة زوج، والسابقون زوج[(٢)].

وقد جاء القرآن بمثل هذا، من أن المراد بالأزواج: الأصناف والأنواع والنظائر والأشباه، كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [يس: ٣٦].

وقوله أيضًا: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [طه: ١٣١].

وهذا المعنى هو الأرجح، وبه قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة، وأبو العالية، والسُّدِّي، وزيد بن أسلم، وغيرهم.

والمعنى الثاني: أن المراد بالأزواج: **نساؤهم** اللائي كنَّ على دينهم، بأن كُنَّ مشركات كأزواجهن، موافقات لهم في الظلم والكفر، وبه قال الحسن ومجاهد.

أما المؤمنات فهن ناجيات من تبعات أزواجهن، حيث يحشرن مع أزواجهم المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦﴾ [يس: ٥٦].

وقال سبحانه: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣].

المعنى الثالث: أن المراد بالأزواج في الآية، **قُرناؤهم من الشياطين** بأن يحشر كل كافر مع شيطانه الذي أضله ويُقْرن معه في سلسلة، وبهذا قال الضحاك[(٣)].

﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٢٧﴾ [ق].

فيقال للملائكة: احشروا هؤلاء الظالمين وما كانوا يعبدون في الدنيا من الآلهة الباطلة كالأصنام والأوثان، بعد أن جُمعت كل طائفة مع مثيلتها ثم أَلقوْا بهم جميعًا في جهنم؛ ليذوقوا حرَّها وسعيرها، وفي هذا زيادة في حسرتهم وندامتهم بعد ما شاهدوا بأعينهم بطلان ما كانوا يفعلونه في الدنيا.

---

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٥١٩).

(٢) «الدر المنثور» (١٢/ ٣٩٥) عن ابن أبي حاتم.

(٣) يُنظَر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١١).

وقد اشتملت الآية على الظالمين، وأشباههم وما كانوا يعبدون من دون الله، فهؤلاء الثلاثة يُحشرون في معية بعضهم، وهم: الظالمون ونُظراؤهم، مع الطواغيت التي كانوا يعبدونها من دون الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾. [الأنبياء]

وفي حشر الآلهة مع عابديها زيادة تحسير وتخجيل للعابدين؛ لأنهم رأوا بأنفسهم بطلان ما كانوا يفعلونه في الدنيا، قال تعالى موبخًا لهم: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنبياء].

وإذا كان المكذبون بيوم الدين لم يهتدوا إلى الصراط المستقيم في الدنيا، فدُلُّوهم اليوم إلى طريق جهنم، وسُوقُوهم إليها سَوْقًا عنيفًا، عَرِّفوهم طريق النار، ووجِّهُوهم نحوها، وأرُوهم إياها إن كانوا لا يرونها.

وفي التعبير بلفظ الهداية، زيادة في التهكم والسخرية، فالهداية هي الدلالة على الطريق لمن لا يعرفه، ويقابلها الضلالة، وهي الحيرة والاضطراب، قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

السُّؤَالُ فِي أَرْضِ المَحْشَرِ

٢٤-٢٦- ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ[١] ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

وفي بداية السيْر بالظالمين إلى جهنم يقال للملائكة: احبسوهم قليلًا عن مواصلة السيْر؛ ليُسألوا سؤال تيئيس وتعنيف ﴿وَقِفُوهُمْ﴾ أي: احبسوهم عند الصراط فلا يعبُروه، للإجابة عما يوجَّه إليهم من أسئلة في موقف الحساب ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت منهم في الدنيا، ليظهر ذلك على رؤوس الأشهاد، فيتضح كذبهم، اسألوهم مُساءلة إنكارٍ عليهم، وتبكيت لهم، وإقرار بذنوبهم.

قال ابن عباس ﷺ: احبسوهم فهم محاسبون.

---

(١) قرأ أبو جعفر والبزي بخلف عنه بتشديد التاء وصلًا مع المد المشبع من (لا تناصرون) والباقون بتخفيفها مع القصر وصلًا ووقفًا، وكذا أبو جعفر والبزي حال الابتداء فإنهما يقرآن بالتخفيف.

وفي الحديث عن ابن مسعود ﷺ أن النبي قال: **«لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وماذا عمل فيما علم»**[1].

وعن السؤال يوم القيامة يقول تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف].

وفي حديث عبد الله بن عمرو ﷺ، وفيه بعض علامات الساعة والنفخ في الصور: **«ثم يقال: يأيها الناس، هلم إلى ربكم، وقفوهم إنهم مسئولون، قال: ثم يقال: أخرجوا بعث النار، فيقال: مِنْ كَمْ؟ فيقال: مِنْ كُل ألف، تسع مئة وتسعة وتسعين، قال: فذاك يوم يجعل الولدان شيبًا، وذلك يوم يكشف عن ساق»**[2].

وفي يوم القيامة مواطن ليس فيها سؤال، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾ [الرحمن] حيث ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ۝٤١﴾ [الرحمن].

وقال أيضًا: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

وعدم السؤال يوم القيامة يكون لمن يستحقون دخول الجنة بدون سؤال ولا حساب؛ لأن من نوقش الحساب فقد عُذِّب.

ويكون عدم السؤال أيضًا لمن يستحقون دخول النار بدون سؤال ولا حساب، وذلك لظهور علاماتهم وعدم الحاجة إلى سؤالهم، كما في آية سورة الرحمن (٤١) السابقة.

ثم إن خزنة جهنم تقول للظالمين وهم في هذا الموقف توبيخًا وتقريعًا: ما الذي جعلكم اليوم عاجزين عن التناصر فيما بينكم-أيها الكافرون- وقد كنتم في الدنيا تزعمون أن بعضكم يدفع عن بعض، وينصر بعضكم بعضًا؟! كما قال أبو جهل في يوم بدر: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤].، ما الذي جرى لكم فلا يغيث بعضكم بعضًا، بعدما كنتم

(١) صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (٦٦٦) ورقم (٩٤٦) وحسنه في صحيح الجامع برقم (٧١٧٦) كما صححه عن أبي برزة الأسلمي برقم (٧١٧٧) وقد أخرجه الترمذي كما في جامع الأصول (٧٩٦٩، ٧٩٧٠) وهو في صحيح سنن الترمذي (١٩٦٩، ١٩٧٠) وفي الروض النضير (٦٤٨).

(٢) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (٢٩٤٠).

تزعمون ذلك وأنتم في الدنيا؟ وآلهتكم لم تدفع عنكم شيئًا من العذاب، ولم تشفع لكم عند الله تعالى.

فما لكم لا تناصرون اليوم، وكلكم في حاجة إلى الناصر والمعين؟!

وكأنهم لا يجيبون عن هذا السؤال، لما يعلُوهم من الذل والصغار، واستسلامهم للعذاب.

وإذًا فإن هذا السؤال الذي في موقف الحساب يكون عن الصحبة والجلساء، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

ثم بيَّن سبحانه أن المكذبين بيوم الدين ليسوا بقادرين على التناصر فيما بينهم، بل هم يوم القيامة أذلاء خاضعين منقادين، لضعفهم وعجزهم؛ إذ ليس عندهم حيلة تُنقذهم من البلاء الذي هم فيه، يستوي في هذا العابد والمعبود.

تَلَاوُمُ أَهْلِ النَّارِ

٢٧، ٢٨- ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾

وبعد استسلام الظالمين لأمر الله تعالى، ووقوفهم أذلاء صاغرين في ساحة الحشر، بعد أن جُمعوا هم وأزواجهم وشركاؤهم وهُدوا إلى صراط الجحيم، عندئذ يوجِّه بعضهم إلى بعض العتاب الأليم واللوم المرير، على ما كان منهم في الدنيا، فيتخاصمون في عرصات القيامة، وفي دركات النار، حيث يُلقي كلٌّ من التابعين والمتبوعين باللائمة على الآخر، فيقول الضِّعَافُ للسادة: لقد كنتم تدعوننا بالقوة والغلبة إلى الباطل فتضلونا، ولولا أنتم لكنا مؤمنين، فيجيبهم السادة: بل أنتم كنتم مشركين كما كنا مشركين، فأيُّ شيء فضلكم علينا، ولأي شيء تلوموننا.

وهكذا يقول الضعفاء للأقوياء: لقد خدعتمونا بقوتكم وسلطانكم، ويقول السادة: بل أنتم كنتم أغبياء لا تبصرون الحق فتحمَّلوا مسئوليتكم معنا، إنهم يتلاومون ويتخاصمون.

وهذا العتاب يكون بين الزعماء والعامة، أو بين رؤساء الكفر ومن اتبعوهم، ويسميهم القرآن غالبًا: الضعفاء والمستكبرون.

١- وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ

بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾[سبأ: ٣١].

٢- وقوله سبحانه: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر].

٣- وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾ [ص].

٤- وقوله أيضًا: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: ٢١].

وفي هذه السورة يقول الأتباع للمتبوعين؛ أو الضعفاء للزعماء: إنكم كنتم تأتوننا من قِبَل الدِّين والحق، بطريق الوسوسة عن يميننا، فتخدعوننا وتزينون لنا الباطل، وتوهموننا أن هذا هو الحق، فتهوِّنون علينا أمر الشريعة، وتنفِّروننا منها، وتحسِّنون لنا الباطل، فتردُّوننا عن الإسلام، وتحُولُون بيننا وبينه، وتصدُّوننا عن اتباع الحق، وكنتم في الدنيا تُقسِمُون لنا أن باطلكم هو الحق، وتهدِّدوننا بالقتل والطرد والرجم إن اتبعنا محمدًا ﷺ.

ويتجه المفسرون في معنى كلمة اليمين التي في الآية على **ثلاثة أقوال:**

الأول: أن المراد باليمين: الحَلِف، والأيمان المغلظة أو الموثقة، حيث أقسمتم لنا أنكم على حق فصدقناكم واتبعناكم.

الثاني: أن المراد باليمين: القوة والغلبة، والشدة والبطش، بمعنى: فكنتم تجبروننا على اتباعكم؛ لأنكم أقوياء ونحن ضعفاء، وهذا مروي عن ابن عباس والفراء.

الثالث: أن المراد باليمين: اليُمْن، وَجِهَة الخير، بمعنى: فكنتم توهموننا أنكم على حق، فتخدعوننا باتباعكم زعمًا منكم أنكم على خير.

والعرب تضيف الخير إلى جهة اليمين وتتفاءل به، وتترقب مجيء الشر من جهة الشمال، وتتشاءم به، فيكون إغواؤهم لهم بتحسين الباطل، وتزيينه، وخداعهم، والتمويه

عليهم، بإظهار أن هذا هو الحق والصواب، فيأتون لهم من طريق النزوات والشبهات والشهوات، ويقْطَعون عنهم طريق الخير وإعمال الفكر، وهذا عن الزجّاج والجبّائي.

والآية تتسع لهذه المعاني -كما سبق في بيان معنى الأتباع والمتبوعين- فالأقوياء حسَّنوا الباطل للضعفاء، وأقسموا لهم أنه الحق، وهدَّدوهم إن هم خالفوهم في ذلك.

ثم إن الرؤساء يردون على المرؤوسين **بثلاثة أجوبة**:

٢٩، ٣٠- ﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾

الجواب الأول: قال المتبوعون للتابعين، أو الأقوياء للضعفاء: ليس الأمر كما تزعمون، فنحن لم نتسبب في كفركم في الدنيا، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان بالله واليوم الآخر، وكانت قابلة للكفر والعصيان، فنحن لم نحْمِلْكم على الضلال، ولم نمنعكم من الإيمان، بل كفرتم باختياركم، وكان ذلك نابعًا منكم، فأنتم لم تكونوا على حق حتى نُضِلَّكم، بل كنتم على الكفر، ولم نتسبب لكم في ذلك، وهذا معنى ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾.

الجواب الثاني: أنه لم يكن لنا عليكم حجة واضحة، نَصْرِفُكُم بها عن الإيمان بالله، ولم نستعمل معكم البطش والقوة التي تقهركم وتُجبركم على الكفر والضلال، ونُكْرِهُكم بها على رفض الإيمان، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾.

والسلطان يراد به: الحجة والبرهان، ويراد به أيضًا: القهر والغلبة.

الجواب الثالث: إن المتبوعين أكدوا للتابعين أنهم لم يكن لهم عليهم سلطان، بل أنتم أيها التابعون الذين رضيتم بالكفر عن اختيار واقتناع منكم وهذا معنى ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي: بل أنتم الذين أبيتم قبول الإيمان متجاوزين الحق إلى الضلال، من تلقاء أنفسكم، فأنتم فيكم فُجور وطغيان، واستعداد للكفر، فلذلك استجبتم لنا واتبعتمونا.

وفي هذا الجواب إضراب عن الجوابين قبله، وبيان أن الطغيان هو السبب المانع لهم من الإيمان، ولذا وجب عليهم العذاب، وحقت عليهم كلمة الله:

٣١، ٣٢- ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾

أي: أن كلًّا منًّا لقي مصيره واستحق العذاب جزاء كفره وشركه بالله تعالى، وذلك أنه

لما اعترف رؤساء الكفر بأنهم لم يكونوا مؤمنين أصلًا، وأنهم كانوا مشتركين مع غيرهم في الضلال، قالوا: لقد وجب علينا جميعًا وعيد الله لنا بالعذاب بقوله سبحانه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

فإنا -أي التابعين والمتبوعين- ذائقو هذا العذاب لا محالة، فهو جزاء كُفْرنا وشِرْكِنا، يستوي في ذلك الضال والمضل، فالجميع في النار ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر].

وبهذا تم الاعتراف الأخير في قول السادة للضعاف: إنا دعوناكم للضلال فأجبتمونا ولم نجبركم على ذلك، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم.

وبهذا يواصل زعماء الكفر اعترافهم، فأقروا بأنهم أضلُّوا الضعفاء عن سبيل الله والإيمان به، وزينوا لهم الباطل، ودعُوهم للغواية والضلالة دعوة غير مُلْجِئة، قالوا: فاستجبتم لنا باختياركم الغيَّ على الرشد ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ أي أضللناكم عن الهدى ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ أي: كنا قبلكم على ضلال، فهلكْنا بسبب كُفْرنا وأهلكناكم معنا.

حُكمُ اللهِ العَادِلُ فِي الجَمِيعِ

٣٣، ٣٤- ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾

وكما اشترك الأتباع والمتبوعون وهم في الدنيا، في الغواية والضلالة والمعاصي، فأشركوا بالله وكفروا باليوم الآخر، ولم يصدقوا رسول الله ﷺ فيما جاءهم به، فإنهم يشتركون يوم القيامة جميعًا في حلول العذاب بهم، كما كانوا في الدنيا مشتركين في الغواية، واشتراكهم في العذاب لا يفيدهم شيئًا، ولا يخفف عنهم العذاب يومًا.

قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الزخرف].

وهذا هو مصير كل مجرم مشرك بالله تعالى ممن اختار وهو في الدنيا طريق الغي والضلال فنذيقهم يوم القيامة من العذاب الأليم.

سَبَبُ سُوءِ المَصِيرِ

٣٥، ٣٦- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا[1] لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه السبب الذي أدى بهم إلى سوء المصير، وهو استكبارهم على التوحيد في الدنيا، واستكبارهم عن قبول النصيحة، فكانوا يعرضون عنها ويصرون على الكفر وجحود الحق، ولا ينطقون بكلمة التوحيد، فقد بلغ إجرامهم الغاية، وجاوز النهاية.

وقد أُمر النبي ﷺ أن يقاتل المشركين من الناس حتى يقولوها[2].

وكانوا يقولون عندما يُدْعون إلى التوحيد والإيمان: أنترك عبادة ما نحن عليه مما ورثناه عن آبائنا وأجدادنا من عقائد وأقوال وأفعال، ونتَّبع ما جاء به هذا الشاعر المجنون، مِنْ جعْل الآلهة إلهًا واحدًا؟! ويَعْنُون بهذين الوصفيْن رسول الله ﷺ، وبهذا فإن المشركين جمعوا بين إنكار الوحدانية، وإنكار الرسالة، وخلَطُوا في وصفهم لرسول الله ﷺ بين الشعر والجنون.

والشاعر: هو الذي يصوغ المعاني في قوالب ألفاظ بديعة، فَيَنْظِمُها أبياتًا من الشعر.

والمجنون: هو الذي يهذي ويتخبط، وليس عنده شيء من حُسْن الفهم ولا دقة التعبير، وبين الوصفين تناقض وتضاد، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾[الذاريات].

وقال سبحانه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾[فصلت: ٤٣].

تَصْدِيقُ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ

٣٧- ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾

(١) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية مع الإدخال في (أئنا) وقرأ ورش وابن كثير ورويس بالتسهيل مع عدم الإدخال، وقرأ هشام بالتحقيق مع الإدخال وعدمه، وقرأ الباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال ومثلها (أئنك) في الآية الثانية والخمسين، إلا أن هشامًا ليس له فيها إلا الإدخال.

(٢) كما في حديث مسلم عن أبي هريرة برقم (٢١) في الصحيح.

قال تعالى في الرد على المكذبين الذين وَصَفوا رسول الله ﷺ بأنه شاعر مجنون: ليس الأمر كما تفترون، فقد كذبتم فيما وصفْتم به رسول الله ﷺ بأنه شاعر مجنون، لأنه جاء بالحق الأبلج الذي أتى به المرسلون قبله، من التوحيد ودين الإسلام، فكان مصدقًا لهم في الدعوة إلى الله تعالى، فكيف تزعمون أنه شاعر مجنون؟! وأنتم تعلمون أنه ليس بشاعر ولا مجنون، ولهذا فإن الله تعالى نقض قولهم في قوله ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي أن مجيئه حق، وما جاء به من الكتاب والسنة حق.

وفي هذا مبادرة من الله تعالى لتنزيه رسوله ﷺ عما قالوه؛ لتنفير الناس مِنَ اتباعه، وتقرير ما جاءت به الشرائع السابقة، مما أقره الإسلام، فهو تصديق له ومصادقة عليه، وهو معجزة لكل رسول قبله، لأنهم أخبروا به وبشروا ببعثته، وأخذ الله على الرسل العهد والميثاق، لئن جاءهم محمد ليؤمنن به ولينصرُنّه، وأخذواهم هذا العهد على أممهم، فلما جاءهم محمد ﷺ بيّن صدق الرسل فيما أخبروا به وتكذيب مَنْ خالفهم.

وقد صدّق محمد المرسلين، بأنْ جاء بما جاؤوا به، ودعا إلى ما دعوْا إليه، وأخبر بصحة رسالتهم ونبوّتهم وشرعهم.

وفي هذه الآية احتجاج على الكفار بالدليل النقلي، وهو كون الرسول ﷺ جاءهم بالتوحيد الذي دعت إليه الرسل قبله، بعد أن احتج عليهم بالأدلة العقلية في الآيات قبلها.

تَقْرِيرُ الْجَزَاءِ الْعَادِلِ لِلْمُكَذِّبِينَ بَخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ

٣٨، ٣٩- ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾

ومن كلام الله تعالى الموجه إلى المشركين يوم لقائه، تقرير مصيرهم المحتوم في قوله: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون المكذبون، لمعذَّبون في النار أشد العذاب، بسبب كفركم بالله، وتكذيبكم لرسول الله، وهو عذاب مخزٍ موجع، يجعلكم في حُزن دائم، ولما قالوا: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ ردّ الله علهيم في هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ وهذا خبر صادر عن رب العالمين، لا يحتمل إلا الصدق واليقين، وقولهم السابق يحتمل الصدق والكذب.

أي وأنتم -أيها المكذبون - لا تعاقَبون بهذا العقاب، إلا بسبب أقوالكم وأعمالكم

القبيحة في الدنيا، كتمجيد آلهتكم ودعائها وتكذيب الرسول ﷺ، وإيذاء المؤمنين، وقولكم: الأصنام شفعاؤنا عند الله، وقولكم: الملائكة بنات الله، ووأد البنات، والزنى، وشرب الخمر، ونحو ذلك.

فلا تعذبون إلا بمقدار عَمَلِكُم دون زيادة عليه، فإن الله تعالى يَجزي على الشر بمثله، وأما الخير فإنه يكون أضعافًا مضاعفة، وإذا زاد الكافر فوق كفره أعمالًا أخرى، كإيذاء المسلمين، أو الاعتداء على أرواحهم، أو على ممتلكاتهم، أو حالَ بين الناس وبين قبول الإسلام ونحو ذلك، فإن الله تعالى يزيدهم عذابًا فوق عذابهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل].

وفي هذا بيان لسوء عاقبة الكافرين وإعراضهم عن الحق، واستكبارهم عن الدخول في الإسلام، ووصْفهم للرسول ﷺ بما هو منه بريء.

ولما كان الخطاب في هذه الآية عامًّا والمراد به المكذبون والمشركون، استثنى سبحانه المؤمنين في الآية التالية، فبيّن فيها أنهم ناجون من العذاب الأليم يوم لقاء الله:

مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِلمُخْلِصِينَ المُوَحِّدِينَ مِنَ النَّعِيمِ المُقِيم

٤٠-٤٢- ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ[١] ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾

استثنى الله سبحانه ممن يشتركون في العذاب يوم القيامة، من الذين يذوقون العذاب الأليم، عباده الموحدين المخلصين له في الطاعة والعبادة، الذين أخلصهم الله له، واختصهم برحمته، فإنهم ناجون من العذاب الأليم، لا يذوقون العذاب، ولا يناقَشون الحساب، بل يتجاوز الله سبحانه عن سيئاتهم، ويجازيهم الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، لأنهم أخلصوا أعمالهم لله، فأخلصهم الله إليه.

وهذا استثناء منقطع بمعنى الاستدراك، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المدثر].

(١) قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف، بفتح لام (المخلصين)، والباقون بكسرها، والمخلَص بفتح اللام هو من أخلصه الله إليه، وبكسر اللام هو الذي أخلص لله تعالى، ومثله في الآية الرابعة والسبعين.

ومثله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين].

سِتَّةُ أَوْصَافٍ مِنْ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ

وبعد أن بيَّن القرآن مصير الأشرار، ذكَر مصير الأخيار، فأخبر سبحانه عن جزاء عباد الله الموحدين في الآخرة، في مقابلة عقاب المجرمين السابق، فتناولت الآيات التالية، ستة مما أنعم الله به في الجنة على عباده المخلصين، منها: وصْفُ طعام أهل الجنة، وَوَصْفُ مجالسهم، وَوَصْفُ شرابهم، ثم وَصْفُ زوجاتهم في الجنة، فهذه جملة أوصاف لهم:

الوَصْفُ الأول: وصف طعامهم

فقد قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: الذين أخلصهم الله إليه، وأخلصوا له التوحيد ﴿لَهُمْ﴾ في الجنة ﴿رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ دائم لا ينقطع، يأتيهم بكرة وعشيًّا، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢].

والرزق: هو الطعام، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧].

وقال سبحانه على لسان يوسف ﷺ: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٣٧].

والرزق المعلوم: هو الذي لا يتخلف عن ميعاده، ولا ينتظره أهله، ولهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فهو رزق غير مجهول، لا يُجهل أمره، ولا يُبلَغ كنهه.

ورزق الجنة هذا، معلوم الصفة والخصائص: من طيب الرائحة، ولذة الطعم، وحُسن المنظر، وحلاوة النكهة، وهو عطاء وفضل من الله تعالى غير مقطوع ولا ممنوع.

وقد بيَّن الله سبحانه أن طعام أهل الجنة الذي يرزقهم الله إياه فيها، إنما يكون من جميع أنواع الفواكهة التي تتفكه بها النفس على سبيل التفكُّه والتلذُّذ -سواء أكان فاكهة، أو لحمًا، أو غير ذلك- فكل ما يأكله أهل الجنة يكون من باب التنعُّم والتلذُّذ؛ لأنهم في غنى عن القوت الذي يحفظون به حياتهم، فلا يأكلون من أجل الشبع، وهم مستغنون عن

حفظ الصحة بالغذاء؛ لأن أجسادهم خُلِقت في الآخرة للأبد، ثم إنهم لا يتبوَّلون ولا يتغوَّطون ولا يتمخَّطون، وعرقُهم كرشْح المسك.

وهذا النعيم الذي أعده الله لهم يكون مصحوبًا بالإكرام والحفاوة والتعظيم ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ٤٢﴾ أي: أن رزق أهل الجنة فواكه متعددة ومتنوعة، وهم مكرمون بكرامة الله لهم، غير مهانين ولا محتقرين، قد أكرم بعضهم بعضًا، وأكرمتهم الملائكة، فهم يدخلون عليهم من كل باب، يسلمون عليهم، ويهنئونهم ببلوغ هذا النعيم المقيم، للقلوب والأرواح والأبدان، ومن كرامتهم عند الله تعالى، أنهم يُخدَمون ويُنعَّمون بما يشتهون، ثوابًا من الله تعالى وفضلًا منه وكرمًا.

الوَصْفُ الثَّانِي: مُسْتَقَرُّ المُوَحِّدِينَ وَدَارُ إِقَامَتِهِمْ فِي الآخِرَةِ

٤٣، ٤٤- ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٤٣ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾

وصف الله سبحانه في هذه الآية مساكن المخلصين من أهل التوحيد في الجنة، فبيَّن تعالى أن الجنة هي مسكنهم ودار إقامتهم، فهم في رياض وبساتين وقصور، وصحة وشباب، ونعيم دائم لا يحول ولا يزول، وذلك لما جمعتْه الجنة مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولأنها قد سلمت من جميع المكدرات والمنغصات.

الوَصْفُ الثالث: صفة جلوسهم في الجنة

فإن من كرامتهم عند ربهم أنهم يجلسون في الجنة ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ﴾ في مواجهة بعضهم تواصُلًا وتحابُبًا، لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض؛ وهذا من كرامتهم عند ربهم، وكرامة بعضهم على بعض، فإن مقابلة الوجوه، تدل على مقابلة القلوب، وتأدب بعضهم مع بعض، كما تدل على كمال المحبة والمؤانسة، لأن التقابل أتم للسرور وآنس، حيث ينظر بعضهم إلى بعض، فيسعد الحبيب برؤية حبيبه، ويأنس الصديق برؤية صديقه.

والسرر التي يتكئون عليها، هي مجالس مرتفعة مزينة بأنواع الأكسية الفاخرة المزخرفة المجمّلة، ومن ذلك أنها تكون مرصَّعة بالدر واللؤلؤ والياقوت، يتكئون عليها على وجه الراحة والطمأنينة والفرح والأنس والبهجة والسرور.

ويكون هذا الجلوس على قدر طبقات ومراتب أهل الجنة، ويرتفع الابن إذا كان من أهل الجنة، وهو في جنة أدنى من جنة أبيه، يرتفع من الدرجة الأدنى إلى الدرجة الأعلى، حتى يكون الابن بصحبة أبيه، والزوج بصحبة زوجه، وهكذا كما قال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس].

وقال أيضًا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور].

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: خَمْرُ الْجَنَّةِ وَصِفَاتُهَا الْأَرْبَعُ

٤٥-٤٧- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ[1]﴾

وبعد أن ذكر الله سبحانه طعام أهل الجنة، ذكر شرابهم فيها، فبيَّن سبحانه أنه يُدار عليهم وهم في مجالسهم في الجنة، بكئوس خمر من أنهار جارية، خارجة من عيون الجنة، فخمر الجنة يجري كالماء النابع، يرونها بأعينهم، قريبة منهم، يطوف على أهل الجنة، ولدان مخلدون فيها، قد أعدهم الله للخدمة والمؤانسة، كما قال تعالى ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الطور].

وقال ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة] وقال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإنسان].

وقال: يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزخرف].

وكل إناء فيه شراب يسمَّى كأسًا، فإن لم يكن فيه شراب فهو إناء أو قَدَح.

وكل كأس في القرآن فهي الخمر، كما أن الشراب ذاته يسمَّى كأسًا، فيقال: شربتُ كأس ماء، ونحو ذلك.

والمعين: هو النهر الجاري على وجه الأرض، الظاهر للعيون، وهو لا ينقطع ولا يفْرغ.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بالبناء للمعلوم في (ينزفون) مضارع أنزف بمعنى: ذهب عقله من السكر، والباقون بالبناء للمجهول مضارع نزف بمعنى: سكر وذهب عقله.

ثم وصف الله تعالى هذه الخمر **بأربعة أوصاف،** فهي:

١- بيضاء اللون. ٢- لذيذة الطعم. ٣- لا تُسْكِر ولا تُفقد الوعي

٤- وهي تجري من عيون في الجنة لا تنفد ولا تنتهي

وهكذا وصف الله تعالى خمر الآخرة بأنها بيضاء اللون، لذيذة الطعم، فخمر الجنة أشد بياضًا من اللبن، وفي طعمها لذة للشاربين، يتلذذ شاربها وقت شُربها وبعده:

روى مالك عن زيد بن أسلم قال: لونها مشرق حسن. فهي ليست كخمر الدنيا في منظرها الرديء، من حُمرة أو سواد، بل هي ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾ صفتان لها، فهي: بيضاء اللون، لذيذة الطعم والرائحة عند الشاربين.

وليس في خمر الجنة ما يغتال العقول فيُسْكِرها، ولا ما يَضُر بالجسم فيفسده، فهي لا تؤذي الجسم ولا العقل ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ أي: ليس فيها ما يعتري شارب خمر الدنيا من الصداع والألم، وفقْد الوعي الذي هو فَرْقُ الإنسان من الحيوان، فهي سالمة من غول العقل وذهابه ونزفه، وهي سالمة من نزف المال.

يقال: غاله واغتاله، إذا قُضي عليه بغتة، وأخذه من حيث لا يشعر، أي: أخذه غيلة.

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ أي: أنها لا تُمنع عنهم ولا تنقطع أو تنتهي، إنهم في متاع دائم ولذة مستمرة، دون صداع ولا كدر.

فالغول: هو اغتيال العقل وذهابه، **والنزْفُ:** هو عدم نفاد الشراب، يقال: نزف ماء البئر، إذا نزحه ولم يُبقِ منه شيئًا، أي: نزحه شيئًا فشيئًا إلى نهايته.

قال ابن كثير: نزَّه سبحانه خمر الجنة عن الآفات التي هي في خمر الدنيا، من صداع الرأس، ووجع البطن، وذهاب العقل[1].

فخمر الجنة، طعمها طيب، كلوْنها، وتلك أجمل أوصاف الخمر التي تحقق لذة الشراب، وتنفي أكداره وأضراره، فلا ضُرَّ يصدع الرؤوس، ولا سُكْرَ ولا عربدةَ تُذهب لذة الاستمتاع، كما هي حال خمر الدنيا.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٣).

قال الضحاك عن ابن عباس ﷺ: في الخمر أربع خصال: السُّكْر، والصداع، والقيء، والبول، فنزَّه الله خمر الجنة عن هذه الخصال[1].

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: الْحُورُ الْعِينُ وَصِفَاتُهُنَّ الثَّلَاثُ

٤٨، ٤٩- ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾

وصف الله تعالى أزواج أهل الجنة من الحور العين بثلاثة أوصاف، فهن:

١- قاصرات الطرف. ٢- واسعات العيون. ٣- بيض البشرة

أي وعند أهل الجنة، حور حسان، كاملات الأوصاف، قاصرات الطرف على أزواجهن، لعفَّتهن، فهنَّ لا ينظرْن إلى غيرهم، ولا يرغبْن في غيرهم، كما أن زوجها قد قصر طرفه عليها لكمالها وجمالها، وتودّدها وتحبُّبِها إليه، وهذا يدل على جمال الرجال والنساء في الجنة، ومحبة بعضهم لبعض، وشدة عفتهم، وعدم التطلع إلى الآخرين، فكلٌّ سعيدٌ بما عنده، متعفّفٌ عما سواه، مكتفٍ بما عنده، قرير العين، سليم السريرة، صافي النفس.

وهكذا أهل الجنة عندهم في مجالسهم نساء عفيفات، لا ينظرن إلى غير أزواجهن، حسان الأعين واسعات، مع الحسن والجمال، وهن مع حسنهن وجمالهن لا ينظرْن إلى غير أزواجهن، فيهن حياء وعفة، لا تمتد أبصارهن لغير أزواجهن لشدة محبتهن لهم، وهن أيضًا محبوسات في مساكنهن، لا يخرجْن منها، كما قال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ [الرحمن].

وقال أيضًا: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ [الرحمن].

فهن قاصرات الطرف، أي: محبوسات في رؤيا العين على أزواجهن، فلا يريْن غيره، وهن أيضًا مقصورات في الخيام لا يخرجن منها.

والإسلام يكرهُ المرأة الولّاجة الخرّاجة، أي: كثيرة الدخول والخروج.

وفي هذين الوصفين: سعادة الأسرة، وصيانة المجتمع، وتجنُّب كثرة الطلاق، وتشريد

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه، «الدر المنثور» (١٢/ ٤٠٢).

الأبناء، وجرائم الزنى، وفساد الأخلاق.

ثم بيَّن سبحانه أن نساء الجنة إلى جوار رقَّتهن ونُعومتهن ولُطفهن فإنهن مصونات عن الابتذال، فلا تمتد إليهن الأيدي ولا العيون، فهن كالبيض المصون الذي لم تمسه الأيدي ولم تره الأعين.

والبيض المكنون: هو بيض النعام الذي أخفاه الريش في العش، فلم تمسَّه الأيدي، ولم يُصبْه الغُبار.

وبيض النعام في بياضه وصفائه يخالطه شيء من الصفرة، وهو لون محبوب في النساء عند العرب.

وهكذا نساء أهل الجنة في صفاء البشرة ونقاء الجسد، وحُسنهن وبهائهن.

قال ابن عباس ﷺ: كأنهن اللؤلؤ المكنون في أصدافه، واستشهد بقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [الواقعة].

والغرض أنهن مع هذا الجمال الباهر مصونات كالدر في أصدافه، مع رقةٍ ولُطفٍ ونعومةٍ.

وهكذا وصف الله تعالى الحور العين في الآية **بثلاث صفات**:

الأولى: أنهن قاصرات الطرف، أي: أن عيونهن قاصرات على أزواجهن لا ينظرْن إلى غيرهم لشدة اقتناعهن واكتفائهن بهم.

الثانية: أنهن عِين، أي: واسعاتُ دائرةِ العين، وهي صفة للمرأة النَّجْلاء العيْناء.

الثالثة: أنهن بيض بياضًا مُشربًا بصُفرة؛ لأن هذا هو لون بيض النعام الذي شبههن الله به، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾ [الرحمن].

جاء في الأثر: أن أم سلمة ﵂ قالت: يا رسول الله، أخبرني عن قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ قال: «**رقَّتهنَّ كرقَّة الجلدة التي رأيتها في داخل البيضة التي تلي القشرة**»[1].

---

(١) «تفسير الطبري» (٣٧/٢٣) ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٦/٢٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١٩/٧): فيه سليمان بن أبي كريمة، ضعَّفه أبو حاتم وابن عدي.

وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا أول الناس خروجًا إذا بُعثوا، وأنا خطيبهم إذا وَفَدوا، وأنا مبشرهم إذا حزنوا، وأنا شفيعهم إذا حُبسوا، لواء أهل الجنة يومئذ بيديَّ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ﷺ ولا فخر، يطوف عليَّ ألفا خادم، كأنهن البيض المكنون، أو اللؤلؤ المكنون**»(١).

ففي هذه الآيات [٤٠-٤٩] وصف الله عباده المخلصين بأنهم: مكرمون في الملأ الأعلى، وأن طعامهم فواكه، وأنهم على سرر متقابلين، مخدومون لا يبذلون شيئًا من الجهد، في راحة ورضوان ونعيم، يتفكَّهون بخمر الآخرة، في سعادة غامرة مع أزواجهن من الحور العين، في وفاق ووئام دون تخاصم ولا تنازع.

قال أبو حيان: ذكر تعالى في هذه الآيات:

أوَّلًا: الرزق، وهو ما تتلذذ به الأجسام.

وثانيًا: الإكرام، وهو ما تتلذذ به النفوس، ثم ذكر المحلَّ، وهو جنات النعيم، ثم لذة الاجتماع ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ وهو أتم للسرور والأُنس، ثم ذكر المشروب وهو الخمر التي تدار عليهم بالكؤوس، ولا يتناولونها بأنفسهم، ثم ختم باللذة الجسدية -أبلغ الملاذ- وهي التآنس بالنساء(٢).

الْوَصْفُ السَّادِسُ: تَجَاذُبُ أَطْرَافِ الْحَدِيثِ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ

٥٠، ٥١ - ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾

ثم أخبر سبحانه عما يتحدث به أهل الجنة فيما بينهم للأُنس والسرور، وهم على موائد الشرب يتلذذون بكل مُمْتع، ويُنعَّمون بتجاذب أطراف الحديث، فيتذاكرون الماضي والحاضر، ويسأل بعضهم بعضًا عن أحوالهم في الدنيا، وما كانوا يُعانون فيها، وما أنعم الله به عليهم في الجنة، وهذا من تمام الأنس، إذ إن الناس في الآخرة يعودون بذاكرتهم إلى ما كانوا عليه في الدنيا، مما مرت به من الخواطر السيئة والأكدار النفسية، وغيرها

(١) رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٣٨٣).

(٢) «تفسير البحر المحيط» (٧/ ٣٥٩).

من حسن الأحوال ومجالسة الأصحاب، وسائر الذكريات، ويكون ذلك بعد ما استشعروا وتذوَّقوا لذة النعيم الذي هم فيه، جزاءَ إيمانهم وإخلاصهم.

وقد حُذف المتسائل في الآية لدلالة ما بعده عليه، كما في قوله تعالى: ﴿فِى جَنَّـٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المدثر].

على أن المقام مقام لذة وسرور، وأهل الجنة يتساءلون عما يتلذذون بالحديث عنه من المسائل التي وقع فيها نزاع وإشكال في الدنيا، كي تنكشف لهم الحقائق التي لم يعرفوها في الدنيا.

وبينما هم في الجنة وإذا أحدهم يستعيد ماضيه، ويقصُّ على إخوانه طرفًا مما وقع له في الدنيا، حيث تذكَّر صديقًا له، كان يجادله وهو في الدنيا في أمر البعث والحساب والجزاء، فيحمد الله تعالى أن هداه لعدم الإصغاء إليه، فأقبل على جلسائه يحدثهم بهذه القصة، ويُريهم صديقه هذا وهو في وسط النار ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ لقد كان لي في الدنيا صديق ملازم لي، يُنكر البعث:

قيل: هما أصحاب قصة سورة الكهف [٣٢-٤٣] التي جاءت في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾.

فقد ورد عن عطاء الخراساني: أنها نزلت في أخوين: مؤمن وكافر، كانا غنيَّين، وكان المؤمن ينفق ماله في الصدقات، وكان الكافر ينفق ماله في اللذات[١].

وقيل: إنهما شريكان كان لهما ثمانية آلاف دينار، فكان أحدهما عابدًا ناسكًا مقبلًا على الله، مقصِّرًا في تجارته، وكان الآخر مقبلًا على الدنيا منمِّيًا أمواله، وكلما اشترى بستانًا أو دارًا أو جارية ونحو ذلك، يفتخر على المؤمن بكثرة ماله، وكان المؤمن كلما سمع ذلك تصدَّق بمثله في سبيل الله، يشتري به قصرًا في الجنة، فإذا سأله الكافر عن ماله ماذا صنع فيه؟ قال له: تصدقتُ به لله، فكان يسخر منه، و ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾ فقص الله خبرهما في كتابه[٢].

وقد كان الرجل مسلمًا، وصاحبه كافرًا يجادله في الإسلام ويحاول تشكيكه فيه رجاء

---

(١) «التحرير والتنوير» (١١٩/١١) و«تفسير عبد الرزاق» (٤٩/٢).

(٢) يُنظَر: «تفسير الطبري» (٣٨/٢٣) و«تفسير ابن كثير» للآية (١٧/٧).

أن يعود إلى الكفر.

وهذا منظر مألوف متكرر في دنيا الناس، يحاول كل صديق أن يجر صديقه إلى مذهبه، فإذا لم يكن المؤمن قويًّا في إيمانه انزلق وضاع.

والقرين قد يكون من الجن، فيوسوس في النفس، كما قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ [الناس].

وقد يكون القرين من الإنس -وهو الأرجح هنا- فيقول كلامًا تسمعه الأذن، كما قال تعالى: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

ويمضي الكافر في إغواء المؤمن وهما في الدنيا:

٥٢، ٥٣- ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَءِذَا مِتْنَا[1] وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾

أي: أن هذا القرين كان يقول لصاحبه في الدنيا: أتُصدِّق يا صاحبي أن هناك بعثًا وحسابًا، وثوابًا وعقابًا، وجنة ونارًا، أتصدق بالبعث والجزاء؟ هذا أمر في غاية الغرابة والبُعد! فهل إذا متنا وانتهت حياتنا في الدنيا، وصِرْنا في القبور وتفتتت أجزاؤنا وتقطعت أوصالنا، وأصبحنا ذرَّات من التراب، وعظامًا نخرة بالية، أئنا لمحاسبون ومجزيُّون بأعمالنا وأقوالنا؟ يقول ذلك على وجه التكذيب والتعجب والاستبعاد.

ويوم الدين هو الذي يدان فيه العباد، أي: يُجزوْن فيه بأعمالهم قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾ أي: بيوم الحساب والجزاء، وقال أيضًا: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾.

وهكذا يقول صاحب الجنة لإخوانه الذين معه الذين معه في الجنة: هذه قصتي، وهذا خبَري أنا وقريني، فلم يزل هو كافرا منكرًا للبعث والنشور، ولم أزل أنا مؤمنًا مصدقًا باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء، حتى متْنا، ثم بُعثنا، فوصلت أنا إلى ما ترون من هذا النعيم الذي أخبرتْنا به الرسل، وهو لاشك قد وصل إلى العذاب الأليم:

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة وأبو جعفر ويعقوب بضم الميم من (متنا)، والباقون بكسرها.

٥٤ ، ٥٥- ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ ۝﴾

ثم إن المؤمن يعلم أن قرينه قد مات على الكفر، ويعلم أن الكافر مخلَّد في النار، وهو موقن بأن خازن النار سوف يُطْلعه -وهو في الجنة- على مثوى قرينه في النار إذا طلب ذلك؛ لأن أهل الجنة يُجابون إلى ما يطلبون، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٧] أي: يجاب لهم ما يسألون ويطلبون.

ثم إن هذا المؤمن قد تشوَّفت نفسه إلى رؤية قرينه المكذِّب بالبعث والنشور وهو في النار؛ ليحمد الله على ما هو فيه من نعمة، فعرَض على إخوانه الذين معه في الجنة أن يشاركوه في الاطلاع على مصيره بعد أن ذكر لهم قصة إنكاره للبعث، فقال لهم على سبيل الطلب والحث: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝﴾ معي على أهل النار، لنرى جميعًا حال ذلك القرين فيها؟ فهيَّا معي صاحبوني في الاطلاع على مصير هذا القرين الكافر لنزداد غبطة بما نحن فيه.

فنظَر المؤمن، وصَحْبُه الذين معه في الجنة، فأبصر صاحبه في وسط الجحيم يتلظَّى بسعيرها ولهبها ﴿فَاطَّلَعَ﴾ واطلعوا معه ﴿فَرَءَاهُ﴾ ورأوْه معه ﴿فِي سَوَآءِ﴾ أي: في وسط نار ﴿الْجَحِيمِ﴾ ويسمى الوسط سواءً؛ لاستواء المسافة بالقسمة لجميع الأطراف.

قال ابن عباس ﷺ: في الجنة كُوًى ينظر منها أهلها إلى النار.

وقال كعب الأحبار: في الجنة كُوى إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه في النار، اطلع منها فازداد شكرًا.

وقال قتادة: ذُكر لنا أنه اطلع فرأى جماجم القوم تغلي.

نعوذ بالله من النار ومن عذاب النار!

وهذه الطاقات التي تكون في الجنة ينظرون منها من عُلُوٍّ شاهق إلى دركات النار، وهي مسافة بعيدة، فلعل الله تعالى أن يجعل بصرهم نافذًا حادًّا، ولعل اطلاعهم يكون من فوق السور، أي: الأعراف المضروب بين الجنة والنار[1].

---

(١) يُنظَر: «تفسير الألوسي» (٢٣/ ٩٢).

الحِوَارُ بَيْنَ المُؤْمِنِ وَالكَافِرِ فِي الآخِرَةِ

٥٦ ، ٥٧- ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ[1] ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾

أي: أن المؤمن يخاطب قرينه الذي في النار بسبب إنكاره البعث، يخاطبه لائمًا له على حاله، وشاكرًا نعمة الله عليه أن نجاه من إضلاله وإغوائه له، قائلًا: لقد قاربتَ أن تُهلِكَني بصدِّك إيَّاي عن الإيمان - وأنا في الدنيا - لو أطعْتُك، وتدخلَني معك في النار - اليوم- بسبب إغوائك وإضلالك لي.

وفي هذا توبيخ وتأنيب لقرينه، وهو يتضمن ندامة الكافر على محاولته إغواء صديقه وإضلاله، وإيقاعه في الرَّدى، بالإلحاح عليه، وصرْفه عن الإيمان بالبعث، لشدة ما بينهما من الصحبة.

ثم قال المؤمن وهو فرِحٌ بنعمة الله تعالى عليه: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ على أن هداني للإيمان وثبَّتني عليه ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ في العذاب معك الآن، وفي هذا المصير المؤلم. قال المؤمن متهكِّمًا من إنكار صديقه الكافر للبعث وهما في الدنيا:

٥٨ ، ٥٩- ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾

ويستمر المؤمن في مخاطبته للكافر، فيحكي قوله في الدنيا من باب التهكم والسخرية موجِّهًا له الخطاب: هل لاتزال على اعتقادك بأننا لن نموت إلا موتة واحدة، وأنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء؟ ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ في الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أفتزعم أننا لا نُبعث في الآخرة، بعد الموت الذي ذقناه في الدنيا، وهو أسلوب ساخر لاذع يظهر فيه تشفِّي المؤمن من قرينه، والتحدث بنعمة الله عليه، فهو مبتهج بنعمة الله عليه بالخلود الدائم في الجنة، والسلامة من العذاب، وهو استفهام بمعنى الإثبات والتقرير.

وهذا المعنى هو الأنسب للسياق، وما بعده من كلام الله تعالى، أي: أن هاتين الآيتين من كلام المؤمن، على سبيل التلذذ بما هو فيه من نعيم، وتقرير الخلود فيه، وعدم الموت مرة أخرى، إذ لا موت آخر بعد البعث والنشور، وهذا بخلاف قوله تعالى عنهم:

---

(١) قرأ ورش بإثبات الياء وصلًا من (لتردين) ومثله يعقوب في الحالين، والباقون بالحذف.

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ﴾ فالموتتان هما العدم قبل الإيجاد، ثم الموت في نهاية العمر و﴿وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] أي: حياة الدنيا وحياة الآخرة، فهما الحياتين.

ويقال: إن هذا سؤال يصدُر من أهل الجنة للملائكة حين يُذبح الموت بين الجنة والنار، ويقال: يأهل الجنة خلود بلا موت، ويأهل النار خلود بلا موت.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يأهل الجنة، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبُّون - أي يرفعون رؤوسهم- ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: ويقال: يأهل النار، هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبُّون وينظرون ويقولون: نَعَمْ، هذا الموت، قال: فيؤمر به فيُذبح قال: ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت**» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ وأشار بيده إلى الدنيا[١].

التَّعْقِيبُ عَلَى القِصَّةِ وَبَيَانُ العِبْرَةِ المُسْتَفَادَةِ مِنْهَا

٦٠، ٦١- ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

قال تعالى معقِّبًا على هذه القصة، بعد أن ذكر نعيم أهل الجنة ووصفه بهذه الأوصاف الجميلة، ومرغِّبًا عباده في العمل لهذا النعيم الدائم الذي آل له هذا المؤمن: إن هذا النعيم الذي ناله أهل الجنة، هو الفوز العظيم الذي لا يدانيه فوز، ولا يقاربه فلاح، فيه اندفاع كل مكروه، وحصول كل مطلوب، وفيه الرضا والرضوان، ونعيم الجنات، ورؤية رب الأرض والسموات.

ولمثل هذا العطاء الجزيل، والنعيم المقيم يجب أن يعمل العاملون، ويجتهد المجتهدون، فهو النعيم الكامل، والخلود الدائم، والفوز العظيم، ولمثل هذا النعيم ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ في الدنيا ليصيروا إليه في الآخرة، فهو أحق ما يتنافس فيه المتنافسون، وأعظم ما يشمِّر له العارفون، ويجتهد في الوصول إليه المجتهدون:

عن البراء بن عازب ﷺ قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ يده في يدي، فرأى

---

(١) هذا لفظ مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٨٨) برقم (٢٨٤٩) والبخاري في صحيحه (٨/ ٣٢٥) برقم (٤٧٣٠).

جنازة، فأسرع المشي حتى أتى القبر، ثم جثا على ركبتيه، فجعل يبكي حتى بلَّ الثرى، ثم قال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾[١].

وعند ابن ماجه عن البراء قال: كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على شفير القبر، فبكى حتى بلّ الثرى، ثم قال: يا إخواني: «**لمثل هذا فأعدوا**»[٢].

وقال أنس ﷺ: دخلت مع النبي ﷺ على رجل وهو يجود بنفسه، فقال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾[٣].

الزَّقُّومُ طَعَامُ أَهْلِ النَّارِ

٦٢، ٦٣- ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾

أي أذلك النعيم الذي وصفناه لأهل الجنة خير، أم العذاب الذي يكون في الجحيم لأهل النار، ومن ذلك طعامهم فيها، فأي الطعامين أولى؟

وبضدها تتميز الأشياء؛ ليتضح الفارق الهائل بين النعيم الدائم الآمن الراضي، والمصير الآخر الذي ينتظره أهل الكفر والضلال.

والمعنى: قل -يا أيها النبي- للكفار المكذبين بالبعث والنشور في كل زمان ومكان: أهذا الذي ذكرته لكم من طعام أهل الجنة وشرابهم، ومسكنهم وراحتهم أحسن ضيافة، وخير مكانًا ومكانة، أم عذاب أهل النار؟ كما قال تعالى: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] أيهما خير وأفضل: طعام أهل الجنة من الفواكه والثمار، أم طعام أهل النار من شجرة الزقوم التي يُكْرَهون على مرارتها وتجرُّع مذاقها؟

---

(١) معنى الحديث عند أحمد (٣٠/ ٥٦٣) (١٨٦٠١)، بإسناد ضعيف لضعف الجوزجاني وباقي رجاله ثقات ورجال الشيخين (محققوه) وأخرجه ابن أبي شيبة (١٣/ ٢٢٦) وابن ماجه (٤١٩٥) والبيهقي في السنن (٣/ ٣٦٩) وفي الشعب (١٠٥٤٧).

(٢) «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٨٣)، بتحسين الألباني له وهذا لفظه، وهو في السلسلة الصحيحة (١٧٥١) وقد جاء بأطول من هذا في مسند أحمد (١٨٦٠١) وضعفه بلفظه محققو المسند لضعف محمد بن مالك الجوزجاني ففيه كلام وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، ورواه آخرون، وضعفه البوصيري في الزوائد.

(٣) أخرجه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٤١٥).

وشجرة الزقوم: هي شجرة لا وجود لها في الدنيا، وإنما يخلقها الله تعالى في النار، كما يخلق الحيَّات والعقارب وغيرهما من أصناف العذاب.

وقيل: هي شجرة سامة، موجودة في الأراضي المجدبة المجاورة للصحراء، كبلاد تهامة، ولها ورق صغير فيه لبن، وإذا مسَّت جسد أحد تورَّم ومات في الغالب(١).

والزقوم: من التزقم، وهو ابتلاع الشيء الكريه بمشقة شديدة، وفي هذا توبيخ وتقريع للكفار.

قال ابن الزِّبعْرَى لصناديد قريش: إن محمدًا يخوفنا بالزقوم، والزقوم هو الزُّبد والتَّمْر، فأدخلهم أبو جهل بيته، وقال: يا جارية، زقِّمينا، فأتتْهم بالزُّبد والتمر، فقال أبو جهل: تزقَّموا، فهذا ما يتوعَّدكُم به محمد.

وقال ابن الزِّبعْرَى: أكثر الله في بيوتكم الزَّقوم، فإن أهل اليمن يُسمُّون التمر والزُّبد بالزقوم.

وسورة الواقعة نزلت قبل سورة الصافات، وفيها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ [الواقعة: ٥١-٥٣].

و(ال) هنا للعهد، أي: الشجرة التي سبق ذكرها في سورة الواقعة، ولم يكونوا يعرفونها، حتى نزلت آية الواقعة.

وجاء مثل ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان].

قال ابن عباس ﷺ: مر أبو جهل برسول الله ﷺ وهو جالس، فلما بعُد، قال رسول الله ﷺ: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ فسمع أبو جهل، فقال: من تُوعِد يا محمد؟ قال: **«إياك»**، فقال: بم تُوعِدني؟ قال: **«أوُعِدُك بالعزيز الكريم»** فقال أبو جهل: أليس أنا العزيز الكريم، فأنزل الله ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان].

فلما بلغ أبا جهل ما نزل فيه جمع أصحابه، فأخرج إليهم زُبْدًا وتمرًا، فقال: تزقَّموا

(١) قاله قطرب وأبو حنيفة كما نقله ابن عاشور في تفسيره للآيتين (١٢٣، ١٢٤).

من هذا فوالله ما يتوعدكم محمد إلا بهذا، فأنزل الله آيات سورة الصافات: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾[١].

وقد جاء الكلام عن شجرة الزقوم مجملًا في سورة الواقعة، وفُصِّلَت أوصافها في السورتين الصافات والدخان، وهي شجرة خبيثة مذمومة، ملعونة في القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

ولما ذُكرت شجرة الزقوم في القرآن افتتن بها أهل الضلال، فأخذوا يسخرون ويتهكمون، ويقولون: إن محمدًا يزعم أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر، فأنزل الله تعالى يبيِّن أنه جعل ذِكْرها في القرآن مثيرًا لفتنة الظالمين بالتكذيب والتهكم[٢].

وقد حدث هذا لَمَّا وصف الله تعالى جهنم بأن عليها تسعة عشر، حيث قال أبو جهل لقريش: ثكلتْكم أمهاتكم، إن ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدُّهْم، أيعجز كل عشرة منكم أن يَبْطِشوا برجل منهم، فقال: أبو الأشد الجُمَحِي: أنا أكفيكم سبعة عشر، فاكفوني أنتم اثنين، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [المدثر: ٣١].

هذه فتنتهم في عدد خزنة النار من الملائكة.

أما فتنة شجرة الزقوم، فإن الكفار قالوا: كيف يخبر محمد عن النار أنها تُنبت الأشجار، وهي تأكلها وتُذهبها؟! فقولهم هذا من الفتنة؛ لأنه يزيدهم كفرًا وتكذيبًا[٣].

وهذا القول جهل منهم؛ إذ لا يستحيل على الله تعالى أن يخلق في النار شجرًا من جنسها لا تأكله النار، كما يخلق الأغلال والسلاسل. ثم ما شجرة الزقوم؟ قال تعالى:

٦٤، ٦٥- ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ﴾ نارية، من شجر النار تنبُت في قعر جهنم، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها، ومعدنها أشر المعادن وأسوؤها، وغراسها شر المغارسي.

---

(١) أخرجه ابن مَرْدُوَيْه كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٤١٦).

(٢) قاله قتادة، «تفسير الطبري» (١٩/ ٥٥٣).

(٣) نقله ابن عطية عن السُّدِّي ومجاهد (٤/ ٤٧٥).

أما ثمر شجرة الزقوم الذي يتولد عنها فهو كطلع النخلة، يخرُج منها في الأغصان والفروع، وهو يُشبه في تناهي قبحه وبشاعته وكراهيته رؤوس الشياطين، وهي أقبح ما يتصوره العقل، وأبغض شيء يتخيله الخاطر.

ورؤوس الشياطين غير معروفة، ولكن الشيطان مكروه، مستقبح في طباع الناس، فهم يعتقدون أنه شر محض، لا يخالطه مثقال ذرة من خير، ولذا شُبِّه به الزقوم، كما يقول الناس عن شخص قبيح المنظر: كأنه شيطان، أوكأن رأسه رأس شيطان.

والعرب لمَّا اعتقدوا أن (الملَك) خير مَحْض، لا يخالطه شر أبدًا، شَبَّهوا به الصورة الحسنة، كما قال تعالى على لسان النسوة في قصة يوسف ﷺ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

وقيل: إن في بادية باليمن شجرة قبيحة مُنتنة، تسمى رؤوس الشياطين، وهذه الشجرة تسمى (الأَسْتَن) بفتح الهمزة والتاء وسكون السين، وهي تشبه صورة الإنسان، وسمَّوها شجرة رؤوس الشياطين، لبشاعة منظرها[١].

ولعل هذا من باب التمثيل، فإن شجر جهنم لا ييبس ولا يتحول حطبًا، فإن كان ثمرُ هذه الشجرة، أو طلعُها بهذا القبح، فلا تسأل بعد هذا عن طعمها! ولا ما تفعل في بطون أهلها، وليس لهم عنها معدل ولا مندوحة، قال تعالى:

٦٦ - ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ[٢] مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾

أي ومع أن شجرة الزقوم منبتها وثمرها في النار، ولا يمكن بلْع شيء منها إلا بعنف وإكراه شديد، فإن أهل النار يأكلون منها حتى تمتلئ البطون، فهي طعامهم الذي أعده الله لهم في النار، إلى جوار الضريع والغسلين الذي قال الله عنه: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ [الغاشية].

---

(١) يُنظَر: «تفسير الخازن» (٤/ ١٦) و«تفسير الطاهر بن عاشور» للآية (٢٣/ ١٢٤).

(٢) قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة وضم اللام من (فمالئون) ومثله حمزة عند الوقف، ويزيد عليه التسهيل بين الهمزة والواو، والإبدال ياء خالصة، والباقون بكسر اللام وإثبات الهمزة.

وقال سبحانه: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة].

وملء البطون كناية عن كثرة الأكل، وسرعة الالتقام منها، كما يسرع من يتناول الدواء الكريه ببلْعِه، حتى لا يستقر طعمه على لسانه، وهذا غاية الذل والهوان.

جاء في الحديث عن ابن عباس ﷺ: **«فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا - لأفسدت على أهل الأرض معايشهم، فكيف بمن تكون طعامه»**(١).

وهي لا تُحرَق لأنها من نوع الجحيم.

شَرَابُ أَهْلِ النَّارِ

٦٧- ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾

وبعد أن ذكر سبحانه طعام أهل النار ذكر شرابهم، وذلك أنه بعد أن تمتلئ بطون أهل النار من طعام الزقوم يغلبهم العطش، فيتطلعون إلى الشراب البارد؛ ليطفئ لهيب بطونهم، فيكون شرابهم: خليط من ماء بالغ الحرارة، يقطِّع الأحشاء، فيُجمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم، تغليظًا لعذابهم، ولا يُسقَوْن بهذا الشوب، إلا بعد أن تمتلئ بطونهم من الزقوم، إمعانًا في تعذيبهم، قال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

وهذا الخلط أو المزج بين الطعام والشراب، يحدث أيضًا في شراب أهل الجنة، ولكنه يكون خليطًا بين الرحيق المختوم وعين التسنيم، قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين].

جاء في الأثر: أن هذا الماء الذي بلغ النهاية في الحرارة، إذا اقترب منه أهل النار شوى الوجه، ووقعت فروة الرأس، فإذا شربه قطَّع أمعاءه حتى تخرج من دبره(٢).

---

(١) من حديث ابن عباس في «سنن الترمذي» برقم (٢٥٨٥) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٠٧٠) و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٣٢٥).

(٢) المعنى من حديث أبي أمامة الباهلي في «مسند أحمد» (٥/ ٢٦٥) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٥١) من طريق عبد الله بن المبارك عن صفوان بن عمرو.

وعن سعيد بن جبير: أن أهل النار إذا جاعوا استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا منها، .. ثم يصبُّ عليهم العطش فيستغيثون، فيغاثون بماء كالمهل، فإذا أدْنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي سقطت عنها الجلود، ويُصْهر ما في بطونهم، فيمشون، تسيل أمعاؤهم وتتساقط جلودهم، ثم يُضربون بمقامع من حديد، فيسقط كل عضو على حِيَالِه، فيدْعون على أنفسهم بالثبور[1].

مُسْتَقَرُّ أَهْلِ النَّارِ ودَارُ إِقَامَتِهِمْ

٦٨- ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾

وبعد أن بيَّن سبحانه طعام أهل النار وشرابهم ذكر مسكنهم ومستقرهم، فبيَّن أن مردَّهم ومآلهم إلى عذاب النار، أي: أن أهل النار حين يعذبون بالأكل من الزقوم، والشراب من الحميم لم يفارقوا الجحيم، وأن هذا الطعام والشراب زيادة على عذاب جهنم، فليس هناك خروج من النار ثم عودة إليها، بل المراد: أنهم ينتقلون من حالة طارئة، وهي الطعام والشراب، إلى حالة أصلية مستقرة، وهي دار الخلود في دركات الجحيم، فهي المرجع والمصير والمقر الدائم في نار تتوقد وسعير يتوهج ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن].

قال ابن مسعود ﷺ: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يَقيل أهل النار في النار، وأهل الجنة في الجنة، ثم قرأ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان].

وقد عجَّل الله سبحانه في القرآن بذكر مشاهد القيامة لأهل الجنة وأهل النار، وهي من عالم الغيب؛ كي يتدبَّر الناس ذلك وهم في عالم الشهادة، فينظروا جوانب النقص والتقصير قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله، فيندمون ولات ساعة مندم، وكأن سائلًا سأل: ما الذي أوصل أهل النار إلى هذا المصير؟ فكان الجواب في الآيات التالية:

سَبَبُ عَذَابِ أَهْلِ النَّارِ

٦٩، ٧٠- ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

(١) نقله ابن كثير في تفسيره للآية عن ابن أبي حاتم (٧/ ٢١).

ثم بيَّن سبحانه سبب عذاب أهل النار، وأنه تقليد الآباء في الكفر، وعدم التأمل، وعدمُ إعمال الفكر والنظر في الأدلة النقلية والعقلية للتوصل إلى معرفة الله تعالى، والتصديق بالرسول الخاتم، والإيمان باليوم الآخر، فإنهم عطَّلوا عقولهم، ولم يلتفتوا إلى مادعتْهم إليه الرسل، ولا إلى ما حذَّرتْهم عنه الكتب، ولم يلتفتوا إلى نصح الناصحين، بل عارضوهم قائلين ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف].

واكتفوا باتباع آبائهم وأجدادهم الضالين، وظلوا أسرى البيئة أو المجتمع، فقلدوا أهل الشرك والضلال، وهذا يحدُث في كل زمان ومكان، إنهم وجدوا آباءهم ضالين فاقتفوا آثارهم تقليدًا بدون تأمل، وسارعوا في تقليدهم دون نظر ولا دراسة.

والإهراع: هو الإسراع المفرط في السيْر لترسُّم خُطى من يتبعونهم.

إن التقليد الأعمى، والسير وراء ما خلَّفه الآباء، من أعراف ومبادئ خاطئة هو سبب العذاب، فالحقيقة أن أغلب الناس يلتزمون مواريث آبائهم على ما بها من ضلال، ويهاجمون ما يخالفها من دَعَوات ونظُم، ولا يفكِّرون في موازنة بينها ولا تمحيص، وقد يقتلون مُعَارضيهم تعصُّبًا وظلمًا، أو يُنَصِّبوا أنفسهم للقضاء على أفكارهم، وهذا جهل بيِّن، فيجب على الإنسان أن يتحرر من التبعية، ويتجرد في البحث العلمي؛ ليصل إلى الحقيقة ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وبهذا تبيَّن أن ما أصاب الأمم الكافرة من عذاب في الدنيا، سببه أن آباءهم ظلوا مقيمين على الضلال، فاقتدى بهم الأبناء اقتداء أعمى، ولم يكتفوا بهذا الاقتداء، بل أسرعوا في اقتفاء آثارهم دون تدبر ولا تعقُّل، ولا دليل ولا برهان، كما يسير الأعمى خلف من يذهب به إلى الهلاك، وفي هذا توبيخ شديد لهم.

أَهْلُ الضَّلَالِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ عَاقِبَتُهُمْ وَخِيمَةٌ

٧١-٧٤- ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾

أي: ولهؤلاء المقلدين المعاصرين للرسول ﷺ نظائر من الأمم السابقة، سبقوهم في

الضلال والتقليد الأعمى، فقد ضل عن الحق واتباع الهدى قبل قومك -يا محمد- أكثر الأمم السابقة، ولهم أيضًا نظائر في الأمم اللاحقة، فلا تغتر -أيها المخاطب- بكثرة المشركين، فإن كثرة العدد لا تبرر ضلال الضالين، ولا خطأ المخطئين.

والهدى والضلال حقيقتان ثابتتان مستقلتان لا علاقة لهما بكثرة المتبعين أو قلتهم، فلا ينبغي أن يكون هذا فتنة لضعفاء التفكير أو قليلي النظر، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

ثم بيَّن جلَّ شأنه أنه أرسل في هذه الأمم السالفة، رسلًا يحذِّرونهم ما سيحل بهم من العذاب إن هم كذَّبوا رسل الله، ويخوفونهم عاقبة أهل الكفر والشرك، ولكنهم لم يستجيبوا، فقد أرسلنا في تلك الأمم ﴿مُّنذِرِينَ﴾ من رسل الله يرشدونهم ويحذرونهم عاقبة التكذيب، ولكن هذه الأمم تمادت في الكفر والطغيان.

فانظر وتأمل كيف كانت نهاية هذه الأمم التي أُنذرت، فكفرت بالله ورسله، لقد عذبهم الله تعالى، ودمرهم عن آخرهم، وصاروا للناس عبرة على مر العصور.

وقد استثنى الله سبحانه من جملة المنذَرين، مَن صدقوا رسل الله، وأخلصوا لله الطاعة والعبادة، وهم الذين أخلصهم الله إليه، واختصهم برحمته، لصدق إيمانهم، وسلامة فطرتهم، فقد نجاهم الله بفضله ورحمته مما عذَّب به الآخرين.

فليحذر المكذبون في كل زمان ومكان أن يستمروا في ضلالهم، حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب غيرهم، وفيما يأتي نموذجًا من عواقب الأمم المكذبة لرسل الله:

قَصَصُ الْمُرْسَلِينَ فِي السُّورَةِ سَبْعٌ

ولما ذكر سبحانه أن أكثر الأولين ضلوا طريق النجاة، شرع يفصل ذلك، فذكر طرفًا من قصة ثمانية من رسل الله، هم: نوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وموسى، وهارون، وإلياس، ولوط، ويونس عليهم الصلاة والسلام، فقد كذبهم أقوامهم وآذوهم، ونصرَهم الله عليهم، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ وتثبيت لقلبه، وتبكيت لكل مشرك مكذب لخاتم الرسل ﷺ، واختيار هؤلاء الرسل وتخصيصهم بالذكر هنا:

١- لأن نوحًا ﷺ هو القدوة الأولى، وهو شيخ المرسلين، وهو من أولي العزم من الرسل، وقد تحمَّل في سبيل الله بلاء طويلًا.

٢- أما إبراهيم ﷺ فهو الذي سمانا المسلمين من قبل، وهو الذي وضع أصول الفطرة، وهو رسول الحنيفية السمحة، ونواة الشجرة الطيبة، شجرة الإسلام.

٣- أما إسماعيل ﷺ فهو جدُّ النبي الخاتم، وأصل وجود الرسالة في سلالة العرب، فمحمد ﷺ ابن الذبيحين: إسماعيل، وعبد الله.

٤، ٥- وموسى ويتْبعه هارون عليهما السلام، هو صاحب الكتاب الذي خدم هذا الدين عقيدة وشريعة، ودينًا ودولة، وفيه شِبْه من كتاب محمد ﷺ.

وهؤلاء الرسل هم أصول الرسالات، وقد تفرع منهم ثلاثة آخرون كانوا على نهجهم، وهم:

٦- لوط عليه السلام، وهو ابن أخي إبراهيم عليه السلام وهو على ملته.

٧، ٨- إلياس ويونس عليهما السلام، وهما من أنبياء بني إسرائيل، وكتابهما التوراة التي نزلت على موسى، صلوات الله وتسليماته عليهم أجمعين:

الْقِصَّةُ الأُولَى: طَرَفٌ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ عليه السلام

٧٥- ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾

وهي قصة أول رسول بدأ الشرك في عهده، وهو نبي الله نوح عليه السلام، وقد ذُكِرت جوانب من قصته في سور: الأعراف، وهود، والمؤمنون، والشعراء، والقمر، والسورة التي سميت باسمه، بالإضافة إلى إشارات في سور: يونس، والأنبياء، والذاريات.

ذُكِر نوح عليه السلام في ثلاثة وأربعين موضعًا من القرآن الكريم.

وقصة نوح عليه السلام في هذه السورةُ تبدأ من نهايتها، بعد أن ظل يدعو قومه إلى توحيد الله تعالى تسعة قرون ونصف، فلم يجد منهم إلا الصدَّ والأذى، فلما أعلمه الله تعالى أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، توجَّه إلى ربه ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ﴾ فجاءته النجدة بإجابة الدعاء في قوله تعالى: ﴿فَٱنتَصِرْ﴾[القمر: ١٠] على أحد قولين في معنى الآية.

وهكذا توجه نوح إلى ربه أيضًا ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾ [المؤمنون] فأجاب الله دعاءه وأمره بصنع سفينة النجاة ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧] فكان الهلاك بالطوفان.

وكان نوح عليه السلام قد دعا عليهم لمّا لم يستجيبوا له فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح]

وابتداء القصة، بذكر نداء نوح ربه، ليحْذَر المشركون والمكذبون للرسول الخاتم من دعائه ﷺ عليهم، فيؤمنوا به ويتبعوه:

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ﴾ أي: طلب منا أن ننصره على قومه الكافرين لما كذبوه، واستغاث بنا أن ننجيه وأهله الذين آمنوا به من الغرق، فأجبنا دعاءه بإهلاك قومه ولبَّينا طلبه.

﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ له نحن، وصيغة الجمع: للعظمة والكبرياء.

إِجَابَةُ نِدَاءِ نُوحٍ عليه السلام اشْتَمَلَتْ عَلَى سَبْعِ نِعَمٍ

النِّعْمَةُ الْأُولَى: نَجَاةُ نُوحٍ وَأَهْلِهِ مِنَ الْغَرَقِ

٧٦- ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾

فقد نجَّينا نوحًا ومن آمن به من أهله من أذى المشركين، كما نجيناهم من الغرق، وما لحق بهم من الحزن الشديد، والغم العميم، فنجاته نعمة، ونجاة أهله نعمة، وهلاك الظالمين نعمة، وقد أجاب الله نوحًا إجابة مطابقة لسؤاله: فنجاه وأهله من الكرب العظيم وأغرق جميع الكافرين، وأبقى نسله وذريته إلى يوم الدين، وجعل له ثناءً حسنًا مستمرًّا في الآخرين، وذلك لأنه كان محسنًا في عبادة الخالق، وكان محسنًا إلى خلق الله، وهذه سنة الله في المحسنين ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الآية: ٨٠]

النِّعْمَةُ الثَّانِيَةُ: عِمَارَةُ الْأَرْضِ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ عليه السلام

٧٧- ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾

أي وجعلنا ذرية نوح الذين من نسله هم الذين يبقون بعد موته، فقد أهلك الله جميع الكافرين من قومه، فلم ينجُ من الغرق إلا من نجّاه الله مع نوح في السفينة من ذريته، ثم مَنْ

تناسَل منهم، ولم يَبق من أبناء آدم غير ذرية نوح، فجميع الناس من نسل أبناء نوح الثلاثة: سام وحام ويافث.

قال ابن عباس ﷺ: لما خرج نوح من السفينة، مات من معه من الرجال والنساء إلا ولْدهُ ونساءه، ويبدو أن من ركب مع نوح في السفينة من غير أبنائه لم يكن لهم نسل، وكان عددهم نحو ثمانين رجلًا وامرأة مؤمنين به، حملهم نوح معه في السفينة.

والطوفان الذي أغرقهم كان قد عمَّ الأرض الآهلة بالسكان وقتئذ، فعمَّ البشر جميعًا؛ لأنهم كانوا منحصرين في البلاد التي أصابها الطوفان، وكانت هذه الأرض مساحة محدودة في العراق وما حولها، حيث غمر الطوفان بلاد ما بين النهريْن، فلا صلة للطوفان بمكة ولا بمصْر ولا بفارس، فضلًا عن أوروبا وأفريقيا وغيرهما!

وكان قوم نوح في جنوبي العراق، حول موقع الكوفة حاليًا.

جاء في الحديث المفسر لهذه الآية: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧﴾ قال: **«سام، وحام، ويافث»** وفي لفظ آخر: **«سام أبو العرب، وحام أبو الفرس، ويافث أبو الروم»**[1] والمراد بالروم: الروم الأُوَل، وهم اليونان، نسبة إلى رومي بن ليطي بن يونان بن يافث بن نوح ﷺ.

وعن سعيد بن المسيب قال: وَلَد نوح ثلاثة: سام، وحام، ويافث، وولَد كل واحد منهم ثلاثة، فولَد سام: العرب وفارس والروم واليهود والنصارى، وولَد يافث: الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج وغيرهم، وولَد حام: القبط والسودان والسند والهند والنوب والزنج والحبشة والبربر وغيرهم[2].

قال الإمام أحمد: حدّثنا رَوْح من كتابه، حدثنا سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، قال: حديث الحسن عن سَمُرة، أن رسول الله ﷺ قال: **«سامٌ أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش»** وقال رَوْح ببغداد من حفظه: (ولد نوح ثلاثة: سام، وحام، ويافث)[3].

---

(١) من حديث سمرة بن جندب في «المسند» (٥/ ٩) برقم (٢٠٠٩٩، ٢٠١٠٠) إسناده ضعيف، لأن فيه الحسن بن أبي الحسن البصري، لم يصرح بالسماع كما قال محققوه، وهو في «سنن الترمذي» برقم (٣٩٣١) وقال: هذا حديث حسن غريب، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/ ١٤٦) من حديث عمران بن حصين.

(٢) يُنظَر: البزار (٢١٨) «كشف» والخطيب (٤٣) عن أبي هريرة ويُنظَر: «فتح الباري» (١٣/ ١٠٧).

(٣) «المسند» برقم (٢٠١١٤) عن سمُرة، قال محققوه: إسناده ضعيف، وقد مرّ قريبًا.

النِّعْمَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ اللَّهَ خَلَّدَ لِنُوحٍ الذِّكْرَ الْحَسَنَ فِي الْعَالَمِينَ

٧٨- ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾

وقد خلَّد الله لنوح الذكر الحسن، والثناء الجميل فيمن جاء بعده من الناس يذكرونه به.

أي: أنعمنا على نوح عليه السلام، بأن أبقينا له السيرة العطرة في الأمم بعده إلى قيام الساعة، كما أطلنا له مدة الرسالة إلى نحو ألف سنة، وأطلنا عمره فوق ذلك، وهذا لم يحدث لغيره من الرسل، وهو فوق مألوف البشر.

وذكر ابن خلدون أن نوحًا عليه السلام كان بعد آدم بمئتي سنة، وكان يُدعَى ملك الفرس، واسمه عند بني إسرائيل يختلف[1].

النِّعْمَةُ الرَّابِعَةُ: تَحِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ وَسَلَامٌ عَطِرٌ عَلَى نُوحٍ

٧٩- ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾

ثم أثنى الله سبحانه على نبيه نوحا عليه السلام، فحيَّاهُ تحية القُرب والرضى، وجعل هذا الثناء والأمان، وهذه التحية والتكريم، بصفة دائمة في جميع الأمم والقرون، فسلام عاطر من الله تعالى ومن جميع الخلائق على نوح عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وسلام عليه يوم نجا من الغرق وأهلك الله أعداءه ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾[هود: ٤٨].

النِّعْمَةُ الْخَامِسَةُ: ثُبُوتُ وَصْفِ الْإِحْسَانِ لِنُوحٍ عليه السلام

٨٠- ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾

وهكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله، فنُبقي له الذكر الجميل والثناء العطر بين الناس إلى قيام الساعة، فالمعنى: إن مثل ذلك الجزاء نجزي المحسنين.

---

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٣/ ١٣٣).

النِّعْمَةُ السَّادِسَةُ: ثُبُوتُ وَصْفِ الْإِيمَانِ لِنُوحٍ ﷺ

٨١- ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨١﴾

وقد كان نوح مخلصًا لله في العبودية، كامل الإيمان واليقين بربه، والإيمان أرفع المنازل، لأنه يشتمل على أصول الدين وفروعه، وقد مدح الله به خواصّ خلقه.

وقد وصف الله نوحًا بالإحسان، ثم وصفه بالإيمان، وزاده بكَوْنِ السلام عليه في العالمين بين جميع الأمم، تنويهًا على علوِّ شأنه، بخلاف من ذُكِروا معه في السورة من رُسل الله: إبراهيم، وموسى، وهارون، وإلياس ﷺ، فهو أول من أوذي في الله، فصبر على ذلك أطول مدة، وكان -بهذا- المثل والقدوة لمن يأتي بعده من الرسل.

لقد كان نوح مخلصًا لله في العبودية، كامل الإيمان واليقين، وقد علَّل الله تعالى ذلك بكونه من أولي الإحسان، ثم علل كونه محسنًا بأنه كان عبدًا مؤمنًا، إظهارًا لجلالة قَدْر الإيمان وأصالة أمره، وجعْل الدنيا مملوءة من ذريته تبْقية لذكره الحسن في ألسنة العالمين[1].

النِّعْمَةُ السَّابِعَةُ: هَلَاكُ الظَّالِمِينَ

٨٢- ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝٨٢﴾

وختم الله قصة نوح بذكر العبرة مما حلَّ بقومه الذين كذبوه مع نجاته ونجاة أهله، حيث أغرقهم بالطوفان، فلم يُبقِ منهم عيْنًا تطرِف، ولا ذِكْرًا ولا أثرًا.

وهكذا جمعت هذه الآيات المتعلقة بنوح ﷺ [٧٥-٨٢] نحو عشر من النعم التي امتنَّ الله بها عليه وهي: إجابة دعائه، ونجاته ونجاة أهله من الحزن والغم، وإهلاك الظالمين، وجعل عُمران الأرض من ذريته، والثناء الحسن عليه إلى يوم الساعة، والتحية له من رب العالمين تحية دائمة، ووصْفه بالإحسان، ووصفه بالإيمان، ونجاته ونجاة أهله من الغرق الذي عم القوم.

(١) يُنظَر: «حاشية زاده على البيضاوي» (٣/ ١٥٧).

القِصَّةُ الثَّانِيَةُ: طَرَفٌ مِنْ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام

٨٣، ٨٤- ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾

وبعد أن أثنى الله تعالى على نوح عليه السلام أكد ذلك بالثناء الحسن على إبراهيم عليه السلام، وكما جمع سبحانه محامد نوح ومناقبه، جمع كذلك محامد إبراهيم ومناقبه، باعتباره من شيعة نوح، وهذا يقتضي المشاركة بينهما في الصفات، فإبراهيم من ذرية نوح، ودين نوح موافق لدين إبراهيم في محاربة الشرك وعبادة الأصنام.

وقد شايع نوحًا على دينه وملته: هود وصالح قبل إبراهيم، وتابع إبراهيم على دين التوحيد جميع المرسلين من بعده، فكلهم شيعة لنوح، وإبراهيم من المتابعين لنوح في دعوته إلى الله تعالى، والصبر على الأذى لإعلاء كلمة الله، وهكذا كل الرسل، اللاحق منهم يؤيد السابق ويناصره في دعوته، وإن اختلفت شرائعهم في التفاصيل والجزئيات.

المعنى: وإنَّ من أتباع نوح وأشياعه في منهاجه وملّته، وفي النبوة والرسالة، ودعوة الخلق إلى الله، وإجابة الدعاء: نبي الله إبراهيم، فهو من أنصاره وأعوانه، وكان بينهما نبيان هما: هود وصالح عليهما السلام، أُرسلا في جزيرة العرب بالأحقاف ومدائن صالح، وكان بين نوح وإبراهيم: ألفان وست مئة وأربعون سنة[(١)].

وجميع الرسل قبل إبراهيم كانوا من شيعة نوح، وإبراهيم من تلك الشيعة.

أي واذكر - يا رسولنا - حين جاء إبراهيم ربه بقلب بريء من كل اعتقاد باطل وخُلُق ذميم، صحيح العقيدة، خالص الإيمان، لا يشوبه شك ولا شرك، ولا شقاق ولا نفاق، ولا شهوة تمنعه من قبول الحق والعمل به، نقيٌّ من الغل والغش، والحقد والحسد، يحب للناس ما يحب لنفسه.

ومعنى أنه جاء ربه، أي: أقبل على القيام بمهام الدعوة إلى الله تعالى مخلصًا مستعدًّا لبذل النفس والروح وكل ما يملك، في طلب مرضاة الله تعالى، والقيام بواجب الدعوة إليه سبحانه.

---

(١) «تفسير البيضاوي» (٢/ ١٤١).

وإبراهيم ﷺ هو القائل: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].

وقد وصف الله تعالى إبراهيم ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود].

وسلامة القلب تجمع محامد الأعمال، وجوامع الكمال النفسي:

كما جاء في الحديث، عن النعمان بن بشير ﷺ: **«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»**[1].

وإذا كان القلب سليمًا، سلم من كل شر، وحصل له كل خير، ولهذا فإنه دعا الخلق إلى الله، وبدأ بأبيه وقومه:

إِبْرَاهِيمُ يُوَبِّخُ قَوْمَهُ عَلَى عِبَادَةِ الأَصْنَامِ

٨٥-٨٧- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

لقد كان إبراهيم ﷺ سليم القلب، نقيَّ السريرة، صادق الإيمان في كل وقت، سيما، وقت أن جادل أباه وقومه في عبادة الأصنام، منكرًا عليهم وموبِّخًا لهم وهو يقول لهم: أي شيء هذا الذي تعبدونه من دون الله؟! وما الذي تعبدونه من هذه الأوثان والأصنام؟! يقول إبراهيم لقومه: أتريدون آلهة مُتعددة تعبدونها؛ وتتركون عبادة الواحد القهار، وهو المستحق للعبادة دون سواه؟! فهو الذي خلقكم ورزقكم، إن هذا أسوأ الكذب وأبْشعه، وإنكم إن عبدتم غيره فسيحاسبكم حسابًا عسيرًا ويعذبكم عذابًا أليمًا، فما ظنكم برب العالمين ماذا يفعل بكم إن عبدتم معه غيره؟ وما ظنكم به إن جعلتم له شركاء وأندادًا؟ فاتركوا هذه الآلهة وأخلصوا العبادة لله وحده، **والإفك**: هو الافتراء وأقبح الكذب.

وأصل الكلام: أتريدون آلهة من دون الله إفكًا؟ فقُدِّم المفعول لأجله، وهو ﴿أَئِفْكًا﴾ على المفعول به، وهو ﴿آلِهَةً﴾ وأُخِّر الفعل والفاعل، وهذا لتقبيح عملِهم وبيان أنهم على باطل وكذب محض.

(١) جزء من حديث (إن الحلال بيِّن) في البخاري برقم (٥٢) ومسلم برقم (١٠٧، ١٥٩٩).

ولذا: فقد جُعلت الآلهة نفسها إفكًا من باب التشنيع عليهم وتقبيح عملهم.

ثم شرع إبراهيم في تحذير أبيه وقومه مبيِّنًا لهم سوء العاقبة إذا استمروا على ما هم فيه من عبادة غير الله تعالى، فأي شيء تظنون بربكم ورب سائر الخلق أن يصنعه بكم، إن لقيتموه وأنتم تشركون معه غيره؟! هل تظنون أن يترككم بلا عقاب؟! كيف وقد خلقكم لعبادته، ورزقكم من فضله، وأمدكم بنعمه التي لا تعد ولا تحصى، وأرسلني إليكم محذرًا وناصحًا، لا شك أنه سبحانه سيحاسبكم حسابًا عسيرًا، ويعذبكم عذابًا أليمًا، وما دام الأمر كذلك، فيجب عليكم أن تُقلعوا من فوركم عن عبادة الأصنام، وأن تخلصوا العبادة لله وحده.

وعليه فإن (مَا) من لفظ (فَمَا) تحتمل أن تكون موصولة أو مصدرية، ولم يذكر القرآن ردَّ القوم على إبراهيم حين قال لهم ذلك؛ لأن الإجابة تافهة، معلومة من السياق.

ثم يشرع سياق الآيات في تفصيل ما دبَّره إبراهيم لتلك الآلهة الباطلة.

إِبْرَاهِيمُ يَعْتَذِرُ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَ قَوْمِهِ إِلَى عِيدِهِمْ

٨٨-٩٠- ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾

أي نظر إبراهيم في النجوم نظرة المتأمل الذي يريد عذرًا يعتذر به عن الخروج مع قومه إلى عيدهم، فقال لهم: إني مريض، وهو عذر فيه تعريض، فانصرفوا عنه ذاهبين إلى أعيادهم وتركوه.

عن ابن عباس ﷺ قال: كان قوم إبراهيم يتعاطوْن علم النجوم، ويعتقدون أن لها تأثيرًا في العالم، فعاملَهم من حيث يزعمون، حتى يؤثِّر فيهم، ولا ينكرون عليه، فيقيم عليهم الحجة، ويوضِّح لهم بالبرهان أن عبادتهم باطلة ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾ أي: تطلَّع إلى السماء، وقلَّب بصره في نجومها، وهو يفكر فيما يَعْتذرُ به عن الخروج معهم إلى عيدهم.

وكانوا يخرجون في يوم (عيد النيروز) إلى الحدائق والخلَوات، وقبل خروجهم كانوا يضعون الطعام والشراب بين يدي الآلهة لتباركها، فإذا رجعوا أخذوا هذا الطعام المبارك -على حدِّ زعمهم- وكان إبراهيم قد يئس من استجابتهم لدعوته، وتأكَّد له أنهم قد

انحرفوا عن الفطرة، فانتظَر هذا اليوم الذي يعْدون فيه عن معابدهم وأصنامهم لينفِّذ ما عزم عليه، بعد أن بلغ منه الجهد أقصاه، في دعوتهم إلى توحيد الله تعالى دون جدوى، ولما قالوا له: ألَا تخرج معنا إلى عيدنا؟ ووجد أن الفرصة قد سنحت له أن يخلُوَ بالأصنام، اعتذر عن خروجه معهم بدعوى أنه مريض لا يستطيع الخروج معهم ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ أوهمهم أن النجوم تدل على أنه سيسقم غدًا -على حد زعمهم-.

وقيل: إنه خرج معهم، فلما كان في أثناء الطريق ألقى بنفسه، وقال: إني سقيم، أشْتكي رِجْلي، وقد اعتذر بهذا ليتركوه، فيخلُو ببيت الأصنام لينفِّذ حيلته فيها، ولا يجد من يمنعه من تحطيمها، ليُثْبت بالبرهان القاطع والدليل العملي المشاهَد أنها لا تملك لنفسها شيئًا، فضلًا عن غيرها، فعبادتها أو التقرب بها إلى الله تعالى وهْم وخبَل.

أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال: أرسل إليه مَلِكَهم، فقال: إن غدًا عيدنا فاخرج، قال: فنظر إلى نجم، فقال: إن هذا النجم لم يطْلُع قط إلا طلع بسقم لي ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾[1].

وقال الحسن: خرج قوم إبراهيم إلى عيد لهم، وأرادوا إبراهيم على الخروج، فاضطجع على ظهره، وقال: إني سقيم، لا أستطيع الخروج، وجعل ينظر إلى السماء، فلما خرجوا أقبل على آلهتهم فكسَّرها[2].

ولم يكن إبراهيم مريضًا في حقيقة الأمر، ولم يكذب في قوله كذبًا صريحًا، وإنما هو من المعاريض الجائزة لمقصد شرعي، كما ورد عن عمران بن الحصين: **«إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب»**[3].

وقد يكون المعنى: إني سقيم القلب، بسبب ما أنتم فيه من كفر وضلال، فإن هذا مما يُقلق ويُزعج ويُسبب سقم النفس، وأنه أخذ ينظر إلى النجوم نظرة تدبر وتأمل مستدلًّا بها على وحدانية الله تعالى.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: اثنتين**

---

(١)، (٢) «الدر المنثور» (١٢/ ٤٢٥).

(٣) من حديث عمران بن الحصين في «السنن الكبرى» للبيهقي (١٠/ ١٩٩) رُوي مرفوعًا وموقوفًا وهو الصحيح.

منهن في ذات الله ﷻ، قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] و«بينما هو ذات يوم ومعه زوجه سارة إذ أتى على جبار الجبابرة في مصر، فسأله عن سارة، فقال: هي أختي...» الحديث[١].

وكل هذا من باب المعاريض أو التألم من كفرهم، والتهكم من الملك الجبار. وقد سماه النبي كذبًا؛ لأنه جاء في صورة الكذب.

وقد أذن الله في ذلك لخليله إبراهيم للمصلحة الراجحة، كما أذن سبحانه لأيوب ﷺ أن يأخذ ضغثًا من عِصيٍّ فيضرب به زوجه ضربة واحدة تحلَّة القسم؛ إذ لم يكن في دينه الكَفَّارة المشروعة.

وإذا كان الله سبحانه قد أباح الكذب لعامة الخلق في خدعة الحرب مع العدو، وأباحه على الزوجة بما يُطيِّب خاطرها، كأن يجاملها بأنها غاية في الجمال، وهي ليست كذلك، وأباحه في الصلح بين المتخاصمين بما يطيِّب خاطر كل منهما تجاه الآخر، كأن يقول لكل منهما: إنه يحبك ويثني عليك، ولم يقل فيك كلامًا سيِّئًا، والأمر ليس كذلك.

أقول: فإن جاز هذا شرعًا؛ أفلا يجوز لخليل الرحمن أن يقول ما قال، لصالح الدعوة وإبطال الوثنية والدفع عن عرضه؟ ولسنا بحاجة إلى القول بالتأويل، مع أن إبراهيم ﷺ قد دبَّر هذه الخطة؛ ليفضح بها غَباء قومه، وخطأ زعمهم في عبادة أخشاب أو أحجار لا تملك لنفسها شيئًا.

ولما اعتذر إبراهيم عن الخروج مع قومه في يوم عيدهم، تركوه وراءهم وخرجوا إلى عيدهم فأعرضوا عنه مولِّين الأدبار.

إِبْرَاهِيمُ يُكَسِّرُ الأَصْنَامَ

٩١-٩٣- ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾

فلما ذهب القوم إلى عيدهم توجَّه إبراهيم إلى الأصنام مسرعًا ليحطمها.

قال السُّدِّي: دخل إبراهيم ﷺ إلى بيت الآلهة، فإذا هم في بهْو عظيم، وإذا بباب

---

(١) يُنظَر: «صحيح البخاري» (٣٣٥٨، ٥٠٨٤) و«صحيح مسلم» (٢٣٧١) والترمذي (٣١٦٦) و«السنن الكبرى» للنسائي (٨٣٧٤، ٨٣٧٥) و«تفسير الطبري» (٢٣/ ٤٥).

البهْو صنم عظيم إلى جنبه صنم أصغر منه، وكل صنم يلي الآخر يكون أصغر منه إلى نهاية البهْو، وإذا هُمْ قد وضعوا طعامًا بين أيدي الآلهة، حتى إذا رجعوا إليها أخذوه فأكلوه بعد مُباركةِ الآلهة له، فلما نظر إبراهيم إلى ما بين أيديهم من الطعام قال في تهكم وسخرية: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾[1].

ذلكم قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ﴾ أي: مال إبراهيم مسرعًا ﴿إِلَىٰ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ تلك الأطعمة التي قدمها لكم الجاهلون على سبيل التبرك! وقد خاطب إبراهيم الأصنام مخاطبة العقلاء؛ لأن قومه أنزلوها هذه المنزلة.

ثم قال متعجِّبًا وساخرًا مستهزئًا: ما لكم لا تجيبون من يخاطبكم؟!

فأقبل إبراهيم على الأصنام يحطمها بقوة، بفأس يحملها في يده اليمنى ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: مال على الأصنام ﴿ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ أي: باليد اليمنى وبكل قوته حتى حطَّمها.

ويجوز أن يراد باليمين: القسم الذي حلفه حين قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء].

فلفظ: ﴿بِالْيَمِينِ﴾ له معانٍ ثلاث: اليد اليمنى، والقوة، والحلف.

وقد جاء هذا التحطيم للأصنام في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء].

وتُجْمِل الآيات هنا ما فصلته سورة الأنبياء من الحوار الذي دار بين إبراهيم وقومه، فينتهي السياق في هذه السورة، بأن الأصنام قد تحطمت، وأن إبراهيم قد ارتاحت نفسه لِمَا فعله بها، وشَفَى قلبه من الضيق والغم الذي كان يعْتريه حين رؤيتها.

إبْرَاهِيمُ يُجِيبُ قَوْمَهُ فِي رَبَاطَةِ جَأْشٍ

٩٤-٩٦- ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ[2] ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾

---

(١) من «تفسير ابن كثير» للآية بتصرف (٧/ ٢٥).

(٢) قرأ حمزة بضم ياء (يزفون) مضارع أزف بمعنى: أسرع، والباقون بفتح الياء مضارع زف بمعنى: عدا بسرعة.

ولما علم القوم بما فعله إبراهيم بأصنامهم حين رجعوا من رحلتهم، ووجدوا أصنامهم قد تكسَّرت، توجهوا نحوه وهم غاضبون مسرعون، يدفع بعضهم بعضًا، ولهم جلَبة وضوضاء من شدة غضبهم، على ما أصاب آلهتهم التي يعبدونها، فكيف يكسرها إبراهيم؟! فأرسلوا إليه من يستدْعيه وهم في بيت الأصنام.

والزَّفُّ: هو العدْو والإسراع في الجرْي حتى لكأنه يطير ويدفع مَنْ هو أمامه.

فأسرعوا نحوه بعد حضوره وقالوا: ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩﴾ فقال بعضهم: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠﴾ سمعناه وهو يقول ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ وهم في قولهم هذا يحقرونه ويستصغرونه.

ولما عنّفوه ووبّخوه قال لهم ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ۝٦٣ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ يفكرون فيما قال، ثم عادوا فقالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ۝٦٥﴾.

وعند هذا الاعتراف، حان وقت الدعوة، فقال لهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧﴾ [الأنبياء انظر الآيات: ٥٧-٦٧]

وهكذا: قَدِم إبراهيم على قومه الذين استدعوه في بهْو الأصنام، وأجابهم في رباطة جأش وثبات: كيف تعبدون أصنامًا تنحتونها أنتم وتصنعونها بأيديكم، فتقْطَعُونها من الحجارة، أو تصوِّرونها من الخشب، وتتركون عبادة الله الواحد الأحد؟!

وكيف تعبدون هذه الأوثان والله خلقكم وخلق عملكم؟! وكل ما في هذا الكون مخلوق لله تعالى، فكيف تعبدون المخلوق وتتركون الخالق؟! أليس لكم عقول؟!

وفي حديث حذيفة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: «**إن الله يصنع كل صانع وصنعته**»[1].

---

(١) رواه البخاري في خلق أفعال العباد ص٣٩ برقم (١١٧) بسند صحيح، وأخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» برقم (٣٥٧) بتصحيح الألباني، والحاكم (١/ ٣١) وصححه ووافقه الذهبي، وعزاه الهيثمي للبزار وقال: رجاله رجال الصحيح غير أحمد بن عبد الله الكردي وهو ثقة «مجمع الزوائد» (٧/ ١٩٧) والبيهقي في الصفات (٣٧، ٥٧، ٨٢٥) وصححه المحقق.

وهذا على أن (مَا) مصدرية.

ويصلح أن يكون المعنى: والله خلقكم وخلق الأصنام التي تعملونها.

وعلى هذا فإن (مَا) موصولة، وهذا هو الأولى بالسياق.

والواو من ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ واو الحال، أي: أنكم قد أتيتم منكرًا حين عبدتم ما تصنعونه بأيديكم، والحال أن الله خلقكم وخلق ما تعملون وأنتم معرضون عن عبادته، أو وأنتم مشركون مع الله في العبادة مخلوقات لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، فكيف لا تعبدون الله وحده، وهو الذي خلقكم وخلق ما تنحتونه؟!

والعمل أعم من النحت، ففي حديث سهل بن سعد ﷺ عن صُنْع المنبر قال: أرسل رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار أن: **«مُري غلامك النجار أن يعمل لي أعوادًا أجلس عليها إذا كلّمتُ الناس»**[1].

ولا يقال: ينحت لي أعوادًا؛ لأن النحت يختص بمواد معينة في الصنعة كالحجر أو الخشب.

نَجَاةُ إِبْرَاهِيمَ مِنَ النَّارِ

٩٧، ٩٨- ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾

ومع أن إبراهيم أقام الحجة عليهم بالدليل العقلي على وجوب عبادة الواحد الأحد، فإن هذا المنطق لم يجد لديهم آذنًا صاغية ولا قلبًا واعيًا، بل إنهم لجؤوا إلى القوة والشدة والبطش، فتشاوروا فيما بينهم، ثم قرروا أن يجمعوا له حطبًا كثيرًا، ويضرموا فيه النار، ثم يُلقوه فيها بعد أن تتأجج وتستعر ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ وامْلؤُوه حطبًا، وأوقدوا فيه النار ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ اطرحوه فيها، والجحيم هي النار الشديدة، قيل: إن هذا البنيان يبلغ طوله ثلاثين ذراعًا، وعرضه عشرون ذراعًا، واستمروا وقتًا طويلًا يجمعون الحطب، حتى إن المرأة كانت تَنذُر إن هي حملَت أو وضعت لَتجْمعُ الحطب لإبراهيم.

أخرج الطبري عن السُّدِّي قال: فحبسوه في بيت، وجمعوا له حطبًا، حتى إنْ كانت

(١) أخرجه البخاري (٤٤٨) و (٢٠٩٤) ومسلم (٥٤٤) والدارمي (١٢٥٨) وابن خزيمة (١٥٢١) ومسند أحمد (٢٢٨٧١).

المرأة لتمرض، فتقول: لئن عافاني الله لأجمعنَّ حطبًا لإبراهيم، فلمَّا جمعوا له وأكثروا من الحطب، حتى إنْ كانت الطير لتمرُّ بها فتحترق من شدة وهَجِها، فعمدوا إليه فرفعوه على رأس البنيان، فرفع إبراهيم رأسه إلى السماء، فقالت السماء والأرض والجبال والملائكة: ربَّنا إبراهيم يُحْرَق فيك، فقال: أنا أعلم به، وإنْ دعاكم فأغيثوه، وقال إبراهيم حين رفع رأسه إلى السماء: اللهم أنت الواحد في السماء، وأنا الواحد في الأرض، ليس في الأرض أحد يعبدك غيري، حسبي الله ونعم الوكيل، فقذفوه فيها، فناداها ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1] [الأنبياء: ٦٩].

ويختم الله سبحانه قصة تحطيم الأصنام، وإعداد النار لإحراق إبراهيم ببيان أنَّ القوم أرادوا به كيدًا بإحراقه وإهلاكه، فأبطل الله كيدهم بأن جعل النار بردًا وسلامًا عليه، وجعلهم المغلوبين المقهورين، حيث لم يتمكنوا من دفع حُجة إبراهيم، ولم ينفِّذوا فيه ما أرادوه له من مكر، فنجَّاه الله من النار.

وفي سورة الأنبياء: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ والخاسر هو الذي لم يحصل على مراده من سعيه، كالتاجر الذي لم يربح في تجارته، بَلْ فَقَد رأسماله.

وفي سورة الأنبياء تفصيل لما أوجزته هذه السورة من القصة.

هِجْرَةُ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى فِلَسْطِينَ

٩٩- ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ[2] ﴿٩٩﴾﴾

ولما نصر الله إبراهيم على قومه، وتأكد له عدم قبولهم الدعوة، وأن ما شاهدوه من معجزة عدم إحراق النار له لم تؤثر في قلوبهم، صمَّم على الخروج من بلده (أور الكلدانيين) فهجر قومه واعتزلهم؛ ليبتعد عن أرض الشرك والمعصية، فخرج من العراق متوجِّهًا إلى أرض كنعان بالشام، وأعلن إبراهيم هجرته إلى قومه ليكفوا عن أذاه، كما أعلن ذلك لأهله حتى يستعدوا للهجرة معه، فقال إبراهيم بعد أن نجاه الله من النار: إني خارج من أرض الكفر إلى المكان الذي أمرني ربي بالسير إليه، لأتمكن من عبادته، فإنه

---

(١) ابن جرير (١٦/ ٣٠٦).

(٢) قرأ يعقوب بإثبات ياء (سيهدين) وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها كذلك.

سيرشدني إلى خيري الدنيا والآخرة، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ۝٤٨﴾ [مريم]

وإبراهيم هو أول من هاجر من خلق الله، وخرج من وطنه، وكان في صحبته زوجه سارة، وابن أخيه لوط عليه السلام.

وهذه الآية أصل في الانتقال والهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، ليتمكن العبد من عبادة الله وحده، ولا يُفتن في دينه كما فُتن إبراهيم في بلده.

وهذه الهجرة مرادة لله تعالى؛ كي يبلُغ إبراهيم مكة، ويرفع القواعد من البيت الحرام لإعلان التوحيد في أرجاء المعمورة، وحتى يجعل الله له نسلًا عند بيت ربه يحفظ به بيته ودينه، ولهذا فقد أنطق الله إبراهيم ووفَّقه حين أعلن على الملأ أنه ذاهب إلى ربه، وكان عُمْر إبراهيم وقتئذ سبعين عامًا، ولم يكن له ذرية حتى هذه اللحظة.

إِبْرَاهِيمُ يَسْأَلُ رَبَّهُ الْوَلَدَ، فَبَشَّرَهُ رَبُّهُ بِالْغُلَامِ الْحَلِيمِ

١٠٠، ١٠١- ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ۝١٠١﴾

أي وعندما عزم إبراهيم على الهجرة، وأزمع على الرحيل، وليس وراءه أحد من أواصر الأهل والقربى، يتركهم خلفه، أو يشدُّون من ساعده عند مفارقة الأوطان، عندئذ استشعر إبراهيم عُقم امرأته وعدَم وجود عقِبٍ له، فسأل ربه أن يرزقه ذرية صالحة قائلًا: أسألك يا رب، بجانب الهداية إلى الخير والحق، أن تهب لي ولدًا صالحًا أستعين به على نشر الدعوة وإعلاء كلمة الله، فالولد لا يكون نعمة لوالده إلا إذا كان صالحًا، فإن هذا سيجعله بارًّا بأبيه في حياته، مجاب الدعوة له بعد مماته.

سأل إبراهيم ربه ولدًا من الصالحين يؤنسه في غربته، ويكون ولدًا مطيعًا له يعوِّضه به ربه عن قومه وعشيرته الذين فارقهم.

أجاب الله دعاء إبراهيم، فبشَّره على لسان ملائكته الكرام بغلام صغير، يكون حليمًا في كبره، متصفًا بمكارم الأخلاق، وهو إسماعيل عليه السلام، فإسماعيل هو الذي جاء وصفه في القرآن بالحلم، أما إسحاق فقد وُصف بالعلم، وقد جاءت البشارة بإسحاق بعد

البشارة بإسماعيل، فدل هذا على أن إسماعيل هو الأكبر، وأنه هو الذبيح.

وقد انطوت هذه الآية على بشارات **ثلاث**، وهي: أنه غلام ذَكر، وأنه يبلغ سن الحلُم، وأنه يكون حليمًا.

وأي حلم يعدل حلمه ﷺ حين أسلم عنُقه لأبيه ليذبحه، مع أن إبراهيم كان يعيش في فلسطين، وإسماعيل يعيش في مكة، وليس بينهما حياة أبويَّة متواصلة، وإسماعيل في سن المراهقة،الذي ينفِر فيه الأبناء عادة من آبائهم،ومع ذلك فإن إسماعيل لم يتردد في الاستجابة لأمر أبيه الذي أتى به هو وأمه وهو طفل رضيع وتركهما في هذه الصحراء، وأمْر الله تعالى لإبراهيم ﷺ بذبح ولده كان في رؤيا منامية، ورؤيا الأنبياء حق.

وأول ما بُدِئ به رسول الله ﷺ من الوحي، الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وقد رأى النبي ﷺ في المنام قبل الهجرة أنه يهاجر من مكة إلى أرض ذات نخل، فلم يهاجر حتى أُذن له في الهجرة، إلى أرض ذات نخل.

وقبل غزوة أحد رأى بقرًا يُذبح، فكان تأويلها مَنِ استُشهِد من المسلمين يوم أُحد.

الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق:

وأمْر الله لإبراهيم بذبح ولده كان ابتلاء وليس تشريعًا، وإسماعيل هو الذبيح، وهو الابن البكر الأكبر الذي وُصف بالحلم، أما إسحاق فهو أصغر من إسماعيل بثلاثة عشر عامًا، حيث ذكره القرآن بعد تمام قصة إسماعيل، فقال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

قال محمد بن كعب القُرظي: إن الذي أَمَر اللهُ إبراهيمَ بذبحِه من ابنيْه، إسماعيلُ، وإنَّا لنجدُ ذلك في كتاب الله، وذلك أن الله تعالى يقول بعد أن فرَغ من قصة المذبُوح: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ وقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] أي: بُشِّر بابنٍ، وابن ابنٍ، فلم يكن يأمر بذبح إسحاق، وله فيه من الله موعود بما وَعَده، وما الذي أُمر بذبحه إلا إسماعيل[١].

---

(١) الحاكم (٢/ ٥٥٥) والطبري (١٩/ ٥٩٦) قال ابن كثير (٧/ ٣٠): والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى.

وأخرج عبدُ بنُ حُميد عن عبد الحميد بن جُبير بن شيبة قال: قلت لابن المسيب: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ هو إسحاق؟ قال: معاذ الله! ولكنه إسماعيل، فثُوِّب بصبْره إسحاق[1].

وقد أسند الله البشارة بإسحاق إلى الملائكة الذين أُرسلوا إلى قوم لوط في قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]. وكانت البشارة بإسحاق بمحضر زوجه (سارة)، وكانت هي المبشَّرة به في قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود].

وهي بُشرى كرامة لها، لِمَا بها من عُقْم، ولأن زوجها كان طاعنًا في السن، كما جاء على لسانها: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢].

وهي البشرى الثانية لإبراهيم، وبشارة إسماعيل هي البشرى الأولى له، وهي استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

ولَمَّا وُلد له إسماعيل، تحقق أمل إبراهيم في أن يكون له وارث من صُلْبه.

ولأن البشارة بإسماعيل كانت هي البشارة الأولى، وكان هو المولود الأول، فقد قُرنت بحرف الفاء في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ﴾ لأنها كانت عقب دعاء إبراهيم أن يرزقه الله من الصالحين، حيث أجاب الله دعاءه، بعد أن رزقه بهاجَر في هجرته إلى مصر، فحملتْ بإسماعيل.

ولأن البشارة بإسحاق كانت تالية لذلك، ولم تكن عقب دعاء إبراهيم، فقد جاءت البشرى مقرونة بالواو في قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ﴾.

وقد رزق الله إبراهيم بإسماعيل، وكانت سن إبراهيم -وقتئذٍ- ست وثمانون سنة، ورَزَقه بإسحاق، وكانت سنُّه وقتها تسع وتسعون سنة، وقد نص على هذا أهل الكتاب في كتبهم، وعندهم أيضًا أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده البكر[2].

قال الأصمعيُّ: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح: أإسحاق كان، أم إسماعيل؟ فقال: يا أصمعيُّ، أذَهب عقلك؟ متى كان إسحاق بمكة؟ إنما كان إسماعيل، وهو الذي

(١) «الدر المنثور» (١٢/ ٤٥٢).

(٢) يُنظَر: الإصحاح الخامس عشر من «سفر التكوين».

بَنَى البيت مع أبيه.

وروى ابن جرير بسنده عن الصُّنَابحي قال: كنا عند معاوية بن أبي سفيان، فذكروا الذبيح: إسماعيل أم إسحاق؟ فقال: على الخبير سقطتم، كنا عند رسول الله ﷺ، فجاء رجل فقال: يا رسول الله، عُد عليَّ -أي: أعطني- مما أفاء الله عليك يابن الذبيحين، فضحك رسول الله ﷺ، فقيل له: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب لما أُمر بحفر زمزم، نذر لله إن سهَّل الله أمرها عليه ليذبحنَّ أحد ولده، قال: فخرج السهم على عبد الله، فمنعه أخواله، وقالوا: افد ابنك بمئة من الإبل، ففداه بمئة من الإبل، وإسماعيل الثاني(١).

وفي الأثر: «**أنا ابن الذبيحين**» أحدهما: جده إسماعيل، والآخر -كما سبق-: أبوه عبد الله، وكان عبد المطلب قد نذر أن يذبح أحد أولاده إن رزقه الله عشرة من الأولاد، وذلك عندما أراد حفْر زمزم وشق عليه ذلك لعدم وجود أبناء له يساعدونه في حفرها.

هذا: ولما أُسر بنو إسرائيل في بلاد آشور زمن بختنصَّر كَتَب النقَلة التوراة بعد ذهاب أصلها، ومن جملة ما حرَّفوه أنهم أقحموا اسم إسحاق في قصة الذبح، أثناء ذكر أخبار إبراهيم، فأضافوا إسحاق بعد لفظ (وحيدك)؛ لينسبوا إلى أنفسهم فضل هذه القصة(٢).

فالأدلة النقلية والعقلية متضافرة متعاضدة على أن الذبيح هو إسماعيل وليس بإسحاق، وإنما أقحموا اسم إسحاق في النص حسدًا للعرب أن يكون الذبيح منهم، فمِنْ إبراهيم كان إسماعيل جد العرب، ومنه كان إسحاق جد بني إسرائيل.

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/ ٥٤) برقم (٢٩٥٣٠) والحاكم (٢/ ٥٥٤) من حديث معاوية، قال الذهبي: إسناده واهٍ، وقال ابن كثير: حديث غريب جدًّا. وضعفه السيوطي في الدر (٥/ ٥٢٩) وفيه عبد الله بن سعيد، وهو مجهول كما في الميزان (٤٣٤٨).

(٢) يُنظَر: «سفر التكوين» الإصحاح الثاني والعشرين.

قِصَّةُ الذَّبْحِ وَالفِدَاءِ

١٠٢- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ[١] إِنِّىٓ[٢] أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ[٣] أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ[٣] قَالَ يَـٰٓأَبَتِ[٤] ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ[٥] إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

رُزق إبراهيم بابنه إسماعيل على كبر بعد تشوُّف ودعاء، فلما شبَّ وترعرع، وأضحى غلامًا، وقرَّت به عينه، وبلغ سنًّا يكون فيها الولد أحب ما يكون إلى أبيه، بعد أن ذهبت مشقّته، وأقبلت منفعته، قيل: بلغ ثلاثة عشر عامًا، وعندئذ أوحى الله إليه منامًا أن يذبحه قربانًا إليه وابتلاءً في خُلته لربه!!

وهكذا يُكلَّف الشيخ الكبير بذبح ولده الوحيد، أحب أهل الأرض إليه بعد ما فرح به وأمَّل الخير في صحبته ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ أي: لَمَّا كبر إسماعيل ومشى مع أبيه يعينه في أمور الدين والدنيا، وقد بلغ الثالثة عشرة من عمره ﴿قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ ورؤيا الأنبياء وحي في غير التشريع، فإن النبي ﷺ لم يوحَ إليه بالشريعة إلا في اليقظة، مع رؤية جبريل يقظة على أي هيئة يتشكل فيها، وأمْرُ الله لإبراهيم بذبح ولده أمر ابتلاء وليس تشريعًا، ولو كان تشريعًا ما نُسخ قبل العمل به.

والحكمة في هذا الابتلاء: إظهار عزم إبراهيم، وإثبات علوِّ مرتبته، حيث إن الله تعالى قد اتخذ إبراهيم خليلًا، فلما سأل ربه الولد ووهبه له تعلقت به نفسه، فأمره الله بذبح محبوبه الوليد؛ لتظهر صفاء الخلة، فامتثل أمر ربه، وقدَّم محبته على محبة ولده، ولو أنه فُجع بقتْل ولده لأهلكه الغم والهم، فكيف وهو يُكلَّف بالإجهاز عليه؟! ولكن إبراهيم لا يعرف إلا الحياة في رضى ربه، ولا يستطيع أن يعصي له أمرًا، مهما كان شاقًّا.

---

(١) قرأ حفص بفتح الياء الثانية من (يا بنيَّ)، والباقون بكسرها.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الياء من (إني أرى) (أني أذبحك)، والباقون بإسكانها.

(٣) قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم التاء من (ترى) بعدها ياء مدية، أي: ماذا تريه من صبرك؟ فالمفعولان محذوفان، وقرأ الباقون بفتح التاء والراء وألف بعدها من رأى بمعنى: اعتقد أي شيء الذي تراه.

(٤) قرأ ابن عامر وأبو جعفر بفتح التاء من (يا أبت)، والباقون بكسرها، ووقف عليها بالهاء ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب والباقون بالتاء.

(٥) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح الياء من (ستجدني إن شاء الله)، والباقون بإسكانها.

ومع أن إسماعيل هو أمل أبيه في المستقبل، وبموته سوف ينعدم نسله، ويزول أنسه، ومطلوب منه أن يتولى إعدامه بنفسه، فقد قرر إبراهيم أن يحدِّث ابنه بالخبر، فقال له: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ فما رأيك؟ ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ هل تمتثل أم لا؟

ولكن إسماعيل كان غلامًا صالحًا لا يقل عن أبيه يقينًا وصدقًا، يعدّه الله تعالى ليكون نبيًّا رسولًا، ﴿قَالَ﴾ إسماعيل ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ فقد أذنتُ لك أن تذبحني؛ لأن الله أمرك بهذا، وأمر الله لا بد من تنفيذه! فامضِ لما أمرك الله به ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ صابرًا، بارًّا، محتسبًا، مرضيًّا لله تعالى.

وهكذا وعد إسماعيل أباه أن يمتثل، وألا يجزع، ولا يهلع، وقد وطّن نفسه على الصبر وقدَّم المشيئة في ذلك، لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله تعالى، وقد وفَّى إسماعيل بما وعد، فأمكن أباه من رقبته، وشكره الله على ذلك.

وقد أعلم إبراهيم ابنه بأمر الذبح؛ ليكون أهون عليه عند التنفيذ، وليختبر جَلَدَهُ وصبره وعزمه، فأمْرُ الله قضاء مبرم حتمي، لابد من تنفيذه والإذعان له.

قال ابن إسحاق: كان إبراهيم ﷺ إذا زار هاجر وإسماعيل حُمِل على البراق، فيغدو من الشام، فيقيل بمكة، ويروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام، حتى إذا بلغ إسماعيل معه السعي، أُمر في المنام بذبحه، وذلك أنه رأى ليلة التروية كأن قائلًا يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أصبح تروَّى في نفسه، أي: فكر من الصباح إلى الرواح، أَمِنَ الله هذا الحُلْم، أم من الشيطان؟ فسُمِّي يوم التروية، فلما أمسى رأى في المنام ثانيًا، فعرف أن ذلك من الله تعالى، فسُمِّي ذلك اليوم: يوم عرفة، وقيل: رأى ذلك ثلاث ليالٍ متتابعات، فلما عزم على نحر ولده، سمي اليوم: يوم النحر، فلما تيقَّن ذلك أخبر به ابنه[1].

إِسْمَاعِيلُ يُمَكِّنُ أَبَاهُ مِنْ الذَّبْحِ!!

١٠٣-١٠٥- ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٠٥﴾

(١) يُنظَر: «تفسير البغوي» والخازن للآية.

سلَّم الابن نفسه لأبيه، وسلَّم الأب أمره لله، وامتثلا أمر ربهما، وخافا من عقابه، ووطّن الابن نفسه على الصبر، وهانت عليه في سبيل طاعة ربه ورضا والده، فطرح إبراهيم ولده وكبَّه على الأرض على شقه الأيمن، وجعل جبينه على الأرض؛ ليكون أمكن من الذبح ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ امتثل الأب والابن أمر الله ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ أي: صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، حتى لا يشاهِد وجهه عند ذبحه فيرِقَّ قلبه.

وجواب ﴿فَلَمَّآ﴾ محذوف، تقديره: كان ما كان مما ينطق به الحال، ولا يحيط به الوصف، من حمدهما لله وشكرهما على دفع البلاء.

وهكذا: بدأ إبراهيم في تنفيذ الذبح، فوضع السكين على عنق ولده، وأمرَّها بقوته على حلقه مرارًا فلم تَقطع، وفي هذه الحالة العصيبة نودي إبراهيم من السماء: أن يا إبراهيم قد فعلتَ ما أُمرتَ به، وحققت ما طُلب منك في الواقع، وصدَّقت رؤياك، وهذا ثناء من الله تعالى على إبراهيم.

وكانت معالجة إبراهيم لذبح ولده عند الصخرة التي في منى عند العقبة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فلما عزم على ذبح ولده ورماه على شقه، قال الابن: يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب، واكفف عني ثيابك لئلَّا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه أمي فتحزن، وأحدَّ شفرتك، وأسرع بها على حلْقي ليكون الموت أهون عليَّ، وإذا أتيتَ أمي فأقرئها مني السلام، وإن رأيت أن تردَّ عليها قميصي فافعل، فإنه عسى أن يكون أسْلَى لها عني، فقال له إبراهيم: نعم العون أنت يا بُنَيَّ على أمر الله[1].

وقال ابن عباس أيضًا: لما أُمر إبراهيم بالمناسك عرض له الشيطان عند المسعى فسابقه، فسبقه إبراهيم، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة، فعرض له الشيطان، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى، فرماه بسبع حصيات، ومن ثَمَّ تلَّه للجبين، وعلى إسماعيل قميص أبيض، فقال له: يا أبت، ليس لي ثوب تُكَفِّنني فيه غيره، فاخْلَعه حتى تكفِّنني فيه، فعالَجه ليخْلَعه، فنودي من خلفه ﴿أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَا قَدْ

---

(١) يُنظَر: «تفسير الألوسي» (٢٣/ ١٣٠) و«حاشية الصاوي على الجلالين» (٣/ ٣٤٣) و«زاد المسير» (٧/ ٧٣) والخازن (٤/ ٢٣) والحاكم (٢/ ٤٣٠) وجاء هذا المعنى عن مجاهد في «تفسير الطبري» (١٩/ ٥٧٩).

صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن، أعْيَن، فذبحه[1].

وهذا النداء نَسَخ ذبْح إسماعيل، فقد صدق إبراهيم الرؤيا إلى أن نهاه الله عن تمامها.

وكما فرَّج الله كُربة إبراهيم، يفرج الشدائد عن عباده المحسنين ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾ فنخلِّصهم من المحن في الدنيا والآخرة، وقد كافأ الله إبراهيم على بذْله أعزَّ ما يملك طاعة لربه، بأحسن ما يكون الجزاء. قال تعالى:

الْبَلَاءُ وَالْفِدَاءُ

١٠٦ ، ١٠٧- ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ[2] ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية أن هذا التكليف الذي كُلِّف به إبراهيم هو الاختبار البيِّن، والامتحان الشاق، الذي يميِّز المخلص من غيره، ويفرِّق بين قوة الإيمان وضعفه، فهو الابتلاء الواضح الذي أبان عن صدق إيمانك يا إبراهيم، فإن إسماعيل لَمَّا وهبه الله لإبراهيم، أحبه حبًّا شيديدا، وإبراهيم خليل الرحمن، والخلَّة أعلى أنواع المحبة، وهي رتبة لا تقبل المشاركة، ولما تعلق قلب إبراهيم بإسماعيل، أراد الله أن يُظهر حقيقة خُلَّته، فأمره، أن يذبح ابنه الوحيد، فنجح إبراهيم في الابتلاء أيّما نجاح، وقدّم هوى الله تعالى على هوى نفسه وحبه لولده الوحيد!!

وقد برز هذا الابتلاء في صورة الوحي منامًا، إكرامًا لإبراهيم حتى لا يُزعَج بالأمر بذبح ولده بوحي في اليقظة، وكان هذا الابتلاء لإبراهيم بذبح ولده في وقت لم يكن لإبراهيم ولد غير إسماعيل، وهذا أكمل في الابتلاء؛ لأنه الابن الوحيد وقتها، ولأن إسماعيل هو المبشَّر به، استجابة لدعوة إبراهيم ﷺ.

عن كعب الأحبار وابن إسحاق: أن إبراهيم ﷺ لما أراد ذبح ولده، قال الشيطان: لئن لم أَفتن آل إبراهيم اليوم لا أفتن منهم أحدًا أبدًا، فذهب لأم الغلام أوَّلًا وقال لها:

---

(١) «المسند» (٤/٤٣٦) (٢٧٠٧) من حديث طويل قال محققوه: رجاله ثقات رجال الصحيح غير أبي عاصم الغنوي، متكلّم فيه، وأخرجه الطبري (١٩/٥٨٦) والطبراني (١٠٦٢٨) والبيهقي (٤٠٧٧)، والطيالسي (٢٦٩٧) ومسلم (١٢٦٤) وأبو داود (١٨٨٥).

(٢) قرأ قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإسكان الهاء من (لهو)، والباقون بضمها.

إن إبراهيم يريد ذبح ولدك، قالت: ولِمَ؟ قال: يزعم أن الله أمره بهذا، فقالت: سمعًا وطاعة لأمر ربي، ثم ذهب إلى الابن، وقال له: إن أباك يريد ذبحك، قال: ولِمَ؟ قال: يزعم أن ربه أمره بذلك، قال: فليفعل ما أُمر به، ثم أقبل على إبراهيم فقال له: إني لأرى الشيطان قد جاءك في منامك فأمرك بذبح ابنك، فعرفه إبراهيم وقال له: إليك عني يا عدو الله، فوالله لأمضينَّ لأمر ربي، فرجع إبليس بغيظه.

وروى ابن عباس ﷺ: أن إبراهيم لما أراد أن يذبح ابنه عرض له الشيطان عند الجمرة الصغرى، فرماه بسبع حصيات، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات، ثم أدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ومضى إبراهيم لأمر ربه، وهذا كله من البلاء المبين.

وفدى الله إسماعيل ببديل عنه، كبشًا من عند الله تعالى، عظيم في هيئته وقَدْره؛ لأنه من عند الله.

أخرج الحاكم بسند فيه الواقدي عن عطاء بن يسار، قال: سألتُ خَوَّاتَ بنَ جُبيْر عن ذبيح الله؟ قال: إسماعيل، لما بلغ سبع سنين رأى إبراهيم في النوم في منزله بالشام أن يذبحه، فركب إليه على البراق حتى جاءه، فوجده عند أمه، فأخذ بيده ومضى به لما أُمر به، وجاء الشيطان في صورة رجل يعرفه.

وذكر القصة إلى أن قال: فذهب يحُزُّ في حلْقه، فإذا هو يحُزُّ في نحاس، فشحذ الشَّفرة مرتين أو ثلاثًا بالحجَر، ولا تحُز، قال إبراهيم: إن هذا الأمر من الله، فرفع رأسه، فإذا هو بوعْلٍ واقفٍ بين يديه، فقال إبراهيم: قُم يا بُنَيَّ قد نزل فِداؤك، فذبحه هناك بمنى[1].

قال تعالى مثنيًا على إبراهيم في العالمين:

الثَّنَاءُ الْحَسَنُ وَالْجَزَاءُ الْعَظِيمُ

١٠٨-١١١- ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

أي: وأبقينا لإبراهيم ذكرًا وثناء حسنًا في الأمم بعده إلى يوم الدين، وجعلنا السلام والتحية العطرة، منا ومن المؤمنين على إبراهيم إلى يوم القيامة، مع دعائنا ودعاء المؤمنين

(١) الحاكم (٢/ ٥٥٥).

له بالسلامة من كل آفة.

وبمثْل هذا الجزاء الحسن لمن وحَّد الله تعالى وأطاعه وامتثل أمره، نجزي كل من أحسن من عباد الله، فوحَّد الله واتقاه، وهذا وعد من الله تعالى أعده لإبراهيم من المرتبة العظيمة، والدرجة العالية، وقد كان إحسان الابن عظيمًا حين بذل نفسه وجاد بها امتثالًا لأمر أبيه، وقد وعد الله المحسن بالإحسان، فقال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن].

لقد كان إبراهيم راسخًا في إيمانه، مخلصًا في طاعته لربه، كان حنيفًا مسلمًا، وكان أمة وحده، اصطفاه ربه لخلَّته دون العالمين؛ لأنه كان من عباد الله المؤمنين الموقنين الصادقين، الذين بلغ بهم الإيمان إلى درجة اليقين، كما قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام]

قلت: بقي في نفسي تعجُّبٌ شديد من هذه القصة، فإن إسماعيل وقت الأمر بالذبح، كان فتى يافعًا صغيرًا في بداية سن المراهقة والتمرد، وعدم الاستجابة للوالدين غالبًا، مع كثرة السؤال والاستجواب، وليس في سن يُقدّر فيها احترام الوالد ويُغلّب فيها العقل، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن إسماعيل نشأ بعيدًا عن والده، ورؤيته له كانت عابرة، بيْن الْفَيْنَة والْفَيْنَة، ولو حدث مثل هذا من والد لولده - في زماننا هذا أو غيره - لقال الابن لأبيه: من أنت؟ ومَنْ تكون حتى تذبحني؟ فلا علاقة بيني وبينك! أنا لا أعرفك أنت أبْعدتني أنا وأمي عنك، ولم تقُم بترْبيتي ولا بتعليمي، أقول هذا وأنا أشاهد الأب يُربى ولده أحسن تربية، ويعلمه أحسن تعليم، إلى أن يتخرج من الجامعة، وربما زوّجه وأسكنه ثم يقول بعضهم لأبيه: أنت لم تفعل لي شيئًا، وسمعت ابنًا يقول لأبيه: أنت ليس لك فضل في مجيئ للحياة، وإنما كنتَ تتسامَرُ مع أمي، وأنا أتيت، دون قصد منك!! أستحضر هذه المعاني وأنا أتحدث عن قصة الذبيح، وأقول: سبحان الله، لا جواب على هذا إلا أن ذلك أخلاق الأنبياء وأدبهم، فأين الثرى من الثريّا؟!!

الْبُشْرَى بِإِسْحَاقَ الْغُلَامُ الْعَلِيمُ

١١٢- ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾

أي: ومن تكريمنا لإبراهيم أنَّا بشرناه بعد فداء إسماعيل من الذبح بولد آخر يأتي بعد الغلام

الحليم؛ صاحب قصة الذبح المبشَّر به **أوّلًا** عندما سأل إبراهيم ربه ولدًا من الصالحين.

وهذا الغلام المبشَّر به **ثانيًا** هو إسحاق عليه السلام، وجعلناه نبيًّا من أنبيائنا الصالحين لحمل رسالتنا إلى من بُعث فيهم، كما بشرناه بوجوده وبقائه في الحياة، حتى يرى حفيده يعقوب، كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء].

وكان ذلك جزاءً لإبراهيم على صبره وامتثاله أمر ربه. قال تعالى:

١١٣- ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾

أي وقد أفاض الله على إبراهيم وإسحاق بالكثير من بركات الدنيا والآخرة، ومن ذلك أنَّا جعلنا عددًا كبيرًا من الأنبياء في نسلهما، وجعلنا من ذريتهما مَنْ هو مطيع لربه محسن في عمله، ومنها من هو ظالم لنفسه ظلمًا بيِّنًا بالكفر والمعاصي، وسيجازي الله كل فريق بما يستحقه من ثواب أو عقاب.

وقد جعل الله في ذريتهما ثلاث أمم عظيمة، هي أمة العرب من ذرية إسماعيل، وبني إسرائيل، و الروم من ذرية إسحاق.

وفي هذا وعيد لكل من لم يؤمن بخاتم الرسل من اليهود والنصارى وغيرهم، وفيه بيان أن الصالح يلد طالحًا، والبرُّ يلد فاجرًا، وأن هذا ليس فيه ذم ولا منقصة لأبيه.

ولما قال تعالى لإبراهيم: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ فأجابه ربه بأن الظالم لنفسه بالكفر والمعاصي لا ينال الإمامة أو النبوة ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

القِصَّةُ الرَّابِعَةُ: طَرَفٌ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى وَهَارُونَ عليهما السلام

١١٤- ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾

موسى عليه السلام: هو ابن عمران، من نسل يعقوب بن إسحاق، وكانت ولادته في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وهارون أخوه الأكبر، كان وزيره ونصيره.

وهذا المقطع من قصة موسى وهارون يختص بما امتنَّ الله به عليهما مما فصَّلته السور الأخرى: من درجة النبوة، ونجاتهما وقومهما من الكرب العظيم، ونصرهما على

فرعون، وإعطائهما التوراة، وهدايتهما إلى الصراط المستقيم، **فَهُنَّ ستُّ نِعَم أو مِنَن** منحها الله سبحانه إليهما.

سِتُّ مِنَنٍ امْتَنَّ اللَّهُ بِهَا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ

المنَّة الأولى: منَّة النبوة والرسالة

لقد منّ الله على موسى وهارون، فأنعم عليهما بالنبوة وبالرسالة، أي: وعزتنا وجلالنا لقد أنعمنا على موسى وهارون بكثير من النعم، والمنافع الدينية والدنيوية، وأعظمها نعمة النبوة والرسالة، والدعوة إلى الله عز وجل، وقد كانت نبوة موسى عليه السلام منّة من الله تعالى؛ لأنه عليه السلام لم يسأل ربه النبوة، وإنما تفضل الله بها عليه، وهارون أيضًا لم يطلب النبوة، وإنما سألها موسى له، فكانت منةً عليه وإرضاء لموسى ﷺ.

وَالْمِنَّةُ الثَّانِيَةُ: مِنَّةُ دَفْعِ الضُّرِّ عَنْهُمَا

١١٥- ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾

أي: ومننا على موسى وهارون بنجاتهما وقومهما من الغرق، ونجاتهما من استعباد فرعون لهما، بقتل الذكور واستبقاء الإناث، وإذلال طائفة من أهل مصر بالعمل في الأشغال الشاقة.

والكرب العظيم: هو ما كانوا فيه من الذل تحت سُلْطة الفراعنة، وما كان من فرعون حين تبع موسى لَمَّا خرج بقومه من مصر، وأدركه عند البحر، فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فضربه فانفلق، فاجتازه موسى وبنو إسرائيل، ومَدَّ البحر أمواجه على فرعون وجنده، فأطبق عليهم، وقد أُطلق الكرب العظيم في قصة نوح عليه السلام على الغرق بالطوفان، قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنبياء] قال تعالى:

وَالْمِنَّةُ الثَّالِثَةُ: نَصْرُ اللَّهِ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ

١١٦- ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾

أي: وأنعمنا على موسى وهارون بنصرنا لهما ولقومهما في كل موقعة قاتلوا فيها، ونَصْرَهم على الفراعنة، فكانت لهم العزة والغلبة، بعد أن كانوا مقهورين مغلوبين.

وأغرق الله فرعون وقومه وهم ينظرون، ونجي موسى وقومه بأعجوبة بالغة، حين عبروا البحر بعد أن جعله الله اثنا عشر طريقًا يبسًا.

ولما خالف بنو إسرائيل أوامر نبيهم موسى ﷺ كانت هزيمتهم أمام العمالقة والكنعانيين والآشوريين والبابليِّين.

وهكذا يهزم الله اليهود بمشيئته تعالى أمام المسلمين لكفرهم بعيسى ومحمد، وتحريفهم ما في التوراة والخروج عن تعاليمها. قال تعالى:

المِنَّةُ الرَّابِعَةُ: نُزُولُ التَّورَاةِ

١١٧- ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾

أي: وأنزلنا التوراة بتعاليمها الواضحة على موسى ﷺ، ولمَّا كان هارون معاضدًا لموسى في رسالته، كان له حظ منها، وهي كتاب ظاهر الأحكام والحدود وسائر التشريع والمواعظ وتفصيل كل شيء:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء].

وقال جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأنعام]

المِنَّةُ الخَامِسَةُ: هِدَايَةُ مُوسَى وَهَارُونَ

١١٨- ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ[1] ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾

ومن منن الله تعالى على موسى وهارون، ونعمه عليهما، أن هداهما إلى الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام، دين الله الذي ابتعَث به أنبياءه جميعًا وهو الدين الحق والتوحيد الخالص ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

---

(١) قرأ قنبل ورويس بالسين الخالصة في (الصراط) وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي، والباقون بالصاد الخالصة.

وقد شرع الله لموسى وهارون دينًا ذا أحكام وشرائع مستقيمة موصلة إلى الله تعالى، وقد مَنَّ الله عليهما بسلوك هذا الطريق.

وقد اتفقت الرسالات جميعًا على وجوب التوحيد وأصول الديانة، والكليات العامة، وهي حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، ولم تختلف الشرائع في شيء من ذلك، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وكان الاختلاف في الفروع والجزئيات في جانب العبادة، حيث جاءت على سبيل التدرج بما يوافق أطوار الأمم ونموها.

وكانت شريعة التوراة يومَ أوتيها موسى هي الصراط المستقيم، ولما نُسخت بالقرآن كان القرآن هو الصراط المستقيم وعُطِّلت التوراة إلى الأبد.

المِنَّةُ السَّادِسَةُ: الثَّنَاءُ الحَسَنُ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ فِي الأُمَمِ جَمِيعًا

١١٩، ١٢٠ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا[1] فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١١٩ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۝١٢٠﴾

أي: أبقينا وأدَمْنا على موسى وهارون الذكر الحسن والثناء العطر فيمن بعدهما من الأمم المتأخرة إلى انقضاء العالم، ومن باب أولى أن يكون هذا الثناء أيضًا في الأمم المتقدمة ومفعول ﴿تَرَكْنَا﴾ محذوف، تقديره: تركنا له ثناء حسنًا عليه، وذكرًا جميلًا في الناس.

تحية لموسى وهارون من عند الله، وثناء عطرًا عليهما، ودعاء لهما بالسلامة من كل آفة، وسلام عليهما في الأولين، وسلام عليهما في الآخرين، وسلام عليهما إلى يوم الدين.

١٢١، ١٢٢ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٢١ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٢﴾.

أي: وبمثل هذا التكريم نجزي من أخلص التوحيد لله تعالى، وأحسن مع الله ومع الناس في أقواله وأعماله من عباده الصادقين في إيمانهم وأعمالهم.

وموسى وهارون أخلصا لله في طاعتهما وعبادتهما، وكانا من الراسخين في إيمانهما،

(١) قرأ يعقوب بضم الهاء من (عليهما)، والباقون بكسرها.

الثابتين على عقيدتهما، فاستحقا بذلك وصف العبودية واستحقا إسنادهما إلى الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

وهذه الآيات الأربع الأخيرة ختم الله بها قصص: نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون في هذه السورة، فكان ذلك شعارًا لها، كما كان لقصص سورة الشعراء والقمر وغيرهما تعقيب معيَّن، ختم به كل قصة.

الْقِصَّةُ الْخَامِسَةُ: قِصَّةُ نَبِيِّ اللّهِ إِلْيَاسَ عليه السلام

١٢٣ ، ١٢٤- ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ[1] لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

وبعد أن ذكر سبحانه قصة ثلاثة من رسل الله من أصحاب الشرائع هم: نوح، وإبراهيم، وموسى عليهم الصلاة والسلام أتبعهم بثلاثة أنبياء من أقوامهم، قاموا بالدعوة إلى الله مثلهم، ولم تكن لهم شرائع مستقلة، بل جاء كل منهم يُذَكِّر قومه بما غَفَلوا عنه من الرسالة السالفة، وقد بدأهم بنبي الله إلياس ﷺ.

وإلياس هو ابن بشر بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران.

وقال أبو السعود: هو إلياس بن ياسين من سبط هارون أخي موسى[2].

وقد ذكر إلياس في القرآن مرتين، هنا وفي الآية ٨٥ من سورة الأنعام، وذكر بلفظ (إل ياسين) مرة واحدة في سورة الصافات ١٣٠.

وإلياس نبي من أنبياء بني إسرائيل التابعين لشريعة التوراة، ويُعرف في العهد القديم باسم (إيلياء) كانت نبوته في عهد (آخاب) أحد ملوك بني إسرائيل، في القرن العاشر قبل الميلاد تقريبًا.

وذلك أنه لما مات نبي الله (حزقيل) ظهر في بني إسرائيل الفساد والشرك وعبادة الأصنام من دون الله، فأرسل الله إليهم بعد موسى رُسُلًا لتجديد ما نسوه من أحكام التوراة.

---

(١) قرأ ابن عامر بخلف عنه بوصل همزة (إلياس) فيكون النطق بلام ساكنة بعد (إن) وصلًا، وفي البدء بهمزة مفتوحة؛ لأن أصلها (ياس) دخلت عليها (ال)، وقرأ الباقون بهمزة قطع مكسورة في الحالين، وهو الوجه الثاني لابن عامر. وإلياس: اسم أعجمي، سرياني، قطعت همزته تارة ووصلت أخرى.

(٢) «تفسير أبي السعود» (٤/ ٢٧٦).

وكان يوشع لما فتح الشام قسَّمها على أسباط بني إسرائيل، فأرسل الله رسلًا يبلِّغون ملوك بني إسرائيل أن الله قد غضب عليهم من أجل عبادة الأصنام، فأرسل إلى أهل أنطاكية وما حولها في سوريا ثلاثة من المرسلين، جاء ذكرهم في سورة يس، وأرسل إلى أهل بعلبك وما حولها في سوريا أيضًا نبيَّ الله إلياس ﷺ.

صنم بعْل:

وكان بنو إسرائيل قد عبدوا صنم (بعل) الذي سميت المدينة باسمه، عبدوه أكثر من مرة تقليدًا لمن سبقهم من الكنعانيين والعبرانيين، وكان لبعل من السدنة في بلاد السامرة، أو مدينة صرفة، أربع مئة وخمسون سادنًا، وكانوا قد صوَّروه على صورة إنسان له رأس عِجْل وقرنان، وعليه إكليل يجلس على كرسي، ويمدُّ يديه كمن يتناول شيئًا، وهو تمثال مجوَّف، مصنوع من نحاس، تحته قاعدة من بناء، كالتنُّور، فكانوا يضعون القرابين على ذراعيه، ويوقدون النيران تحته، فتحترق بالحرارة، فيظُنون أن الصنم قد تقبَّلها وأَكَلها من جهلهم.

وتوجد في دار الآثار بقصر اللُّوفر في باريس، صورة بَعْل منقوشة على وجه حجارة بصورة إنسان، على رأسه خوذة بها قرنان، وبيده مقرعة، ولعلها صورته عند بعض الأمم التي عبدته[١].

أرسل الله إلى مدينة بعلبك وما حولها إلياس ﷺ وهو من المرسلين الذين أكرمهم الله بالنبوة والرسالة؛ ليُخرج قومه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

دعا إلياس بني إسرائيل إلى توحيد الله وطاعته، فأمرهم بتقوى الله، وحذَّرهم عقابه إن استمروا على ما هم فيه من عبادة الصنم، وهذا ما تشير إليه الآية ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ من بني إسرائيل ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله فتمتثلون أمره وتجتنبون نهيه، وتعبدون الواحد القهار. قال تعالى:

١٢٥، ١٢٦ - ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ[٢] رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

أي: كيف تعبدون هذا الصنم المسمى (بعل) وتتركون عبادة رب العالمين؟! أتعبدون

---

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٣/ ١٦٦).

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بنصب الأسماء الثلاثة (اللهَ ربَّكم وربَّ) فلفظ الجلالة بدل من أحسن، و(ربكم) صفة، و(رب) عطف، والباقون برفع الثلاثة، فالأول مبتدأ والثاني خبر، والثالث عطف.

صنمكم بعْلًا، وهو صنم لا يضر ولا ينفع؟! ولا يخلق ولا يرزق، وهذا توبيخ وزجْر لهم ولأمثالهم، مِنْ كل مَنْ يعبُد غير الله تعالى، لبيان أن هذا غاية في الضلال والسفة.

أتعبدون صنمًا صنعتموه بأيديكم، وتذرون عبادة ربكم ورب آبائكم وأجدادكم؟! وهو الذي خلقكم ورزقكم ورباكم بنعمه، وهو الذي يميتكم ثم يحييكم، فهو سبحانه ليس ربكم وحدكم، بل هو أيضًا رب آبائكم الذين اتبعتم طريقهم وقلَّدتموهم في عبادة غير الله. قال تعالى مبيِّنًا موقف قومه من دعوته:

١٢٧، ١٢٨- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ[1] ﴿١٢٨﴾﴾

دعا إلياس قومه إلى عبادة الله وحده، فكذبوه فيما دعاهم إليه وأعرضوا عن دعوته، والله تعالى سيجمعهم يوم القيامة للحساب والعقاب فيحضرهم إلى جهنم إحضارًا فيه ذل وهوان.

وفي هذا تهديد ووعيد لهم بالعقاب الأخروى، ولم يذكرلهم عقوبة دنيوية.

وكان عدم طاعة عامة القوم لإلياس تبعًا لملوكهم الذين استجابوا لرغبة نسائهم المشركات في إقامة هياكل للأصنام، وكان مَلِكهم قد آمن بإلياس ﷺ ثم ارْتدّ.

إلياس يعهد إلى اليسع أن يقوم بواجب الدعوة بعده:

وذلك أن ابنة الملك لَمَّا بلغها ما صنعه إلياس بسدَنة (بعْل) أرسلتْ إليه تتوعده بالقتل، فخرج إلى موضع يقال له: (بئر سبع) ثم ساح في الأرض، وسأل الله أن يقبضه إليه، فأمره ربه أن يعهد بالقيام بواجب الدعوة من بعده إلى صاحبه (اليسع).

عن ابن عباس ﷺ: أن إلياس أوى إلى امرأة من بني إسرائيل، ولها ولد يقال له: اليسع بن أخطوب، وكان مريضًا، فآوته المرأة وأخْفت أمره، فدعا لابنها، فعافاه الله من الضرِّ الذي به.

واتَّبع (اليسع) إلياس، فآمن به وصدَّقه ولازَمه، وذهب معه حيثما سار، وكان (إلياس) قد تقدمت به السن، وكان (اليسع) غلامًا شابًّا، فعهد إليه إلياس أن يقوم بشؤون الدعوة إلى الله بعده، ثم قبضه الله إليه، فلم يعرف أحد مكانه.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بكسر لام (المخلصين)، والباقون بفتحها.

وقد ذكر (اليسع) في القرآن مرتين، في الآية ٨٦ من سورة (الأنعام) والآية ٤٨ من سورة (ص).

وفي كتب اليهود أن الله تعالى رفع (إيلياء) -أي: إلياس- إلى السماء، وأن اليسع شاهده صاعدًا فيها، وليس عندنا في شريعة الإسلام ما يؤيد هذا.

وورد أن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: إلياس هو إدريس، وكان ذلك في مصحفه، وكان يقرأ: (سلام على إدريس) على أنه لغة في إلياس[١].

وأكثر المفسرين على أن إلياس نبي من أنبياء بني إسرائيل، وهو الأرجح.

أما إدريس فكانت رسالته بين شيث ونوح عليهم السلام.

ولو صح ما نُسب إلى ابن مسعود ومقاتل لكان هذا محمولًا على تكرار الرفع إلى السماء.

ثم إن الله تعالى استثنى ممن يحضرون إلى جهنم عباد الله الذين أخلصوا دينهم لله، وأخلصهم الله إليه، فإنهم ناجون من عذابه، وهم الذين آمنوا برسل الله وصدَّقوهم، فإنهم محل إكرام الله وإحسانه. قال تعالى:

١٢٩-١٣٢- ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ[٢] ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

أي: وجعلنا لإلياس في الأمم بعده ثناء حسنًا، وذكرًا بين الناس في جميع الأمم، تحية من الله وثناء منه على إلياس وآله، وسلامة له ولهم من الآفات، والمراد بـ(إل ياسين): ذووه وأنصاره وقيل: إن (ياسين) هو أبو إلياس، والأول أصح.

وكما جزينا إلياس، الجزاء الحسن على طاعته لله، نجزي كل من أحسن مع الله ومع خلقه، لقد كان إلياس من عباد الله الذين أخلصوا له الطاعة والعبادة.

---

(١) «تفسير الخازن» (٤/ ٢٦) و«زاد المسير» (٧/ ٧٩، ٨٤) ويُنظَر: «فتح الباري» (٦/ ٣٧٣) والطبري (٩/ ٣٨٣، ٦١٢) وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٣٦) (٧٥٥٦) وابن عساكر (٩/ ٢٠٧). قلت: وهذه القراءة شاذة لا توجد في القراءات الصحيحة، وهي مخالفة لرسم المصحف.

(٢) قرأ نافع وابن عامر ويعقوب بفتح الهمزة من (إلياسين) وكسر اللام وفصلها عما بعدها هكذا (سلام على آل ياسين) فيصح الوقف على (آل) اضطرارًا أو اختبارًا، وقرأ الباقون كقراءة حفص بهمزة مكسورة بعدها لام ساكنة موصولة بما بعدها، فتكون كلمة واحدة لا يجوز فصلها.

وفي ختام هذا القصص -بهذه الآيات الأخيرة- بيان لفضل الإيمان والإحسان، وأن الرسل جميعًا قد اتصفوا بهذه الصفات، فاستحقوا من الله الثناء الحسن والذكر الجميل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

الْقِصَّةُ السَّادِسَةُ: طَرَفٌ مِنْ قِصَّةِ لُوطٍ عليه السلام

١٣٣-١٣٦- ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾

وفي لمحة سريعة تشير الآيات إلى رسالة لوط عليه السلام ونجاته مع أهله إلا امرأته الكافرة، وتُلفت الأنظار إلى الاعتبار بما حدث لمن كذب رسل الله، ومنهم لوط عليه السلام؛ حتى لا يصيبهم ما أصاب أسلافهم.

ولوط هو ابن هاران أخي إبراهيم، كان قد آمن برسالة عمه، وهاجر معه من العراق إلى الشام ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ﴾ [العنكبوت: ٢٦] وقد أرسله الله الى قرى المؤتفكة، وهم أهل سدوم في الأردن، وكان لوط يسكن في أحد هذه القرى، وكانوا قومًا يعبدون الأصنام، ويرتكبون فاحشة اللواط، فهو أحد رسل الله إلى هداية أقوامهم، وقد اصطفيناه واخترناه لرسالتنا، وكان رسولًا بلا شريعة لم ينزل عليه كتاب.

فاذكر -أيها الرسول- لقومك نبي الله لوطًا عليه السلام حين أنجاه الله وأهله، وأهلك قومه، وهو قائم بواجب الرسالة عن الله تعالى، إلا امرأة عجوزًا هرمة، هي زوجته التي لم تؤمن به، فكفرت بدعوته، وكانت تُفْشي أسرار زوجها إلى القوم، فإنها هلكت مع من هلك من قومها؛ لكفرها به فكانت من الباقين في العذاب.

أما قوم لوط الذين كذَّبوه فاستمروا على شركهم وإتيانهم الفاحشة التي ليس لها نظير سابق، حتى دمرهم الله، بقلْب قُراهم، حيث جعل عاليها سافلها، وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل فأصبح مكانهم بحيرة منتنة، كريهة المنظر، هي (بحيرة لوط) ولعدم الانتفاع بمياهها سُمِّيت: البحر الميت.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود] قال تعالى:

١٣٧ ، ١٣٨- ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

وإنكم -أيها المخاطبون- بهذه الآيات تمرون على هذا المكان في أسفاركم صباحًا ومساءً، فاعتبروا بما حدث لهم، واستعملوا عقولكم فيما خُلقتم من أجله فأنتم تشاهدون آثارهم ليلًا ونهارًا، فخافوا أن يصيبكم ما أصابهم بأن تتجنبوا أسباب غضب الله وتكذيب رسل الله.

وكان أهل مكة إذا سافروا في تجارتهم إلى الشام يمرون بفلسطين على شاطئ بحيرة لوط، وآثارهم باقية تحت الماء، وكانت رحلة قريش إلى الشام في الصيف.

القِصَّةُ السَّابِعَةُ وَالأَخِيرَةُ: قِصَّةُ نَبِيِّ اللَّهِ يُونُسَ عليه السلام

١٣٩ ، ١٤٠- ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾

هذا ثناء من الله تعالى على عبده ورسوله يونس عليه السلام، كما أثنى على إخوانه المرسلين بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله تعالى، ويونس عليه السلام هو ابن متَّى، وهي أمه.

صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متَّى»**[1].

أي: لا ينبغي لأحد أن يقول: إن ما فعله يونس حين خرج من قومه مغاضبًا لهم: إن هذا يسلب عنه وصف النبوة، أو أنه خير من يونس عليه السلام.

ومتَّى هي أمه، وهو من أنبياء بني إسرائيل، من أهل فلسطين، كانت رسالته في أول القرن الثامن قبل الميلاد.

وقد ذكر يونس في القرآن أربع مرات، هنا في سورة الصافات ١٣٩، وفي سورة النساء ١٦٣ وسورة الأنعام ٨٦٣ وسورة يونس ٩٨.

وكانت نينوى مدينة عظيمة بالعراق يحكمها الآشوريون، وكانوا قد أَسَرُوا زُهاء مئة ألف من بني إسرائيل في حروبهم معهم، وظل هؤلاء الأسرى في بلاد الآشوريين بنينوى من أرض الموصل بالعراق، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له، ولما ضاق صدره بتكذيبهم له أخبرهم بأن عذاب الله نازل بهم خلال ثلاثة

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٩٥، ٣٤١٣، ٤٦٣٠) و«صحيح مسلم» برقم (٢٣٧٧).

أيام، فلما كان اليوم الثالث خرج يونس من بين أظهرهم قبل أن يأذن الله له بالخروج، فلما افتقده قومه علموا أنه قد خرج من بينهم؛ لأن العذاب الذي توعدهم به نازل بهم، فآمنوا بأن يونس نبي الله إليهم، وتابوا إلى الله تعالى قبل أن ينزل بهم العذاب، وتضرعوا إليه أن يرفع عنهم العذاب.

أما يونس ﷺ فإنه لما رأى أن العذاب لم ينزل بقومه استحى أن يرجع إليهم، وقال: لا أرجع إليهم كذابًا أبدًا، وكان من عادتهم أنهم يقتلون الكذّاب ما لم تقُم له بينة، ومضى في طريقه قاصدًا بلدًا آخر، فتوجه إلى ميناء (يافا) ليذهب إلى مدينة (طرسوس) على شاطئ بلاد الشام، فجاءت سفينة فركبها، وعندئذ هاج البحر واضطربت أمواجه، وخاف الركاب، فلما وصلت اللُّجة، وقفت السفينة ولم تتحرك، فاضطر أهلها إلى تخفيف عدد ركابها، وقال صاحبها: إن فيكم رجلًا مشؤومًا فاقترعوا، ليلقوا في البحر من وقعت عليه القرعة، فوقعت على يونس.

القرعة عادة قديمة:

وكانت هذه القرعة عند من يسافرون عن طريق البحر عادة معروفة ومتَّبعة منذ القدم، فكانوا إذا زاد عدد الركاب، أو ثقُل المتاع اقترعوا، فمن خرج عليه السهم أُلقي في البحر؛ ليخفَّ المرْكب ويَسْلم الركاب، وهذا على حد زعمهم، أو فهمهم هو الذي ورثوه عن آبائهم، وإلا فإن السفينة لا تخفُّ برمْي رجل منها.

وكانت القرعة أيضًا من طُرُق القضاء عند التباس الحق، أو استواء عدد مستحقِّيه، وفقدان المرجح، كما في قصة مريم من قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وهي طريقة مُقْنِعة لفصل التنازع وقطع الخصام، وكانت هذه القرعة جائزة في شريعة مَنْ قبلنا، وقد أقرع النبي ﷺ بين أزواجه في أسفاره، وأقرع في قضيتين من قضايا المواريث اختصم إليه أصحابهما، واقترع الأنصار على سكنى المهاجرين فوقع في سهمهم عثمان بن مظعون[١].

---

(١) يُنظَر فيما سبق: «تفسير التحرير والتنوير» والألوسي في تفسيرهما الآية.

هذا: ولفظ (نون) من أسماء الحوت، ولذا: فإن يونس ﷺ لُقِّب بصاحب الحوت في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ أي: نضيق عليه ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء].

ونعود إلى الآية التي نحن بصددها، أي: وإنَّ عبْدَنا يونسَ اصطفيناه لحمل رسالتنا وتبليغها للناس لهدايتهم ، وقد أمره الله بالذهاب إلى أهل نينوى، لإبلاغ بني إسرائيل أن الله تعالى قد غضب عليهم؛ لأنهم انحرفوا عن شريعته، فدعاهم إلى توحيد الله تعالى فكذبوه. قال تعالى:

يُونُسُ فِي بَطْنِ الحُوتِ

١٤١ ، ١٤٢- ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢﴾

ولما كذَّبه قومه ضاق صدره بتكذيبهم، فأنذرهم عذابًا قريبًا، وخرج من البلد الذي أوحى الله إليه فيه، لتوقع نزول العذاب بهم، يريد بلدًا آخر، فوصل إلى شاطئ البحر فركب السفينة المملوءة بالناس والمتاع، هربًا من قومه كالعبد الآبق، أي: الهارب من سيده

ولما أحاطت الأمواج بالركَّاب، قال الملَّاحون: هنا عبد آبق من سيده، فاقترعوا -كعادتهم- لتخفيف الحمولة على السفينة خوف الغرق -وفْق ظنهم- فخرج سهم القرعة على يونس ﷺ أكثر من مرة، فكان بين المغلوبين، حيث وقعت القرعة عليه دون غيره.

والمدحض: هو المغلوب الذي خسر الرهان، كما قال تعالى: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي: خاسرة وباطلة.

ولما خرج من بينهم افتقده قومه ورأوْا أمارات العذاب، وخافوا من نزوله، فآمنوا وتابوا وتضرعوا إلى الله، فنفعهم هذا الإيمان مدة حياتهم الدنيوية، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ [يونس] أي: أنهم لَمَّا آمنوا بعد أن شاهدوا أمارات العذاب الذي وُعدوا به، أبقاهم الله ممتعين في الدنيا إلى انقضاء آجالهم.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: لما وعد يونس قومه بالعذاب بعد ثلاث، جأروا إلى الله ﷻ واستغفروه، فكف عنهم العذاب، فانطلق مغاضبًا حتى انتهى إلى قوم في سفينة، فعرفوه فحملوه، فلما ركب السفينة وقفت، فقال: ما لسفينتكم؟ قالوا: لا ندري، قال: لكني أدري، فيها عبد آبق من ربه، وإنها والله لا تسير حتى تُلقوه، فقالوا: أما أنت يا نبي الله، فوالله لا نُلقيك، قال: فاقترِعوا، فمن قرع -أي أصابته القرعة - فلْيقع، فاقترعوا، فقرع يونس، فأبوا أن يمكنوه من الوقوع، فعادوا على القرعة حتى قرع يونس ثلاث مرات(١).

وبعد أن خرجت القرعة على يونس ألقى بنفسه في البحر الأبيض المتوسط، وإذا بحوت معين قدْ فغَر فاهُ وابتلَعه بسرعة، وهو حوت عظيم يبتلع الأشياء ولا يعض عليها بأسنانه، التقم الحوت يونس، وهو مكتسب من الأفعال ما يُلام عليه، حيث غادر قومه بدون إذن ربه وهو ملام على ما فعل.

١٤٣ ، ١٤٤ - ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

ومع أن يونس قد ارتكب ما يستحق اللوم عليه، إلا أن الله تعالى لم يتخلَّ عنه في هذه الحالة العصيبة، فقد ألهم الله الحوت أن لا يأكل له لحمًا، ولا يَكْسِر له عظمًا، وقال له: إنا لم نجعل يونس لك رزقًا، إنما جعلناك له حرزًا ومسجدًا؛ وذلك لأن يونس ﵇ كان يعرف ربه في الرخاء، فعرفه ربه في وقت الشدة، فقد كان يونس قبل أن يصير في بطن الحوت، كثير العبادة، كثير العمل الصالح، وكان وهو في بطن الحوت كثير التسبيح والمناجاة لربه، كثير اللوم لنفسه قائلًا: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

كان يقول ذلك وهو في ظلمات **ثلاث**: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت(٢).

ورد أن الملائكة سمعتْ هذا الدعاء وهي تحفُّ بالعرش، فقالت: يا رب، هذا صوت ضعيف معروف، من بلاد بعيدة غريبة، فقال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب، ومن هو؟

---

(١) «زاد المسير في علم التفسير» (٧/ ٨٦).

(٢) يُنظَر: البزار (٢٢٥٤) «كشف» والطبري (١٦/ ٣٨٤)، (١٩/ ٦٣٨) و«مجمع الزوائد» (٧/ ٩٨).

قال: عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يُرفع له عَمل مُتقبَّل، ودعوة مستجابة؟ قالوا: يا رب، أوَ لا ترحم مَنْ كان يصنع في الرخاء، فتنجِّيه من البلاء؟ قال: بلى، فأُمر الحوت فطرحه بالعراء[1].

وقد استجاب الله ليونس فنجاه من هذا الغم، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ وهكذا ينجي الله كل مسلم يقع في كرب وضيق، ويتوجه إلى ربه بمثل هذا الدعاء وهو مؤمن، فإن الله تعالى ينجيه من الغم ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

أخرج الحاكم والبيهقي في «الشعب» عن الحسن قال: كان يونس يكثر الصلاة في الرخاء، فلما كان في بطن الحوت ظن أنه الموت، فحرك رجليه فإذا هي تتحرك، فسجد، وقال: يارب، اتخذتُ لك مسجدًا في موضع لم يسجد فيه أحد[2].

ولولا هذا التسبيح وهذه العبادة، لمكث يونس في بطن الحوت، وصار قبرًا له إلى يوم القيامة، وذلك بأن يميت الله الحوت حين ابتلعه، ويبقيه في قعر البحر، فلا يطفو على وجه الماء، حتى يُبعث يونس يوم القيامة من قعر البحر، ولكن الله تعالى أنجى يونس بسبب تسبيحه وتوبته، حيث قذفه الحوت من بطنه إلى البَر، بعد أن مكث في بطن الحوت ثلاث ليالٍ، كما قال قتادة[3] وقيل: يومان وليلة.

وقال سعيد بن جبير: لبث يونس في بطن الحوت سبعة أيام، فطاف به البحار كلها، ثم نبذه على شاطئ دجلة[4].

قال عطاء: أوحى الله تعالى إلى الحوت: إني قد جعلت بطنك له سجنًا، ولم أجعله لك طعامًا، فلذلك بقي سالمًا لم يتغير منه شيء.

وفي هذا دلالة واضحة على أن الإكثار من ذكر الله تعالى وتسبيحه يكون سببًا في تفريج

---

(١) رُوي مرفوعًا وموقوفًا من حديث أنس بن مالك كما في «تفسير الطبري» (٢٣/ ٦٤) و«تفسير عبد الرزاق» (٢/١٥٦).

(٢) الحاكم (٢/ ٥٨٥) والبيهقي (١١٤٤) وابن أبي حاتم.

(٣) يُنظَر: الطبري (١٩/٦٢٨).

(٤) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٤٧٣).

الكروب وإزالة الهموم، وأن يدخر العبد لنفسه عملًا صالحًا مخبوءًا يُخلص فيه النية بينه وبين ربه ليوم فقره وفاقته. قال تعالى:

١٤٥، ١٤٦- ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾

وهكذا استجاب الله ليونس فلفظه البحر، وحمله الموج إلى الشاطئ، وألقاه على الساحل في أرضٍ فضاء، لا شجر فيها ولا بناء ولا ظل، وقد خرج يونس من بطن الحوت سقيمًا؛ لأن أمعاء الحوت أضرَّت بجلْده وهي تتحرك حوله.

وكان يونس قد نزع ثيابه ليخف للسباحة عندما ألقى بنفسه في البحر، فخرج ضعيف البدن، منهك القوى.

وقد أسند سبحانه النبذ إلى نفسه؛ لأنه هو الذي سخر له الحوت ليقذفه على الشاطئ، والأرض العراء هي الخالية، ليس فيها ما يغطيها، ولا يوجد بها بناء ولا زرع ولا شجر.

ومن رحمة الله بيونس أن أنبت عليه في هذه الأرض العارية شجرة من القرع، تظلُّه وينتفع بها.

واليقطين: كل شجر لا ساق له، كالبطيخ والقثاء والقرع، والمراد بها هنا: شجرة القرع؛ لأنها كبيرة الورق، باردة الظل، لا يقربها الذباب، وهي كثيرة الورق، تتسلق أغصانها على الشيء المرتفع، ويبدو أن أغصانها تسلَّقت جسد يونس، فكستْهُ وأظلَّتْه بورقها الناعم، إضافة إلى أن القرع قُوت وغذاء، يؤكل نيئًا ومطبوخًا بلبِّه وقشره، وهذا من تدبير الله تعالى ولُطفه بيونس ﷺ، ولم يَحْدُث مثل هذا لأحد من الرسل.

يُونُسُ يَعُودُ إِلَى قَوْمِهِ دَاعِيًا إِلَى اللهِ بَعْدَ نَجَاتِهِ مِنْ بَطْنِ الْحُوتِ

١٤٧، ١٤٨- ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾

وبعد أن خرج يونس من بطن الحوت عاد ثانية إلى القوم الذين كذَّبوه فهرب منهم بعد أن آمنوا حين رأوا العذاب نازل بهم، وهؤلاء القوم هم اليهود المقيمون في نينوى بسبب أَسْر الآشوريين لهم[١] ويبلغ تعدادهم مئة وعشرين ألفًا[٢].

(١) يُنظَر: كتاب «يونس»-من كتب اليهود- الإصحاح الثالث.

(٢) جاء هذا في ابن جرير (٢٣/ ٦٧).

المعنى: وبعد أن تدارك الله يونس بلطفه، وأخرجه من بطن الحوت، أمره بالعودة إلى أهل نينوى.

وقيل: إنه أُرسل إلى قوم آخرين بعد خروجه من بطن الحوت، يبلغ تعدادهم مئة ألف، لا ينقصون بل يزيدون، ولعل الأول هو الأصح، وهذا بدليل قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾.

أي: أن أهل نينوى آمنوا بيونس، لما شاهدوا العذاب نازل بهم، فخرجوا بأطفالهم وأولادهم ونسائهم وبهائمهم، وفرقوا بينهم وبين الأمهات، وتضرعوا إلى الله تعالى، فرفع عنهم العذاب بعد أن كذبوا يونس وتوعدهم بالهلاك.

وإلى هنا تنتهي قصص الأنبياء السبع في هذه السورة.

إِبْطَالُ دَعْوَى أَنَّ المَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ

١٤٩، ١٥٠- ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ﴾

وبعد أن أنكر سبحانه على المشركين شركهم بالله تعالى، وأبطل دعاويهم الكاذبة، وضرب لهم الأمثال بما أصاب الأمم التي كذبت رسل الله، عادت السورة لتناقش المشركين في زعمهم أن الله تعالى تزوج من الجن فأنجب منهم الملائكة، فهم بنات الله في زعمهم. ويبدأ تفنيد هذه الخرافة بهذا الاستفتاء:

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ عطفًا على الاستفتاء الأول في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ وبعد استعراض آفاق الكون بمشارقه ومغاربه التي تشهد بوحدانية الخالق وعظيم قدرته، وأنه سبحانه غني عن الشريك والولد، فلا يستقيم أن يكون له سبحانه أولاد، لا من الجن، ولا من الإنس، ولا من الملائكة، كما يزعم المشركون، ولا يستقيم أن يكون هناك إله للخير وإله للشر، وأنهما أخوان، كما يزعم الملاحدة الضالون ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]. تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

ومن العجيب أن المشركين حين نسبوا الولد لله تعالى خصُّوه بالإناث وهم يَكْرهُونهنَّ، وخصُّوا أنفسهم بالذكور وهم يحبونهم، فجعلوا لله ما يكرهون. وفي هذا **ثلاثة أنواع من الكفر**:

أحدها: أنهم أثبتوا التجسيم لله تعالى؛ لأن الولادة مختصة بالأجسام.

ثانيها: أنهم اختاروا لأنفسهم الأفضل، وجعلوا لربهم الأدنى.

ثالثها: أنهم وصفوا الملائكة بالأنوثة، وفي هذا استهانة بأكرم خلق الله وأقربهم إليه.

ولذا: فإن الله تعالى ركَّز في كتابه على هذه الأنواع الثلاثة من الكفر، فذكرها أكثر من مرة في عدد من السور.

والمعنى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ أي: اسألهم يا محمد واستخبر هؤلاء المشركين الذين عبدوا الملائكة، وزعموا أنهم بنات الله، فجمعوا بين الشرك بالله تعالى ووصْفه بما لا يليق بجلاله، اسألهم على سبيل التوبيخ والتقريع والإنكار ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ﴾ اللاتي يكرهونهنَّ ولا يرضونهنَّ لأنفسهم ﴿وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ الذين يحبونهم، فكيف يرضون لله ما لا يرضوْنه لأنفسهم؟ هذه قسمة جائرة ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [النحل]

وبعد هذا الاستفسار الإنكاري يطالبهم القرآن بالدليل الحسي على دعواهم، إذ كيف يصفون الملائكة بأنهم إناث، وهنا يأتي التعجب من جهلهم وسفاهتهم، فهل كانوا حاضرين وقت أن خلقنا الملائكة فرأوهم إناثًا وشاهدوا خلقهم؟ كلَّا ليس الأمر كذلك، فهم لم يشهدوا خلقهم، بل إنهم افتروْا على الله الكذب، وتقوّلوا عليه بغير علم، إنهم لم يكونوا حاضرين خلق الملائكة، وإنما هم يهرفون بما لا يعرفون، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف]. قال تعالى:

١٥١، ١٥٢- ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

ثم يُفْصِحُ القرآن عن مقولتهم المفتراة، فبيَّن سبحانه أن المشركين يقولون المستحيل، فضلًا عن القول بدون دليل، فقولهم هذا كذب محض وإفك مفترى.

ولا يصح الوقف على ﴿لَيَقُولُونَ﴾ والبدء بما بعدها؛ لأنه بدء قبيح، فيه نسبة الولد إلى الله تعالى، ولأن الفصل بين القول وقائله يوهم غير المعنى المقصود.

والإفك: هو أشنع الكذب فهم من شدة كذبهم وشناعة جهلهم يقولون زورًا وبهتانًا: اتخذ الله ولدًا، فينسبون له الذرية، قولًا بلا عِلْم ولا دليل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ غاية الكذب، كاذبون **أوَّلًا** في نسبتهم الولد إلى الله تعالى، وكاذبون **ثانيًا** في جعلهم الملائكة إناثًا، وقد كفروا **ثالثًا**؛ لأنهم عبدوهم من دون الله قال تعالى: ﴿تَكَادُ

ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم].

قال تعالى موبِّخًا لهم؛ ومبينًا أنه لا يوجد دليل حسي ولا عقلي ولا سمعي، على دعوى الشرك: فقال سبحانه في طلب الدليل الحسي المشاهَد:

١٥٣-١٥٥- ﴿أَصۡطَفَى[1] ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ[2]﴾

أي: ولو سلَّمنا أن الله تعالى قد اتخذ ولدًا، فلماذا اختار البنات دون البنين؟ وهذا الاستفهام بمثابة التسليم للمعارِض أثناء المناظرة ليصل إلى نهاية الجدل.

وفي هذا إنكار من الله تعالى عليهم باختيارهم البنات له دون البنين، وكان أحدهم إذا بُشِّر بالأنثى ظل وجهه مسوَّدًا وهو كظيم.

والمعنى: لأي شيء يختار الله البنات دون البنين؟ ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ﴾ [الإسراء: ٤٠].

وأي شيء حصل لكم حتى تَحْكُموا هذا الحُكْم الجائر؟ وكيف أصدَرْتُم هذا الحكم الباطل، وفي هذا تسفيه وتجهيل لهم؟! فبئس الحكم ما تحكمون أيها القوم.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وتميزون هذا القول الباطل الجائر، فإنكم لو تذكّرتم لم تقولوا هذا القول:

أليس عندكم تمييز وإدراك، تعرفون به خطأ هذا الكلام، وأنه لا يجوز ولا ينبغي أن يكون له سبحانه ولد؟! وبعد أن عجزوا عن إقامة دليل المشاهدة، طالبهم القرآن بدليل عقلي، فقال:

١٥٦، ١٥٧- ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴿١٥٦﴾ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾

أي ألكم دليل من كتاب أو سنة على قولكم؟

---

(١) قرأ أبو جعفر وورش بخلف عنه بوصل همزة (أصطفى) حال وصلها بما قبلها، ويُبدأ بهمزة مكسورة وذلك على حذف همزة الاستفهام، فأصلها: أأصطفى، وقرأ الباقون بهمزة مفتوحة في الوصل والوقف على الاستفهام الإنكاري.

(٢) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف الذال من (تذكرون)، والباقون بتشديدها.

فأنكر الله عليهم أن يكون لهم حجة واضحة على صحة ما قالوه، فوبَّخهم على زعمهم الفاسد، وأنه لا يوجد لهم برهان بيِّن، ولا دليل واضح على أن الله تعالى اتخذ الملائكة بنات له؟

وبعد عجزهم عن إقامة الدليل الحسي والعقلي على أن الملائكة بنات الله، طالبهم بالدليل السمعي المنقول عمن سبقهم، فإن كان لكم حجة بينة مسطر فيها أن الملائكة بنات الله -كما زعمتم- فأتوا به ليشهد لكم على صحة دعواكم، وفي هذا تعجيز لهم، وبيان أنهم لا يستندون في أقوالهم الباطلة على دليل شرعي، ولا على منطق عقلي، فثبت بهذا أن قولهم كذب متعمد.

وبهذا ينتفي بالدليل الحسي والعقلي والنقلي أن الملائكة إناث، وأنهم بنات الله؛ لأن القائلين بذلك لم يحضُروا خلْق الملائكة، وليس عندهم دليل شرعي، ولا منطق عقلي ينطق بذلك، وبالعجز عن هذه الأدلة ينحصر القول في إخبار الله تعالى عنهم بأنهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء:].

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف].

وهو دليل قد سَلِم من المعارضة والمناظرة.

وقد جمعت الآيات السابقة وهي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ وقوله: ﴿وَسُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ وقوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ جمعت هذه الآيات الثلاث بين أسلوب المناظرة، وأسلوب الموعظة، وأسلوب التعليم، فما أبدع هذا النسيج الجامع!!

لِلَفْظِ الْجِنَّةِ ثَلَاثَةُ مَعَانٍ

١٥٨- ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

في هذه الآية ثلاثة معان للجِنَّة: هي:

١- أنهم فرقة من الجن. ٢- أو أنهم الملائكة. ٣- أو أنهم الشياطين.

المعنى الأول: المراد بالجِنَّة: جماعة من الجن، وفرقة منهم:

حيث ذكر سبحانه في هذه الآية، كيف حصلت ولادة الملائكة -على حد زعمهم- فبيَّن جلَّ شأنه أن المشركين جعلوا بين الله وبين الجن نسبًا بتلك الولادة، أي: أن الله تعالى

تزوَّج من الجن فأنجب الملائكة، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، إنها صورة من صور الشرك الخاصة في الجاهلية، وأسطورة من خرافاتهم تحكيها هذه السورة.

﴿وَجَعَلُوا﴾ أي: المشركين بالله ﴿بَيْنَهُ﴾ أي: بين الله تعالى ﴿وَبَيْنَ الْجِنَّةِ﴾ أي: أشراف نساء الجن، ﴿نَسَبًا﴾ أي: **مصاهرة**، وهو تفسير بالمعنى؛ لأن **النسب** في الأصل: القرابة وصلة الدم. فالجِنَّة: **هي الجماعة من الجن**.

وجاء اللفظ مؤنثًا مراعاة لمعنى الجماعة منهم، كما يقال: الطائفة من الرجال، حيث زعم المشركون أن الملائكة بنات الله، أنجبهم من سَروات الجن، أي: من أشرف نساء الجن.

قال قتادة في تفسير الآية: قالت اليهود: إن الله صاهر من الجن، فخرجتْ بينهما الملائكة[1].

وقال مجاهد: قال كفار قريش: الملائكة بنات الله، فقال لهم أبو بكر الصديق: فمن أمهاتهم؟! فقالوا: بنات سروات الجن، فقال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ يقول: إنها ستُحضَر للحساب[2]، بين يدي الله تعالى ليجازيهم، وهم عباد من عباده، ولو كان بينهم وبين الله نسبًا لما حضروا للحساب والجزاء.

والقائلون بذلك من قريش هم قبائل: سُلَيْم، وخُزاعة، وجهينة.

ولقد علمت الجن كذب المشركين وأنهم محضرون للعذاب يوم القيامة، وعلمت أيضًا أن كذب المشركين في ذلك كذبًا فاحشًا، وأنهم سيعاقبون عليه يوم القيامة.

فالضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ إما أن يعود على المشركين، أو على الجن، وكلاهما معاقب يوم القيامة.

المعنى الثاني للجِنَّة: ومن المفسرين من قال: **إن المراد بالجِنَّة: الملائكة**، أي: أنهم جعلوا بين الله وبين الملائكة نسبًا بالأبوة والبنوة، فقالوا: إنهم بنات الله، وهذا يقتضي أن تكون الآية تكرار للآيتين قبلها وهما: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾﴾ و ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ والأول أصح، وإن كان مؤداهما واحدًا.

المعنى الثالث: وزعم بعضهم أن ﴿الْجِنَّةِ﴾ **أصل الجن وهو الشيطان**، كما قال تعالى:

---

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (١٩/ ٦٤٠).

(٢) أخرجه آدم بن أبي إياس ص٥٧١، تفسير مجاهد والطبري (١٩/ ٦٤٥) والبيهقي (١٤١).

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ والمراد: شياطين الجن.

وزعموا أن الشيطان إله الشر، وهو أخ لله تعالى، الذي هو إله الخير -على حد زعمهم- قالوا: كان إله الخير وحده أوَّلًا، ثم خطر له الشر، فنشأ منه إله الشر، والقائلون بذلك هم الثَّنَوية من المجوس[1].

أخرج الطبري عن ابن عباس ﷺ قال: زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان[2].

فالمراد **بالنسب** في التفسير الأول: هو المصاهرة، والمراد **بالنسب** في التفسير الثاني والثالث: هو قرابة الدم والعصب بالأبوة والبنوَّة أو الأخوة.

ولفظ الجِنّة لغة يصدق على الجن، ويصدق على الملائكة؛ لأن كلًّا منهما مستتر عن العين. قال تعالى منزهًا نفسه عن كل شريك:

١٥٩، ١٦٠- ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾

ثم إن الله تعالى نزَّه نفسه عن كل ما لا يليق به مما يصفه به الكافرون من الشريك والولد، وفي هذا تلقين من الله تعالى للمؤمنين أن يقتدوا به سبحانه في التنزيه والتقديس، وفيه أيضًا تعجب من حالهم، وهي جملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها.

ثم استثنى سبحانه من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ وهو استثناء منقطع، فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: فإنهم لا يحضرون إلى جهنم، لأنهم ينزِّهون الله تعالى عما لا يليق بجلاله، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنبياء].

لَا يَحْدُثُ الضَّلَالُ إِلَّا لِمَنْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ شَقِيٌّ ضَالٌّ

١٦١-١٦٣- ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ[3] ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾
أخبر سبحانه أن المشركين وما يعبدونهم من دون الله لا يملكون أن يَضلوا أو يَفْتِنوا

(١) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٣/١٨٦) وانظر: «تفسير ابن عطية» (٤/٤٨٨).
(٢) «تفسير الطبري» (١٩/ ٦٤٤).
(٣) وقف يعقوب على (صال) بالياء، والباقون بحذفها.

أحدًا من خلق الله، إلا من كان من أهل الشقاء، ولن يضلوا إلا من قدَّر الله ﷻ له أنه يَصْلى الجحيم لكفره وظلمه فهم أهل النار.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون بالله في كل زمان ومكان وما تعبدونهم من دون الله ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على الله تعالى ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ أحدًا من خلق الله، أي: فلَسْتُم بمضلين أحدًا من المؤمنين المخلصين، ولن تُسلَّطوا عليهم، ولن تَفْتِنوا أحدًا منهم، إلا من سبق في علم الله تعالى أنه من أهل الضلال، وأنه ممن يَصْلَى عذاب النار، فإن لهم قلوبًا لا يفقهون بها، ولهم أعينًا لا يبصرون بها، ولهم آذانًا لا يسمعون بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات].

وفي هذا بيان لعجزهم وعجز آلهتهم عن إضلال أحد من خلق الله.

وفيه بيان كمال قدرة الله تعالى وقوّته.

وفيه بيان أنه لا يطمع أحد في إضلال عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين.

وبيان أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، وكان المشركون يخوِّفون الناس منها.

المَلائِكَةُ يُبَرِّئُونَ أَنْفُسَهُم مِمَّا قَالَهُ المُشْرِكُونَ

١٦٤-١٦٦- ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝١٦٤ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦﴾

في هذا رد من الملائكة على قول المشركين عنهم: إنهم إناث، وإنهم بنات الله، فقد عرَّفوا أنفسهم بأنهم عباد الله، مطيعون له، كل منهم له وظيفة خاصة لا يتعداها، وله مكان في السموات لا يتجاوزه، منهم الموكَّل بالأرزاق، ومنهم الموكَّل بالأعمال والأقوال، ومنهم الموكَّل بقبض الأرواح، ومنهم أمين الوحي، ومنهم النافخ في الصور، ومنهم حملة العرش والكرسيّ، ومنهم خزنة النار والجنة، ومنهم الحور العين...، وهكذا هم منازل ورتب ودرجات متفاوتة، كل منهم له مقام معلوم.

وفي إخبار الملائكة عن أنفسهم بصيغة الجمع، ما يفيد أنهم ليسوا إناثًا كما يزعم المشركون، فهم صافُّون ومسبِّحون.

ومما يروى في هذا عن مقاتل أن جبريل توقَّف بالنبي ﷺ ليلة المعراج عند سدرة

المنتهى، ثم قال له: تقدم، وتأخر جبريل قائلًا: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ ولو تقدَّمتُ خطوة واحدة لأحرقتني الأنوار، فلكل واحد من الملائكة موضع مخصوص في السموات، ومكان للعبادة لا يتجاوزه، وهذه **جملة من الأحاديث** في هذا المقام:

١- عن العلاء بن سعيد ﷺ أن النبي ﷺ قال يومًا لجلسائه: «**أطَّت السماء، وحُق لها أن تئط، ليس منها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد**» ثم قرأ: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾[1].

٢- وروى مسروق عن عائشة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما في السماء الدنيا موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم**» فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾[2].

٣- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: إنَّ مِنَ السموات لسَماءً، ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملَك، أو قدماه، قائمًا أو ساجدًا، ثم قرأ ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾[3].

٤- وفي حديث أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، إن السماء أطت، وحُق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملَك واضع جبهته ساجدًا لله**»[4].

وتمضي الملائكة في وصفها بأن منهم الواقفين صفوفًا في عبادة الله وطاعته:

١- في حديث جابر بن سمرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**ألا تصُفُّون كما تصف الملائكة**

(١) ابن عساكر (٥٢/ ٣٨١) ومحمد بن نصر (٢٥٥). وفي إسناده مجاهيل، والمتن صحيح، دون ذكر الآيات كما سيأتي عن أبي ذر.

(٢) رواه أبو الشيخ في «العظمة» برقم (٥١٠) وابن جرير (١٩/ ٦٥١) برقم (٢٩٦٧٨) ومحمد بن نصر المروزي (٢٥٣)، والحديث له شواهد صحيحة بدون ذكر الآية.

(٣) «تفسير عبد الرزاق» (٢٥٦٥) والطبري (٢٣/ ١١٢) قال الألباني: وهو في حكم المرفوع وإسناده صحيح، وله شواهد من طرق عدة «السلسلة الصحيحة» (١٠٥٩، ١٠٦٠، ١٧٢٢) وأخرجه الطبراني (٩٠٤٢) والبيهقي (١٥٩).

(٤) «صحيح سنن الترمذي» (١٨٨٢) بتحسين الألباني، وابن ماجه (٤١٩٠)، وحسنه الألباني في ابن ماجه (٣٣٧٨) وفي المشكاة (٥٣٤٧) التحقيق الثاني وأخرجه البزار (٣٥٢٤) والبغوي (٤١٧٢) وهو في مسند أحمد (٢١٥١٦) قال محققوه: حسن لغيره لأن فيه انقطاعًا بن العجلي وأبي ذر.

عند ربها»؟ فقلنا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: **«يتمون الصفوف الأول، ويتراصون في الصف»**[١].

٢- وفي حديث حذيفة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«فُضِّلنا على الناس بثلاث: جُعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجُعلت لنا الأرض مسجدًا، وجعلت تربتُها لنا طهورًا إذا لم نجد الماء»**[٢].

٣- وفي حديث النعمان بن بشير ﷺ قال: لقد رأيت النبي ﷺ يُقوِّم الصفوف، كما تُقوَّم القداح، فأبْصر يومًا صدْر رجل خارجًا من الصف فقال: **«لتقيمُنَّ الصفوف أو ليُخالفَنَّ اللهُ بين وجوهكم»**[٣].

٤- وفي حديث أبي مسعود ﷺ قال: كان النبي ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة، ويقول: **«استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم، لِيَلِيني منكم أولوا الأحلام والنهي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»**[٤].

٥- وكان عمر بن الخطاب ﷺ إذا أقيمت الصلاة قال: اسْتوُوا، تقدَّم يا فلان، تأخر يا فلان، أقيموا صفوفكم يريد الله بكم هدْي الملائكة، ثم يتلو: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾[٥].

٦- وفي مصنف عبد الرزاق عن الحسن ﷺ قال: كانت أول صلاة صلَّاها رسول الله ﷺ الظهر، فأتاه جبريل، فقال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ فقام جبريل بين يديه ورسول الله ﷺ خلفه، ثم صف الناس خلفه، والنساء خلف الرجال، فصلى بهم الظهر أربعًا، حتى إذا كان عند العصر قام جبريل ففعل مثلها، ثم جاءه حين غربت الشمس فصلى بهم ثلاثًا، يقرأ في الركعتين الأُولَيَيْن يجهر فيهما، ولم يُسمَع في الثالثة، حتى إذا كان عند العشاء، وغاب الشفق، جاءه جبريل، فصلى بالناس أربعَ ركعات، يجهر بالقراءة في

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٤٣٠) وأبو داود (٦٦١) والنسائي (٨١٥) وابن ماجه (٩٩٢) وابن أبي شيبة (١/ ٣٥٣).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٥٢٢).

(٣) مسلم (٤٣٦)، والبخاري (٧١٧) و ابن أبي شيبة (١/ ٣٥١).

(٤) عند مسلم (٤٣٢) وابن أبي شيبة (١/ ٣٥١).

(٥) الطبري (١٩/ ٦٥٣).

ركعتين، حتى إذا أصبح ليلته أتاه فصلى ركعتين يجهر فيهما ويطيل القراءة[١].

٧- وفي حديث أنس ﷺ: **«أقيموا صفوفكم، فإن من حُسْن الصلاة إقامة الصف»**[٢].

٨- وفي حديث أبي هريرة «سوُّوا صفوفكم فإن تسوية الصف من تمام الصلاة»[٣].

ومعنى الآية التي بعدها: وإنا لنحن المنزهون لله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، كما قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾[الأنبياء: ٢٠].

ومن المفسرين من قال: إن هذه الآيات الثلاث من كلام المؤمنين، فيكون المعنى: وما منا من أحد نحن -المؤمنين المخلصين- إلا له صفة وعمل نحو خالقه، لا يتنازل عنه، ولا يمكن للجن أن يحولوه عنه، فلا تطمعوا أيها المشركون في زحزحتهم عن عبادة ربهم، ويكون المراد بالمقام على هذا المعنى: صفة العبودية لله[٤].

مَقَالَةُ الْكُفَّارِ قَبْلَ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

١٦٧-١٧٠- ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ[٥] ۝١٦٧ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٦٩ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝١٧٠﴾

بيَّن ﷻ أن المكذبين بالبعث والرسالة، كانوا يُظهرون التمنِّي ويقولون قبل بعثة النبي ﷺ: لو جاءنا من الرسل أحد، وأُنزل علينا من الكتب مثل ما أنزل على الأمم قبلنا، كالتوراة والإنجيل والزبور، لكنا أول من آمن به، وكنا أكثر عبادة وإخلاصًا لله منهم.

فالضمير في ﴿لَيَقُولُونَ﴾ يعود على من قالوا هذه المقالة من الكفار الذين كذبوا محمدًا ﷺ بعد مجيئه، وكانوا قد وعَدُوا أنهم أول من سيؤمن به عند بعثته، فخالفت أقوالهم أفعالهم، ولفظ ﴿ذِكْرًا﴾ معناه: كتابًا، ومعنى ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: مثل الرسل السابقين

(١) «مصنف عبد الرزاق» (١٧٧١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٣٥١)، وانظر حديث أبي هريرة في البخاري (٧٢٢) ومسلم (٤٣٥).

(٣) البخاري (٧٢٣) ومسلم (٤٣٣).

(٤) الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره (٢٣/ ١٦٢).

(٥) انفرد المدني الأول بعدم عد (ليقولون) آية، وجمهور علماء العدد على عدها آية.

كموسى وعيسى، فلو جاءنا كتاب مثلهم ﴿لَكُنَّا﴾ بسبب وجود هذا الكتاب فينا ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ له في الطاعة والعبادة، أي: لكنَّا عباد الله وحدنا دون غيرنا.

وهم كذبة في كل ذلك، فقد جاءهم أفضل الرسل بأفضل الكتب، فكفروا به، وعُلم أنهم متمردون على الحق.

قال قتادة: قالت هذه الأمة ما قالت قبل أن يبعث محمد ﷺ فلما جاءهم محمد ﷺ كفروا به[1].

والذكر: هو القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر].

وكثيرًا ما قال المشركون مثل ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر].

وهذا كقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٧، ١٥٨].

وقوله أيضًا: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة].

واستمر القوم على كفرهم، حتى نزل فيهم القرآن، ولمَّا جاءهم محمد بالكتاب المبين كما تمنَّوا وطلبوا، كانت النتيجة أنهم كفروا به ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة كفرهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [العنكبوت].

أَهْلُ النَّصْرِ عَلَى الْعَدُوِّ

١٧١-١٧٣ - ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾

---

(١) يُنظَر: ابن جرير (١٩/ ٦٥٥).

ثم بشر الله نبيه والمؤمنين معه، بأنه ناصرٌ جنده من عباده المؤمنين، على أعدائهم الذين كذبوا رسل الله وعادوهم، وحالوا بينهم وبين نشر الدعوة الإسلامية، وكلمة الله لا مردَّ لها، وهي كائنة لا محالة.

وقد جاء هذا الوعد في كثير من آي الذكر الحكيم، كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وهؤلاء هم حزب الله الذين نصروا دين الله، فنصرهم الله، وهم من قال الله فيهم: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر].

وقال فيهم أيضًا: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة].

لقد سبق وعدنا لعبادنا المرسلين بالنصر والفوز والحجة والبرهان، وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله، فاستقامت أحواله، وقاتل أعداء الله.

﴿وَإِنَّ جُندَنَا﴾ المجاهدين في سبيلنا ﴿لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ لأعدائهم في الدنيا بالحجة والبرهان، وهم الغالبون لهم في ساحة الجهاد، وفي الآخرة بدخول الجنة، ونصر الله للمؤمنين في الدنيا محقق، ولا يقدح فيه هزيمتهم في بعض المعارك، فإن هذا تمحيص وابتلاء لهم، والعاقبة في النهاية بإذن الله تعالى للمؤمنين بالنصر والغلبة، والحجة والبرهان.

ولم يفارق النبي ﷺ هذه الدنيا إلا بعد أن صارت كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمةُ الله هي العليا، ولن تنقضي هذه الدنيا إلا بعد أن يُظهر الله دينه على سائر الأديان، ويقهر اليهود ويختبئون وراء الحجر والشجر.

الْأَمْرُ بِتَرَقُّبِ مَا سَيَحِلُّ بِالْكُفَّارِ مِنْ عَوَاقِبَ وَخِيمَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

١٧٤، ١٧٥- ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾﴾

ثم أمر الله رسوله أن يفارق المكذبين المعاندين، الذين لم يَقْبلوا الحق، فأعرضوا عن الإيمان به، وألَّا يهتم بأقوالهم، ولا يحزن على إعراضهم، حتى يأتي أمر الله بعذابهم.

وترقَّب أيها الرسول، وترقَّبوا أيها المؤمنون ما سيحل بأعداء الله من عقاب في الدنيا والآخرة، فسوف يرون ما سينزل بهم من عذاب لا محالة، إن عاجلًا أو آجلًا ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ شاهدهم حين ينزل العذاب بهم ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ عاقبة كفرهم، ويرون بأعينهم ما يحل بهم.

وفي هذا تهديد ووعيد لهم، فَدَعْهُم يا محمد لليوم الذي تراهم فيه، ويرون هم تحقيق وعْد الله فيهم. قال تعالى:

١٧٦، ١٧٧- ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ۝١٧٧﴾

وكثيرًا ما قال المشركون للنبي ﷺ: يا محمد، أرنا العذاب الذي تُخوِّفنا به، وعندما يشاهدون العذاب بأعينهم، يقال لهم من باب التهكم: أفبنزول عذابنا بهم يستعجلونك يامحمد؟ فهل بلغ الجهل وانطماس البصيرة بهم أنهم يطلبون تعجيل العقوبة بهم في الدنيا؟

رُوي أنه لما نزل ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ قالوا على وجه الاستهزاء: متى يكون هذا؛ فنزلت الآية[1].

ويا ويلهم يوم ينزل بهم عذاب الله، ويحل بساحتهم صباحًا وهم لم يستعدوا له، فبئس الصباح صباحهم، ولن ينفعهم الندم ولا التوبة ﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ العذاب ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي: بفنائهم الواسع ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي: بئس اليوم يومهم الذي فيه هلاكهم ودمارهم.

عن أنس ﷺ قال: صبَّح رسول الله ﷺ خيبر، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش، رجعوا وهم يقولون: محمد والله، محمد والخميس[2].

وعن أنس أيضًا أن النبي ﷺ غزا خيبر، فلما دخل القرية قال: «**الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**»، قالها ثلاث مرات[3].

---

(١) قاله ابن عباس، كما أخرجه جُوَيْبِر، «الدر المنثور» (١٢/ ٤٩٦).

(٢) المراد بالخميس: الجيش، وسُمِّي كذلك؛ لأن النبي ﷺ كان يقسمه إلى خمسة أقسام: المقدمة، والساقة، والميمنة، والميسرة، والقلب، أو لأن الغنائم تخمَّس فتتقسم خمسة أخماس، والحديث في مسند أحمد (١٢٠٨٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الحميدي (١١٩٨) والنسائي (٧/ ٢٠٣) والبخاري (٢٩٩١، ٣٦٤٧).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٧١، ٤١٩٧) وغيرهما و«صحيح مسلم» برقم (١٣٦٥).

لأنه صباح الشر والعقوبة والاستئصال.

وعن أبي طلحة ﷺ قال: لما صبَّح رسول الله ﷺ خيبر، وقد أخذوا مساحيهم، وغَدَوْا إلى حروثهم وأرضهم، فلما رأوا النبي ﷺ ولَّوْا مدبرين، فقال النبي ﷺ: **«الله أكبر، الله أكبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»**[1].

ثم ذكرر سبحانه مرة أخرى الأمر بالتولى عنهم وتهديهم بالعقاب في الآية التالية:

تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ مُؤَكَّدٌ لِلمُكَذِّبِينَ بِخَاتَمِ المُرْسَلِينَ

١٧٨، ١٧٩- ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

فأعرض -يا محمد- عن هؤلاء المكذبين بك وبدعوتك حتى يأذن الله بعذابهم في الدنيا أو الآخرة، أو فيهما معًا، وهذه الآية تأكيد لنظيرتها السابقة.

أو أن يكون التولِّي الآخر غير الأول، أي: أعرض عن المكذبين والمشركين حتى ينزل العذاب بهم في الدنيا، أو إلى أن يأتيهم العذاب المستمر في الدار الآخرة.

وتمهل -يا محمد- وانظُر حال المشركين، فسوف يرون ما يحل بهم من النكال والعذاب، وقد أعيد هذا المعنى في الآيتين لتأكيد حلول العقاب بمن كفر بخاتم المرسلين في الدنيا أو الآخرة، أو فيهما معًا.

خِتَامُ السُّورَةِ بِثَلَاثَةِ مَقَاصِدَ هِيَ: التَّسْبِيحُ وَالتَّسْلِيمُ وَالْحَمْدُ

١٨٠-١٨٢- ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

تختم السورة بهذه **المقاصد الثلاثة**:

أولها: تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله مما استفهمت عنه السورة، من قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ وقوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ

---

(١) مسند أحمد (١٦٣٤٧،١٦٣٥٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الطبراني في الكبير (٤٧٠٤) وبنحوه ابن أبي شيبة (١٤/ ٤٦٢) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٤٩) رواه أحمد والطبراني بأسانيد، ورجال أحمد رجال الصحيح.

وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾.

ويأتي هذا في آية جامعة لما حوتْه السورة من تنزيه الله تعالى عن الشريك والولد ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ أي: تنزه ربك وتقدَّس عن كل نقص، وعن كل ما لا يليق بجلاله مما يصفه به المشركون، فهو سبحانه المختص بالعزة والقوة، والغلَبة والجبروت، لا يملك غيره هذه العزة، ولا يدانيها أحد في الكون، ولا يشوبها افتقار.

وكلمة ﴿الْعِزَّةِ﴾ إن أريد بها الصفة الذاتية لله تعالى، فإنه يجوز الحلف بها، وإن أريد بها العزة المخلوقة الكائنة للأنبياء والمؤمنين، فلا يجوز الحلف بها.

وثانيها: وسلام دائم، وتحية عطرة من رب العالمين، وثناء وأمان منه سبحانه على جميع الرسل الذين ذُكروا في السورة، وسلام على إخوانهم من جميع الأنبياء والمرسلين، الذين بلَّغوا التوحيد والشرائع عن ربهم، وهم أعلى مراتب البشر، الذين بلَغوا الكمال في أنفسهم، وكمَّلوا غيرهم، فوجب على كل عبد أن يقتدي بهم ويهتدي بهديهم، كما وصفهم ربنا بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وبقوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام: ٩٠].

وبقوله جلَّ شأنه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ [مريم: ٥٨].

ولفظ: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ يشمل الملائكة الكرام، فهم مرسلون فيما يقومون به من تنفيذ أمر الله وما يبلغونه إلى أنبياء الله ورسله.

وفي الأثر عن أبي طلحة مرفوعا: **«إذا سلمتم عليَّ فسلموا على المرسلين، فإنما أنا رسول من المرسلين»**[١].

وثالثها: الحمد لله في البدء والختام، فهو رب العالمين، ومالك الخلق أجمعين، فله الثناء الكامل، والحمد لله على هلاك الأعداء ونصْر الأنبياء، والحمد لله على ما قدره

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/ ٧٤) عن قتادة، وهو عند عبد الرزاق (٢/ ١٥٩) وابن أبي حاتم، وإسناده قوي ورجاله ثقات إلا أن قتادة مدلس.

لهم من حُسْن العواقب، فهو المستحق لذلك دون غيره، وكان هذا الختام بالسلام على المرسلين، وبحمده سبحانه تعليمًا للعباد.

وفي هذه الآيات الثلاث تعليم للأمة أن يقولوها، ولا يبخلوا بما فيها، ولا يغفلوا عنها، سِيَّمَا في نهاية كلامهم ومجالسهم:

عن علي ﷺ قال: من أحب أن يَكْتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه إذا قام من مجلسه ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١].

هذا: وقد صح في **كفارة المجلس** أحاديث منها:

١- ما جاء عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: **«من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك- إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك»**[٢].

٢- وعن أبي برزة الأسلمي ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقول بآخره إذا أراد أن يقوم من المجلس: **«سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك»** فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولًا ما كنت تقوله فيما مضى، قال: **«كفارة لما يكون في المجلس»**[٣].

٣- وعن جبير بن مطعم ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد**

---

(١) ورواه الشعبي أيضًا وهو حديث مرسل ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ١٤١) والبغوي (٧/ ٦٦).

(٢) الترمذي برقم (٣٤٣٣) وقال: حسن صحيح، وأحمد في المسند (١٠٤١٥) قال محققوه: حديث صحيح، وفيه موسى بن عقبة، لم يسمع من سهيل بن أبي صالح، وأخرجه البغوي (١٣٤٠) والبيهقي في الشعب (٦٢٨) والطبراني في الدعاء (١٩١٤) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٢٣٠) والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٣٦) وقال: إسناده على شرط مسلم إلا أن النجار أعلَّه.

(٣) أبو داود برقم (٤٨٥٩) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٢٥٩) والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٣٧)، ومسند أحمد (١٩٧٦٩، ١٩٨١٢) قال محققوه: حديث صحيح، وفيه أبو هاشم لم يسمع من أبي برزة، وبينهما أبو العالية الرياحي وهو ثقة، وباقي رجال الإسناد ثقات، وأخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٢٥٦) وأبو يعلى (٧٤٢٦) والطبراني في الدعاء (١٩١٧).

ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، من قالها في مجلس ذكرًا، كان كالطابَع يطبع عليه، ومن قالها في مجلس لغوًا كانت كفارة له»[١].

٤- وفي حديث السائب بن يزيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من إنسان يكون في مجلس فيقول حين يريد أن يقوم: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك- إلا غُفر له ما كان في ذلك المجلس»**[٢].

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تم تفسير (سورة الصافات) ولله الحمد والمنة.



(١) الطبراني في «المعجم الكبير» (٢/ ١٣٨)، برقم (١٥٨٦) والحاكم (١/ ٥٣٧) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، والنسائي (٣/ ٧١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٤٢) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) «المسند» (٣/ ٤٥٠) برقم (١٥٧٢٩) قال محققوه: إسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن أبي طالب فمن رجال ابن ماجه وهو ثقة، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧/ ١٥٤) برقم (٦٦٧٣) من طريق الليث، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٤١): رجالهما رجال الصحيح، وأخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٢٨٩) وللحديث طرق وشواهد صحيحة.

تَفْسِيرُ سُورَةِ ص (٣٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (ص) هي السورة الثامنة والثلاثون في ترتيب المصحف، والثامنة والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (القمر) وقبل سورة (الأعراف)، كان نزولها في آخر حياة أبي طالب، فتكون قد نزلت قبل الهجرة بثلاث سنوات تقريبًا، وسُمِّيَت السورة باسم أول حرف فيها، وتسمَّى: سورة (داود)؛ لذكر جانب هام من قصة داود ﷺ فيها، لم يذكر في غيرها من السور.

وعدد آياتها ثمان وثمانون آية في العدد الكوفي[1].

وهي اثنتان وثلاثون وسبع مئة كلمة، وسبعة وستون وثلاثة آلاف حرفًا، وهي سورة مكية.

سبب النزول: وجاء في سبب نزول السورة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش، فيهم أبو جهل، فقال: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثْت إليه فنهيْته؟ فبعث إليه، فجاء النبي ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدْر مجلس رجل، فخشي أبو جهل أن يجلس الرسول إلى جوار أبي طالب ويكون أرقى عليه، فوثب أبو جهل فجلس في ذلك المجلس، فلم يجد رسول الله ﷺ مجلسًا قُرب عمه، فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أي ابن أخي، ما بال قومك يشْكونك؟ يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول، قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ، فقال: «**يا عم، إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزْية**» ففزعوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: كلمة واحدة؟ قال: نعم، وأبيك عشْرًا، قالوا: فما هي؟ قال: «**لا إله إلا الله**» فقاموا فزعين ينفضُون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ

---

(١) وخمس وثمانون آية عند الجحدري من البصريين، وست وثمانون آية عند أهل الحجاز، وأهل الشام، وأهل البصرة، عن يعقوب الحضرمي وأيوب بن المتوكل.

عُجَابٌ ﴿٥﴾ فنزلت الآيات الثماني الأولى من هذه السورة[١].

وفي سبب النزول هذا توبيخ للمشركين على شركهم، وتوبيخ لهم على تكذيب الرسول ﷺ فيما بلَّغه لهم، وتهديد لهم حتى لا يحلَّ بهم ما حلَّ بغيرهم.

وفيه تسلية وتصبير للنبي ﷺ؛ كي يقتدي بمن سبقه من الرسل.

قضايا السورة الثلاث:

والقرآن المكي، يتناول قضايا ثلاث، يغرسها في قلوب الناس؛ حتى يأخذ بأيديهم إلى الإيمان بالله ورسوله، والعمل لما في اليوم الآخر من حساب وجزاء على الأعمال، وهي: التوحيد، والرسالة، واليوم الآخر:

١ - أما قضية التوحيد ونبذ الشرك بألوانه فهي في الآيات السبع الأولى من السورة.

٢- وقضية الإيمان بالوحي المنزل من عند الله تعالى على خاتم الرسل ﷺ تبدأ من الآية الثامنة التي يتعجب فيها المشركون من بعثة النبي ﷺ ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ﴾ إلى الآية الثامنة والأربعين، ويتخلل ذلك ذكر عدد من الأمم التي كذبت رسل الله، فلحق بهم ما أصابهم من الهلاك والدمار، وهم: قوم نوح، وعاد، وفرعون وقومه، وقوم ثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة.

والمكذبون للرسول الخاتم من هذه الأمة، لا يحتاجون إلا إلى صيحة واحدة تأخذهم، فيحل بهم مثل ما حل بهذه الأمم.

ثم تعرضت السورة لذكر جانب هام من قصة ثلاثة من رسل الله تعالى هم: داود،

---

(١) يُنظَر: ابن أبي شيبة في المغازي (١٨٤١٣) وأحمد (١/ ٢٢٧) برقم (٢٠٠٨، ٣٤١٩) قال محققوه: إسناده ضعيف، فقد تفرّد به يحيى بن عباد عن الأعمش، فهو في عداد المجهولين، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه الترمذي في التفسير (٣٢٣٢) وقال: هذا حديث حسن، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٧٦٩) والطبري (٢٣/ ٧٩) وصححه الحاكم (٢/ ٤٣٢) ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٤٥) وعبدالرزاق (٩٩٢٤) وأبو يعلى (٢٥٨٣) والواحدي (٢٠٩) والسيوطي في «الدر» (٥/ ٢٩٥) وأخرجه ابن حبان (٦٦٨٦) وقال محققه: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات رجال الشيخين، قلت: ولعله حديث حسن بإسناد حسن، كما قال الترمذي.

وسليمان، وأيوب ﷺ، وأشارت -مجرد إشارة- بذكر أسماء ستة آخرين من رسل الله، هم: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإسماعيل، واليسع، وذو الكفل، وكلٌّ من المصطفَيْن الأخيار، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

٣- ثم تناولت السورة في القضية الثالثة: يوم القيامة وما فيه من حشر ونشر، وجنة ونار، وذكرت في خلال ذلك ما يحدث بين أهل النار -وهم فيها- من تخاصم وتلاوُم وتلاعُن، كل منهم يُلقي باللائمة على الفريق الآخر، من الأتباع والمتبوعين ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾.

ثم ذكرت السورة أول غواية من الشيطان لبني آدم، ممثلة في قصة آدم وإبليس.

وفي أثناء قضايا السورة الثلاث، تجدها تهتم اهتمامًا واضحًا بإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى وقدرته، لربط العباد بربهم وجذْبهم إليه سبحانه كلما ابتعد الفكر قليلًا، كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [١٠].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [٢٧].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾.

هذا: ويتضح من السورة ومن سائر السور المكية أن **أصول الكفر ثلاثة** هي:

١- الإشراك بالله تعالى، وهو ما تعالجه هذه الآية ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾.

٢- تكذيب الرسول ﷺ وتكذيب القرآن الذي جاء به، وهو ما يعالجه قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾﴾.

٣- إنكار البعث والحساب والجزاء في الآخرة، وهو ما جاء في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾.

وقوله أيضًا: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾.

وذكر سبحانه بعد هاتين الآيتين شيئًا من نعيم الجنة وعذاب النار، نعوذ بالله من النار

ومن عذاب النار.

وفي مقابل أصول الكفر الثلاثة، **أصول الإيمان الثلاثة** وهي:

١- توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له، ويتبع ذلك العمل الصالح.

٢- التصديق بالنبي الخاتم ﷺ، وبالوحي المنزل عليه من الله تعالى.

٣- الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث، وحشر ونشر، وحساب، وصراط، وميزان للأعمال، وجنة ونار.

وقد جاء ذلك مفصَّلًا في كتاب الله تعالى في مواطن كثيرة.

ويجمع هذه الأصول الثلاثة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة]

وكذا الآية التاسعة والستون من سورة المائدة، مع ما بينهما من تقديم وتأخير.

والإيمان بالله تعالى، مع العمل الصالح، يدخل فيه بالضرورة، الإيمان بالشق الثاني لكلمة التوحيد: (لا إله إلا الله) محمد رسول الله، فإن هذا مقتضى الشهادتين، ولا يحصل الإسلام إلا بهما معًا، فلو آمن العبد بالله تعالى وكفر برسوله ﷺ فليس مؤمنًا، وهذا يشمل كل من لحق بدين الإسلام وأدركه واتبعه من سائر الملل والنِّحَل: اليهود، والنصارى، والصابئين، والمجوس، والمشركين، وغيرهم.

أما من لم يدرك رسالة محمد ﷺ في كل ملة من الملل، ومات مؤمنًا برسول زمانه، من بين رسل الله جميعًا فهو في الجنة، ومن بقي منهم على دينه بعد مجيء النبي الخاتم ولم يؤمن به ﷺ فهو في النار.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

القُرْآنُ العَظِيمُ رَفِيعُ الشَّأْنِ، وَلَكِنَّ الكِبْرَ صَرَفَ الكُفَّارَ عَنْهُ

١ - ﴿صٓ[1] وَٱلْقُرْءَانِ[2] ذِى ٱلذِّكْرِ[3] ①﴾

﴿صٓ﴾ حرف من حروف الهجاء المقطعة الواقعة في أوائل بعض السور، والله أعلم بمراده منها، وأبلغ ما قيل فيها: إنها نزلت للإعجاز، تحدِّيًا لبلغاء العرب أن يأتوا بمثل أقصر سورة من هذا القرآن، وإقامةً للحجة عليهم؛ إذ هم عجزوا عن ذلك، وفيها إيقاظ وتنبيه لمن تحداهم القرآن، أن يتأملوه ويفهموا معانيه.

فحرف الصاد، أحد حروف الهجاء التي يتكون منها القرآن، وهو صوت مخلوق أوجده الله تعالى في حناجر البشر، ولكن القرآن ليس في متناول الكفار؛ لأنه من عند الله تعالى،وقيل:إنه حرف يَرْمُز إلى بعض أسماء الله تعالى،أو أسماء رسوله ﷺ،أو أسماء القرآن[4]والمعنى الأول أصح.

وبهذا الحرف، سُمِّيت السورة.

و(ص) و(ق) و(ن) في أوائل سورها الثلاث، ليست آية مستقلة، بل هي وما بعدها آية.

ثم أقسم ﷻ بالقرآن صاحب المكانة والشرف الرفيع، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي: شرفكم وعزتكم.

والقرآن يوقظ العقول، ويذكِّر الناس بما هم عنه غافلون، فهو يُذهِب النسيان والغفلة، ويورث الانتباه واليقظة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ⑰﴾ [القمر].

وهو كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ فيه المواعظ والأحكام والقصص، وخبر من قَبلنا ونبأ من بعدنا، وهو يذكر العباد بكل ما يحتاجونه من العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله، وأحكامه الشرعية، وما في اليوم الآخر

---

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت على صاد سكتة خفيفة بدون تنفس. وقرأ غيره بدونها.

(٢) قرأ ابن كثير بنقل حركة همزة (والقرآن) إلى ما قبلها، ومثله حمزة عند الوقف.

(٣) عد الكوفي وحده (ذي الذكر) آية، وتركها غيره.

(٤) ذكر ابن الجوزي في «زاد المسير» سبعة منها (٧/ ٩٧) وكذا الخازن في تفسيره (٤/ ٢٨).

من الحساب والجزاء فهو يذكر الخلائق بأصول الدين وفروعه.

وجواب القسم محذوف دل عليه السياق، تقديره: والقرآن ذي الذكر، إنه لمن عند الله، ولم يذكر جواب القسم، لأن المقسم به والمقسم عليه شيء واحد هو القرآن، ولهذا عجزتم - أيها المكذبون - عن الإتيان بمثله، مع أنه مكوَّن من حروف الهجاء كحرف الصاد.

فحرف الصاد هو الدالُّ على جواب القسم المحذوف؛ لأنه حرف للتحدي، أي: فليس الأمر كما يقول الكفار: إن القرآن سحر، وإن محمدًا ساحر، بل إن هذا القرآن معجز، منزل من عند الله، ومحمد صادق فيما يبلِّغه عن ربه، فوجب على العباد تلَقِّي هذا القرآن بالإيمان والتصديق، والإقبال عليه، والعمل به.

والآيات تتضمن أن المقسم عليه **ثلاثة أشياء**:

الأول: أن النبي ﷺ مرسل من عند الله حقًّا، وليس كما قالوا: ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾.

الثاني: أن الإله المعبود جلَّ وعلا، إله واحد، وليس آلهة متعددة، وليس الأمر كما قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾.

وقد أشارت السورة في أولها إلى هذين الأمرين.

الثالث: أن الله تعالى يبعث من يموت للحساب والجزاء، وليس كما قالوا: ﴿لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨]، ولا كما قالوا: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ [سبأ: ٣].

وجاء القسم على هذه الأمور الثلاثة في مواضع عدة من القرآن الكريم.

ثم بيَّن سبحانه سبب كفر الكافرين فقال:

٢- ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾

هذا انتقال من القسم وجوابه إلى بيان حال الكفار من عناد وغرور لإبطال قولهم، فلا ريب أن القرآن من عند الله، ولكنَّ هناك متكبرين على الحق، إذا عُرض عليهم القرآن أخذتهم العزة بالإثم، وعاقبة هؤلاء الهلاك مهما طال الأمد، فليس كفر من كفر لخلل وجده في هذا القرآن ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ﴾ حميَّة وكبرياء، ومشارقة له، ورفْض للحق،

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وهم أيضًا في خلاف وشقاق وعداوة وعناد لله ورسوله، فعدم انتفاع الكفار بما في القرآن ليس لضعف في تذكير القرآن ومواعظه، وإنما لأنهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

وهي عزة باطلة تقوم على كبرياء، وعصيان، وإعجاب بالنفس، وتقليد للآباء والأجداد، فما في نفوسهم من العزة والشقاق، هو الذي حال بينهم وبين التذكير بالقرآن، ولم يعتبروا بما حدث للأمم المكذبة لرسل الله، ولهذا توعّدهم الله تعالى بالإهلاك كما أهلك من قبلهم، من كل من عاند الرسل ولم يقبل دعوتهم:

الْعُقُوبَةُ الرَّادِعَةُ لِكُلِّ مَنْ أَبَى الْحَقَّ وَأَعْرَضَ عَنْهُ

٣- ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ[1] حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾

أي: أنه لابد من جزاء صارم، وعقوبة رادعة لمن أبى الحق، وشاقَّ الله ورسوله، فلابد أنهم سيُجزون على عزتهم وشقاقهم بالإهلاك، كما فُعل بالأمم قبلهم ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: أن كثيرًا من المكذبين في القرون السابقة أهلكناهم قبل هؤلاء، فوجب تحذيرهم؛ حتى لا يكون مصيرهم كمصير مَنْ قبلهم ممن لم ينفعهم الندم والتضرع والإنابة، عندما رأوا مقدمات العذاب، فجأروا إلى الله تعالى واستغاثوا به أن يرفع عنهم هذا العذاب، وهذا معنى ﴿فَنَادَوا﴾ أي: استغاثوا بعد فوات الأوان.

﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: وليس الوقت وقت استغاثة وفرار من العقاب، بل هو وقت تنفيذ العقوبة، فليس الحين حين فرار، فقد ضاعت الفرصة، بعد أن تماديتم في الكفر، وأعرضتم عن الإيمان، **فالمناص**: هو الفرار والخلاص، والملجأ والهرب.

قال ابن عباس ﷺ: كان كفار مكة، إذا قاتلوا فاضطروا في الحرب، قال بعضهم لبعض: مناص، أي: اهربوا وخذوا حذركم، فلما نزل بهم العذاب ببدر، وقالوا:

---

(١) وقف الكسائي بالهاء على (ولات) على الأصل في الوقف على تاء التأنيث، ووقف غيره بالتاء تبعًا لرسم المصحف، مع سكونها للوقف.

(مناص) أنزل الله ﷻ ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: ليس الحين حين هذا القول[١].

و ﴿وَلَاتَ﴾ بمعنى: ليس، أصلها لا النافية، زيدت عليها التاء، وهي حرف مستقل، خاص بنفي أسماء الزمان نحو: ربَّتْ وثمَّتْ، وليست للتأنيث.

وقد جاء الخلاف بين رسمها في المصاحف موصولة هكذا ﴿ وَلَا تَحِينَ ﴾ أو مفصولة هكذا ﴿وَلَاتَ حِينَ﴾ والعمل على الفصل، وهو الأشهر.

ثم إن هذه الآية اشتملت على **ثلاث مسائل**:

الأولى: أن الله تعالى أهلك كثيرًا من الأمم الماضية المكذبة لرسل الله، وفي هذا تهديد لكل من كفر بالله ورسوله.

الثانية: أن الكفار المكذبين لرسول الله ﷺ يلجؤون إلى الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب عند معاينة أوله.

الثالثة: أنه لا مفر من الهلاك بعد معاينته، فلا تنفع توبة ولا ندم، ولا دعاء ولا استغاثة.

وقد فصَّل الله - سبحانه - هذه المسائل الثلاث في مواطن عدة من كتابه العزيز.

فمن أدلة **المسألة الأولى**؛ وهي إهلاك الأمم المكذبة لرسل الله:

(أ) قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ﴾ [الإسراء: ١٧].

(ب) وقوله سبحانه: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج].

(ج) وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج].

(د) وقوله أيضًا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق].

(هـ) وقوله أيضًا: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا

(١) من «تفسير الخازن» للآية (٤/ ٣٠).

﴿لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣٧﴾ [الفرقان].

(و) وقوله سبحانه: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ۝١٠﴾ [محمد].

وغير ذلك من الآيات التي فيها هلاك الأمم، وبيان أن هلاكها كان بسبب كفرها بالله وتكذيبها لرسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

أما **المسألة الثانية**، وهى لجوء الكافرين إلى الله تعالى عند حلول العذاب بهم، فمن أدلتها:

(أ) قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ۝٦٤ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ۝٦٥ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦﴾ [المؤمنون].

(ب) وقوله أيضًا: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٥﴾ [غافر].

(ج) وقوله أيضًا: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾ [الأعراف].

(د) وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۝١٣ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ۝١٥﴾ [الأنبياء].

(هـ) وقوله سبحانه: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾ [الدخان].

فعندما يشخص البصر، ويخسف القمر، ويُجمع الشمس والقمر ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾ [القيامة] **والوزر**: هو الملجأ والنصير.

وقال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝٥٨﴾ [الكهف].

والموئل: هو الملجأ الذي يعصمهم من العذاب، ويلوذون به.

أما **المسألة الثالثة**، وهي أن الندم لا ينفع عند معاينة العذاب، فمن أدلتها:

(أ) قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام].

(ب) وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنعام].

(ج) وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء].

وهذه الآيات تشير إلى ألوان من نداءات التحسر والندم والرجعة إلى الله تعالى، وتشير إلى الاستغاثة به سبحانه عند معاينة العذاب، وإلى رؤية أماراته دون جدوى، فلات ساعة مندم، أي إنه وقتٌ لا يستجاب فيه لنداء، ولا تُقبل فيه توبة، كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [الشورى].

الكُفَّارُ يَعْجَبُونَ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ بَشَرًا

٤- ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾

كشف سبحانه في هذه الآية عما انطوت عليه نفوس الكفار تجاه خاتم المرسلين من العزة والشقاق، فبيَّن جل شأنه أنه قد استقر في نفوسهم **أمران** تعجبوا منهما فكانا سبب انصرافهما عن التذكر بالقرآن:

الأمر الأول: استحالة أن يكون الرسول بشرًا مِثْلهم في نظرهم، فهو يأكل ويشرب ويتزوج، زاعمين أن الرسول لا يكون بشرًا، بل يكون ملَكًا.

الأمر الثاني: استحالة أن تكون الآلهة المتعددة التي يعبدونها إلهًا واحدًا -على حد زعمهم- ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: وعجب هؤلاء المكذبون للرسول الخاتم،

فاستبعدوا أن يبعث الله إليهم بشرًا منهم، يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، وينذرهم عاقبة الشرك به، فيخوفهم عذاب الله، كما قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾[ق: ٢]، وهذا أمر لا يدعو إلى العجب، لأن الرسول حين يكون منهم، يتمكنون من التلقى عنه، ويكون معروفًا عندهم بصدقه مِنْ كذبه، وأمانته من خيانته، ولا يتعصبون له، ولكنهم بدل أن يشكروا الله تعالى على أن الرسول منهم، فينقادوا له ويتبعوه، عكسوا القضية فتعجبوا وأنكروا أن يكون الرسول من البشر ووصفوه بالسحر وما إلى ذلك.

والمراد بهذا العجب: هو إنكار الوحي والرسالة.

وحقيقة **العجب**: انفعالٌ في النفس، ينشأ عن العلم بشيء نادر غير مترقب الوقوع.

وهكذا أنكر الكفار رسالة محمد ﷺ ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢] أي: أن الكافرين تعجبوا من رسالة محمد ﷺ ووصفوه بالسحر والكذب فيما يأتي به من القرآن ومن المعجزات البينات، ويقولون: إنه يأتي بخوارق لا نعرفها، ويَكْذِب فيما يسنده إلى ربه، فهو ليس برسول، بل هو كاذب في قوله، ساحر لقومه.

وقد جاء هذا المعنى في كثير من آيات الكتاب العزيز، وهو الأصل الثاني من أصول الكفر.

ومن هذه الآيات قوله تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس].

وهذا شأن الأمم جميعًا، فقد عجب قوم نوح من إرساله إليهم نبيًّا ورسولًا، قال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف].

وهكذا قال قوم عاد لنبيهم هود عليه السلام: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].

وفي كثير من الآيات بيَّن ﷻ سبب تعجب الأمم، زاعمين أن الرسول لا يكون بشرًا، بل يكون ملَكًا لا يأكل ولا يشرب، ولا يمشي في الأسواق، ولا يتزوج، ولا يكون له ولد، فقد قالت الأمم لرسل الله جميعًا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقد رد الله عليهم في كثير من آياته، ومنها ما حكاه الله تعالى عن رسله في قولهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقوله أيضًا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

وكما تعجبوا أن يكون الرسول بشرًا تعجبوا أن يكون الإله المعبود واحدًا:

الكُفَّارُ يَعْجَبُونَ أَنْ يَكُونَ الإِلَهُ وَاحِدًا

٥- ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾

هذا هو الأمر الآخر الذي أنكره المشركون وتعجبوا منه، فقالوا: كيف أن محمدًا صيَّر الآلهة الكثيرة إلهًا واحدًا، وطلب منا أن ندين له بالطاعة والعبادة؟ كيف ينهى عن الشركاء والأنداد، ويأمر بإخلاص العبادة لإله واحد؟ فهل يسمع لحوائجنا جميعًا إله واحد؟! ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ أزعم محمد، أن الرب المعبود واحدًا لا إله غيره؟ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ إن هذا الذي جاء به ودعانا إليه لشيء قد بلغ النهاية في العُجْب والغرابة وتجاوز حدود العقل.

ورد أنه لما أسلم عمر بن الخطاب ﷺ شق ذلك على قريش، وفرح المؤمنون، فاجتمع خمسة وعشرون رجلًا من صناديدهم ومشوْا إلى أبي طالب بمشورة الوليد بن المغيرة، فقالوا له: أنت شيخنا وكبيرنا، وقد أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، وقد علمتَ ما فعل من تسفيه آلهتنا، فاستحضر أبو طالب النبي ﷺ وقال: يابن أخي، هؤلاء قومك فلا تَمِلْ عليهم كل الميْل، فقال ﷺ: **«وماذا يسألونني»**، قالوا: لا تذكُر آلهتنا بسوء، وندَعك وإلهك، فقال ﷺ: **«أتُعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم»**؟ فقال أبو جهل: نعطيكها وعشرة أمثالها، فقال ﷺ: **«قولوا: لا إله إلا الله»**، فنفروا من ذلك وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ كيف يسع الخلقَ إله واحد؟ ثم قالوا: بل غير هذا، قال: **«لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها»**، فقاموا غضابًا،

وقالوا: والله لنشتُمك وإلهك الذي أمرك بهذا[١].

ونزل -لما انطلق أشراف قريش إلى أبي طالب يكلمونه في شأن النبي ﷺ- قوله تعالى:

٦- ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ[٢] امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾

أي أن كبار القوم لما سمعوا محمدا يدعو إلى التوحيد، أسرعوا في دعوة الناس إلى التمسك بآلهتهم فإن محمدا يريد الزعامة.

أي: وانصرف القوم عن مجلس أبي طالب يتحاورون، ماذا يصنعون؟ فقال عقبة بن أبي معيط[٣]: استمِروا في طريقتكم التي وجدتم عليها آباءكم وأجدادكم، واصبروا على عبادة آلهتكم، مهما هوَّن محمد من شأنها، ومهما نهاكم عن عبادتها، وهذا معنى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ أي: خرج رؤساء القوم وكبراؤهم بعد الحوار مع النبي ﷺ يحرِّضون قومهم على الاستمرار على الشرك، والثبات على تعدد الآلهة، يقول بعضهم لبعض: ﴿امْشُوا﴾ أي: سيروا في الأرض ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ أي: اثبتوا على عبادة الآلهة التي تعبدونها وداوموا عليها، وهي آلهة متفاوتة في قيمتها وحجْمها وكُنهها، فقد كان لكل أسرة إله يناسب مستواها الاجتماعي، وللمقيم إله، وللمسافر إله، وهكذا.

ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عن المشركين: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢].

فإن ما جاء به محمد شيء مدبَّر، يقصد منه الرئاسة والسيادة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي: إن هذا لأمر عظيم يريد محمد إمضاءه وتنفيذه، فهو يريد أن يصرفكم عن دينكم؛ لتكون له

---

(١) جاء سبب النزول هذا من عدة طرق، ذكرتُ جلَّها في مقدمة السورة، دون قصة إسلام عمر، ويُنظَر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٨٠، ٢٣٧٩) و«الدر المنثور» (١٢/ ٥٠١) عن السُّدِّي عند الطبري وابن أبي حاتم، وانظر ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في مسند أحمد (٢٠٠٨، ٣٤١٩) والنسائي في الكبرى (١١٤٣٦) والترمذي (٣٢٣٢) وابن حبان (٦٦٨٦).

(٢) اتفق القراء على كسر النون وصلًا من (أن امشوا)؛ لأن ضمة الشين عارضة، فأصل الكلمة (امشِيُوا) ثم حدث إعلال وإبدال، والبدء بـ(امشوا) يكون بكسر همزة الوصل، نظرا لأن ضمة الشين عارضة وليست أصلية.

(٣) كما قال ابن عطية في تفسيره (١٤) والطبري (٢٠/ ٢١) عن مجاهد بن حميد وابن المنذر وقال غيرهم: هذا أمر دبَّره محمد لتكون له الرئاسة، والقائل هو: أبو جهل، والعاص بن وائل، أو الأسود بن عبد يغوث.

العزة والسيادة، فاحذروا أن تطيعوه، وقابلوا تصميمه على دعوته لكم بتصميمكم على عبادة آلهتكم، فهو دين آبائنا ولن نتركه مهما كرَّهَنا فيه محمد، وهذه شبهة لا تروج على أحد، فإن الحق يقابل بما يفسده ويبطله من الحجج والبراهين، وليس بما يقدح فيه وفي قائله.

والإشارة في ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ تعود إلى ما يدعوهم إليه محمد ﷺ من عبادة الله تعالى وحده.

أو تعود إلى دين المشركين الذي هم عليه، وهو تعليل لأمر بعضهم بعضًا بالصبر، بأن يقطعوا أطماعهم في أن ينزل محمد ﷺ على مرادهم، ويمضوا في طريقهم[1].

ويمضي الملأ الذين انصرفوا من مجلس أبي طالب ينفضون ثيابهم وهم يقولون:

٧- ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧)﴾

أي: إن الذي يقوله محمد، من عبادة إله واحد، ليس له نظير في ملة العرب التي أدركنا عليها آباءنا، ولا سمعنا بمثل هذا القول في الملة النصرانية التي هي آخر الملل، فإنهم يقولون بالتثليث لا بالتوحيد، ولا سمعنا بهذا القول فيما دعا إليه الكهان وأهل الكتاب، واتباع الآباء ليس حجة يقابل بها الحق، فغالبًا ما يكون الآباء على ضلال وباطل.

ولعلهم يشيرون إلى قول الملأ من قريش لأبي طالب وهو في مرض موته، حين قال له النبي ﷺ: «**يا عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله**»، فقالوا له جميعًا: أترغب عن ملة عبد المطلب، فقولهم: ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ كناية عن استمرارهم على دين عبد المطلب، فالملة هي الدين، كما قال تعالى على لسان يوسف ﷺ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٧].

ثم قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أي: ما هذا الذي يقوله محمد إلا كذب وافتراء.

(١) يُنظَر: «تفسير الألوسي» (٢٣/ ١٦٧).

الْكُفَّارُ يَحْسُدُونَ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى اخْتِيَارِهِ لِلرِّسَالَةِ

٨- ﴿أَءُنزِلَ[١] عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِىۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ[٢] ﴿٨﴾﴾

أي: وكما تعجب المشركون -أولًا- من أن يكون المعبود إلهًا واحدًا، وتعجبوا - ثانيًا- من أن يكون الرسول بشرًا، تعجبوا - ثالثًا-: أن يُنزَّل هذا القرآن على يتيم قريش، ولم ينزل على عظمائهم، فأنكروا أن يخص الله محمدًا بالرسالة، وإنزال القرآن عليه دون غيره منهم، فما الذي فضَّله علينا حتى ينزل عليه الذكر من دوننا، ويخصه الله به، فقالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ﴾ أي: كيف يدَّعي محمد نزول القرآن عليه، ونحن أهل السيادة والثراء والجاه، فكيف يختص بهذا الشرف من بيننا، وفينا من هو أكثر مالًا وأكبر مكانة، وهو إنكار يُترجم عما في قلوبهم من حقد وحسد على ما أوتيه من شرف النبوة.

وهذه شبهة مردود عليها بأن هذا شأن الرسل جميعًا، والله يصطفى من يشاء، ويمنُّ على من يشاء، وهو أعلم بمن هو أهل للرسالة.

وهذا الحسد واضح في قوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١] أي: زعيم مكة، وهو الوليد بن المغيرة، أو زعيم الطائف وهو: عروة بن مسعود الثقفي، فهما أحق بالنبوة من محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقال جلَّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ [الجمعة: ٤].

وقد جاء حقدهم هذا في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾.

---

(١) قرأ قالون وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية مع الإدخال وعدمه، في (أَءُنْزِلَ) وقرأ ورش وابن كثير ورويس بالتسهيل مع عدم الإدخال، وقرأ أبو جعفر بالتسهيل مع الإدخال، وقرأ هشام بالتسهيل مع الإدخال وبالتحقيق مع الإدخال وعدمه، وقرأ الباقون بالتحقيق مع عدم الإدخال.

(٢) قرأ يعقوب بإثبات الياء في (عذاب) وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين، ومثلها (عقاب) في الآية الرابعة عشرة.

قال تعالى مجيبًا لهم: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقد صرح رؤساؤهم بهذا الحسد، كأبي جهل حينما سئل: أتظن أن محمدًا على حق أم على باطل؟ فقال: إن محمدًا لعلى حق، ولكن متى كنا تبعًا لبني هاشم؟!

وفي رواية أنه قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعَمُوا فأطْعمْنا، وحَملُوا فحملْنا، وأعْطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذيْنا على الرُّكَب، وكنا كفرسيْ رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه.

وهؤلاء الجاحدون للرسالة والرسول، لم يقطعوا برأي في شأن محمد ﷺ ولا في شأن ما جاءهم به من عند الله، ولم يستندوا في أقوالهم إلى دليل أو شبه دليل، وإنما هم في شك من هذا القرآن يصفونه تارة بالسحر، وتارة بالكهانة، وتارة بالشعر، وتارة يقولون: أساطير الأولين، وهذا معنى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ﴾ أي: بل هم في شك وعناد مما أوحاه الله إليه، وفي شك من صحة بعثته، ولو عقلوا وأنصفوا لآمنوا، فلا تحزن يا محمد على قول المكذبين، فإن السبب في ذلك أنهم لم يذوقوا عذابي بعد، وهذا معنى ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ فإذا ذاقوه زال حسدهم وشكهم، وتيقنوا أنه على الحق المبين، وأنهم على الباطل، ولكنهم لم يذوقوا عذاب الله تعالى، فتجرَّؤوا على ما قالوا!!

وفي لفظ: ﴿لَّمَّا﴾ إشارة إلى أن منهم من سيؤمن به فيما بعد، وقد آمن به أكثرهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: ١٤].

وبمثل هذه الآية قال قوم ثمود لنبيهم صالح ﵇: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ٢٥﴾ [القمر].

وفي هذا تهديد ووعيد لهم على أقوالهم وجُرأتهم على كتاب الله تعالى وعلى رسول الله ﷺ، وفيه بيان أنّ ما صدر منهم سببه أنهم ممتّعون في الدنيا، لم يصبهم شيء من عذاب الله، ولو أنهم ذاقوا شيئًا من عذاب الله ما تجرؤوا على ما قالوه.

وقد أُخِّر الجار والمجرور في آية صالح ﵇، وقُدِّم في آية محمد ﷺ، وفي هذا إمعان في شدة إنكار كفار قريش لنزول القرآن على محمد ﷺ، أكثر من إنكار قوم صالح ﷺ عليه.

اللهُ تَعَالَى هُوَ الْمُعْطِي الْمَانِعُ

٩- ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ[1] رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾

أي: لماذا يحسد الكفار محمدًا على ما خصه الله به من الوحي والرسالة؟ فليست خزائن فضل الله عندهم، حتى يُعطوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا، وفي هذا توبيخ لهم وتهكم بهم، فالنبوة عطية من الله تعالى يختص بها من يشاء من عباده، والآية رد على من أنكر اختصاص النبي ﷺ بالرسالة.

والمعنى: أهم يملكون خزائن فضل ربك العزيز في سلطانه، الوهاب الذي يعطي ما يشاء من رِزْقِه ورحمته لمن يشاء من خلقه؟ فكيف يتخيرون للنبوة صناديدهم، والله تعالى هو صاحب التصرف في هذا الكون، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه؟ فالعزة لله، وليست لمن يترفع ويتكبر على خلق الله، والنبوة هبة الله تعالى لمن يشاء من عباده، و ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠].

إن المكذبين ببعثة النبي ﷺ يستخدمون الحرب الباردة في الدعاية المغرضة، ضد محمد ﷺ لحماية ما ورثوه عن أسلافهم من عقائد فاسدة، على مر الأزمنة واختلاف الأمكنة، ومن ذلك وصف النبي ﷺ قديمًا بالسحر أو الشعر أو الكهانة.

ذكر ابن إسحاق: أن الوليد بن المغيرة كان رأس القوم، وأنهم قد اجتمعوا معه في موسم الحج قائلين له: إن وفود العرب ستقدُم عليكم من كل جهة، وقد بلَغهم شأن محمد ﷺ فأجمِعوا فيه رأيًا، لا يكذِّب بعضكم بعضًا فيه، ولا تختلفوا عليه، فاقترحوا أن يصفوه بالسحر أو الشعر أو الكهانة، فقال المغيرة - والفضل ما شهدت به الأعداء -:

لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجْعه.

ولقد عرفْنا الجنون، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته.

---

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بالإظهار والإدغام للنون في الراء، من (خزائن رحمة ربك)، وقرأ بقية القراء بالإظهار فقط.

وعرفنا الشعر كله؛ رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه.

وعرفنا السحر، فما هو بنفْثهم ولا عُقدهم.

فنفى الوليد أن يكون النبي ﷺ كاهنًا أو مجنونًا أو شاعرًا أو ساحرًا.

قالوا: فما تقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، أي: كثير الشعب والأطراف، وإن فرعه لجناة، أي: فيه ثمر يُجنى، وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عرفوا أنه باطل، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا: إنه ساحر، يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وعشيرته، وبين الأخوين والزوجين.

فارتضوا هذا الوصف وتفرقوا من مجلسهم على أن يجلسوا في مداخل مكة، فلا يمر بهم أحد إلا حذَّروه من النبي ﷺ وذكروا له أنه ساحر!! وهم يعلمون أنهم كاذبون فيما يقولون، وأن محمدًا ﷺ ليس بساحر ولا كذاب.

ولو كان محمد ﷺ ساحرًا أو كذابًا ما تسلَّل كبارهم خفية من وراء نظرائهم؛ ليستمعوا إلى القرآن الذي يتلوه محمد ﷺ في جوف الليل ليشنِّفُوا آذانهم به، ويخشوا أن تتأثر به قلوبهم، كما حدث من أبي سفيان وأبي جهل والأخنس، حين خرج كل منهم خفية لمدة ثلاث ليالٍ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فيجمعهم الطريق ويتلاوموا، ويتعاهدوا على عدم العودة، ثم يعود كل منهم من وراء غيره، وتكرر ذلك ثلاث مرات، ويقولون في النهاية: لقد سمعنا أشياء نعرفها ونعرف ما يراد بها، وسمعنا أشياء لا نعرفها ولا نعرف ما يراد بها، ثم اعترف أبو جهل بصدق محمد ﷺ وصدق ما جاء به، ولكن تنازُع الشرف هو الذي منعهم من الإيمان به، فالوحي الذي نزل على محمد ﷺ لم ينزل عليهم، ولن يدركوه، ولذا: فهم يحسدونه عليه، ولن يؤمنوا به أبدًا[1].

ثم ذكر سبحانه برهانًا جامعًا هو بمثابة الحصيلة للإجابة على شُبه المشركين في شأن التوحيد والرسالة والقرآن، فقال جلَّ شأنه:

---

(١) ذكرته بالمعنى من حديث ابن إسحاق عن ابن شهاب الزهري، وقد سبق عجُز هذا المعنى في الآية الثامنة.

عَجْزُ الْبَشَرِ عَنْ تَصْرِيفِ شُؤونِ الْكَوْنِ

١٠- ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠﴾

أي: ألهؤلاء الجاحدين المكذبين ﴿مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؟ وهذا تأكيد لما في الآية السابقة من عدم مِلْكيتهم لشيء من خزائن الله تعالى في العالم العلوي والسفلي، فإن كانوا يملكون شيئًا من ذلك ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ أي: فليأخذوا بالأسباب التي تُوصِّلهم إلى السماء، ولْيصعدوا إليها إن استطاعوا، ويمنعوا الملائكة من إنزال الوحي على محمد ﷺ، وليُعطوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا، ويدبروا شؤون الكون، ويخصوا بالنبوة من اختاروا، ويمنعوها عمن أرادوا، وهذا من باب التعجيز والتهكم، والاستخفاف والتوبيخ كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ۝١٥﴾ [الحج].

وهم أعجز وأضعف خلق الله بما تكلموا به، فإن كان قصدهم التعاون على نصر الباطل وخذلان الحق، فإن جندهم مهزوم وجند الله هو الغالب، والآيات التالية تقرر هذا المعنى.

وبهذا ينتهي الكلام عن تفصيل ما للذين كفروا من عزة وشقاق، وما ترتب على ذلك من آثار.

هَزِيمَةُ مَنْ تَحَزَّبُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ

ثم ثنَّى سبحانه بتفصيل الكلام على الكفار الذين أُهلكوا في عصر التنزيل وأمثالهم من القرون السابقة، والقرون اللاحقة، فقال سبحانه:

١١- ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ۝١١﴾

وهذه الآية تشير إلى من هزمهم الله تعالى من مختلف الأحزاب في عهد النبي ﷺ، وهؤلاء الجند مُتَوعَّدون بالهزيمة، سواء أكانوا قلة أم كثرة، فكلهم مقدَّر انهزامه في علم الله تعالى، وهذه بشارة من الله تعالى يبشر بها رسوله ﷺ وهي من الإخبار بما في الغيب، وكفار مكة ما هم إلا جند من الجنود الذين كذَّبوا رسول الله فأهلكهم الله سبحانه.

وفي هذه الآية بشارة للمؤمنين بالنصر على أعدائهم في كل زمان، وعدم الاكتراث بجموعهم مهما كثرت عُدتها وكثر عددها، فإنه لا قيمة لها بجانب قوتهم إذا تسلحوا

بالإيمان والسلاح، وآثروا حب الآخرة على حب الدنيا.

ولما نزل بمكة قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر] لم يفهم الصحابة تأويلها، فقال عمر: أي جَمْع هذا الذي وعد الله أنه سَيُهْزَم؟

قال قتادة: فجاء تأويلها يوم بدر، وقيل: يوم فتح مكة.

وقال بعضهم: إن في الآية إشارة خفية إلى انهزام الأحزاب يوم غزوة الخندق.

ولفظ: ﴿جُندٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هم جند.

ولفظ: ﴿مَّا﴾ مزيدة للتحقير، أي: وسواء أكانوا قلة أم كثرة.

و﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى المكان البعيد، ولفظ: ﴿مِّن﴾ للتبعيض.

أي: أنهم من جملة جند الأمم، لا وزن لهم بجانب قدرة الله تعالى، فلا تهتم بأمرهم، ولا تكترث بجموعهم، ومهما تحزَّبوا عليك فهم جند مغلوبون مهزومون أمام قوة المؤمنين في مواطن عديدة، وإن اعترى هذه القاعدة خلل فهو ظرف عابر؛ لتمحيص المؤمنين وابتلائهم حتى يأخذوا بأسباب النصر كاملة.

هَزِيمَةُ مَنْ تَحَزَّبُوا عَلَى رُسُلِ اللَّهِ جَمِيعًا

١٢- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾﴾

وبعد أن أشار سبحانه إلى هزيمة الأحزاب المكذبين لرسول الله ﷺ من المعاصرين له، أفضى جلَّ شأنه إلى ضرْب المثل، بستة من الأمم السابقة الذين كذبوا رسلهم، وهم: قوم نوح، وقوم عاد، وفرعون وجنده، وقوم ثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وذَكر في نهايتهم قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [غافر: ٣٠، ٣١].

فالأحزاب المكذبة لرسل الله، المتآمرة على الفتك بدعوته، موجودة في كل أمة، وكما أن قريشًا من جملة الأجناد الذين تجمعوا أو تحزبوا على رسول الله ﷺ فنصره الله عليهم، فقد سبقهم إلى ذلك أجناد كثيرون، تجمعوا وتحزبوا على أنبيائهم، فقَهَرَهُم الله وأهلكهم، وهذه أمثلة ممن سبقوا قريشًا في التاريخ الغابر:

١- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: كذب قبل كفار قريش أمم كثيرة، منهم: ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ فأغرقهم الله بالطوفان.

٢- وقوم هود، وهم قبيلة عاد، فأهلكهم الله بالريح العقيم لَمَّا كذبوا نبيهم هودًا.

٣- ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ كذب موسى عليه السلام، فأخذه الله وجنوده فأغرقهم في اليم.

وقد أسند الله تعالى التكذيب إلى فرعون دون قومه؛ لأن الله تعالى أرسل موسى إلى بني إسرائيل، فذهب إلى فرعون بأمر من الله تعالى ليخلِّص بني إسرائيل من قهره وظُلمه، ويخرُج بهم من أرض مصر، فكذب فرعونٌ موسى، فأمره الله بمجادلته لإبطال كفره.

وقد وصف الله فرعون بأنه ﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ أي: صاحب القوة والبطش والجنود الكثيرة، والمباني العظيمة، والمُلْك الوطيد.

والأوتاد: جمع وتد، وهو ما يُدَق في الأرض لتثبيت الشيء وتقويته.

قيل: إن فرعون كان يربط من يريد تعذيبه أو قتْله بأربعة أوتاد في يديْه ورجليْه يشده فيها ويتركه حتى يموت.

وقيل: إن المراد بالأوتاد: المباني الثابتة العظيمة التي تقوم في الأرض كالأوتاد، وقد رجحه ابن عطية، وكانوا يُثَبِّتون بيوتهم بالأوتاد(١) لترسيخ قواعد وأساس البنيان في الأرض.

وهذا القول يؤيده مطابقة التاريخ، فإن فرعون المعنيَّ في الآية، هو (منفتاح الثاني) من ملوك العائلة التاسعة عشرة في ترتيب الأُسَر التي تداولت مُلْك مصر، وهو الذي خرج بنو إسرائيل من مصر في زمنه، وكانت هذه العائلة مشتهرة بوفْرة المباني التي بناها ملوكها من معابد ومقابر، وكانت مدة حكمهم مئة وأربعًا وسبعين سنة، من سنة ١٤٦٢ قبل الميلاد إلى سنة ١٢٨٨ قبل الميلاد.

وعلى هذا فيصح تأويل الأوتاد بأنها الأهرامات، وهي في عين الرائي كأنها الوتد الضخم المغروز في الأرض، ولا يلزم أن يكون (منفتاح الثاني) - وهو فرعون الذي كان

---

(١) يُنظَر: «تفسير الألوسي» (٢٣/ ١٧٠) والخازن (٤/ ٣١) و«زاد المسير»، وقد أورد فيها ستة أقوال (٧/ ١٠٥).

في زمن موسى - لا يلزم أن يكون هو الباني لها، بل كان يملكها ويفتخر بها[١].

أما تتمة الأقوام الستة الذين كذبوا رسل الله فقد ذكرهم الله تعالى في قوله:

١٣، ١٤- ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ[٢] أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ۝١٤﴾

٤- أي: أن قوم ثمود كذبوا نبيهم صالحًا ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

٥- ﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ كذبوا نبيهم لوطًا، فأمطرهم الله بحجارة من سجيل، بعد أن جعل أسفل قراهم عاليها.

٦- ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾[٣] وهي الشجر الكثير الملتف، وكانوا مجاورين لأهل مدين، وهؤلاء وأولئك كذبوا نبيهم شعيبًا ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠﴾ [العنكبوت].

وهذه أمثلة من الأمم التي تحزَّبت على الكفر والتكذيب لرسل الله واجتمعت عليه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ وهم أمم لا تضاهيها أمم في القوة والشدة، كانوا أكثر من غيرهم وأشد قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمرها غيرهم، ولما كفروا بالله وكذبوا رسله، أخذهم الله بذنوبهم، وهو سبحانه قوي شديد العقاب، فاحذروا - أيها المكذبون للرسول الخاتم - أن يصيبكم ما أصاب أسلافكم.

---

(١) يُنظَر: «التحرير والتنوير» (٢٣/ ٢٢١) وتفسير الشيخ محمد عبده لسورة الفجر.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر (ليكة) على وزن ليلة، وقرأ الباقون (الأيكة).

(٣) رسمت (الأيكة) هنا وفي سورة الشعراء (١٧٦) بدون ألف ولام هكذا ﴿لْـَٔيْكَةِ﴾ ورسمت في سورة ق (١٤) وسورة الحجر (٧٨) بألف ولام ﴿ٱلْأَيْكَةِ﴾، وفي المواضع الأربعة يُبدأ بهمزة مفتوحة بعدها لام ساكنة.

وما كل هؤلاء الطوائف والأحزاب، إلا كذَّب كل منهم رسوله، وقد سجل الله عليهم هذا التكذيب بأساليب بلاغية متعددة، بالجملة الاسمية والفعلية، والتذكير والتأنيث، والحصر والقصر، ليرتب على ذلك نتيجة استحقاقهم لعقاب الله ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: وجب عليهم العذاب واستحقوه بجدارة، هذا ما حل بالأمم السابقة، وليست هذه الأمة بأقوى منهم ولا أشد.

التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ لِمَنْ كَذَّبَ خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ

١٥- ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ[1] ﴿١٥﴾﴾

أي: وما ينتظر المكذبون لرسالة محمد ﷺ من لدن بعثته إلى قيام الساعة، إلا نفخة واحدة، ينفخها إسرافيل في الصور، وهي النفخة الثانية، فيقوم الخلائق من قبورهم للحساب والجزاء، وعندئذ يلْقوْا عاقبة كفرهم وتكذيبهم، إنها نفخة واحدة لا تتكرر ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

وهذه النفخة لا تتوقف، ولا تتأخر، ولا رجوع عنها، بل تكون مفاجئة سريعة الوقوع، لا تُثنَّى، فيتم بعدها كل شيء بلا انتظار.

والفواق بضم الفاء وفتحها: اسم لما بين حلْبتي الناقة ورضْعَتَيْ فصيلها، فالمدة بين الحلْبتين أو الرضعتيْن تسمى (فُواق الناقة).

والمعنى: أن قيام الساعة يأتي فورًا بعد هذه الصيحة التي يصيح بها إسرافيل دون إمهال، ولا بمقدار هذا الزمن اليسير، كما قال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يس].

اسْتِعْجَالُ الْمُكَذِّبِينَ نُزُولَ الْعَذَابِ بِهِمْ

١٦- ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾

ثم إن المكذبين لرسول الله محمد ﷺ قد بلغ بهم التطاول والغرور منتهاه، حيث

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الفاء من (فواق) وهي لغة تميم وأسد وقيس، والباقون بفتحها وهي لغة أهل الحجاز، والفواق: الزمان بين حَلْبتي الحالب.

استهزؤوا بيوم الحساب، فطلبوا تعجيل نزوله بهم في الدنيا، بعد أن سمعوا أن عقابهم مؤجل إلى يوم القيامة في مثل قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج].

وممن قال بذلك النضر بن الحارث، وأبو جهل، وبسبب قولهما نزلت الآية.

والقائل بتعجيل نزول العقاب أيضًا؛ هم المكذبون للبعث والحساب، في كل زمان ومكان، مِنْ كل مَنْ هدّدهم القرآن، لكفرهم وجحودهم.

وقولهم هذا من باب السخرية وعدم الاكتراث، والاستخفاف بهذا الوعيد؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث، وهو الأصل الثالث من أصول الكفر.

وقولهم: ﴿يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ من باب التهكم؛ لأنهم لا يؤمنون به أصلًا.

والقط: هو النصيب، أي: عجِّل لنا حظَّنا وقسطنا ونصيبنا من العذاب الموعود به، **والقط**: يطلق أيضًا على الكِتَاب، أي: كِتَاب عمل الإنسان.

وقيل: إن المراد: عجل لنا نصيبنا من الجنة، إن كان هناك جنة، فهم ينكرونها ولا يؤمنون بها، وقد قالوا هذا على وجه الاستهزاء والاستبعاد، وقالوه أيضًا لما سمعوا قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة].

وقوله أيضًا: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾ [الحاقة].

ولما قال المنكرون للبعث والنشور: إن كنت صادقًا - يامحمد- فعلامة صدقك أن تأتينا بالعذاب، أمره الله تعالى بالصبر:

الصَّبْرُ مِفْتَاحُ الْفَرَجِ

١٧- ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾

وبعد أن وصف أعداء الإسلام الرسول ﷺ بالسحر والكذب، فقالوا: ﴿هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

وقالوا عن وحدانية الله تعالى: إنَّ هذا لشيء عجاب.

وعجبوا أن يخص الله محمدًا بالرسالة دونهم فقالوا: ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾.

وسخروا من وعيد الله لهم إن لم يؤمنوا، فقالوا: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ في الدنيا.

بعد ذلك كله، يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بالصبر على أذى هؤلاء الجاحدين المعاندين، فيقول تعالى له: اصبر - أيها الرسول - على ما قاله المكذبون لك في الماضي، وما يقولونه لك في الحاضر المعاصر، من أنك ساحر أو مجنون أو شاعر أو كاهن، وما سوف يقولونه عن دعوتك في المستقبل، اصبر على باطلهم وأقوالهم الكاذبة، كما صبر إخوانك من الرسل قبلك، فإن الله ناصرك عليهم، ومُظْهِر دينك على الدين كله ولو كره المشركون الكافرون، وما قالوه لا يضر الحق شيئًا، ولن يضروك في شيء، وإنما يضرون أنفسهم.

وفي هذا إشارة إلى رفعة شأن النبي ﷺ فوق جميع من سبقه من الرسل.

مِنْ قَصَصِ الأَنْبِيَاءِ فِي السُّورَةِ: قِصَّةُ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عليه السلام

التَّعْرِيفُ بِدَاوُدَ عليه السلام:

وداود عليه السلام هو ابن يسى، من سبط يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

كانت ولادته في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وكان من جند طالوت مَلِك بني إسرائيل، وقد نصره الله على جالوت، مَلِك فلسطين وهو صبي، وكان قد استنصر بالتابوت الذي فيه التوراة، وكان ذلك عند (أشدود قرب غزة) وقد جمع الله له بين النبوة والملك، وقد توسع ملكه حتى بلغ من العقبة إلى نهر الفرات، فأعطاه الله مُلْكًا وسلطانًا لم يكن لأحد من آبائه.

ودام مُلْك داود أربعين سنة، ومات وعمره سبعون سنة، وكان ذلك سنة (٩٦٣) قبل الميلاد، وقبره فوق جبل على يمين الذاهب من بيت المقدس إلى الرملة بعد أبي غوش،[١] وقد ورد ذكره في القرآن ست عشرة مرة.

ولما ذكر الله تعالى قوم: نوح، وعاد، وفرعون، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وهم قوم طُغاة بُغاة، كان مظهر قوتهم الطغيان والبغي والتكذيب، أعقب ذلك ببيان ما حدث لأنبياء الله، فصبروا حتى فرَّج الله عنهم، وحَسُنت عاقبتهم، وفي ذلك

(١) ينظر: أطلس القرآن، د/ شوقي أبو خليل.

عبرة للنبي ﷺ حتى يتأسى بهم في الصبر على أذى قومه، والمضيِّ في طريق الدعوة بقوة وحزم، وقد أمر الله رسوله بالصبر على قومه، وأمره أن يستعين على الصبر بالعبادة، ويتذكر حال العابدين، كما قال تعالى ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].

ومن هؤلاء الأنبياء: نبي الله داود ﷺ، فقد كان ذا قوة، ولكن هذه القوة لا يصحبها الطغيان والبغي.

وإنما كان عبدًا أوَّابًا توَّابًا عابدًا ذاكرًا، وهو صاحب قوة وسلطان.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه»**[1].

فكان داود قويًّا في عبادته، قويًّا في مُلْكه وسلطانه.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ النبي الشاكر الصابر ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ أي: صاحب القوة العظيمة في بدنه وقلبه، والقوة على أعداء الله، والصبر على طاعته، فقد كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وكان يقوم نصف الليل، وكان يأكل من عمل يده.

قال أبو الدرداء: كان النبي ﷺ إذا ذكَر داود وحدَّث عنه قال: **«كان أعْبدَ البشر»**[2].

وجاء عن عبد الله بن عمرو ﷺ أنه لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا أعبد من داود[3].

وكان داود ﷺ إذا قام من الليل يقول: اللهم نامت العيون، وغارت النجوم، وأنت الحي القيوم، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم[4].

---

(١) يُنظَر: «صحيح مسلم» برقم (١١٥٩) والبخاري برقم (١١٣١).

(٢) أخرجه البخاري في تاريخه (١/ ٨٩)، (٥/ ٢٩٩) والحاكم (٢/ ٤٣٣) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه الديلمي مرفوعًا (٧٧٤٩).

(٤) أخرجه أحمد عن سعيد بن أبي هلال في «الزهد» كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٥١٣)، قال الألباني: ضعيف جدا السلسلة الضعيفة برقم (١٣٢٨) ج٣ ص(٤٩٦).

وكان داود ﷺ يأكل من عمل يده، فربُما صنع القُفَّة من الخوص ثم يرسل بها إلى السوق، فيبيعُها، ثم يأكل من ثمنها(١).

وقد وصف الله داود بقوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: كثير الرجوع إلى ما يرضي الله تعالى، كثير التضرع والدعاء، كثير الإنابة والخوف والرجاء، ومن شدة إنابته أن سخر الله له الجبال تسبح معه بالعشى والإشراق، وقد أعطى الله داود قوة نادرة وشجاعة وإقدامًا، فكان يرمي الحجر بالمقلاع، فلا يخطئ الرميَّة، وكان يَلْوي الحديد بأصابعه ليصنعه سردًا للدروع، وهي قوة محمودة، استعملها في نصر دين الله تعالى.

ثَلَاثُ قَضَايَا عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عليه السلام:

والحديث عن داود ﷺ في هذه السورة يتناول **قضايا ثلاث** هي: ذكر خصائصه وفضائله، وقصة اللَّذيْن تسوَّرا المحراب، واستخلافه في الأرض.

القَضِيَّةُ الأُولَى: خَمْسٌ مِنْ خَصَائِصِ دَاوُدَ عليه السلام وَفَضَائِلِهِ

١٨- ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ(٢) ﴿١٨﴾﴾

في هذه الآية والآيات الثلاث بعدها خمس من الفضائل والخصائص خص الله تعالى بها نبيه داود ﷺ، **وهي**:

١- تسبيح الجبال بتسبيحه.

٢- جمع الطيور له وترجيع التسبيح معه.

٣- إعطاؤه ملكًا ثابتًا قويًا.

٤- إنزال الزبور عليه ينطق بما فيه من حكمة.

٥- إعطاؤه فصل الخطاب في القضاء بين الخصوم.

فهذه خمس خصائص من فضائل الله عليه.

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» ص ٧٣ عن عروة بن الزبير.

(٢) قرأ الأزرق بترقيق الراء بخلف عنه من (والإشراق)؛ لأن حرف الاستعلاء مكسور.

الخَاصِّيَّةُ الأُولَى: تَسْبِيحُ الجِبَالِ مَعَهُ

جاء هذا في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ أي: مع داود ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ بتسبيحه ﴿بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ أي أول النهار وآخره، وهذا من فضل الله تعالى ونعمه على داود عليه السلام.

ووقت العشيّ: من الزوال إلى الغروب أو إلى الصباح.

ووقت الإشراق: حين تشرق الشمس ويسطع ضوؤها، سِيَّمَا وقت الضحى، وهو يختلف عن وقت الشروق الذي هو وقت طلوع الشمس قبل الإشراق. قال تعالى.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ﴾ [سبأ: ١٠]

والتسبيح في الأصل: هو قول (سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ) ثم أُطلِق على مختلف الأذكار، وأُطلِق أيضًا على الصلاة.

وتسبيح الجبال تسبيح حقيقي، بكيفية لا يعلمها إلا الله، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء].

وقال جلَّ شأنه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [الجمعة].

وهو تسبيح بلسان المقال في الصباح والمساء مع داود عليه السلام، أما تسبيح الجبال بلسان الحال فهو دائم في كل وقت.

وقد أعطى الله داود (الزبور) المسمى عند اليهود بالمزامير، وهو يشتمل على الاستغفار والمناجاة والتسبيح.

وأعطاه صوتًا حسنًا، فكان يردد التسبيح والمناجاة، وكانت الجبال والطيور تردد التسبيح معه معجزة له.

صلاة الضحى:

١- عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كنت أمرُّ بهذه الآية لا أدري ما هي؟ حتى حدَّثتني أم هانئ بنت أبي طالب، أن رسول الله ﷺ دخل عليها، فدعا بوَضوء فتوضأ، ثم صلى الضحى،

فقال: **«يا أم هانئ، هذه صلاة الإشراق»**(١).

فعلم من هذا أن ذكر الله تعالى يكون في صلاة الضحى، وأنها تسمى صلاة الإشراق.

٢- وفي حديث أم هانئ قالت: ذهبتُ إلى رسول الله ﷺ عام الفتح، فوجدته يغتسل، وفاطمة بنته تستره بثوب، فسلَّمتُ عليه، فقال: **«من هذه»**؟ قلت: أنا أُمّ هانئ بنت أبي طالب، فقال: **«مرحبا يا أم هانئ»**، فلما فرغ من غسله قام وصلَّى ثمان ركعات، ملْتحفًا بثوب، قالت أم هانئ: وذلك ضحى(٢).

أي: وقت الضحى الذي كان داود عليه السلام يسبح الله فيه، والطير والجبال تسبح معه.

٣- وفي الصحيحين: عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: ما حدثنا أحد، أنه رأى النبي ﷺ يصلي الضحى، غير أم هانئ، فإنها قالت: إن النبي ﷺ دخل بيتها يوم فتح مكة، فاغتسل وصلَّى ثمان ركعات، فلم أر صلاة قط أخفَّ منها، غير أنه يتم الركوع والسجود(٣).

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يحافظ على صلاة الضحى إلا أوَّاب»**.
قال: **«وهي صلاة الأوابين»**(٤).

٥- وفي حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه: أن النبي ﷺ خرج على أهل قُباء وهم يصلون الضحى، وفي لفظ: وهم يصلون بعد طلوع الشمس، فقال: **«صلاة الأوَّابين إذا رمضت الفصال»**(٥).

٦- وعن عبد الله بن الحارث قال: سألتُ عن صلاة الضحى في إمارة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون، فلم أجد أحدًا أثبت لي صلاة رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس، وانظر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ٨٧) وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٢٤٦) قال الهيثمي: فيه أبو بكر الهذلي وهو ضعيف «مجمع الزوائد» (٧/ ٩٩)
قلت: الحديث صحيح عند أحمد عن عبد الله بن الحارث، كما سيأتي في الحديث السادس.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٣٣٦).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٣٣٦) و«صحيح البخاري» برقم (١١٠٣، ١١٧٦).

(٤) أخرجه البخاري في التاريخ (١/ ٣٦٦) والحاكم (١/ ٣١٤) والطبراني في «الأوسط» (٣٨٦٥) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٠٣، ١٩٩٤).

(٥) مسلم (٧٤٨) والطبراني (٥١٠٨، ٥١٠٩) و ابن أبي شيبة (٢/ ٤٠٦).

إلا أم هانئ، قالت: رأيت رسول الله ﷺ صلاها مرة واحدة ثمان ركعات يوم الفتح في ثوب واحد، مخالفًا بين طرفيه، لم أره صلاها قبلها ولا بعدها، فذكرت ذلك لابن عباس فقال: إني كنت لأمُرُّ على هذه الآية ﴿يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ فأقول: أي صلاة، صلاة الإشراق؟ فهذه صلاة الإشراق(١).

٧- وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: أوصاني خليلي بثلاث، لا أَدَعُهُنَّ حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، ونومٍ على وتر(٢).

٨- وسئلتْ عائشة ﷺ: كم كان رسول الله ﷺ يصلي صلاة الضحى؟ قالت: أربع ركعات، ويزيد ما شاء(٣).

الخَاصِّيَّةُ الثَّانِيَةُ: جَمْعُ الطُّيُورِ لِدَاوُدَ وَتَرْجِيعُ التَّسْبِيحِ مَعَهُ

١٩- ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٩﴾

بيَّن سبحانه أن الطيور تتجمع حول داود ﷺ وهو سابح في الهواء لتسمع تسبيحه وأناشيده فتُرجِّع معه الزبور وهو يترنم بقراءته، فكان يقف في الهواء، وترجِّع الطير بترجيعه وتسبِّح بتسبيحه.

قال تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ أي: وسخرنا لداود الطير مجموعة حوله ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: كل واحد من الجبال والطيور تسبح لتسبيح داود.

قال ابن عباس ﷺ: كان إذا سبح جاوبتْه الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير فسبَّحت، فذلك حشرها(٤).

---

(١) جاءت أحاديث كثيرة بهذا المعنى في المسند وغيره عن أم هاني، ينظر مسند أحمد (٤٤/ ٤٧٣)، (٤٥/ ٣٨٦) (٢٦٩٠١، ٢٧٣٩١، ٢٧٣٩٢، ٢٦٨٩٦، ٢٧٣٨٨) وهي أحاديث صحيحة بأسانيد صحيحة ورجال ثقات، وقولها: (فذكرت ذلك لابن عباس..) لم ترد في معظم الأحاديث. (محققوه).

(٢) «صحيح البخاري» (١١٧٨) و«صحيح مسلم» (٧٣١).

(٣) «صحيح مسلم» (٧١٩).

(٤) من «تفسير النسفي» للآية.

الخَاصِّيَّةُ الثَّالِثَةُ: المُلكُ القَوِيُّ

٢٠- ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ[1] ٱلْخِطَابِ ۝٢٠﴾

أي: أن الله تعالى قوّى ملك داود وثبّته، وجعله سالِمًا من غلبة الأعداء، ومن قيام ثورات عليه، مُدة مُلكه الذي استمر أربعين عامًا ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ أي: قوينا ملكه بكثرة حُرَّاسه وجنوده، وبما منحناه من الهيْبة والنصر، والقوة المادية والمعنوية، وما أعطيناه من الأسباب وكثرة العَدد والعُدد.

روى ابن جرير بسنده عن عكرمة عن ابن عباس ﷺ: أن نفرًا من بني إسرائيل اغتصب بقَرًا من نفر آخر، فاشتكاه عند داود، ولم يكن له بيِّنة على دعواه، فأنكر ذلك المدعَى عليه، فأرجأهما داود ﷺ، فرأى في منامه أن يقتُل المدعِي، فلما عزم على ذلك قال: يا نبي الله، عَلام تقتلني وهذا قد اغتصب بقَري؟ قال: إن الله تعالى أمرني بقتلك، وإني قاتلك لا محالة، قال: يا نبي الله، إن الله لم يأمرك بقتلي من أجل هذا الذي اغتصب بَقري، فأنا صادق فيما ادعيت، ولكني كنت قد اغتلتُ أباه وقتلْتُه ولم يشعر بذلك أحد، فأمر داود به فقُتل[2] فاشتدت هيبة داود عند بني إسرائيل وتوطَّد ملكه.

الخَاصِّيَّةُ الرَّابِعَةُ: الحِكْمَةُ وَالنُّبُوَّةُ

أي: أن الله تعالى قد أعطى داود ﷺ النبوة، وجعله يسُوس ملكه بالحكمة والحزم جميعًا، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: أن الله تعالى أعطاه النبوة والفهم والإصابة في الأمور، فقد اشتمل الزبور على حِكَم جمَّة، وكان داود عالمًا بها عاملًا بما فيها، وكان واسع العلم، صالح العمل، حَسَن المنطق بمقتضى الوحي الإلهي.

الخَاصِّيَّةُ الْخَامِسَةُ: فَصْلُ الْخِطَابِ

أي: أن الله تعالى أعطى داود ﷺ الكلام البليغ الفاصل بين الحق والباطل، وبيَّن الصواب والخطأ، ومنحه سداد الرأي، وفصاحة القول بلا تردد ولا تراجع، ومنحه

(١) قرأ الأزرق بتغليظ اللام وصلًا من (وفصل).

(٢) «تفسير الطبري» (٢٣/ ٨٨) بتصرف.

الفصل القاطع الجازم في الحكْم بين الناس بالعدل والحزم، وهذا هو معنى ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ وورد فيها أقوال مأثورة، منها:

ما ورد عن أبي موسى ﷺ أنه قال: أول من قال: (أمَّا بعدُ) داود ﷺ، وهو فصل الخطاب[١] وكذلك قال الشعبي: فصل الخطاب: أمَّا بعد[٢].

وقال علي بن أبي طالب ﷺ: هو البينة على المدعي واليمين على من أنكر؛ لأن كلام الخصوم ينقطع وينفصل به، وقيل غير ذلك[٣].

والمتأمل في الآيات الأربع الأخيرة يجد أن الله تعالى قد وصف نبيه داود ﷺ بعشر صفات وأمر نبيه ﷺ بالاقتداء به، وهذه الصفات العشر هي:

١- التحلي بالصبر.

٢- ووصْفُه بالعبودية.

٣- والقوة في العبادة والحرب.

٤- كثرة التوبة والرجوع إلى الله تعالى.

٥- تسخير الجبال له حالة كونها تسبح بحمد الله معه.

٦- ترديد التسبيح في صلاتي العشاء والضحى.

٧- تسخير الطير مجموعة له ترجِّع التسبيح معه.

٨- قوَّى الله ملكه ماديًّا وأدبيًّا.

٩- آتاه الله النبوة والحكمة.

١٠- أرشده الله إلى سداد الرأي وإصابة الغرض، والعدل في الحكم.

---

(١) ابن أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (٧/ ٥١).

(٢) عن زياد بن أبي سفيان، ابن أبي شيبة (٧/ ٢٣٢) وابن سعد (٧/ ١٠٠) قال ابن عاشور في تفسيره بعد أن نسب ذلك إلى أبي الأسود الدؤلي: ولا أحسب هذا صحيحًا؛ لأنها كلمة عربية، ولم يعرف في كتاب داود أنه قال ما هو بمعناها بالعبرية (١١/ ٢٣٥).

(٣) يُنظَر: «تفسير الخازن» و(ابن الجوزي) و(ابن كثير) وغيرهم للآية.

هذه هي الفضائل التي منحها الله لداود عليه السلام، وهي مما جاء ذكره في هذه السورة.

هذا: وقد أعطى الله محمدًا ﷺ من كل ما أُعطي داود عليه السلام، فقد كان محمد ﷺ كثير الرجوع إلى ربه، يستغفر الله تعالى في اليوم الواحد أكثر من سبعين مرة، مع أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وذلَّل الله له جبل حراء وثور وأحد، حتى إنه ﷺ قال: **«أُحُد جبل يحبنا ونحبه»**(١).

وحنَّ الجذع إليه، وسبَّح الحصى في كفه، وكثُر الطعام بين يديه، واشتكى الجمل إليه أذى صاحبه، وأوتي جوامع الكلم، وكفاه الله شر أعدائه... إلخ.

القَضِيَّةُ الثَّانِيَةُ: قِصَّةُ الَّذِينَ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ

٢١- ﴿۞ وَهَلْ أَتَنٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ(٢) ﴿٢١﴾﴾

هل أتاك - أيها المخاطب - خبر خصمين اختصما إلى داود عليه السلام، في قضية لهما، جعلها الله فتنة له كي يستدل بها على غيرها، لأنه حَكَم فيها قبل أن يستمع إلى الخصم الآخر، فتاب الله عليه وغفر له.

ومع أن الله تعالى أثنى على داود عليه السلام وامتدحه بهذه الفضائل الجمَّة، فقد تعرض للفتنة والابتلاء، وكان داود عليه السلام قد جعل وقْته أثلاثًا: يومًا يَقْضِي فيه بين الناس، ويومًا يخلو فيه لعبادة ربه، ويومًا لِبيْته وأشغاله، فكان يجد فيما يقرأ فضْل إبراهيم وإسحاق ويعقوب ومنزلتهم عند الله تعالى، فقال: يا رب، أرى الخير قد ذهب به آبائي؟ فأوحى الله إليه أنهم ابْتُلُوا ببلايا لم تُبْتلَ بها، فصبرُوا عليها، فقال: يارب لو ابْتَلَيْتني بمثل ما ابْتَلَيْتهُم به لصبرتُ أيضًا، فأوحى الله إليه: إنك مبتلى في شهر كذا في يوم كذا، فاحترس، فلما كان اليوم الذي وعده الله به دخل محرابه، وأغلق بابه، وأخذ يصلي ويقرأ الزبور(٣).

---

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري (٣٣٦٧) ومسلم (١٣٦٥) و«المسند» (٨٤٥٠)، وعن أنس (١٢٥١٠، ١٣٥٤٨) حديث صحيح وإسناد جيد، أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٨٨٩) وعند عبدالرزاق (١٧١٧٠).

(٢) أمال ابن ذكوان راء (المحراب) بخلف عنه.

(٣) يُنظَر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٤٦) وما بعدها و«تفسير الخازن» (٤/ ٣٣) و«زاد المسير» (٧/ ١١٣) وغيرها.

قال السُّدِّي: كان داود قد قسَّم دهره، يومًا يقضي فيه بين الناس، ويومًا لعبادته، ويومًا لشأن نفسه، ففُتن يوم خلْوته للعبادة لَمَّا تمنى أن يُعطى مثل فضْل إبراهيم وإسحاق ويعقوب، والتزم أن يُمتحن كما امتُحنوا[1].

وبينما هو يتعبد إذ تسوَّر عليه محرابه رجلان تسلَّقا عليه غُرفته، ففزع داود؛ لأنهما لم يدخلا من الباب، ولأنهما أتوْهُ في وقت عبادته، وأتوه في غير الوقت المحدد للحكم بين الناس.

قال ابن عطية: ولا خلاف بين أهل التأويل أنهما كانا ملائكة بعثهما الله لضرْب المثل لداود ﷺ، فاختصما إليه في نازلة قد وقع هو في مثلها.

قال: فرُوي أنه جلس في ملأ من بني إسرائيل، فأُعجب بعمله، وظهر منه ما يقتضي أنه لا يخاف على نفسه فتنة.

وشأن الإنسان أن يضطرب عندما يعرض له مكروهًا، والنبي قد يفزع من توقع الخطر خشية الهلاك، فقد كان العباس يحرُس النبي ﷺ حتى أنزل الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] فتُركت الحراسة.

وكان النبي ﷺ قد أصابه الأرق ذات ليلة فقال: «**ليت رجلًا صالحًا من أصحابي يحرُسني الليلة**»[2]، فسمع النبي ﷺ صوت سلاح، فقال: «**من هذا**»؟ قال سعد بن أبي وقاص: جئتُ لأحْرُسك، فنام النبي ﷺ حتى سُمِع غطيطه.

والفزع أعم من الخوف، والله تعالى يؤمِّن عباده الصالحين من الفزع الأكبر يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

أما في الدنيا فإن الله تعالى لم يؤمِّن أنبياءه من القتل والأذى، فقد قُتل بعضهم، وأُوذي أكثرهم، وقد خاف موسى وهارون ﷺ من لقاء فرعون، فأمَّنهما الله تعالى منه ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه].

---

(١) يُنظَر: «تفسير ابن عطية» (٤/ ٤٩٨).

(٢) من حديث عائشة في صحيح البخاري برقم (٢٨٨٥، ٧٢٣١) وفي الأدب المفرد (٨٧٨) ومسلم (٢٤١٠) والترمذي (٣٧٥٦) والنسائي في الكبرى (٨٢١٧) وأبو يعلى (٤٨٥٦) ومسند أحمد (٢٥٠٩٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

ولما اعترى داود الفزع من تسوُّر الرجلين عليه محرابه المُغْلق، بادراه بالطمأنينة وأخبراه أنهما جاءا للتقاضي أمامه، وليس لاغتياله أو نحو ذلك، وعرض أحدهما قضيته، وبمجرد سماعها حَكَمَ له داود قبل أن يستمع إلى الطرف الآخر، ولم يطلب منه ردًّا ولا بيانًا، ولم يسمع له حجة.

والله تعالى يوجِّه الخطاب إلى الرسول الخاتم ليُبيِّن للخلق ما اتُّهم به اليهود نبي الله داود ﷺ بالقتل والزنى، زاعمين أنه تآمر على قتل (أوريا) -أحد قواده- ليتزوج امرأته بعد اغتياله؛ كي يتبيَّن للعالمين أن قرآن محمد ﷺ هو الذي أنصف داود ﷺ، ونفى عنه ما ألصقه به اليهود، كما فعلوا مع غيره من رسل الله، وليثبِتَ أن الأنبياء الملوك ليسوا ممن أذهبوا طيباتهم في الحياة الدنيا واستمتعوا بها، بل إنهم بذلوا أنفسهم وما يملكون في سبيل مرضاة الله.

لقد كان داود من الأغنياء الشاكرين، وكان أعبد الناس، فعن عمرو بن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أحب الصيام إلى الله صيام داود؛ كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود؛ كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه»**(1).

وكان داود أوَّابًا، كثير التوبة والرجوع إلى الله تعالى، وكان ﷺ يأكل من عمل يده.

ففي الحديث: عن المقداد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما أكل أحد طعامًا قطُّ خير من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»**(2).

وقد أثنى عليه ربه قبل القصة وبعدها، بما يفيد عدم وقوع ذم بين المدْحَيْن، وإن هذه الحادثة لا تُنقِص شيئًا من فضل داود ﷺ؛ وذلك لأن مقام النبوة أشرف المقامات وأعلاها، فهم مطالبون بأكمل الأوصاف وأسناها، فإن حدث منهم ما هو من طبع البشر عاتبهم الله على ذلك وغفر لهم.

ومعنى الآية: وهل وصل إلى علْمك -يا رسولنا- خبر المتخاصمَيْن اللَّذيْن تسوَّرا على داود مكان عبادته، فارتاع من دخولهما عليه؛ لأن ذلك كان دون إذن منه، ودون علم

---

(1) «صحيح البخاري» برقم (١١٣١، ٣٤٢٠) و«صحيح مسلم» برقم (١١٥٩).

(2) «صحيح البخاري» برقم (٢٠٧٢، ٢٠٧٣) وانظر: (٣٤١٧، ٤٧١٣).

بقدومهما، إن كان خبرُ هذين المتخاصمَيْن لم يصل إلى علمك -أيها الرسول- فها نحن نقصه عليك.

قال السُّدِّي والحسن ووهب بن منبه: كانا ملَكين أرسلهما الله تعالى إلى داود في صورة رجلين لإبلاغ المثَل إليه[1].

وقيل: كانا أخوين شقيقين من بني إسرائيل ألهمهما الله هذه الخصومة لدى داود[2].

والاستفهام في أول الآية للتعجب وتشويق السامع إلى ما يُلْقَى إليه.

و(الْخَصْم) من الاختصام والمجادلة، وهو لفظ يطلق على الواحد فأكثر.

و(المحراب) هو المكان الذي كان يجلس فيه داود عليه السلام للتعبد وذكر الله تعالى.

قال تعالى مبيِّنًا ما كان من الخصوم:

٢٢- ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ[3] ﴿٢٢﴾﴾

أي: واذكر - أيها المخاطب - حين دخل الخصمان على داود عليه السلام من أعلى السُّور، ففزع واضطرب منهما، لأنهما تسوَّرا عليه المحراب، ولأنهما جاءا في غير وقت القضاء، وأحسَّ داود بشيء ينبغي عليه أن يتخلص منه، فطمأناه قائليْن: لا تخفْ فنحن أخوان، ظَلَم أحدُنا الآخر وجئنا للتقاضي لديك فاقضِ بيننا بالعدل، ولا تجُر علينا في الحكم، وأرشِدنا إلى طريق الحق، ولم يعيِّن المدعي الباغي تأدُّبًا مع الحاكم، ويمضي الخصم قائلًا:

هَلِ النَّعْجَةُ تُفَسَّرُ بِالْمَرْأَةِ؟

٢٣- ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ[4] نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾

---

(١) ورواه الطبري عن أنس بسند فيه مقال.

(٢) يُنظَر: «تفسير ابن عاشور» (٢٣/ ٢٣٧) و«تفسير ابن الجوزي» (٧١/ ١١٨) و«تفسير الشوكاني» (٤/ ٤١١).

(٣) قرأ قنبل ورويس بالسين في (الصراط) وقرأ حمزة عن خلف بإشمام الصاد صوت الزاي، والباقون بالصاد الخالصة.

(٤) قرأ حفص بفتح الياء من (ولي نعجة)، والباقون بإسكانها.

أخذ الخصمان في شرح قضيتهما، قال أحدهما: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ في النسب والدين والصُّحْبة، يملك تسعًا وتسعين نعجة، وهي أنثى الضأن، وتُطلَق النعجة على أنثى البقر، والعرب تُكنِّي عن المرأة بالنعجة، وتُشبِّه النساء بالنعاج من البقر[١].

وقال ابن قتيبة: وَرَّى عن ذكر النساء بذكر النعاج[٢].

قلت: ولا يلزم من هذا أن يكون المراد بالنعجة في الآية: المرأة؛ لأن المراد ضرب المثل وتقريب المعنى للمخاطب، والأصل في الكلام هو الحقيقة، والنعجة هي الأنثى من الضأن وليست المرأة.

قال الخصم: وأنا أملك نعجة واحدة فقط، ومع هذا فقد طمع أخي في هذه النعجة، وقال: أعطني إياها واجعلها تحت كفالتي، وهذا معنى ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: مَلِّكْني إياها وتنازلْ لي عنها، قال المدعي: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي: وغلبني في المحاجة والمجادلة، واشتد عليَّ؛ لأنه أقوى وأفصح مني، ولما رأى مني تمنُّعًا أغلظ عليَّ في القول، فأردتُ أن أحافظ على صلة القرابة بيننا، فشكوتهُ إليك لتصدَّهُ عن مجافاتي والتطاوُل عليَّ، وأنا أطلب الإنصاف في معاملة القرابة؛ لئلَّا يقطع الخلاف ما بيننا من أواصر المحبة.

وذهب أبو حيان إلى أن القصة حقيقية وقعت بين اثنين من الناس في شأن غنم لهما، وأن اللَّذَين تسوَّرا المحراب من الإنس، وأنهما قد دخلا عليه من غير المدخل وفي غير وقت جلوسه للحكم[٣].

قلت: هذا كلام يتفق مع ظاهر الآية

حُكْمُ دَاوُدَ فِي الْقَضِيَّةِ

٢٤- ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ[٤] نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾

---

(١) يُنظَر: «فتح القدير» للشوكاني (٤/ ٤١١).

(٢) «زاد المسير» (٧/ ١١٩) واستشهد على ذلك ببيت من الشعر قاله عنترة يُعرِّض بجارية.

(٣) انظر: «البحر المحيط» (٧/ ٢٩٣).

(٤) قرأ ورش بثلاثة وجوه المد في (بسؤال) ووقف عليها حمزة بالواو الخالصة.

وأمام هذه القضية واضحة المعالم، وأمام سكوت المدعَى عليه وعدم اعتراضه على كلام المدعي -حَكَم داود بأن سؤال الأخ أخاه نعْجته ظُلْمٌ؛ لأنه في غنى عنها، ولأن صاحبها لا يملك غيرها، ولا ينازَع المالك فيما يملك.

﴿قَالَ﴾ داود بعد فراغ المدَّعِي من كلامه، وعدم اعتراض المدَّعَى عليه بصمْته ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ أي: بسبب طلبه منك التنازل عن نعجتك وضمها إلى نعاجه.

ثم إن داود ﷺ أراد أن يُنهي كلامه بالموعظة والعبرة، على عادة الدعاة إلى الله تعالى في التخوُّل بالموعظة حرصًا على الهداية، والتخفيف من وقع الحكم على المظلوم، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ أي: أغلب الشركاء ﴿لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: يعتدي بعضهم على بعض، ويطمع بعضهم في مال بعض، فيظلمه ويأخذ حقه ولا ينصفه من نفسه، وهذا أمر متفشٍّ بين غير الصالحين من عباد الله.

ولذا قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فلا يبغي بعضهم على بعض، ولا يطمع بعضهم في مال بعض لقوة إيمانهم، وتحريمهم الحلال من الحرام.

ثم بيَّن سبحانه أن هذا النوع من الناس قليل، فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ وفي هذا لفت نظر منه، وحثٌّ لهما على أن يكونا من هذه القلة، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

والسبب في هذا أن متابعة الهوى أمر محبب إلى النفس، ومجاهدة الهوى والشيطان فيه مشقة على النفوس، وكأن الله تعالى يقول: ما أقل المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ويحْرِصون على إعطاء كل ذي حق حقه.

وبعد انتهاء الحكم اختفى الرجلان وانصرفا بطريقة غير معتادة، وَرَدَ أن أحدهما نظر إلى صاحبه وضحك بعد حكم داود(١).

فَعُلِم بهذا -على ما قاله كثير من المفسرين- أنهما ملكان بعثهما الله تعالى إلى داود ﷺ في قضية صورية، وأنه قد أخطأ حين قضى لأحد الخصمين دون أن يستمع إلى الآخر ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أي: أيقن عندئذ أن الابتلاء الذي كان قد عاهد اللهَ أن يصبر عليه

---

(١) قاله الواحدي.

قد وقع، حتى يُعطَى من الفضل مثل آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

ولعل داود ظن أن الخصمين قد دخلا عليه لاغتياله، فلما تحقق له أنهما جاءا للقضاء بينهما بالعدل، ندم واستغفر ربه ورجع إليه ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ أي: طلب منه المغفرة على ظنه في الرجلين ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أي: انحنى بشدة حتى قارب السجود تعظيمًا لله تعالى.

ومن المعلوم أن السجود بوضع الجبهة على الأرض لم يكن موجودًا في بني إسرائيل، وقد فُسِّر قوله تعالى: ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] في قصة يوسف عليه السلام، بالانحناء، وهذا الركوع يسمى سجودًا في شريعتهم.

ولعل هذا هو حجة الإمام الشافعي في كونه لم يَعُدَّ هذه الآية من مواضع سجود التلاوة في القرآن.

ورأي الجمهور أنها سجدة؛ لثبوت سجود النبي ﷺ عندها، كما جاء عن مجاهد أنه قال: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن السجدة التي في سورة (ص)، فقال: أوَما تقرأ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ [الأنعام: ٨٤] إلى قوله سبحانه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

فكان داود مما أُمر نبيكم أن يقتدي به، فسجدها داود، فسجدها رسول الله ﷺ[1].

بمعنى: أن النبيَّ ﷺ أُمِر أن يقتدي بداود عليه السلام بما يساوي الركوع في شريعة الإسلام، وهو السجود في شريعة داود ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ أي: رجع إلى الله تعالى، وندم على ما كان منه من التسرع في الحكم في القضية، قبل التثبت وسماع الحجة من الطرف الآخر.

قال النحاس: ويقال: إن خطيئة داود هي قوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ لأنه قال ذلك قبل أن يتثبت[2].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٤٢١، ٤٨٠٧) وأحمد (١/ ٣٦٠) وأبو داود برقم (١٤٠٩) والترمذي برقم (٥٧٧) وقال: حسن صحيح. والدارمي (١/ ٣٤٢) وابن خزيمة (١/ ٢٧٧) والبيهقي (٢/ ٣١٨٢).

(٢) «فتح القدير» (٤/ ٤١١).

سُجُودُ التِّلَاوَةِ فِي سُورَةِ ص

٢٥- ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾

أي: غفرنا لداود ذلك الظن الذي استغفر ربه منه، فسامحناه وعفونا عنه ما كان منه.

قال ابن عباس ﷺ: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني رأيت فيما يرى النائم كأني أُصلي خلف شجرة، فقرأتُ السجدة فسجدتُ، فسَجدَتِ الشجرة لسجودي، فسمعتها تقول وهي ساجدة: اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا، واجعلها لي عندك ذخرًا، وضع عني بها وزرًا، وتقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود، قال ابن عباس: فرأيت النبي ﷺ قام، فقرأ السجدة ثم سجد، فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة[١].

وعن أبي سعيد ﷺ قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر، سورة (ص)، فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يومٌ آخَر، فلما بلغ السجدة تهيَّأ الناس للسجود فقال: **«فإنما هي توبة نبي، ولكني رأيتكم تهيَّأتم للسجود»** فنزل فسجد[٢].

وعن عكرمة عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ص ليس من عزائم السجود»** وقد رأيت النبي ﷺ يسجد فيها[٣].

وإن لداود عند الله تعالى فضلًا عن ذلك ﴿لَزُلْفَىٰ﴾ أي: قُربى ومكانة عالية، فلا يتوهم متوهم أن الله تعالى قد غضب على داود، وأنه لم يوفق في الاختبار.

ثم بيَّن سبحانه أن لداود في الآخرة حُسن المرجع والمصير، بالرجوع إلينا رجوعًا حسنًا، يرضى عنه في نفسه، ويرضى عنه الناس، ويرضى عنه رب العالمين، فيجازيه

---

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٤٧٣) و«السلسلة الصحيحة» (٢٧١٠) وابن ماجه (١٠٥٣) وصحيح ابن ماجه (٨٦٥) بتحسين الألباني، والطبراني (١١٢٦٢) والحاكم (١/ ٢١٩) والبيهقي (٧/ ٢٠)، وحسنه الألباني أيضًا في المشكاة (١٠٣٦).

(٢) الدارمي (١/ ٣٤٢) و«صحيح سنن أبي داود» (١٢٥٣) بتصحيح الألباني، والدارقطني (١/ ٤٠٨) وابن خزيمة (١٤٥٥) وابن حبان (٢٧٦٥) والحاكم (١/ ٢٨٤) والبيهقي (٢/ ٣١٨).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٠٦٩، ٣٤٢٢)، وصحيح أبي داود (١٢٥٢) وغيرهما.

بالجنة التي يأوي إليها في دار العزة والكرامة.

عصمة داود ﷺ وقصة أو ريا:

هذا: وقد ورد في قصة زوجة (أوريا الحثِّي) -أحد رجال جيش داود ﷺ-ما لا ينبغي إغفاله، لذكره في كثير من التفاسير القديمة، وبيان الحق في ذلك:

وأن داود ﷺ رأى امرأة أحد قُوّاده صُدْفة، فأراد أن يتزوجها، وكان (أوريا) قد خطبها ولم يدخل بها، فطلب داود من (أوريا) أن يتنازل عنها ليتزوجها، وكان يباح في شريعتهم أن يتنازل الرجل عن مخطوبته إلى غيره لصداقة بينهما، فيتركها ويتزوجها الآخر، كما كان ذلك جائزًا في صدر الإسلام، وقد حدث مثله بين بعض المهاجرين والأنصار.

وخرج أوريا في غزوة مدينة (رَبة) للعمونيِّين، وقيل: في غزوة عمَّان، قصبة البلقاء من فلسطين، فَقُتل في الحرب، فتزوجها داود، وكان له تسع وتسعون امرأة، فعاتبه الله تعالى على ذلك؛ لأنه استعمل هذا المباح لنفسه.

وأرسل الله لداود مَلكَيْن في صورة رجلين، ليُصوِّرا له ما حدث، ويُبيِّنا له أنه كان الأليق بمقام النبوَّة ترْك هذا الزواج المباح، وأن ما صدر من داود يستوجب العتاب، ولا يستوجب العقاب.

ولذا: فقد خُتمت القصة بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[1].

كما أن الله تعالى عقَّب على هذه القصة بما يكشف عن طبيعة هذه الفتنة، وأن المقصود من القصة عدم اتباع الهوى في الحكم بين الناس، وعدم الانفعال مع الحجة الأولى، والتريُّث والتبيُّن حتى لا يضل القاضي عن طريق الحق والعدل.

والقصة على هذا النحو ليس فيها ما يقدح في عصمة الأنبياء:

١- فطلبُ داود الزواج من خطيبة أُورْيا كان أمرًا مباحًا جائزًا في شريعتهم، كما كان جائزًا في صدر الإسلام.

٢- ثم إن القصة -في حقيقتها- ليس فيها أن داود عليه السلام أمر أن يُجعل أُورْيا في صدر الجيش ليُقتل، فهذا من الأكاذيب الملحقَة بالقصة، وقد خرج (أوريا) للقتال بمحض إرادته ثم قُتل في المعركة، كشأن أيِّ مُحارب، وتزوج داود المرأة، فهو زواج لا غبار عليه، وليس فيه أي شائبة تقدح في داود عليه السلام.

٣- والذي أُخذ على داود عليه السلام هو التوسُّع في المباح، بالتطلع إلى هذه المرأة، وعنده الكثير غيرها.

٤- والذي نفَّر بعض المفسرين من هذه القصة **أمران**:

الأمر الأول: عدم إدراك إباحة أن يطلب الرجل من غيره الزواج بمخطوبته ليتركها له، على أن هذا كان سائغًا في شريعتهم.

والأمر الثاني: كون داود عليه السلام قد أمر بجعل أُورْيا في أول الصفوف ليُقتل، فإن هذا لم يحدث، وهو من زيادات القُصَّاص.

٥- لابدَّ من وجود أصل يمثل قدرًا مشتركًا لما جاء في كثير من التفاسير، بدءًا بشيخ المفسرين ابن جرير الطبري[(١)] فما بعده[(٢)]، وما جاء في كتب السنة[(٣)] والقدر الذي ورد في كتب اليهود[(٤)].

٦- ذَكَر القرآن هذه القصة، ليخلِّصها من الشوائب التي لحقتْ بها، مما ألْصقه اليهود بنبي الله داود عليه السلام، من تدبيره لقتل أُورْيا ليتزوج بامرأته بعد أن وقعت في قلبه.

فقد مدح الله داود قبل القصة وبعدها، وعاتبه بينهما على نتيجة الاختبار المقرر سلفًا، عاتبه لأنه خالف الأوْلى في أمر مباح، في هذه الحادثة التي كانت فتنة وابتلاء لداود الذي غبط آباءه إبراهيم وإسحاق ويعقوب على ما حباهم الله به من فضل، وسأل ربه معرفة

---

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٤٤) فما بعدها.

(٢) كالسيوطي في «الدر المنثور» (٥/ ٣٠٣) بتصرف.

(٣) من ذلك ما أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف»، الفضائل، برقم (١١٩٤٣) وغير ذلك مما ورد وكله بسند ضعيف لما فيه من خلط بين الصحيح والسقيم.

(٤) كما في «سفر صمويل الثاني» في الإصحاح الحادي عشر من كتب اليهود مما يتنافى مع عصمة الأنبياء.

السبب، فذكر له أنهم صبروا على البلاء، فقال: يا رب، لو ابتليتني لصِرْتُ مثلهم، فكان هذا الابتلاء مُرادًا لله تعالى؛ كي يثيب داود عليه، ويرفع درجاته في مصافّ آبائه الذين غبطهم.

وبهذا لا نحتاج إلى تلمس الأسباب المختلفة لهذه القصة، وندرك أن تزوُّج داود بالمرأة ليس إلا فتنة وابتلاء من الله تعالى لداود عليه السلام.

وبالنسبة لهذه القصة فإن النعجة تفسر بالمرأة، ولذلك شاهد من كلام العرب كما سبق.

قال الخازن في تفسيره: ذهب المحققون من علماء التفسير وغيرهم في هذه القصة إلى أن داود عليه السلام ما زاد على أن قال للرجل: انزلْ لي عن امرأتك واكْفلْنيها، فعاتبه الله تعالى على ذلك، ونبَّهه عليه، وأنكر عليه شُغْله بالدنيا.

وقيل: إن داود تمنى أن تكون امرأة أوريا له، فاتفق أن أوريا قُتل في الحرب... وتزوج داود امرأته، فعاتبه الله على ذلك؛ لأن ذنوب الأنبياء -وإن صغُرت- فهي عظيمة عند الله تعالى.

وقيل: إن أُورْيا كان قد خطب تلك المرأة، ووطَّن نفسه عليها، فلما غاب في الغزْوة خطبها داود، فزوَّجتْ نفسها منه، فعاتبه الله تعالى، لأنه لم يترك هذه الواحدة لخاطِبها، وعنده تسع وتسعون امرأة.

ويدل على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ فدل هذا على أن الكلام كان بينهما في الخِطبة، ولم يكن أورْيا قد تزوَّج بها، فعُوتب داود لسببين:

أحدهما: خطبته على خطبة أخيه.

ثانيهما: الحرص على التزوج مع كثرة نسائه[1].

فينبغي التحرز والدقة عند ذكر مثل هذه القصة؛ حتى لا يختلط الحق بالصواب:

قال عليٌّ رضي الله عنه: من حدَّث بحديث داود على ما يَرويه القُصَّاص جَلَدْتُه مئة وستين جلدة، وهو حد الفرية على الأنبياء.

(١) «تفسير الخازن» (٤/ ٣٥) بتصرف يسير.

وقد أخذ بعض أهل العلم من الآية جواز تمثيل الروايات والقصص بقصد التربية والموعظة، ولا يُرمى واضعها بالكذب، وفيها أيضًا دليل على جواز تمثيل القصص بالأجسام والذوات ما لم تخالف الشريعة، فإن ما حكاه القرآن والسنة من شرع من قبلنا يصلح دليلًا لنا في شرعنا ما لم يرد ما ينسخه[١].

القَضِيَّةُ الثَّالِثَةُ: اسْتِخْلَافُ دَاوُدَ فِي الأَرْضِ

٢٦- ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

هذه هي الحلقة الثالثة والأخيرة من قصة داود عليه السلام في هذه السورة، وهي قضية استخلافه في الأرض لإنفاذ شرع الله فيها، والحكم بين الناس بالعدل، وقد جاءت هذه الجزئية تعقيبًا على العبرة المستفادة من الحادثة السابقة، لكل من ولَّاه الله القضاء والحكم بين الناس؛ لئلَّا يتبعوا هوى النفس - فيخطؤوا - طريق الصواب.

والخليفة: هو الذي يخلُف غيره فينوب عنه ويقوم مقامه.

قال ابن عطية: ولا يقال خليفة الله إلا لرسول الله، وأما الخلفاء فكل واحد منهم خليفةُ الذي قبله، فكان أبو بكر يُدْعى خليفة رسول الله مدة حياته ﷺ فلما وُلِّي عمر قالوا: خليفة خليفة رسول الله، فلما رأى الصحابة أن ذلك سيطول في المستقبل، قالوا: أمير المؤمنين، وقصر هذا الاسم على الخلفاء الأربعة[٢].

والرسول -أيُّ رسول- خليفة الله تعالى في إنفاذ شرائعه التي أوحى له بها أو أمره بتبليغها من الشريعة السابقة عليه، أو الموحى إليه بها ابتداء.

فداود عليه السلام خليفة عن الله في أرضه، لتنفيذ قضاياه الدينية والدنيوية، وهو خليفة عن موسى عليه السلام، وعن أحبار بني إسرائيل -القضاة- لتبليغ وحي الله تعالى إلى الناس، وهو خليفة عن طالوت في المُلْك.

---

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٣/٢٣٨).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٤/٥٠٢).

وقد كان داود أعظم ملوك الأرض في زمنه، يخاف بأسه سائر الملوك، فهو يتصرف في مملكته ولا ينفلت شيء منها من قبضته.

وخلافة داود عليه السلام كانت في أرض مملكته المعهودة، وهي أرض إسرائيل، وهذا يختلف عن استخلاف الله تعالى لآدم في الكرة الأرضية، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

ومن خلافة داود عليه السلام أنه كان مرجعًا للمظلومين لرفع الظلم عنهم ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل والإنصاف، ولا يتمكن من هذا إلا من عَلِم الحق، وعلم الواقع، وكان عنده قدرة على تنفيذ الحق، وقد واظب داود عليه السلام على ذلك في جميع الأزمان والأحوال، وأمره الله تعالى ألا يزيغ عن الحق باتباع هوى النفس والخروج عن الصواب: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تتبع هوى النفس ورغباتها وميولها، فتميل مع أحد الناس لقرابة أو صداقة أو محبة، أو تقضى للطرف الآخر، فإن اتباعك للنفس الأمارة بالسوء يؤدي بك إلى الضلال عن طريق الحق، وعن مخالفة شرع الله تعالى ومنهاجه المستقيم.

وهذه وصية من الله تعالى لولاة الأمور جميعًا ليعْدلوا في حكمهم ولا يضلُّوا، فقد توعد سبحانه كل من يضل عن دين الله وشرعه بسوء المصير يوم القيامة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بعدم طلب مرضاته في أعمالهم وفي حكمهم بين الناس ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾ في نار جهنم ﴿بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: بسبب غفلتهم عن الجزاء المعدّ لهم يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة].

وقال سبحانه: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الجاثية].

قيل: إن بعض خلفاء بني أمية، قال لعمر بن عبد العزيز، أو للزهري: هل سمعتَ ما بلَغنا؟ قال: وما هو؟ قال: بلغنا أن الخليفة لا يجري عليه القلم، ولا تُكْتب له معصية، فقال: يا أمير المؤمنين، الخلفاء أفضل أم الأنبياء؟ ثم تلا ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ﴾..

ودخل أبو زرعة على الوليد بن عبد الملك؛ فقال له الوليد: أخبرني، هل يحاسَب الخليفة؟ فإنك قرأت الكتاب الأول، أي: كُتُب بني إسرائيل، وقرأتَ القرآن وفقِهْتَ، فقال: يا أمير المؤمنين، أقول؟ قال: قل في أمان، فقال: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أم داود؟ إن الله ﷻ جمع له النبوة والخلافة ثم توعَّده في كتابه، فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(١).

الحِكْمَةُ مِنْ خَلْقِ هَذَا الكَوْنِ

٢٧- ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾

ثم إن الله تعالى ردَّ الحكم بين الناس بالحق، إلى الأصل العريق الذي تقوم عليه السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، لبيان أن الانحراف عن دين الله تعالى وشرعه هو انحراف عن الحقيقة الكبرى التي قامت عليها السموات والأرض، فمخلوقات الله جميعًا لا تخرج عن الحق الذي خُلقت من أجله، سواء حالًا أو مآلًا، فالملائكة والرسل والصالحون قاموا بهذا الحق في الدنيا، والشياطين والمفسدون من الإنس والجن يُنصَب لهم لواء الحق يوم الجزاء العادل، فلا يندُّ منه أحد، وهو حكم مُطَّرِد غاية في الإحكام.

وقد خلق الله السموات والأرض بالحق وللحق، ليعرف الخلق ربهم، فيعبدوه ويوحدوه، ويعلموا كمال علمه وقدرته وسعة سلطانه، ويعلموا أن البعث حق، والحساب والجزاء حق، وسيفصل الله بين أهل الخير وأهل الشر.

فالله تعالى لم يخلق الخلق لغير غاية، ولم يتركهم سدى، يفعل كل منهم ما يشاء من الفساد أو الصلاح دون أن يجزي المحسن بإحسانه والمسيء على إساءته، فإن استواء المحسن والمسيء عبث باطل، وتعطيل للحكمة التي خلق الله الخلق من أجلها، ولو أن الله تعالى سوَّى بين المؤمن والكافر، لكان ذلك عبثًا ولهوًا يتنزه عنه رب العالمين، وهذا معنى ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾ أي: لم نخلق هذا الكون الفسيح بعالَميه: العلوي والسفلي وما فيهما وما بينهما، من المخلوقات العجيبة، عبثًا ولا لهوًا، كما قال

---

(١) «تفسير ابن كثير» للآية (٧/ ٦٣).

تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون].

بل خلقناهما لحكمة عظيمة وغاية سامية، جاءت في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: خلْق السموات والأرض وما بينهما لغير حكمة ﴿ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: يقينهم وعلمهم، وسماه القرآن ظنًّا؛ لأنه يخالف الواقع، فهو أجدر أن يسمى ظنًّا؛ وذلك لأنهم يجحدون يوم القيامة وينكرون ما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب وجزاء على الأقوال والأعمال، وإعراضهم عما جاء به الرسول ﷺ من الوحي المنزل ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ يعذبون فيها نتيجة كفرهم بالبعث والحساب والجزاء، وجحودهم الحق والإعراض عنه.

الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ لَا يَسْتَوِيَانِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى

٢٨- ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾

ثم وضَّح سبحانه ظن الكفار الْمُفضي إلى أن خلْق السموات والأرض كان باطلًا في زعمهم، فقرر جلَّ شأنه أنه لو لم يكن هناك بعث ولا حساب ولا جزاء كما يزعم منكرو البعث، لاستوت عند الله تعالى أحوال الصالحين وأحوال المفسدين، فهل يستوي الصالح والطالح؟! وهل يستوي التقي والفاجر؟! هذه تسوية غير لائقة بحِكْمة الله تعالى وحُكْمه، بل يثيب الله الصالحين المتقين بالجزاء الحسن يوم لقائه، ويعاقب المفسدين الفاجرين على أعمالهم، وهذه مقابلة بين أهل السعادة وأهل الشقاء، وجزاؤهما يكون بالنعيم المقيم أو العذاب الأليم، ولو لم يؤاخذ الله كُلًّا من الفريقين بما عمل، لكان خلْق الإنس والجن باطلًا، وهذا يستلزم أن يكون خلْق الكون باطلًا.

والفساد يكون باختيار الشهوات واتباع الهوى بالقوة الباطنة، فقد خلق الله الإنسان في أعلى المراتب ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] بحيث يرتقي إلى رتبة الأنبياء، ولكنه ينحط بسوء عمله إلى أسفل المراتب ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [التين].

وجميع الناس في خُسْران وضلال إلا من آمن وعمل صالحًا، وكل فريق من أهل السعادة أو الشقاء يلتحق بما يُشبهُه من الملائكة أو الشياطين بلْه الحيوانات! ﴿أَمْ حَسِبَ

ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية].

فالتسوية بين المؤمنين والكافرين في الآخرة مستحيلة؛ لأنها ظلم، والظلم محال على الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣١﴾﴾ [النجم].

قال ذو القرنين: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه].

وهذه الآيات تشير إلى أن الله تعالى لو أبطل الجزاء في الآخرة -كما يقول الكفار- لاستوى حال من أصلح في الدنيا ومن أفسد، وحال من اتقى وفجر.

ومن سوَّى بينهما كان سفيهًا، ولم يكن حكيمًا.

القُرْآنُ العَظِيمُ يَهْدِي إِلَى سَعَادَةِ الدَّارَيْنِ

٢٩- ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ[1] ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

بعد أن خاطب القرآن الكريم، منكري البعث، ليرشدهم إلى أن خلْق هذا الكون لا يكون عبثًا ولا لهوًا، أعرض الله تعالى عنهم؛ لأنهم أعرضوا عن آيات الله ولم ينتفعوا بما فيها.

وتوجه بالخطاب إلى النبي ﷺ ليلفت الأنظار إلى أن هذا القرآن قد أتى بما يُقنع، ويَشفي الغليل، ويدْحض الشبه، ويُثْبِت أن خلْق هذا الكون لحكمة جليلة، فهو خلْق بالحق وليس بالباطل، ولكن الجاحدين المكذبين حُرِموا الانتفاع بما في القرآن، ولم ينتفع به إلا من عقل وتدبر، واهتدى بهديه، من المؤمنين أولي الألباب ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ أي: أن هذا الموحى به إليك يا محمد، كتاب عظيم، فيه علم غزير، وفيه الهدى

---

(١) قرأ أبو جعفر بالياء بدلًا من التاء في (ليدبروا) مع تخفيف الدال، وأصلها لتتدبروا، فحذفت إحدى التائين، وقرأ الباقون بياء ودال مشددة، وأصلها ليتدبروا فأدغمت التاء في الدال.

من كل ضلال، والشفاء من كل داء، وفيه نور يستضاء به في الظلمات، وفيه كل حكم يحتاج إليه البشر، فهو كتاب كثير الخير والمنافع الدينية والدنيوية، يتضمن الحجج الدامغة، والبراهين الساطعة، والدلائل القاطعة مُؤَسَّسٌ على وحدانية الله تعالى، وقيام الناس لرب العالمين، وهو كتاب ﴿مُبَٰرَكٞ﴾ كثير الخير والبركة ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يتفكروا فيها، ويكتشفوا غوامضها بقدر الطاقة، وينتفعوا بما تحتويه من هُدًى ونور، وتشريع وعبادة، وأحكام وآداب وأخلاق، ولكي يتعظ به أصحاب العقول السليمة، فالتدبر يُفضي إلى التذكر، وفي هذا حث على تأمل أسراره، واستخراج علومه وحِكَمِه وتأمل معانيه، والعمل بما فيه لتحقيق الغاية من إنزاله.

قال الحسن البصري: والله ما تدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله، لقد قرأت القرآن فما أسقطتُ منه حرفًا، وقد أسقطَهُ والله كله، ما يُرى للقرآن عليه أثر في خلُق ولا عمل[١].

وأُلُوا العقول الصحيحة هم الذين يتذكرون ويتدبرون فيحصل لهم التذكر والانتفاع بكل علم ومطلوب، وهذا معنى ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

القِصَّةُ الثَّانِيَةُ: قِصَّةُ سُلَيمَانَ عليه السلام

٣٠- ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٣٠﴾

وقصة سليمان عليه السلام تكملة لقصة داود عليه السلام، حيث لم تبدأ هذه القصة بكلمة ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ كما في قصة داود التي قبلها، وقصة أيوب التي بعدها، وإنما جاءت آخر المنن التي امتن الله بها على داود، حيث أنعم الله عليه، فأعطاه سليمان، بهجة له في حياته، وحتى يرث ملكه بعد مماته، كما قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦].

فكانت موهبة سليمان لداود، مكرمة عظيمة، بعد أن غفر الله له وقَبِل أوْبته ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ ابنًا له أنعمنا عليه به، وأقررنا به عينه، وأعطيناه النبوة والملك.

ولداود أبناء آخرون، ولكن سليمان هو الذي ورثه في النبوة والملك ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ سليمان

---

(١) «تفسير الكشاف» (٤/ ٧٠) وابن كثير (٧/ ٦٤).

في دينه وخلُقه وشكره لربه ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي كثير الرجوع إلى الله تعالى وكثير الإنابة إليه، في جميع أحواله، يتضرع إلى ربه ويدعوه ويذكره ويشكره، ويجتهد في محبته ومرضاته.

الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ، هَلْ عَقَرَهَا سُلَيْمَانُ؟

٣١- ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾

اذكر يا محمد، حين عُرض على سليمان، عشية يوم من الأيام - عصرًا - الخيول الأصيلة، التي تقف على ثلاث قوائم، وترفع الرابعة، لنجابتها وخفتها، فهي تسرع الجرْي، وتقف على طرف الحافر، في منظر رائع وجمال عجيب، فما زالت تُعرَض عليه حتى غابت الشمس في نهاية وقت العصر.

والعشي: من العصر إلى الغروب، وقد جاء وصف الخيول بـ ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾.

والصافنة: هي التي تقف على ثلاث قوائم، وطرفُ حافر القائمةِ الرابعة لا يمكِّن من الأرض، وهو دلالة الخفة والأصالة.

والجياد: جمع جواد، وهو الفرس النفيس، سريع الجرْي، فإن وقفتِ الفرس كانتْ ساكنة مطمئنة، وهذان وصفان لخيول سليمان، بالفضيلة والكمال في حالَي الوقوف والحركة.

والعرب تصف الخيل بالصفون والجودة، وكان سليمان مولعًا بحب الخيل والفرسان.

٣٢- ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ[1] أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾

أي: ﴿فَقَالَ﴾ سليمان وهو يستعرض الخيول الصافنات الجياد، على سبيل الشكر لربه: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: الخيل ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ أي: أحببت استعراض الخيول، وأحببتُ تدريبها وإعدادها للجهاد من أجل ذكر ربي وطاعته، وإعلاء كلمته، ونُصرة دينه، وظل يستعرضها ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ الخيل ﴿بِٱلْحِجَابِ﴾ أي: اختفت عن نظري حيث امتد سيرها فحُجبت عن الأنظار.

وكان سليمان عليه السلام يستعرض الخيل ليطمئن إلى أهليتها، والعرب تسمي الخيل خيرًا؛ لأن

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إني أحببت)، والباقون بإسكانها.

الخير يتعلق بها، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات] والمراد: الخيل الصافنة الجيدة.

جاء في حديث عروة بن أبي الجعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة**»[1].

وسمى الله المال خيرًا فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠] أي: مالًا، والمراد بذكر الله تعالى في قوله: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ مطلق الطاعة والعبادة؛ لأن وقت العشيِّ في شريعة موسى التي كان يدعو إليها داود وسليمان، ليس فيها صلاة مفروضة إلا صلاة المغرب، فصرْفها إلى صلاة العصر يحتاج إلى دليل.

ولفظ: ﴿عَن﴾ من قوله تعالى: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ للتعليل، وحروف الجر ينوب بعضها عن بعض، أي: أحببت الخيل من أجل أنها آلة الجهاد في سبيل الله، والجهاد من أفضل الطاعات، وأجلّ القربات.

والضمير في ﴿تَوَارَتْ﴾ يعود على أقرب مذكور، وأقرب مذكور هو ﴿ٱلْخَيْرِ﴾ أي: الخيل.

والحجاب: هو غيابها عن رؤية العين، فقد كانت الخيول تُعدُّ بالآلاف، فاستعراضها يطول ويمتد حتى تختفي عن العين.

والمعنى: إني آثرت حب المال من أجل ذكر ربي، واشتغلتُ به طاعة لله تعالى وذكره، حتى غابت الخيل عن عيني، قال سليمان حين غابت بداية صفوف الخيل عن عينيه:

٣٣- ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ[2] وَٱلْأَعْنَاقِ ۝٣٣﴾

أي: أَرجِعُوا إليَّ الخيول التي عُرضت عليَّ، ثم غابت عني، فَردُّوها عليه، فأخذ يمسح سيقانها وأعناقها بإمرار يده عليها، سرورًا وإعجابًا بها، وإعدادها للجهاد في سبيل الله، وهذا المسح عادة عند أهل الخيول يكون من باب الفخر والاعتزاز بها، وهذا معنى

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٨٥٠) و«صحيح مسلم» برقم (١٨٧٣).

(٢) قرأ قنبل بهمزة ساكنة بعد السين من (بالسوق)، وقرأ أيضًا بهمزة مضمومة بعد السين، وبعدها واو ساكنة مدية، والباقون بغير همز.

﴿فَطَفِقَ﴾ أي: شرع ﴿مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي: يمسح سيقانها وأعناقها.

أما القول بأن سليمان أخذ يضرب سيقانها وأعناقها بالسيف، فهو من باب المجاز، وصرْف اللفظ عن معناه، إذ المسح لا يكون بمعنى الضرب أو القتل، ولم يرد في ذلك نص صريح صحيح، يفسر الآية بهذا المعنى.

ونربأ بنبي الله سليمان عليه السلام أن يهدر المال العام، أو أن يعاقب الخيل على أمر لا ذنب لها فيه، ونستبعد أن تُذبح هذه الخيول على وجه القربة إلى الله تعالى لنفع الفقير، فهذه تأويلات بعيدة، فيها صرف للسياق والألفاظ عن ظاهرها، وليس عليها دليل شرعي.

فِتْنَةُ سُلَيمَانَ عليه السلام

٣٤- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾

أما الشق الثاني من قصة سليمان عليه السلام فهو الفتنة التي عَرضتْ له فتاب إلى الله منها، ثم أعقبها فَيْضُ نِعَمٍ عظيمة أكرمه الله تعالى بها.

والفتنة معناها: الابتلاء والاختبار والامتحان، يقال: فَتَنَتِ النار الذهب، أي: اختبرته لتعلم جوْدته.

وفتنة سليمان كانت بإلقاء نصف مولود وُلد ميِّتًا على كرسيه الذي يجلس عليه، وكان ذلك عقوبة له؛ لأنه أقسم أن يأتي نساءه جميعًا في ليلة واحدة، فتحْملُ كل واحدة منهن بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل: إن شاء الله، ولا عدول عن هذا المعنى إلى غيره؛ لأنه الذي صح عن رسول الله ﷺ في هذا الصدد، وإن لم يُذكر فيه أنه تفسير الآية، فيُضرب بغيره عرض الحائط:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**قال سليمان: لأطوفنَّ الليلة على تسعين امرأة، كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن جميعًا، فلم تحْمل منهن إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل، وايم الله الذي نفس محمد بيده، لو قال: إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله -فرسانًا- أجمعون**»[١].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٤٢٤، ٦٦٣٩) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٥٤).

وشق الرجل: هو نصف المولود الذي وُلد ميتًا، وهو المراد بالجسد الذي أُلقي على كرسيه، عقوبة له، وهو جسد لا حياة فيه، وعدد النسوة اللاتي أقسم سليمان أن يطوف عليهن في هذه الليلة، جاء متعددًا في روايات الحديث، بين: مئة، أو تسعين، أو سبعين، أو أربعين امرأة، وذلك لكثرة نسائه وجواريه.

والطواف عليهن معناه: الجماع، فكانت فتنة سليمان في تَركه تعليق ما يطلبه على مشيئة الله تعالى، وعقابه على ذلك كان بعدم تحقيق ما طلبه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ أي: ابتليناه، ووضعنا على كرسيِّه شق ولد لا يتحرك، وُلد له هكذا؛ لأنه لم يستثنِ في يمينه ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ رجع سليمان إلى ربه وأناب إليه:

٣٥- ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ[1] إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾

أدرك سليمان عليه السلام أنه لسموِّ منزلته عند الله تعالى قد أتى ذنبًا يستحق الاستغفار منه، حين لم ذكر المشيئة في يمينه ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ ما فَرَط مني من ذنوب وزلَّات، ولما كان الاستغفار من الذنوب سببًا لفتح أبواب الخير في الدنيا فقد توسل سليمان بعمله الصالح -وهو طلب المغفرة من الله تعالى- إلى طلب المُلْكِ لخدمة دينه، وإعلاء كلمة ربه، ونشْر العدل بين الناس، وإعانة المحتاج، وإعطاء الحقوق لأصحابها، وإنصاف المظلوم، وإنفاذ شرع الله تعالى.

وكان سليمان (وقت طلبه المُلْك من ربه) ذا سلطان عريض، فأراد استدامة المُلْك والتوسع له فيه، حيث قال: ﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ أي: أعطني مُلْكًا واسعًا لا يحصل لأحد غيري، ولا تسْلُبني إياه ما حَيِيت، وقد طلب سليمان الدين قبل الدنيا، ولم يطلب المُلْك للظلم والبغي، وإنما طلبه ليتقوَّى به على نشر الدعوة.

وسأل سليمان ربه في دعائه ألا يجعل له منازعًا في ملكه، وأن يُبقيه له مادام حيًّا، فأجاب الله سؤله.

وكان سليمان يخشى ظهور مُنافسين له، وكان له عبد أظهر الكيد له، ولما خاف هذا العبد من سليمان هرب إلى فرعون مصر، وبقي هناك حتى مات سليمان، وهذا العبد من

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (بعديَ إنك)، والباقون بإسكانها.

سبط أفرايم، واسمه (يربعام بن نباط) وكان لسليمان عَدُوَّان آخران هما (هدد) و (رزون)[(١)] ولذا سأل ربه أن يُثَبت ملكه، وألا يسلِّط عليه أحدًا يَسْلُبه منه.

ولم يحسُد سليمان أحدًا من الخلق، أن يعطيه الله مثله.

وهذا الدعاء كان سرًّا بين سليمان وربه، إلا أن الله تعالى ذكَره وأظهره، للإعلام بأنه سبحانه لرضاه عن سليمان استجاب له دعوته، فأعطاه ملكًا عظيمًا، ومكَّنه منه إلى مماته، ولم يُعطِ غيره مثله، وكان سليمان قد ختم دعاءه بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ أي: كثير العطاء والجود، فأنت تهب ما لا يملك غيرك أن يهبه.

وقد ورد في هذا المعنى أحاديث منها ما جاء:

١- عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن عفريتًا من الجن تفلَّت البارحة ليقطع عليَّ صلاتي، فأمكنني الله منه، فأخذْته فأردت أن أربطه بسارية من سواري المسجد، حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان:** ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ فرددته خاسئًا»[(٢)].

٢- وعن أبي سعيد ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ يصلي صلاة الصبح وهو خلفه، فقرأ، فالتبستْ عليه القراءة، فلما فرغ من صلاته قال: «**لو رأيتموني وإبليس، فأهويتُ بيدي، فما زلتُ أخنُقه حتى وجدتُ بَرْدَ لُعابه بين أصبعي هاتين -الإبهام والتي تليها- ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطًا بسارية من سواري المسجد، يتلاعب به صبيان المدينة، فمن استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل**»[(٣)].

٣- وعن أبي الدرداء ﷺ قال: قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول: «**أعوذ بالله منك**» ثم قال: «**ألعنُك بلعنة الله**» ثلاثا، وبسط يده كأنه يتناول شيئًا، فلما فرغ من الصلاة

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٣/ ٢٦٢).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٤٢٣، ٤٨٠٨) وغيرهما ومسلم برقم (٥٤١) و«السنن الكبرى» للنسائي برقم (٥٥١، ١١٤٤٠).

(٣) «المسند» (١٨/ ٣٠٢) (١١٧٨٠) قال محققوه: إسناده حسن لأن مسرَّة بن معبد، متكلم فيه، وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح، وهو في «سنن أبي داود» برقم (٦٩٩) وعبد بن حميد في المنتخب (٩٤٦) مختصرًا.

قلنا: يا رسول الله، قد سمعناك تقول في الصلاة شيئًا لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك؟ قال: «**إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنُك بلعنة الله التامة، فلم يستأخر - ثلاث مرات- ثم أردت أخذه، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثَّقًا يلعب به صبيان أهل المدينة**»[1].

٤- وفي حديث عبد الله بن عمرو ﷺ: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إن سليمان سأل الله ثلاثًا، فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة: سأله حكمًا يصادف حكمه فأعطاه إياه، وسأله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله أيما رجل يخرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد، خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه، فنحن نرجو أن يكون الله تعالى قد أعطانا إياها**»[2]. **والمسجد**: هو المسجد الأقصى.

تَسْخِيرُ الرِّيحِ وَالشَّيَاطِينِ لِسُلَيمَانَ

٣٦- ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ[3] تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾

سأل سليمان ربه مُلْكًا له خصوصية متميزة عن كل مُلك يأتي بعده، وسأله معجزة دالة على صدق نُبوَّته، فأعطاه الله ملكًا خاصًا لم يتكرر لأحد غيره، وآتاه معجزة دالة على قبول توبته وصحة رسالته تتمثل في تسخير الريح والشياطين له، وهذه خاصية تميَّز بها سليمان.

والمعنى: استجبْنا لسليمان، وذلَّلنا له الريح تسير بإذنه دون اختيار منها إلى الجهة التي يريدها، فلا تعاكس وِجهة سُفُنه في توجُّهها، فهي تطيعه ولا تخالف ما أراد، رغم قوتها وشدتها.

والريح الرخاء: هي الريح اللينة في هبوبها، تساعد على سير السفن بلا زعزعة ولا اضطراب، كما سخر الله الريح العاصفة أيضًا لسليمان، فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٥٤٢) والنسائي (١٢١٤).

(٢) «المسند» (٢/ ١٧٦) من حديث طويل برقم (٦٦٤٤) إسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه) وأخرج هذا القدر منه النسائي (٢/ ٣٤) وابن ماجه (١٤٠٨) وابن حبان (١٦٣٣) والحاكم (٢/ ٤٣٤) وابن خزيمة (١٣٣٤).

(٣) قرأ أبو جعفر بجمع (الرياح)، والباقون بإفرادها.

فتارة تكون له الرياح لينة، وتارة تكون عاصفة، كما أراد، أما سرعتها فهي كما قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]. قال تعالى:

٣٧، ٣٨- ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ[1] ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾

والمعجزة الثانية هي تسخير الشياطين لسليمان، للقيام بالأعمال الشاقة التي لا يَقْوى عليها الإنس، فكان منهم:

١- من يقوم بالحفر وأعمال البناء.

٢- ومنهم من يغوصون في البحار لاستخراج كنوزها.

٣- ومنهم من هو شديد الشكيمة، قويُّ الشرور، لا يعمل إلا تحت حراسة مشددة، وهو مقيد في السلاسل، يؤدي عملًا لا يُحْسِنُه غيره.

فهذه ثلاثة أصناف من الشياطين المذلَّلة لسليمان، وهو تسخير خارق للعادة على وجه المعجزة.

٤- وهناك تسخير رابع للشياطين في الأمور الروحانية والتصرفات الخفية.

وكل طائفة منهم تُتقن أداء عمل يختلف عن غيرها ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ أي: وسخرنا لسليمان الشياطين يستعملها فيما يرغب من أعمال: فمنهم البنَّاؤون، الذين يقومون بالمباني العظيمة التي يطلبها منهم سليمان.

ومنهم الغواصون في البحار لاستخراج اللؤلؤ والمرجان وغيرهما من كنوز البحار، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

ومن الأعمال ما هو دون الغوص في البحار، والصناعة التي بلغت مبلغًا من الإتقان والجودة في عهد سليمان، وناهيك ببناء المسجد الأقصى، والصرح الذي بناه لملكة سبأ، والمدن والقصور والحصون المتعددة، وما لزمها من صناعات وخامات ومواد مختلفة.

ومن الشياطين المسخرين لسليمان -تسخير قهر وإذلال ومهانة- مَن هم مُقيدون في السلاسل والأغلال لكثرة شرورهم، وخشية تفلُّتهم فيُصفَّدون في القيود ليعملوا تحت

---

(١) ترك البصري (وغواص) فلم يعدها آية، وعدّها غيره.

الحراسة المشددة، وهذا من باب احتكار الصناعات النادرة؛ حتى لا تتسرب إلى ممالك أخرى، كصناعة السيوف، والنبال، والخُوذ، والبيْضات، والدروع والدروق، وسائر آلات الحرب ونحوها، وهذا الاحتكار لمثل هذه الصناعات موجود في كل عصر ومصر.

وتصفيد الشياطين يحتمل أن يكون مقصودًا في حد ذاته، وهو لون من التسخير، ويحتمل أن يكون لأداء الأعمال الخاصة؛ حتى لا تنتشر بين الآخرين.

عَطَاءٌ بِلَا حُدُودٍ وَلَا حِسَابٍ

٣٩، ٤٠ - ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾

أعطى الله سليمان مُلْكًا واسعًا، وسخَّر له الريح والشياطين، وقال له: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ لك يا سليمان، عطاء واسعًا وافيًا، غير مضيَّقٍ عليك فيه، وأنت مُطْلق اليد فيه بلا حدود ولا قيود، فأعطِ من شئت، وامنع من شئت، فأنت غير محاسب فيما أعطيت ولا فيما منعت، ولا مؤاخذ فيما مننت أو أمسكت ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لا حرج عليك في شيء.

قال الحسن: ما أنعم الله تعالى على عبد نعمة إلا كان عليه فيها تبعة، إلا سليمان، فإنه إن أَعْطى أُجِر، وإن لم يُعط لم تكن عليه تبعة[١].

ومع هذا العطاء الواسع، وحرية التصرف فيما يملك، فقد كان سليمان يأكل الخشخاش، ويُطْعِم أبناءه البُرَّ، ويُطْعِم الضيف والفقير ما صُنع من الدقيق الفاخر.

وبينما كانت الريح تحمله، والطيور تظله، والجن والإنس حوله ذات يوم إذ لصق ثيابه ببدنه، فشعر في نفسه بشيء من الزَّهو، فوضعتْه الريح على الأرض، قائلة له: إنا أُمرنا أن نطيعك ما أطعت الله[٢].

كأن مجرد الإحساس الداخلي بلذة النعيم، فيه لون من اللمم بالنسبة للأنبياء.

ولذا: فإن النبي ﷺ لَمَّا جلس في ظل شجرة، وأكل تمرًا وشرب من ماء القربة، قال: **«تمرٌ، وظل بارد، وماء بارد، والله لتسألن عن هذا النعيم»**، أي: سؤال شكر على النعمة.

---

(١) «تفسير الخازن» (٤/ ٤٢).

(٢) من كتاب «الطريق إلى الله» لأبي سعيد الخراز.

لقد عاش سليمان مدة حياته يُدير مُلكه ويتصرف فيه بسلطانه حتى جاءه الموت وهو متكئ على عصاه، فوقع من فوق كرسيِّه، وهو لم يزل يسخِّر الجن والإنس لأمره ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤].

وفي الأثر: أن النبي ﷺ لَمَّا خُيِّر بين أن يكون عبدًا رسولًا، أو مَلِكًا نبيًّا، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جُناح، فاستشار جبريل، فقال: تواضع، فاختار المنزلة الأولى؛ لأنها أرفع قدرًا عند الله وأعلى منزلة في المعاد، وإن كانت المنزلة الثانية وهي النبوة مع الملك عظيمة أيضًا في الدنيا وفي الآخرة.

ومع ما أنعم الله به على سليمان في الدنيا، فقد وعده في الآخرة منزلة عالية وقربى من الله ﷻ، وحُسْن مرجع ومصير إليه، وتلك درجة عظيمة من التكريم والرضى والإنعام.

القِصَّةُ الثَّالِثَةُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ: قِصَّةُ أَيُّوبَ عليه السلام

٤١- ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ(١) ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ(٢) وَعَذَابٍ(٣) ﴿٤١﴾﴾

هذا هو المثل الثاني الذي ذُكر للنبي ﷺ؛ كي يتأسى به في الصبر على أذى قومه، فالمثل الأول ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ والمثل الثاني ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ فكأن الله تعالى يقول لنبيه ﷺ: اصبر على أذى قومك وسفاهتهم، فإنه لم يكن في الدنيا أكثر نعمة ومالًا وأوسع سلطانًا من داود وسليمان، وقد ابتُلي كل منهما بفتنة صبر عليها، فغفر الله ذنبه ورفع قدره.

ولم يكن في الدنيا أعظم بلاء وأكثر محنة من أيوب، وقد صبر على ما ابتلاه الله به، فتأملْ أحوالهم ليكنْ لك فيهم أسوة في الصبر على أذى قومك.

وأيوب عليه السلام هو ابن أموص، ينتهي نسبه بإسحاق بن إبراهيم، وكانت رسالته على الأرجح بين موسى ويوسف، عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

---

(١) قرأ حمزة بإسكان الياء من (مسني الشيطان)، والباقون بفتحها.

(٢) قرأ أبو جعفر بضم النون والصاد من (نصب) وقرأ يعقوب بفتحهما، والباقون بضم النون وإسكان الصاد، وكلها لغات.

(٣) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب وقنبل وابن ذكوان بخلفهما بكسر تنوين (وعذاب) حال وصلها بما بعدها، والباقون بضمه، وكلهم بضم همزة الوصل في الابتداء.

وقد جاء ذكره في القرآن الكريم أربع مرات: البقرة ١٦٣ والأنعام ٨٤ والأنبياء ٨٣ وص ٤١

وكان موطنه أرض عوص جنوب غرب البحر الميت (بحيرة لوط) شمال خليج العقبة.

وذكر الطبري وياقوت الحموي: أن مسكنه في (البَثَينِيَّة) بين دمشق وأذرعات، أو في ضواحي دمشق[1].

وقصة ابتلاء أيوب عليه السلام ذائعة مشهورة، تُضرب مثلًا للابتلاء والصبر، ولكنها مشوبة بالأكاذيب التي تطغى عليها، فمن القواعد المسلَّمة أن الله تعالى حَفِظ أنبياءه من الأمراض المنفِّرة، سواء أكانت أمراضًا جسدية أم عصبية أم نفسية، وحَفِظ عقولهم أن يمسها شيء، وعصمهم من الكذب والخيانة وعدم التبليغ والأمراض المنفرة.

وقد ابتلى الله أيوب عليه السلام ببعض الأمراض غير المعدية لمدة استغرقت نحو سبع سنوات وأشهر، وقيل: ثماني عشرة سنة[2] فصبر عليها، حتى ضُرب به المثل في الصبر، فكانت عاقبته أن رفع الله عنه الضر والبلاء، وأعطاه من خيره وفضله الكثير.

﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا محمد في هذا الكتاب العظيم، خبر عبدنا الصالح ﴿أَيُّوبَ﴾ بأحسن الذكر وأبلغ الثناء ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: وقت أن مسه الضر، فصبر عليه، ولم يشتك لغير ربه، ودعاه قائلًا: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ أي: تسبب لي الشيطان في ألم ألَمَّ بجسدي، وتَعبٍ ومشقة حلَّت بي، قيل: إن النُّصْب كان في بدنه، والعذاب كان في ماله وولده، فاستجاب الله دعاءه، فأذهب ما كان به من المرض في جسده وعوَّضه ضِعْف ماله وولده.

وقد نَسب ذلك إلى الشيطان، تأدُّبًا مع الله تعالى، وإلا فإن الصحة والمرض، والغنى والفقر، والسراء والضراء، والخير والشر، كل ذلك بيد الله وحده، وليس للشيطان دوْر في ذلك إلا بالوسوسة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء].
فأسند أيوب المسَّ إلى الضر من باب الأدب مع الله تعالى.

---

(١) ينظر: أطلس القرآن ص٩٨ د/ شوقي أبو خليل.

(٢) يُنظَر: الآثار الواردة في ذلك في: «الدر المنثور» (١٢/ ٥٩٦) وما بعدها، عن قتادة وابن عباس وغيرهما.

والنُّصْب: هو التعب والمشقة، **والعذاب**: هو الألم والمرض، وليس النُّصْب والعذاب من الوسوسة ولا من آثارها في شيء.

والمعنى: مسني الشيطان بوسواس ونُصْب وعذاب، وكان قد تسلط المرض على جسده واشتد به الأمر حتى فقد أهله وماله، وعظَّم الشيطان التعب والألم في نفس أيوب عن طريق الوسوسة؛ كي يصل إلى السخط والضجر، وعدم الرضى من أيوب، ولكن هيهات هيهات، فليس للشيطان سبيل على أولياء الله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

مِنْ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَيُّوبَ:

النِّعْمَةُ الأُولَى: ذَهَابُ مَرَضِهِ الْجِلْدِي وَالباطِنِي

قال تعالى:

٤٢- ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾

أي: ولَمَّا دعا أيوب ربه بعد أن أصابه من الضر ما أصابه، وبعد أن ظهر صِدْقه وصبْره، وفشل الشيطان في محاولاته معه، وسأل أيوب ربه الشفاء، وكشْف الضر عنه استجاب الله دعاءه، فأعطاه وصْفة العلاج وأرشده إلى الدواء، وامتنَّ عليه **بثلاث نعم**:

النعمة الأولى: ذهاب مرضه ظاهرًا وباطنًا، حيث قال الله له: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أي: اضرب الأرض برجلك ينبع لك منها ماء بارد، فاشرب منه يذهب ما بك من مرض باطني، واغتسل منه يذهب ما بك من مرض جلدي، وقال له: ﴿هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فضرب أيوب الأرض برجله، فنبع تحتها عين ماء بارد، فشرب واغتسل، فذهب ما به من ضر وأذى، وشفاه الله تعالى.

النِّعْمَةُ الثَّانِيَةُ: مَتَّعَهُ اللَّهُ بِزَوْجِهِ وَوَلَدِهِ وَزَادَهُ بَنِينَ وَحَفَدَةً

٤٣- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

ثم منحه الله نعمة ثانية، فمتعه بأهله -زوجه وذريته- بعد أن كانوا في حُكْم المفقودين بالنسبة له؛ لأن المريض لا ينعم ولا يأنس بأهله، بمقدار ما يَشْعُر بذلك وهو صحيح معافى، وقد أبقى الله له أهله، ولم يُصَب بشيء يكرهه فيهم، وزاده الله بنين وحفدة بعد

أن عوفي من مرضه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ أي: أبقيناهم له سالمين من كل سوء ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾. أي وأعطيناه مثلهم في الدنيا، وأغناه الله وأعطاه مالًا كثيرًا، وعوضه عن كل شيء مسّه في جسده وأهله وماله وولده.

فيكون المعنى: أنَّا رزقناه بعد الشفاء أولادًا كعدد الأولاد الذين كانوا معه قبل شفائه من مرضه، فصار عددهم مضاعفًا.

وفي كتاب (أيوب) من كُتب اليهود أنه قد أصابه تلَفٌ في ماله، وهلاك في عياله.

وكل ما منَّ الله به على أيوب كان ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ به وإكرامًا له على صبره، وعبرة وذكرى لأصحاب العقول السليمة ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج وكشف الضر.

وجاء في هذه السورة: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وفي قوله تعالى من سورة الأنبياء: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

وذلك لبيان أن عاقبة الصبر واحدة، وإن اختلفت دواعيه وأسبابه، والعبرة حاصلة لأهل النظر والاستدلال، كما هي حاصلة للعابدين الممتثلين أمر الله تعالى المجتنبين نهيه، فيعلموا أن من صبر على الضر أثابه الله ثوابًا عاجلًا وآجلًا، واستجاب دعاءه إذا دعاه.

النِّعْمَةُ الثَّالِثَةُ: التَّيْسِيرُ عَلَى أَيُّوبَ فِي التَّكْفِيرِ عَنْ يَمِينِهِ

٤٤- ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾

امتنَّ الله على أيوب بمنة ثالثة، وهي إزالة العائق العائلي بينه وبين زوجه، وذلك أن امرأته كانت قد خرجت في حاجة لها فتأخرت عليه، فأقسم إذا برئ من مرضه ليضربنَّها مئة ضربة.

وقيل: إنه سمع منها ما يفيد الضجر من طول مدة البلاء، فغضب عليها، وقيل غير ذلك في السبب الذي حلَف من أجله.

وكان أيوب قد ندم على ما بدر منه، فلما شُفي من مرضه أوحى الله إليه أن يضربها

بحُزمة من عيدان الحشيش، فيها الرطْب واليابس، وهذه الحزمة فيها مئة عود، يضربها بها ضربة واحدة تحلَّة القسم، أو يضربها بِقِنْوٍ فيه مئة شمراخ حيث لم يكن في شريعتهم كفارة اليمين، وهذه رخصة من الله تعالى رفقًا بأيوب وزوجه، ومكافأة له على صبره، وإكرامًا له لحبه إياها، وكانت امرأته صابرة محسنة.

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: كانت امرأة أيوب قد عرضت له بأمر، وأرادها إبليس على شيء، فقال: لو تكلمت بكذا وكذا، وإنما حملها عليه الجزع، فحلف نبي الله لئن شفاه ليجلدنَّها مئة جلدة، قال: فأُمر بغُصن فيه تسعة وتسعون قضيبًا، والأصل تكملة المئة، فضربها ضربة واحدة، فأبرَّ نبي الله، وخفف الله عن أمته، والله رحيم.

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**بينا أيوب يغتسل عُريانًا فخرَّ عليه جرَاد من ذهب، فجعل أيوب يحتثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتُك عما ترى؟ قال: بلى وعزتك، ولكن لا غنى بي عن بركتك**»[١].

وقد رأى بعض الفقهاء أن هذا الحكم خاص بأيوب، ورأى آخرون أنه حُكْم عام يتعدى إلى غيره، وهذا مبني على أن شرع من قبلنا هل هو شرع لنا أم لا؟ فمن قال بالأول عمم الحكم، ومن قال بالثاني جعله خاصًا بأيوب لا يتعداه إلى غيره.

والله تعالى شرع لنا كفارة اليمين التي لم تكن في شرع أيوب، في قوله تعالى: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ [المائدة: ٨٩].

وفي الحديث: عن أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إني والله -إن شاء الله- لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا كفرت عن يميني، وأتيت الذي هو خير**»[٢].

وفي حديث أبي أمامة ﷺ: أن رجلًا كان مريضًا بمرض مُضْنٍ، فدخلت عليه جارية فهشَّ لها، فوقع عليها، فاستفتوا له رسول الله ﷺ وقالوا: لو حملناه إليك لتفسَّخَتْ عظامه، ما هو إلا جلد على عظْم، فأمر رسول الله أن يأخذوا له مئة شمراخ، فيضربوه

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٧٩، ٣٣٩١، ٧٤٩٣).

(٢) من حديث طويل في البخاري برقم (٣١٣٣، ٦٧٢١) ومسلم (١٦٤٩).

بها ضربة واحدة. أخرجه أبو داود[1].

وقد أُجيب عن هذا الحديث بأن هذا الحكم كان خاصًّا بهذا الرجل؛ لأنه قد بلغ به من المرض المضْني بحيث لا يتحمل إقامة الحد، فلو حَمَلوه لتفسَّخت عظامه، ومن المتوقع أن يكون المرض قد أخل بعقله إخلالًا لا يتحكم معه من نفسه، والحديث من أخبار الآحاد، لا يؤخذ منه الأحكام.

قال مالك: هذه فتوى خاصة بأيوب أفتى الله بها نبيًّا، أي: قلنا لأيوب خذ بيدك حزمة من الشماريخ، فيها مئة شمروخ فاضرب بها زوجك ضربة واحدة لتبرَّ بيمينك فلا تحنث فيه، إنا وجدنا أيوب عبدًا صابرًا على البلاء، محتسبًا أجره عند ربه ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أيوب ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: رجَّاع إلى طاعة الله، كثير الإنابة إليه.

قال سفيان: أثنى الله على عبديْن ابتُليا: أحدهما صابر، والآخر شاكر، ثناءً واحدًا، فقال لأيوب ولسليمان: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

لقد أكمل أيوب مراتب العبودية في حال السراء والضراء، والشدة والرخاء، وكان كثير الرجوع إلى ربه في مطالبه الدينية والدنيوية.

ثَلَاثَةٌ آخَرُونَ مِنَ الرُّسُلِ أَثْنَى اللَّهُ عَلَيْهِم بِثَلَاثِ صِفَاتٍ

الصِّفَةُ الأُولَى: أَنَّهُمْ أَهْلُ قُوَّةٍ وَبَصِيرَةٍ

٤٥- ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ[2] إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾

ولما ذكر سبحانه قصة ثلاثة من رسل الله بشيء من التفصيل، وهم: داود، وسليمان، وأيوب ليتأسى بهم النبي ﷺ في صبرهم على البلاء، ذَكَر بعدهم باختصار شديد ثلاثة آخرين من رسل الله ليتأسى بهم النبي ﷺ أيضًا في الصبر على البلاء، وهم: إبراهيم،

---

(١) بتصحيح الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم (٣٧٥٤) عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف وفي سنن أبن ماجه برقم (٢٥٧٤) وصحيح ابن ماجه (٢٠٨٧) عن سعيد بن سعد بن عبادة.

(٢) قرأ ابن كثير بإفراد (عبادنا) على أنه اسم جنس، و(إبراهيم) بدل أو عطف بيان، وقرأ الباقون بالجمع، والمراد: الرسل الثلاثة: إبراهيم وإسحاق ويعقوب، و(إبراهيم) وما عطف عليه بدل أو عطف بيان.

وابنه إسحاق، وحفيده يعقوب، وقد وصفهم ربنا بأنهم أصحاب قوة في الطاعة وإقامة لهذا الدين، وأهل بصيرة في دينهم ومعرفة بحقائق الأمور.

ومن لم يتبصَّر في دينه ويعمل لآخرته، فهو كالمريض الذي لا يقْوى على إعمال عقله وجوارحه، وفي هذا ذم وتعريض بمن لا يعمل لآخرته، ولا يجاهد بفكره، كهؤلاء الرسل الذين وُصفوا بالقوة والبصيرة، وصبروا على المحن والبلاء.

فقد صبر إبراهيم على أذى قومه وإلقائه في النار، وابتُلي بذبح ولده الوحيد.

واشترك ابنه إسحاق وحفيده يعقوب معه في الفضائل، وصبر يعقوب على فقد ولده وبصره، وقد أُمر النبي ﷺ أن يتأسى بهم في صبرهم وابتلائهم.

الصِّفَةُ الثَّانِيَةُ:

أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَزَعَ مِنْ قُلُوبِهِمْ حُبَّ الدُّنْيَا وَزَرَعَ فِيهَا حُبَّ الْآخِرَةِ

٤٦- ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ[١] ذِكْرَى[٢] ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾

أثنى الله - سبحانه - على رسله، فقال: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم﴾ أي: إنا خصَّصْناهم بخاصة عظيمة جليلة، حيث جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم، فعملوا لها بطاعتنا، ودعوا الناس إليها، وذكَّروهم بها، فهم لا ينسوْن الآخرة؛ لأنها محل همهم واهتمامهم، وهم لا يُقبلون على الدنيا ولا يلتفتون لها، فنتج عن ذلك أن هؤلاء الرسل كانت طاعتهم وعبادتهم خالصة لله تعالى، متبعين لأمره، مجتنبين لنهيه، بسبب أنهم جعلوا الدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب، نصْب أعينهم ليفوزوا بالنعيم المقيم.

ومعنى **أخلصناهم**: طهرناهم من درن النفوس، فصارت نفوسهم نقية من العيوب العارضة للبشر، وهذه هي عصمة النبوة، إنهم عباد أخلصهم الله له، حيث أسند هذا الإخلاص له سبحانه في قوله: ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾ فهي عناية إلهية يخص الله بها من اصطفى من

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر وهشام بخلف عنه بحذف تنوين (بخالصة) مضافًا لما بعده، وقرأ الباقون بالتنوين وعدم الإضافة، وهو الوجه الثاني لهشام.

(٢) قرأ الأزرق بترقيق راء (ذكرى الدار) حالة الوصل، وله الترقيق مع التقليل في الوقف.

خلقه، فتنصرف النفس إلى الخير المحض، وينتزع منها غلبة الهوى والشر، فلا يبقى فيها إلا شيء من اللمم، والنزعات الخفيفة التي تُقلع عنها النفس بمجرد حصولها في الخاطر، كما قال ﷺ: «**إنه ليُغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم مئة مرة**»[1].

وأساس هذه العصمة هو الوحي الإلهي الذي يتعهد الرسل ويوقظهم، ويجنِّبهم الوقوع فيما نهى الله عنه، فيصل إلى ثمرة التكليف وهي التقوى، ويحصل لهم مَلكة تمنعهم من المعاصي.

ولما اصطفى الله الرسل واختارهم، أفردهم بخصلة من خصال الخير، فنزع من قلوبهم حب الدنيا وزرع فيها حب الآخرة.

وقد فسر الله تعالى هذه الخاصية بأنها ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ أي أن الله تعالى جعل ذكر الدار الآخرة في قلوبهم، مليء سمعهم وأبصارهم، وأخلصوا لها، وراقبوا الله تعالى في سرهم وجهرهم، فهمّهم هو العمل للآخرة، بل وإخلاص العمل لها دون غيرها كما قال تعالى:

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [القصص] وقال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح].

الصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اصْطَفَاهُمْ وَاخْتَارَهُمْ مِنَ البَشَرِ

٤٧ - ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧﴾

ثم أثنى سبحانه على رسله بثناء آخر، فبيَّن أنهم لما اصطفاهم الله تعالى لحمل رسالته، وتبليغ دعوته، جعلهم يَفْضُلُون غيرهم في المناقب الحميدة، والصفات الكريمة، فهم صفوة الخلق الذين اجتباهم الله وهداهم، فهم متصفون بكل خُلُق كريم وعمل مستقيم، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وقال سبحانه: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧].

فهم الذين أنعم الله عليهم فاجتباهم وهداهم.

---

(١) من حديث الأغرّ المزنيّ في «صحيح مسلم» برقم (٢٧٠٢).

وَهَؤُلَاءِ ثَلَاثَةُ آخَرُونَ مِنَ الرُّسُلِ الأَخْيَارِ

٤٨- ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ(١) وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾

أعقب ﷻ الرسل الثلاثة السابق ذكرهم بثلاثة آخرين هم: إسماعيل، واليسع، وذو الكفل.

وإسماعيل هو ابن إبراهيم، ولم يُذكر مع أبيه وأخيه إسحاق في الآيات السابقة إشارة إلى أنه جد الأمة العربية، وأنه انفرد بها، وأصبح أصلًا للعرب.

كما أن فرْع إبراهيم الآخر -وهو إسحاق- قد انفرد ابنه يعقوب بأصل بني إسرائيل.

أما **(اليسع)** فهو ابن أخطوب، استخلفه إلياس من بعده على بني إسرائيل لمقاومة ملوك بني إسرائيل عن عبادة الأصنام، ولم يكن منهم، وبقي يدعوهم إلى عبادة الله تعالى إلى أن مات، ودُفن في السامرة سنة ٨٤٠ قبل الميلاد، فكان (اليسع) بالنسبة لبني إسرائيل كإسماعيل بالنسبة للعرب، وقد عُطف (اليسع) على (إسماعيل) في الآية؛ لأن اليسع كان في إعانته لإلياس كإعانة إسماعيل لإبراهيم.

وذكر اليسع في القرآن مرتين، في الأنعام (٨٦) وفي ص ٤٨.

وذو الكفل هو ابن أيوب بعثه الله بعد أبيه، وكان مقيمًا بالشام، في جبل قاسيون المطلّ على مدينة دمشق من جهة الشمال(٢).

وهو من أنبياء بني إسرائيل، وسُمِّي كذلك؛ لأنه تكفَّل أن يقوم بالطاعات فوفَّى.

وذكر ذو الكفل في القرآن مرتين، في الأنبياء (٨٥) وفي ص (٤٨).

أما عطفُ ذي الكفل على إسماعيل فلأنه مماثل له في صفة الصبر، كما قال تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء].

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف (وَاللَّيْسَعَ) أصلها لَيْسَع كضَيْغم، وقُدر تنكيره، فدخلت عليه لام ال للتعريف، ثم أدغمت اللام في اللام، وقرأ الباقون (وَالْيَسَعَ) أصله يَسَع على وزن يضع ثم دخلت عليه الألف واللام.

(٢) أطلس القرآن ص١٠٠ د/ شوقي أبو خليل.

والمعنى: اذكر يا محمد هؤلاء الأنبياء جميعًا، بأحسن الذكر، وأثن عليهم أحسن الثناء، واقتدِ بهم في الصبر، وتحمل الأذى في سبيل الله، فكلهم من الأخيار الأطهار الذين اختارهم الله من خلقه، واختار لهم أكمل الأحوال وأتم الصفات، وأجمل الخصال، وأفضل الأخلاق.

مَشْهَدُ المُتَّقِينَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ

٤٩- ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾﴾

أشار سبحانه إلى ما سبق ذكره من قصص الأنبياء السابقين، فبيَّن أن الذي قصصناه عليك -يا محمد- من سيرة الرسل الكرام، ذِكْر جميل لهم في الدنيا، وشرف يُذكرون به في العالمين، يقصد به التذكر والاعتبار والاقتداء بهم، فقال تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾، في هذا القرآن ذكر لأهل الذكر، يتذكر بأحوالهم المتذكرون، ويقتدى بأوصافهم الحميدة المقتدُون.

ويحتمل أن تعود الإشارة إلى القرآن المذكور في الآية السابقة ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ على معنى: أن هذا القرآن ذِكْر وشرف لك أيها النبي ولقومك، وهو مبتدأ وخبر، وقد ذُكر الخبر وهو ﴿ذِكْرٌ﴾ للاهتمام بتعيينه.

وهذه الجملة للفصل بين الكلام السابق والآتي، يؤتى بها قصدًا للانتقال بالكلام من غرض إلى غرض، وهي مثل جملة (أما بعد).

وقد يحذف الخبر كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٢].

ومنه الآية التالية: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾﴾.

ثم بيَّن سبحانه بعد جملة الفصل أن للمتقين في الآخرة منزلًا كريمًا يرجعون إليه عند ربهم، فيجدون ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فقال: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾ أي: وإن لكل متق لله، مطيع لرسله لحُسْن مرجع ومصير إلينا.

مَجْلِسُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَطَعَامُهُمْ وَشَرَابُهُم

٥٠، ٥١- ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾

ثم فصَّل سبحانه ما أعده لأهل تقواه في الآخرة من نِعَم، وهو من أجلّ أنواع الذكر،

أي: أن هؤلاء المتقين -بعد أن أكرمناهم في الدنيا بالذكر الحسن والثناء الجميل- نُكرمهم في الآخرة بأن ندخلهم جنات يقيمون فيها دائمًا يتمتعون بالنعيم المقيم، وليسوا بخارجين منها ولا بمخرجين عنها، قد فُتحت لهم أبوابها الثمانية، من باب الحفاوة والتكريم، انتظارًا لقدومهم، فلا يحتاجون إلى من يفتحها لهم.

فإن الملائكة الموكلون بالجنات إذا رأوُا المؤمنين فَتحوا لهم أبوابها وحيَّوْهم بالسلام، ويدخلون الجنة، تحفّهم الملائكة في أعز حال وأجمل هيئة(١).

ثم وصف الله تعالى مجالس أهل الجنة وطعامهم وشرابهم وزوجاتهم، وهذه الأحوال الثلاثة هي أُسس الحياة، فوصَف الله تعالى مجالسهم وطعامهم بأنهم يجلسون في الجنات جِلسة آمنة مطمئنة، يستندون على الآرائك المريحة المزيَّنة، والمزخرفة، يطلبون ما لذَّ وطاب من أنواع الفواكه الكثيرة والمشارب العديدة وغيرهما فتُجاب مطالبهم في الحال.

وهم في الجنة يتكؤون على السرر الوثيرة، ويطلبون ألوان الطعام والشراب كعادة الملوك في الدنيا، فتأتيهم الخدم بكل ما يشتهون، وهذا يدل على كمال النعيم وتمام اللذة، وسعادة المقام، وكمال الراحة والطمأنينة.

واقتصرت الآية على الفاكهة؛ لأن طعام أهل الجنة لا يكون عن جوع وتغذية، إنما يكون لمجرد التفكُّه والتلذذ(٢).

زَوجَاتُ أَهْلِ الجَنَّةِ: مُتْعَةُ الحُورِ الْعِينِ

٥٢-٥٤- ﴿وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ۝٥٢ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ(٣) لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٥٣ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾

أي: وعند أهل الجنة نساء قاصرات الطرف على أزواجهن، لا ينظرْن إلى غيرهم، في خُلقهن حياء ودين يَرْدعُهن أن يتطلعنَّ لغير أزواجهن، فَهُن قاصرات الطرف.

---

(١) يُنظَر: «التفسير الكبير» للرازي (٢٦/ ٢٢١).

(٢) يُنظَر: «حاشية الصاوي على الجلالين» (٣/ ٣٦١).

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء في (توعدون) بالغيب جريًا على السياق، وقرأ الباقون بتاء الخطاب على الالتفات.

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ [الرحمن].

وهنَّ مقصورات على أزواجهن: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ [الرحمن].

وهُنَّ متساويات في: السن والجمال والشباب، في سن الثالثة والثلاثين، ليس بينهن غِيْرةٌ، ولا بغضاء ولا تحاسُد، فالمراد بلفظ: ﴿أَتْرَابٌ﴾ التساوي في السن والتحابب فيما بينهن ولأزواجهن.

وهذا وصف لا يخص الحور العين، بل هو وصف يشمل جميع نساء أهل الجنة من الحور العين المخلوقات في الجنة، ومن زوجات أهل الجنة اللاتي كُنَّ في الدنيا وهُنَّ مسلمات، فلا تفاوت بين الجميع في: السن والجمال والشباب.

وكما أن الزوجات لا يتشوَّفْن ولا ينظرْن لغير أزواجهن فكذلك الأزواج مقصورون على أزواجهم لتمام حُسْنهن في أنظارهم، وليس في الجنة فضول ولا تجاوز ولا عصيان.

ويقال للمتقين في الجنة: هذا العطاء وهذا النعيم هو الذي وعدكم الله به في الدنيا جزاء إيمانكم وأعمالكم الصالحة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾ [فصلت].

وقال سبحانه: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾ [النحل: ٩٦].

ووصف الله الجنة بأن عطاءها عطاءً ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] أي: غير مقطوع ولا ممنوع، كما قال سبحانه: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]. وهو نعيم دائم لا يفني ولا ينفد ولا ينتقص.

أي: وهذا الذي سبق وصْفه لكم، هو رزقنا لكم في الجنة لا يزول ولا ينقطع، كلما أُخذ منه شيء عاد مثله مكانه، بخلاف رزق الدنيا فإن له مواسم ينقطع فيها، ومواسم يتواجد فيها، والرزق يطلق على أي نعمة يُنعِم الله تعالى بها على العبد.

وإلى هنا ينتهي مشهد المتقين في جنات عدن مفتحة أبوابها، متكئين فيها على السرر، يطلبون فيها ما يشاؤون من الأطعمة والأشربة، ويتمتعون فيها بالحور العين، قاصرات الطرف، متحببات لأزواجهن، وهذا هو حسن المآب والمرجع والمصير.

مَشْهَدُ الطَّاغِينَ فِي جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المَصِيرُ

٥٥، ٥٦- ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾

أما المشهد المقابل لأهل الجنة فهو مشهد أهل جهنم؛ لا يقضي عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها، كلما استوت جلودهم بالنار عادت كما كانت، وهم يصطرخون فيها ويطلبون العودة إلى الدنيا، فيقال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فراشهم من نار، وغطاؤهم من نار، طعامهم فيها الزقوم والغسلين والضريع الذي يغُصُّ في حلوقهم، ولا يسمن ولا يغني من جوع، يتجرعون صديد أهل النار وما يسيل منهم، وشرابُهم ماء متناهي الحرارة، كالزيت المغلي يشوي الوجوه ويقطِّع الأمعاء.

ويبدأ هذا المشهد بكلمة الفصل بين المشهدين وهو لفظ: ﴿هَٰذَا﴾ وهو اسم إشارة، خبر لمبتدأ محذوف، تقديره الأمر هذا، أو مبتدأ خبره محذوف، أي: هذا للمتقين، وهو بمنزلة (أما بعد) يؤتى به للانتقال من غرض إلى غرض.

فالمعنى: هذا الذي سبق وصفه للمتقين، أما الطغاة الذين تجاوزوا الحد في الكفر والمعاصي فإن لهم يوم القيامة شر مرجع ومصير، فقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ في مقابلة قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ وذلك من باب ذكر حال الأشقياء المجرمين بعد حال السعداء المتقين.

أي: وإن للكافرين الذين كذبوا الرسل لشَرَّ مُنقلب يصيرون إليه في الآخرة.

والطغيان هو مجاوزة الحد في الكِبْر والتعاظم من أهل الكفر والشرك؛ لأنهم تكبَّروا بعظمتهم على قبول الإسلام، وأعرضوا عن دعوته بكبر واستهزاء، وكانوا سببًا في بُعد عامة الناس عن اتِّباعه، وهذا أمر حاصل في كل زمان ومكان.

وهكذا كان رؤساء الكفر والضلال في أول الرسالة: أبو جهل، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وأضرابهم في كل عصر ومصر.

ثم وصف سبحانه مصير الطغاة في الآخرة، فبيَّن سبحانه أن جهنم تستقبلهم بسعيرها ولهبها، فيُلْقوْن فيها، ويفترشون نارها، وبئس الفراش فراش أهل النار.

والمهاد: فراش النائم. **والغواش**: غطاؤه، وأهل جهنم يفترشون النار، ويلتحفون بها قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

وقال ﷻ: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

شَرَابُ أَهْلِ النَّارِ وَطَعَامُهُم

٥٧، ٥٨- ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ[1] (٥٧) وَآخَرُ[2] مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨)﴾

ثم وصف الله سبحانه عذاب أهل النار فقال: ﴿هَٰذَا﴾ أي: هذا العذاب، حميم وغساق، فليذوقوه، فجملة ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ معترضة بين المبتدأ وهو اسم الإشارة والخبر، (حميم) **والحميم**: هو الماء المحرق بالغ الحرارة، وقد جاء وصفه بالمهل يشوي الوجوه ويقطع الأمعاء، قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ١٩-٢٢].

والغسَّاق: قيح وصديد يسيل من أجساد أهل النار، وهو أكره ما يكون في الشراب، من قيح وصديد، مرُّ المذاق، كريه الرائحة، أي: أن هذا العذاب هو ماء شديد الحرارة، وصديد يخرج من جلود أهل النار وفروج الزناة، فليشربوه!

ولأهل النار ألوان أخرى يعذبون بها ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨)﴾ مماثلة لهذا العذاب في النوع، ومختلفة عنه في ذاته؛ إذ ليس عذابهم مقصورًا على الحميم والغساق، بل لهم أنواع أخرى من العذاب تشبهها في شدتها وفظاعتها: كالزمهرير، والسموم، والزقوم،

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي وخلف بتشديد السين من (وغسَّاق) على أنه صفة، وموصوفه محذوف، والتقدير: وشراب غسَّاق، وهو عصارة أهل النار، والتشديد للمبالغة، وقرأ الباقون بالتخفيف على أنه اسم، وهو الزمهرير، أو صديد أهل النار.

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب بضم الهمزة مقصورة من (وآخر) هكذا (وأُخَر) جمع أخرى، وهو ممنوع من الصرف للعلمية والعدل، وقرأ الباقون بالفتح والمد، مفرد ممنوع من الصرف للوصفية ووزن الفعل.

والضريع، والغسلين، . . أصناف وأنواع.

عن أبي سعيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لو أن دَلْوًا من غسَّاق يهراق في الدنيا لأنتن أهلَ الدنيا**»[١].

وقال كعب الأحبار: **غسَّاق**: عين في جهنم، يسيل إليها كل ذات حُمَة، من حية وعقرب وغير ذلك، فيُستنقَع، فيؤتى بالآدمي فيُغمس فيها غمسة واحدة، فيخرج وقد سقط جِلْده ولَحْمه عن العظام، ويتعلق جلده ولحمه في كعبيه وعقبيه، ويُجرُّ لحمُه كما يَجُرُّ الرجل ثوبهُ[٢].

حِوَارُ أَهْلِ النَّارِ

٥٩- ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾﴾

هذا مشهد ثالث من مشاهد أهل النار يحكي لنا تخاصم أهل النار فيما بينهم بعد دخولهم النار، وما يدور بين الطغاة وعامة الناس الذين اتبعوهم في الدنيا واقتدوا بهم في الكفر والضلال، فإنهم حين يتواردون على الناس ويلْتقُون فيها، يشتم بعضهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

ويتبرأ بعضهم من بعض، كما يتبرأ عبدة الأوثان من عبادتهم لها: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وحين ينظر الطغاة من كبار الجاحدين للتوحيد، المكذبين للرسالة الخاتمة، فيروْن فوجًا من أتباعهم، ممن لم يكونوا من طبقتهم، ولا من مستواهم الاجتماعي في الدنيا يرونهم وقد لحقوا بهم في جهنم، وأُقحموا معهم فيها، فإنهم يُشيرون إليهم، ويقولون: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ أي: هذا جمع كثيف من أتباعكم في الدنيا، قد رَمُوا بأنفسهم في النار ودخلوها معكم، فلا أهلًا ولا سهلًا بهم، إنهم سيصلون سعيرها مثلنا ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ يقاسون حرها كما قسوْناها، وفي هذا يقول تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة].

---

(١) «المسند» (٣/ ٢٨) برقم (١١٢٣٠، ١١٧٨٦) حديث حسن لغيره، لأن فيه ابن لهيعة، ضعيف والحاكم (٢/ ٥٠١) وصحح إسناده بموافقة الذهبي، وانظر «ضعيف سنن الترمذي» (٤٧٩).

(٢) رواه ابن أبي حاتم كما قال ابن كثير (٧/ ٧٩)، وأبي يعلى (٣١٨١) والبيهقي في البعث والنشور (٥٦٦).

ويصح أن يكون قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ من كلام خزنة النار لقادة الكفر والضلال، وأن يردَّ هؤلاء القادة عليهم قائلين: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾.

وهنا يَردُّ الضعفاء على الطغاة بقلب سبِّهم وشتْمهم إليهم وردِّه عليهم:

٦٠- ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾

أي: لا أهلًا ولا مرحبًا بكم، فلا حللتم أهلًا ولا نزلتم مكانًا سهلًا، وهذه تحية أهل النار فيما بينهم بالشتائم واللعنات، فأنتم الذين تسببتم لنا في الضلال، وأخذتم بأيدينا إليه، فبئس المنزل والمستقر لنا ولكم، نار جهنم.

ويواصل الضعفاء حوارهم مع الطغاة من رؤساء الكفر والضلال:

٦١- ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾﴾

أي: يقول الضعفاء على وجه التشفي من الذين جَرُّوا عليهم الويلات بإغوائهم لهم والدعاء عليهم: ربنا مَنْ كان سببًا في نزول العذاب بنا فأضلَّنا في الدنيا عن الهدى فزده عذابًا مضاعفًا في النار بمضاعفة عقابه.

والذين قدموا لهم ذلك هم القادة من الطغاة السابق ذكرهم في قولهم: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ وهذا كقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب]. وقوله أيضًا: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وفي النار يفتقد رؤساء الكفر ضعاف المسلمين فيسألون عنهم:

٦٢- ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾﴾

لقد كان هؤلاء الطغاة يحقِّرون ضعفاء المسلمين، ويَسْخرون منهم في الدنيا، ويحسبونهم أشقياء، ويقولون عنهم: قد خسروا لذة الدنيا باتباعهم الإسلام، ورضاهم بشظف العيش، وكان منهم في صدر الإسلام: بلال، وعمار، وصهيب، وخبيب، وغيرهم.

وبعد أن يدخل أئمة الكفر النار تدور أعينهم وتتقلب فيها، فلا يرون فيها هؤلاء الضعفاء الذين كانوا يستهزئون بهم في الدنيا، فيقولون على سبيل التحسر والتعجب وهم

في النار: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾ من فقراء المسلمين وضعفائهم ﴿كُنَّا نَعُدُّهُم﴾ في الدنيا استهزاء بهم ﴿مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ الأشقياء الفقراء، وسموهم أشرارًا لأنهم يخالفونهم في دينهم، وكنا نظن أن سعيد الدنيا سعيد الآخرة، وشقيَّ الدنيا المحروم من نعيمها، هو أيضًا شقي الآخرة، كما قال أحدهم: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، وقال آخر: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

لقد تلفَّت الطغاة في النار يمينًا وشمالًا، ودارت أعينهم فيها فلم يجدوا هؤلاء الفقراء من المسلمين، ولما افتقدوهم في النار عرفوا أنهم في الدرجات العلى، كما قال تعالى عن أهل الأعراف: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الأعراف]، وعندئذ يقول أئمة الكفر:

٦٣- ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ[1] سِخْرِيًّا[2] أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾

هل كان تحقيرنا لفقراء المسلمين واستهزاؤنا بهم خطأ؟ هذا احتمال، فكنا نزعم أنهم من الأشرار، وفي الواقع أنهم من الأخيار، وهذا كقوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون]

والاحتمال الآخر: أنهم موجودون معنا في النار، -على حدّ زعمهم- ولكن أبصارنا لم تقع عليهم؟

وفي هذا إشارة إلى أنهم لم يكونوا في الدنيا أهلًا للسخرية والاستهزاء، إنهم يتحسرون على أحوالهم البائسة بعد أن وجدوا أنفسهم في النار، ولم يجدوا معهم من كانوا يسخرون منهم في الدنيا.

فقسموا أمرهم بين أن يكونوا إما من أهل الجنة، أو من أهل النار، إلا أنه خفي عليهم مكانهم[3].

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر بهمزة قطع مفتوحة وصلًا وابتداء من (اتخذناهم) على الاستفهام، وقرأ الباقون بهمزة وصل تحذف وصلًا وتثبت بدءًا، مكسورة على الخبر.

(٢) قرأ نافع وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف بضم السين من (سخريًا) والباقون بكسرها وهما لغتان بمعنى واحد وهو الاستهزاء، وقيل: الضم بمعنى: الاستخدام بغير أجرة، والكسر بمعنى: الاستهزاء.

(٣) من «تفسير النسفي» للآية.

قال ابن عباس ﷺ: يريدون أصحاب محمد ﷺ، يقول أبو جهل: أين بلال؟ أين صهيب؟ أين عمار؟ أولئك في الفردوس، واعجبًا لأبي جهل! مسكين، أسلم ابنه عكرمة، وابنته جويرية، وأسلمتْ أمه، وأسلم أخوه، وكَفَرَ هو[(١)]

والآية عامة في كل من ينطبق عليه الوصف، قال تعالى:

٦٤- ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ۝٦٤﴾

وفي نهاية هذا المشهد يقرر سبحانه: أن هذا الذي يكون بين أهل الجنة وأهل النار من الجدال والخصام حق واقع يوم القيامة لا مرية فيه، أخبر به أصدق القائلين، وسماه الله تخاصمًا؛ لأن ما دار بين الأقوياء والضعفاء من قول بعضهم لبعض: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ وقولهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾ من باب الخصومة، وأضيف التخاصم إلى أهل النار؛ لأن أغلب المعذبين في النار من أهل الضلال في العقيدة، أو من أتباعهم الذين قلّدوهم، وهو وصف خاص بالمشركين المخلّدين في النار، وأهل النار هم المخلّدون فيها، لا يخرجون منها ولا يخفف عنهم من عذابها.

مُهِمَّةُ النَّبِيِّ ﷺ هِيَ الإِنْذَارُ وَالدَّعْوَةُ إِلَى التَّوْحِيدِ

٦٥- ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٦٥﴾

ويرتبط آخر السورة بأولها، ففي أول السورة قال الكفار عن محمد ﷺ: ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ واعترضوا على التوجُّه بالعبادة إلى إله واحد، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾.

وهنا تقرر السورة قضايا القرآن المكي الثلاث، وهي: التوحيد، والوحي، والبعث.

﴿قُلْ﴾ - يا أيها الرسول - لمن يعجبون أن يكون الإله المعبود إلهًا واحدًا، وقل لمن كذبوك ووصفوك بالسحر واتهموك بالكذب، قل لهم إن طلبوا منك ما ليس لك ولا بيدك: إنما وظيفتي هي الإنذار والتخويف لمن جحد التوحيد، وأعرض عن الوحي المنزل من عند الله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ رسول من رب العالمين، أنذركم وأخوفكم عذاب الله أن يحل

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٥/ ٢٢٤).

بكم إن لم تؤمنوا بالإله الواحد والرسول الخاتم، هذا نهاية ما عندي، آمركم وأنهاكم، وأحثكم على الخير، وأنهاكم عن الشر، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها، وليس لهذا الوجود سيد إلا الله، وكل ما في الكون مخلوق لله تعالى، وليس هناك إله مستحق للعبادة إلا الله وحده، فهو الواحد في خلقه، القهار الذي قهر كل شيء وغلبه، فقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ﴾ يقابل قولهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يقابل قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ﴾.

وفي صفة القهار تعريض بتهديد المشركين أن الله تعالى قادر على قهرهم وغلبتهم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨].

وهذا برهان قاطع ودليل ساطع على وحدانية الله تعالى، فهو القاهر لكل شيء، وهو الواحد الذي لا نظير له ولا شريك وهو الذي يستحق أن يعبد وحده.

وقد وصف الله نفسه في هذه الآية بصفتَي: الواحد القهار.

ثم وصف نفسه بثلاثة أوصاف أخرى، تقرر ربوبية الله سبحانه فقال:

٦٦- ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾

أتبع سبحانه صفتي الواحد القهار لله تعالى بثلاثة أوصاف أخرى هي: الرب، العزيز، الغفار، وهذه الصفات الخمس جاءت بعد قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وذلك لنفي كل شريك مع الله تعالى في ذاته وصفاته، أو في خَلْقِه لهذا الكون، وهَيْمنتِه عليه، أو في رحمته وغفرانه، فهو سبحانه خالق هذا الكون ومالكه ومربيه ومدبر أمره ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه، وهو القوي الذي خلق هذا الكون بما فيه ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ لذنوب من تاب وأناب إلى مرضاته تعالى.

وفي صفة ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ حث للمشركين والمكذبين على رجوعهم للحق.

ومجيئها بعد صفة ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ من باب الترغيب بعد الترهيب، فلو بقي الإنسان على كفره عُمْرَه كله، ثم تاب منه قبل أن يغرغر قَبِلَ الله توبته وكتبه في ديوان الموحدين.

قال الفخر الرازي: لما ذكر أنه (قهار) -وهذا مشعر بالترهيب والتخويف- أردف بما يدل على الرجاء والترغيب، وذكر ثلاث صفات دالة على الرحمة والفضل والكرم، وهي:

الرب، والعزيز، والغفار.

فكونه ربًّا مشعرًا بالتربية والإحسان.

وكونه عزيزًا مشعرًا بأنه قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء.

وكونه غفارًا مشعرًا بالترغيب، وأنه يرجى فضله وثوابه.

فلو بقي الإنسان على الكفر سبعين سنة، ثم تاب، فإن الله - سبحانه - يغفر له برحمته جميع الذنوب، ويمحو اسمه من ديوان المذنبين، ويوصِّله إلى درجات الأبرار[١].

وفي هذه الآية دعوة هامة للإقلاع عن الشرك، وفي الآية التالية توبيخ لهم على عنادهم؛ لأنهم تركوا ما ينفعهم وعكفوا على ما يضرهم:

قَضِيَّةُ الوَحْيِ

٦٧ ، ٦٨- ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ[٢] ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾

وبعد أن أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول للمكذبين الجاحدين: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أمره بعد ذلك أن يقول لهم: إن ما جئتكم به من عند ربي، من القرآن العظيم، وما فيه من هداية البشر، ومن عِلْم الأولين: كخلْق آدم، والملائكة والجن، وعِلْم الآخرين: كالبعث والحشر والنشر والحساب والثواب والعقاب، أمر أعظم مما تظنون، وأكبر مما تتوقعون، فهذا الذي جئتكم به يتجاوز حدود الزمان والمكان، والعصور والأقطار، ويؤثِّر في مستقبل البشرية، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿قُلْ﴾ لأمتك يا محمد مخوِّفًا ومحذِّرًا ومنذرًا ﴿هُوَ﴾ أي: القرآن ﴿نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾ أي: خبر كثير النفع، عظيم الفوائد، فهو يتضمن هدايتكم وسعادتكم في الدنيا والآخرة، وهو جدير بالإصغاء إليه، وتهيئة النفوس لقبوله والعمل به، ويتضمن ما أخبرتكم به من البعث والنشور والحساب، والجزاء على الأعمال والأقوال، وهو خبر عظيم ينبغي الاهتمام به وعدم الإعراض عنه.

---

(١) «التفسير الكبير» (٢٦/ ٢٢٤).

(٢) ترك الحمصى (نبؤ عظيم) فلم يعدها آية، وعدها غيره.

ذكر الطبري أن شُريحًا القاضي اختصم إليه أعرابي، فشهد عليه، فأراد شريح أن ينفِّذ الحكم، فقال له الأعرابي: أتحكم بالنبأ؟ فقال شريح: نعم، إن الله يقول: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا﴾ وقرأ الآية، وحكم عليه، والنبأ في كلام العرب بمعنى: الخبر.

وتفسير النبأ العظيم في الآية بأنه القرآن هو أرجح الأقوال، وهو يشمل النبأ العظيم الذي هو البعث والنشور الوارد في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ [النبأ] فإنه من علم الآخرين الذي جاء به القرآن.

وهو يتضمن خبر الملائكة في الملأ الأعلى، وهم يختلفون في شأن خلْق آدم ﷺ فهو من علم الأولين الذي جاء به القرآن، كما تشير إليه الآية التالية ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩﴾ أي: لولا الوحي ما كان لي به علم.

وهو يتضمن صدق النبي ﷺ في رسالته وتبليغه عن ربه، فالوحي هو الذي أخبر أن محمدًا ﷺ مبشر لمن أطاع الله تعالى بدخول الجنة، ومنذر لمن عصاه بدخول النار.

ثم أخبر سبحانه أن الناس غافلون معرضون عن هذا النبأ العظيم، منصرفون عنه، لا يعملون به، كأنه ليس أمامكم حساب ولا عقاب ولا ثواب، ولا جنة ولا نار، وبعد ذلك نفى سبحانه أن يكون للرسول علم بشيء من أخبار الملأ الأعلى إلا عن طريق الوحي، فإن كنتم في شك مما أخبرتكم به، فإنه لا علم لي به، ولم أدرسه في كتاب، وإنما بلَّغتكم ما أخبرني به ربي، من غير زيادة ولا نقص:

٦٩، ٧٠- ﴿مَا كَانَ لِىَ[1] مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ[2] أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية أنه لولا الوحي المنزل من عند الله تعالى لم يكن للنبيِّ ﷺ عِلْم بما يدور في الملأ الأعلى، ومن ذلك ما قالته الملائكة في شأن خلق آدم ﷺ حين قال تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠].

---

(١) قرأ حفص بفتح ياء الإضافة من (ما كان لي)، والباقون بكسرها.

(٢) قرأ أبو جعفر بكسر الهمزة من (إنما) على الحكاية، وإنّ وما بعدها، نائب فاعل، أي: ما يوحى إليَّ إلا هذه الجملة، وقرأ الباقون بفتحها على أنها وما في حيِّزها نائب فاعل، أي: ما يوحى إليَّ إلا كوني نذيرًا مبينًا.

وفي شأن امتناع إبليس من السجود لآدم، أي: ليس لي من علم بعالم الغيب، وما يجري فيه من أخبار ما كان وما يكون، ومن ذلك تخاصم أهل النار في النار يوم القيامة، فليس للرسول ﷺ طريق إلى معرفة ذلك إلا بالوحي، وفي هذا دليلٌ على صدق الرسول ﷺ فيما يبلّغه عن ربه، ودليلٌ على أن القرآن منزل من عند الله تعالى، فالقصد هو الاحتجاج على صحة نبوة محمد ﷺ؛ لأنه أخبر بأمور لم يكن يعلمها قبل ذلك.

أخرج الترمذي وغيره إلى ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة، قال: أحسبه قال: في المنام، فقال: يا محمد، هل تدري فيمَ يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: لا، فوضع يده بين كتفي حتى وجدتُ برْدها بين ثدْيَيّ، أو قال في نحري، فعلمتُ ما في السموات وما في الأرض، قال: يا محمد، هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلتُ: نعم، قال: في الكفارات، والكفارات: المكثُ في المساجد بعد الصلوات، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء في المكاره، ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدتْه أمه، وقال: يا محمد، إذا صلَّيت فقل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون، قال: والدرجات: إفشاء السلام، وإطعام الطعام، والصلاة بالليل والناس نيام»**[1].

وفي الأثر عن الحسن: الكفارات **ثلاث**: إسباغ الوضوء في المكروهات، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة[2].

فاختصام الملائكة يكون في أمر آدم وذريته في قيامهم بأمر الخلافة في الأرض، ويكون في الكفارات وغفران الذنوب.

وهذا العلْم -الذي علَّمَهُ الله لنبيه- لم يكن ليكون لولا وحي الله لرسوله؛ ليكون للناس

---

(١) «سنن الترمذي» برقم (٣٢٣٣) وأخرجه أحمد (٥/ ٤٣٧) (٣٤٨٤) بسند ضعيف كما قال محققو المسند، لأن أبا قلابة لم يسمع من ابن عباس، وأخرجه عبد بن حميد (٦٨٢) وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٣٤) وعبد الرزاق في التفسير (٢/ ١٦٩) وله شواهد كثيرة ذكرها السيوطي في «الدر المنثور» (١٢/ ٦١٧) وما بعدها.

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٦١٧).

نذيرًا لهم من عذاب الله، إن لم يؤمنوا به ويعملوا بشرعه.

والمعنى: ما يوحى إليَّ إلا لأني مرسل إليكم، لأنذركم عذاب الله وأبيِّن لكم أمره ونهيه.

قِصَّةُ سُجُودِ المَلَائِكَةِ لِآدَمَ وَامْتِنَاعِ إِبْلِيسَ

٧١، ٧٢- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾

ثم فصَّل سبحانه خبر هذا التخاصم، حين قال الله تعالى للملائكة ومعهم إبليس: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وقد سبق ذكر هذه القصة في سور: البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، ولعل ما جاء في هذه السورة، هو أول ما نزل من قصة خلق آدم، وسجود الملائكة، وامتناع إبليس من السجود، فإن هذه السورة هي أول سورة ذُكرت فيها القصة، حسب ترتيب النزول.

ومختصرها: أن الله تعالى أعلم الملائكة بخلْق آدم، فظنوا أن آدم وذريته سيكونون مِثْل الجن الذين عمَّروا الأرض قبله، فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، وكان الله تعالى قد أمر الملائكة بتطهير الأرض من فساد الجن، ولمَّا أراد الله رفع الملائكة إلى السماء قالوا: يا ربنا إن كبير الجن (إبليس) كثير العبادة لك، قال: ارفعوه معكم، فرُفع إبليس مع الملائكة، وكان بين صفوفهم يُدعى طاووس الملائكة، ولما أتم الله خلْق آدم، ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة وإبليس معهم بالسجود لآدم سجود تحية بالانحناء، وهنا ظهرت نزعة الكِبْر في طبيعة إبليس، حيث امتثلت الملائكة أمر ربهم، وامتنع إبليس عن السجود، كبرًا وتعاظُمًا، زعمًا منه أنه خُلق من مادة هي أفضل من المادة التي خُلق منها آدم.

ولمَّا خالف إبليس أمر الله تعالى عُدَّ كافرًا، وطرده الله من رحمته، وحَقَّت عليه اللعنة إلى يوم القيامة، فسأل الله أن يَمُدَّ في أجله إلى قيام الساعة، ليتمكن من إغواء بني آدم، حِقدًا وحسدًا عليهم لخروجه من الجنة، فأعطاه الله سؤله، ولكن إلى وقت النفخة الأولى حتى يموت مع جميع الخلق.

ويُستثنى من هذا الإغواء عباد الله الصالحين، فإنه ليس باستطاعته إغواؤهم.

والنبي ﷺ لم يكن له عِلْم بما دار في الملأ الأعلى وقت أن قال الله تعالى للملائكة ومعهم إبليس: إني خالق في الأرض إنسانًا مكوَّنًا من الجسم والعقل والروح، وقد بدأتُ سلالة خَلْقِه من تراب، ثم عُجِن هذا التراب بالماء فصار طينًا، ثم تخمَّر حتى أصبح أسود اللون، ثم تُرك حتى جف، فصار صَلصالًا كالفخار.

فإذا سويتُ جسده وأتممتُ خلْقه المادي، وصوَّرْتُه على صورة البشر، وأكملْتُ استعداده للحياة، ونفختُ فيه الروح، فدبَّت فيه الحياة، بعد إفاضتها عليه من أمري، فاسجدوا له سُجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة وتعظيم، فالعبادة لا تكون إلا لله تعالى، وقد حرَّم الله في شريعة الإسلام وضع الجبهة على الأرض إلا لله تعالى.

وطَّن الملائكة الكرام أنفسهم على السجود لآدم، حين يتم خلقه ونفخ الروح فيه، امتثالًا لأمر ربهم، وإكرامًا لآدم، فلما تم خلقه، بدنًا ورُوحًا جاء وقت التنفيذ:

٧٣، ٧٤- ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

امتثل الملائكة كلهم أمر الله تعالى، فسجدوا جميعًا في وقت واحد، حيُّوا آدم إكرامًا له وامتثالًا لأمر الله تعالى، ولفظ: ﴿كُلُّهُمْ﴾ للإحاطة بأنه لم يتخلَّف منهم أحد، ولفظ: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ للدلالة على أنهم سجدوا في وقت واحد ولم يتفرقوا، أو يتأخر بعضهم، ما عدا إبليس، فإنه لم يسجد، أنفَةً وتكبُّرًا.

وبسبب مخالفته لأمر الله تعالى، واستكباره عن طاعته أصبح كافرًا بعد أن كان طاووس الملائكة، وقد كان كفره معروفًا في علم الله تعالى قبل أن يَظْهَر في عالم الوجود، وقد ظهر كُفره في عالم الوجود حين امتنع عن السجود لآدم عنادًا وتكبُّرًا، وقد جاء ذلك.

في قوله تعالى: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وفي قوله سبحانه: ﴿أَبَىٰٓ﴾ [الحجر: ٣١، وطه: ١١٦].

وفي قوله أيضا: ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].

وفي قوله أيضا: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: ٥٠].

ولو أن إبليس كان من الملائكة ما أمكنه التمرد والعصيان؛ لأن الملائكة ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

قال الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين.

وبامتناع إبليس عن السجود ظهر للملائكة نزعة الكبر والعصيان الكامنة في طبيعة إبليس، بعد أن رأوه في ظاهر الحال على أكمل صورة من الطاعة والعبادة.

ثم بيَّن سبحانه موقف إبليس من أمر الله تعالى له:

٧٥- ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥﴾

أي: قال تعالى لإبليس: ما الذي منعك من السجود لمن أكرمتُه، وشرّفتُه، وميّزْتُه فخلقتُه بيديَّ من غير أن يكون له أب وأم؟ والله تعالى خالق كل شيء، ولكنه شرَّف خلق آدم بإضافته لنفسه؛ لأنه سبحانه خلقه خلقًا مباشرًا من غير حمل ولا ولادة.

وفي الآية إثبات صفة اليدين لله تعالى على الوجه اللائق بجلاله من غير تشبيه ولا تعطيل؛ إذ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال الله تعالى لإبليس: أمنعك من السجود لآدم؛ تكبُّرك على آدم؟! أم أنت من أصحاب العلوّ والشرف، الذين يَعُدُّون أنفسهم أفضل من غيرهم؟! وبهذا قطع الله عُذْر إبليس، فكان ردّ إبليس اللعين أنْ:

٧٦- ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾

أجاب إبليس مناقضًا ربه بأنه من النوع الثاني، أي: أنه من العالين، وليس من المستكبرين، فهو يرى أنه أفضل من آدم.

والمعنى: قال إبليس معارضًا لربه: لم أسجد لآدم لأنني خير منه وأفضل، ولو كنتُ مساويًا له في الشرف، لكان من القبيح أن أسجد له، فكيف وأنا خير منه حيث ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ والنار خير من الطين -على حدِّ زعمه- وبهذا الردِّ فإن إبليس يكون قد عصى ربه استكبارًا، وادَّعى باطلًا أن العنصر الذي خُلِق منه أفضل من العنصر الذي خلق

منه آدم، وهذا زعم باطل.

فالأرض التي هي الطين والتراب، خير للإنسان والحيوان والنبات، ففيها تمشي جداول الماء متواضعة، وفيها حياة كل شيء، ومن الأرض يخرج الزرع والثمر، وبهما يحيى الإنسان والحيوان، وليس في الأرض مفسدة أو ضرر، بخلاف النار التي تشتعل بالأجسام الملتهبة فيها، وهي مُفسِدة وضارة، ويتصاعد منها دخان الهواء متعاليًا، ليس فيه إلا الضرر، والنور الذي يخرج من النار هو نور عارض، قائم بالأجسام الملتهبة فيها، والنار لا تقوم بنفسها، فيذهب نورها وكيانها كله بذهاب ما يُلْهِبها، ويكون مآلها إلى الرماد.

ولو فرضنا جدلًا أن النار خير من الطين بعنصر، فإن الطين خير منها بعناصر، والتراب الذي خُلق منه آدم يتكون من عناصر كثيرة امتزجت به، منها: الهواء والماء والنار، وما يتولد عن ذلك التركيب من عناصر كيماوية وقوة كهربائية، تكُوِّن بمجموعها ماهية الإنسان[١].

وهكذا: فإن عنصر النار، مادة الشر والفساد والعلو والطيش والخفة.

وعنصر الطين، مادة الرزانة والتواضع وإخراج النبات والشجر.

والطين يغلب النار ويطفئها، والنار تحتاج إلى مادة تقوم بها، والطين قائم بنفسه.

فهو قياس ظاهر الفساد والبطلان.

وليست المسألة مفاضلة بين الطين والنار، أو آدم وإبليس، وإنما المسألة أمر من رب العالمين، يجب الإذعان له والعمل به، فالسجود في الحقيقة هو سجود لله الذي خلق آدم، وفيه تحية وإكرام لآدم.

وكان من نتائج هذا العصيان أن الله تعالى أرغم أنفه وطرده من رحمته:

٧٧، ٧٨- ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ[٢] إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾

قال تعالى لإبليس: اخرج من الجنة، فإنك مرجوم بالقول، مدحور مطرود من كل خير

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (٢٣/ ٣٠٤).

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (لعنتيَ إلى)، والباقون بإسكانها.

وكرامة، نتيجة لعصيانك وتمرُّدك، فأنت يا إبليس مبعد من رحمتي، مستحق لغضبي ولعْنتي إلى يوم القيامة، فأبعده الله عن جنته ورضوانه، وحقت عليه لعنته إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم الجزاء والعقاب فستلقى ما هو أشنع وأفظع، وجزاء الملعون هو العذاب الأليم، والخلود في دار الجحيم.

وهنا طلب إبليس من ربه أن يطيل عمره إلى يوم القيامة لإضلال بني آدم:

٧٩-٨١- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾

وجد إبليس نفسه شريدًا مطرودًا من رحمة الله، فأراد أن يُعطَى وقتًا متَّسعًا لإغواء بني آدم؛ كي يثأر لنفسه منهم، وأراد إلى جوار ذلك أن ينجوَ من الموت إذ لا موت بعد البعث قال: ربِّ أخرني وأمهلني، فلا تقبض روحي إلى اليوم الذي تَبعث فيه الخلائق من القبور، وبذلك فلا يمرُّ به الموت لأنه ظل حيًّا إلى قيام الساعة!

وإبليس يعرف أن له ربًّا، ولذا: يسأله إطالة عمره مدة الحياة، فيلبي الله دعاءه ويستجيب له قائلًا: قد أمهلتك وأطلت عمرك، ولكن ليس إلى الوقت الذي طلبت -أيها اللئيم- بل إلى الوقت المعلوم الذي يموت فيه الخلائق جميعًا، وهو وقت النفخة الأولى، وهذا من حلم الله تعالى حيث لم يعجِّل له بالعقوبة، ولكنه لما أَمِنَ الهلاكَ بإنظاره إلى نهاية الدنيا، طغى وتمرد، وأخذ على عاتقه أن يُضِلَّ غير المخلصين من عباد الله تعالى.

٨٢، ٨٣- ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ[(١)] ﴿٨٣﴾﴾

لقد عَلِم إبليس أنه لن يقدر على إغواء بني آدم، إلا إذا أقدره الله على ذلك، وعَلم أن هذا الإغواء يفيد في قوم دون قوم، وعَلِم أن الله تعالى سيمكِّنه من ذلك لابتلاء بني آدم.

ومن هنا فقد أقسم إبليس على ذلك بعزة الله وسلطانه وقهره، على أنه لن يألو جهدًا في إغواء بني آدم وإضلالهم بكل السبل: من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴿قَالَ﴾ إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ يا رب، وعَظَمتك، لأُضِلنَّ بني آدم كلهم و ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر].

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بكسر لام (المخلصين) اسم فاعل، والباقون بفتحها اسم مفعول.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٩]. قال إبليس متوعِّدًا:

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف]

ثم استثنى إبليس من الإغواء، عباد الله المخلَصين الذين لا سلطان له عليهم، وهو استثناء للأقل من الأكثر، فهو يعلم أنه لن يقوى عليهم، لأنهم الذين أخلصْتهم يا رب لعبادتك وعصمْتهم مني، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر].

فإن موعدهم جهنم ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

لقد علم إبليس أن الله سيحفظ عباده المخلصين من كيده فاستثناهم، وعلم أنه عاجز عن إغواء بني آدم إلا بإذن الله، فاستعان بعزة الله على إغوائهم.

فاللهم احفظنا من كيده، واصرف عنا شره، وأعنّا على محاربته وعداوته، وسلِّمنا من شره وشركه، وقد دعوناك يا ربنا كما أمرتنا فاستجب لنا كما وعدتنا.

اسْتِحْقَاقُ إِبْلِيسَ وَأَتْبَاعِهِ لِعَذَابِ جَهَنَّمَ

٨٤، ٨٥- ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ[١] وَٱلْحَقَّ أَقُولُ[٢] ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ[٣] جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ[٤] أَجْمَعِينَ﴾

﴿قَالَ﴾ الله تعالى في رده على إبليس: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ مني، أي خذ الحق مني، فهو سبحانه الحق، ومنه الحق ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ أي: ولا أقول إلا الحق، فالحق وصفي والحق قولي.

والحق ثابت لا يتخلف، ووعد الله حق لا يحتاج إلى قسم.

والحق نقيض الباطل، وقيل: إن الحق الأُولَى قسَم أقسم الله به، أي: والحق قسمي ويميني.

---

(١) قرأ عاصم وحمزة وخلف برفع (فالحقُّ) على أنه مبتدأ، وجملة (لأملأن) خبره، وقرأ الباقون بالنصب على أنه مفعول مطلق، أي: أُحق الحقَّ.

(٢) قرأ الأصبهاني بتسهيل الهمزة الثانية من (لأملأن) ولحمزة في الوقف: تحقيق الهمزة الأولى وتسهيلها، وعلى كل منهما تسهيل الهمزة الثانية.

(٣) عد الحمصي والكوفي (والحق أقول) آية، وتركها غيرهما من العدد.

(٤) وصل ورش ميم الجمع مع المد الطويل، من (منهم أجمعين) وسكت خلَف عن حمزة على الميم بدون تنفس.

ثم بين جلَّ شأنه قول الحق المقصود في الآية، فذكر جواب القسم بأنه سبحانه سيملأ جهنم يوم القيامة من إبليس ومن أتباعه الذين لم يتوبوا فقال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ يا إبليس ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي: من الضالين الكافرين ﴿أَجْمَعِينَ﴾ فهذا جزاء مَنْ عصاه، وخالف أمره ونهيه، وهذا كقوله تعالى ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وقوله سبحانه: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾ [الإسراء].

وكلام الله تعالى للملائكة في هذه الآيات هو عن طريق الوحي من الله تعالى إليهم، وكلامه سبحانه لإبليس يكون بواسطة ملك من الملائكة؛ لأن إبليس غير مؤهل لتلقي الخطاب من الله تعالى.

وقد حدد الله تعالى طرق الوحي في قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١].

فيكون الحوار المذكور في هذه الآيات بواسطة ملك من الملائكة الكرام.

فلما بيّن الرسول ﷺ للناس الدليل، ووضَّح لهم السبيل، أمره ربه، أن يُخبر قومه أنه لم يسألهم أجرًا على هذا البيان، ولم يأت بشيء من عن نفسه:

خِتَامُ السُّورَةِ

٨٦- ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾

خُتمت السورة بإقامة الحجة على المكذبين بالرسالة الخاتمة **بأمرين**:

الأمر الأول: أن النبيَّ ﷺ لم يكن طالب دنيا، ولم يطلب أجرًا على دعوته للناس، من لدن بعثته ﷺ إلى مماته، وأنه لم يأتهم إلا لنفعهم، ولو أنه طلب منهم جزاءً على دعوته، أو توخَّى جاهًا أو سلطانًا، لكذّبوه، فإذا انتفى ذلك وجب تصديقه ﷺ.

الأمر الثاني: أن النبيَّ ﷺ لم يكلفهم من العمل ما لا يطيقون أو يشق عليهم، فتعاليم الإسلام سهلة سمحة يسيرة.

كما أن النبيَّ ﷺ لم يتكلَّف ويتصنَّع القول أو الفعل فيما يُبلِّغه للناس، فهو صادق في

كل ما يقول ويفعل، لا يزيد عليه ولا ينقص منه، وليس بمدَّعٍ للنبوة باطلًا دون أن يوحى إليه! وكأن النبي ﷺ يقول: أنا لم أطلب جزاءً على دعوتهم وهدايتهم، ولستُ صاحب ادّعاءٍ باطل أو كاذب، وهذا معنى: ﴿وَمَآ أَنَآ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: لم أدَّعِ أمرًا من عندي وليس لي، بل أتبع ما يوحى إليَّ، ولا أتكلف في دعوتي تخرُّصًا أو افتراء.

صح عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: يأيها الناس، مَن عَلم شيئًا فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم، قال الله لرسوله:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَآ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾[1].

أي: أن ما جاء به القرآن ليس فيه مشقة في تكاليفه، وليس فيه تقوُّل على الله تعالى.

وقال الحسين بن الفضل: هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[2] [الشورى: ٢٣]. قلت: لا تعارض بين الآيتين، فمودة النبي ﷺ بحب قرابته أو حث المكذبين بدعوته من أقاربه على الإيمان به لما بينهم وبينه من قرابة، أقول: ليس في هذيْن المعنيين أجر على تبليغ الرسالة، فلا وجه للقول بالنسخ. قال تعالى:

٨٧، ٨٨- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ۝٨٨﴾

أي: فثبت بهذا أن القرآن ليس من أساطير الأولين، وليس سحرًا ولا شعرًا ولا كهانة فما هذا القرآن إلا وحي أوحاه الله لنبيه؛ لتذكير العالمين من الإنس والجن بما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾، وهدى وموعظة للمتقين.

وفيه ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.

وعلى مدى التاريخ الإسلامي -من لدن نزول القرآن إلى قيام الساعة- يتكشف للناس ما لا يعلمونه بالأمس، وتتبيَّن لهم الحقائق، وسوف تعلمون -أيها الناس- صدق القرآن فيما أخبر به، حين يغلب الإسلام، ويُظهره الله على الدين كله، ويدخل الناس في دين الله أفواجًا.

وتعلمون أيضًا صدق القرآن حين يقع العذاب بالمكذبين يوم القيامة، وتنقطع عنكم

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٨٠٩) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٩٨).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٥١٦).

الأسباب يوم لقاء الله تعالى.

وسوف تظهر لكم الحقائق العلمية في المجالات العديدة، التي تُثبت صدق القرآن الكريم فيما أخبر به، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

قال الحسن: يابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

وهكذا فإن هذه السورة مشتملة على الذكر الحكيم والنبأ العظيم، وإقامة الحجج والبراهين على من كذب سيد المرسلين، وفيها الإخبار عن عباد الله الصالحين، وجزاء المتقين والطاغين.

تم تفسير (سورة ص) ولله الحمد والمنة.



تَفْسِيرُ سُورَةِ الزُّمَرِ (٣٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الزمر) هي السورة التاسعة والثلاثون في ترتيب المصحف، والتاسعة والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (سبأ)، وقبل سورة (غافر)، سنة خمس من البعثة، قبل الهجرة إلى الحبشة.

وسُمِّيت سورة (الزمر)؛ لأن لفظ: «الزمر» لم يرد في غيرها من القرآن، وتُسمَّى سورة (الغُرَف) لقوله تعالى فيها: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [٢٠].

وعدد آياتها عند أهل الكوفة خمس وسبعون آية[١].

وهي ألف ومئة واثنتان وسبعون كلمة، وأربعة آلاف وتسع مئة وثمانية أحرف.

وهي سورة مكية، واستثنى بعضهم ثلاث آيات، قيل: إنها نزلت في وحْشِي قاتل حمزة، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [٥٣] وما بعدها، وقيل: إنها نزلت في هشام بن العاص، وكان قد تأخر عن الهجرة إلى المدينة بعد أن استعدَّ لها، وفي رواية: أن عياش بن ربيعة كان قد استعدَّ معه إلى الهجرة، ففُتن فافتتن، وكلها روايات ضعيفة.

والأصح أن الآيات الثلاث نزلت في المشركين الوثنيين، وحكمها عام في كل من تاب إلى الله تعالى من شركه وكفره ومعاصيه، وأن السورة كلها مكية على الصحيح.

ومما ورد في فضل هذه السورة ما جاء عن عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر[٢].

---

(١) وثلاث وسبعون آية عند أهل الشام، واثنتان وسبعون آية عند أهل مكة وأهل المدينة وأهل البصرة.

(٢) النسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٤٤) وفي التفسير برقم (٤٦٤) من حديث عائشة وهو في ط الرسالة لـ«السنن الكبرى» برقم (١١٣٨٠) وعند أحمد في المسند (٦/ ٦٨) برقم (٢٤٣٨٨) بسند ضعيف، قال محققوه: لضعف شريك النخعي، وجهالة شيخ سماك بن عميرة، وهو على شرط الشيخين من طرق كثيرة دون (وكان يقرأ..) وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٣٤)، وسكت عنه ووافقه الذهبي.

وفي لفظ: كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل(١).

والجانب الرئيس الذي تعالجه السورة هو قضية التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة، وتُقيم على ذلك الأدلة والبراهين من: خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسْيير إلى الشمس والقمر، وأطوار خلق الإنسان في الأرحام، وغير ذلك من البراهين الساطعة الدالة على وحدانية الله تعالى، بما يوجب إفراده سبحانه بالعبادة.

وتوضِّح السورة الفارق بين من يعبد إلهًا واحدًا، ومن يعبد آلهة متعددة، فالأول كعبْد يملكه سيد واحد، والآخر كالعبد المملوك لعدد من الشركاء، فهم يتنازعون فيه ويتخاصمون.

وتبيِّن السورة جزاء الكافر والمشرك في الدار الآخرة، حيث تغشاه النار من فوقه ومن تحته.

ولإيقاظ القلب الإنساني واستجاشته، لحمْلِه على الإيمان يقول تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [١٧، ١٨].

ويقول سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [٢٣].

ويقول جلَّ شأنه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [٣٦].

ويقول أيضًا: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

أ- **وجانب التوحيد هو العنصر الأول** من عناصر القرآن المكي.

ب- **أما العنصر الثاني فهو الإيمان باليوم الآخر**، وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب، وجنة ونار.

ويتجلى ذلك واضحًا في الربع الأخير من السورة، كقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ [٦٠].

---

(١) الترمذي برقم (٢٩٢٠) وقال: حديث حسن غريب.

وبعد النفخ في الصور لموت الخلائق، ثم النفخ فيه لبعثهم، تُشرق الأرض بنور ربها، وتوضَع صحائف الأعمال، ويؤتى بالنبيين والشهداء، ويُقضى بينهم بالحق، فيدخُل المتقون الجنة أفواجًا وجماعات، ويدخل الكفار النار أفواجًا وجماعات، ويقال في النهاية: الحمد لله رب العالمين، وهو الجانب الثاني من قضايا القرآن المكي.

جـ - **أما الجانب الثالث وهو: قضية الوحي والرسالة**، فإنه يتجلى في تلقين الرسول ﷺ الحجج والبراهين للرد على شبهات المشركين الباطلة، ومن ذلك قوله تعالى:

١- ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾.

٢- ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ﴾ [٣٨].

٣- ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾.

٤- ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ﴾ [٤٤].

٥- ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [٦٤].

والقرآن سيد الكتب، وهو الذي حرر الخلق من الشرك والضلال.

وقد ذُكر القرآن سبع مرات في هذه السورة لبيان هذه الحقيقة، وهي قوله تعالى:

١- ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾.

٢- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾.

٣- ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [٢٣].

٤- ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

٥- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ [٤١].

٦- ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [٥٥].

٧- ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

وسورة (الزمر) -وهي بصدد توضيح سرائر الناس، واختلاف وجهاتهم، تضمنت أحوالًا شتى لأفواج من البشر، فيها تبايُن واختلاف، قوبلت كل زمرة منها بزمرة أخرى مضادة، وهي تعقد لذلك ثلاث عشرة مقابلة بين أصناف الناس، مؤمنهم وكافرهم:

١- فالله تعالى يرضى لعباده الشكر، ولا يرضى لهم الكفر كما في الآية [٧].

٢- ولا يستوي عند الله من يُشغل ليله بالعبادة بِمَن يشغله باللهو واللذة المحرمة، فمثلهما كمثل الجاهل والعالم، والمؤمن والكافر الآية [٩].

٣- ولا يستوي مَنْ عبَد الله حق العبادة -فسجَن نفسه عن الهوى والشهوات- بِمَن عبَد الدنيا وعاش يلهث وراء شهواتها، انظر الآيات [١٣ ، ١٥، ١٧، ١٨].

٤- ولا يستوي من اتقى وأحسن، بمن عصى وأساء ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾ .

٥- ولا يستوي من ينشرح صدره، فيتَّسع لسماع القرآن والحديث، وإذا جلس في المسجد أو في درس علم شرعي كأنه في روْضة من رياض الجنة، لا يستوي هذا بمن يضيق صدره بذلك، وكأنه سجين يتنفس الصعداء ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ الآية [٢٢].

٦- ولا يستوي من صان وجهه عن النار يوم القيامة بمن عرَّض وجهه لعذاب النار ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ الآية [٢٤].

وكثيرًا ما يطوي السياق الطرف الآخر للمقابلة، لكونه مفهومًا من السياق.

٧- ولا يستوي الموحِّد والمشرك، والكافر والمؤمن ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ﴾ الآية [٢٩].

٨- ولا يستوي أهل الكذب مع أهل الصدق، ولا أهل الحق وأهل الباطل، فشتَّان بين مَن كذَب على الله وكذَّب بالصدق، ومن جاء بالصدق وصدَّق به، الآيتان [٣٢، ٣٣].

٩- ولا يستوي من ينفع ويضر، بمن لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، الآية [٣٨].

١٠- وما أبعد الشُّقَّة بين الموحد والمشرك، فالمشرك عابد وثن يعكف على عبادة حجر ويهابه، وينْفر من التوحيد، ويضيق صدره منه، لا يستوي ذلك بالموحد، قرير العين ساكن النفس، كما في الآيتان [٤٥، ٤٦].

١١- وهناك مقابلة بين الإنسان ونفسه حينما تعْرض له حالتا النعماء والسراء، في مقابل البأساء والضراء ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ الآية [٤٩].

١٢- وهناك مقابلة بين من يَحْدُوهم الأمل في عفو الله تعالى، فيسارع ويبادر إلى رضى الله - سبحانه -، وبين من يستولي عليه اليأس، فيتقاعس عن العمل، ويندم حين لا ينفع الندم ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ الآية [٥٦].

فيجاب: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

١٣- وبعد السؤال والحساب يستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [٧١].

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [٧٣].

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى **أربعة مقاطع**:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية السابعة، وهذا المقطع يتناول جانب التوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده، وقيام الأدلة الكونية على وجوب ذلك، ونفى الشريك والولد عن الله تبارك وتعالى.

المقطع الثاني: من الآية الثامنة إلى الآية الثانية والخمسين، وهذا المقطع يتناول مختلف أحوال الإنسان بين الإيمان والكفر، والهدى والضلال، وما يعتريه من فرح وبطر، ورضى وجزع، مع قيام الأدلة، وضرب الأمثلة، ويتخلل ذلك وعظ وإرشاد، وترغيب وترهيب، وثواب وعقاب.

المقطع الثالث: من الآية الثالثة والخمسين إلى الآية السادسة والستين، وهو يتعلق بالحث على التوبة من كل ذنب، وما يتعلق بذلك من تسويف وتعجيل، وثواب وعقاب.

والمقطع الرابع والأخير، من الآية السابعة والستين إلى نهاية السورة، وهو مقطع شيُّق، يتحدث عن يوم القيامة ومُقدِّماتها وأحوال المتقين والفجار وهم يساقون إلى مصيرهم المحتوم، حيث يرث المتقون أرض الجنة ويحمدون الله على ذلك، وتحفُّهم الملائكة من حول العرش مسبِّحين مهلِّلين، حامدين رب العالمين أن قضى بين عباده بالحق، ونال كل منهم جزاءه، والحمد رب العالمين.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

نُزُولُ القُرآنِ الكَرِيمِ لإقَامَةِ الدِّينِ الخَالِصِ

١، ٢- ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝﴾

افْتُتِحت السورة ببراعة استهلال، فيها ثناء على القرآن، وبيان لمصدره، وعظمة من تكلم به ونزل منه، وأنه قد نزل على رسوله ﷺ من عند الله تعالى، المتصف بالعزة والحكمة، وليس كما يزعم الجاحدون من أنه قول مفترى، أو حكايات قديمة.

والمعنى: إن هذا القرآن منزل من عند الله تعالى، فهو سبحانه القادر على تنزيله، وهو كتاب قوي، حجته غالبة، وليس بِوُسع أحد أن يعارضه أو يقاومه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

وعزة هذا الكتاب مستمدة من عزة الله تعالى، التي قهر بها كل مخلوق، وذَلَّ له كل شيء، فهو كتاب مُحْكَم مُتْقن، مشتمل على البيان الذي لا يحتمل الخطأ، مُعْجِز في ألفاظه ومعانيه، فيه علوم السابقين واللاحقين.

وهو كتاب حاكم ومهيمن على الكتب السابقة؛ لأنه صَدَّقها وفَصَّلها وبيَّنها، كما قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] وفيه من حكمة التشريع ما لا يحتاج إلى بيان.

وهذا القرآن حاكم على معارضيه بغلَبة الحجة، وهو كتاب محكم متقَن، مشتمل على الحكمة والتشريع والمنهج، وهذه المعاني مستمدة من صفة ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ لله تعالى.

وحينما يذكر الله - سبحانه - أن هذا الكتاب تنزيل من عند الله، يُتبع ذلك ببعض أسمائه الحسنى، كما في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝﴾ [غافر].

وكما في قوله سبحانه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝﴾ [فصلت].

وفي هذه السورة وسورتي الجاثية والأحقاف: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝﴾

وفي قوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾﴾ [يس].

وفي كل هذا ثناء على القرآن، وبيان أنه نزل من عند الله وحده، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو الغالب الذي لا يُقهر، والحكيم الذي يضع الأمور في نصابها، وهو الرحمن الرحيم بخلْقه، والعليم بأمورهم، المدبر لأحوالهم، وما دام هذا كلامه، فقد وجب علينا أن نؤمن به ونتَّبعه في أوامره ونواهيه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء].

وهذا الكتاب أنزلناه عليك -أيها الرسول- بالحق والعدل، لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وهو كتاب مشتمل على الحق في أخباره الصادقة وأحكامه العادلة، فكل ما دل عليه حق، وما بعده ضلال، كتاب لا يشوبه باطل ولا شبهة نقص، فوجب عليك قبوله والعمل بما فيه، وأن تُخْلِصَ لله عبادتك وطاعتك ودينك إخلاصًا تامًّا، لا يشوبه رياء ولا سمعة.

والآية تقتضي وجوب إخلاص الطاعة والعبادة لله تعالى، في الشرائع الظاهرة والباطنة، بالتوجه له وحده في العبادة، ومنها الدعاء والنذر والذبح والاستغاثة..

ومن هنا فإن الرياء يحبط العمل ويبطل أجره، كما جاء فيمن يقاتل رياء أو شجاعة أو حميَّة، ومن يتصدَّق رياء، ومن يقرأ القرآن للسمعة، ونحو ذلك.

والخاطرة التي تَحْدُث في قلب الإنسان، لا تقدح في عمله، كما أن ثناء الناس عليه لا يُنقِص من أجره، وكذلك لو أصاب الإنسان مصلحة إضافية، إلى جانب مقصده الأساس، فإن ذلك لا يؤثِّر عليه، كمن انتفع بتجارة وهو يحج بيت الله الحرام، فكل هذا ونحوه لا يقدح في صحة العبادة، ولا يُعتبر بابًا من أبواب الشرك؛ لأن الله تعالى هو الذي أباح ذلك، ورفع الحرج عن فاعله. قال تعالى:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

أي: اعبد الله وحده وأخلص له دينك، فهو الحق الذي قامت به السموات والأرض، وقد أنزله عليك ربك بالحق.

وهذه الحياة لا تقوم إلا على التوحيد، والتوحيد ليس كلمة تقال باللسان، وإنما هو اعتقاد في الضمير، وعمل بالجوارح، وقول باللسان، وهو منهج حياة متكامل.

وفي الآية دليل على وجوب إخلاص النية لله تعالى في الأقوال والأعمال، فهي من أعمال القلوب التي لا يطلع عليها إلا الله، وفيها دليل على أن إنزال القرآن هداية للناس، نعمة كبرى تقتضي الشكر من الله تعالى وإفراده بالعبادة، وفيها دليل قاطع على أن الشرك بالله كفر بنعم الله تعالى التي أنعمها على العبد، والشكر يقتضي توجيه هذه النعم فيما خُلقت من أجله. قال تعالى:

٣- ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١) إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾

وبعد أن أفادت الآية السابقة، وجوب إخلاص العبادة لله تعالى، أفادت هذه الآية وقررت الأمر بالإخلاص لله وحده، فكما أن الله تعالى هو المتصف بصفات الكمال والجلال والأفعال، فكذلك له الدين الخالص، فهو الذي يصلح القلوب ويزكيها، وفيه إقرار بالوحدانية، ونفي الشرك عن الله تعالى، والبعد عن عبادة غيره، فقال تعالى:
﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ أي: ألا لله وحده الطاعة التامة التي لا يشوبها شرك ولا رياء.

فانتبهوا أيها الناس، واعلموا أن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم، فلا يُستحق الدين الخالص إلا لله، ورأس الدين هو التوحيد، وإفراد الله تعالى بالعبادة، وعدم صرْف شيء منها لغير الله تعالى.

وهذه مقدمة للقضية الأساس التي هي غرض السورة، وهي قضية التوحيد.

وقد بيَّن سبحانه أن الإخلاص الكامل هو الذي لا تشوبه شائبة شرك، فلا واسطة بين العبد وربه، ولا وسيلة إلا بأسماء الله وصفاته، وبالعمل الصالح الذي يقدمه المتوسِّل إلى نفسه، ولا عذر له في التقرب إلى الله تعالى عن طريق حَجَر، أو عبد صالح، حيًّا أو ميتًا.

أخرج جُويبر عن ابن عباس ﷺ في هذه الآية قال: أُنزلت في ثلاثة أحياء: عامر، وكنانة، وبني سلمة، كانوا يعبدون الأوثان، ويقولون: الملائكة بنات الله، فقالوا:
﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾(٢).

---

(١) لم يعّد الكوفي (يختلفون) آية، وعدّها غيره.

(٢) «أسباب النزول» للسيوطي ص. ٢٤٣

وقال قتادة: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، أي: إلا ليشفعوا لنا عند الله[١].

ثم بيَّن سبحانه أن المشركين يزعمون أن عبادة الأوثان وسيلة تقربهم من الله تعالى فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: الذين أشركوا مع الله غيره واتخذوهم أولياء من دونه، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أي: ما نعبد هذه الآلهة مع الله تعالى إلا لتشفع لنا عنده، وتقربنا عنده منزلة، فهم أقرب إلى الله منا، وطلبهم مجاب أكثر منا، ولذا فإنا نتوسل بهم!!

قال الصاوي: كان المشركون إذا قيل لهم: مَنْ خلقكم؟ ومن خلق السموات والأرض؟ ومَنْ ربكم ورب آبائكم الأولين؟ فيقولون: الله، فيقال لهم: فما معنى عبادتكم الأصنام؟ فيقولون: لتقربنا إلى الله زلفى وتشفع لنا عنده[٢].

وهم بهذا قد كفروا بالله؛ لأن العبادة والشفاعة لله وحده، واعترافهم بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، المحيي المميت، لا يفيدهم شيئًا، فإن الشفاعة عند الله تعالى لها شرطان، وهما: الإذن للشافع في أن يشفع، والرضا عن المشفوع له بقبول الشفاعة فيه.

شبه ثلاث لبعض المتصوفة:

١- إنهم لا يُعَمِّمُون حُكْم هذه الجملة من الآية ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ فيقْصُرون معناها على الكافر، بحيث لو أن المؤمن اتخذ عبدًا من عباد الله - حيًّا أو ميتًا - وجعله واسطة بينه وبين الله، يرفع إليه عمله، ويتقرب به إليه، فلا بأس بذلك - على حد زعمهم - وهذا كلام ساقط، فالآية عامة في كل من يتخذ من دون الله وليًّا يتزلّف به إلى الله، فهي تقول ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ واسم الموصول من ألفاظ العموم.

٢- وهم يزعمون أن الملوك لا يُتوصل إليهم إلا بواسطة وجهاء وشفعاء ووزراء، يرفعون إليهم حوائج الرعايا، يقولون: وهكذا نحن نتوصل إلى الله تعالى عن طريق وليّه فلان، وهذا قياس فاسد، فيه تسوية بين الخالق والمخلوق، فالملوك لا يعرفون أحوال رعاياهم وهم بحاجة إلى من يُعَرِّفُهم أحوالهم، أما رب العالمين، فهو يعلم ما ظهر وما

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/ ١٢٢).

(٢) «حاشية الصاوي على الجلالين» (٣/ ٣٦٦).

بطن، ولا يحتاج إلى من يخبره بأحوال العباد.

٣- وهناك شبهة ثالثة وهي أنهم يقولون: إنهم مُثقَلُون بالذنوب فلا يستجاب لهم، وهؤلاء الأولياء مقربون فيستجاب لهم، والجواب على ذلك أن الله تعالى استجاب لإبليس ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأعراف] فهل هم أشقى من إبليس؟

ثم بيَّن سبحانه مصير هؤلاء المشركين في الآخرة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفصل بين المؤمنين المخلصين وبين المشركين يوم القيامة ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من عبادتهم، فيجازي كُلًّا بما يستحق، فيُدخِل الموحِّدين الجنة ويُدخل المشركين النار: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢] قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: لا يوفق للهداية والطريق المستقيم من هو مفترٍ على الله، دائم الكذب على دينه، ومَنْ هو شديد الجحود لآيات الله وبراهينه الساطعة.

وهكذا وصف الله المشرك بالكذب والكفر، لأنه يجحد الإيمان، ويكذب التوحيد، ويكفر به، فكيف تأتيه الهداية وقد سدّ منافذها على نفسه.

ومِنْ كَذبهم: أنهم جعلوا لله الشريك والولد، وعبدوا غيره، وألَّهوا الأصنام.

ومِنْ كُفرهم: أنهم صرفوا العبادة لغير الله، وكذَّبوا برسول الله، وما أتى به من عند الله تعالى.

والهداية المنتفية في الآية هي:

خَلْق الهداية وإيجادها في نفس العبد، وليست هداية الإرشاد والبلاغ.

فالرسول ﷺ يبلِّغ الرسالة إلى الناس كافة بمستوى واحد، ولكن الناس في تلقيهم لهذه الدعوة، منهم من يتلقاها باستعداد وقبول، وحُسْن نظَر وتدبر، فيعينه الله تعالى ويشرح صدره ويرضى عنه، فينشرح صدره للإيمان، وهذا ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

ومنهم من لم يكن عنده استعداد للهداية، فلا يتأمل ولا يتدبر، بل يُغْلِق عقله وسمعه وبصره، فيكون ضيِّق الصدر، لا ينشرح للإيمان، ولا يقْبل هداية الرحمن، وهو محل

غضب الله تعالى، وكلما توغَّل في الكفر ازداد غضب الله عليه.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقوله سبحانه: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ٨٦].

لقد كان الضلال كامنًا في نفوسهم فرفضوا غيره، قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

إنهم انحرفوا بأنفسهم عن الفطرة فلم يقبلوا هُدى ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقد بيَّن سبحانه أن الله تعالى سيفصل يوم القيامة بين المشركين ومَنْ عبدوهم، أو توسَّطوا بهم إلى الله تعالى في مثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ].

فالهداية المنفية في الآية هي الهداية التكوينية التي يخلقها الله تعالى في نفس العبد، وليست هداية الإرشاد والتبليغ والدلالة. قال تعالى:

٤- ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾

ثم أبطل سبحانه زعمهم في نسبة الولد إلى الله تعالى، فبيَّن جلَّ شأنه أنه لو كان متخذًا ولدًا على سبيل الفرض والاحتمال لاختار من خلقه ما يشاء، ولم يختر حجارة، ولا بنات -كما زعمتم- فإرادته سبحانه مطلقة غير مقيدة، قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء].

ثم علَّمنا سبحانه كيف ننزهه عن كل نقص، وعن كل ما لا يليق بجلاله، فهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا والد له ولا ولد، وهو الذي قهر خلقه بقدرته، وكل شيء خاضع له ومتذلل.

وقد كان المشركون يزعمون أن اللات والعزى ومناة، بنات الله، فقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ

وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم].

وقد بُني الدليل على استحالة اتخاذ الولد على الله تعالى، فبطل بهذا زعم البنوة لله - سبحانه -، وبطل تبعًا لذلك أن تكون هذه الأصنام آلهة.

والإسلام بهذا قد عالج خرافة الشرك المعقدة؛ إذ كيف يستقيم أن تُعبد هذه الآلهة، وعُبَّادها يقرون أنها لم تَخلُق ولم ترزُق، وأنها لا تضر ولا تنفع، ومن ذلك ما كانوا يقولونه في حجِّهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك.

فما دامت هذه الآلهة مملوكة وليست مالكة، فكيف يستقيم أن تكون آلهة؟! وقد نزَّه الله نفسه عن اتخاذ الولد، ووصف نفسه بالوحدانية المنافية للبنوة، ثم وصف نفسه بالقهار وهي صفة تدل على نفي الشركاء والأنداد عن الله تبارك وتعالى.

قال في التسهيل: نزَّه الله تعالى نفسه عن اتخاذ الولد، ثم وصف نفسه بالواحد؛ لأن الوحدانية تنافي اتخاذ الولد، ولأنه لو كان له ولد لكان من جنسه، ولا جنس له سبحانه، لأنه واحد، وقد وصف نفسه بالقهار، ليدل على نفي الشركاء والأنداد؛ لأن كل شيء مقهور تحت قهره تعالى، فكيف يكون له شريك؟[1].

وهو الواحد في ذاته وفي أسمائه وصفاته وأفعاله، لا شريك له ولا ند ولا مثيل، وهو القهار لجميع العالم العلوي والسفلي، ووحدته وقهره متلازمان، فالواحد لا يكون إلا قهارًا، والقهار لا يكون إلا واحدًا، وفي ذلك نفى للشرك من كل وجه.

هَذِهِ ثَلَاثَةٌ مِنْ أَدِلَّةِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ

٥- ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ[2] ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾

ثم لفت سبحانه الأنظار إلى بعض أفعاله الدالة على وحدانيته ونفي الشريك عنه سبحانه، فهو خالق هذا الكون بعالَميْه العلوي والسفلي، بما فيهما وما بينهما، لحكمة عظيمة، وهي

---

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل» (٣/ ١٩١).

(٢) قرأ الأزرق عن ورش بترقيق وتفخيم راء (يكور) (ويكور)و فخمها بقية القراء قولًا واحدًا.

معرفة الله تعالى، ومن ثم يوحدوه ويعبدوه، ثم يُثيبهم أو يعاقبهم في الآخرة، هذا هو الحق الذي خلق الله الخلق من أجله، ولم يخلقهم عبثًا أو لهوا دون هدف ولا غاية.

وقد اشتملت هذه الآية على مخلوقات ست هي: السموات، والأرض، والليل، والنهار، والشمس، والقمر، وفيها **ثلاثة أدلة متقابلة**:

الدليل الأول: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وما فيهما وما بينهما، خلقهما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ لنفع العباد، لمصلحة وحكمة جليلة تعود عليكم أيها الناس، وقد رفع السماء بلا عمد، وبسط الأرض وذلَّلها لخلْقِه ليمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه.

الدليل الثاني: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ كلٌّ منهما يخلُف الآخر، فلا يجتمعان ولا يفترقان، بل إذا أتى أحدهما انعزل الآخر عن سلطانه، كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان].

يجيء الليل فيذهب بالنهار، ويَغْشى مكانه فيلْبَسُه ويلُفُّه، ثم يجيء النهار فيذهب بالليل، ويُغَيِّبه عن الأبصار، وهو تكوير متتابع يشبه تكوير العمامة، بعضه فوق بعض، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] وهو أيضًا معنى قوله سبحانه: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [الحديد: ٦].

والعلم الحديث يقرر أن الأرض كروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس، وأن الجزء الذي في مواجهة الشمس من سطح الأرض يكون نهارًا مضيئًا، ولكن هذا الجزء لا يظل ثابتًا؛ لأن الأرض تدور، وكلما تحركت يبدأ الليل بظلامه يغمُر هذا السطح الذي كان نهارًا، وهذا السطح مكور، فالليل يكون مكورًا عليه، والنهار كذلك يكون مكوَّرًا على هذا الجزء[(١)].

ويظل هذا التتابع المستمر ما بقي الليل والنهار، ويترتب على تكوير الليل والنهار، الزيادة والنقص في كلٍّ منهما، ويترتب عليه أيضًا تعاقب الفصول الأربعة: الصيف، والشتاء، والربيع، والخريف.

الدليل الثالث: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ذلَّل الشمس والقمر،

(١) يُنظَر: «في ظلال القرآن» (٥/ ٣٠٣٤).

فكلٌّ منهما منقاد انقيادًا تامًّا لأمر الله تعالى، يسير في فلَكه بانتظام دقيق، وسيْرٍ مُتْقن لمنافع العباد، ولا يزال الأمر كذلك حتى قيام الساعة ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس].

ويظل الأمر كذلك حتى تُكوَّر الشمس وتنكدر النجوم، ويكون قيام الساعة، وينشيء الله الخلق نشأة أخرى، يحاسبهم ويجازيهم ويستقرون في دار القرار في جنة أو نار.

ألا فتنبَّهوا يا عباد الله، فإن الله تعالى غالب على أمره، ستَّار لذنوب خلقه، فأخلصوا عبادتكم لله ولا تشركوا به شيئًا ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ الخالق لجميع المخلوقات، المتصرف فيها، المهيمن عليها، لا يستعصي عليه شيء، ومن عزته - سبحانه - أنْ أَوْجَد هذه المخلوقات وسخرها بأمره.

وصفةُ العزة تفيد أنه سبحانه يفعل ما يشاء ولا غالب له وصفة الغفار، فيها دعوة إلى التوبة بالدخول في الإسلام والمبادرة إليها قبل الموت، ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه].

وَهَذِهِ خَمْسَةُ أَدِلَّةٍ أُخْرَى

٦- ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ(١) خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾

وبعد أن ذكر سبحانه في الآية السابقة ستة من المخلوقات الدالة على وحدانية الله تعالى وقدرته، وهي: السموات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، ذَكَر في هذه الآية خمسة أدلة أخرى على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته؛ إذْ ليس في وُسع من كان له عقل أن يشك لحظة في أن الله وحده هو خالق هذا الكون، وأن التوجه بالعبادة إلى غيره صَرْفٌ لها في غير موضعها، وذلك لأن هذه الآية وما قبلها بصدد خطاب المشركين الذين يقولون عن الأصنام: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

(١) قرأ حمزة بكسر الهمزة والميم من (أمهاتكم) وقرأ الكسائي بكسر الهمزة وفتح الميم، وقرأ الباقون بضم الهمزة وفتح الميم، وأجمعوا على ضم الهمزة وفتح الميم عند البدء بها.

وختمت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ أي: فكيف تُصرَفُون عن عبادة الله إلى عبادة غيره، بعد أن عرفتم هذه الأدلة الأحد عشر التي ذُكرت في هاتين الآيتين، ومجمل **الأدلة الخمسة** التي في هذه الآية هي:

١- خلْق الناس من ذكر وأنثى.

٢- خلْق الذكر الأول من غير أب ولا أم.

٣- خلْق الأنثى الأولى من غير أم.

٤- خلْق الأنعام الثمانية. (من: الإبل اثنين، ومن البقر اثنين، ومن الضأن اثنين، ومن المعز اثنين).

٥- أطوار خلق الإنسان والحيوان في بطون الأمهات.

وقد جاء خلْق آدم من سلالة من طين مُدْمجًا مع خلْق سائر الناس من ذكر وأنثى في جملة واحدة هي قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ أي: خلقكم - أيها الناس - من نفس واحدة هي نفس أبيكم آدم، وقد خلقه الله من تراب، ثم قال له: كن، فكان بشرًا سويًّا.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا﴾ أي: خلق من هذه النفس الواحدة ﴿زَوۡجَهَا﴾ وهي حواء، ليسكن إليها وتسكن إليه، خلقها من آدم خلقًا مستقلًا، حيث خُلقت من ضلع آدم، كما يستفاد من الضمير في ﴿مِنۡهَا﴾ وكما صح في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«استوصوا بالنساء خيرًا فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرًا»**[1].

ووقت خلق حواء لم يكن هناك ضلع سوى ضلع آدم.

وخلق الله سائر الناس عن طريق التوالد والتناسل منهما ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [السجدة: ٨].

إذن، فخلْق حواء، وخلْق الناس جميعًا يرجع في الأصل إلى نفس واحدة هي آدم، ولذا فقد أدمج الله تعالى خلْق الناس في خلق آدم من قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾.

فخلْق آدم وحواء ونسلهما، **أدلة ثلاثة** على عظيم قدرة الله تعالى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٤٦٨) و«صحيح البخاري» (٣٣٣١، ٥١٨٦).

ﭐتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣]. **فهذه ثلاثة أدلة**: هي خلْق الناس من ذكر وأنثى، وخلْق آدم من غير أب ولا أم، وخلْق حواء من غير أم.

أما **الدليل الرابع**، وهو خلْق الأنعام، فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾.

والأزواج هي الأصناف والأنواع، أي: الذكر والأنثى، كما قال تعالى:

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الرعد: ٣].

والأنعام هي: الإبل والبقر والغنم، وكلٌّ من هذه الثلاثة ذكر وأنثى.

قال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وقد فُسِّر الإنزال للأنعام بمعانٍ كثيرة:

١- منها: الخلق. ٢- ومنها: إنزال أمر الله تعالى:

٣- ومنها أنه إنزال حقيقي للأنعام من السماء.

٤- ومنها: إنزال الماء الذي يخرج منه النبات ويعيش عليه الحيوان، وهو وما قبله تأويل بعيد.

٥- ومنها: أن يكون (أنزل) بمعنى: أحدث وأنشأ. ولعل الأول هو الصواب.

٦- وقال بعضهم: الإنزال بمعنى الهبوط، فهو إنزال يراد به: الهبوط، كما جاء في سفينة نوح، قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠].

وقال بعد ذلك ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود:٤٨]

فأصل الحيوانات الموجودة هي التي نجت مع نوح في سفينته .

فيكون المعنى: أن الله تعالى خلق الأنعام، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا﴾ [النحل:٥].

وهذا باعتبار الأصل، ثم إنها هلكت في الطوفان كسائر المخلوقات، ونجَّى الله منها أصولها مع من نجا في السفينة.

وقد خَصَّ الله الأنعام بالذكر، لكثرة نفعها وعموم مصالحها، ولاختصاصها بأشياء لا تصلح لغيرها، كالأضحية والعقيقة والهدْي والنذر والأكل، ووجوب الزكاة فيها، ودفع الدية منها . .

الدليل الخامس: حالة مشتركة بين الإنسان والحيوان، وهي خلقهما في بطون الأمهات، ثم غُلِّب جانب الإنسان لأنه أشرف، وله عقل يعقل به، فقال: ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾ أيها الناس ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي: طورًا بعد طور، وأنتم في بطون أمهاتكم لا تمسكم يد، ولا تنظر إليكم عين بطريق مباشر، وقد رباكم الله في هذا المكان الضيق في ظلمات ثلاث، فإن الإنسان يكون نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، إلى أن يتم خلقه، ثم يُنفخ فيه الروح، فيكون خلقًا آخر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المرسلات].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥].

وفي الحديث: عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد»**[(١)].

وأطوار خلق الإنسان عشرة:

الأول: **طور النطفة**، وهي جسم مخاطي أبيض، نحو خمسة ملِّيمترات، وهي كالدودة.

الثاني: **طور العلقة**، وهي تتكون بعد ثلاثة وثلاثين يومًا من استقرار النطفة في الرحم،

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٤٣) و«صحيح البخاري» برقم (٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤).

وهي كالنملة الكبيرة، تبلغ نحو ثلاثة عشر مليمترًا، فيها ملامح وتخطيطات.

الثالث: طور المضغة، وهي قطعة لحم حمراء في حجم النحلة، قدر ما يمضغه الإنسان أو أقل.

الرابع: عند استكمال شهرين، يكون طوله ثلاثة سنتيمترات، وله نصف حجم الرأس، وليس له عنق، ولا وجه يميزه.

الخامس: في الشهر الثالث، يبلغ طوله خمسة عشر سنتيمترًا، ووزنه مئة جرام، وتكون له علامات في رسم الجبهة والأنف وغيرهما.

السادس: في الشهر الرابع، يبلغ طوله عشرين سنتيمترًا، ووزنه ٢٤٠ جرامًا، ويظهر في الرأس زغب، وتتضح أظفاره.

السابع: في الشهر السادس، حيث يصير طوله نحو ثلاثين سنتيمترًا، ووزنه خمس مئة غرام، وتتصلب أظافره.

الثامن: في الشهر السابع، يكون طوله ثمانية وثلاثين سنتيمترًا، ويقل احمرار جلده ويتكاثف، وتظهر عليه مادة دهنية دسمة ملتصقة، ويطول شعر رأسه، وتتميز الجُمْجُمة من الوسط.

التاسع: وفي الشهر الثامن، يبلغ طوله نحو أربعين سنتيمترًا، ووزنه أربعة أرطال، ويكبر حجمه وتقْوى حركته.

العاشر: في الشهر التاسع، يبلغ طوله من خمسين إلى ستين سنتيمترًا، ووزنه من ستة إلى ثمانية أرطال، ويتم عظمه، ويتضخم رأسه، ويكثف شعره، وينمو بالغذاء، وتجري فيه دورة الدم، وتبتدئ وظائف الحياة في الجهاز الهضمي والرئة والقلب.

-أما الظلمات الثلاث فهي: ظلمة الرحم، وظلمة البطن، وظلمة المشيمة، وهي غشاء يحيط بالجنين ليقيه وليكون به استقلاله مما ينجر إليه من الأغذية في دروته الدموية الخاصة به دون أمه[١].

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي خلق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وخلقكم، وخلق

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٢/ ٣٣٣).

لكم الأنعام والنعم، هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ خالق هذا الكون ومدبر أمره، ومبدع خلق الإنسان والحيوان والنبات، وهو سبحانه ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ هو الذي خلق السموات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والأنعام، وخلق الإنسان أطوارًا، فاعبدوه وحده، ولا تشركوا معه غيره، فلم تبقَ لكم شبهة ولا عذر تعتذرون به في مشابهة الأصنام بالواحد القهار، كما قال تعالى: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الرعد: ١٦] فكيف تكفرون؟!

ولذا: كان ختام الآية بقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾. كيف تنصرفون عن عبادة الواحدة القهار إلى عبادة غيره؟

اللهُ تَعَالَى لَا يَنْفَعُهُ إيمَانٌ وَلَا يَضُرُّهُ كُفْرٌ

٧- ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ[1] لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

قال ابن عباس ﷺ: هذه الآية مخاطبة للكفار الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، والذين لا يرضى الله لهم الكفر، وهم المؤمنون المخلصون.

أي: وبعد أن ساق سبحانه جملة من البراهين القاطعة الدالة على وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته، بما يوجب الإيمان بالله تعالى، ويحول بين العبد وبين الكفر بالله تعالى، بعد ذلك هدَّد الله الكفار وتوعَّدهم بسوء العاقبة إن لم يؤمنوا بالله ربهم، فإنه سبحانه لم يكلفهم بما كلفهم به من العبادات وغيرها ليجلب لنفسه نفعًا أو يدفع عنها ضرًّا؛ لأنه سبحانه غني عن خلقه، ولو كان محتاجًا إليهم في شيء لكان ذلك نقصانًا فيه، والله تعالى منزه عن النقائص، فلا ينفعه إيمان ولا يضره كفر.

﴿إِن تَكۡفُرُواْ﴾ بربكم - أيها الناس -، و لم تؤمنوا به، وتتبعوا رسله، وتصدقوا كتبه، وتؤمنوا بخاتم النبيين وكتابه، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ وعن إيمانكم وطاعتكم، وليس

---

(١) في هاء (يرضه) ست قراءات: ١- اختلس ضمة الهاء فيها نافع وحفص وحمزة ويعقوب ٢- وأشبع حركتها ابن كثير والكسائي وخلف ٣- وأسكنها السوسي ٤- وقرأ بالإسكان والإشباع الدوري عن أبي عمرو وابن جماز ٥- وقرأ بالإسكان والاختلاس هشام وشعبة ٦- وقرأ بالاختلاس والإشباع ابن ذكوان وابن وردان.

بحاجة إلى شيء من ذلك، فأنتم الفقراء إليه، وكفركم لا يضره، كما أن طاعتكم لا تنفعه، وأمْره ونَهْيه لكم، محضُ فضل وإحسان إليكم، وهو سبحانه يكره لكم أن تعبدوا غيره ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ ولا يحبه منهم، ولا يحمده لهم، ولا يأمرهم به، ولا يقره لهم، بل يعاقبهم عليه، وذلك لأجل منفعتهم ودفع مضرتهم رحمة بهم، فالكفر يُشْقيهم شقاوة لا يَسْعدون بعدها، وقد خلقكم لعبادته، فلا يرضى لكم أن تعبدوا غيره ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ﴾ الله على نعمه، فتوحدوه وتؤمنوا به، وتفردوه بالعبادة، وتخلصوا له الطاعة، فإنه سبحانه ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ لأن فيه منفعتكم وعدم الإضرار بكم، وفيه سعادتكم في الدنيا والآخرة، حيث تثابون عليه يوم القيامة، فمنفعة الشكر تعود عليكم.

وقد كان الكفر مرادًا لله تعالى؛ لأنه لا يقع في ملكه إلا ما يريد، مع أن الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر، ولا يمدحه ولا يثني عليه، ولا يأمرهم به، وإن كان واقعًا بمشيئته وقضائه بمقتضى علمه تعالى عن توجهات عباده قبل أن يخلقهم، والله تعالى قد نهاهم عن الكفر ولم يأمرهم به، فالرضى والأمر غير الإرادة، وبهذا يتبيّن أن عاقبة الشكر تعود على الشاكر بالخير الجزيل، وأن عاقبة الجحود تعود على الجاحد بالشر الوبيل والشقاء في الدنيا والآخرة.

وعن أبي ذر ﷺ، فيما يرويه عن رسول الله ﷺ، عن ربِّه ﷻ قال: **«يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.**

يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا.

يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا»[1].

أخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: والله ما رضي الله لعبده ضلالة، ولا أمره بها، ولا دعا إليها، ولكن رضي لكم طاعته، وأمركم بها، ونهاكم عن معصيته.

ثم خاطب سبحانه الكافرين والشاكرين على حدٍّ سواء، نظرًا لأنه قد يكون بين الفريقين

---

(١) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (٢٥٧٧).

من وشائج القرابة والولاء، ما يدفعهم إلى التضحية والفداء، وربما تحرَّج المؤمنون أن يمسهم إثم من جرَّاء كفر أقربائهم وأوليائهم، فبيَّن سبحانه أنه لا تحمل نفس إثم نفس أخرى، فقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ بل تُجازى كل نفس بما كسبت.

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨]

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

ويوم القيامة توفَّى كل نفس بما كسبت، ويكون مصيركم المحتوم إلى ربكم، فيخبركم بعملكم عن طريق الملائكة، وترونه في صحيفة أعمالكم، ويَظْهَرُ لكم الحق الذي لا مرية فيه، وتحاسبون عليه، وهو سبحانه عليم بأسرار النفوس وما تخفي الصدور، لا تُخفى عليه خافية، يعلم السر، ويعلم ما هو أخفى من السر، فقد أحاط علمه بكل شيء، وجرى قلمه بكل ما هو كائن وما يكون، وسجّلته الملائكة الكرام، وشهدت به الجوارح، ويوم القيامة يكون الحساب والجزاء.

حَالُ غَيرِ المُؤمِنِ فِي الشِّدَّةِ وَالرَّخَاءِ

٨- ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ[١] عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾

إن غير المؤمن بالله - سبحانه - متقلب في وَلائه وتوجُّهه، فهو عند الحاجة ومس الضر يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء ليرفع الضر عنه، فإذا ذهب ضره وصار في نعمة وعافية عاد إلى شركه ونسي ربه الذي لجأ إليه في الشدة ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ﴾ أي: إذا أصابه ما يكره من فقر أو مرض أو هزيمة أو بلاء أو كربه ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ أي: تذكر ربه فاستغاث به ودعاه مقبلًا عليه، ليرفع عنه ما به من شدة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣].

لأنه يعلم أنه لا ينجيه إلا الله، ولا يزيل كَرْبه إلا الله، ولذا فهو يدعوه ويستغيث به.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بفتح الياء من (ليضل) مضارع ضَلَّ، والباقون بضمها مضارع أضل.

قال سبحانه: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام].

فإذا فرَّج الله عن الإنسان كَرْبه، ورفع ما به من ضر، ومنحه النعمة والعافية، نسي دعاءه لربه عند حاجته إليه، ولم يكتفِ بهذا، بل أشرك معه غيره، فضَلَّ عن سبيل الله، وكان سببًا لضلال غيره عن طاعة الله وعبادته، وهذا معنى:

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾ أي: أعطاه وملَّكه ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي: كشف عنه ضره وفرَّج عنه كربه، ومنحه نعمة أخرى ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أي: نسي الضر الذي كان فيه، فتمرد وطغى، أو نسي ربه الذي كان يدعوه ويتضرع إليه قبل أن يَمسَّه الضر، فأشرك معه غيره في دعائه، زيادة على النسيان ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: جعل لله شركاء في عبادته ووحدانيته، فضَلَّ عن سبيل الله.

وعلى قراءة ضم الياء في ﴿لِّيُضِلَّ﴾ يكون المعنى: ليضل الناس بعد أن ضل هو نفسه عن سبيل الله؛ إذ لا يضل الناس إلا ضال، وهؤلاء الأنداد قد يكونون آلهة من البشر أو من الحجر أو من غيرهما، يعبدها العبد مع الله تعالى، أو يتقرب بها إليه.

وقد يكون اتباعًا للهوى والشيطان، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقد يكون أيضًا طاعة للحكام أو العلماء في تحريم الحلال وتحليل الحرام، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقد يكون الشرك في صورة طواغيت يواليهم العبد ويتودد إليهم على حساب دينه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فتكون العاقبة في هذا ونحوه هي الضلال عن سبيل الله، وعدم إفراده تعالى بالعبادة، والولاء لغيره.

قل -يا أيها الرسول- لكل مَن يجعل لله أندادًا في طاعته ومحبته ووَلائه، متوعِّدًا ومهددًا له بعذاب الله: انتفع بما أنت فيه، وتمتَّع بالسلامة من العذاب وقتًا قليلًا

حتى يحين وقتُ موتك وينتهي أجلك، فأنت آيل إلى النار ومصيرك إليها ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي: تمتع متاعًا قليلًا إلى نهاية عمرك، فمتاع الدنيا قليل ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ في الآخرة فمصيرك إليها وأنت مخلد فيها، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

وقوله سبحانه: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

ومتاع الدنيا لا يغني عن العبد شيئًا إن كان مآله إلى النار، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ الشعرا] فهذا المتاع الطويل لا يثبت أمام لفحة من عذاب جهنم.

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنبياء: ٤٦].

هذا: واللجوء إلى الله تعالى في الشدة ونسيانه في الرخاء جاء في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [٤٩].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: ١٢].

هذا هو حال المشرك بربه، وبالمقابل فما هو حال المؤمن القانت؟

المُؤْمِنُ وَالكَافِرُ لَا يَسْتَوِيَانِ

٩- ﴿أَمَّنْ[1] هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾

هذه مقابلة بين العالم والجاهل، والمطيع والعاصي، والموحد والمشرك، و المعرض عن طاعة الله، المتبع لهواه، والقانت المتقرب إلى ربه بأفضل الطاعات.

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وحمزة بتخفيف الميم من (أمن) موصولة دخلت عليها همزة الاستفهام التقريري، وقرأ الباقون بتشديد الميم على أن (من) موصولة دخلت عليها (أم) المتصلة ثم أدغمت الميم في الميم.

إنهما لا يستويان، لا يستوي الجاهل الكافر الذي جعل لله أندادًا، بِمَن هو مؤمن بربه مطيع له، يرجو رحمته ويخشى عذابه، فقد نفى الله - سبحانه - المساواة بينهما، وفي هذا تمام المقابلة بين حال المؤمن، وحال المشرك الذي لا يدعو ربه إلا وقت الاضطرار، فلا يهتم إلا بدنياه، ولا يرجو ثوابًا ولا يخاف عقابًا.

والمؤمن هو العالم العامل بعلمه، والمشرك هو الجاهل بحق الله تعالى عليه.

أي: لا يستوي العالم والجاهل. والاستفهام في الآية للإنكار، والمقصود منه: إثبات عدم التسوية بين الفريقين، وتفضيل الذين يعلمون على الذين لا يعلمون.

والذين اتصفوا بالعلم هم الذين جاء ذكرهم في قوله تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ [الرعد].

فوصف الله تعالى أولي العلم بأنهم أصحاب العقول ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إذ العقل والعلم متلازمان، أي: لا يستوي الذين لهم علم فيدركون حقائق الأشياء، مع الذين لا يعلمون، فتختلط عليهم الحقائق، كحال من توهَّموا أن الحجارة آلهة، فوضعوا الكفر موضع الإيمان.

فيكون المعنى: لا يستوي من هو قانت آناء الليل يحذر بقيام الليل لقاء ربه ويرجوه، ومن جعل لله أندادًا ليضل عن سبيله.

والذين يعلمون هم أهل الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

والذين لا يعلمون هم أهل الجهل والشرك، قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

وفي هذا إشارة إلى أن الإيمان أخو العلم؛ لأنه نور ومعرفة، وأن الجهل أخو الضلال؛ لأنه ظلمة وأوهام باطلة، والعالم يجد من السعادة ما لا يجده الجاهل.

العالم والجاهل لا يستويان:

ونفي الاستواء بين العالم والجاهل يقتضي التفاوت بينهما في **صور عديدة**، منها:

١- أن العالم بالشيء يهتدي إلى مقصوده بيسر وسهولة، ويعلم ما هو أولى بالإقبال عليه، وغير العالم يضل طريقه، ويضيِّع وقته، وتختلط عليه الأمور، فيخيب سعيه في

أغلب الأحوال، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩].

فالعالم يسلم من النوائب غالبًا، والجاهل يريد السلامة فيقع في الهلاك.

٢- والعالم تتميز عنده المنافع من المضار، وتنكشف له الحقائق بصحة إدراكه، والجاهل يقع في حيرة من أمره، فلا يدري ماذا يأخذ، وماذا يدع.

قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾ [البقرة: ٢٠].

٣- والعالم كلما ازداد علمًا استغنى عن الناس بمقدار ما يعلم، وأكسبه ذلك لذة المعرفة.

وفي الحديث عن معاوية ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»(١).

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾؟

أي: أهذا الكافر المتمتّع بكفره زمانًا قليلًا ممن جعل لله شركاء في العبادة، أهو خير، أمَّن هو عابد موحد لربه، طائع له، يقضي ساعات الليل في القيام والسجود لله تعالى، يخاف عذاب الآخرة ويؤمِّل في رحمة الله تعالى؟

وجواب الاستفهام محذوف لدلالة الكلام عليه.

والمعنى: أهذا الجاعل لله شركاء وأندادًا، خير، أمَّن هو قانت يعبد ربه ليلًا، بعيدًا عن الرياء.

والرجاء: انتظار ما فيه خير ونعيم للإنسان، والخوف انتظار ما فيه مكروه للنفس.

والرجاء يحث النفس على ما يرضي الله تعالى. والخوف يزجر النفس عما لا يرضي الله تعالى.

ولا بد للرجاء من السعي الدؤوب وإلا كان انتظار الخير مغالطة وغرورًا.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء].

أربعة أوصاف للمؤمن:

وقد وصف الله تعالى المؤمن في الآية **بأربعة أوصاف**، هي:

(١) من حديث معاوية في البخاري برقم (٣١١٦) ومسلم (١٠٣٧).

إخلاص العبادة لله تعالى، والخوف منه، والرجاء فيه، والعلم، والعقل.

فالوصف الأول: قيام الليل قائمًا وساجدًا بخشوع وإنابة وإخبات.

والوصف الثاني: صفة العمل القلبي بأنه بين الخوف من السيئات والفلتات، وبين الرجاء في رحمة الله تعالى.

وفي هذا تمام المقابلة بين المؤمن الخاشع، والمشرك الذي لا يدعو ربه إلا في وقت الشدة، غير مبالٍ بعاجل العقاب في الدنيا، ولا رجاء ثواب الآخرة.

والوصف الثالث: عدم التسوية بين مَنْ عَلِم حقائق الأشياء، فعبَد الله على بصيرة، وبين الجاهل الذي اختلطت عليه حقائق الأشياء، فتوهَّم أن الحجارة آلهة، أو أن أحدًا من الخلق يملك شيئًا من خصائص الله تعالى، فيضر أو ينفع، فأطاعه واتبع خطاه، وهذا ما تشير إليه الآية ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يستوي أهل الإيمان -الذين عرفوا أن ربهم حق، ورسولهم حق، ودينهم حق وكتابهم حق- وأهل الشرك وهم الجهلاء الذين لا يعرفون شيئًا من ذلك، فلا يستوي من يعلمون دين الله الشرعي ودينه الجزائي، وماالله في ذلك من الأسرار والحكم، بمن لا يعلم شيئًا من ذلك، لا يستوي هؤلاء وهؤلاء، كما لا يستوي الليل والنهار، والنور والظلام، والماء والنار.

والعلم نور ومعرفة، وهو قرين الإيمان، والجهل ظُلمة وضلال وأوهام، وهو قرين الكفر.

وكما لا يستوي العالم والجاهل، لا يستوي البر والفاجر، والمطيع والعاصي.

الوصف الرابع: ختمت به الآية ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فالمؤمنون القانتون هم أصحاب العقول الذين يتأملون ويتدبرون، فينتفعون ويتذكرون.

أي: إنما يتذكر ويعرف الفرق بين العالم والجاهل والإيمان والكفر: أصحاب العقول السليمة، والمدارك القويمة، فهم الذين يُؤْثرون العلم على الجهل، والطاعة على المعصية.

فقد بدأت الآية بذكر العمل، وهو القنوت والسجود والقيام، وخُتمت بالعلم، وبيَّنت أنه لا يستوي مع الجهل، وهذا يدل على أن الإنسان محصور بين العلم والعمل.

وهذه الأوصاف الأربعة عامة في كل مؤمن وكل كافر.

وهناك روايات في أن الآية نزلت في أبي بكر وعمر ﷺ، كما قال ابن عباس ﷺ.

وقال ابن عمر: نزلت في عثمان، وقيل: نزلت في ابن مسعود وعمَّار وسلمان، في مقابلة عُتبة بن ربيعة، أو أبي حذيفة المخزومي[١] والعبرة بعموم اللفظ.

وعن أنس ﷺ قال: دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في مرض الموت، فقال له: **«كيف تجدك»**؟ قال: أرجو وأخاف، فقال ﷺ: **«لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو، وأمَّنه الذي يخافه»**[٢].

عَلَى المُؤْمِنِ أَنْ يَتَزوَّد بِالعَمَلِ الصَّالِحِ لِلآخِرَة

١٠- ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾

أمر الله رسوله في هذه الآية، أن يتوجه بالخطاب إلى المؤمنين القانتين، الجامعين بين الخوف والرجاء، الموصوفين بالعلم والعقل والتذكر: أن يتخذوا من حياتهم القصيرة في الدنيا وسيلة للكسب والتزوُّد للدار الآخرة بالتقوى والإحسان.

﴿قُلْ﴾ أيها الرسول لقومك، وبلّغهم هذا النداء عن ربك: ﴿يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أطيعوه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، بأن تجعلوا بينكم وبين عذاب النار وقاية، وداوموا على ذلك، وإن نزل بكم من الأذى في دين الله، ما يحملكم على التقصير في تقوى الله، فإن المحسنين في الدنيا -بطاعة الله تعالى والابتعاد عن محارمه- قد عجَّل الله لهم الجزاء الحسن في الدنيا قبل ثواب الآخرة، قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ﴾ أي: لهم العاقبة الحسنة، وهي الجنة، ولهم الحالة الحسنة في الدنيا: رزق واسع، ونفس مطمئنة، و قلب منشرح، فهم الذين قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]. وقال تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ

---

(١) يُنظَر: «تفسير الخازن» (٤/ ٥٠) وابن كثير (٧/ ٧٩) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٦) وابن عساكر (٣٩/ ٢٣١).

(٢) رواه عبد بن حميد في «المنتخب» برقم (١٣٦٨) والترمذي برقم (٩٨٣) وابن ماجه برقم (٤٢٦١) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٩٠١) وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٧٨٥) وفي مشكاة المصابيح (١٦١٢) والسلسلة الصحيحة (١٠٥١) وصحيح ابن ماجه (٣٤٣٦).

أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل]

وما عند الله خير وأبقى، قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وحسنة الآخرة هي الجنة، مع زيادة النظر إلى وجه الله الكريم.

وحسنة الدنيا في: الصحة، والرزق، والنصر، والولد، والمال، وراحة النفس، والأمن والأمان، وغير ذلك.

وقد ذكر الله في الآية السبب الموجب للتقوى، وهو ربوبية الله تعالى وإنعامه على خلْقه، ومن أَجَلِّ هذه النِّعَم، نعمةُ الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر.

والحث على التقوى والإحسان في أول الآية، تمهيد لقوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ ففيها تعريض بالهجرة، فرارًا بالدين من الفتن، بمعنى: أن الله تعالى وعد المؤمنين أن يلاقوا حسنة في الدنيا أيضًا، إذا هم هاجروا من ديار الشرك أو الطغيان إلى أيِّ مكان يأمنون فيه على دينهم وأنفسهم، قال تعالى توبيخًا لمن لم يهاجروا فرارًا من الفتنة:

﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

فإذا كان من أحسن فأطاع ربه وترك محارمه، له حسنة في الدنيا، فإن المؤمن المطيع لله والرسول الذي يُضطهد في أرض تحصل له أيضًا هذه الحسنة، وأرض الله أمامه واسعة، فعليه أن يهاجر إلى مكان يتمكن فيه من إقامة دينه، فمهما منعتم من عبادة الله في أرض فهاجروا إلى غيرها، وهذا حكم عام في كل زمان ومكان.

ولا تزال طائفة من الأمة على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك.

وفي الآية إشارة إلى الهجرة إلى الحبشة:

قال ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ يريد جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة.

ولما كانت مفارقة الأوطان، ومشقة السفر لا يستطيعها إلا صابر، عظَّم الله أجر الصابرين، وبيَّن أنهم يُعْطَوْن أجورهم في الآخرة بغير حساب، لا كما يحاسب غيرهم،

فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بغير حدٍّ ولا عدٍّ ولا مقدار، وكل شيء يدخل تحت الحساب فهو متناهٍ، وما لا يدخل تحت الحساب فهو غير متناهٍ.

ولهذا المقطع الأخير من الآية معنيان:

المعنى الأول: أن الصابر يوفَّى أجره، ثم لا يحاسب على نعيم ولا يتابع بذنوب، في إشارة إلى قول النبي ﷺ فيما يرويه عمران بن حصين ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب»**، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: **«هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، وعلى ربهم يتوكلون»**[1].

زاد في رواية: **«وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»**[2].

والمعنى الثاني: أن أجور الصابرين تُوَفَّى بغير حصر ولا عدٍّ، بل جزافًا.

والصبر: هو سكون النفس وعدم الضجر عند حلول الآلام والنكبات، ومنه الصبر على فعل الطاعات، وترك المحرمات، والصبر على أقدار الله تعالى.

قال علي بن أبي طالب ﷺ: كل مطيع يُكال له كيلًا، ويوزن له وزنًا إلا الصابرين، فإنه يُحثى لهم حثيًا.

ورُوِي أنه يُؤتى بأهل البلاء، فلا يُنصب لهم ميزان، ولا يُنشر لهم ديوان، ويصب عليهم الأجر صبًّا بغير حساب، حتى يتمنَّى أهل العافية -في الدنيا- لو أن أجسادهم تُقرض بالمقاريض؛ لِمَا يذهب به أهل البلاء من الفضل.

هذا: والهجرة إلى الحبشة كانت سنة خمس من البعثة، لَمَّا رأى النبي ﷺ ما يصيب أصحابه من الأذى، وكان عمه أبو طالب يحميه، ولا يستطيع النبي ﷺ أن يحميهم، فقال: **«لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها مليكًا لا يُظلم عنده أحد، حتى يجعل الله فرجًا مما أنتم فيه»** فخرج ثلاثة وثمانون رجلًا، وتسع عشرة امرأة، سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارًا، وهذا العدد هو معظم من أسلم في مكة آنذاك، وكان أبو بكر ﷺ قد

---

(١) من حديث عمران بن حصين في «صحيح مسلم» برقم (٢١٨) وعن سهل بن سعد في «صحيح البخاري» (٣٢٤٧، ٦٥٣٤).

(٢) هذه الزيادة من رواية سهل بن سعد في مسلم (٢١٩).

استأذن النبي ﷺ في الهجرة فأذن له، فلقيه ابن الدُّغنَّة فجعله في جواره ولم يهاجر، وكانت حكمة الله تعالى تقتضي بقاء النبي ﷺ بين ظهراني المشركين لنشر الإسلام، حتى تم مراد الله تعالى، ودخل الإسلام كل بيت في المدينة، بعد أن تم عقد بيعتي العقبة، فأذن الله لرسوله بالهجرة لتكون قاعدة انتشار الإسلام في العالم.

أَرْبَعَةُ أَوَامِرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلِأُمَّتِهِ

الأَمْرُ الأَوَّلُ: وُجُوبُ الإِخْلَاصِ فِي أَعْمَالِ القُلُوبِ

١١- ﴿قُلْ إِنِّيٓ[1] أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ[2] ﴿١١﴾﴾

وبعد أن أمر الله رسوله أن يُرغِّب المؤمنين في التزوُّد، والمداومة على التقوى والإحسان لتحمُّل مشاق الأذى والهجرة، أمره أن يتوجه بالخطاب إلى غير المسلمين ليخبرهم، أن الله تعالى قد أمره وأمر أمته بالعبادة الخالصة من الشرك والرياء، فيقول لهم: إن الله تعالى قد أمرني أن أعبده وحده، وأن لا يصرفني عن ذلك صارف، فحياتي ومماتي، وحركاتي وسكناتي، وعبادتي وذبحي، وحَجِّي وجهادي، وصلاتي وصومي، ودعائي واستغاثتي... كلها لله وحده، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. وهذا الإخلاص هو الذي جاء في أول السورة ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾.

وهكذا، أمر الله تعالى رسوله ﷺ، وأمر أمته بإخلاص العبادة من قلوبهم لله وحده دون سواه، وألا يتأثروا بما كان عليه آباؤهم أو غيرهم من الشرك والجهل والضلال، والنبي ﷺ هو أول من خلع دين آبائه، وخلع الأصنام وحطمها، وأسلم وجهه لله تعالى وآمن به ودعا إلى التوحيد.

عن مُقَاتِل: أن كفار قريش قالوا للنبي ﷺ: ما يحملك على هذا الذي أتيتنا به؟ ألاَ تنظر إلى ملة أبيك وجدك وسادات قومك، يعبدون اللات والعزَّى؟ فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾.

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إني أمرت)، والباقون بإسكانها.

(٢) عد الدمشقي والكوفي (له الدين) آية، فيكون متروكًا لغيرهما.

وهذا الأمر مختص بالله تعالى، أي: بتوحيده وعبادته والذي يليه مختص بالنبي ﷺ وأمته جميعًا.

الأَمْرُ الثَّانِي: وُجُوبُ الإِخْلَاصِ فِي أَعْمَالِ الجَوَارِحِ

١٢- ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾

وبعد أن أمر الله رسوله بالإخلاص في أعمال القلوب أمره بالإخلاص في عمل الجوارح؛ لأن شرائع الله تعالى لا تؤخذ إلا عن الرسول ﷺ فهو المبلِّغ عن ربه، وهو أول الناس في التطبيق والعمل، وهو الداعي إلى الهدى، وهو أول من أئتمر بأمر الله تعالى، فلزم أن يكون هو أول من أسلم لله في أعماله الظاهرة والباطنة.

وقد خصَّ الله رسوله بالخطاب، تنبيهًا على أن غيره من باب أولى، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣] أي: أمرني ربي أن أكون أول من أسلم، فأخضع وأنقاد له، وأُخلص له الطاعة، وأبرأ إليه من عبادة غيره، وأنا أول من أسلم من أهل عصري وزمني، وهذه نعمة من الله تعالى ومنَّة امتنَّ بها عليَّ.

والنبي ﷺ هو أقوى المسلمين إسلامًا، كما قال ﷺ: **«أما إني لأتقاكم لله وأعلمكم به»** فقد أمره ربه أن يَبْلُغ الغاية القصوى في عبادة الله تعالى، وإخلاصها له وحده ليكون أول من أطاع وانقاد وأسلم، ويكون على رأس من أخلص لله وحده، حتى يقتدي به الناس فيما يقول ويفعل، وهو ﷺ أول من خالف دين قومه، فخلع الأصنام وحطَّمها وأسلم وجهه لله سبحانه.

الأَمْرُ الثَّالِثُ: وُجُوبُ الْخَوْفِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى

١٣- ﴿قُلْ إِنِّيَ[1] أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾

المقصود من هذه الآية: زجر الناس عن الوقوع في المعاصي، وفي مقدمة ذلك الشرك والرياء، وقد جرت سُنَّة الله تعالى أن يخبر الأنبياء أقوامهم بما اتصفوا به ليكونوا مثلهم، ولذا يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يخبر قومه بأنه يخاف إن عصى ربه أن يعذبه يوم القيامة

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (إني أخاف)، والباقون بإسكانها.

بنار جهنم، وذلك زجرًا للناس عن المعاصي، فإذا كان النبي ﷺ يخاف عذاب الله تعالى مع عصمته، ومغفرة الله له لما تقدم من ذنبه وما تأخر- فغيره من باب أولى.

وكان المشركون يحاولون أن يترك النبي ﷺ دعوته ويتبع دينهم، فأمره الله تعالى أن يخبرهم قائلًا لهم: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ فيما أمرني به من طاعته، والإخلاص له في عبادته، أخاف ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ هو يوم القيامة، حيث تَعْظُم الأهوال، وتشيب الرؤوس، ويتصبب العرق، وترجُف الأرض والجبال.

الأَمْرُ الرَّابِعُ: وُجُوبُ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ تَعَالَى وعُقُوبَةُ غَيْرِ الْمُخْلِصِينَ

١٤، ١٥- ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي[1] ﴿١٤﴾ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾

يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يخبر أمته بأنه ممتثل لأمر ربه منقاد له، مخلص له الدين على أكمل وجه.

قل -يا محمد- للناس: إني أعبد الله وحده لا شريك له، وأُخْلِص له في طاعته وعبادته من كل شائبة شك أو شرك، أو شقاق أو نفاق.

وليس في هذه الآيات الأربع تكرار.

فالأولى: إخبار بأنه ﷺ مأمور بالعبادة.

والثانية: إخبار بأنه ﷺ أول المسلمين.

والثالثة: إخبار بأنه ﷺ يخاف عذاب الله إن عصى أمره.

والرابعة: إخبار بامتثاله ﷺ أمر ربه تبارك وتعالى، مع إفادة الحصر، كأنه يقول: أعبد الله ولا أعبد أحدًا سواه[2].

﴿فَٱعۡبُدُواْ﴾ أنتم أيها المشركون ﴿مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ فإن هذا لن يضر الله شيئًا، والأمر

---

(١) انفرد الكوفي بعد (له ديني) آية، وتركه جمهور أهل العدد.

(٢) يُنظَر: «حاشية الجمل على الجلالين» (٣/ ٥٩٤).

يستوي عنده سبحانه إن آمنتم أو كفرتم، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ الخ: السورة]

وقال سبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وفي الحديث القدسي: عن أبي ذر ﷺ عن رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى قال: **«يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر»**(١).

وفي هذا تهديد ووعيد لهم بأنهم سيروْن عاقبة كفرهم خسرانًا وعذابًا.

ثم أمر الله رسوله أن يعظ المشركين ويخبرهم: أن من أشرك مع الله غيره فهو الخاسر لنفسه وأهله في الدنيا والآخرة ﴿قُلْ﴾ يا محمد لكل من أشرك مع الله غيره في عبادته: ﴿إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ حقًّا هم الذين صاروا إلى نار جهنم مخلدين فيها، فهم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ فتسببوا لها في الهلاك والعذاب، وحرموها الأجر والثواب، وهم يظنون أنهم يَلْقَوْن في الآخرة ألوانًا من النعيم، فهم كالتاجر الذي وضع ماله في تجارة لتنمو وتزداد فخسر رأس ماله، فلم يُصِبْ ربحًا، ولم يَبْقَ له ماله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ [الأعراف].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ۝١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [المؤمنون].

ثم إنهم خسروا أيضًا زوجاتهم وبنيهم ومَنْ يعولون، فأوْردُوهم الموارد، حيث كانوا

---

(١) من حديث أبي ذر في «صحيح مسلم» برقم (٢٥٧٧) وأوله (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي..)

لهم قدوة سيئة، ولم ينصحوهم ويؤدبوهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

قال ابن عباس ﷺ: إن لكل رجل منزلًا وأهلًا وخدمًا في الجنة، فإن أطاع الله أُعطي ذلك، وإن كان من أهل النار حُرم ذلك، فخسر نفسه وأهله ومنزله[١].

إنهم خسروا أنفسهم بإلقائها في النار، وحرمانها من النعيم الذي أعده الله لهم لو كانوا طائعين، وخسروا أهليهم لأنه قد حيل بينهم، فقد ذهبوا عنهم بلا عودة.

ألا فانتبهوا - أيها الناس -، فإن هذا هو الخسران الكامل الذي ليس بعده خسران ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ إنه أعظم خسارة، وأوضح عاقبة سيئة.

قال ابن عباس ﷺ: هم الكفار الذين خلقهم الله للنار، وخلق النار لهم، فزالت عنهم الدنيا، وحرمت عليهم الجنة[٢]، وهم في نار مؤبدة يصلون سعيرها يوم القيامة.

وَصْفُ عَذَابِ أَهْلِ النَّارِ

١٦- ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ[٣] فَٱتَّقُونِ[٤]﴾

ولما كان الخسران لأهل النار يشمل الخزي في الموقف، ويشمل غضب الله تعالى على العبد يوم القيامة، ويشمل اليأس من النجاة، ويشمل هلاك الجسد في النار، بيَّن ﷻ أن الخاسرين -لأنفسهم وأهليهم- لهم يوم القيامة قِطَعُ عذاب من النار، كهيئة الظلل المبنية من فوقهم، ومن تحتهم كذلك.

والظلة: هي البناء المرتفع الذي يستظل الإنسان تحته، وسميت النار ظلَّة من باب التهكم؛ لأنها مُحرِقة، والظلة تقي من الحر.

---

(١) «التفسير الكبير» (٢٦/ ٢٥٦).

(٢) من «تفسير الطبري» للآية.

(٣) قرأ رويس بخلف عنه بإثبات ياء (يا عباد) في الحالين، والباقون بحذفها في الحالين ومعهم رويس في الوجه الثاني.

(٤) قرأ يعقوب بإثبات ياء (فاتقون) في الحالين، والباقون بحذفها كذلك.

والظلل: أطباق من نار جهنم تكون من فوقهم ومن تحتهم.

والأصل أن الظلة تكون فوق العبد، وما تحتها يُسمَّى دركات، وذلك لأن ما تحت العبد من النار يكون ظلة لمن تحته، والظلة تشبه السحابة وسقف البيت، وأهل النار يتمنوْن يوم القيامة ما يحجبهم عن النار، فيقال لهم: هذه طبقات النار ودركاتها تُظِلُّكم بِحَرِّها ولَهيبها، وطبقات النار التي تحتهم، هي ظلل لكفار آخرين؛ لأن جهنم دركات بعضها تحت بعض، وفي كل طبقة منها طائفة من طوائف الكفار.

فالنار لهم غطاء وفراش، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

والنار المؤبدة، تحيط بأهلها من كل جانب، وتُغْلَق عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝﴾ [الهمزة].

وهم لا يستطيعون الخروج منها بحال، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢].

وقال جلَّ شأنه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝﴾ [المائدة].

وقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وفي هذا تخويف لمن أشرك مع الله غيره، ولم يتَّبع الرسول الخاتم ﷺ حتى يتداركوا أنفسهم في الدنيا قبل فوات الأوان، ليعلموا أنهم إذا لم يستجيبوا لله ورسوله فتلك عاقبتهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الذي ذكره الله تعالى في الآية سوط يسوق الله به عباده إلى رحمته، وهذا معنى: ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ ليحْذروه، وقد خوَّف الله عباده بالنار ليتقوها بطاعة ربهم، فقال تعالى: ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ باتباع ما أمرتكم به واجتناب ما نهيتكم عنه، حتى تفوزوا برضى الله تعالى وتنجوا من النار، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وهكذا حث الله عباده على سلوك الطريق الموصل إلى جنة الله، وخوفهم من الطرق الموجبة لغضب الله تعالى وسخطه.

مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْمُخْلِصِينَ المُنِيبِينَ إِلَيهِ

وبعد أن بيَّن سبحانه ما أعده للخاسرين من عذاب أليم، أتبع ذلك ببيان ما أعده للمتقين من نعيم مقيم، فقال:

١٧ - ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ[1] ﴿١٧﴾﴾

أي: والذين اجتنبوا طاعة الشيطان، واجتنبوا عبادة غير الله تعالى، وفي هذا إدماج المدح لمن ترك عبادة غير الله تعالى، لأن توجه العبد قد انصرف من عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد القهار، وانصرف من الشرك إلى التوحيد، ومن المعاصي إلى الطاعة، قال تعالى: ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: تابوا إليه وأخلصوا له الدين ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ في الحياة الدنيا بالثناء الحسن والتوفيق من الله تعالى.

وهذا شامل للبشرى في الحياة الدنيا، بالثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، والعناية الإلهية.

ولهم البشرى في الآخرة رضوان الله، والنعيم الدائم في الجنة.

ولهم البشرى عندما يأتيهم ملَك الموت، وعندما يُوضَعُون في القبر، وعندما يخرجون منه، وعند الوقوف للحساب، وعند الجواز على الصراط، وعند دخول الجنة وفي رياضها، ففي كل موقف من هذه المواقف لهم البشارة بالرَّوح والريحان وجنة النعيم.

والطاغوت: اسم لكل ما يُعبَد من دون الله تعالى، فيطلق على الصنم، وعلى جماعة الأصنام، ويطلق على رئيس الكفر، وعلى الشيطان، وعلى كل قويٍّ في الكفر والظلم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿عِبَادِ﴾.

---

(١) قرأ السوسي بإثبات ياء (عباد) حال وصلها بـ (الذين) مفتوحة وصلًا وساكنة وقفًا أو محذوفة، وله حذفها في الحالين، وقرأ يعقوب بإثباتها وقفًا لا وصلًا، والباقون بحذفها في الحالين.

هذا: ولم يعد المكي والمدني الأول (فبشر عباد) آية، وعدها آية غيرهما.

ثم وصف الله سبحانه هؤلاء العباد مبينًا سبب استحقاقهم هذه البشرى، فقال:

١٨- ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

أي: إن الذين يتبعون أرشد الكلام وأحسنه، وهو كلام الله - سبحانه -، ثم كلام رسوله ﷺ، فهم يستمعون إلى الحق والباطل، والإيمان والكفر، والهدى والضلال، فإذا استمعوا إلى ذلك، اتبعوا ما يدعو إلى الحق، وتركوا ما يدعو إلى الباطل، أي: اتبعوا الطيب وتركوا الخبيث.

وهم أيضًا يميزون بين الحسن والأحسن، والفاضل والأفضل، فيتبعون الأحسن والأفضل.

قال ابن عباس ﷺ: هو الرجل يجلس مع القوم، فيسمع الحديث فيه محاسن ومساوئ، فيحدِّث بأحسن ما سمع، ويكف عما سواه[١].

والقول، لفظ عام، يشمل كل قول، وعباد الله، يستمعون إلى كل قول، فيميزون بين ما يجب اتباعه وما يجب اجتنابه، ويميزون بين الحسن والأحسن، فيتبعون الأحسن، وأحسن الكلام على الإطلاق هو كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ.

وهذا ثناء من الله تعالى عليهم بنفوذ بصائرهم، فإذا سمعوا قولًا تأملوه، وعملوا بأحسنه، وخير الهدْي هَدْيُ رسول الله.

قال ابن عباس ﷺ: لَمَّا أسلم أبو بكر جاءه عثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، فسألوه فأخبرهم بإيمانه، فآمنوا، فنزلت فيهم.

وقيل: نزلت في زيد بن عمرو، وأبو ذر، وسلمان الفارسي، كانوا في الجاهلية يقولون: لا إله إلا الله[٢].

ثم بيَّن سبحانه أن مَنْ أخلصوا العبادة لله وحده، ورجعوا إليه بالتوبة والإنابة، هم الذين وفقهم الله للهدى، وتهيأت نفوسهم لقبوله ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: وفقهم للرشاد والسداد، ووفقهم لأحسن الأعمال والأقوال ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي:

---

(١) «تفسير الكشاف» (٤/ ١٢١) والقرطبي (١٥/ ٢٤٤) وابن عطية (٤/ ٥٢٥).

(٢) «تفسير الخازن» (٤/ ٥٢) وابن عطية (٤/ ٥٢٥).

أصحاب العقول السليمة التي تهيأت للاهتداء بما فطرهم الله عليه، فحصول الهداية لا بد له من فاعل وقابل، فالفاعل هو ﴿ٱللَّهُ﴾ والقابل ﴿هُمْ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وفي هذا دليل على تفاوت العقول، وتفاوت قبولها واستجابتها.

والذي لا يميز بين الحسن والقبيح ليس من أولى الألباب، لأنه غلّب شهوته على عقله.

والآية عامة في كل من عبد الله تعالى وأناب إليه، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهو ثناء من الله تعالى عليهم، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ.

وكأن الله تعالى لَمَّا مدح الذين يتبعون أحسن القول، قيل: ما أحسنه، فكان الجواب: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر]

الكَافِرُ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ، وَالتَّقِيُّ فِي رَوضَاتِ الجَنَّاتِ

١٩- ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾

وبعد أن بيَّن سبحانه المستحقين للبشرى في الدنيا والآخرة ممن هداهم الله تعالى، لرجاحة عقولهم وانتفاعهم بها، ذكَر مَن سواهم من المشركين الجاحدين للتوحيد، المنكرين لرسالة محمد ﷺ، الذين لم يَهْدِهُم الله - سبحانه -، ولا ألباب لهم، فحُرموا من النعيم الخالد، لعدم قيامهم بالطاعة، التي هي سبب هذا النعيم.

ولَمَّا كان النبي ﷺ شديد الحرص على هداية قومه، شديد الحزن على إعراضهم وضلالهم، فقد وجَّه الله تعالى له الخطاب ليُعْلمه أن من سبق عليه القضاء وحقت عليه كلمة العذاب، لا يقْدر الرسول على إنقاذه من النار، بأن يجعله مؤمنًا في الدنيا، أو يخرجه من النار يوم القيامة، قال تعالى:

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: أفمن وجبت عليه كلمة الله التي تقضي بأن الكافر يُعذَّب في النار، ويخلَّد فيها إن مات مصرًّا على كفره، أفأنت تَقْدِر على هدايته؟!

وكلمة العذاب هي قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] أي: الكافرين منهم، وكلام الله تعالى في كتابه يقضي بأن الكافر يَلْقى يوم القيامة جزاء

كُفره واستمراره على غيِّه وعناده.

والاستفهام في أول الآية لتقرير أن المشرك لا يستوي مع المؤمن، وهذه هي المقابلة الثانية في السورة، والجواب -وهو المقابل- محذوف لدلالة السياق عليه، وتقدير الكلام: أفأنت تقدر على هدايته؟ وإذا كنت لا تقدر على هدايته، فإنه لا حيلة لك في هدايته ولا في إنقاذه من النار.

كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

وقال سبحانه: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝﴾ [الملك].

إن من أحاطت به خطيئته ليس باستطاعة أحد أن ينقذه من مصيره الأليم؛ لأنه قد سبق في علم الله تعالى أن هذا العبد سيختار الكفر على الإيمان، فهو من أهل النار، فلا يمكنك -أيها الرسول الكريم- أنت ولا غيرك أن تنقذه من النار، وفي مقدمة هؤلاء من مات على الكفر من عشيرة النبي ﷺ كأبي لهب وولده، كما قال ابن عباس ﵄.

وقد أفادت هذه الآية أن كلمة العذاب قد حقَّت على من كان الكفر كامنًا في قلبه، فهو لن يؤمن، وحِرْص النبي ﷺ على هدايته يشبه حال من أسقط نفسه في النار، فجاء آخر يحاول إنقاذه من باب الشفقة عليه، ولكنه لا يستطيع.

والإنقاذ من النار، يوحي بالانغماس والسقوط فيها، وأنها قد أحاطت وأحدقت به من كل جانب، وهناك من يحاول إنقاذه!! إنها صورة عجيبة، يوضحها قول النبي ﷺ في حديث أبي هريرة ﵁: **«إنما مثلي ومثل الناس، كمثل رجل استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفَراش وهذه الدوابُّ التي تقع في النار يقعْن فيها، فجعل ينزعهنَّ ويغلبْنهُ فيقتحمْن فيها، فأنا آخذ بحُجَزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها»**[1].

أما عن نعيم أهل الجنة فقد قال تعالى:

---

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري برقم (٣٤٢٦، ٦٤٨٣) ومسلم برقم (٢٢٨٤).

٢٠- ﴿لَكِنِ[١] ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ[٢] وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

أي: وإذا كان هذا حال من حقت عليه كلمة العذاب فما هو حال الذين اتقوا ربهم؟ إن الفرق كبير بين من اجتنب عبادة الطاغوت وبين مَن عبَد الطاغوت، وهو الفرق ذاته بين من اتبع أحسن القول ومن اتبع أسوأه، وبين أهل الهدى وأهل الضلال، وبين المنتفعين بعقولهم وغير المنتفعين بها.

ولذا: فإن الله تعالى أتى بحرف الاستدراك ﴿لَكِنِ﴾ للإشعار بالتضاد بين الحالين.

والجنة درجات بعضها فوق بعض، **والغرف**: ما كان من المساكن مرتفعًا عن الأرض، محكم البناء، فالمتقون لهم منازل عالية في الجنة في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

والذين اتقوا ربهم هم أهل طاعته وعبادته، وهم الذين أنابوا إلى الله تعالى وأخلصوا له، واهتدوا بهديه، فاتبعوا أحسن القول، واجتنبوا الشرك وأهله.

وكما أن أهل الضلال ﴿مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ فإن لأهل الهدى والإيمان في الجنة، غرف أي منازل عالية مزخرفة من فوقها غرف، ودرجات عالية، وقصور شاهقة بعضها فوق بعض، مبنيَّة من الزبرْجد والياقوت، وهي من حُسْنها وبهائها يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها.

في حديث أبي مالك الأشعري ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن في الجنة غرفًا يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى والناس نيام**»[٣]

---

(١) قرأ أبو جعفر بنون مفتوحة مشددة في (لكن) على أنها عاملة، و(الذين) اسمها في محل نصب، والباقون بنون ساكنة مخففة، مع تحريكها وصلًا بالكسر تخلصًا من الساكنين، على أن (لكن) مخففة مهملة و(الذين) مبتدأ.

(٢) عدّ المكي والمدني الأول (الأنهار) آية، ولم يعدها غيرهما.

(٣) أحمد في «المسند» (٢/١٧٣)، (٥/٣٤٣) برقم (٢٢٩٠٥) بإسناد حسن كما قال محققوه، وهو في «مصنف عبد الرزاق» برقم (٢٠٨٨٣) والبيهقي في «الشعب» (٣٨٩٢) والطبراني في الكبير (٣٤٦٦) وابن خزيمة (٢١٣٧) والحاكم في «المستدرك» (١/٣٢١) من حديث عبد الله بن عمرو وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وهي غرف في الجنات تجري من تحت أشجارها وقصورها ﴿ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ من غير أخدود، وهذه الأنهار تخترق أُسُس الغرف فتمرُّ فيها وفي ساحاتها، وبساتينها وأشجارها.

وقد وعد الله تعالى عباده المتقين هذا الوعد، ووعْده لا يتخلف.

جاء في الصحيحين، وغيرهما، عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن أهل الجنة يتراؤون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراؤون الكوكب الدريَّ الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم**»، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «**بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين**»(١)

والغابر: هو الباقي في الأفق في ناحية المشرق أو المغرب.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: قلنا: يا رسول الله، إنا إذا رأيناك رقَّتْ قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا فارقناك أعجبْتنا الدنيا، وشَمَمْنا النساء والأولاد، قال: «**لو أنكم تكونون على كل حال، على الحال التي أنتم عليها عندي، لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم في بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم**»، قلنا: يا رسول الله، حدثْنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «**لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وبلاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، مَنْ يدخُلها ينْعم ولا ييْأس، ويخلُد ولا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تُحمل على الغمام، وتُفتح لها أبواب السموات، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنَّكِ ولو بعد حين**»(٢).

---

(١) البخاري برقم (٦٥٥٥، ٦٥٥٦) ومسلم برقم (٢٨٣٠، ٢٨٣٢) وأبو يعلى (٧٥٢٨) والطبراني (٥٧٤٠) و«المسند» (٥/ ٣٤٠) برقم (٢٢٨٧٦). إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) «المسند» (٢/ ٣٠٤) برقم (٨٠٤٣) حديث صحيح بطرقه وشواهده كما قال محققوه، والترمذي برقم (٣٥٨٨) وابن ماجه برقم (١٧٥٢) قال محققوه: وهو حديث حسن كما قال الترمذي، وأخرجه عبد بن حميد (١٣٢٠) وابن حبان (٧٣٨٧)..

مَثَلَانِ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى

المَثَلُ الأَوَّلُ: إِحْيَاءُ الأَرْضِ بَعْدَ مَوتِهَا بِالمَاءِ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ

٢١- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾

وبعد أن ذكر سبحانه أحوال المشركين والموحدين ضرب للفريقين مثلين في غاية الوضوح؛ **المثل الأول منهما يمرّ بأربعة مراحل**: :

المرحلة الأولى: إنزال المطر من السماء وإدخاله في جوف الأرض:

ألم تُبْصر -أيها المخاطب- أن الله تعالى أنزل بقدرته من السحاب مطرًا، فأدخله في الأرض، وجعله مياهًا جارية، وعيونًا نابعة على وجه الأرض، أو مخزونًا في جوفها.

قال ابن عباس ﷺ: ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء، ولكن عروق في الأرض تغيره.

وفيه دليل على أن ماء العيون من المطر تحبسه الأرض، ثم ينبع شيئًا فشيئًا، والماء ضروري لكل كائن حي من: الإنسان والحيوان والنبات:

المرحلة الثانية من مراحل تأثير الماء في النبات وهي **إخراج الزرع من هذا الماء**، مختلف الأشكال والأنواع والألوان، من: أحمر وأبيض وأسود وأصفر، وأصناف مختلفة من: بُقول وفواكه وخضروات وغير ذلك، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾.

أما المرحلة الثالثة فهي أن هذا الزرع يصاب بعد ذلك **بالجفاف والذبول** والضمور، فيصفر وييبس بعد اخضرار ونُضْرة، وهذا معنى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ وقد ذهبت خضرته ونضارته فذبُل واصفرّ.

وتأتي **المرحلة الرابعة** والأخيرة وهي مرحلة **الهشيم والتكسر والتفتت** ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أي: بعد أن استوفى أجله، وأدّى دوره، أصبح كهشيم المحتظر.

وقد شبهت الآية حياة الإنسان، بالحياة الدنيا، فمهما طال عمر الإنسان فلا بد من الانتهاء إلى مرحلة يصير فيها مصفرَّ اللون، متحطم الأعضاء، متكسرًا، كالزرع بعد نُضرته، ثم تكون عاقبته الموت، وكما أحيا الله الأرض بعد موتها يحيي الخلق بعد موتهم.

قال ابن كثير: هكذا الدنيا تكون خضرة ناضرة حسناء، ثم تعود عجوزًا شوهاء، وكذلك الشاب يعود شيخًا هرمًا، كبيرًا ضعيفًا، وبعد ذلك كله الموت، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير[1].

وفي الآية تمثيل لأطوار خلق الإنسان، من نطفة إلى شباب إلى شيخوخة، وهو مثال يصلح لتقريب البعث بإخراج النبات من الأرض بعد نزول الماء عليه، وكذلك عودة الإنسان بعد فنائه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح].

وقد اشتملت هذه الآية على **سبعة أدلة على قدرة الله تعالى** وهي:

١- إنزال الماء من السماء. ٢- إدخاله في جوف الأرض.

٣- جعله ينابيع في الأرض، يُستخرج منها بسهولة.

٤- إخراج الزرع به. ٥- جعل الزرع مختلف الألوان، وهو يسقى بماء واحد.

٦- جفاف الزرع بعد خضرته.

٧- يبلغ الزرع من اليبس حدَّ التحطُّم والتكسُّر والتساقط.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: إن في عجيب خلق الله تعالى وعظيم قدرته لعبرة وعظة، وآيات دالة على وحدانيته تعالى لكل عقل مستنير، فلا يبقى عنده شك في أن الله تعالى قادر على البعث والنشور.

ولهذه الآية نظائر في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٩٣).

خمس حالات لضرب هذا المثل في القرآن والسنة، وهي:

(أ) إنزال القرآن على النبي ﷺ، واهتداء المؤمنين به، ووعد الله تعالى بإظهاره على الدين كله.

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين: أن النبيَّ ﷺ قال في حديث أبي موسى ﵁: **«مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضًا، فكان منها نقية قَبِلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقُه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هُدَى الله الذي أُرسلتُ به»**[1].

(ب) وتُضْرَب هذه الآيات أيضًا مثلًا يُستدلّ به على تفرُّد الله تعالى بالخلق، ومن ثَمَّ استحقاقه تعالى للعبادة دون سواه، كما في آية سورة الزمر ٢١.

(ج) كما تُضْرَب مثلًا للحياة الدنيا وأطوارها وسرعة زوالها، كما في آية سورة الحديد ٢٠.

(د) وتُضْرَب آيات القرآن مثلًا لأطوار خلق الإنسان من جنين إلى صبي إلى شاب إلى كهل إلى شيخ هرم، كما في آيتيْ سورة الحج ٥، ٦.

(هـ) وتُضْرَب مثلًا كذلك لتقريب البعث إلى عقول الناس، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [فصلت: ٣٩]

فهذه خمس حالات لضرب هذا المثل في القرآن.

المَثَلُ الثَّانِي: إِحْيَاءُ الْقُلُوبِ بِالْوَحِيِ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى

٢٢- ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

وكما ينزل الماء من السماء فتحْيا به الأرض بعد موتها، كذلك ينزل وحي الله تعالى من السماء فتنشرح له القلوب الحية، ويدبُّ فيها نور الإيمان، وتنقبض منه القلوب القاسية، فلا تزداد إلا قسوة، فهل يستوي من اتسع صدره، وانشرح قلبه، وقرت عينه،

(١) من حديث أبي موسى في البخاري برقم (٧٩) ومسلم برقم (٢٢٨٢).

بتلقى أحكام الله تعالى والعمل بها، فكان على بصيرة من أمره، وهداية من ربه، بمن كان قلبه قاسيًا، لا يلين لكتاب ولا سنة؟

لقد نفى الله - سبحانه - التسوية بين المؤمن والكافر، والمهتدي والضال في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ والجواب محذوف دل عليه السياق، أي: كمن حقت عليه كلمة العذاب، فهو في ظلمة الكفر.

ومعنى شرح الصدر: توسعته وتفتُّحه لقبول الحق والهدى، فيسعد بالإسلام، ويؤمن به وينقاد له، فيصبح على بصيرة من أمره وهُدًى من ربه، فهل يستوي هذا بمن ليس كذلك ممن قسا قلبه وغلظ، وأصبح أسيرًا للظلمات والأوهام؟!

والذين شرح الله صدورهم: هم المتقون، أهل الغرف في الجنات والدرجات العالية.

والقاسية قلوبهم: هم الذين حقت عليهم كلمة العذاب.

والويل والهلاك لمن قسا قلبه، وأعرض عن ذكر الله ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾ وهم الذين لم يشرح الله صدورهم للإسلام، فلم تجد دعوة الخير مسلكًا إلى قلوبهم، فإذا قرئ عليهم القرآن اشمأزت قلوبهم، وازدادت قسوة وإعراضًا، وتجددت كراهية الإسلام في قلوبهم.

فذِكْرُ الله تعالى -وأعظمه قراءة القرآن- من شأنه أن تطمئن له قلوب المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

أما غليظ القلب فإنه لا يزداد إلا وَبَالًا وخسرانًا كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء].

ومن كان ذِكْر الله تعالى سببًا في قساوة قلبه فهو في ضلال بيِّن ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قد تمكَّن الضلال من قلبه وكان سببًا في كراهيته للدعوة والدعاة.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام].

ومثلُهما مثلُ الحي والميت، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

روى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن مسعود ﷺ قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قلنا: يا رسول الله، كيف انشراح الصدر؟ قال: «**إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح**»، قلنا: يا رسول الله، فما علامة ذلك؟ قال: «**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت قبل نزوله**»[1].

وقال مالك بن دينار: ما ضُرِبَ عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب، وما غضب الله على قوم إلا نزع منهم الرحمة.

قيل: إن هذه الآية نزلت في أبي بكر وأُبَيِّ بن خلف.

وقيل: نزلت في عليٍّ وحمزة وأبي لهب وولده.

وقيل: نزلت في رسول الله ﷺ وأبي جهل[2].

جاء في حديث ابن عمر ﷺ عن رسول الله ﷺ: «**لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله تورث قسوة القلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي**»[3].

والمعرضون عن آيات الله تعالى في ضلال بيّن، وشقاء لا ينقطع، وتعاسة لا تزول.

خَمْسَةُ أَوْصَافٍ لِأَحْسَنِ الحَدِيثِ

٢٣- ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ[4]﴾

تشير الآية إلى أن عدم تأثير القرآن في القلوب القاسية ليس لنقص في هدايته، وإنما هو

---

(١) الطبري (٨/ ٢١) وأخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» عن ابن عمر، وأخرجه ابن مردُوَيْه كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٢٠٢)، وهو في تفسير البغوي للآية.

(٢) «تفسير الخازن» (٤/ ٥٣) وابن عطية.

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٢٤١١) وقال: حسن غريب، والبيهقي في «الشعب» (٤٦٠٠) وغيرهما، وهو في «ضعيف سنن الترمذي» برقم (٤٢٣).

(٤) قرأ ابن كثير بإثبات الياء وقفًا في (هاد) وحذفها وصلًا، والباقون بحذفها في الحالين.

للصدأ الذي ران على قلوبهم وعقولهم، فجعلها لا تعي ولا تنتفع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ [البقرة].

والقرآن هدى للمتقين، تلين له قلوب الذين يخشون ربهم فيزيدهم خشوعًا وإيمانًا.

وقد وصف الله سبحانه القرآن العظيم **بخمسة أوصاف** في هذه الآية، فهو كتاب من عند الله، فيه وحي الله إلى خلقه:

الوصف الأول: أنه أحسن الحديث على الإطلاق، لأنه كلام الله، وأحسن الكتب المنزلة من عند الله، وهو هدىً ونور، وشفاء لما الصدور، وموعظة للمتقين، لِمَا فيه من الخيرات والبركات، وهو القرآن العظيم المشتمل على أفضل الأخبار، من المعاني النافعة، الجامعة لأصول الإيمان، والتشريع، والآداب، والنظر والاستدلال، فهو أحسن الحديث من جهة المعنى، وأحسن الحديث من جهة اللفظ؛ لأنه أفصح الكلام وأجزله وأبلغه، وهو منزَّه عن التناقض والاختلاف، جمع أخبار الأولين والآخرين.

وسُمِّيَ القرآن حديثًا؛ لأن النبي ﷺ كان يحدِّث به قومه، ويخبرهم بما ينزل عليه، ولِمَا اشتمل عليه من أخبار الأمم، والوعد والوعيد، قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠].

وقال سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف].

قال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النجم].

وقال سبحانه: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤].

عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال أصحاب رسول الله ﷺ: لو حدثتنا؟ فأنزل الله ﷻ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [٢٣] فقالوا: لو قصصت علينا؟ فنزل ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] فقالوا لو ذكَّرتنا؟ فنزل ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1] [الحديد: ١٦].

---

(١) أخرجه البزار (١١٥٢) وأبو يعلى (٧٤٠) والطبري (٨/١٣) وابن أبي حاتم (٢٠٩٩/٧) وابن حبَّان (٦٢٠٩) والحاكم وابن مردويه وابن راهويه كما في «المطالب العالية» (٤٠١٣، ٤٠١٤).

فالله تعالى نزَّل أحسن الحديث، وأكملَه وأعلاه، وأروعه وأصدقه.

الوصف الثاني: أنه كتاب، وسمي كذلك لأن كُتَّاب الوحي كتبوه عند نزوله، والكِتَاب هو الكلام المقروء من السطور، المشتمل على الآيات والسطور، ليبقى حجة على مر الزمان، محفوظًا على حالته من غير تحريف ولا تغيير.

الوصف الثالث: أن كلماته متماثلة متشابهة في فصاحة الألفاظ وشرف المعاني، يشبه بعضه بعضًا في الفصاحة والبلاغة والتناسب، بلا تعارض ولا تضاد، ومعانيه متشابهة في الصحة والصدق والهداية، وقيام الحجة، وتبكيت الخصوم، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء].

فهو متشابه في حُسنه وإحكامه وائتلافه وعدم اختلافه، يفسر بعضه بعضًا، ويدل بعضه على بعض، ويُرَدُّ بعضه إلى بعض.

فالتشابه في هذه الآية بمعنى أن بعضه يشبه بعضًا في حسنه، أما الاشتباه الذي في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾ فإن هذا الاشتباه يزول برده إلى المحكم.

الوصف الرابع: أنه قرآن ﴿مَّثَانِىَ﴾ تُثَنَّى فيه القصص، والأحكام، والحُجَج، والبينات، والمواعظ، والأخبار، والقضاء، والفرائض، والحدود، والوعد والوعيد، والأسماء والصفات وصفات أهل الخير وصفات أهل الشر، فهي تثنى وتكرر، ولا تُملُّ على كثرة التكرار، وإنما يزداد المؤمن حُبًّا له وتعلقًا به، والإكثار من تلاوته وسماعه يزيده حلاوة، وكلما ردَّدهُ المسلم رآه غضًّا طريًّا، بخلاف سائر الكلام، وقد شهد بهذا الأعداء.

قال الوليد بن المغيرة حين سمع من النبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾.

قال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة.

وحكمة التكرار في القرآن أنه كتاب يُقصد منه الهداية، والهداية يلزمها إعادة الوعظ والنصيحة، بأساليب متعددة لترْسَخ في القلوب، وهذا حال أهل الإعلام عندما يريدون التركيز على بعض المفاهيم، فيكثرون من عرضها على الناس في صور متعددة وأوقات متوالية.

وكما أن الأشجار تذبل وتصفرّ وربما تلفت، إذا لم تُسْق بالماء، وكلما تكرر سَقْيُها أينعت وأثمرت، فكذلك القلوب تحتاج دائمًا إلى التذكير والوعظ والإرشاد، فإذا ذُكرت الجنة والنار -مثلًا- في القرآن مرة واحدة، فإنها تمرُّ مَرَّ الكرام، ولا تترك أثرًا في النفس، كما تتركه الإعادة والتكرار بين الحين والآخر، حيث يحصل الغرض، والنتيجة المطلوبة من الترغيب والترهيب والوعظ والزجر.

الوصف الخامس: أنه كتاب ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ لما فيه من التخويف والوعيد ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، عند ذكر الرجاء والترغيب.

قال قتادة: هذا نعْتُ أولياء الله، نعتهم الله، فقال: تقشعر جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم الله بذهاب عقولهم، والغشيان عليهم، لأن هذا في أهل البدع، وهو من الشيطان[1].

وقال ابن جريج: إذا سمعوا ذكر الله والوعيد اقْشعرُّوا، وإذا سمعوا ذكر الجنة واللين يرجون رحمة الله.

ولا بد لمن يذكر الله تعالى أن يوافق قوله عمله.

عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: جئت أبي، فقلت: وجدت قومًا، ما رأيت منهم خيرًا قطُّ يذكرون الله، فيرْعَدُ أحدهم حتى يُغشى عليه من خشية الله، فقال: لا تقعد معهم، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتلو القرآن فلا يصيبهم هذا من خشية الله، أفتُراهم أخشى لله من أبي بكر وعمر؟[2].

وجاء في الأثر: أن أُبَيَّ بن كعب ؓ قرأ عند النبي ﷺ فرقَّت القلوب، فقال ﷺ: **«اغتنموا الدعاء عند الرقة؛ فإنها رحمة»**[3].

وقال الزجاج: إذا ذُكِرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله، أي: تقشعر جلودهم، وتخشع قلوبهم من آيات الزواجر والنذر، وتلين جلودهم وقلوبهم من آيات

---

(١) عبد الرزاق (٢/ ١٧٢) وابن عطية (٤/ ٥٢٨).

(٢) ذكره السيوطي في «الدر» (١٢/ ٦٥٠) عن الزبير بن بكار في «الموفَّقيَّات».

(٣) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٥٢٨). وهو أثر ضعيف كما في مسند الفردوس للديلمي برقم (٤٤٠).

الرحمة والمغفرة، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

وقد جمعت الآية بين الجلود والقلوب؛ لأن الجلد إذا اقشعرَّ وجَلَ القلب.

ولين الجلود والقلوب كناية عن السرور والارتياح وعودتها إلى حالتها التي كانت عليها قبل القشعريرة، فالمؤمنون تأخذهم قُشعريرة عند سماع القرآن، وتضطرب له جلود الذين يخافون ربهم، تأثرًا بما فيه من ترهيب ووعيد، ثم تلين له الجلود والقلوب، استبشارًا بما فيه من وعد وترغيب، فإذا ذُكرت آيات الوعيد والعذاب اقشعرَّت جلود الخائفين لله، وإذا ذكرت آيات الوعد والرحمة لَانَت جلودهم وسكنت قلوبهم.

عن العباس بن عبد المطلب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تعالى تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها**».

وفي رواية: «**حرَّمه الله تعالى على النار**»[1].

وعن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجدَّتي أسماء بنت أبي بكر الصديق ﷺ: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله ﷻ، تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم، قلت: فإن ناسًا ها هنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية، قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم[2].

هذا: والمؤمنون يخالفون غيرهم عند سماع القرآن من **ثلاثة وجوه**:

أحدها: أن سماع المؤمنين هو تلاوة الآيات، وتدبرها والعمل بما فيها، وسماع غيرهم نغمات وأصوات قينات.

ثانيها: أن المؤمنين إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدًا وبكيًا، بأدب وخشوع، وغيرهم يكونون لاهين غافلين، مشتغلين غير مُصْغِين ولا فاهمين.

ثالثها: أن المؤمنين يلزمون الأدب عند سماع القرآن، وغيرهم يصرخ ويتكلف ويصفق،

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ٣٩٥) والرواية الثانية عن أبي بن كعب.

(٢) ابن عساكر (٦٩/ ١٩).

كما قال تعالى في وصف الكافرين: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

وفي الآية وصف للقرآن بالجلالة والروعة في قلوب سامعيه لِمَا فيه من المواعظ التي تَوْجلُ لها القلوب، وتتأثر منها النفوس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال].

ويحملهم هذا التأثر على الامتثال والعمل، كما ذكرت الآية.

بل وحملت آيات القرآن غير المسلمين على الدخول في الإسلام لأول وهلة، فهذا جبير بن مطعم كاد قلبه أن يطير لَمَّا سمع آية من كتاب الله، ولم يسعه إلا الدخول في الإسلام، قال جبير: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ إلى قوله ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [٣٥-٣٧] قال: كاد قلبي أن يطير، وذلك أول ما وَقر الإسلام في قلبي[(١)].

ومنهم من لم يُسْلِم، ولم يقْوَ على مواصلة سماع القرآن، فهذا عُتْبة بن ربيعة كلَّم النبي ﷺ في الكف عن سب أصنامهم، وعرض على النبي ﷺ أمورًا يساومه فيها على ترك الدعوة، فلما فرغ عتبة من كلامه قرأ عليه النبي ﷺ أول سورة (فصلت) إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [١٣] فوضع عتبة يده على فم النبي ﷺ، وناشده الرحم أن يكف.

ومن نتائج التأثر بالقرآن أن المؤمنين عند تعاقب آيات الرحمة بعد آيات الرهبة تلين جلودهم بعد القشعريرة، فترجع الجلود إلى حالتها السابقة قبل القشعريرة.

وهذا التأثر بالقرآن هداية من الله تعالى لعباده، والله يهدي بالقرآن من يشاء من عباده ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ كما قال تعالى ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ المائدة: ١٦] ومن يضلله الله عن الإيمان بهذا القرآن لكفره وعناده، فما له

(١) البخاري (٧٦٥، ٤٨٥٤) وهذا لفظ الأخير، ومسلم (٤٦٣) والطبراني في الكبير (١٤٩٥) وأبو داود (٨١١) وابن ماجه (٨٣٢) و«المسند» (١٦٧٣٥، ١٦٧٧٣)وابن حبان (١٨٣٣) و«سنن النسائي الكبرى» (١٠٦١) وابن حبان (١٨٣٣) مختصرًا في بعض الروايات مطولًا في بعضها.

من هادٍ يهديه ويوفقه، وهذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، إذ لا طريق للوصول إلى الهدى إلا بتوفيق الله تعالى، والله تعالى يوفق من كان فيه استعداد للقبول، أما غير المستعد لقبول الإيمان، فهو المتسبب لنفسه في الضلال، قال تعالى ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة] ففسقه سبب ضلاله.

فِي وَصْفِ عَذَابِ الْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

٢٤- ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

أفيستوي من هداه الله لطاعته ووفّقه لدار كرامته، بمن كان على ضلال واستمرار في عناده حتى قدم على ربه ولقى جزاءه عمله، فأخذ يتقي النار بوجهه لأنه قد غُلَّت يداه ورجلاه، وهكذا.

وهكذا: نفى سبحانه المساواة بين من شرح الله صدورهم للإسلام، ومن قست قلوبهم، فلا يستوي من يُجَرُّ على وجهه في النار بمن يُنعَّم في الجنة.

فبيَّن جلَّ شأنه أن من أضله الله لكفره يُلقى في النار على وجهه يوم القيامة، فلا يحول بينه وبينها حائل، ويُلقى في النار مغلولًا مقيدًا، فلا يتهيأ له أن يتقي النار إلا بوجهه؛ إذ ليس في وُسعه أن يضع يده على وجهه وقاية له، كما هي عادة الناس، فيده مغلولة، والوجه أعلى الأعضاء وأشرفها، وهو مجمع الحواس.

قال مجاهد: يُجر الكافر على وجهه في النار.

وقيل في المعنى: إن الكافر يقابل النار بجميع جوارحه، ولا يزال العذاب نازلًا به حتى يأتي على وجهه، وهو أشرف الجوارح والحواس، فهو يَلْقَى النار بكل شيء حتى بوجهه ومنخره.

ولفظ: (مَن) في الآية اسم موصول مبتدأ، والخبر محذوف، تقديره: أفمن يَجعل وجهه وقاية من عذاب جهنم كمن هداه الله، فهو آمن من العذاب، لا يعتريه شيء من ذلك، ولا يحتاج إلى الاتقاء، بل هو سالم من كل سوء، مطمئن في جنة الله.

والوجه أشرف الأعضاء، فإذا وقع الإنسان في شيء من المخاوف فإنه يجعل يده وقاية لوجهه،

وأيدي الكفار مغلولة يوم القيامة، فإذا أُلقوا في النار لم يجدوا شيئًا يتَّقونها به إلا وجوههم.

وفي هذا دليل على شدة وفظاعة عذابهم، وأن النار تغشاهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم، وتحيط بهم من كل جانب، ويفسر هذا قوله تعالى:

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك].

وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر].

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

فالكافر يُرمى به في النار منكوسًا، مغلولة يداه إلى عنقه، ويُسحب في النار على وجهه لكفره وضلاله، فهل هذا خير أمَّن ينعَّم في الجنة؛ لأن الله هداه؟!

فجواب الاستفهام محذوف دل عليه السياق كما سبق بيانه.

وكل جاحد للتوحيد أو منكر للرسالة الخاتمة يُكبُّ على وجهه في النار إن مات مصرًّا على كفره، ولا يجد وقاية تنجيه من عذاب النار، ويقال لهم: ذوقوا وباشروا وَبَال ما كنتم تكسبونه في الدنيا من معاصي الله. قال تعالى:

٢٥- ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

أي: وكما يحل عذاب النار يوم القيامة بمن جحد وحدانية الله تعالى وكفر بالرسول الخاتم، فإنه يوشك أن يكون مصيرهم في الدنيا كمصير الأمم السابقة التي كذبت رسل الله، فيحل بهم ما حلَّ بأمثالهم.

وفي هذا إنذار ووعيد لهم ليتداركوا أنفسهم بالتوبة قبل حلول الأجل، حتى لا يحل بهم عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ١٠٢].

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الأمم السابقة قبل هذه الأمة، ففاجأهم العذاب وهم آمنون غافلون من حيث لا يتوقعون ولا يخطر لهم على

بال، لقد أتاهم بالزلازل والخسف، كما حدث لقوم لوط، وأتاهم بالغرق في الطوفان، كما حدث لقوم نوح، وأتاهم بالصواعق، كما حدث لقوم صالح، وأتاهم من الجو بالريح العاتية، كما حدث لقوم هود، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف].

وهكذا حدث لقريش في يوم بدر وغيره، وهكذا يحدث لكل من كذب خاتم النبيين ﷺ إلى قيام الساعة، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:

٢٦- ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

وخزي الدنيا يكون بعذاب الاستئصال، وبالذل والهوان، والهزائم والنكبات، ويكون بالخوف والفقر والمرض ونحو ذلك.

وهذا العذاب في الدنيا بخلاف ما ينتظرهم في الآخرة، وهو عذاب أشدُّ وأبقى، ولو كانوا يعلمون أن ما حل بهم كان بسبب كفرهم وتكذيبهم لاتَّعظوا وآمنوا قبل أن يحل بهم ما حل بأمثالهم.

فليحذر المخاطبون من عذاب الله إن كذَّبوا أشرف الرسل وخاتم الأنبياء، فإن ما أعده الله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم من جميع المحن والابتلاءات التي تصيبهم في الدنيا.

الأَمْثَالُ فِي القُرْآنِ

٢٧، ٢٨- ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾

ولما بيَّن سبحانه أن القرآن ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ خص بالذكر أمثال القرآن من بين مزاياه، لِمَا لها من تأثير في نفوس الناس، حيث تُشبَّه الحالة بالحالة، فأخبر سبحانه بأنه ضرب في هذا القرآن أمثال الخير والشر، والإيمان والكفر، بما يُقرب حقائق الأشياء ويوضح معناها:

ولقد وضّحنا وبيَّنا للناس في هذا القرآن من الأمثال النافعة لكل ما يلزمهم في جميع

شؤونهم، وما ينتفعون به في دينهم ودنياهم، وكررنا ذلك بأساليب متعددة، وضربنا لهم من كل مثل من أمثال القرون السابقة تحذيرًا وتخويفًا؛ لكي يتعظوا ويعتبروا؛ فيتركوا ما هم عليه من الشرك والتكذيب.

وما في القرآن من أمثال هو بعض من كل؛ إذ القرآن يشتمل عليها وعلى غيرها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الروم: ٥٨].

وقال أيضًا: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

عن سفيان بن عُيينة قال: أدركتُ مشيختَنا منذ سبعين سنة، منهم عمرو بن دينار، يقولون: القرآن كلام الله ليس بمخلوق[1].

وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: سُئل علي بن الحسين عن القرآن، فقال: ليس بخالق ولا مخلوق، وهو كلام الخالق[2].

ثم وصف الله هذا القرآن بأنه قرآن عربي، سهل المعاني، واضح الألفاظ، لا لَبْسَ فيه ولا غموض، ولا انحراف ولا تعارض ولا تناقض، ولا نقص، وهذه الأمثال ضربها الله تعالى للناس في القرآن ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله فيمتثلوا أمره ويجتنبوا نهيه.

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدخان: ٥٨].

وقال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف].

وفي هذا كمال الاعتدال وتمام الاستقامة.

---

(١) أخرجه البيهقي برقم (٥٢١) وقال محققه: صحيح عن عمرو بن دينار.

(٢) أخرجه البيهقي برقم (٥٣٤) وقال محققه: إسناده حسن.

مَثَلُ المُوَحِّدِ وَالمُشْرِكِ

٢٩- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا[1] لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

ثم أعقب الله تعالى ضَرْب المثلِ في القرآن، بِضَرْبِ مَثَلٍ مجمل، للمؤمن والكافر، أو الموحد والمشرك، فالتوحيد والشرك هما أخطر الأمور وأعظمها.

وخلاصة المثل: أن المشرك يعبد آلهة شتى، فهو يشبه عبدًا مملوكًا لشركاء عدة، يتنازعون فيه، وهو متحير في إرضائهم، كلٌّ له رأي، وكلٌّ له حاجة، وكلٌّ يطلب منه شيئًا يخالف الآخرين، تقاسمتْه الأهواء، واختلفت فيه السبل، فهم ليسوا متفقين على أمر ولا على حالة حتى يمكنه أن يستريح، بل هم متشاكسون متنازعون فيه.

أما الموحِّد الذي يعبدُ ربًّا واحدًا لا إله غيره ولا معبود سواه، فهو يشبه عبدًا مملوكًا لشخص واحد، يعرف مراده، ويعرف ما يرضيه، ليس لغيره عليه من سبيل، فهل يستوي مَن هو في راحة تامة، قد سَلِم من النزاع والشقاق، بمن هو في حيرة واضطراب؟

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ فاضربه -أيها الرسول- مثلا للناس وبيِّنه، فإن فيه محاجة للمشركين وتبكيتًا لهم، لعلهم يعتبرون ويتعظون، فالمشرك يشبه ﴿رَّجُلًا﴾ عبدًا مملوكًا لعدد من الرجال، فهم فِيهِ ﴿شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾.

التشاكس: شدة الاختلاف في استخدامه وتوجيهه، أي: أن هذا العبد يملكه عدد من الناس يتجاذبونه في حوائجهم، ويختلفون عليه في أوامرهم، فهو موزَّع وممزق بينهم، لا يدري من يطيع ومن يعصي، ومن يقدِّم ومن يؤخر؟ هذا مثل المشرك، وهو **المثل الأول**.

أما **المثل الآخر** فهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ أي: يشبه عبدًا خالصًا لرجل واحد، فهو يخدمه بطاعة وإخلاص، وهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة، إذ لا شَرِكة فيه، وهذا مثل الموحِّد.

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (سالما) اسم فاعل، أي: خالصًا من الشركة، وقرأ الباقون (سَلَما) مصدر صفة لـ(رجلًا) مبالغة في الخلوص من الشركة.

فـ ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي: هل يستوي من هو في حيرة واضطراب، يخدم جماعة من الناس، أخلاقهم مختلفة، وأغراضهم متباينة، كل واحد منهم يريد أن يستخدمه ويسخِّره فيما يريد، ولا ينازعه فيه أحد؟ وهذا مثل من يعبد آلهة شتى.

هل يستوي هذا بمن هو مملوك لرجل واحد، فهو في راحة واطمئنان، وهذا مثل من يعبد إلهًا واحدًا، فإذا لم يستوِ الرجلان، فكذلك لا يستوي المؤمن الموحد، بمن يشرك مع الله تعالى غيره.

ولما كان الجواب موافقًا لإقامة الحجة على المستفهم، حَمِد الله تعالى على نهوض حجته، فأثنى الله على نفسه، ليعلِّمنا كيف نثني عليه، فقال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: على وضوح المثل وقيام الحجة، فالثناء الكامل التام لله وحده، ولكن المشركين لا يعلمون ذلك ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أكثر الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحق فيتبعونه.

قال ابن عباس ﷺ: هذه الآية ضُربت مثلًا للمشرك والمخلص، والمقصود من ضرب المثل تبكيت المشركين وتقبيحهم على شركهم، والله تعالى قد ضرب المثل، وأوحى به إلى رسوله ﷺ ليضربه للناس ويبيِّنه لهم.

المَوْتُ نِهَايَةُ كُلِّ حَيٍّ وَفِي يَومِ القِيَامَةِ فَصْلُ القَضَاءِ

٣٠، ٣١- ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾

وبعد إثبات الوحدانية لله تعالى، وإبطال الشرك بأنواعه، يتخول القرآن المناسبة، وينتهز الفرصة لموعظة الناس وإرشادهم، وتذكيرهم بأن الجميع صائر إلى الموت، وأن الحياة إلى زوال، وأن الناس ستبعث وتحاسب وتجازى بأعمالها، وهذا يقتضي المبادرة إلى العمل الصالح، ونبذ الشرك وأهله.

ويبدأ تأثير الموعظة بالتطبيق العملي والقدوة والتأسي، ولذا فإن الله تعالى خاطب رسوله أوَّلًا بأنه صائر إلى الموت حتمًا، كما مات النبيون قبله، وجميع الخلائق صائرون إلى الموت كذلك، وقد سوَّى الله تعالى في الموت بين الناس جميعًا.

وهذه الآية نَعَتْ إلى النبي ﷺ نفسه، وأعلمت الصحابة بأنه ﷺ سيموت، وأن إقامته

فيهم قليلة، وأنه ليس خالدًا بينهم، فقد كان بعضهم يعتقد أنه لا يموت، ووقع استنكار موته من بعضهم يوم أن مات ﷺ، كما أنها نَعَتْ إلى الناس جميعًا أنفسهم، حتى يتوب العاصي، ويُسلم الكافر، ويسارع إلى الإيمان.

فالموت سيأتيك -يا محمد- ويأتيهم جميعًا، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء]

ولا يدري الذين قالوا عن النبي ﷺ: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] أي: ننتظر له الموت، لا يدرون أنهم سيموتون قبله أم بعده، وقد رأى النبي ﷺ مصارع ألدِّ أعدائه يوم بدر.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: دعا رسول الله ﷺ على: أبي جهل، وعتبة، وشيبة ابنَيْ ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد، فوالذي نفسي بيده، لقد رأيت الذين عدَّهم رسول الله ﷺ صرعى في قليب بدر.

فالكل سيموت، ولن يُخلَّد فيها أحد، فلا معنى لاستعجال الموت أو استبطائه، ولا للشماتة به.

وهذه الآية استشهد بها الصديق ﷺ عند موت النبي ﷺ مع قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

تخاصم العباد بين يدي رب العباد:

ثم إنكم - أيها الناس - ستُنقلون من هذه الدار لا محالة، وتجتمعون عند ربكم في الدار الآخرة، وتختصمون بين يدي الله تعالى فيما كنتم فيه في الدنيا تختلفون، من التوحيد والشرك والمظالم، ويجازي كلًّا بما عمل ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] فيفصل بينكم بالحق، حين تحتكمون إليه، فيقتص من الظالم للمظلوم، وتقوم الحجة على الناس جميعًا، بأن الرسول ﷺ قد بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها على المحجة البيضاء، وترك فيها كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ.

والآية عامة في كل المتنازعين والمتخاصمين في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ١٢٤].

عن عبد الله بن الزبير، لما نزلت هذه الآية، قال الزبير: يا رسول الله، أتُكرَّر علينا

الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟ قال: «**نعم**»، فقال: إن الأمر إذًا لشديد[١].

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: كنا نقول: ربنا واحد، وديننا واحد، ونبينا واحد، فما هذه الخصومة؟! فلما كان صِفِّين، وشد بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا: نعم هو هذا[٢].

وعن ابن عمر ﷺ قال: عشنا برهة من الدهر، وكنا نرى أن هذه الآية، نزلت فينا وفي أهل الكتابيْن قبلنا، قلنا: كيف نختصم، نبينا واحد، وكتابنا واحد؟! حتى رأيتُ بعضنا يضرب وجوه بعض، فعرفت أنها نزلت فينا[٣].

ومن ذلك قول علي ﷺ: أنا أول من يجثو يوم القيامة للخصومة بين يدي الرحمن، فيختصم عليٌّ وحمزة وعبيدة بن الحارث مع عتبة وشيبة والوليد[٤].

ويختصم الظالمون بعضهم مع بعض في ظَلاماتهم.

وقال الزبير بن العوام ﷺ للنبي ﷺ: أيكتب علينا ما كان بيننا في الدنيا من خواص الذنوب؟ قال: «**نعم، حتى يُؤدَّى إلى كل ذي حق حقه**»[٥].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لتؤدنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»[٦].

ولما قرأ إبراهيم النخعي هذه الآية، قال: وما خصومتنا ونحن إخوان؟! فلما قُتِل عثمان بن عفان قالوا: هذه خصومة ما بيننا[٧].

---

(١) «المسند» (١/ ١٦٧) وصححه أحمد شاكر برقم (١٤٣٤) قال محققوه: إسناده حسن، رجاله ثقات رجال الصحيح، غير ابن علقمة، فقد روى له البخاري مقرونًا، ومسلم متابعة، وهو صدوق حسن الحديث، وأخرجه البزار (٩٦٤) وأبو يعلى (٦٦٨) والحاكم (٢/ ٤٣٥)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله ثقات «مجمع الزوائد» (٧/ ١٠٠) ورواه الضياء المقدسي في «المختارة» برقم (٨٥٢، ٨٥٦).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٦٥٨).

(٣) النسائي برقم (٤٦٧) و«السنن الكبرى» (١١٤٤٧) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٠٣): رواه الطبراني ورجاله ثقات، والحاكم (٤/ ٥٧٢).

(٤)، (٥) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٥٣٠).

(٦) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٨٢).

(٧) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ١٧٢) وابن جرير (٢٠/ ٢٠٢) وابن عساكر (٣٩/ ٤٩٣).

وعن عقبة بن عامر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أول خصمين يوم القيامة جاران**»[١].

والله ﷻ سيخاصم العباد يوم القيامة في تكذيبهم للرسل، ومخالفتهم لأمر الله تعالى ونهيه، ومن ذلك تخاصم أهل الإيمان وأهل الشرك.

والنبي ﷺ سيخاصم من لم يؤمن به من أمة الدعوة، ويحتج عليهم بأنه قد بلَّغهم وأنذرهم وحذَّرهم، وهم يخاصمونه، والآية عامة تشمل كل هذا.

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه**»[٢].

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**أتدرون من المفلس**»؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «**إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أُخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم طرح في النار**»[٣] والآية عامة في كل خصومة.

أَعْظَمُ الخُصُومَاتِ يَومَ القِيَامَةِ

٣٢- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾

ثم ذكر سبحانه أعظم خصومة يفصل فيها رب العالمين يوم القيامة بين طرفين:

الطرف الأول: كل من أشرك بالله تعالى فنسب إليه الشريك أو الولد، وكل من كذَّب بالقرآن والرسالة الخاتمة، وكل من كذَّب بالوحي المنزل على رسل الله جميعًا، وكل من أخبر عن الله تعالى أو عن رسوله ﷺ كذبًا، وكل من حكم بحكم كذبًا:

---

(١) «المسند» بإسناد حسن (٢٨/ ٦٠١) (١٧٣٧٢) والطبراني (٨٣٦)، وهو حديث حسن.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٤٤٩) وهذا لفظه وانظر: (٦٥٣٤).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٥٨١).

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف].

وهؤلاء هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [٢٤].

والطرف الثاني: هو الرسول محمد ﷺ والقرآن الذي جاء به، وقد جاء ذكر ذلك في الآية التالية، وينسحب هذا على رسل الله جميعًا، كل في زمانه ومكانه.

هذه خصومة بين المشركين بالله تعالى والمكذبين بخاتم النبيين، وبين رسول الله ﷺ، فيكون القضاء يوم القيامة على المشركين الذين كذَبوا على الله تعالى، فجعلوا له الشركاء ونسبوا له الولد والبنات، وكذَّبوا بالقرآن وكذَّبوا صاحب الرسالة ﷺ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان].

ولا يوجد مَنْ هو أظلم منهم، فقد كذَبوا على الله في صفاته، وادَّعوْا أن الله تعالى أمرهم بذلك، وهذا ظلم لمقام الربوبية، ثم ظلموا رسول الله ﷺ بتكذيبه، وظلموا القرآن بنسبته إلى الباطل، وظلموا المؤمنين بالأذى، وظلموا أنفسهم بإلقائها في النار، وليس في وسع السامع القارئ إلا أن يصفهم بالظلم.

ولذا جاء الحكم عليهم بصيغة الاستفهام ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا، بأن نسب إليه ما لا يليق به، فأشرك بالله تعالى في ربوبيته أو ألوهيته، أو قال: أُوحي إليَّ ولم يوحَ إليه شيء، أو ادَّعى أن في وُسعه أن يُنزل مثل ما أنزل الله.

ولا أحد أظلم أيضًا ممن كذَّب بالحق الذي نزل على محمد ﷺ، فردّ الحق بعد ما تبين له، وجمع بين الكذب على الله والتكذيب بالحق.

وقد ختم الله الآية بالحكم عل الفريقين بالكفر، وبيَّن أن مصيرهم إلى جهنم، فهي مسكنهم ودار إقامتهم، أليس في النار مأوى ومسكن يكفي لمن كفر بالله تعالى ولم يصدق محمدًا ﷺ؟! بلى، إن فيها مثوى لهم يكفي لإهانة الكافرين وإذلالهم وتعذيبهم. هذا هو الطرف الأول في القضية، وقد جاء الطرف الثاني يبين:

مَصِيرَ المُتَّقِينَ يَومَ القِيَامَةِ

وذلك في قوله تعالى مبينًا حال المصدق بعد بيان حال المكذب:

٣٣- ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ في قوله وعمله، وأولهم، محمد ﷺ صاحب الرسالة الأخيرة، وَيصْدُق هذا على رسل الله جميعًا، وكل من يحمل لواء الدعوة بعدهم، فهؤلاء قد جاؤوا بالصدق من عند الله تعالى قولًا وعملًا، والصدق هو القرآن، وكل الكتب المنزلة من عند الله تعالى قبل تحريفها.

أما الذين صدَّقوا بالقرآن في أقوالهم وأعمالهم، فهم الذين جمعوا صفات التقوى، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ وفي مقدمة المتقين خاتم الأنبياء والمرسلين، محمد ﷺ والمؤمنون به، والعاملون بشريعته من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، فمن بعدهم إلى يوم الدين، وجميع خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق والتصديق به.

عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: الذي جاء بالصدق محمد ﷺ، والذي صدَّق به أبو بكر، وهو محمول على أن أبا بكر ﷺ هو أول من صدق بالنبي ﷺ.

قال تعالى في بيان ثواب الذين جاؤوا بالصدق وصدّقوا به:

٣٤- ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾

ولما ذكر سبحانه مصير الظالمين في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [٣٢] ذكر هنا مصير المتقين في قوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لهم ما يريدون وما يتمنون من أصناف اللذات والمشتهيات من الحور والقصور، وما لذ وطاب من المطاعم والمشارب والملابس والمساكن، وكل ما يشتهونه من أصناف المتع والملذات، بسبب تصديقهم للحق، واتباعهم ما جاء به محمد ﷺ، كما جاء في الحديث: عن سهل بن سعد ﷺ أن النبي ﷺ قال عن الجنة: **«فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» ثم قرأ** ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ..﴾ الآيتان من سورة السجدة [1].

(١) «المسند» (٢٢٨٢٦) حديث صحيح بإسناد حسن، ومسلم (٢٨٢٥) والطبراني (٥٧٠٦، ٦٠٠٣) وأبو يعلى (٧٥٢٠) والطبري في تفسيره (٢١/ ١٠٦) والحاكم (٢/ ٤١٣).

وفي قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وقوله سبحانه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق].

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهم الذين أطاعوا ربهم حق الطاعة وعبدوه حق العبادة، والإحسان هو كمال التقوى، وقد فسره النبي ﷺ بقوله:

«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١]. قال تعالى:

٣٥- ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

بيَّن - سبحانه - مزيد فضله وإكرامه لعباده المحسنين، فذكر أنه جلَّ شأنه وعدهم بأن لهم ما يشاؤون عند ربهم، ليطمئنوا على أن الله تعالى لن يؤاخذهم على ما سلف منهم من الشرك وسائر المعاصي، فيعفو عنهم ويغفر لهم أسوأ ما عملوه في الدنيا من الإشراك بالله تعالى فما دونه.

فالشرك بالله أعظم الذنوب، وقد سُئل النبي ﷺ: أي الذنب أعظم؟ فقال: **«أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك»**[٢].

وإذا كفَّر الله عنهم الشرك، وكفَّر عنهم السجود للصنم ونحوه، كفَّر عنهم - من باب أولى - ما دون ذلك من الكبائر وغيرها، وهذا أمر عام، فإن الإسلام يجُبُّ ما قبله، والتوبة تجُبُّ ما قبلها، وهذا معنى ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ فالشرك هو أسوأ الأعمال.

وإذا أريد بالآية، أصحاب رسول الله ﷺ وأول من آمن بالوحي، كان المراد بها أن يكفِّر الله عنهم ما عسى أن يعمله أحدهم من الكبائر في الإسلام، ويكون هذا خصوصية لأصحاب رسول الله ﷺ.

وفضلًا عن تكفير السيئات، فإن الله تعالى يكافئهم على طاعتهم في الدنيا بأحسن جزاء، وهو الجنة، فضلًا منه وكرمًا، فالعدل أن تُحسب الحسنات والسيئات، ثم يكون

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٠) و«صحيح مسلم» (٩).

(٢) من حديث عبد الله بن مسعود في البخاري (٤٤٧٧، ٧٥٣٢) ومسلم (٨٦، ١٤٢) وأبي داود (٢٣١٠) والترمذي (٣١٨٢) و«المسند» (٣٦١٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وابن حبّان (٤٤١٤).

الجزاء عليهما، والفضل هو الذي يتجلى الله به على عباده المتقين.

وهذا الفضل معناه: أن الله تعالى إذا كفَّر عنهم أسوأ ما عملوه في الدنيا، بسبب توبتهم وإنابتهم، فإنه لا يبقى في ميزانهم سيئات، ثم يَجزيهم على أعمالهم الصالحة بأحسن الجزاء، فترجُح كفة الحسنات على كفة السيئات، وما وعدهم الله بالجزاء إلا لأنه أراد أن يكفِّر عنهم سيئات ما عملوا، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهو منتهى الفضل والإحسان، حيث عاملهم ربهم بالفضل، ولم يعاملهم بالعدل، وهذا بناء على أن (أسوأ وأحسن) أفعل تفضيل، حيث غفر الله لهم أسوأ الأعمال وكافأهم بأحسن الجزاء، وهو ظاهر المعنى.

ويجوز أن يراد: عدم التفضيل فيكون المراد بالأحسن والأسوأ: السيِّئ والحسن.

والآية تشير إلى أن عمل الإنسان له ثلاث حالات، فهو إما أن يكون: أسوأ، أو أحسن، أو لا أسوأ ولا أحسن، فالأسوء، المعاصي كلها، والأحسن، الطاعات كلها، والثالث هو المتعلق بالمباحات التي لا ثواب ولا عقاب عليها.

أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ، حَتَّى يُعْبُدَ مَعَهُ غَيْرُهُ؟

٣٦- ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ[(١)] وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ[(٢)]﴾

وتمضي الآيات في الحديث عن الشرك وأهله، فيوبخ الله المشركين على شركهم، ويبيِّن لهم أن الله كافيهم، فلماذا يعبدون معه غيره؟ أليس الله هو القوي القاهر فوق عباده؟ فلماذا إذا قيل لهم: اعبدوا الله وحده نفرت قلوبهم، ولم يكتفوا بربهم، فإذا دُعي معه غيره فرحوا واستبشروا؟! ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ حتى يشرَك معه غيره، وفي القراءة الأخرى «أليس الله بكاف عباده» وإذا كان الله مع عبده، فكيف يخاف غيره؟ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ من الأنداد والشركاء أن تنالك بسوء، والضار النافع هو الله سبحانه، وكل ما يُعبد من دون الله لا يملك ضرًّا ولا نفعًا.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف (عباده) على الجمع، والمراد: الأنبياء والمطيعين من المؤمنين، وقرأ الباقون (عبده) على الإفراد، والمراد: النبي ﷺ.

(٢) انفرد الكوفي بعد (فما له من هاد) آية، ولم يعدها غيره.

وفي عصر التنزيل كانت قريش تقول للنبي ﷺ: إنا نخاف أن تخبلك آلهتُنا، وإنا نخشى عليك معرَّتها، أي: نخشى أن تصيبك بمكروه بسبب عيبك إياها.

وفي الحديث: عن ابن عباس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفِعت الأقلام وجَفَّت الصحف**»[1].

ويرشح هذا المعنى ختام الآية ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي: أن من يصرفه الله عن التوحيد إلى الشرك، وعن الحق إلى الباطل لكفره وفساد فطرته، فليس هناك من يهديه بعد الله.

وجاء في أسباب النزول أن النبيَّ ﷺ لَمَّا وجَّه خالد بن الوليد إلى هدْم العُزَّى، قال سادن العزَّى: احذرها يا خالد، فإن لها شدة، فعمد خالد إلى العزَّى، فهشَّم أنفها حتى كسَّرها بالفأس، فأنزل الله الآية[2].

والخوف من الأصنام ونحوها -أن تمسَّ مَنْ يُسيء إليها بضرٍّ- يماثله عقيدة بعض العوام في زعمهم أنَّ بعض أصحاب الأضرحة والقبور، وبعض الأحياء من الناس أو من الجن، تنفع أو تضر.

وبعض أهل هذه الطرق، إذا قلت له: سل الله وحده، لا يرضى، وإن قلت له: ادع الله مباشرة لا يقبل، ويقول: إن الشيخ الفلاني أفضل مني وأقرب إلى الله تعالى، فهو يرفع شكواي إلى الله تعالى؛ لأن دعاءه مقبول وأنا مدنَّس بالذنوب!

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

ويقول أيضًا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات].

إذًا لابد في زعمهم أن يُدْعى معه غيره، وهذا ما تشير إليه الآية ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ

---

(١) «المسند» (١/ ٢٩٣) برقم (٢٦٦٩) إسناده قوي (محققوه) والترمذي برقم (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح، من حديث ابن عباس، وأخرجه أبو يعلى (٢٥٥٦) وابن أبي عاصم في السنة معلقا (٣١٦) والبيهقي في الشعب (١٩٥) وأوله (يا غلام إني معلمك كلمات...).

(٢) من «تفسير البيضاوي» للآية، و«تفسير القرطبي» (١٥/ ٢٥٨).

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

وقيل: إن معنى الآية: أليس الله بكاف عبده محمدًا ﷺ ومؤيده وعاصمه أن يناله أذى من الناس ومن الأصنام، والمعنى الأول هو المناسب لسياق الآيات قبلها وبعدها.

وقد ختمت الآية ببيان أن من يضله الله تعالى، فلا طريق لهدايته، فما هو السبب؟

فَسَادُ الفِطْرَةِ بِالتَّأَثُّرَاتِ الخَارِجِيَّةِ سَبَبُ الضَّلَالِ

٣٧- ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

وإذا كان الذي أضله الله سبحانه لا تحصل له الهداية، فإن مَن هداه الله لا يحصل له ضلال، وقد عُرف الضلال والهدى لكلا الفريقين، بمقتضى علم الله تعالى، فقدَّر على كل منهما ما ركز في قلبه واستعدَّت له فطرته الصحيحة فكانت الهداية، أو استعدت له فطرته التي فسدت بالتأثرات الخارجية فتمكن الضلال منها.

ومن أدلة ذلك قوله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

والمعنى: ومن يضلله الله بسبب فسقه وزيغه عن طريق الهدى وفساد فطرته، فلا هادي له، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف] ومن يوفقه الله للإيمان به والعمل بكتابه واتباع رسوله ﷺ فما له من مضل عن الحق الذي هو عليه، ثم علَّل الله سبحانه كفايته لخلقه، مُنكرًا عليهم الخوف من غيره وعدم الاكتفاء به سبحانه، فقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ فيجازي كُلًّا بما يستحق، وينتقم ممن يستحق، فكيف يُخشَى غير الله؟

والجواب: بلى، إنه سبحانه عزيز قوي، وفي الآية وعد للمؤمنين، ووعيد للكافرين، فاحذوا - أيها الناس - أسباب مقت الله وغضبه وما يوجب نقمته وعذابه.

الكُفَّارُ يَعْتَرِفُونَ بِوُجُودِ الْخَالِقِ الرَّازِقِ وَلَكِنَّهُمْ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ

٣٨- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ(١) ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ(٢) ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾

أقام سبحانه الحجة والدليل على تناقض المشركين، وزيف ما هم عليه من عبادتهم لغير الله تعالى، فهم يقرون بتفرد الله تعالى بالخلق والرزق وتدبير شؤون خلقه، وهم مع ذلك يعبدون غير الله سبحانه، ويلتمسون منه جلب الخير أو دفع الضر.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي: ولو أنك سألت -أيها الرسول- هؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله؛ ولو أنك سألت أهل الضلال الذين يخوِّفونك بالذين من دونه، فأقمت لهم دليلًا من أنفسهم، وقلت لهم: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وما فيهما وما بينهما، ومن يحيي ويميت، ومن يدبر الأمر ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فهم لم يدَّعوا أن آلهتهم خلقت شيئًا منها، فالله هو الذي خلقها، إذ لا يكشف الضر إلا الله، ولا يمسك الرحمة إلا الله، والله تعالى هو الذي خلق الكون، وليس في وسع عاقل ولا في فطرة بشر، أن تقول غير هذا، فهذه حقيقة واضحة، فطَر الله الناس عليها.

قال الرازي: إن العلم بوجود الإله القادر الحكيم، لا نزاع فيه بين الخلائق، وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم، فإن من تأمل في عجائب أحوال السموات والأرض، وفي عجائب أحوال النبات والحيوان، وعجائب بدء خلق الإنسان، وما فيه من الحِكَم الغريبة، والمصالح العجيبة، من تأمل ذلك عَلِمَ أنه لا بد من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم، ولهذا أقر المشركون بوجود الله(٣).

ولما خوَّف المشركون النبي ﷺ من مضرة الأوثان وتخبيلها، أمره الله تعالى أن يقررهم

---

(١) قرأ حمزة بإسكان ياء (أرادني الله)، والباقون بفتحها.

(٢) قرأ أبو عمرو ويعقوب (كاشفاتٌ ضرَّه) بتنوين (كاشفات) ونصب (ضرَّه)، وكذا (ممسكات رحمته) بتنوين (ممسكات) ونصب (رحمتَه)، على أنهما اسم فاعل وما بعده مفعول به، وقرأ الباقون بترك التنوين فيهما وجر الراء والتاء على الإضافة اللفظية.

(٣) «التفسير الكبير» (٢٦/ ٢٨٢) بتصرف يسير.

بأن خالق العالم هو الله وحده، ثم يقول لهم: إن أرادني خالق العالم -الذي أقررتم به- بضر من مرض أو فقر، أو برحمة من صحة أو غنى، هل هذه الآلهة التي خوفتموني إياها تكشف عني هذا الضر أو تمسك عني هذه الرحمة؟

فلما ألقمهم حجرًا بهذه الإجابة، وانقطعت حجتهم، أمره ربه أن يصدع بأن الله وحده كافيه من مضرة الأوثان وغيرها.

فإذا كنتم -أيها المشركون- تقرون بوجود الخالق، وأنه سبحانه المتفرد بخلق هذا الكون، وهذا الخلق من خصائص الله تعالى، فلماذا تعبدون غيره؟ وكيف استحسنت عقولكم عبادة غير الله تعالى، وإشراك المخلوقين مع الخالق في العبادة، وهل تستطيع هذه الآلهة التي تشركونها مع الله تعالى أن تُبعد عني أذى قدَّره الله عليَّ، أو تزيل عني مكروهًا لحق بي؟

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾ أي: أفظننتم ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ أي: ما تعبدون ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من حجر، أو شجر، أو ملَك، أو جن، أو إنسان، أخبروني ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أيَّ ضُرٍّ كان.

﴿هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ أي: هل تستطيع هذه الآلهة أن تدفع عني هذا الضر، أو هذا البلاء وهذه الشدة؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾ في ديني ودنياي، من نعمة وخير وصحة ورزق ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: هل في وسعها أن تمنع عني هذه الرحمة بعد ذلك؟ وعبَّر بـ(كاشفات وممسكات)؛ لأن المشركين الأوائل كانوا يقولون عن اللات والعزى ومناة: إنها إناث!

والجواب، أنهم لا يكشفون الضر ولا يمسكون الرحمة.

يُروَى أن النبي ﷺ لما سأل المشركين هذا السؤال، سكتوا، فأنزل الله[1] يأمر رسوله أن يجيبهم بأمرين:

الأمر الأول: يُعلمهم أنه قد فوَّض أمره فيهم إلى الله تعالى فهو كافيه، وهو حسبه من كل شيء ومن كل ناصر، وهذا شعاره في جميع شؤونه، وعليه يعتمد المعتمدون في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، فالذي بيده الكفاية هو الله، وهو وحده سيكفيني كل ما أهمني، فاصدع بذلك، بعد ما تبين الدليل القاطع على أن الله وحده هو المستحق للعبادة، وأن آلهتهم عاجزة من كل

(١) كما في «تفسير الخازن» و(النسفي) و(الكشاف) و(ابن عاشور) و(ابن عطية) للآية.

الوجوه عن الخلق والرزق والنفع والضر و﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ فهو كافيني وحافظي و﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وهم رسل الله والصالحون من عباده.

وفي هذا تعريض بالمشركين الذين يعتمدون على غير الله سبحانه.

وهكذا قال نبي الله هود عليه السلام لقومه في مواجهة أذاهم وتسفيههم له، فقال:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ [هود: ٥٦].

وفي الأثر: **«من أحب أن يكون أقوى الناس، فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتَّق الله»**[١]. أما الأمر الآخر فقد جاء في الآية التالية:

وَعِيدُ المُكَذِّبِينَ بِخَاتَمِ المُرْسَلِينَ

٣٩، ٤٠- ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ[٢] إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ[٣] ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾

فيامن ارتضيتم لأنفسكم الشرك بالله، استمرُّوا على ما أنتم عليه مِنْ عبادة من لا يستحق العبادة، فأنا مستمر في دعوتكم إلى الله، لإخلاص العبادة له وحده، وسوف تعلمون لمن تكون العاقبة في النهاية؟

هذا هو الأمر الآخر: وهو أن يبلِّغ الرسول ﷺ من كذَّبه من الأمة أنه موادعهم، وهو يستبشر بنصر الله القريب، وإظهار الدين الحق، ويواعدهم ما يحل بهم من عقوبة، وذلك بعد أن بلَغ في وعظه لهم ونصيحته إياهم أقصى مَبْلَغ ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: قل للمعاندين الجاحدين للتوحيد، المكذبين لك: داوموا على حالتكم التي أنتم عليها من عداوتي وعدم اتباعي، فإني مستمر في دعوتكم وتبليغ ما أمرني به ربي، وفي هذا تهديد ووعيد لكم، حيث ارتضيتم لأنفسكم عبادة من لا يستحق العبادة، وليس له من الأمر شيء، وأبلِغهم

---

(١) من حديث ابن عباس في «الحلية» (٣/ ٢١٨) وابن عدي في «الكامل» (٥/ ٢٤١).

(٢) قرأ شعبة (مكاناتكم) بالجمع، والباقون (مكانتكم) بالإفراد.

(٣) انفرد الكوفي بعد (فسوف تعلمون) آية، ولم يعدها غيره.

أنك ستقابل عملهم السيئ بعمل أحسن من جانبك، وداوم على الاستمرار في دعوتهم إلى التوحيد ومكارم الأخلاق، وهذا معنى ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾.

وقد حذف من الكلام متعلقه، أي: اعملوا ما شئتم فإني ثابت على عملي في نصحي لكم ودعوتكم إلى ما ينجّيكم.

ثم توعَّدهم - سبحانه - بالنتيجة المخزية، وهي عذاب عاجل في الدنيا، وعذاب دائم في الآخرة ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مَنْ مِنا يَنْجُو في عمله، ومن منا تكون له العاقبة الحسنة.

أي: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائم في الآخرة، لا يحول عنه ولا يزول، وفي هذا ترهيب ووعيد لهم، لعلهم ينتهون عما هم فيه.

وفي قوله تعالى من سورة الأنعام: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأنعام] لم يذكر الله تعالى فيها عذاب الدنيا؛ لأنه سبق في الآية قبلها في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأنعام].

هَذَا القُرْآنُ كِتَابُ هِدَايَةٍ لِلنَّاسِ كَافَّةً

٤١ - ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم[1] بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

لَمَّا أمر الله رسوله أن يقول للمشركين: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ هوَّن عليه أمرهم وتصميمهم على كفرهم، فثبَّته على دعوته، وبيَّن له أنه سبحانه أنزل عليه هذا القرآن ليهتدي به كافة الخلق، المشتمل على الحق في أخباره و أوامره ونواهيه، فهو مادة الهداية لمن أراد الوصول إلى دار الكرامة، فمن اهتدى به ففائدة هُداه تعود عليه، ومن بقي في ضلاله فوِزْره يعود عليه، فلا تحزن ولا تأس عليهم ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: أنزلنا هذا القرآن بالحق الواضح الذي لا لبس فيه، وهو كتاب يتضمن الحق في أخباره وأحكامه وقصصه ووعده ووعيده..

---

(١) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (عليهم)، والباقون بكسرها.

وقد أنزلناه لفائدة الناس وهدايتهم، وكفاك شرفًا تبليغه إليهم ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بنور القرآن، وعمل بما فيه، واستقام على منهج الله، وعرَف طريق الرشد والهداية، فإن نفْع ذلك وفائدتَه تعود عليه وحده، وهذا معنى ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي: أن هدايته لنفسه بواسطتك أيها الرسول ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ فلم يهتدِ بهذا القرآن، بعد ما تبيَّن له الهدى، فضرر ذلك يعود عليه، وليس عليك -يا محمد- تبعة في هذا؛ لأنك بلَّغت ما أُمرت به، وهو لن يضرك، ولن يضر الله شيئًا.

ثم أخبر الله نبيه بأنه ليس قائمًا على أمرهم ولا مسيطرًا عليهم، فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ تحفظ أعمالهم وتحاسبهم عليها، وتجْبرهم على ما تشاء، فما عليك إلا البلاغ، فإن شئنا أبقيناهم على ما هم فيه من ضلال، وإن شئنا هديناهم.

وجاء الإنزال متبوعاً بلفظ (إليك) في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥] لأنها تُنوِّه بشأن النبي ﷺ.

وقال هنا: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ ولم يقل إليك؛ لأن القصد هو البلاغ، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢].

وقوله سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ [يونس: ١٠٨].

الوَفَاةُ الكُبْرَى وَالصُّغْرَى

٤٢- ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ[١] عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

أخبر سبحانه أنه المنفرد بتدبير شؤون خلقه، المتصرف فيهم، القابض بناصيتهم في اليقظة والنوم والحياة والموت.

ثم إن الضال قد يستمر على ضلاله حتى يوافيه الأجل، ومن هنا وجب عليهم أن يثوبوا إلى رشدهم وهم في وقت المهلة، فيفيقوا من غفلتهم كما يستيقظ النائم من نومه.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بالبناء للمفعول في (قضي) ورفع (الموت) نائب فاعل، وقرأ الباقون بالبناء للفاعل في (قضى) ونصب (الموت) مفعول به.

وقد يموت النائم في نومه فلا يستيقظ، وهذا حال من استمر على ضلاله حتى الموت، فإن للإنسان **وفاتين**: هما الموت والنوم.

أحدهما: وفاة كبرى: تُسلَب فيها الحياة عن النفس سلبًا ظاهرًا وباطنًا، فتُمسك عنها الروح إمساكًا تامًّا، بحيث لا تعود إليها إلى يوم القيامة.

والأخرى: وفاة صغرى: تُسلَب فيها الحياة عن النفس سلْبًا ظاهرًا فقط في حالة النوم، بحيث تعود الروح إلى البدن عند الاستيقاظ من النوم.

والحالة الأولى تسمى موتًا ووفاة كبرى، والحالة الثانية تسمى نومًا ووفاة صغرى.

ويشير إلى الحالة الأولى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾.

ويشير إلى الحالة الثانية قوله تعالى ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ أي: يقبض الأرواح عند الموتة الكبرى، حين ينتهي الأجل، والذي يوصف بالموت هو الجسد وليس الروح، وَتَوَفِّي الجسد يكون بسلب الروح عنه.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ أي: ويقبض الأنفس التي لم ينته أجلها حال منامها، ثم تُرد إلى البدن عند اليقظة، وهي الموتة الصغرى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠].

أخرج الطبري بسند حسن عن السُّدِّي قال: تُقبَض الأرواح عند نيام النائم، فتقبض روحه في منامه، فتَلْقى الأرواح بعضها بعضًا، أرواح الموتى وأرواح النيام، فيخلِّى عن أرواح الأحياء، فترجع إلى أجسادها، وتريد الأخرى أن ترجع، فيحبس ﴿ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال: إلى بقية آجالها.

وعن قتادة أن النبي ﷺ قال لأصحابه ليلة الوادي: «**إن الله قبض أرواحكم حين شاء، وردها عليكم حين شاء**»[1].

---

(١) ابن أبي شيبة (٢/ ٦٦) وأحمد من حديث طويل (٢٧/ ٢٩٩) (٢٢٦١١) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط البخاري، والبخاري (٥٩٥، ٧٤٧١) وأبو داود (٤٠٤، ٤٣٩) والنسائي (٨٤٥) وفي الكبرى (١١٤٤٨).

النفْس والروح:

وقد نطق هذا الحديث بقبض الروح، كما نطقت الآية بقبض الأنفس.

وفي هذا دليل على أن النفس هي الروح، وقيل: النفْس غير الروح.

قال ابن عباس ﷺ: في ابن آدم نفْس بها العقل والتمييز، وفيه روح به النفَس والتحريك، فإذا نام العبد قبض الله نفْسه ولم يقبض روحه(١).

ثم بيَّن سبحانه كيف يتم قبض النفْس، فقال: ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ أي: فيحبس النفْس التي انتهى أجلها، وهي نفْس من مات ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي: النفْس الأخرى التي لم ينته أجلها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يعيدها إلى جسم صاحبها حتى تستكمل رزقها وأجلها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في قبض الله لنفْس الميت وإمساكها عنده، وإعادة نفْس النائم إليه ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ دلائل واضحة على قدرة الله تعالى ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعقلون ويتدبرون هاتين الحالتين العجيبتين.

ففي حالة الموت تُسلب الحياة عن الجسم، فيُصبح كالجماد، وتُمنع إعادة الحياة إليه في الدنيا.

وفي حالة النوم تُسلب بعض الحياة عن الجسم، فلا يرى ولا يسمع حال النوم، فيكون كالميت وما هو بميت، ثم تعود إليه الحياة، ويظل هكذا حتى ينتهي عمره.

والمتوفِّي في الحقيقة هو الله، فالله هو الذي يتوفى الأنفس، وملَك الموت هو الموكَّل بقبض الأرواح، قال تعالى ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة] وله جنود وأعوان، كما قال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

والله تعالى يضيف الأشياء إلى نفسه باعتبار أنه الخالق المدبر، ويضيفها إلى أسبابها، باعتبار أن الله تعالى جعل لكل شيء سببًا.

وقبض الأرواح يكون في حالتي الموت والنوم، وإرسال الروح يكون في حالة النوم فقط.

قال ابن عباس ﷺ: إن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام، فتتعارف ما شاء الله

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٥٣٥).

لها، فإذا أرادت الرجوع إلى أجسادها أمسك الله أرواح الأموات عنده، وأرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها[١]، وقيل: لكل نفْس نفْسان.

إحداهما: نفْس الحياة، وهي التي تفارق الإنسان عند الموت ويذهب معها العقل والتميز.

والأخرى: نفْس التميز، وهي التي تفارق الإنسان إذا نام، ويبقى معها العقل والتمييز، فيظل النفَس يجري، بخلاف الأُولى فينقطع معها النفَس.

وعن عليٍّ ﷺ قال: تخرج الروح عند النوم، ويبقى شعاعها في الجسد، فبذلك يرى الرؤيا، فإذا انتبه من النوم عادت إليه الروح.

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلَّفه عليه، ثم يقول: باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكْتَ نفسي فارحمها، وإن أرسلْتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»**[٢].

وعن حذيفة ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال: **«باسمك اللهم أموت وأحيا»**، وإذا قام قال: **«الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»**[٣].

والأنفس في قبضة الله تعالى في صحْوتها ومنامها، وهناك فرق بين النفْس والروح كما سبق[٤].

والنفس والروح يخالفان البدن، وأرواح الأحياء والأموات تتلاقى في البرزخ، فتجتمع وتتحادث، ثم يمسك الله أرواح الأموات، ويرسل أرواح الأحياء.

وما أشبه النوم والموت بحال المشركين! وما أشبه الحياة واليقظة بنور الإسلام وهدْي القرآن!

وفي الحديث: **«والله لتموتُن كما تنامون، ولتبعثُن كما تستيقظون»**[٥].

---

(١) من «تفسير ابن كثير» للآية وهو في «تفسير النسفي» عن سعيد بن جبير.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٣٢٠، ٧٣٩٣) واللفظ له و«صحيح مسلم» برقم (٢٧١٤).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٦٣١٢).

(٤) ذكرها ابن الجوزي في كتابه (الوجوه والنظائر).

(٥) يُنظر: الرحيق المختوم ص٧٩ من خطبة النبي ﷺ حين جهر بالدعوة وقال: (إن الرائد لا يكذب أهله..).

لَا تُطْلَبُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مِمَّنْ يَمْلِكُهَا

٤٣- ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾

ينكر سبحانه وتعالى على المشركين أن يتخذوا شفعاء يسألونهم أويعبدونهم، وهم لا يملكون شيئًا في هذا الكون، ولا يعقلون ما يطلب منهم:

وكما أمر الله نبيه أن يوبِّخ المشركين على عبادتهم غير الله أمره كذلك أن يوبِّخهم على اتخاذ الآلهة شفعاء لهم عند الله، وهم لا يملكون شفاعة ولا غيرها، ولا يعقلون شيئًا ولا يهتدون.

فالأصنام لا تسمع ولا تبصر وهي أسوأ حالًا من الحيوان.

ومع أن الله تعالى ذكَّر المشركين بالموت -كي يتفكروا ويفيقوا من غفلتهم- ولكنهم لم يتعظوا ولم يتدبروا دلائل التوحيد والقدرة، فاتخذوا لهم شفعاء من الأوثان والأصنام زاعمين أنهم يشفعون لهم عند الله تعالى.

وهذا معنى ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ أي: أن المشركين لفرط جهالتهم اتخذوا من يشفع لهم عند الله في حاجاتهم، وكان الأولى بهم أن يشتغلوا بعبادته تعالى.

ثم أمر الله رسوله أن يلقمهم حجرًا يقطع به بهتانهم فقال: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: أتتخذونها شفعاء كما تزعمون، ولو كانت هذه الآلهة لا تملك شيئًا أصلًا، ولا تعقل عبادتكم لها، فهي جمادات من أحجار وأموات، لا تملك مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وليست لهم عقول حاضرة، حتى يُمدحوا بها ويعقلوا سؤالًا أو جوابًا.

واتخاذكم لها شفعاء حماقة؛ إذ كيف يشفع من لا يعقل؟! فهو لا يتصور معنى الشفاعة أصلًا، حتى تتوجه إرادته لها، وهذا كقولهم السابق: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [٣].

ولا يشفع أحد عند الله تعالى إلا بإذنه للشافع في الشفاعة ورضاه عن المشفوع له، قال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم].

ثم بيَّن سبحانه أن الشفاعة ملك لله وحده، فهو الذي يأذن للشافع في الشفاعة، وهو الذي يرضى عن المشفوع أن يُشْفع له، وبغير هذين الشرطين لا توجد شفاعة. قال تعالى:

٤٤- ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[1] ﴿٤٤﴾﴾

﴿قُلْ﴾ - أيها الرسول - لهؤلاء المشركين: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ أي: أن الأمر كله لله، وأن الشفاعة كلها لله، لا يملك أحد الشفاعة عنده، ولا يستطيع أن يشفع لأحد إلا بإذنه ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ وما فيهما وما بينهما، فالأمر كله لله وحده، هو الذي يملك السموات والأرض، ويتصرف فيهما ويدبر أمرهما؛ فيجب أن تطلب الشفاعة ممن يملكها، وأن تُخلَص له العبادة، ولا تطلب الشفاعة ممن لا يضر ولا ينفع، ويوم القيامة ترجعون إلى الله فيحكم بينكم بعدله، ويجازي كلًّا بعمله ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وفي هذا إشارة إلى البعث والحشر والنشر، والحساب والجزاء.

لَا وَاسِطَةَ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ

٤٥- ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

وهذا دليل آخر على تناقض المشركين مع الله تعالى، وذلك أنهم حينما يقولون: إن هذه الآلهة تشفْع لهم عند الله، فإنهم يعترفون بأن الله تعالى هو إلههم، وإلٰه آلهتهم، وهو الخالق الرازق المدبر، ومع ذلك فإذا قيل لهم: لا إله إلا الله، أو أن الله تعالى واحد أحد، أو قيل لهم: توجهوا إلى الله وحده بالدعاء والعبادة، دون أن يذكر معه غيره، نفرت قلوبهم وانقبضت، فإذا ذُكر معه من يتوسط بهم إلى الله تعالى فرحوا واستبشروا؛ لأن الشرك يوافق أهواءهم، وهذه أشر الحالات وأشنعها، وموعدهم يوم الحساب، وكثير منهم لا يؤمنون بالبعث والحساب والجزاء، وهذا كقولهم في التلبية: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك، ومع ذلك فهم ينادونه قائلين: إلا شريكا هو لك!!

فهم يعترفون أن الشريك مملوك لله تعالى، وأنه لا يملك شيئًا!!

---

(١) قرأ يعقوب بالبناء للفاعل في (ترجعون)، والباقون بالبناء للمفعول.

قال الفخر الرازي: اعلم أن هذا نوع آخر من الأعمال القبيحة للمشركين، وهو أنك إذا ذكرت الله وحده ظهرت آثار النفرة في وجوههم وقلوبهم، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان ظهرت آثار الفرح، وذلك يدل على الجهل والحماقة؛ لأن ذكر الله تعالى رأس السعادة وعنوان الخيرات، وأما ذكر الأصنام فهو رأس الحماقات(١).

والآية تحكي حالة واقعة في عهد النبي ﷺ حين كان المشركون يهشُّون ويبشُّون إذا ذُكرت آلهتهم، وينقبضون وينفِرون إذا ذُكر الله وحده.

قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات].

قال الألوسي: وقد رأينا كثيرًا من الناس على نحو هذه الصفة التي وَصف الله بها المشركين، يهشُّون لذكر أموات يستغيثون بهم ويطلبون منهم، ويَطْرَبون من سماع حكايات كاذبة عنهم، وينقبضون من ذكر الله وحده، ويَنْفِرون ممن يفعل ذلك كل النفرة(٢).

قلت: وهذا موجود في العصر الحاضر للأسف الشديد.

وكم من أناس إذا استمعوا إلى القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، أو أحكام الحلال والحرام، ونحو ذلك، انقبضت نفوسهم واكْفهرَّت وجوههم، فإذا استمعوا إلى اللغو واللهو، ونحو ذلك انشرحت نفوسهم وانبسطت أسارير وجوههم.

وتعبير الآية بالاشمئزاز والاستبشار يشعر بأنهم قد بلغوا الغاية في الأمرين معًا، فهم عند ذكر الله تعالى تمتلئ قلوبهم إلى نهايتها غمًّا وهمًّا وانقباضًا وذعرًا، وعند ذكر غير الله تعالى تمتليء قلوبهم إلى نهايتها بهجة وسرورًا حتى تظهر آثار ذلك على وجوههم.

---

(١) «التفسير الكبير» (٧/ ٢٥٨).

(٢) «تفسير الألوسي» (٢٤/ ١١).

الْفَصْلُ بَيْنَ الْمُوَحِّدِينَ وَالْمُشْرِكِينَ فِي سَاحَةِ الْعَدْلِ الْإِلَهِيَّةِ:

٤٦- ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

ولما ذكرت السورة ألوانًا من الاختلاف بين المشركين والمؤمنين -فيما يتعلق بالتوحيد والشرك -أمر الله رسوله أن يفوِّض الأمر لله، ويضْرَع له بالدعاء، وأن يعيذه من شرورهم، بعد أن اعتزل ما هم عليه من جهل وسفه، فإن مردَّ الأمر إلى الله، وسوف يحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، ويجازي كُلًّا بعمله: فالمحسن يُجزى بإحسانه، والمسيء يعاقَب على إساءته، وبهذا يظهر المحق من المبطل، ويُرفع خلاف المختلفين وتخاصم المتخاصمين.

ومن أعظم ما وقع فيه الاختلاف في الدنيا، اختلاف الموحدين والمشركين، الذين اتخذوا من دون الله أندادًا: فسوّوه بغيره، واستبشروا عند ذكر آلهتهم، وأشمأزُّوا عند ذكر الله وحده، وزعموا أنهم على حق، وقد أخبرنا سبحانه أنه سيفصل بين الموحدين والمشركين في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج].

وقال سبحانه ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾﴾ [الحج].

وفي هذا تنفيس على النبي ﷺ من كدر الأسى على قومه، وإعذار لغير المتبعين له بإنذارهم وإشعارهم بأن الإسلام ماضٍ في دعوتهم إليه، وأن الأجدر بالدعاة إلى الله تعالى تركهم، بعد دعوتهم وتفويض الحكم فيهم إلى الله تعالى، مع مناصحتهم وبذل أسباب هدايتهم.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق.

﴿عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: يا عالم السر والعلانية، ما غاب عن العباد وما شوهد،

وما ظهر وما بطن، يا من لا تخفى عليه خافية.

﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: أنت تفصل بين عبادك يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من القول في وحدانيتك، والإيمان بك وبرسولك وكتابك واليوم الآخر، أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا، أن تفصل بيننا وبين هؤلاء المشركين، فأنت القادر على الحكم بينهم ولا حيلة لغيرك فيهم، وأن تَهْدِنا لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم، وكان هذا من دعاء النبي ﷺ تعليمًا لعباده أن يدعوا ربهم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا.

أحاديث في التوسل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته:

١- في حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألتُ عائشة ﵂ بأي شيء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: **«اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة: أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهْدِني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»**[(١)].

٢- وعن عبد الله بن مسعود ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: **«من قال: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك في هذه الدنيا، أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدًا عبدك ورسولك، فإنك إن تكِلْني إلى نفسي تُقَرِّبني من الشر وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهدا تُوفِّينيه يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد، إلا قال الله ﷻ لملائكته يوم القيامة: إن عبدي قد عهد إليَّ عهدًا فأوفوه إياه، فيدخله الله الجنة»**[(٢)].

٣- وعن أبي راشد الحبْراني قال: أتيت عبد الله بن عمرو ﵁، فقلت له: حدِّثْنا ما سمعت من رسول الله ﷺ فألقى بين يَدي صحيفة، فقال: هذا ما كَتب لي رسول الله

(١) «صحيح مسلم» برقم (٧٧٠) وأبو داود (٧٦٧) والبيهقي (١٣٨).

(٢) «المسند» (١/ ٤١٢) برقم (٣٩١٦) رجاله ثقات رجال الصحيح (محققوه) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٧٤): رجاله رجال الصحيح، إلا أن عون بن عبدالله لم يسمع من ابن مسعود.

ﷺ، فنظرتُ فيها: فإذا فيها أن أبا بكر ﷺ قال: يا رسول الله، علِّمني ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**يا أبا بكر قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت، رب كل شيء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشِرْكه، وأن أقترف على نفسي سوءًا، أو أجرُّه إلى مسلم**»[1].

وهذه الآية محاكمة من النبي ﷺ للمشركين إلى الله ﷻ.

كان الربيع بن خيثم قليل الكلام، فلما أُخبر بقتل الحسين، قالوا: الآن يتكلم، فما زاده أن قال: آه، وقد فعلوا، وقرأ الآية.

وورد عنه أنه قال: قُتل من كان ﷺ يُجلسه في حجره، ويضع فاه على فيه[2].

لَا شَيْءَ يُنَجِّي الكَافِرَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ يَومَ القِيَامَةِ

٤٧، ٤٨- ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾

ولما رفع النبي ﷺ الدعاء إلى ربه ليحكم بينه وبين المشركين، بيَّن سبحانه ما يفعله بهم يوم لقائه، فأخبر أن لهم أشد العذاب وأفظعه، جزاء ما قالوا أشد الكفر وأشنعه، وأن أحدهم لو وجد فدية يفْدى بها نفسه من العذاب يوم القيامة -مهما بلغت هذه الفدية- لفعل، فلو أن الدنيا كانت له ذهبًا وفضة، ولؤلؤا، ولو أنه امتلك حيواناتها وزروعها وأشجارها وكل ما فيها ومثله معه، ثم بذله يوم القيامة ليفدى نفسه من عذاب الله ما قبل منه، ولا أغنى عنه من الله شيئا فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالشرك وتكذيب الرسول والقرآن ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من مال وذخائر وكل عزيز لديهم من أهليهم وأموالهم، لوكان ذلك مِلْكًا لهم يوم القيامة على سبيل الفرض ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ مضاعفًا ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ

---

(١) «المسند» (٢/١٩٦) برقم (٦٨٥١) صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن، فيه ابن عياش صدوق في روايته عن أهل بلده، وهذا منها، وباقي رجاله ثقات (محققوه) وانظر (٦٥٩٧). وهو في «سنن الترمذي» برقم (٣٥٢٩)، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٢) من «تفسير النسفي» للآية.

مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ أي: لبذلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من شدة العذاب يوم القيامة، ولَما قُبل منهم.

ولهذه الآية نظائر منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦﴾ [المائدة].

وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [الرعد: ١٨].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ١٤﴾

وفي وصف النار التي يعذبون بها قال تعالى: ﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ١٥ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ١٦ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ١٨﴾ [المعارج].

قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشعراء].

وفي يوم القيامة يظهر لكل من ظلم نفسه بالشرك، وتكذيب الرسالة الخاتمة من:

١- أنواع العقوبات وشدة العذاب ما لم يكونوا يتوقعون في الدنيا أنه نازل بهم، ذلكم قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ أي: وظهر لهم من سخط الله وعذابه وغضبه ما لم يكن في حسبانهم.

قال مجاهد: عملوا أعمالًا توهَّموا أنها حسنات فإذا هي سيئات.

قرأ سفيان الثوري هذه الآية، فقال: ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء.

وجزع محمد بن المنكدر عند موته، فسئل عن ذلك فقال: أخشى أن يبدو لي ما لم أكن أحتسب[1].

٢- وظهر للمشركين أيضًا يوم القيامة -عند عرض صحف أعمالهم- ما اكتسبوه في دنياهم من فساد الاعتقاد، وفساد العمل والقول، ومن أعمال زيَّنها الشيطان لهم في الدنيا، ظنُّوها حسنات، فبدت أنها سيئات.

(١) «تفسير الخازن» (٤/ ٥٨) والكشاف (٤/ ١٣٣) والنسفي.

وظهر لهم يوم الحساب والجزاء سوء هذه الأعمال التي اكتسبوها في الدنيا، وأعظمها أنهم نسبوا إلى الله تعالى ما لا يليق بجلاله ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ فأحدق بهم العذاب من كل جانب عقابًا لهم على استهزائهم بالعذاب الذي كان يعدهم به رسول الله ﷺ فيسخرون منه، ويقولون: ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾ [الإسراء: ٥١] وفي يوم القيامة ينزل بهم العذاب الذي استهزؤوا بوقوعه في الدنيا.

تَنَاقُضُ حَالِ الْكَافِر عِنْدَمَا يُصَابُ بِالْخَيْرِ أَوِ الشَّرِّ

٤٩، ٥٠- ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

وتستمر الآيات في بيان تناقض المشركين في أقوالهم وأفعالهم، فمع أن قلوبهم تشمئز عند إفراد الله تعالى بالذكر، وتَرضى إذا أشرك معه غيره، فإنهم حينما يصابون بالضر يفزعون إلى الله وحده، ويطلبون منه رفع الضر عنهم، وينسوْن شركاءهم في حالة الشدة.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ أي: إذا أصيب المشرك بشدة وعسرة- فوقع في محنة، أو نزل به مرض أو فقر، ونحو ذلك -طلب من الله تعالى أن يفرِّج عنه همه، ويزيل عنه كربه، ونسي ما كان يدعوه مع الله لاعتقاده أنه لن يزيل عنه الضر.

وقال تعالى في الحالة المقابلة: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أي: إذا كشفنا عنه ما أصابه، ومنحناه نعمة منا، فضلًا عن ذلك ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: رجع إلى كفره، وأنكر فضل ربه، ونسَب النعمة إلى نفسه، قائلًا: إنّ ما أنا فيه مِنْ نعمة ومِنْ جاه هو بسبب علمي، وخِبرتي، وحنكتي، واجتهادي، وتفوُّقي، ولأني أهل لذلك، مستحق لما أنا فيه من منصب أو مال أو جاه فقد أعطاني الله ذلك، ولولا علمي ومؤهلاتي وخبراتي ما أُعطيته، وهذا شأن الكافر، أما المؤمن فهو ينسب الفضل إلى الله تعالى، ولا ينسبه إلى نفسه، فالمراد بالإنسان ما تتحدث عنه الآيات وهو المشرك.

قال تعالى: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ أي: ليس الأمر كذلك، بل إن ما أُعطيته من نعمة هو ابتلاء وفتنة يبتلي الله بها عباده ليظهر من يشكره ممن يكفره ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ لجهلهم وسوء ظنهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك فتنة واستدراجًا وابتلاء.

وتقدم ما يشبه هذه الآية في أول السورة مبدوءة بالواو، وليست الفاء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾.

ثم بيَّن ﷻ أن مقولة: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ قد قالها قارون وأمثاله قبل ذلك، فما نفعتْهم أموالهم التي جمعوها، ولا رفعتْ عنهم شيئًا من عذاب الله ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قال مقالتهم هذه مَنْ سبقهم من الأمم المكذبة لرسل الله، قالها قارون عندما نصحه الناصحون قائلين له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧﴾ [القصص].

فكان جوابه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨] فكانت النتيجة أن خسف الله به وبداره وبأمواله الأرض، ولم ينفعه شيء من ذلك، وهكذا حين يأتي العذاب وينزل بأمثال قارون، فإن ما جمعوه من حطام الدنيا، وما كانوا فيه في دنياهم من جاه ومال وبنين، لن يدفع عنهم شيئًا من عقاب الله، حين ينزل بهم في الدنيا أو الآخرة ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٢﴾ أي: لم ينفعهم شيئًا مما جمعوه من حطام الدنيا، وما اكتسبوه من متاعها.

ثم بيَّن سبحانه أن الذين قالوا هذه المقولة ممن قبلهم قد نزل بهم عقاب الله تعالى فقال:

٥١- ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾

بيَّن سبحانه في هذه الآية عقوبة المشركين بالله تعالى، التي تسؤوهم وتحزنهم في الدنيا والآخرة.

أي: أن الله تعالى قد عاجلهم بالعقوبة في الدنيا بسبب ما جنت أيديهم من المعاصي، وكذلك الحال بكل من كان مثلهم إلى يوم القيامة، ممن كانوا معاصرين للنبي ﷺ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى المشركين المعاصرين للنبي ﷺ ومن يأتي بعدهم من أمثالهم ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ أي: سيصيبهم أيضًا وَبَال السيئات التي اقترفتها أيديهم ويلْقَوْا جزاءها ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: وما هم بهاربين ولا فائتين من عذابنا، وأمرهم سهل يسير على الله تعالى، ولن يفْلِتوا من العقاب في الدنيا والآخرة.

سَعَةُ الرِّزْقِ أَوْ تَضْيِيقُهُ لَيْسَ دَلِيلًا عَلَى رِضَى اللَّهِ تَعَالَى أَوْ غَضَبِهِ

٥٢- ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

أخبر سبحانه أنه يرزق الصالح والطالح من عباده، وأن بسط الرزق أو قبضه ليس مؤشرًا على طاعة العبد أو معصيته، ولا على إيمانه أو كفره، ولا على حب الله له أو بغضه.

لقد كان على الذين نسبوا فضل الله تعالى إلى أنفسهم، فقال قائلهم: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ كان الأجدر بهم أن يعلموا أن الله تعالى يوسّع الرزق لمن يشاء من عباده، ويضيّقه على من يشاء، وأن ذلك مرجعه إلى حكمة الله تعالى وإرادته في خلقه، وليس سعة الرزق دليلًا على رضى الله تعالى على العبد، ولا تضييق الرزق دليلًا على غضبه! وليس ذلك دليلًا على كياسة العبد وفطنته، ولا على عجزه وضعفه.

أولم يعلم هؤلاء أن رزق الله للإنسان لا يدل على حُسْن حال صاحبه ولا على سوء حاله؟ فكم من مجتهد غير مرزوق، وكم من خامل غبي موسع عليه في الرزق، فإن الله تعالى لبالغ حكمته يُوسّع الرزق لمن يشاء من عباده، صالحًا كان أو طالحًا، ويضيقه على من يشاء منهم صالحًا كان أو طالحًا! ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التوسيع والتضييق ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: دلالات واضحة لمن يصدقون أمر الله تعالى ويعملون به، وينتفعون بالهدايات التي نسوقها إليهم، والله تعالى أعلم بما يُصلح عباده، فقد يضيق عليهم في الرزق لطفًا بهم، ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى].

إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا

٥٣- ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ[1] ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ[2] مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (يا عبادي الذين)، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ أبو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف بكسر النون من (لا تقنطوا) وهي لغة أهل الحجاز وأسد، وقرأ الباقون بفتحها وهي لغة غيرهم.

هذا إخبارٌ من الله تعالى بأنه يغفر الذنوب لجميع من تاب، وإلى ربه رجع وأناب، فهي آية عامة لجميع الناس إلى يوم القيامة مؤمنهم وكافرهم، فتوبة الكافر تمحو الكفر، وتوبة العاصي تمحو الذنب، وفيها حث على التوبة والإنابة قبل فوات الأوان بحلول الأحل أو ظهور علامات الساعة.

وبعد أن أكثرت السورة من الترهيب والوعيد لمن أشرك بالله تعالى، وكذَّب رسول الله ﷺ وكاد اليأس والقنوط أن يستحوذ على قلوبهم، أعقب الله ذلك بفتح باب التوبة على مِصْراعيْه لكل من كان كافرًا فأسلم، أو مشركًا فوحَّد الله، أو مبتدعًا فاتبع هُدَى الله، أو عاصيًا فرجع إلى مولاه، وكانت هذه العودة قبل أن تصل الروح الحلقوم، وقبل أن تطلع الشمس من مغربها، فهو فتح لباب الترغيب بعد الترهيب، والوعد بعد الوعيد، والرجاء بعد الخوف.

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: تمادوْا في الذنوب وأكثروا من المعاصي، وأطلقوا لأنفسهم العنان فيما تدعوهم إليه النفس والهوى والشيطان من الذنوب، فتجاوزُوا الحد في اقتراف السيئات وأسرفوا على أنفسهم فيها، قل لهم يا محمد: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تيأسوا من مغفرة الله لكم لكثرة ذنوبكم وعظمها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لمن تاب وأناب ورجع إلى ربه، فلا تقولوا: قد كثرت ذنوبنا، فلن يُغفر لنا، فتظلوا مصرين على العصيان، ولكن اعلموا أن الله يغفر الذنوب جميعًا: الشرك والكفر والقتل والزنى والسرقة والربا والظلم، وما إلى ذلك.

حتى الكفر يغفره الله - سبحانه - لمن تاب منه ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وحتى الشرك يغفره الله جلَّ شأنه لمن أقلع عنه، كما قال تعالى عمن ينسبون الولد إليه، ومن يقولون بالتثليث: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ [المائدة: ٧٤].

وكبائر الذنوب كلها يغفرها الله - سبحانه - لمن تاب إلى الله منها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾ [الفرقان].

كما يكفِّر الله صغائر الذنوب مع عدم الإصرار عليها عند اجتناب الكبائر، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء].

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب التائبين من عباده ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم.

روى علي بن طلحة عن ابن عباس ﷺ في معنى الآية: قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيرًا ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى في المشركين: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ [المائدة: ٧٤].

ثم دعا سبحانه من هو أعظم قولًا من هؤلاء، مِمَّن قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[1] [القصص: ٣٨]. دعاه إلى التوبة والإيمان.

قال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

وقال ﷻ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء].

وعلى العبد ألا يتمادى في المعاصي ولا يصر عليها، وإنما يتوب إلى ربه كلما أَلَمَّ بالذنب، ويعزم على عدم العودة إليه.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء].

ومهما غرق العبد في بحار الذنوب للأذقان، ثم عرف أن له ربًّا يغفر الذنوب ويستر العيوب، فإن الله تعالى يقول له: عبدي اختطفك الشيطان مني، ثم عدت إليَّ، وعرفت أن لك ربًّا يغفر الذنوب ويستر العيوب، فأنا غفار لمن تاب، وأقرب إلى مَنْ إليَّ أناب.

---

(١) أخرجه الطبري وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (١٢/ ٦٧٧).

وفي الحديث القدسي: «**يا عبادي إنكم تخطؤون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم**»[١].

وفي الحديث: عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه: «**يابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يابن آدم، لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة**»[٢].

أما من مات على شركه وكفره فليس له مغفرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ولا تُقبل توبة العبد عند الموت ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء: ١٨] وقال تعالى عن فرعون: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾ [يونس].

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»[٣].

ولا تقبل التوبة عند طلوع الشمس من مغربها كما جاء في الحديث.

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى[٤].

ولعل ذلك لاشتمالها على أعظم بشارة، فقد شرَّف الله العباد بإضافتهم إلى نفسه، ثم وصفهم بالإسراف في المعاصي، ثم نهاهم عن اليأس من الرحمة، فلم يبقَ بعد ذلك أدنى شك في مغفرة كل ذنب إلا ما أخرجه النص القرآني وهو الشرك بالله تعالى، ثم علَّل ذلك بأن من صفاته تعالى أنه الغفور الرحيم.

---

(١) من حديث أبي ذر في «صحيح مسلم» برقم (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٥٤٠) وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٧، ١٢٨) وفي الروض النضير (٤٣٢) وفي المشكاة (٢٣٣٦) التحقيق الثاني.

(٣) «المسند» (٦١٦٠، ٦٤٠٨) والترمذي (٣٥٣٧) وابن ماجه (٤٢٥٣) والبيهقي في «الشعب» (٧٠٦٣) والحاكم (٤/٢٥٧) وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٣٠)، وقال محققو المسند: إسناده حسن من أجل ابن ثوبان الدمشقي، وبقية رجاله ثقات.

(٤) «حاشية الجمل على الجلالين» (٣/٦٠٥).

وكانت هذه الآية أرجى آية في القرآن، لاشتمالها على إضافة العباد إلى ربهم تشريفًا لهم، وفيها وصف المعاصي بالإسراف، والنهي عن القنوط من رحمة الله تعالى، وجاء بعد ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

وروى الطبراني بسنده: عن ابن مسعود ﷺ قال: أعظم آية في كتاب الله ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢].

وأجمع آية في القرآن بخير وشر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

وأكثر آية فرجًا ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وأشد آية في كتاب الله توبيخًا ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. قال مسروق: صدقت(١).

أسباب النزول

١- وقد وردت أحاديث في أسباب نزول الآية، منها: ما صح عن ابن عباس ﷺ: أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قَتَلُوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فأتوا النبيَّ ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول، وتدعو إليه لَحَسن، لو تُخْبِرَنا أنَّ لِمَا عملنا كفارة، فنزل ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية [الفرقان: ٦٨].

ونزل ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ الآية(٢).

٢- وعن نافع عن ابن عمر عن أبيه ﷺ قال: كنا نقول ما لِمُفْتَن توبة، وما الله بقابل منه شيئًا، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أُنزِل فيهم ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ والآيات بعدها، قال عمر: فكتبتُها فجلستُ على بعيري، ثم طُفْتُ المدينة، ثم أقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن الله له في الهجرة وأصحابه من المهاجرين، وقد أقام أبو بكر ﷺ ينتظر أن يؤذن لرسول الله ﷺ فيخرج معه(٣).

---

(١) من «تفسير ابن كثير» للآية (٧/ ١٠٨).

(٢) البخاري برقم (٤٨١٠) ومسلم برقم (١٢٢) وأبو داود برقم (٧٢٧٤) و«سنن النسائي» (٨٦١٧).

(٣) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه: «المستدرك» (٢/ ٤٣٥) وصححه الذهبي وعزاه الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٦١) إلى البزار وقال: رجاله ثقات، وحسّن إسناده محقق «المختارة» للضياء المقدسي (٢١٢-٢١٤) وأخرجه الطبراني (٤٦٢) والطبري (٢٠/ ٢٢٧).

٣- وعن أبي هريرة ﷺ قال: خرج النبي ﷺ على رهط من أصحابه يضحكون ويتحدثون، فقال: «**والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**» ثم انصرف وأبكى القوم، وأوحى الله إليه: يا محمد، لِمَ تُقنِّط عبادي؟! فرجع النبي ﷺ فقال: «**أبشروا وسدِّدوا وقاربوا**»[1].

٤- وروى ابن إسحاق عن نافع، عن ابن عمر، عن عمر ﷺ، قال: لما اجتمعنا على الهجرة اتَّعدتُ -أي: تواعدت- أنا وهشام بن العاص السهمي، وعياش بن ربيعة بن عتبة، فقلنا: الموعد أضاةُ بن غفار -أي: عند البئر- وقلنا: من تأخر فقد حُبس، فليمض صاحباه، فأصبحتُ أنا وعياش بن عتبة، وحُبس عنا هشام، وإذا هو قد فُتن فافتتن، فكنا نقول بالمدينة: هؤلاء قد عرفوا الله، ثم افتُتِنوا لبلاء لَحِقَهم، لا نَرى لهم توبة، وكانوا هم يقولون هذا في أنفسهم، فأنزل الله الآية إلى قوله: ﴿مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [٦٠].

قال عمر: فكتبتُها بيدي، ثم بعثتُها إلى هشام، قال هشام: فلما قدمتْ عليَّ خرجتُ بها إلى ذي طوى، فقلت: اللهم فَهِّمْنيها، فعرفتُ أنها نزلت فينا، فرجعتُ فجلست على بعيري، فلحقْتُ برسول الله ﷺ.

٥- وعن عمرو بن عبسة، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ شيخ كبير، يدعم على عصًا له، فقال: يا رسول الله، إن لي غدرات وفجرات، فهل يُغفر لي؟ فقال: «**ألست تشهد أن لا إله إلا الله**»؟ قال: بلى، وأشهد أنك رسول ألله، فقال: «**قد غفر الله لك غدراتك وفجراتك**»[2].

ويلاحظ أن هذه الآية مكية، وإسلام وَحْشِي قاتل حمزة كان بعد غزوة أحد، فلا يصح نزولها فيه، وقد ورد في هذا آثار كثيرة.

فَضْلُ التَّوْبَةِ:

ومما جاء في فضل التوبة: «**أن رجلًا من بني إسرائيل قتل تسعة وتسعين نفسًا، وأراد أن**

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيح الأدب المفرد» (١٩١).

(٢) «المسند» (٤/ ٣٨٥) برقم (١٩٤٣٢)، حديث صحيح بشواهده، (محققوه) وهو في المطالب العالية (٢٨٤٧) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٣٤) رواه أحمد والطبراني ورجاله موثقون، إلا أنه من رواية مكحول عن عمرو بن عبسة، فلا أدري أسمع منه أم لا.

يتوب، فسأل عن أعبد أهل الأرض، فدلُّوه على رجل عابد، فسأله: هل له من توبة؟ قال: لا، فقتله وأكمل به المئة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدلُّوه على رجل عالم، فسأله: هل له من توبة؟ قال: نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك هذه فإنها أرض سوء، فانطلق إليها، وفي الطريق حَضَرَتْه الوفاة، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، قالت ملائكة الرحمة: إنه أقبل على الله تائبًا، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قطُّ، فأرسل الله إليهم ملَكًا في صورة رجل، فقال: قيسوا ما بين أرض التوبة وأرض المعصية، فقاسوا فوجدوه أقرب إلى أرض التوبة، فقبضتْه ملائكة الرحمة».

وفي رواية: «أنهم وجدوه أقرب إلى أرض المعصية بشبر، فأوحى الله إلى أرض التوبة: أن تقاربي، وإلى أرض المعصية أن تباعدي، فقبضته ملائكة الرحمة»[(١)].

٢- وفي الحديث، عن أبي هريرة ﷺ: «أن رجلًا أسرف على نفسه ولم يعمل خيرًا قطُّ، فقال لأبنائه: إذا حضرتْني الوفاة، فأحرقوني وذرُّوني في الهواء، فوالله لئن قدِرَ الله عليَّ ليعذبني عذابًا ما عذَّبه أحدًا، فلما مات وفُعل به ذلك أمر الله الأرض أن تجمع ما فيها ففعلتْ، فإذا هو قائم بين يدي الله تعالى، فسأله ربه: ما حملك على ما صنعت؟ قال: خشيتك يا رب، فغفر الله له»[(٢)].

٣- وفي حديث أبي أيوب الأنصاري ﷺ: أنه قال حين حضرتْه الوفاة: قد كنت كتمتُ منكم شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «لولا أنكم تذنبون، لخلَق الله خلقًا يذنبون فيغفر لهم»[(٣)].

٤- وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»[(٤)].

٥- وعن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده من

---

(١) يُنظَر الحديث في: البخاري برقم (٣٤٧٠) ومسلم برقم (٢٧٦٦) عن أبي سعيد الخدري و«المسند» (١١٦٨٧، ١١١٥٤) وابن ماجه (٢٦٢٢) وأبي يعلى (١٣٩٩) وابن حبَّان (٦١١).

(٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة في البخاري برقم (٣٤٧٨، ٦٤٨١، ٧٥٠٨) ومسلم برقم (٢٧٥٧).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٤٨).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٤٩).

أحدكم إذا استيقظ على بعيره، قد أضله بأرض فلاة»[1].

هذا: وقد ختم الله سبحانه الآية بذكر صفتان من صفات الله تعالى هما: المغفرة والرحمة، وعلى من يريد رحمة الله ومغفرته، أن يأتي بأسبابهما، فيقبل على الله تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء، والتضرع، والإنابة، ويرد المظالم إلى أهلها ليستحق بذلك الدخول في ساحة الرضى والغفران.

ولما فتح الله باب التوبة على مصراعيه رغَّب عباده في الإنابة والرجوع إليه، فقال:

٥٤- ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤﴾

أنيبوا إلى ربكم بقلوبكم، وأسلموا له بجوارِحِكُم، من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله.

أي: ارجعوا إليه وأطيعوه، واخضعوا له وأقبِلوا عليه، وأخْلِصُوا له العبادة من قبل أن ينزل بكم عقاب الله، ثم لا تستطيعون دفعه، ولا تجدون من ينصركم ويمنع عنكم عذاب الله.

ولما بشرهم بأن الله تعالى يغفر الذنوب جميعًا، أمرهم بالرجوع والإنابة إليه، والانقياد لأمره ونهيه، والخضوع لحكمه قبل أن يحل بهم عذاب الله تعالى.

وهذه الآية تتعلق بتوبة المشركين، ودخولهم في الإسلام، واتباع شرعه قبل أن يحل بهم العذاب، والآية السابقة عامة للمؤمنين -الذي أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي- ولغيرهم.

ثم أمر الله خلقه باتباع أوامر القرآن ونواهيه، فقال:

٥٥- ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

وأحسن ما أُنزل إلى الناس هو القرآن العظيم، وكله حسن، فامتثِلوا أمره واجتنبوا نهيه، أحِلُّوا حلاله وحرِّموا حرامه، والتزموا طاعته واجتنبوا نواهيه، في أعماله الظاهرة: كالصلاة والصيام والزكاة والحج والصدقة والبر ونحو ذلك، وفي أعماله الباطنة: كمحبة الله تعالى وخشيئة وخوفه ورجائه والنصح لعباده ونحو ذلك.

وفي الآية حث على العفو دون الانتقام، وعلى العمل بالأفضل واتباع الأحوط،

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٤٧٤٧) و«صحيح البخاري» برقم (٦٣٠٩).

والعمل بالمحكم، والإيمان بالمتشابه، وقد وصف الله عباده بأنهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وأحسن: اسم تفضيل، مستعمل بمعنى: حسن، فالتزموا كتاب ربكم الذي فيه سعادتكم في الدنيا والآخرة قبل أن يأتيكم الموت بغتة، وقبل أن يفاجئكم العذاب، وعذاب الدنيا والآخرة يأتي فجأة دون إشعار سابق.

آيَةُ الْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ: ﴿ يَحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ﴾

ثم نبه الله عباده أن يسارعوا بالتوبة إليه، وحذَّرهم ألا يستمروا في غفلتهم، وأن يرجعوا إلى الله قبل أن يتحسروا على ما فاتهم في دنياهم؛ لئلَّا تندم بعض النفوس التي أسرفت في العصيان على تقصيرها وتفريطها في طاعة الله تعالى في يوم لا ينفع فيه الندم، فقال تعالى:

٥٦- ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَحَسْرَتَىٰ[1] عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

أي: يا أسفي على ما ضيعتُ من العمل بما أمرني الله ﴿وَإِن كُنتُ﴾ في الدنيا ﴿لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي: المستهزئين بأمر الله وكتابه ورسوله والمؤمنين.

فتفريط المستهزئ بأوامر الله ورسوله، ليس تفريط الغافل، وإنما هو تفريط الساخر، الذي لم يكتفِ بتضييع حق الله تعالى، بل سخر من أهل الطاعة، فالحذر الحذر من عقوبة تحسُّر النفس على التفريط في الإيمان والطاعة، والحذر كل الحذر من الموت على الكفر والمعصية، ومن السخرية والاستهزاء بما أنزل الله على رسوله.

آيَةُ تَمَنِّي الْهِدَايَةِ ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾؟

وبعد التحسر على التقصير في الطاعة يأتي الاعتذار والتنصل من اقتراف الذنوب، بإلقاء التبعة على القضاء والقدر:

٥٧- ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾

---

(١) قرأ ابن جماز بزيادة ياء مفتوحة بعد الألف في (يا حسرتى) ولابن وردان وجهان، أحدهما كابن جماز والثاني بزيادة ياء ساكنة مع المد المشبع، وقرأ الباقون بتاء مفتوحة بعدها ألف بدل من ياء الإضافة.

أو تقول بعض النفوس -وهي المقولة الثانية- ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ وأرشدني إلى طاعته، واتباع دينه ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ للشرك والمعاصي، وكنت من الذين صانوا أنفسهم عن غضب الله تعالى وسخطه، فاهتديتُ إلى الحق، وأطعتُ الله تعالى وكنت من الصالحين، فأسلم من العقاب وأنال الثواب.

ولو للتمني وليست شرطية، لأن لو الشرطية تقتضي الاحتجاج بالقضاء والقدر، وهي حجة باطلة.

وهذا التنصل والاعتذار يعتذر به المشركون عن شركهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠].

وهو عذر غير مقبول، وتنصل مردود، فالإنسان له الحرية في اختيار ما يريد بمقتضى عقله، وما أرسل الله إليه من رسل، وأنزل عليه من كتب، وعرَّفه طريق الحق والضلال.

آيَةُ تَمَنِّي الرَّجْعَةِ ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

وبعد الحسرة والندامة والاعتذار والتنصل من الذنوب، تأتي مقولة ثالثة يتمنى فيها المذنب أن يعود إلى الدنيا مرة ثانية ليصلح ما أفسده، ويتدارك ما فاته.

٥٨- ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

. تقول بعض النفوس ﴿حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾ وقد أحاط بها من كل جانب يوم الحساب والجزاء ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ أي: رجعة إلى الحياة الدنيا مرة أخرى ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الموحدين لله، المخلصين في طاعة ربهم، والعمل بما أمرتْهم به رسلهم، وهذا كقوله سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

ثم يأتي الرد من الله تعالى على هذه المقولات الثلاث، بأن هذا غير ممكن، وأن هذه أماني باطلة لا حقيقة لها، فيقول سبحانه:

٥٩- ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس القول كما تقول - أيها المكذب الساخر - من أن الله تعالى لم يدلك على طريق الرشاد والهدى، فقد جاءتك آيات الله الواضحة المنزَّلة على رسوله ﷺ الدالة على الحق، فأرشدك الله عن طريق إرسال الرسل وإنزال الكتب، ولكنك كذَّبت

ولم تؤمن، وهذا رد **للمقولة الثانية**: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾.

أما الرد على **المقولة الأولى** وهي: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ فهو في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾ أي: أنه ليس التفريط والتهاون في حق الله تعالى هو السبب، بل السبب ما هو أعظم من التفريط، وهو الاستكبار على العمل بآيات الله.

أما قوله تعالى: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فهو رد على **المقولة الثالثة**: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: أنك قد لازمت الكفر حتى متَّ عليه، وهذه الجملة ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في مقابلة ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فالكافر يتحسر، ثم يحتج بحجج واهية، ثم يتمنى الرجوع إلى الدنيا، وهو سؤال لا يفيد، فقد أخبر رب العالمين أنهم لو رُدُّوا العادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون.

والمعنى: كأن الله تعالى يقول: قد جاءتك آياتي، وبيَّنتُ لك الهداية من الغواية، وسبيل الحق من الباطل، ومكَّنتك من اختيار الهداية على الغواية، والحق على الباطل، ولكنك تركت ذلك وضيَّعته واستكبرت عن قبوله، وآثرت الضلالة على الهدى وكنت من الجاحدين، واشتغلت بضد ما أمرتُك به، فالتضييع جاء من جهتك، فلا عذر لك[1].

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كل أهل النار يرى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هداني؟! فتكون عليه حسرة، قال: وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار، فيقول: لو أن الله هداني! فيكون له شكرًا**»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[2].

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ قال: أخبر الله سبحانه ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وما العباد عاملون قبل أن يعملوه، وقال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

وقرأ الآيات الثلاث: آية الحسرة، وآية تمني الهداية، وآية تمني الرجعة، ثم أورد قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

---

(١) يُنظَر: «تفسير النسفي» للآية.

(٢) «المسند» (٢/ ٥١٢) (١٠٦٥٢) والنسائي عن أبي بكر بن عياش في الكبرى (١١٤٥٤) والحاكم (٢/ ٤٣٥) وقال محققو «المسند»: إسناده صحيح على شرط البخاري، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٥١٤).

وقوله سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

قال: ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى، كما حلنا بينهم وبينه أول مرة في الدنيا(١).

وقال قتادة في قوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ لم يَكْفِه أن ضيَّع طاعة الله، حتى جعل يَسْخَر بأهل طاعة الله، قال: هذا صنف منهم، وقال صنف ثانٍ: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وقال صنف ثالث: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ أي: رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يقول الله تعالى ردًّا لقولهم وتكذيبًا لهم: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ فالكافر يتحسر أوَّلًا، ثم يحتج بحجج واهية، ثم يتمنى الرجوع إلى الدنيا، ولو رُدَّ لعاد إلى ضلاله.

وهكذا يصور القرآن أحوال الناس في الآخرة تصويرًا مؤثرًا بليغًا يحمل كل عاقل على التوبة والإنابة والإيمان الصالح الذي ينفع صاحبه يوم لقاء ربه.

سَوَادُ الْوَجْهِ لِأَنَّ صَاحِبَهُ سَوَّدَ وَجْهَ الْحَقِّ بِالكَذِبِ وَبَيَاضُ الْوَجْهِ لِأَنَّ صَاحِبَهُ كَانَ مُوَحِّدًا

٦٠- ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾

إن من سوّد وجه الحقيقة، فنسب إلى الله تعالى الولد أو الشريك، أوادعي النبوة، أو وصف الله ورسوله بما لا يليق،أو قال عن الله ما لم يقل،أو كذَب على رسول الله ﷺ فإن جزاء كذبه هذا يوم لقاء الله، أن يسودّ وجهه كما سوّد وجه الحق في الدنيا، وهذا علامة له على الخزي والنكال في الموقف العظيم، وله العذاب الشديد في نار جهنم.

وهكذا، فقد بيَّن ﷻ مصير كل من المشركين والمتقين في الدار الآخرة، ولَوْن بشرتهم فيها، فقال تعالى في شأن المشركين المكذبين، الذين وصفوا ربهم بما لا يليق به، فنسبوا إليه الشريك والولد، أو نسبوا إليه ما لا يليق بجلاله، كقولهم ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وقولهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] أو شرعوا شيئًا في دين الله ليس

(١) يُنظَر: «تفسير الطبري» (٩/ ٤٩١)، (٢٠/ ٢٣٦) وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٦٩) (٧٧٧٥).

منه، أو كذبوا على رسول الله ﷺ فنسبوا إليه ما لم يقله، وهؤلاء وأمثالهم هم الذين جاء ذكرهم في الآية السابقة ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ وهم الذين كذبوا على الله، فقد جعل الله لهم علامة يوم القيامة تدل على سوء المصير، وهو سواد الوجوه في الموقف العظيم، فوجوههم تكون مسودة مظلمة، بسبب كذبهم وافترائهم على الله تعالى، حيث أشركوا معه غيره في عبادته، أو شرعوا لأنفسهم ما لم يأذن به الله، وهذا السواد بسبب ما أحاط بهم من عذاب، وما شاهدوه من أهوال.

قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس].

وقال سبحانه: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة].

وكما أن سواد الوجوه يكون علامة على سوء المصير، فإن بياض الوجوه يكون علامة على حسن المصير، وقد ذكر الله تعالى الفريقين في قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران].

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ أي: دار إقامة ﴿لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾؟!

والجواب: بلى، فيها مأوى ومسكن ودار إقامة، لمن تكبَّر على توحيد الله وطاعته، وكذّب رسول الله ﷺ، ولم يؤمن بالبعث والنشور، والحساب والجزاء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر، في صورة الناس، يَغْلُوهم كل شيء من الصَّغار، حتى يدخلوا سجنًا من النار، في وادٍ يقال له: بولَس، من نار الأنيار[1] ويُسقون عصارة أهل النار من طينة الخبال**»[2].

---

(١) أي: من نار النيران.

(٢) «المسند» (٢/ ١٧٨) برقم (٦٦٧٧) بلفظ: (يحشر المتكبرون) بنحوه، وإسناده حسن، وأخرجه الحميدي (٥٩٨) والترمذي برقم (٢٤٩٢) وقال: هذا حديث حسن، وهو في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٠٢٥) وابن أبي شيبة (٩/ ٩٠) والبغوي (٣٥٩٠) و«الأدب المفرد» برقم: (٥٥٧) وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥١١٢).

والكبر: هو بطر الحق وغمط الناس، كما صح بذلك الحديث.

ثم ذكر سبحانه الفريق الناجي وهم الذين ابيضت وجوههم، فقال:

٦١- ﴿وَيُنَجِّى[١] ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ[٢] لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾

وبضدها تتميز الأشياء، ولما ذكر الله تعالى حال المتكبرين ذكر حال المتقين؛ لأن التقوى تنافي التكبر، وفيها كمال الخُلُق الشرعي، وهي تقتضي امتثال الأوامر واجتناب النواهي في الظاهر والباطن، والكبر مرض قلبي باطني يحمل صاحبه على الكفر والمعاصي، فلا جرَم أن يُلقى المتكبر في النار، وأن ينجو التقيُّ منها.

والمعنى: وينجي الله من جهنم وعذابها الذين اتقوا ربهم فوحَّدوه ولم يشركوا به، ولم يَعْصُوه، وأدوا فرائضه وتركوا نواهيه، وذلك بسبب حصولهم على الفوز والظفَر بتحقيق أُمنيتهم ودخول الجنة، وهم يَسْلَمُون مما مسَّ غيرهم، فلا يمسهم شيء من عذاب جهنم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على شيء من متاع الدنيا ونعيمها.

لقد نفى الله عنهم السوء والحزن معًا، إنهم لا يحزنون كما يحزن أهل النار، ممن هم في حُزْن وغَم دائمين، ولا يحزنون على شيء فاتهم من حظوظ الدنيا، فهم آمنون ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر]. فلهم الأمن التام والسلامة من كل مكروه وهم يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر]

قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾ [النبأ]

وقال سبحانه: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

التَّوْحِيدُ وَالشِّرْكُ هُمَا سَبَبا النَّجَاةِ أَوِ الْهَلَاكِ

٦٢- ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ[٣] عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾

---

(١) قرأ روح بإسكان النون وتخفيف الجيم من (ويُنْجِي) مضارع أنجى، والباقون بفتح النون وتشديد الجيم (يُنَجِّى) مضارع نجَّى.

(٢) قرأ شعبة وحمزة والكسائي وخلف بالجمع في (بمفازتهم)، والباقون بالإفراد.

(٣) قرأ قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإسكان الهاء من (وهْو) والباقون بضمها.

ثم بيَّن سبحانه أن السبب في هلاك، من هلك، هو الإشراك بالله تعالى، والسبب في نجاة من نجا هو توحيد الله تعالى، وأن الإيمان بوجود الله تعالى ووحدانيته، والبراءة من الشرك وأهله، هو دعوة رسل الله جميعًا، وعلى رأسهم خاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، **وهذه ثلاثة أدلة من أدلة التوحيد:**

الدليل الأول: أن الله تعالى ﴿خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أوجد جميع المخلوقات بقدرته، فهو ربها ومليكها والمتصرف فيها كيف يشاء، لا رب غيره ولا معبود بحق سواه، وهذا يستلزم إثبات وجود الخالق سبحانه ووحدانيته؛ لأن المخلوق لا يخلق نفسه ولا يخلقه غيره:

١- قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣].

٣- وقال أيضًا: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

٤- وقال جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ﴾ [النحل: ١٧].

٥- وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ﴾ [الحج: ٧٣].

وما دام الله تعالى خالق كل شيء، فإن كل موجود مخلوق لله تعالى، ولا يخرج من ذلك إلا ذات الله ﷻ، والكل عبيد الله وحده، وليس لغيره منَّة عليهم بالإيجاد، فلزم إفراده تعالى بالعبادة دون سواه، ومن هذه المخلوقات: السموات والأرض، والأرواح، أما كلام الله تعالى فهو صفة قائمة بذاته، وليست مخلوقة، فالله تعالى بأسمائه وصفاته، أول، ليس قبله شيء، وآخر، ليس بعده شيء.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليسألنكم الناس عن كل شيء، حتى يسألونكم: هذا الله خلَق كل شيء، فمن خلَق الله؟ فإن شئتم فقولوا: الله كان قبل كل شيء، وهو خالق كل شيء، وهو كائن بعد كل شيء»**[1].

الدليل الثاني من أدلة التوحيد قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ الوكيل هو

(١) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (١٤) وقال محققه: إسناده صالح.

المتصرف في الأمور بالمنع والعطاء، دون أن يُعقِّب عليه أحد، والوكالة التامة لابد فيها من العلم والإحاطة والقدرة التامة على التصرف والتدبير، فكل شيء تحت تدبيره وقهره وإمداده لهم بالنعم، وليس في وسعهم الاستغناء عنه لمحة من الزمان، وهذا أيضًا يستلزم التوجه بالعبادة إلى الله وحده وعدم الإشراك به.

والدليل الثالث أن الله تعالى:

٦٣- ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾

أي: له مفاتيح خزائن السموات والأرض، لا يملكها غيره ولا يتصرف فيها سواه، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر ٢] وأعظم ما يعطيه الله تعالى لبعض خلقه هو النبوة والرسالة، وجهل المشركين بذلك جرَّأهم على إنكار رسالة محمد ﷺ، فقالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣].

والمتقون الذين نجاهم الله تعالى من عذابه، هم الذين آمنوا بدلائل الوحدانية هذه، أما الذين جحدوا آيات القرآن، وما فيها من الحجج الواضحة، وجحدوا آيات الله الكونية، فهم الذين خسروا دنياهم بخذلانهم عن الإيمان، وحُرِموا خير خزائن الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر].

وما دام الله تعالى هو الخالق الرازق كما في الدليل الأول.

وهو صاحب التصرف المطلق في مخلوقاته كما في الدليل الثاني.

وهو الذي يضع النظم والنواميس لخلقه، كما في هذا الدليل الثالث.

فإن الله تعالى هو المستحق للعبادة دون سواه.

ولما ذكر سبحانه ما تمتلئ له القلوب تعظيمًا وإجلالًا لله تعالى، ذكر مَنْ عَكَسَ القضية ممن لم يُقَدِّرُ الله حق قدره، ولم يعظمه حق تعظيمه.

وجاء وصف الذين كفروا بآيات الله بأنهم الخاسرون؛ لأنهم كفروا بآيات مَنْ له مقاليد خزائن الخير، فعرَّضوا أنفسهم للحرمان من رحمة الله تعالى في الآخرة.

فقد خسروا ما يُصلح القلوب، وهو الإخلاص لله تعالى، وخسروا ما تصلُح به الألسنة، وهو ذكر الله تعالى، وخسروا ما تصلُح به الجوارح، وهي الطاعات، واكتسبوا ما يفسد القلوب والأبدان، وخسروا جنات النعيم، واكتسبوا عذاب الجحيم.

وآيات الله التي في الآية، هي دلائل وجوده ووحدانيته المشار إليها في الجمل الثلاث.

وبعد تقرير حقائق التوحيد أُمر الرسول ﷺ أن يوجه إلى المشركين هذا الاستفهام:

٦٤- ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ[1] أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾

هذا الأمر بالتوحيد، جاء نتيجة للمقدمات السابقة، الموجهة للمشركين لإثبات وإقرار عقيدة التوحيد بعد نفي الشرك وصرف العبادة لغير الله تعالى.

وفي هذا تأنيب وتوبيخ لكل مشرك بالله تعالى، جاحدٍ لوحدانيته، وكان الكفار المعاصرون للنبي ﷺ قد دعُوه إلى دين آبائه طمعًا منهم في أن يصرفوه عن التوحيد، ويشاركهم في عبادة الأصنام، فوصفهم النبي ﷺ بالجهل.

والمعنى: قل - أيها الرسول - للمشركين: أبعد الأدلة الساطعة، والبراهين القاطعة، الدالة على وحدانية الله تعالى، تأمروني - أيها الجاهلون - أن أعبد غير الله، والعبادة لا تصرف إلا لله تعالى، فكيف أعبد غيره؟

لَا يُقْبَلُ مَعَ الشِّرْكِ عَمَلٌ صَالِحٌ

٦٥- ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾

ولما كان التوحيد سنة الأنبياء، والشرك لا يتطرق إليهم، فقد حذر الله منه جميع رسله -على عظم شرفهم- عن طريق الوحي الإلهي، ولو أن أحدهم أشرك بالله تعالى -على سبيل الفرض والتقدير- فإن عمله الصالح الذي يرجو منه الجزاء الحسن قد ذهب باطلًا، وكأنه لم يكن.

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بنون واحدة مكسورة مخففة في (تأمروني) أصلها تأمرونني، وقرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان بنونين، الأولى مفتوحة والثانية مكسورة على الأصل، والوجه الثاني لابن ذكوان بنون واحدة مكسورة مخففة، وقرأ الباقون بنون مشددة، على إدغام نون الرفع في نون الوقاية، وقرأ نافع وابن كثير بفتح ياء الإضافة منها، والباقون بإسكانها.

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ - يا محمد - بواسطة جبريل عليه السلام ﴿وَ﴾ أوحي أيضا ﴿إِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ من رسل الله جميعًا ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ بالله غيره ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أي: يبطُل أجر عملك الصالح ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لدينك ودنياك؛ لأن الله تعالى لا يقبل مع الشرك عملًا صالحًا، وافتراض وقوع الشرك من رسل الله، على عصمتهم، تنبيه على عظم التوحيد وخطر الشرك؛ ليعلم الناس أن أعلى الدرجات في الفضل، هو التوحيد، ولو أنه أشرك بالله تعالى-على سبيل الفرض-لأحبط هذا الشرك كل مزية، وأذهب كل فضل له على غيره، قال تعالى

﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام]

الأَمْرُ بِالثَّبَاتِ عَلَى التَّوْحِيدِ

٦٦- ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾

أمر الله رسوله بالثبات على التوحيد، والمداومة على الشكر، ونهاه عن طاعة المشركين، فوجَّه إليه الخطاب - لتتأسى به الأمة - كما هو موجَّه إلى الرسل قبله: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ -يا محمد- مخلصًا له العبادة وحده لا شريك له ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ المداومين على شكر الله تعالى على نعمه بالعمل الصالح، فهو المقصود من الشكر، والخطاب موجه إلى النبي ﷺ والمقصود جميع الأمة، وكما أن الله تعالى يُشكر على النعم الدنيوية كالصحة والرزق، فإنه يُشكر أيضًا على النعم الدينية كالإخلاص والتقوى.

وفي الآية تحذير من الشرك بأسلوب التنفير منه والتقبيح له.

الكَونُ كُلُّهُ فِي قَبْضَةِ اللهِ تَعَالَى

٦٧- ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾

أي: إن الذين أشركوا مع الله تعالى غيره في عبادته لم يصفوه بصفاته الواجبة له، ولم ينفوا عنه ما لا يليق به، ولم يعظموا الله حق عظمته، ولم يقدسوه حق تقديسه، ولم يعْرفوا قدْره وحقه عليهم، بل فعلوا ما يناقض ذلك حين عبدوا معه ما لا ينفع ولا يضر، فساوَوْا المخلوق -مع عجزه- بالخالق العظيم، وساوَوْا بينه وبين الحجَر والخشب، ولم يدركوا

عظمة الله تعالى وقدرته في العالم الأخروي، كما لم يدركوها في العالم الدنيوي، ولو اطلع الملحدون على عظيم ملك الله تعالى في الآخرة لعظَّموه حق عظمته، وقدَّروه حق قدره.

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: أن الأرضين السبع كلها مع عظمتها وكثافتها، وكل ما فيها ومن فيها في مقدور الله تعالى، كالشيء الذي يَقْبِضُ عليه القابض بجميع كفه.

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي: أن السموات السبع -بكواكبها وأفلاكها وكل من فيها وما فيها مع عظمتها وسعتها- مطوية بيمينه سبحانه، تحت قدرته وتصرفه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وفي هذا إثبات: القبضة، واليمين، والطي، لله تعالى على وجه يليق بجلاله من غير تعطيل ولا تكييف ولا تشبيه؛ إذ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه سبحانه وتعاظم وتقدس عن شرك المشركين، وإلحاد الملحدين، وضلال الضالين.

ومن الأحاديث الواردة في ذلك:

١- ما رواه أبو هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟»**[1].

٢- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يحمل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، يهُزُّهُنَّ، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه (تصديقًا لقول الحبر) ثم قرأ رسول الله ﷺ الآية[2].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٨١٢) وانظر: (٦٥١٩، ٧٣٨٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٨٧) من طريق الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة و«السنن الكبرى» للنسائي (٧٦٩٢) وابن ماجه (١٩٢) والبيهقي (٤٣).

(٢) الحديث في البخاري برقم (٤٨١١، ٧٤١٤، ٧٥١٣، ٧٤١٥، ٧٤٥١) ومسلم برقم (٢١٤٧، ٢٧٨٦) وانظر: «المسند» (١/٣٧٨) برقم (٤٣٦٨) والنسائي في الكبرى برقم (١١٤٥٢)، وابن حبان (٧٣٢٦)، وصحيح الترمذي (٢٥٨٤).

وقوله: (تصديقًا لقول الحبر) مدرج من الراوي، إبراهيم النخعي، وإنما ضحك النبي ﷺ استهزاء من قول الحبر؛ لأن اليهود يعتقدون بالتجسيم، فيظنون أن لله تعالى يد وأصابع، ولذلك فإن النبي ﷺ قرأ الآية من باب الرد عليه؛ لأن القصة مدنية، والآية نزلت قبل ذلك في مكة فكانت صالحة للرد على اليهود الذين تكلموا في صفات الله تعالى فألحدُوا وجسَّموا وأتوا بكل تخليط، واليهود معروفون بعقيدة التجسيم.

قال سفيان بن عيينة: كل ما وصف الله به نفسه فتفسيره تلاوته، والسكوت عليه، ومذهب السلف: إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف ولا تعطيل.

٣- وعن مجاهد قال: قال ابن عباس ﷺ: أتدري ما سعة جهنم؟ قلت: لا، قال: أجل! والله ما تدري، حدثتني عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ قالت: قلت فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: **«على جسر جهنم»**[1].

٤- وعن ابن عمر ﷺ أن النبيَّ ﷺ قرأ هذه الآية ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ ذات يوم على المنبر، وهو يقول هكذا بيده ويحركها، يقْبل بها ويدْبر، يمجِّد الرب نفسه: **«أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم»**، فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: ليَخرَّن به[2].

٥- وعن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرض بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»**[3].

٦- وفي رواية عنه ﷺ: **«يأخذ الله ﷻ سماواته وأرضه بيدَيه، فيقول: أنا الله، ويقبض**

---

(١) صحيح إسناده الألباني في صحيح سنن الترمذي(٢٥٨٩)، وصححه الحاكم (٢/ ٤٣٦).

(٢) «المسند» (٥٤١٤) إسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات (محققوه) والبخاري (٧٤١٣) معلقا، ومسلم (٢٧٨٨) و«السنن الكبرى» للنسائي (٧٦٩٥) وابن ماجه (١٩٨) وأبوداود (٤٧٣٢) وعبد بن حميد (٧٤٢) موصولًا.

(٣) «المسند» (٢/ ٧٢) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٧٦٨٩) وابن ماجه برقم (٤٢٧٥) و«صحيح مسلم» ٢٤- (٢٧٨٨) وهذا لفظه، وصحيح البخاري (٧٤١٢).

أصابعه ويبسطها، أنا الملك»، حتى نظرتُ إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله ﷺ[١].

٧- وأخرج الطبري بسند حسن من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ قال: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره.

النَّفْخُ فِي الصُّورِ

٦٨- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

هذه الآيات، وهي بصدد بيان عظمة قدرة الله تعالى يوم القيامة، تُفَصِّل أحوال الناس عند النفخة الأولى والثانية.

والنافخ هو الملَك الموكل بالنفخ في الصور، وهو إسرافيل، أحد الملائكة المقربين وأحد حملة العرش.

والصور: هو القرْن، أو البوق، الذي ينادَى فيه الخلق وهم أحياء، فيموتون فزعًا وصعقًا، وينادَى به الخلق وهم أموات، فتحلُّ الأرواح بأجسادهم.

سأل أعرابي رسول الله ﷺ عن الصور فقال: **«قرن ينفخ فيه»**[٢].

والصعق: هو الموت.

والصور غيب، وهو قرن عظيم، لا يعلم حقيقته إلا رب العالمين.

وعند النفخة الأولى يُصعق -أي: يخرُّ ميتًا- كل كائن حي في العالم العُلْوي والسفلي، وهذه النفخة هي نفخة الصعْق ونفخة الفزع، وهذا معنى ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي

---

(١) هذا لفظ مسلم برقم ٢٥- (٢٧٨٨).

(٢) من حديث عبد الله بن عمرو في «صحيح سنن الترمذي» (١٩٧٩، ٢٥٨٦) والنسائي في «السنن الكبرى» (٢/ ١١٣) وابن حبان (٧٣١٢) وأبو داود (٤٧٤٢) والحاكم (٢/ ٤٣٦)، والمسند (٦٥٠٧، ٦٨٠٥) بإسناد صحيح ورجال ثقات. (محققوه).

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي أبقاه الله حيًّا من الأنبياء والشهداء والملائكة، وورد أن في **المراد بمن شاء الله في الآية أقوال**:

١- جاء عن سعيد بن جبير قال: هم الشهداء المقلدون أسيافهم حول العرش[(١)].

٢- وروى سعيد بن جبير وعطاء عن ابن عباس ﷺ قال: هم الشهداء؛ لأنهم أحياء عند ربهم لا يصل إليهم الفزع.

٣- وجاء عن أنس ﷺ أنهم: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت[(٢)].

فلا يبقى بعد النفخة الأولى - على القول الأخير - إلا هؤلاء الأربعة، ثم يقبض الله روح ميكائيل، ثم روح ملك الموت، ثم روح جبريل، فيكون آخرهم موتًا جبريل، وقيل: المستثنى هو إسرافيل نفسه، ثم يموت بعد ذلك، ولعله الصواب.

ثم ينفخ إسرافيل في البوق نفخة ثانية مؤذنة بإحياء جميع الخلائق للحساب أمام ربهم، وإذا هم قيام من قبورهم ينظرون ماذا يفعل الله بهم، وهذا معنى ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

ولما كان المقصود في سورة (النمل) الموعظة بفناء الدنيا، لم تُذكر فيها النفخة الثانية، أما في هذه السورة، فالمقصود بيان يوم القيامة، ولذا ذُكِر فيها النفختان.

وعبَّر عن النفخة الثانية بالنفخة الواحدة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ [الحاقة].

فالنفخة الأولى: يكون بعدها الصعق والموت لجميع الأحياء.

والنفخة الثانية: يكون بعدها البعث والنشور، وإعادة الحياة مرة أخرى.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم].

وقال ﷻ: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق].

(١) أخرجه سعيد بن منصور (٢٥٦٨) والطبري (٢٠/ ٢٥٥).

(٢) أخرجه الطبري في حديث طويل (٢٠/ ٢٥٤) والبيهقي في «البعث».

النَّفْخُ فِي الصُّورِ يَكُونُ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ:

عن أوس بن أوس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه نفخة الصور، وفيه الصعقة، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة عليّ. .**»[1].

والمراد بالصعقة: النفخة الأولى وهي الصوت الهائل الذي يفزع منه الإنسان.

أما المدة بين النفختين فهي أربعون

عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**بين النفختين أربعون**» قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يومًا؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: أبيت «**ويَبلى كل شيء من الإنسان إلا عَجْبُ ذنَبه، فمنه يُركَّب الخلق**»[2].

وعلامات الساعة الكبرى تقع قبل النفخة الأولى:

كما في حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**يخرج الدجال في أمتي، فيمكث فيهم أربعين، لا أدري أربعين يومًا، أو أربعين عامًا، أو أربعين شهرًا، أو أربعين ليلة، فيبعث الله عيسى ابن مريم، كأنه عروة بن مسعود الثقفي فيطلبه، فيهلكه الله، ثم يلبث الناس بعده سنين سبعًا، ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحًا باردة من قِبَل الشام، فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضتْهُ، حتى لو أن أحدهم كانَ في كبد جبل لدخلتْ عليه، ويبقى شرار الناس لتقوم عليهم الساعة**»، قال: «**ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى له، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيُصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صُعق، ثم ينزل اللهِ مطرًا، فتنبُت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون**»[3].

---

(١) «المسند» (١٦١٦٢) إسناده صحيح، رجاله رجال الصحيح غير صحابية فمن رجال أهل السنن (محققوه) و«صحيح سنن أبي داود» (٩٢٥) والنسائي (١٣٧٣) وفي الكبرى (١٦٦٦) وابن خزيمة (١٧٣٣) وابن حبان (٩١٠) والحاكم (١/٢٧٨)و ابن أبي شيبة (٢/٥١٦) وابن ماجه (١٠٨٥).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٨١٤، ٤٩٣٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٥٥) وغيرهما.

(٣) «المسند» (٢/١٦٦) (٦٥٥٥) إسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات (محققوه) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٤٠)، والنسائي في الكبرى (١١٦٢٩) وابن حبان (٧٣٥٣) والحاكم (٤/ ٥٥٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وأول من يرفع رأسه بعد النفخ محمد ﷺ:

عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة، فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش، فلا أدري: أكذلك كان، أم بعد النفخة**»[1].

وفي رواية: «**فلا أدري: أكان فيمن صَعِق فأفاق، أو كان ممن استثنى الله**»[2].

والنفخ في الصور وشيك الوقوع:

عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**كيف أَنْعَم وصاحب القرن التقم القرن، وحنَى جبهته، وأصْغى سمعه؛ ينتظر متى يؤمر أن ينفُخ فينفُخ؟!**» قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟ قال: «**قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، توكلنا على الله ربنا**»[3].

سَبْعَةُ أَحْدَاثٍ جِسَامٍ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

٦٩- ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ[4] بِٱلنَّبِيِّـۧنَ[5] وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾

صورت الآيات جلال الموقف يوم القيامة، وما يحدث فيه، في سبع نقاط:

(أ) إشراق الأرض بنور ربها. (ب) وضْعُ الكتاب.

(ج) مجيء الأنبياء والشهداء. (د) القضاء العادل.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٤١١، ٤٨١٣) و«صحيح مسلم» مطولًا (٣/٢٣٧) و«المسند» (٩٨٢١) والترمذي (٣٢٤٥) وابن ماجه (٤٢٧٤).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٤٠٨).

(٣) «سنن الترمذي» (٢٤٣١) وقال: هذا حديث حسن، وصححه الحاكم عن أبي هريرة (٤/٥٥٩) وابن حبّان (٣/١٠٥) عن أبي سعيد، الإحسان (٨٢٣) وأحمد في المسند (١١٠٣٩، ١١٦٩٦) حديث صحيح لغيره كما قال محققوه، لأن فيه عطية العوفي وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه الحميدي (٧٥٤) وعبد بن حميد في المنتخب (٨٨٦) وابن ماجه (٤٢٧٣) وأبو يعلى (١٠٨٤).

(٤) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام كسرة (جيء، وسيق، وقيل) للضم، ومعهم ابن ذكوان في (وسيق)، والباقون بالكسر الخالص.

(٥) قرأ نافع بهمزة بعد ياء مدية في (النبيين)، يقرؤها (النبيئين) والباقون بياء مشددة بدون همز.

(هـ) إعطاء كل ذي حق حقه. (و) سوْق الكفار إلى جهنم.

(ز) سوْق المتقين إلى الجنة

وقد تضمنت الآية الأولى أربعة مشاهد من هذه السبع وهي:

المشهد الأول: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾

أي: أضاءت الأرض وأنارت يوم القيامة، عند تجلِّي الحق - جلَّ وعلا - للخلائق لفصل القضاء بينهم، فإشراق الأرض يكون بسبب ما أقامه الله عليها من العدل بين الناس، وما قضى به من الحق بينهم.

والمراد **بالأرض**: أرض المحشر، أي: المكان الذي تقوم فيه الخلائق، وهي الساهرة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات].

وهي الأرض البيضاء النقية كما صح بذلك الخبر، وليست هي الأرض التي كانوا عليها في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وإشراق الأرض معناه: انتشار الضوء عليها، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]. ويكون ذلك حين يتجلى الله - سبحانه - لفصل القضاء بين خلقه.

قال قتادة: فما يتضارون في نوره، إلا كما يتضارون في الشمس في اليوم الصحو الذي لا دخن فيه[١].

وقيل: هو نور ذاتي خاص، يخلقه الله تعالى في الأرض، إشارة إلى أنها خلصت من ظلمات أعمال المخلوقات، وهذا النور غير منبعث من كوكب ولا شمس[٢].

والآية تشير إلى أن الأنوار الموجودة في الأرض تذهب كلها يوم القيامة، فقد أخبر الله تعالى أن الشمس تكور، والقمر يخسف، والنجوم تنذثر، ويكون الناس في ظلمة، فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربها، وينزل الله تعالى للفصل بين الخلائق، حيث يُنْشِئهم الله نشأة قوية يتمكنون معها من رؤية الله تعالى، ولا يَحْرِقهم نوره، لأن الله تعالى لو كشف نوره

---

(١) أخرجه الطبري بسند حسن.

(٢) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٣/ ٦٦).

لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصر الإنسان، كما صح ذلك في الحديث.

المشهد الثاني: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾

أي: نَشرت الملائكة صحيفة كل فرد لينظر ما فيها من حسنات وسيئات، وأُحضرت هذه الصحف للحساب، فيعطى أهل الجنة كتابهم بيمينهم، ويعطى أهل النار كتابهم بشمالهم ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق].

وأعمال الخلق الأزلية مدونة في اللوح المحفوظ، وحضور الصحف في الموقف لإقامة الحجة على الخلق بما كسبته أيديهم، حيث تُنشر هذه الصحف ليقرأ كل إنسان ما فيها من الحسنات والسيئات، فيقال للإنسان ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء] قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف].

المشهد الثالث: ﴿وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾

ليسأل الله النبيين عن تبليغ الرسالة، وعن إجابة أممهم لهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأعراف].

وقال أيضًا: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [المائدة:١٠٩].

أما الشهداء فهم الملائكة الحفظة، الموكلون بإحصاء وحفظ أعمال العباد، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق].

وهناك شهادة الأرض والأعضاء والجوارح، وهذه شهادة خاصة بكل عبد.

وهناك شهادة عامة، وهي شهادة أمة محمد ﷺ على سائر الأمم: أن رُسل الله قد بلَّغوهم رسالات ربهم لتقوم الحجة عليهم إذا أنكروا هذا التبليغ، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ويؤتى من كل أمة بشهيد عليها، وهذه هي شهادة الأنبياء على أممهم، ويأتي الرسول ﷺ شاهدًا على هذه الأمة.

قال تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء].

كما يؤتى بالشهداء في سبيل الله، فيشهدون للرسل بالبلاغ، ويشهدون على كل من كذب الرسل من الأمم والأفراد بالتكذيب.

المَشْهَدُ الرَّابِعُ: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾

أي: وقضى رب العالمين بين العباد بالعدل التام، وصدَر الحُكْم في معاملات الناس بعضهم مع بعض، من كل ظالم ومظلوم، وفي معاملاتهم مع خالقهم ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئًا بنقص حسنات ولا زيادة سيئات، لأنه حساب صادر ممن لا يظلم مثقال ذرة، ومَن هو محيط بكل شيء، يعلم مقادير الأعمال واستحقاقها للثواب والعقاب.

المَشْهَدُ الخَامِسُ: كُلُّ نَفْسٍ تُوَفَّى جَزَاءَهَا

٧٠- ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

ويوم القيامة تُوَفَّى كل نفس جزاء عملها من خير أو شر، وهو ﷻ أعلم بأفعال العباد من طاعة أو معصية، فلا حاجة إلى كتاب ولا إلى شاهد، ولكن الكتب والشهود تشهد يوم القيامة إلزامًا للحجة، وهو سبحانه لا يخفى عليه شيء من أعمال خلقه، إنه يعلم السر وأخفى، ومع ذلك فقد أحصت الملائكة عليهم أعمالهم، وشهد عليهم أعدل الشهداء، وحكَم بينهم أعدل الحاكمين، فلم يسعهم إلا الإقرار والاعتراف، ومن ثَم فإنهم يحمدون الله تعالى على حُكْمه بينهم، وعدله فيهم ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

المَشْهَدُ السَّادِسُ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ القِيَامَةِ: مَصِيرُ الكُفَّارِ

ثم أخذ سبحانه يفصِّل أحوال أهل الشقاء وأهل السعادة، فقال في أهل النار:

٧١، ٧٢- ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ[1] أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بتخفيف تاء (فتحت) على الأصل في الفعل، والباقون بتشديدها للتكثير.

خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

وكما افترق الناس في الدنيا بين الإيمان والكفر، والتقوى والفجور، فإنهم يفترقون يوم القيامة بين الجنة والنار:

أي: يساق الذين كفروا بالله ورسله إلى جهنم، جماعات متفرقة، بعضها يتلو بعضًا، لكل جماعة منهم قائد، هو رأسهم في الكفر، يساقون كما تساق الإبل العطشى إلى موارد المياه، قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم].

فيُدفعون دفعًا، لا متناعهم من دخولها، ويُزْجرون زجرًا، أفواجًا أفواجًا.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطور].

فيساقون سوقا عنيفًا، يُضْرَبون بالسياط المُوجِعَة من الزبانية الشداد الغلاظ إلى جهنم،، دار العذاب والشقاء.

وقال سبحانه: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٦].

وقال أيضًا: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّاۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

ويكونون جماعات، على حسب درجات كفرهم، كل زمرة مع الزمرة التي تناسبها وتشاكلها، حيث يبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضًا.

وهكذا، فمن كفر وصد عن سبيل الله، وقَتَل أو قاتل رُسل الله، أو الدعاة إلى الحق، لا يستوي عند الله بمن كفر ولم يتعرض للدعوة والدعاة.

وحين يصل الكفار إلى أبواب جهنم، يجدون الخزنة قد فتحوا أبوابها السبعة، لقدومهم، كما قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر].

ثم تزجرهم الخزنة، ويقولون لهم: كيف تعصوْن ربكم، وتَجْحَدون ربوبيته لكم، وقد أنزل عليكم الكتب وأرسل لكم الرسل، يحذرونكم أهوال هذا اليوم، ويخوفونكم لقاء ربكم، فيجيب أهل النار مُقرين بذنوبهم ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بالحق، وحذّرونا

هذا اليوم، وأقاموا علينا الحجج والبراهين وأنذرونا بما سنلقاه، ولكنا كذَّبناهم وخالفناهم، ولَمَّا تكبرنا وكفرنا حَقَّتْ علينا كلمة الله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]. من كل من كفر بالله وجحد، ما جاءت به رسل الله.

وكما جاء في الآية الأخرى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الصافات].

ولكن هذا الاعتراف وهذا الندم لا ينفع؛ إذ فات وقت المهلة.

وقال تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك].

قال جلَّ شأنه: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨].

وحينئذ يقال لأهل النار: ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ فقد فتحت لكم لتدخلوها مهانين أذلاء، ماكثين فيها أبدًا لِتصلَوْا سعيرها فلا خروج لكم منها، جزاء إصراركم على الكفر، وهنا تقول لهم الخزنة: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: قَبُح مصير المتعالين على الإيمان بالله ورسوله، والعمل بشرعه، وبئس المسكن الدائم لهم، وبئس المقر مقرهم، لأنهم تكبروا على الله ، فكان جزاؤهم من جنس عملهم خزي وذل وإهانة.

المَشْهَدُ السَّابِعُ مِنْ مَشَاهِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ: مَصِيرُ الْمُتَّقِينَ:

وبعد بيان مصير الكافرين يأتي مصير المتقين:

٧٣- ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

أي: تسوق الملائكة مراكب الذين اتقوا ربهم فوحدوه وعملوا بطاعته، إلى دار الكرامة والرضوان، وفودًا وفودًا، في إعزاز وتشريف وتكريم، بحسب مراتب التقوى.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ [مريم].

فسَوْق أهل النار: زجْرهم وطردهم كما يساق المجرمون إلى السجون.

وحَشْرُ أهل الجنة معناه: سَوْق مراكبهم على النجائب، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها وتشاكله، كما يُفعل بالوافدين على الملوك، وعندما يصل المتقون إلى الجنات، تفتح لهم أبوابها ، فترحب بهم الملائكة، ويحيونهم بالبِشْر والسرور ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا

﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي: والحال أن أبوابها تفتح لهم من باب التكريم والحفاوة ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أي: طابت أحوالكم، وطُهِّرتم من دنس المعاصي والذنوب، وسَلِمتُم من كل الآفات ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ أي: ادخلوا الجنة ماكثين فيها أبدًا.

وأبواب النيران تكون مفتوحة عند قدوم أهلها عليها، فيدخلونها بلا حفاوة ولا استقبال.

ولذا دخلت الواو على الثانية دون الأولى، وهي واو الحال، وليس فيها دلالة على زيادة أبواب الجنة على أبواب النار، كما قيل: إن العرب تعطف بالواو فيما فوق السبعة، فالعطف لا يقتضي الزيادة.

أحاديث في المعنى:

١- ويستفاد عدد أبواب الجنة، مما صح عن رسول الله ﷺ من حديث سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**في الجنة ثمانية أبواب، فيها باب يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون**»[1].

٢- وفي حديث عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ما منكم من أحد يتوضأ فيسبُغ الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء**»[2].

٣- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من أنفق زوجين -أي: فَرسان أو بعيران- من ماله في سبيل الله، دُعي من أبواب الجنة، وللجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد**»،

(١) «المسند» (٥/ ٣٣٣) بنحوه، والبخاري برقم (١٨٩٦، ٣٢٥٧) وهذا لفظه، ومسلم (١١٥٢) مطول بدون ذكر ثمانية أبواب، والترمذي (٧٦٥) وقال: حسن صحيح غريب، والنسائي (٤/ ١٦٨) وابن ماجه (١٦٤٠) والطبراني (٥٧٥٤، ٥٧٦٤، ٥٧٩٥، ٥٩٧٠).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٣٤) وابن أبي شيبة (١/ ٤٠٣) و«المسند» (١٢١) برقم (١٧٣١٤) عن عقبة بن عامر، وأبو داود (١٦٩) و«السنن الكبرى» للنسائي (٩٩١٢) وأبو يعلى (١٨٠).

فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما على أحد من ضرورة من أيها دُعي، فهل يُدعى أحد منها كلها؟ قال: **«نعم، وأرجو أن تكون منهم»**[١].

٤- ومما ورد في وصف أهل الجنة ما جاء عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أول زُمْرة من أمتي يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة»**[٢].

ودخول الجنة يكون بعد اجتياز الصراط، والحبس على قنطرة بين الجنة والنار، حتى يقتصَّ ما بينهم من مظالم، فإذا هُذبوا ونُقُّوا أُذن لهم في دخول الجنة، والنبي ﷺ هو أول من يقرع باب الجنة، وأول من يشفع لدخولها.

٥- ثبت في الصحيح: عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: **«أنا أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة، وأنا أول من يقرع»**[٣] أي: يقرع باب الجنة.

وهو ﷺ أول شفيع في الجنة كما قال ﷺ: **«أنا أول الناس يشفع في الجنة»**[٤].

٦- وفي حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ **«آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفْتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أُمرت ألَّا أَفْتح لأحد قبلك»**[٥].

هذا: وقد وصفت السورة مصائر أهل الكفر وأهل التقوى يوم الحشر والنشر، وسكتت عن مصير أهل المعاصي من مرتكبي الكبائر؛ لأن مصيرهم إلى الجنة بعد عقابهم على

---

(١) البخاري (١٨٩٧) ومسلم (١٠٢٧) ومالك (٢/ ٤٦٩) وأحمد (٧٦٣٣) والترمذي (٣٦٧٤) والنسائي (٢٢٣٧) وابن حبَّان (٣٠٨)، ومصنف عبدالرزاق (٢٠٠٥٢) وابن خزيمة (٢٤٨٠) والبغوي (١٦٣٥)

(٢) البخاري (٣٢٤٦) ومسلم (٢٨٣٤/ ١٥) جزء من حديثهما، و«المسند» (٢/ ٢٣٠) برقم (١٠١٢٢،٧١٥٢، ١٠٥٢٤) بنحوه، وابن ماجه (٤٣٣٣) وعبدالرزاق (٢٠٨٧٩) وأبو يعلى (٦٠٨٤) والترمذي (٢٥٢٢) عن أبي سعيد.

(٣) من حديث أنس في «صحيح مسلم» برقم ٣٣١- (١٩٦).

(٤) من حديث أنس في «صحيح مسلم» ٣٣٠- برقم (١٩٦).

(٥) «المسند» (١٢٣٩٧) إسناده صحيح على شرط مسلم، ومسلم (١٩٧) وعبد بن حميد (١٢٦٩) والبغوي (٤٣٣٩) والبيهقي في الدلائل (٥/ ٤٨٠).

معاصيهم التي لم يتوبوا منها، مما هو دون الشرك.

٧- وفي الحديث: عن عتبة بن غزوان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، ولَيأتينَّ عليه يوم وهو كظيظ من الزحام»**[(١)].

٨- وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أول زمرة تلج الجنة، صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها ولا يمتخطون، ولا يتغوطون، آنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم من الألوَّة، وَرشْحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان»**[(٢)].

قال علي بن أبي طالب ﷺ: إذا سيقوا إلى الجنة، فإذا انتهَوْا إليها وجدوا عند بابها شجرة، يخرج من تحتها عينان، فيغتسل المؤمن من إحداهما، فيَطْهُر ظاهره، ويشرب من الأخرى، فيطهر باطنه، وتتلقاهم الملائكة على أبواب الجنة، يقولون: سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين[(٣)].

وفي الآيات دليل على أن النار والجنة لهما أبواب تفتح وتغلق، وأن لكل منهما خزنة، ولكل منهما أهل يستحقها بخلاف سائر الأمكنة.

المؤمنون يتبوّؤون مقاعدهم في الجنة

٧٤- ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

وعندما يدخل المؤمنون الجنة، يحمدون الله تعالى على ما منحهم من النعيم الذي وعدهم به في مثل قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف].

وقوله سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: ٦٣].

وهكذا يقول المؤمنون بعد دخولهم الجنة: الحمد لله الذي صدقنا ما وعدَنا به، على ألسنة رسله بدخول الجنة والاستقرار فيها، والتمتع بنعيمها، وأورثنا أرض الجنة، وملَّكنا

---

(١) من حديث عتبة بن غزوان في «صحيح مسلم» برقم (٢٩٦٧) من حديث طويل، و«المسند» (٥/ ٣) برقم (٢٠٠٢٥) عن معاوية بن حيدة، بإسناد حسن، وابن حبان (٧٣٨٨) والبيهقي في البعث والنشور (٢٣٩).

(٢) يُنظَر: البخاري برقم (٣٢٤٥، ٣٣٢٧) ومسلم: (٢٨٣٤).

(٣) «تفسير الطبري» (٢٤/ ٣٥) وابن المبارك في «الزهد» برقم (١٤٥٠) والضياء المقدسي في «المختارة» (٥٤١).

إياها، لا ينازعنا فيها أحد، نتصرف فيها كيف نشاء، ونتنقَّل في الغرف والبساتين، ونتقلب في النعيم، لا يزاحمنا مزاحم، ولا ينازعنا منازع، ونعم ثواب المحسنين الذين أطاعوا ربهم، في زمن قليل، فنالوا خيرا عظيمًا لا يفْنى ولا يزول.

قيل[١]: إن أمة محمد ﷺ يدخلون الجنة قبل الأمم، فينزلون حيث يشاؤون، ثم تنزل الأمم بعدهم، ومصير أهل المعاصي من المؤمنين مصير المتقين -حسب درجات التقوى- بعد تطهيرهم وأخذ عقابهم على معاصيهم، وأهل الجنة يرثون عن أهل النار مقاعدهم في الجنة، ويرث أهل النار عن أهل الجنة مقاعدهم في النار.

الْحَمْدُ لِلَّهِ فِي بِدَايَةِ كُلِّ أَمْرٍ وَخَاتِمَتِهِ

٧٥- ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

أي: وترى -يا محمد- الملائكة محيطين بعرش الرحمن، مُحْدِقين به من كل جانب، مصطفِّين حوله، وهم ينزِّهون ربهم عن كل ما لا يليق بجلاله، ويعظِّمونه، متلبسين بحمدهم له سبحانه، يسبحونه تسبيح تلذُّذ، لا تسبيح تعبُّد؛ لأنه لا تكليف في الآخرة، وقضى بين الخلائق بالحق والعدل، وحمدوا ربهم على هذه النهاية العادلة.

وبهذا يكون قد تم فصل القضاء بينهم؛ فأُدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

وحمدَتِ الملائكة والرسل والمؤمنون ربهم على عدله في قضائه، وعلى تمام نعمته عليهم، حَمْد فضل وإحسان، وحمد عدل وحكمة.

قال قتادة: ابتدأ الله ذكر الخلق بالحمد، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١].

وخَتم استقرار الفريقين في منازلهم بالحمد، فنبَّه على تحميده في بداية كل أمر وخاتمته.

تم تفسير (**سورة الزمر**) ولله والمنة

---

(١) قاله أبو سليمان الدمشقي كما في «تفسير زاد المسير».

تَفْسِيرُ سُورَةِ غَافِرِ (٤٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (غافر) هي السورة الأربعون في ترتيب المصحف، والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الزمر) وقبل سورة (فصلت).

وعدد آياتها خمس وثمانون آية في المصحف الكوفي[(١)].

وعدد كلماتها ألف ومئة وتسع وتسعون كلمة.

وعدد حروفها أربعة آلاف وتسع مئة وستون حرفًا.

وهي سورة مكية بلا استثناء على الصحيح.

قال سمُرة بن جُنْدُب: نزلت الحواميم جميعًا بمكة[(٢)].

وقال مسروق: آل حم أنزلت بمكة[(٣)].

وقال ابن عباس ﷺ: أنزلت الحواميم السبع بمكة[(٤)].

واستثنى الحسن قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾[(٥)] الآية [٥٥].

واستثنى أبوالعالية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ الآية [٥٦] على زعم أنها نزلت في بعض يهود المدينة، جادلوا النبي ﷺ في أمر الدجال[(٦)].

وقد قرأ أبو بكر ﷺ قوله تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ الآية [٢٨] حين آذى نفر من قريش رسول الله ﷺ حول الكعبة، وكان ذلك سنة ثلاث قبل الهجرة، عندما اشتد

---

(١) وأربع وثمانون آية في المصحف المكي والمدني الأول والثاني والحمصي، واثنتان وثمانون آية في المصحف البصري، وست وثمانون آية في العدد الدمشقي.

(٢) رواه الديلمي (٦٨١٣) وبذلك قال ابن عباس وابن الزبير ومسروق.

(٣) الطبري (٢١/ ١٢٥).

(٤) ابن الضريس (١٧) والنحاس (٦٤٩) والبيهقي (٧/ ١٤٢).

(٥) ،(٦) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٣/ ٧٥) و«فتح القدير» للشوكاني (٤/ ٤٦٢).

إيذاء قريش للنبي ﷺ بعد وفاة أبي طالب، وخديجة ﷺ.

أسماؤها

١- وسميت سورة (غافر) لقوله تعالى في أولها: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ واشتهرت بذلك.

٢- وتسمى سورة (الطَّوْل) لقوله تعالى فيها : ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِۖ﴾.

٣- وتسمى أيضًا سورة (المؤمن) لانفرادها بقصة مؤمن آل فرعون.

قال ابن الزبير: نزلت سورة (المؤمن) بمكة[١].

٤- وتسمى سورة حم (المؤمن)[٢].

سور آل حميم السبع:

وهي السور السبع التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١﴾ وقد رُتِّبَتْ في المصحف وفق ترتيب نزولها هكذا: غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف.

وتسمى سور **آل حميم** لاتحاد فواتحها، ومثلها السور المفتتحة بقوله تعالى: ﴿طسٓۚ﴾ و﴿طسٓمٓ ۝١﴾ يقال لها: **طواسين** بالنون تغليبًا، وربما جُمعتْ على **حواميم** جاء ذلك عن ابن عباس، وابن مسعود، وسمُرة بن جندب، وغيرهم.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: آل حميم ديباج القرآن[٣].

وقال ابن عباس ﷺ: إن لكل شيء لُباب، ولُباب القرآن آل حميم، أو قال: الحواميم[٤].

ورأى رجل أبا الدرداء يبني مسجدًا فقال له: ما هذا؟ فقال: أَبْنِيه من أجل آل حميم.

---

(١) أخرجه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (١٣/ ٥).

(٢) وقد ورد بذلك حديث ضعيف عن أبي هريرة في «ضعيف سنن الترمذي» برقم: (٥٤٠) والبيهقي (٢٤٧٣) وابن نصر في «مختصر قيام الليل» ص٦٨ وفيه: أن من قرأ آيتين من أولها وآية الكرسي حُفظ بهما في صباحه ومسائه.

(٣) قال الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٨/ ٣٢): إسناده صحيح، ورواه البيهقي (٢٤٧١) والحاكم (٢/ ٤٣٧) وأبو عبيد (١٣٧) وابن الضريس (٢) وجاء مثله عن أنس ﷺ.

(٤) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص ١٣٧ .

قال ابن كثير: وقد يكون هذا المسجد هو المسجد المنسوب إليه داخل قلعة دمشق[١].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من قرأ آية الكرسي، وأول حم المؤمن عُصِمَ ذلك اليوم من كل سوء»**[٢].

موضوعات سورة (غافر)

وسورة (غافر) تخلو من الأحكام، وتقتصر على المواعظ والزواجر، والحديث عن الدار الآخرة، وهي سورة لا يلحق قارئها ملل ولا سآمة.

والسورة تعالج قضية العقيدة: الإيمان والكفر، والحق والباطل، والهدى والضلال، والدعوة والتكذيب، كما تعالج قضية الطغيان والتجبّر في الأرض بغير الحق.

وفي ثنايا ذلك تَعْرِض آيات السورة لمصارع الغابرين، فيقول تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ﴾ الآية [٥].

ويدعو الله عز وجل في هذه السورة إلى السياحة في الأرض للتأمل في أحوال المكذبين، ويأتي ذلك مرتين ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ الآية [٢١].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ الآية [٨٢].

وتُفرِد السورة بالذكر، قصة موسى وفرعون، الذي زيَّن الشيطان له سوء عمله، فطلب من وزيره هامان أن يبني له صرحًا ليطَّلع إلى إله موسى!

وفي ثنايا القصة يَبْرُزُ دَوْر مؤمن آل فرعون في صورة مُحامٍ قدير يدافع عن قضايا الإيمان، فينصح الفراعنة بأن يوسف ﷺ قد جاءهم قبل موسى ليهاجم الوثنية السائدة فيهم، ويدعوهم إلى التوحيد الخالص، فلم يزالوا في شك من دعوته حتى مات، فلما أرسل الله موسى من بعده تكررت المأساة، وامتدَّ حبل الكفر فيهم، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب، ومن هو مسرف كذاب.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٢٦).

(٢) «سنن الترمذي» برقم: (٢٨٧٩) والبيهقي في «الشعب» برقم: (٢٢٤٥) وقد ضعَّفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» برقم: (٥٤٠).

وتتحدث السورة عن يوم التلاقي والفصل والجزاء ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ الآية [١٦].

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ الآية [٧].

وبعد بيان أن فرعون وآله يُعْرَضُون على النار صباحًا ومساء وهم في قبورهم، يقال عنهم يوم القيامة: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ الآية [٤٦].

بعد ذلك يأتي بيان مفصَّل للتلاوُم الذي يحصُل يوم القيامة بين مَنْ يُعذَّبون في النار من الضالين والمضلين، أو الأتباع والمتبوعين، أو الرؤساء والمرؤوسين.

وتستعرض السورة جانبًا كبيرًا من دلائل التوحيد، ومنها: خلْق السموات والأرض، والليل والنهار، وجعْل الأرض قرارًا والسماء بناءً، وأطوار خلْق الإنسان، والحياة والموت.

ثم يأمر الله سبحانه بالتوحيد في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الآية [٦٥].

وينْهَى سبحانه عن الشرك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [٦٦].

ويُبيِّن الله عز وجل أن عدم التوحيد هو السبب في خلود الكافر في النار، وأنه لا يوجد له سبيل إلى الخروج منها ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ [١١، ١٢].

وفي هذا السياق تَرِدُ آيات ثلاث، مفتتحة باسم الجلالة تُعرِّف وتذكِّر بحق الله تعالى على خلقه:

١- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [٦١].

٢- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [٦٤].

٣- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [٧٩].

وفي هذا الصدد أيضًا تعرض السورة **خمس مرات** لمن يكابر ويجادل بالباطل، ويتعامى عن وحدانية الله تعالى فيصفه الله تبارك وتعالى بالكفر والجدال بالباطل:

١- ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [٤].

٢- ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [٥].

٣- ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ﴾ [٣٥].

٤- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ [٥٦].

٥- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (٦٩)﴾ [٦٩].

وجاء الأمر **بالصبر** في السورة **مرتين** للنبي ﷺ في الآيتين ٥٥ و٧٧.

كما جاء فيها الأمر بالتوجه إلى الله تعالى بالدعاء **مرتين** في الآيتين ٦٠و٦٥.

وأسلوب سورة (غافر) أسلوب المحاجة، والاستدلال على صدق القرآن، وأنه منزل من عند الله تعالى،وإبطال ضلال المكذبين، وضرْبُ المثل لهم بالأمم المكذبة،وترهيبهم من التمادي في ضلالهم، وترغيبهم في التبصُّر ليهتدوا.

ويمكن تقسيم السورة إلى **أربعة مقاطع**:

المقطع الأول: من أول السورة إلى الآية الثانية والعشرين منها، وهو يشتمل على افتتاح السورة بصفات الله الحسنى وآياته العظمى.

ثم تعرض السورة إلى المجادلين في آيات الله مع وضوح الحق وسطوعه.

وتبيِّن وظيفة الملائكة واستغفارهم للمؤمنين، أما الكفار فإن غضب الله تعالى وملائكته عليهم أكبر من مقتهم لأنفسهم بسبب وقوعهم في الشرك بالله تعالى، ومن ثَم وجب عليهم إخلاص العبادة لله وحده قبل أن تُجزى كل نفس بما كسبت، وعلى غير المسلمين أن يعتبروا بما حدث لغيرهم من سوء المصير.

المقطع الثاني: وهو من الآية الثالثة والعشرين إلى الآية الخامسة والخمسين، وفيه الحديث عن رسالة موسى عليه السلام، ومحاربة فرعون لها، ومناصرة مؤمن آل فرعون لدعوة التوحيد، ونصيحته لقومه ودفاعه عن موسى ﷺ وصَدْعه بكلمة الحق في تلطُّف وحذَر، ثم في صراحة ووضوح، ويحذرهم الرجل المؤمن من عقاب الله تعالى، ويذكِّرهم برسالة يوسف عليه السلام وموقفهم منها، ويبيِّن مصيرهم في الدار الآخرة.

ويتناول هذا المقطع قصة المتخاصمين في النار، والحوار بين الضعفاء والمستكبرين، ويُختم بما بدأ به من الإشارة إلى رسالة موسى عليه السلام، وأمْر الله تعالى لنبيه ﷺ أن يصبر على أذى قومه، كما صبر موسى على أذى بني إسرائيل وفرعون وقومه.

المقطع الثالث: وهو من الآية السادسة والخمسين إلى الآية السابعة والسبعين، وهو مقطع يقيم مجموعة من الأدلة الكونية على وحدانية الله تعالى من السموات والأرض، والليل والنهار، وأطوار خلق الإنسان، في مواجهة المجادلين في آيات الله بغير حجة ولا برهان.

وفي ثنايا ذلك تَعْرِض آيات السورة إلى الأمر بتوحيد الله تعالى وذم الشرك وأهله.

ويُختم هذا السياق بما خُتم به المقطع السابق من أمر النبي ﷺ بالصبر على أذى قومه، فإن الله تعالى ناصره ومعذِّب المكذبين به إن عاجلًا أو آجلًا.

أما **المقطع الرابع** والأخير فهو من الآية الثامنة والسبعين إلى نهاية السورة، وهو ثماني آيات، فيها مواساة للنبي ﷺ بأن الله تعالى قد أرسل قبله رسلًا كثيرين، وأن الله تعالى قد أهلك المكذبين لهم من سائر الأمم، فهم لم يصدِّقوا الرسل ولم يشكروا نعم الله عليهم، ولكي تعتبر هذه الأمة بغيرها فإن عليها أن تدرس التاريخ، وأن تتعرف على مصارع الأمم المكذبة لرسل الله، فإن سُنَّة الله تعالى ماضية في خلقه جميعًا بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.



تَفْسِيرُ السُّورَةِ

١- ﴿حمٓ[١] ۝١﴾

الحاء والميم من الحروف الهجائية المقطعة، المفتتح بها بعض السور، الله أعلم بمراده منها، ومما قيل فيها: أنها للتنبيه على إعجاز القرآن، وبيان أنه مكوَّن من الحروف التي ينطقها المعارضون للقرآن، ومع ذلك فقد عجزوا عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه، وهي أيضًا لإيقاظ العقول، حتى يتأملوا ما في القرآن من الهداية ودلائل التوحيد... وقراءة ﴿حمٓ ۝١﴾ عند لقاء العدو تكون سببًا في هزيمته:

عن أبي المهلَّب بن أبي صُفْرة قال: حدثني من سمع النبي ﷺ يقول ليلة الخندق: **«إن بُيِّتُم الليلة فقولوا: حم؛ لا يُنصرون»**[٢].

وعن البراء بن عازب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إنكم تلقوْن عدوكم غدًا، فليكن شعارُكم: حم لا يُنصرون»**[٣].

ثَمَانِي صِفَاتٍ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا نَفْسَهُ

٢، ٣- ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾

ابتدأت السورة بالتنويه بشأن القرآن الجامع لأصول الدين، أي: أن هذا القرآن منزل من عند الله تعالى المستحق للعبادة دون سواه، على النبي محمد ﷺ وليس من عند أحد غيره.

ثم وصف الله تعالى سبحانه نفسه **بثماني صفاتٌ**، تليق بجلاله تعالى، فهو سبحانه:

---

(١) سكت أبو جعفر على حا، وميم سكتة لطيفة بدون تنفس، وقد انفرد الكوفي بعد (حم) آية، ولم يعدها غيره.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٩٤٦٧) وأبي عبيد ص١٣٧ وابن سعد (٢/ ٧٢) وابن أبي شيبة (١٤/ ٤١٤) وأبي داود (٢٥٩٧) والترمذي (١٦٨٢) والحاكم (٢/ ١٠٧) وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٢٦٢).

(٣) «صحيح الجامع الصغير» (٢٣٠٤) وابن أبي شيبة (١٢/ ٥٠٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٤٥١) والحاكم (٢/ ١٠٧).

(أ) ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب لكل من سواه، الذي يقهر بعزته وقوته كل مخلوق، ولا يقدر عليه أحد.

(ب) وهو ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ المطلع على أحوال خلقه، دون أن يخفى عليه شيء منها، ولا يندُّ عن علمه شيء.

وفي هذا إشارة إلى أنَّ منكري القرآن مقهورون، مغلوبون، وأن الله تعالى سيحاسبهم ويجازيهم وأنه ليس في وسع أحد أن يأتي بمثله، وفيها إشارة أيضًا إلى أنه سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته.

(ج) وهو سبحانه ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ لأوليائه، يستر ذنوب عباده، فيغفر للمستغفرين، ويعفو عن مستحقي العفو والغفران.

(د) ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ ممن تاب إليه، يقبل توبة: الكفار، والمنافقين، والعصاة والمبتدعين، ويفتح لهم أبوابه بلا حجاب، وفي هذا إشارة إلى أن من كفر بالقرآن ورسول الإسلام، يمكنه أن يتدارك نفسه بالتوبة.

ومِنْ فَضْل الله تعالى أنه يجمع للمذنب التائب بين رحمتين:

الرحمة الأولى: أن الله تعالى يجعل توبته طاعة وقربى إلى الله سبحانه.

الرحمة الثانية: أن الله تعالى يمحو عن التائب الذنوب التي تاب منها وندم عليها، فيصبح كأنه لم يفعلها.

وكما غفر الله تعالى لمن تاب من الأمم السابقة وقَبِل إيمانهم يغفر لكم ذنوبكم ويقبل منكم توبتكم ويثيبكم عليها.

(هـ) وهو جلَّ شأنه ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على من تجرأ على الذنوب من أعداء الله تعالى، ولم يتب منها، فطغى وتكبر، وأشرك بالله تعالى، أو كذَّب بالقرآن ورسول الإسلام، ثم لم يتب ولم يستغفر ويصدق بما أنزل الله على رسوله، بل كذَّب وجحد وأنكر.

وكثيرًا ما يقرن الله تعالى بين المغفرة والعقاب، كما في قوله تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [المائدة].

(و) ومن صفاته تعالى أنه ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ أي: صاحب الإنعام والإحسان الشامل والتفضل على عباده الطائعين، يضاعف لهم الحسنات، ويعطي بلا حساب بمحض فضله وإحسانه، وليس بموجب استحقاقهم لذلك.

(ز) ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا الله، لا رب غيره، ولا معبود سواه.

فهو وحده الذي تَخْلُص له الأعمال، ويُتَوجه له بالعبادة.

(ح) ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: إليه مرجع جميع الخلائق يوم الحساب والجزاء لا إلى غيره، فيجازي كُلًّا بما يستحق، لا مهرب من حسابه، ولا مفرَّ من عقابه.

وقُدِّمَت المغفرة والتوبة على العقاب، إشارة إلى سعة فضل الله تعالى، وأن رحمته سبقت عذابه.

وهذه الصفات الثمانية مستلزمة لما اشتمل عليه القرآن الكريم من معاني، فالقرآن:

١- إما إخبار عن أسماء الله وصفاته وأفعاله، وقد جاء هذا في صفة العزة ﴿الْعَزِيزِ﴾.

٢- وإما إخبار عن الغيب الماضي والمستقبل، وقد جاء هذا في صفة ﴿الْعَلِيمِ﴾.

٣- وإما إخبار عن نعم الله وآلائه، وقد دل عليها قوله ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾.

٤- وإما إخبار عن عقابه وعذابه، وقد دل عليه قوله ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾.

٥-،٦ - وإما دعوة المذنبين إلى التوبة والإنابة ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾.

٧- وإما إخبار بأنه سبحانه المألوه المعبود بمقتضي الأدلة العقلية النقلية[1] ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٨- وإما إخبار عن الثواب والعقاب والجنة والنار ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

جاء رجل إلى عمر بن الخطاب ﷺ، فقال: يا أمير المؤمنين، إني قتلت، فهل لي من

(١) استفدت في هذه المعاني من تفسير الشيخ عبدالرحمن السعدي للآيتين.

توبة؟ فقرأ عليه أول سورة غافر، وقال: اعمل ولا تيأس[١].

وورد أن رجلًا -من أهل الشام- ذا بأس كان يفد على عمر ﷺ، فافتقده، فسأل عنه، فقالوا: إنه يشربُ الخمر، فكتب عمر إليه يقول: من عمر بن الخطاب إلى فلان، سلام عليكم، أما بعد: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾.

ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يُقْبِل بقلبه، وأن يتوب الله عليه، فلما وصل الرجل كتاب عمر أخذ يردِّده ويقول: غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب، قد حذَّرني عقوبته، ووعدَني أن يغفر لي، قال: فلم يزل يرددها على نفسه حتى بكى، ثم نزع، فأحسن النزع.

فلما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخاكم زلَّ زلَّة فسددوه ووفقوه، وادعوا الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوانًا للشيطان عليه[٢].

قال ثابت البناني: كنت مع مصعب بن الزبير في سواد الكوفة، فدخلتُ حائطًا أُصَلِّي ركعتين، فافتتحتُ ﴿حمٓ ۝١﴾ المؤمن، حتى بلغتُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فإذا رجل خلفي على بغلة شهباء، عليه مُقطَّعات يَمَنية، فقال: إذا قلت: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ فقل: يا غافر الذنب اغفر لي ذنبي، وإذا قلت: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ فقل: يا قابل التوب اقبل توبتي، وإذا قلت: ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ فقل: يا شديد العقاب لا تعاقبني، قال: فالتفتُّ فلم أرَ أحدًا...[٣].

لَا يُجَادِلُ فِي صِدْقِ الْقُرْآنِ إِلَّا كَافِرٌ: الْآيَةُ الْأُولَى عَنِ الْجَدَلِ فِي السُّورَةِ

٤- ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤﴾

وبعد أن وصف الله نفسه بثمانية أوصاف تقُرر وحدانيته تعالى، وتبيِّن أن هذا القرآن من

(١) «تفسير الطبري» (٢٤/ ٢٧) وابن أبي حاتم.

(٢) يُنظَر: «حلية الأولياء» (٤/ ٩٧) و«تفسير القرطبي» (١٥/ ٢٩١) و«تفسير ابن كثير» (٧/ ١٢٨) و«الدر المنثور» (١٣/ ١١) وهو عن يزيد بن الأصم عند عبد بن حميد.

(٣) من «تفسير ابن كثير» للآية (٧/ ١٢٩) وهو عند ابن أبي شيبة (١٠/ ٤٤٨).

عند الله تعالى، بيَّن سبحانه أن الذين آمنوا لا يجادلون في صدق نسبة القرآن إلى الله تعالى، ولا يجادلون في كل ما هو معلوم من الدين بالضرورة، ولا يجادل في صدق القرآن إلا الذين كفروا بوحدانية الله تعالى، وبالرسول الخاتم، فقد أتَوْا بما هو أعظم من المجادلة في آيات الله، وهو الشرك بالله تعالى.

وهذه المجادلة بالباطل تعود على قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾﴾ فهي متعلقة بالكتاب المنزل من عند الله العزيز العليم، المشتمل على براهين وحدانية الله تعالى، أما الجدال لاستيضاح الحق، ورفع اللبس، وردُّهم بالجدال إلى الحق فهو من أعظم القربات إلى الله تعالى. والجدال بالباطل من شأن أهل الكفر والشرك، أما المؤمنون فإنهم يخضعون للحق وينقادون له، ولا يعاندون ولا يكابرون.

ومع أن هذه السورة تسمى سورة (غافر) فإنها تعلن حربًا على الجدال السيِّئ، والمكابرة بالباطل، والتعامى عن الحق، وذلك في خمسة مواقع من السورة تكشف فيها الغطاء عن عنادهم وغرورهم.

ثم نهى سبحانه عن الاغترار بتردد الكفار في البلاد بأنواع التجارات والصناعات والمكاسب، ونعيم الدنيا وزهوتها وبهجتها وحضارتها، فقال: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾.

ولا تظن أن إعطاء الكافر الدنيا، دليل على محبة الله تعالى له، أو أنه على الحق؛ فإن الحق يُنْظَر إليه من خلال الحقائق الشرعية، ويُوزَن به الناس، ولا يُوزَن الحق بالناس.

كما قال تعالى عن الكفار: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ [الحجر: ٣].

فإنهم في ظل زائل، ومتاعٍ قليل، وشقاء وقلق وتعاسة، وهم معاقبون عما قليل، وإن أُمهِلوا فإنهم لا يُهمَلون.

قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران].

وقال سبحانه: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان].

قال أبو العالية: آيتان ما أشدهما على الذين يجادلون في القرآن.

الأولى: قوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

والثانية: قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [البقرة: ١٧٦].

وفي صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: هاجرتُ إلى رسول الله ﷺ يومًا، فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج ﷺ يُعْرَفُ في وجهه الغضب، فقال: «**إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب**»[1].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ قال: سمع رسول الله ﷺ قومًا يتمارون، فقال: «**إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله ﷻ بعضه ببعض، وإنما أنزل الكتاب يصدِّق بعضه بعضًا، فلا تكذِّبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوه، وما جهلتم منه فَكِلُوه إلى عالمه**»[2].

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله قال: «**جدالٌ في القرآن كفر**»[3].

وفي لفظ: «**مراء في القرآن كفر**»[4].

والمراد الجدال والمراء الذي يكون بقصد التكذيب والتشكيك والإبطال، أما ما كان لكشف الحقيقة وبيان الحكم فليس بكفر.

المَعْرَكَةُ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ قَائِمَةٌ عَلَى مَدَى التَّارِيخِ

٥- ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ[5] ﴿٥﴾﴾

---

(١) «صحيح مسلم» برقم: (٢٦٦٦).

(٢) «المسند» (٦٧٤١) قال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن، وهو في مصنف عبدالرزاق (٢٠٣٦٧) والبخاري في خلق أفعال العباد ص(٤٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٢٢٥٨).

(٣) «المسند» (٧٥٠٨) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ٥٢٩) وأبو يعلى (٥٨٩٧) والطبراني في الصغير (٥٧٤).

(٤) «صحيح سنن أبي داود» برقم: (٣٨٤٧) وهو في أبي داود برقم: (٤٦٠٣) والمسند (٧٨٤٨) قال محققوه: حديث حسن صحيح، وإسناده حسن، ابن علقمة حسن الحديث وقد توبع، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين وأخرجه البزار (٢٣١٣) كشف، والحاكم (٢/ ٢٢٣) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٢١٢).

(٥) أثبت يعقوب الياء في (عقاب) وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

بيَّن القرآن حقيقة المعركة بين الحق والباطل، والإيمان والكفر، وبيْن أنبياء الله والطغاة المستكبرين، فذكر سبحانه أنه يوجد قبل هؤلاء الكافرين المجادلين لرسول الله ﷺ بالباطل -أمم وأحزاب سبق لهم تكذيب الرسل ومجادلتهم ولم يقبلوا ما جاؤوا به من عند الله، كما كذبوك وجادلوك -أيها الرسول- فكان عقابي لهم أن أمهلتهم، ثم أخذتهم.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي: كذبت أمم رسلهم، قبل تكذيب كفار هذه الأمة لك يا محمد، فكل رسول يجيء يكذبه طغاة قومه، ويتحزبوا عليه، فقوم نوح كذَّبوا نوحًا، وعبدوا ودًّا وسُواعًا ويغُوث ويعُوق ونَسْرًا، وكذا من تلاهم من الأمم الذين اشتركوا في تكذيب الرسل.

﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فقوم عاد حزب، وقوم ثمود حزب، وأصحاب الأيكة حزب، وقوم فرعون حزب... وهكذا اشترك كل حزب في تكذيب رسولهم وردُّوا ما جاء به، من عند الله، وتجمّعوا على الباطل لينصروه، وعلى الحق ليدحضوه.

ولم يكتفِ هؤلاء الأقوام بتكذيب أنبيائهم، بل تجاوزوا ذلك إلى البطش بهم، والتآمر على قتلهم ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ فقد قُتل نبي الله زكريا، ونبيه يحيى، وتآمر قوم ثمود على قتل نبي الله صالح ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النمل].

وتآمرت قريش في دار الندوة على قتل النبي ﷺ ليلة الهجرة ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وإلى جوار ذلك فإنهم خاصموا رسلهم، وجادلوهم بالباطل ليبطلوا به الحق الذي جاؤوهم به من عند الله ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: **«من أعان باطلًا ليدحض بباطله حقًّا فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله»**[1].

---

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (١١/ ٢١٥) والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٠٠) موقوفًا وقال: صحيح الإسناد، وتعقبه الذهبي بأن فيه حنش الرحبي وهو ضعيف.

فهذه جرائم **ثلاث**: تكذيب الرسل، والتآمر عليهم، ومحاولة إبطال الحق الذي جاؤوا به، فكان عاقبة ذلك أن جعلهم الله عبرة للخلق، وعظة لمن يأتي بعدهم ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أخذ عزيز مقتدر، فدمرتُهم فأهلكتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ لقد كان أشد العقاب وأفظعة، ما هو إلا رجفة، أو صيحة، أو حاصب، أو غرق، فإذا هم خامدون، وهذا ما تشهد به آثار مصارعهم الباقية، وتنطق به الأخبار والروايات.

فاحذروا أيها المكذِّبون لخاتم المرسلين في هذه الأمة، أن يصيبكم ما أصابهم. قال تعالى:

٦- ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ[١] رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾

أي: وكما أخذْتُ هذه الأحزاب بالعذاب وأهلكتهم فقد حقت كلمة العذاب على جميع الكفار، مَنْ تقدم منهم ومَنْ تأخر، فهم أصحاب النار.

وعقابهم ليس مقصورًا على عذاب الدنيا، بل هو ممتد إلى الآخرة، تحقيقًا لوعيد الله تعالى، ووعيده نافذ لا محالة ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ﴾ أي: وجبت ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بالعذاب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾

وكلمات الله: هي الأقوال التي أوحى بها إلى الرسل بوعيد المكذبين بعذاب النار، وكما حق العقاب على الأمم السابقة التي كذبت رسلها، حق ذلك أيضًا على كل كافر إلى قيام الساعة، وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى لن يعاقِب أمة محمد ﷺ بعذاب الاستئصال.

مَلَائِكَةُ الرَّحْمَنِ تَدْعُو لِلْمُؤْمِنِينَ بِظَهْرِ الغَيْبِ

٧- ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ[٢] عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾

وبعد ذم الجاحدين لآيات الله، المجادلين بالباطل، يأتي الثناء على المؤمنين، حيث

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بإثبات ألف الجمع في (كلمة ربك)، والباقون بالإفراد، ووقف عليها الكسائي بالإمالة.

(٢) قرأ رويس بخلف عنه في ضم هاء (وقهم عذاب) وصلًا ووقفًا، والباقون بكسرها في الحالين وهو الوجه الثاني لرويس.

قيَّض الله لهم ملائكته المقربين يدعون لهم بظهر الغيب، وهذا من أسباب سعادتهم الخارجة عن كسبهم بأيديهم، حيث تستغفر لهم حملة العرش ومن حوله من الملائكة المقربين في المنزلة والفضيلة، وتدعوا لهم بما فيه صلاحهم في دينهم ودنياهم.

وقد وصف الله الملائكة بأنهم مداومون على التسبيح بحمد الله، لا يملُّون ولا يفترون، وأنهم يؤمنون بالله تعالى، وجميع الملائكة تؤمن بالله بالضرورة، فالإيمان راسخ ثابت في نفوسهم، وهو يتجدد بتجدد دلائله وآثاره.

وقد جاء وصف الملائكة بالإيمان تنبيهًا على فضله، وتنويهًا بشأنه وشرفه، وتعريضًا بغير المؤمنين حيث لم يحصل لهم شرف الإيمان.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ أي عرش الرحمن، وهو سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها، وأقربها من الله تعالى، والعرش أعظم الخلق، وقد أضافه الله تعالى إلى نفسه في قوله: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].
وحملة العرش هم أعلى طبقات الملائكة، وهم الموكَّلون برفع العرش المحيط بالسموات، وكذلك الملائكة الذين هم حول العرش، فهم في درجتهم في المزية والأفضلية.

واختيار الله تعالى لهم لحمْل عرشه، يدل على أنهم أفضل أجناس الملائكة.

. عن جابر بن عبد الله ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: **«أُذن لي أن أُحدِّث عن ملَك من ملائكة الله من حملة العرش، ما بين شحمة أُذنه إلى عاتقه مسيرة سبع مئة عام»**[١].

ومما ورد في تسبيح حملة العرش أن أربعة منهم يقولون: سبحانك وبحمدك على حلمك بعد علمك، وأربعة منهم يقولون: سبحانك وبحمدك على عفوك بعد قدرتك[٢].

وعن ابن عباس ﷺ قال: حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمس مئة عام، وذكر أن خُطْوة ملك الموت ما بين المشرق والمغرب[٣].

---

(١) يُنظَر: «صحيح سنن أبي داود» برقم: (٣٩٥٣) والبيهقي (٨٤٦)، وصححه الألباني أيضا في مشكاة المصابيح (٥٧٢٨) وفي السلسلة الصحيحة (١٥١).

(٢) جاء ذلك عن هارون بن رئاب في «الشعب» للبيهقي (٣٦٤) وأبي الشيخ (٤٨٣).

(٣) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» برقم: (٨٤٨) وقال محققه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

وجاء في السُّنَّة أن حملة العرش في الدنيا عددهم أربعة[١].

وأنهم في الآخرة يكونون ثمانية كما نطقت بذلك آية سورة الحاقة.

والعرش غيب، ولا نعلم عنه إلا اسمه، ومَنْ حول العرش هم أيضًا ملائكة مقربون يحفون به، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

ولا يعلم حقيقة عدد الملائكة إلا الله سبحانه ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

ومن فضل الله تعالى على عباده المؤمنين وتكريمه لهم أن جعل من وظائف حملة العرش ومن يطوفون حوله: الاستغفار للمؤمنين، والدعاء لهم بالخير، وهم يهللون ويكبرون ويسبحون الله، فهم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: ينزِّهون الله تعالى عن كل نقص، ويَلْهَجون بحمده والثناء عليه، وهذا التسبيح من الملائكة يجري منهم مجرى النفَس، فهو سجيَّة فيهم.

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: أن الملائكة يؤمنون بالله تعالى حق الإيمان.

ومن تسبيح الملائكة: سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان ذي الملْك والملكوت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبوح قدوس رب الملائكة والروح، سبحانك وبحمدك، ما أعظمك وأجلَّك، أنت الله لا إله غيرك، سبحانك اللهمَّ وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرْتك، سبحانك اللهمَّ وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علْمك.

ولأن الثناء على الله تعالى والتوجه إليه بسعة علمه ورحمته يكون مقدَّمًا على الدعاء فإن الملائكة افتتحت دعاءها للمؤمنين بالثناء على الله ﷻ ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أيْ: ياربنا، يا من وسعَتْ رحمتك، ووسع علمك كل شيء تقبَّل دعاءنا، وفي هذا تعليم للعباد أن يبدؤوا دعاءهم باستمطار رحمة الله تعالى وإنعامه عليهم، ويسألونه بأسمائه وصفاته، والثناء عليه:

---

(١) يُنظَر: «المسند» (١/ ٢٥٦) و«مجمع الزوائد» (٨/ ١٢٧).

الدُّعَاءُ الأَوَّلُ: طَلَبُ غُفْرَانِ الذُّنُوبِ لِلْمُؤْمِنِين

وبعد هذه التوطئة لمناجاة الله تعالى، والتوسل إليه بأسمائه وصفاته يَطلُب الملائكة من ربهم أن يعفو سبحانه عمن تاب من خلقه وأناب إليه، فيستغفرون للمؤمنين من عباده قائلين: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ أي: اغفر يا ربنا، لمن تاب من الشرك والمعاصي، وسلك الطريق الذي أمرتهم به وهو الإسلام.

والتوبة: هي الإقلاع عن المعاصي، وأعظمها الإشراك بالله، ومعلوم أن الملائكة لا تستغفر لكافر، وهذا لا يمنع طلب الهداية لغير المسلم.

واتباع سبيل الله: هو العمل بما أمرهم به، واجتناب ما نهاهم عنه.

الدُّعَاءُ الثَّانِي: طَلَبُ النَّجَاةِ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّارِ

وجنِّبهم يا ربنا، عذاب النار وأهوالها ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾. وهذا كدعاء عباد الرحمن في قولهم: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ [الفرقان].

قال مطرف بن الشخِّير: أنصح العباد للعباد الملائكة، وأغشُّ العباد للعباد الشياطين، وتلا هذه الآية[١].

وطلب رجل من بعض الصالحين أن يدعو له ويستغفر له، فقال له: تُب واتبع سبيل الله يستغفر لك من هو خير مني، وتلا هذه الآية [٢].

والملائكة يؤمِّنون على دعاء المسلم لأخيه المسلم بظهر الغيب:

كما في حديث أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملَك: آمين، ولك بمثله»**[٣].

وبعد أن سألت الملائكة ربها مغفرة الذنوب للمؤمنين ونجاتهم من عذاب الجحيم، توجهت إلى الله تعالى بالدعاء الثالث.

---

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/٥٤٨).

(٢) «تفسير ابن عطية» (٤/٥٤٨).

(٣) «صحيح مسلم» برقم: (٢٧٣٢).

الدُّعَاءُ الثَّالِثُ: طَلَبُ دُخُولِ الْجَنَّةِ لِلْمُؤْمِنِينَ

٨- ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾

أي: وأدخلهم يا ربنا جنات النعيم ينعمون بالإقامة فيها إقامة دائمة، كما وعدتنا على لسان رسلك ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران]. ﴿وَ﴾ أدخل معهم يا ربنا ﴿مَن صَلَحَ﴾ بالإيمان والعمل الصالح ﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ ليتمَّ بهم الأُنس والفرح والسرور.

فالملائكة يدعون ربهم أن يجعل مع المؤمنين أقاربهم من الأصول والفروع والزوجات، يكونون معهم في درجتهم في الجنة، في مساكن متقاربة لتقرَّ بهم الأعين، ويتم بهم السرور، كما قال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شيء، فبعزته تُغفر الذنوب وتُستر العيوب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبير شؤون خلقه، وهو الذي يضع الأمور في مواضعها، ومن ذلك تحقيق ما وعدنا به على ألسنة رسله من مغفرة الذنوب وستر العيوب.

قال سعيد بن جبير: يدخل الرجل الجنة قبل قرابته فيقول: أين أبي؟ أين أمي؟ أين زوجتي؟ فيلحقون به لصلاحهم وطلبه إياهم، وهذه دعوة الملائكة[1].

الدُّعَاءُ الرَّابِعُ: طَلَبُ وِقَايَةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الذُّنُوبِ وَعَوَاقِبِهَا

٩- ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ[2] وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

(١) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٥٤٨).

(٢) قرأ الأزرق عن ورش بثلاثة أوجه المد في همزة (وقهم السيئات)، والباقون بالقصر، وقرأ أبو عمرو وروح ورويس بخلف عنه بكسر الهاء والميم وصلًا من (وقهم) وحمزة والكسائي وخلف ورويس في وجهه الثاني بضم الهاء والميم وصلًا، وكل القراء يسكن الميم ويكسر الهاء عند الوقف إلا رويسًا فهو يضم الهاء في الحالين.

وبعد أن سألت الملائكة ربها النعيم الدائم للمؤمنين، أعقبوا ذلك بسؤال النجاة لهم من العذاب، فقالوا: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: جنِّبهم ارتكاب الذنوب والمعاصي، واصرف عنهم يا ربنا سوء عاقبة أعمالهم السيئة، فلا تؤاخذهم بها، فإن من تَصْرِف عنه سوء العواقب يوم الحساب والجزاء فقد حفظْته ونجَّيته من العقوبة.

﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: ومَنْ حفِظْته مِنْ عواقب الوقوع في الخطايا يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ من عذابك برحمتك الواسعة، وأدخلته جنتك، وكل من وُقِي السيئات يوم القيامة فقد نالته رحمة الله تعالى، لأن رحمته لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم، ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي عدم ارتكاب المحرمات وحصول رحمة الله تعالى ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: الظفر الذي لا مثيل له، وهو فوز لا ينقطع، ولا يتنافس المتنافسون في شيء أحسن منه.

وبهذا فإن الملائكة تكون قد دعت للمؤمنين بأربع دعوات وهي: طلب المغفرة لهم، ووقايتهم عذاب الجحيم، ودخولهم الجنة ومن صلح من أقاربهم، وأن يصرف الله عنهم سوء العاقبة.

وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة: التوسل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته، وإقرارهم بربوبية الله تعالى وإلهيته، ومحبتهم لمن يحبهم الله، وهم المؤمنون، كما تضمن الدعاء بما يناسب حال المدعو لهم بحصول الرحمة، وإزالة أسباب المعاصي، وسعادتهم مع ذويهم في جنات النعيم.

الحَسْرَةُ وَالنَّدَامَةُ تَحِلُّ بِالكَافِرِينَ يَومَ التَّنَادِ

وبعد بيان حال المؤمنين أخبر سبحانه عن حال الكفار ليبين الفرق، فقال تعالى:

١٠- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

المقت: هو احتقار النفس وبغضها، والكفار على اختلاف أنواعهم، ممن كفر بالله، أو كفر برسول الله، أو كفر بما أنزل الله عليه، أو كفر باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء، أو كفر بملائكة الله وكتبه ورسله، أو كفر بقضاء الله وقدرة، هؤلاء وأمثالهم إذا دخلوا النار وأقروا أنهم مستحقون لها، يمقتون أنفسهم أشد المقت، ويبغضونها أشد

البغض، فكل واحد منهم يبغض نفسه ويبغض غيره، وإذا مقت الكفار أنفسهم عند رؤية النار نادتهم ملائكة العذاب على وجه التوبيخ قائلين لهم: إن مقَت الله لكم -وأنتم في الدنيا- حين أعرضتم عن الإيمان أكبر من مقتكم لأنفسكم -الآن- عند رؤية العذاب.

وهكذا: يطوي السياق استجابة دعاء الملائكة للمؤمنين، ليقابل ذلك ببيان ما سيحل بالمشركين من الحسرة والندامة والمقت، يوم تُوَفَّى كل نفس ما كسبت، فيقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الجاحدين لوحدانية الله تعالى والمكذبين لرسول الله ﷺ ﴿يُنَادَوْنَ﴾ أي: تناديهم الملائكة تبليغًا عن رب العزة جلَّ وعلا من مكان بعيد، تناديهم وهم في جهنم، قائلين لهم: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ أي: شدة بغضه لكم، وغضبه عليكم، حين طَلَب منكم الإيمان بالله تعالى في الدنيا واتباع رسله فأبيتم ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ في الآخرة، ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ أي: حين دُعيتم وأنتم في الدنيا ﴿إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

وهذا البغض أكبر من بغضكم لأنفسكم الآن، بعد أن أدركتم أنكم تستحقون سخط الله وعذابه، وكان السبب في ذلك أنكم منعْتم أنفسكم من الإيمان في الدنيا ورضيتم بالكفر، فَحَرَمْتُم أنفسكم من أسباب النجاة يوم القيامة، وأوقعتموها فيما يُغضب الله - سبحانه -، فكان مقت الله لكم أشد وأنكى من مقتكم لأنفسكم، حيث جَلَبْتُم لها ما هو أشد خطرًا وأعظم أثرًا، وكنتم بذلك أعداءً لأنفسكم، كما جاء في حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال لنساء من قريش يسألن النبي ﷺ ويستكثرن، فلما دخل عمر ابتدرْن الحجاب، فقال لهن: يا عدوات أنفسهن أتهبْنني ولا تهبْن رسول الله ﷺ[(١)].

قال الحسن: إذا كان يوم القيامة -فرأوا ما صاروا إليه -مقتوا أنفسهم، فقيل لهم: لمقت الله إياكم في الدنيا -إذ تُدعَون إلى الإيمان فتكفرون- أكبر من مقتكم أنفسكم اليوم[(٢)].

وقد كان مقت الكفار لأنفسهم؛ لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، وكان مقت الله لهم بشدة عذابهم من باب قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [فاطر: ٣٩].

---

(١) من حديث سعد بن أبي وقاص في صحيح البخاري برقم (٣١٢٠).

(٢) أخرجه عبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (١٣/ ٢٢).

الإِنْسَانُ يَحْيَا مَرَّتَيْنِ وَيَمُوتُ مَرَّتَيْنِ

لقد كان مقت الكفار لأنفسهم في الآخرة، بسبب إنكارهم البعث وهم في الدنيا، واعتقادهم أنه لا حشر ولا حساب ولا عذاب، فلما تبيَّن كذب اعتقادهم -بعد أن بُعثوا من قبورهم، ورأوا نار جهنم- أقروا بالبعث والنشور، وتمنّوا الرجوع إلى الدنيا والخروج من النار:

١١- ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾

لقد كان الكفار ينكرون البعث والنشور في الدنيا، فلما أُلقوا في النار ظنوا أن اعترافهم بالحياة الثانية سيمنحهم فرصة الخروج من عذابها ليستريحوا ولو بعض الوقت، عندئذٍ ﴿قَالُواْ﴾ أي: قال الكفار يوم القيامة وهم في موقف الذليل البائس ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ **أي مرتين:**

الموتة الأولى: حين كنا في بطون أمهاتنا نُطَفًا قبل نفخ الروح، حيث يكون الجنين لحمًا لا حياة فيه بالمعنى الشرعي، وإن كان ينمو بالمعنى الطبي؛ لأن **حقيقة الموت**: انعدام الحياة من الحي، وهذه الحياة لم تحصل له بعد، كما قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] وبغير هذا المعنى فإن النطفة تنمو وفيها حياة، والمعنى الأول هو المراد.

وقد يعبّر عن هذه الموتة: بالعدم المحض قبل إيجاد الخلائق، فهم لم يكونوا شيئًا مذكورًا.

والموتة الثانية: هي التي تكون عند انقضاء الآجال في الدنيا.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ **أي مرتين:**

فالحياة الأولى: تكون عند نفخ الروح في الجسد، بعد مبدأ تكوينه حتى يولد في الدنيا بشرًا سويًّا، في الحياة الدنيا.

والحياة الثانية: حين نبعث من قبورنا يوم القيامة.

فهاتان موتتان وحياتان، يجمعها قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة].

أخرج الطبري عن قتادة قال: كانوا أمواتًا في أصلاب آبائهم، فأحياهم الله في الدنيا،

ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة، فهما حياتان وموتتان[١].

وقال ابن عباس ﷺ: كنتم أمواتًا قبل أن يخلقكم فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم، فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور، فهذه موتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة، فهما ميتتان وحياتان[٢].

أما حياة الجسم في القبر، فهي حياة مؤقتة، بمقدار السؤال والجواب، فلا توصف بأنها حياة.

وحين رأى الكفار البعث رأي العين -وكانوا ينكرونه في الدنيا -أيقنوا بأنهم مذنبون فاعترفوا، وأقروا بأخطائهم السابقة، وهذا معنى ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ ولكنه ندم فات وقته، بل إنهم يوبخون على عدم الأخذ بأسباب النجاة.

الكافر يسأل الرجعة إلى الدنيا ثلاث مرات

إن الكفار يسألون الله الرجعة والعودة إلى الدنيا بعد هذا الاعتراف، لتدارُك ما فاتهم والاستراحة من العذاب قائلين: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ بأي وسيلة كانت: بحق، أو بعفو، أو بتخفيف، وهذا في غاية اليأس والقنوط؛ لأنهم يستبعدون الخروج مما هم فيه، مع تلطفهم في السؤال، حيث قالوا: إن قدرتك يا رب عظيمة، فقد أحييتنا بعدما كنا أمواتًا، ثم أمتنا ثم أحييتنا، فأنت قادر على كل شيء، وقد ظلمنا أنفسنا واعترفنا بذنوبنا، فهل أنت مجيبنا إلى العودة في الدنيا فنعمل غير الذي كنا نعمل؟ وهذا السؤال يتكرر ثلاث مرات في **مواطن ثلاث**:

١- فهم يسألون الله تعالى الرجعة، وهم **وقوف بين يديه تعالى** في عرصات القيامة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۝١٢﴾ [السجدة] فلا يجابون.

وعندئذ يقرون بحقيقة الحساب والجزاء، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ [الأنعام: ٣٠].

---

(١) أخرجه ابن المنذر وعبد بن حميد كما في «الدر المنثور» (١٣/ ٢٤).

(٢) الطبري (١/ ٤٤٥)، (٢٠/ ٢٩١) وابن أبي حاتم (١/ ٧٣) (٣٠١).

٢- فإذا **وقفوا على النار** ورأوا العذاب بأعينهم سألوا الله الرجعة مرة ثانية فلا يجابون، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام].

قال سبحانه في الرد عليهم: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام].

٣- فإذا **دخلوا النار** وذاقوا لهيبها سألوا الله الرجعة مرة ثالثة، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقال سبحانه على لسانهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون].

السَّبَبُ فِي عَدَمِ إِجَابَةِ الكَافِرِ إِلَى الرَّجْعَةِ

بيَّن سبحانه أن طلب الرجعة إلى الدنيا لن يفيدهم شيئا، وأن ما هم فيه من عذاب سببه إعراضهم عن دعوة الحق في الدنيا فقال تعالى:

١٢- ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾

هذا هو الجواب على سؤال الكفار الرجعة إلى الدنيا، ببيان علة المنع من العودة، وهو أنهم كانوا في الدنيا إذا نودي الله وحده -في لون من ألوان العبادة، كالدعاء، والاستغاثة، وطلب المدد -فإنهم لا يقبلون ذلك، فإذا نودي معه غيره- من أولياء الله الصالحين أو من غيرهم -فإنهم يرتضون ذلك ﴿ذَٰلِكُم﴾ أي: العذاب المخلد الذي أعده الله لكم - أيها الكافرون - في الآخرة وما أنتم فيه من مقت لأنفسكم ولغيركم بسبب أنكم كنتم في الدنيا ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ﴾ أي: إذا دُعيتم إلى توحيد الله تعالى وإلى العمل الخالص من الشرك، كفرتم به ونفرتم غاية النفور ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ فأنتم تكفرون بالإيمان وتؤمنون بالكفر، وترضون بما هو شر، وتكرهون ما هو خير، وتؤثرون سبب الشقاء على سبب الفلاح فإن جُعل مع الله تعالى شريك له في الدعاء والعبادة، صدَّقتم وارتضيتم، فكنتم في الدنيا تكفرون بالتوحيد وتؤمنون بالشركاء، فاخسؤوا أيها الضالون، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ﴾

الأعراف: ١٤٦] اليوم في النار، ولا تؤمّلوا في الخروج منها بحال من الأحوال، وهذا حكم عام لجميع الكفار في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة.

وحُكْم الله تعالى على الكفار بالخلود في النار، وحِرْمانهم من الخروج منها حكم لا يقبل النقض، فهو حكم عادل، والذي حكم به غني عن الظلم والجور، فهو العلي الكبير؛ وذلك لأن الحكم لله وحده، فهو الذي حَكَم بهذا، فلا رادَّ لقضائه ولا معقب لحكمه، وهذا معنى ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ هو الحاكم في خلقه، العادل الذي لا يجور، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، يرحم من يشاء ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو، له العلوُّ المطلق، لا يماثله أحد في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وله الكبرياء والعظمة، وهو سبحانه أكبر وأعظم من أن يشاركه أحد في عبادته، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم في النار وحكمه لا يغيّر ولا يُبدّل.

مِنْ دَلائِلِ التَّوْحِيدِ:

ولما ذكر سبحانه ما يوجب تهديد الكفار أردفه بذكر ما يدل على توحيده وكمال قدرته؛ ليستدل به على عدم جواز صرف العبادة لغير الله تعالى، فقال سبحانه:

١٣- ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ[1] لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾

أي: كيف يشرك العبد بربه في العبادة، وأدلة وجوده ووحدانيته النفسية والآفاقية والقرآنية تملأ الآفاق؛ وبها يتبين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، بحيث لا يبقى للمتأمل فيها أدنى شك في معرفة الحق، والاهتداء إلى وحدانية الخالق سبحانه، وذلك كخلقه: للسماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والبحار والأنهار، والمطر والرعد، والنجوم والرياح، والأشجار والنبات ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: يظهر لكم أدلة قدرته بما تشاهدونه من الآيات العظيمة، الدالة على كمال خالقها ومبدعها، وقد جاء ذلك في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بإسكان النون وتخفيف الزاي من (ينزل) مضارع أنزل، والباقون بفتح النون وتشديد الزاي، مضارع نزَّل.

وَٱلنَّهَارِ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران].

وقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ [الرعد].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم:٢٣].

ومن أجلِّ نعم الله تعالى على العبد نزول المطر من السماء؛ لأنه سبب الرزق، ولذا خصه الله تعالى بالذكر في قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ وهذا الرزق هو المطر، تُرزقون به، حيث يحيي به الله الأرض الجدباء، فتُخرج الزروع والثمار، ويحى به كل كائن حيّ، من إنسان وحيوان وطير ونبات..

وقد جمع الله في هذه الآية إظهار الآيات، وإنزال الأرزاق؛ لأن الديانات تحيا بالآيات، والأبدان تحيا بالأرزاق، وبهما قوام الأرواح والأجساد.

ولا ينتفع بهذه الآيات -فيرجع من الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الكفر إلى الإيمان- إلا مَنْ رجع إلى الله تعالى، فتاب إليه وأناب، وأقبل على طاعته ومحبته وخشيته والتضرع إليه، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ فهو الذي ينتفع ويتعظ، ويفرد الله وحده بالعبادة، ويُخْلص له الطاعة.

الأَمْرُ بِإِخْلَاصِ العِبَادَةِ للهِ وَحْدَهُ

ثم أمر سبحانه بإخلاص العبادة لله وحده، فقال:

١٤- ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

أي: فيا من توافر فيكم دواعي العبادة، ممن شاهدوا آيات الله في الكون، وأفاض عليهم من رزقه، وكانوا من أهل التذكُّر والإنابة- أَخْلِصُوا لله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين في مسلكهم ولا تلتفتوا إلى غضب الكافرين من ذلك، وامضوا في طريق الدعوة إلى الله تعالى، ولا تبالوا بهم، ولو كره الجاحدون إخلاصكم، وغاظَهم ذلك.

والدعاء في الآية يشمل الذكر، وهو دعاء العبادة ودعاء سؤال الحاجة، أي دعاء المسألة، والأمر به يراد منه المداومة على إخلاص الدعاء لله تعالى؛ لأن المؤمن يخلص لله تعالى في عبادته، ولا يصرفه عنها صارف، ولا يُفتَن في دينه مهما أضله أعداء

الإسلام، ومهما ابتلي فيه.

فالإخلاص هو: أن يخلص العبد قصده في عبادته لله تعالى، في كل ما يدين به ويتقرب إليه تعالى، من الواجبات والمستحبات وحقوق الله وحقوق العباد.

عن عبد الله بن الزبير ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: «**لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا هو مخلصين له الدين ولو كره الكافرون**»[(١)].

ولما كان الكفار يكرهون إخلاص العبادة لله وحده، فيفرحون ويستبشرون عند دعاء الشركاء، ويشمئزون عند ذكر الله وحده، لما كان الأمر كذلك، أمرنا سبحانه أن نخلص العبادة له وحده ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ فلا تبالوا بهم، ولا تأخذكم في الله لومة لائم، وادعوه مخلصين له الدين.

ثَلَاثَةُ أَوصَافٍ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا نَفْسَهُ

ثم أخبر سبحانه عن موجبات إخلاص العبادة له، وعن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه على جميع المخلوقات كالسقف لها، فقال سبحانه:

١٥- ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ[(٢)]﴾

ذكر سبحانه في هذه الآية من صفاته العظمى ما يزيد المؤمنين إيمانًا في إخلاص العبادة لله وحده، وقد اشتملت هذه الآية على أوصاف ثلاثة لله تعالى، فهو سبحانه:

١- رفيع الدرجات.   ٢- وهو صاحب العرش.

٣- وهو منزِّل الوحي على من يشاء من خلقه.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم: (٥٩٤) و«سنن أبي داود» برقم: (١٥٠٦) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم: (١٢٦٢) وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٣٢).

(٢) قرأ ورش وابن وردان بإثبات الياء وصلًا من (التلاق) وابن كثير ويعقوب بإثباتها في الحالين، هذا: وقد انفرد المصحف الدمشقي بعدم عدّ لفظ (التلاق) آية، وعدها غيره، والباقون بحذفها في الحالين.

أما الدرجات فهي: مصاعد الملائكة، والمراد: رفْع درجات ملائكته الكرام ومعارجهم، إلى أن يبلغوا العرش[1] قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج].

وهو الذي رفع السموات بلا عمد، وهو سبحانه رافع درجات الأنبياء والأولياء والعلماء في الجنة.

ويجوز أن يكون المعنى: أن الله تعالى هو العلي الأعلى، الذي استوى على العرش، وهو المرتفع بعظمته وجلاله، وكمال قوته وقدرته ارتفاعًا يُباين المخلوقين، إنه ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: هو سبحانه صاحب العرش العظيم، خالقه ومالكه، وقد خص الله العرش بالذكر؛ لأنه أعظم الأجسام، ولا يحيط بكنهه إلا الله.

ومن رحمة الله بعباده أن يرسل إليهم رسلًا يُلقي إليهم بالوحي الذي يَحيوْن به، ويَسْعدون بتعاليمه في الدنيا والآخرة، فيكونون على بصيرة من دينهم.

ومنزلة الوحي من الإنسان منزلة الروح من الجسد، فهو سبحانه ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ وهو الوحي ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: يختص بالنبوة والرسالة مَنْ أراد من خلقه، ممن اختصهم الله تعالى لوحيه ودعوة عباده.

وسُمِّي الوحي روحًا؛ لأن الناس يَحيوْن به من موْت الكفر، كما تحيا الأبدان بالأرواح[2] وهي حياة معنوية.

ومهمة الرسل أن يخوِّفوا عباد الله، ويبشروهم، ويرشدوهم إلى مافيه سعادتهم في الدنيا والآخرة وما يزيل عنهم أسباب الشقاء في الداريْن، وينذروهم يوم القيامة الذي يلتقي فيه الأولون والآخرون، ويحثوهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه، وهذا معنى ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ أي: لينذر النبي بالوحي يوم التلاقي، حيث يلتقي الرُّسل والمرسَل إليهم، والمؤمن والكافر، والظالم والمظلوم، ويلتقي أهل الأرض بأهل السماء، ويلتقي الخلق بالخالق، ويلتقي كل إنسان بصحيفة عمله، ويلتقي العابد

---

(١) «تفسير الألوسي» (٢٤/ ٥٥).

(٢) «تفسير القرطبي» (١٥/ ٢٩٩).

بالمعبود. . .إلخ، كل ذلك في ساحة الحشر للعرض والحساب وفصل القضاء.

أخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ﷺ قال: الذنوب **ثلاثة**: فذنب يُغفر، وذنب لا يغفر، وذنب لا يُترك منه شيء.

فالذنب الذي يُغفر: العبد يُذنب الذنب فيستغفر الله فيَغفر له.

وأما الذي لا يُغفر: فالشرك.

وأما الذنب الذي لا يُترك منه شيء: فمظلمة الرجل أخاه، ثم قرأ ابن عباس الآية، وقال: يؤخذ للشاة الجمَّاء من ذات القرن بفضل نَطحها[1].

مُلْكُ اللهِ تَعَالَى لِجَمِيعِ المَخْلُوقَاتِ دَائِمٌ لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ

١٦- ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ[2] لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾

لقد كان الكفار والعصاة يستترون من الناس -وهم في الدنيا- عند ارتكابهم للذنوب والآثام، وكانت الجبال والأبنية والأنفاق والأشجار تسترهم عن أعين الناس، وكان بعض الناس في الدنيا يتوهم أنه إذا استتر في جُبٍّ أو حُجب بحائط ونحوه فإن الله - سبحانه - لا يراه.

كما قال تعالى عنهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: ٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢].

وقد بيَّن ﷻ أنه حين يلتقي العباد في يوم الحساب والجزاء، فإنهم يخرجون من قبورهم ظاهرين بارزين، لا يسترهم ساتر، ولا يظلهم شيء من جبل، أو بناء، ونحوهما، فهم يُحشرون على أرض بارزة عارية، ليس فيها مرتفعات ولا منخفضات ولا منحنيات ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [طه: ١٠٧، ١٠٨].

وهذا معنى ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أي تراهم العين، ويسمعهم الداعي ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ فيوم القيامة تظهر الخلائق أمام ربهم في أرض عراء مكشوفة، في صعيد واحد لا

---

(١) «الدر المنثور» (١٣/ ٢٨).

(٢) عد الدمشقي وحده (يوم هم بارزون) آية، وتركها غيره من العدد، وذلك عكس (التلاق) الذي قبلها.

ترى فيه عوجا ولا أمتًا، ولا يخفى على الله منهم ولا من أعمالهم الظاهرة والباطنة شيء.

والله تعالى لا يخفى عليه شيء من أحوالهم في جميع الأيام، ولا في جميع الأحوال، سواء أكانوا في جوف الأرض أم على وجهها، أو كانوا في أرحام أمهاتهم، أو فوق هذه الأرض، وإنما خُصَّ يوم القيامة بالذكر نظرًا لما كان يحسبه الجاهلون في الدنيا من أن الإنسان إذا استتر بشيء فإن الله تعالى لا يراه.

وبينما الناس في أرض المحشر على هذه الحال -وهم في العراء ظاهرون- يأتي هذا النداء من مالك الأرض والسموات ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟ أي مَنْ هو المالك لهذا اليوم العظيم، الجامع للأولين والآخرين، من أهل السموات وأهل الأرضين؟ فلا يجيبه أحد إذ يسكت العالَم هيبة وجزعًا، فيجيب تعالى نفسه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، المنفرد بالوحدانية، الذي دانت له جميع المخلوقات، سيما في هذا اليوم الذي خشعت فيه الأصوات، وعنت الوجوه لرب الأرض والسموات.

قال الحسن: هو السائل تعالى، وهو المجيب، حين لا أحد يجيبه، فيجيب نفسه.

لقد كان بعض ملوك الدنيا يزعم أن له فيها مُلْكًا، كما قال فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١].

وكان أكاسرة الفرس يلقبون أنفسهم: ملك الملوك (شاهنشاه) وملوك الهند يلقبون أنفسهم: ملك الدنيا (شاه جاه) وكان بعض الناس يزعم أن للأصنام ممالك يتصرفون فيها، كقول أهل اليونان: إله البحر، وإله الحرب، وإله الحكمة، وقول أهل مصر: إله الشمس، وإله الموت.

وكان بعض العرب يخصون أصنامًا لبعض القبائل، فاللَّات لثقيف، وذي الخُلَصة لدَوْس، ومناة للأوس والخزرج وهكذا.

وفي يوم القيامة يزول كل مُلْكٍ عن مالكه، ولا يأخذ صفة الدوام والاستمرار إلا رب العالمين، فمُلْكه دائم لا يُسلَب ولا ينقطع، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ويفسِّر هذا المعنى حديث أبي هريرة في صفة يوم الحشر: «**ثم يقول الله تعالى: أنا**

الملك، أين ملوك الأرض؟» [١] أي: أين هم؟ لماذا لم يظهروا بملكهم وعظمتهم؟

وفي حديث ابن عمر ﷺ: «**يطوي الله ﷻ السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون**»[٢].

وفي حديث الصور: أنه تعالى إذا قبض أرواح خلقه، فلم يبقَ سواه، وحده لا شريك له، حينئذ يقول: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلًا: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ الذي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه[٣].

وفي حديث سهل بن سعد ﷺ، أن النبيَّ ﷺ قال: «**يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة نقيٍّ، ليس فيها مَعْلَم لأحد**»[٤].

وفي رواية ابن مسعود ﷺ: «**أنها أرض مثل الفضة، لم يُعْصَ الله -جلَّ وعلا- عليها، فيأمر مناديًا ينادي**»: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾» [٥].

والقول الأول أظهر، وهو أن الخلائق تسكت هيبة ورهبة حين يقول الله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ وأن الله تعالى يجيب نفسه: أن الْمُلْكَ والتصرف لله تعالى المتفرد بأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو القهار الذي قهر جميع الخلائق بقدرته وعزته.

قال ابن عباس ﷺ: ينادى منادٍ بين يدي الساعة: يأيها الناس، أتتكم الساعة، فيسمعها الأحياء والأموات، ويَنْزِل الله إلى السماء الدنيا فيقول: لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار[٦].

---

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري (٤٨١٢) ومسلم (٢٧٨٧).

(٢) «صحيح مسلم» برقم: (٢٧٨٨) و«صحيح البخاري» برقم: (٧٤١٢).

(٣) ذكره بطوله ابن كثير في تفسير الآية (٧٣) من سورة الأنعام (٣/ ٢٨٢) وهو من الأحاديث الطوال عند الطبراني عن أبي هريرة برقم (٣٦) والبيهقي في «البعث والنشور» (٦٦٩)، وأبو الشيخ في العظمة (٣٨٧)، وقد ضعفه الأئمة، وتركه الدار قطني.

(٤) يُنظَر: حديث سهل بن سعد في البخاري (٦٥٢١) ومسلم (٢٧٩٠) وقرصة النقي: هو الدقيق النقي الخالي من النخالة.

(٥) يُنظَر: البزار (١٨٥٩) والطبراني (١٠٣١٣) وفي الأوسط (٧١٦٧) وعبد الرزاق (١/ ٣٤٤).

(٦) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السُّنَّة» (٢٢٠) والحاكم (٢/ ٤٣٧) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٢٤).

يَوْمُ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ

وفي يوم الموقف العظيم، يُعلِم الله عباده أن هذا هو يوم الجزاء على الأعمال؛ صالحها وسيئها، وأن الثواب والعقاب معلق باكتساب العبد في الدنيا:

١٧- ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

ومادام الملك والتصرف كله لله وحده، فإنه يتم في يوم القيامة **ثلاثة أشياء**:

١- مجازاة العباد بأعمالهم.

٢- العدل التام، وعدم الظلم في القضاء بينهم.

٣- سرعة الحساب.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ﴾ في الدنيا من خير أو شر، قليل أو كثير، ففي هذا اليوم العظيم تأخذ كل نفس -مؤمنة أو كافرة- جزاء عملها من خير أو شر، فيُجزى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ﴾ فلا جَوْر، ولا محاباة، ولا وساطات، ولا نقص في الحسنات، ولا زيادة في السيئات، والكل سواء أمام رب العالمين: الغني والفقير، والحاكم والمحكوم، والقوي والضعيف، والصغير والكبير، ولا ينتصف يوم القيامة حتى يقيل المؤمنون في الجنة، والكافرون في النار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فلا تستبطؤوا ذلك اليوم فإنه آت، وكل آت قريب، وهو سبحانه سريع الحساب لعباده، وقد أحاط علمه بكل شيء، لا يغيب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

وهو سبحانه عند محاسبة خلقه لا يحتاج إلى تفكير، ولا يشغله حساب عن حساب، بل يحاسب الخلق كلهم في وقت واحد، فلا تستبطئوا ذلك اليوم، فإنه آتٍ عن قريب لا محالة.

جاء في الحديث القدسي: عن أبي ذر ﷺ عن رسول الله ﷺ عن ربه جلَّ وعلا: «**يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**» إلى أن قال: «**يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن**

وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[١].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر].

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: بلغني حديث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ سمعه من رسول الله في القصاص ولم أسمعه، فابتعتُ بعيرًا، فشددتُ رَحْلي عليه، ثم سرتُ شهرًا حتى قدمتُ مصر، فأتيتُ عبد الله بن أنيس، فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب، فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم، فأتاه فأخبره، فقام يطأ ثوبه حتى خرج إليَّ، فاعتنقني واعتنقْته، فقلت له: حديث بلغني عنك سمعته من رسول الله ﷺ ولم أسمعه في القَصاص، فخشيتُ أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه، فقال عبد الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يحشُر الله العباد -أو قال الناس - عراة غرلًا بُهْمًا»**، قال: قلنا: ما بُهمٌ؟ قال: **«ليس معهم شيء، ثم يناديهم بصوت يسمعه مَن بَعُد، كما يسمعه مَن قَرُب: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وعنده مظلمة حتى أقصَّه منه، حتى اللَّطْمة، قال: قلنا: كيف ذا، وإنما نأتي الله غرْلًا بُهْمًا؟ قال: «بالحسنات والسيئات»**، قال: وتلا رسول الله ﷺ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾[٢].

عَذَابُ اللَّهِ لِلْكَافِرِ لَا يَدْفَعُهُ دَافِعٌ

١٨ - ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ[٣] مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾

يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يحذِّر الناس من مغبة هذا اليوم، حتى يعملوا له وهم في الدنيا، قبل أن يحلَّ بهم عقاب الله، فقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾ أي: خوِّفهم -يا رسول الله-

---

(١) «صحيح مسلم» برقم: (٢٥٧٧).

(٢) قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وصححه الذهبي «المستدرك» (٢/ ٤٣٧) والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٠) وفي خلق أفعال العباد ص(٩٢) وحسَّنه ابن حجر في الفتح (١/ ١٧٣) وهو في تغليق التعليق (٥/ ٣٥٥) من طريق الإمام أحمد بهذا الإسناد، ومثله الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١/ ٣٠٢) والبيهقي (١٣١، ٦٠٠) والحديث عند أحمد بنحوه دون ذكر الآية برقم: (١٦٠٤٢) قال محققوه: إسناده حسن، لأن فيه القاسم بن عبد الواحد المكي مختلف فيه، وقد توبع، وباقي رجال الإسناد ثقات.

(٣) لم يعد الكوفي وحده لفظ (كاظمين) آية وعدها غيره.

من هول يوم القيامة، فهو قريب الحلول بهم، فلا يستبعدوه.

والآزفة: هي القيامة، سميت بذلك لأنها قريبة الوقوع:

١- وقال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾ [النجم].

٢- وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الملك: ٢٧].

٣- وقال جلَّ شأنه: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء].

٤- وقال أيضًا: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

ثم وصف الله تعالى حالة الناس يوم القيامة، فقال: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ أي: أن قلوب العباد من مخافة عقاب الله تعالى ترتفع عن أماكنها من صدورهم، وكأنها نشبتْ في حلوقهم، وهم كاظمون عليها، أي: ممسكون بها حتى لا تخرج مع أنفاسهم، كما يمسك صاحب القِرْبةِ فَمَها؛ لكي لا يتسرب منها الماء، وهذا الكظم مع بلوغ الحناجر، يكون من الغمِّ والكرب، حيث يشتد اضطراب حركة القلب، من فرْط الجزَع حال مشاهدة الأهوال، وهم لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابًا.

أخرج الطبري بسنده الحسن عن السُّدِّي قال: شخصتْ أفئدتهم عن أمكنتها، فنشبتْ في قلوبهم، فلم تخرجْ من أجوافهم فيموتوا، ولم ترجع إلى أمكنتها فتستقر.

وقال ابن جريج: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾إذا عاين أهل النار النارَ، حتى تبلغ حناجرهم، فلا تخرج فيموتوا، ولا ترجع على مكانها من أجوافهم[1].

ثم نفى سبحانه أن يكون للظالمين في هذا اليوم من ينفعهم أو يدافع عنهم، فقال: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: ليس للظالمين من قريب ولا صاحب، ولا شفيع يشفع لهم عند ربهم فيستجاب له.

والحميم: هو المحبُّ المشفق، الذي يهتم بأمر صديقه أو قريبه، فلا يوجد من ينقذهم من العذاب، لا شفيع مطاع ولا غير مطاع، ولو قُدِّرت شفاعتهم، فإنها لا تُقبل، إذ لا بد من تحقيق شرطي الشفاعة، وهي الإذن للشافع والرضى عن المشفوع له.

---

(١) أخرجه ابن المنذر كما في «الدر المنثور» (١٣/ ٣١).

عِلْمُ الظَّوَاهِرِ وَالبَوَاطِنِ يَسْتَوِي عِنْدَ رَبِّ العَالَمِينَ

١٩- ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾

وبعد أن أيْأس الله الظالمين من وجود شفيع -يسعى لهم في عدم المؤاخذة بذنوبهم- أيْأسهم من أن يتوهَّموا أنهم يستطيعون إخفاء شيء من نواياهم، أو أدنى حركة من أعمالهم على ربهم، فذكَّرهم بأنه سبحانه يعلم الخفايا ليُحذِّرهم من كل قول أو عمل يخالف أمره ونهيه، فقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ أي: يعلم مسارقة النظر، وما تختلسه العيون لرؤية ما لا يحل، مما نهى الله تعالى عنه.

قال ابن عباس ﷺ: هو الرجل يكون جالسًا مع الناس فتمرُّ المرأة فيسارقهم النظر إليها[1].

وهي نظرة خائنة تتسلَّل إلى ما حرم الله تعالى.

ومن الدعاء المأثور: «**اللهمَّ طهِّر قلبي من النفاق، وعملي من الرياء، ولساني من الكذب، وعيني من الخيانة، فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**»[2].

ومقتضى ذلك: هو إحاطة علم الله التام، بكل صغيرة وكبيرة، مما ظهر من الأعمال أو خفي.

قال القرطبي: ولما جيء بعبد الله بن سعد بن أبي السَّرْح، إلى رسول الله ﷺ بعدما اطمأن أهل مكة، وطلب له الأمان عثمان بن عفان، صَمتَ رسول الله ﷺ طويلًا، ثم قال: «**نعم**»، فلما انصرف، قال ﷺ لمن حوله: «**ما صَمتُّ إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه**» فقال رجل من الأنصار: فهلَّا أومأت إليَّ يا رسول الله؟ فقال: «**إن النبي لا تكون له خائنة أعين**»[3].

(١) يُنظَر: ابن أبي شيبة (٤/ ٣٢٧) و«فتح الباري» (١١/ ٩).

(٢) الحكيم الترمذي عن أم معبد (٢/ ٢٢٧) والخطيب في تاريخه (٥/ ٢٦٧)، وهو ضعيف كما في كشف الخفا برقم (٥٧٤).

(٣) «تفسير القرطبي» (١٥/ ٣٠٣) والحديث بكامله في «صحيح سنن أبي داود» عن سعد بتصحيح الألباني (٢٣٣٤) والنسائي (٤٠٧٨).

ثم بيَّن سبحانه أنه يعلم السر المستور الذي تخفيه الصدور، فقال: ﴿وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ﴾ أي: ويعلم ما يضمره الإنسان في نفسه من خير أو شر، وسوف يجزي الله كل نفس بما كسبت.

القَضَاءُ بِغَيْرِ حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى بَاطِلٌ لَا يُعْتَدُّ بِهِ

٢٠- ﴿وَاللَّهُ يَقْضِى بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ[١] مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

وكونه تعالى يعاقب على خائنة الأعين، ولا يقبل الشفاعة فيمن ظلموا أنفسهم بالكفر وماتوا عليه، كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ فإن هذا هو القضاء الحق، والْحُكْم بالعدل ﴿وَاللَّهُ يَقْضِى بِالْحَقِّ﴾ لأن قوله حق، وحكمه الشرعي والجزائي حق، وهو المحيط علمًا بكل شيء، المنزه عن الظلم والنقص، وهو صاحب القضاء القدري بما كان وما يكون، وهو الذي يقضي بين الناس بالعدل بما يستحقونه، قضاءً متلبسًا بالحق لا يشوبه باطل.

أما الآلهة التي يعبدونها من دون الله تعالى، فإنها لا تقضي بشيء، لعجزها التام عن ذلك، فهي لا تعلم شيئًا، ولا تقدر على شيء، كالمعبودات التي يرفع المشركون أكفهم إليها بالدعاء من دون الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ فالجماد لا حكم له أصلًا، فلا يقال: إنه يقضي أوْ لا يقضي؛ لأنه لا يسمع ولا يبصر ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لِمَا تنطق به مختلف الألسنة ﴿الْبَصِيرُ﴾ بأفعال العباد وأعمالهم.

العَاقِلُ مَنِ اتَّعَظَ بِغَيْرِهِ

٢١- ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ[٢] قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ[٣] ﴿٢١﴾﴾

وبعد أن حذَّر الله عباده من عذاب الآخرة، حذَّرهم أيضًا من أن يحل بهم في الدنيا ما

---

(١) قرأ نافع وهشام وابن ذكوان بخلف عنه بتاء الخطاب في (تدعون) على الالتفات، والباقون بياء الغيب، جريًا على نسق الكلام، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان.

(٢) قرأ ابن عامر (أشد منكم) على الخطاب للالتفات، وقرأ الباقون (منهم) لمناسبة السياق، ووصل ميم الجمع بحرف مد: ابن كثير وأبو جعفر وقالون بخلف عنه.

(٣) وقف ابن كثير على (واق) بالياء، والباقون بحذفها، ونوَّنها جميع القراء وصلًا.

حل بأمثالهم من الأمم التي كذبت رسل الله.

والمعنى: أَبَلَغت الغفْلة بالمكذبين لك -يا محمد- أنهم لم يعتبروا ويتعظوا بالمكذبين لرسل الله قبلك، وهم يمرون على ديارهم في أسفارهم مصبحين وبالليل، ويشاهدون آثار قوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وغيرهم؟! فإن العاقل من اعتبر بغيره.

ولقد كان هؤلاء السابقون أكثر وأشد من المكذبين لك في القوة المعنوية والمادية، فهم أكثر استغناء عن غيرهم منكم، وأقوى بأسًا وأشد بطشًا، وأبقى أثرًا في الأرض بمبانيهم الفارهة، وحصونهم الحصينة.

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وقال سبحانه: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال أيضًا: ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩].

ومع ذلك فلم تنفعهم شدة قوتهم، ولا عِظَم أجسامهم، ولَمَّا استمروا على كفرهم وجحودهم، أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فاستأصلهم الله بسبب كفرهم واكتسابهم الآثام وليس لهم واقٍ يقيهم من عذاب الله أو يدفعه عنهم.

سَبَبُ العَذَابِ المُدَمِّرِ الَّذِي لَحِقَ بِالأُمَمِ السَّابِقَةِ

٢٢- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ(١) رُسُلُهُم(٢) بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

أي: أن ذلك العذاب الذي حلَّ بالمكذبين السابقين -كان بسبب موقفهم من رسل الله الذين جاؤوهم بالدلائل الواضحة على صدق دعواهم، فكفروا بهم وكذبوهم، فكانت النتيجة أن الله تعالى عاقبهم بذنوبهم واستأصل شأفتهم ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ﴾ لا يغلبه أحد، ولا يعطِّل مراده أحد، فهو سبحانه ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن كفر به وعصاه، وكذَّب رسله، وعذابه تعالى أليم موجع، لا يقوى عليه المخلوق الضعيف.

(١) قرأ يعقوب بضم الهاء من (تأتيهم)، والباقون بكسرها.

(٢) قرأ أبو عمرو بإسكان السين من (رسلهم)، والباقون بضمها.

مُوسَى وَفِرْعَوْنُ

وبعد أن ذكر سبحانه فريقًا من الأحزاب التي شاهدها العرب، كقوم هود، وقوم صالح وقوم شعيب، ممن قال الله فيهم: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ ذكر فريقًا آخر من الأمم لم تعرفهم العرب، وهم قوم فرعون مع نبي الله موسى ﷺ، فقال تعالى:

٢٣، ٢٤- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾

أي: والله لقد بعثنا موسى نبيًّا ورسولًا، وأيدناه بآياتنا العظيمة، الدَّالة على وحدانيتنا، وأيدناه بالحجة الباهرة الدالة على حقيقة ما أُرسل به، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

وهذه المعجزات التي تُصدِّق موسى ﷺ في دعواه هي: العصا، واليد، والسنون، وفلق البحر، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم.

كما أيدنا موسى بقوة الحجة في مجادلة فرعون، وهي المشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: منحناه معجزات باهرات، ومنحناه حجة قاهرة يغلب بها خصمه، وتدل على بطلان ما كان عليه مَنْ أُرسل إليهم، كما قهَرهم في مقابلة العصا بسحَرة فرعون فأبطل سِحْرهم، أو يراد بالآيات: التوراة، وبالسلطان: المعجزات التسع.

أرسلنا موسى بآياتنا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ ملك مصر، وهو (منفتاح بن رمسيس الثاني) ﴿وَهَامَانَ﴾ وزيره ﴿وَقَارُونَ﴾ صاحب الأموال والكنوز، وهو الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم، فخسف الله به وبداره الأرض.

وخصَّ الله تعالى هؤلاء الثلاثة بالذكر؛ لأنهم الزعماء البارزون الذين كانوا يدبرون المكايد لموسى، فيتبعهم العامة من قومهم، وكان منهم أن أنكروا رسالته، واستكبروا، واتهموه بالسحر والكذب، وقالوا: كيف يزعم أنه رسول للناس، وهو كاذب في دعواه؟

وهكذا كان نتيجة اللقاء الأول بين موسى وهؤلاء الطغاة، أنهم وصفوه بالسحر

والكذب، حسدًا منهم وحرصًا على مُلْكِهم ودنياهم، قال تعالى:

٢٥- ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾

أي: أن قوم فرعون لم يكتفوا بتكذيب موسى ووصْفه بالسحر، بل انتقلوا إلى مرحلة أشد، بعدما استمر موسى في دعوته، وأظهر لهم الحجج الواضحة، وعندئذٍ أصدروا أوامرهم بقتل الذكور من أبناء الذين آمنوا بموسى، وترك الإناث للخدمة والإذلال.

ولما وصل إليهم موسى بدعوته، وخاطبهم بما أمره به ربه، وأظهر لهم ما زوَّده الله به من معجزات، لم يقابلوها بالتصديق والإذعان، ولم يكتفوا بمجرد الإعراض والترك، ولا بالإنكار والمعارضة، بل أمروا بقتل أبناء المؤمنين بموسى، حيث قال فرعون وهامان وقارون: اقتلوا أبناء من آمنوا بموسى واتَّبعوه ﴿وَٱسْتَحْيُوا۟﴾ أي: واستبْقُوا ﴿نِسَآءَهُمْ﴾ للخدمة والاستمتاع، وهذا كقوله تعالى ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف]

وهذا القتل كان بعد القتل الأول الذي كان في وقت ولادة موسى عليه السلام بسبب خوف فرعون على مُلْكِه، وكان فرعون قد تراخى عنه.

أما القتلُ في وقت دعوة موسى لهم فكان بسبب ألا ينشأ على دين موسى قوم، فيقْوى ويشتد بهم[1].

وكان القصد من هذا إهانة شعب بني إسرائيل، والتشكيك في أمر موسى وأن يتشاءموا به وبدعوته، ولهذا ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ﴾ [الأعراف:١٢٩].

ثم وهَّن الله - سبحانه - من كيد فرعون وملئه، فبيَّن أنه مكرٌ وكيدٌ مصيره الهلاك والزوال، فقال: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: أن هذا الكيد الذي دبَّروه صار إلى ضلال وهلاك وخسران، فلم تنجح مساعيهم، بل أضل الله كيدهم وسعيهم حيث أخذ الله على أيديهم، فلم يجدوا سبيلًا لإنفاذه، ولم يقدروا على قتل أحد من بني إسرائيل، ولم يتم لهم ما أرادوه.

---

(١) يُنظَر: «تفسير الفخر الرازي» (٧/ ٣٠٢) وعبد الرزاق (٢/ ١٨٠).

والقرآن الكريم لم يقل (وما كيدهم)، وإنما قال: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ليكون الوصف عامًّا يندرج تحته كيد فرعون، ويندفع به اختصاص الحكم بمعيَّن.

فِرعَونُ يَعْزِمُ عَلَى قَتْلِ مُوسَى، وَمُوسَى يَعْتَصِمُ بِاللَّهِ مِنْ بَطْشِ فِرْعَوْنَ

٢٦- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ(١) أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ(٢) أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾

أي: أن فرعون لم يعمل بمشورة ملئه الذين قالوا: ﴿ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ فسكت، ولم يُظهر تأييدًا ولا معارضة، ثم رأى أن الأجدر به أن يقتل موسى نفسه؛ لأن قتْله أقطع للفتنة ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ أي: قال فرعون لأشراف قومه بلهجة المغرور المتكبر: اتركوني أقتل موسى، وهو يعلم أنه لا يوجد معارض ولا ممانع له من قتله، فلما علم موسى بذلك خوَّفهم عذاب الله، وتحدَّاهم بالآيات التسع، فقال فرعون ساخرًا غير مكترث بموسى: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: يدع ربه الذي يزعم أنه أرسله إلينا؛ كي يخلِّصه مني فيمنعه من القتل، وهذا استخفاف وجرأة ما بعدها جرأة على رب العالمين، فسبحانك ربي ما أحلمك؟

ثم علَّل فرعون عزمه على قتل موسى، فظهر بمظهر الناصح لقومه، وأنه يريد إزالة الشر من الأرض، فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي: إني أخشى أن يغيِّر عليكم ما أنتم فيه من عبادة، إلى عبادة إلٰهه ، فيفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه، وأخشى أن يُظهر الفساد في الأرض، فيثير الفتن والقلاقل، ويُكْثِر الهرَج والمرج، فيفسد عليكم دنياكم، وهو معنى ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ والمراد: أرض مصر، حيث يذهب الأمن فيها، وتتعطل المزارع والمصالح والمعايش، ويهلَك الناس قتْلًا وضياعًا، وقد بيَّن فرعون أن السبب في عزمه على قتل موسى أن وجوده يسبب فساد الدين إذا اعتقدوا أن دينه هو الصحيح، أو يسبب فساد الدنيا بوقوع الخصومات وإثارة الفتن بينهم.

---

(١) قرأ ابن كثير بفتح الياء من (ذروني أقتل) وصلًا، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الياء من (إني أخاف) في المواضع الثلاثة بالسورة، وسكنها الباقون.

وقد بدأ فرعون بذكر الدين؛ لأنه أحب إلى الناس من أموالهم.

ومن العجب أن ينصح الناس شَرُّ الخلْق عن اتباع خير الخلق، من باب التموية والترويج على قوله، وهذا لا يدخل إلا على عقول من قال الله فيهم: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]

ومن المعلوم أن فرعون لم يقتل موسى، فلماذا كان هذا الوعيد والتهديد؟ ولماذا كفَّ عن قتله؟ هل لأنه تيقن أنه نبي، فخاف على نفسه أن يُعاجَل بالعقوبة؟

قال الزمخشري: والظاهر أن فرعون كان قد استيقن أن موسى نبيًّا، وأن ما جاء به آيات، وليس بسحر، ولكن الرجل كان قتَّالًا سفَّاكًا للدماء في أهون شيء، فكيف لا يقتل مَنْ أحسَّ منه بأنه هو الذي يثلُّ عرشه، ويهدم ملكه؟ ولكنه كان يخاف إن هَمَّ بقتله أن يعاجَل بالهلاك[1].

زاد أبو حيان: وكان كلامه للتمويه على قومه، وإيهامهم أنهم هم الذين يكفُّونه، وما كان يكفُّه إلا الخوف والفزع[2].

وكان فرعون قد وهن أمره، فبهرتْه معجزات موسى، واضطربت عقيدة أصحابه، فرجع عن عزمه على قتل موسى، وتنازل عن ألفاظ الجبابرة المتمكنين من تنفيذ أوامرهم، في قوله: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ إلى نصيحته لقومه بأنه يخاف عليهم أن يبدل دينهم، ويظهر الفساد في الأرض.

وفي هذه الأثناء التي انهدَّ فيها ركن فرعون، وظهر الخلل في صفوف أتباعه، ظهرت مقالة مؤمن آلِ فرعون، فصدع بأمره، وكاشَفَ فرعون وقومه بنبوة موسى عليه السلام.

ولما بلغ موسى عزم فرعون على قتله، لجأ إلى الله تعالى واعتصم بجنابه من بطش فرعون، ومن كل متكبر لا يؤمن بالله ولا بعقابه:

٢٧- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

(١) «تفسير الكشاف» (٤/ ١٦٠).

(٢) «البحر المحيط» (٧/ ٤٥٩).

أي: قال موسى لفرعون وملئه: إني استجرت بربي وربكم أيها القوم ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: مستكبر عن توحيد الله تعالى وطاعته ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ الذي يحاسب الله فيه خلقه، ويجازيهم على أعمالهم وأقوالهم بالثواب والعقاب، ولم يقل موسى: إني عذت بربي وربكم من فرعون، وإنما ذكر قاعدة عامة يدخل فيها فرعون دخولًا أوّليًّا، وهي ﴿كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ وقد منع الله موسى مما دبّره فرعون، وقيض له من الأسباب ما اندفع به شر فرعون، ومن هذه الأسباب، الرجل المؤمن الذي خرج من عباءة فرعون لينصح موسى من كيد فرعون، وكان يكتم إيمانه.

والرجل إذا اجتمع فيه التكبر والتكذيب بالجزاء، وعدم المبالاة بالعاقبة، فقد استكمل أسباب القوة والجُرأة على الله تعالى وعلى عباده، ولم يترك ذنبًا إلا ارتكبه.

عن أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قومًا قال: «**اللهم إني أجعلك في نحورهم، وأعوذ بك من شرورهم**»[1].

وهذا كدعاء موسى ربه في قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه].

وهكذا فقد أخبر موسى قومه أن ربه حافظ له من أذاهم، وقد علم موسى أنه سيجد معارضين له يكرهون رسالته، وعلم أيضًا أن الله تعالى سيكفيه شر كل معاند، فاستعاذ بربه من بطش فرعون، ومن كل متكبر لا يؤمن باليوم الآخر، فحفظه الله من مكرهم وكيدهم.

مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَونَ يَنْصَحُ قَوْمَهُ

٢٨- ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾

وكان أول مظهر من مظاهر تحقيق الله تعالى لاستعاذة موسى بربه أن قيَّض له رجلًا

(١) «المسند» (٤/ ٤١٤)، (١٩٧١٩) و (١٩٧٢٠) عن عبد الله بن قيس، والمعجم الصغير للطبراني برقم (٩٩٦) قال محققو المسند: حديث حسن، وأخرجه أبو داود (١٥٣٧) والنسائي في الكبرى (٨٦٣١) و(١٠٤٣٧) وابن حبان (٤٧٦٥) وغيرهم.

أجنبيًّا، يدافع ويَذُبُّ عنه كيد فرعون وقومه على أحسن الوجوه لتسكن الفتنة ويزول الشر، فما من إنسان يفوِّض أمره إلى الله تعالى إلا كفاه الله ما يخاف.

وهذا الرجل من آل فرعون، أي: من قرابته وخاصته، قيل: كان ابن عمه، وقيل اسمه: حزقيل[1] أو شمعان، أو غير ذلك، وكان يكتم إيمانه بالله، وبصدق موسى عليه السلام، بعد أن ظهر له أدلة صدقه فاهتدى، كما اهتدى أبو بكر رضي الله عنه إلى التصديق بمحمد ﷺ، وكان الرجل المؤمن يكتم إيمانه خوفًا من فرعون وقومه، وقد علم أن إظهار الإيمان يضره ولا ينفع غيره، ولما سمع هذا الرجل، فرعون يتوعد موسى بالقتل، نصحهم ألَّا يقتلوا رجلًا لا ذنب له إلا أنه يقول: ربي الله.

وهذه القصة كانت في مبدأ دخول موسى أرض مصر، عندما عاد من مدين، وهذا الرجل يختلف عن الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، كما في سورة القصص، فإن قصته كانت قُبَيْل خروج موسى من مصر إلى مدين، وكان من بني إسرائيل، ولم يكن من آل فرعون، قال الرجل منكرًا على قومه: كيف تستحلون قتل رجل لا ذنب له إلا أنه يوحِّد الله؟ وقدجاءكم بالبينات الدالة على صدقه، فكيف تقتلونه وقد ظهرت حجته واشتهرت بين الناس، فهلا أبطلتم ما جاء به ببرهان مماثل يرد عليه قوله؟

أخرج ابن جرير بسنده عن السُّدِّي: أن فرعون أصغى لكلام الرجل المؤمن، واستمع منه ما قاله، وتوقف عن قتل موسى عند نهيه له عن قتله.

وفي الحديث: عن طارق بن شهاب أن رجلا سأل النبي ﷺ وقد وضع رجله في الغرز: أي الجهاد أفضل؟ قال: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**»[2].

وقد صرَّح الرجل المؤمن بإيمانه بالله تعالى حين قال: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ فإن لفظ الجلالة ليس من آلهة القبط.

ولما استأنس الرجل المؤمن بخطاب قومه له، صرَّح لهم بتصديق موسى، فقال:

(١) قاله ابن المنذر كما في «الدر» (١٣/ ٣٥).

(٢) «المسند» (١٨٨٣٠)، و (١٨٨٢٨) قال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه البيهقي في الشعب (٧٥٨٢) والنسائي في الكبرى (٧٨٣٤) وانظر المعجم الكبير للطبراني (٨٠٨١) عن أبي أمامة.

﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: جاء بالبراهين القاطعة الدالة على صدق ما يقول، وكانت قد اشتهرت بينهم وعَلِمَها الصغير والكبير، فهذا لا يوجب قتله.

ثم أخذ في إقناعهم عن طريق العقل والتأمل والنظر، والنزول إلى مرتبة الحوار والتحدي، فقال لهم: لا تتعجلوا في قتله، ولا تتعجلوا في اتباعه، فإن تبيَّن لكم كذبه، فإن اتباعكم له لا يضركم في شيء، وإن تبيَّن لكم صدقه، فإن ما يعدكم به من العذاب سوف يحيق بكم ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ أي: أن وبال كذبه سيعود عليه وحده ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ أي: يلحقكم بعض ما يتوعدكم به، ولم يقل: يصبكم كل ما يعدكم به.

وهكذا، فإن حال موسى بين أمرين، إما أن يكون كاذبًا أو صادقًا، فإن كان كاذبًا فكذبه عليه وإن كان صادقًا فإنه ولا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم به من عذاب الدنيا، فَأَمْرُ قَتْلِهِ سَفَه وجهْل منكم، وهكذا فإن الرجل المؤمن قدَّم الكذب على الصدق، حتى يصرف عنهم تَعصُّبه له، وهذا كلام في غاية الحكمة والإنصاف وحُسْن المنطق، وفيه إلزام للحجة بأيسر أمر، فقد وعدهم بالنعيم إن آمنوا، وبالعذاب إن كفروا، وإن كان صادقًا، فالعذاب بعض ما وعد به.

ثم لفت الرجل المؤمن أنظار القوم إلى سُنَّة من سنن الله في الكون، وانتقل إلى مرتبة أعلى في الحوار، ليبين قُرب موسى من الحق وبُعْدَهم عنه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ أي: لا يوفِّق للحق من هو متجاوز للحد، مسرف في الضلال، يترك الحق ويُقْبل على الباطل وهو ﴿كَذَّابٌ﴾ مبالغ في الكذب، بنسبة ما أسرف فيه من الكذب على الله تعالى، ولو كان موسى مسرفًا كذَّابًا ما أيَّده الله بالحجج الساطعة، والمعجزات الباهرة.

ويحتمل أن يكون ختام الآية هذا من قول الله تبارك تعالى.

وفي الآية تعريض بفرعون أنه مسرف في عزمه على قتل موسى، كذَّاب في إقدامه على ادعائه الإلهية، ومَنْ كان هذا شأنه، فإن الله تعالى لا يوفقه ولا يهديه.

ولو كان موسى كاذبًا -كما يزعم فرعون- لافتضح أمره في أقواله وأفعاله، وكانت غاية في الاضطراب، ولكنه صاحب رأي سديد ومنهج قويم، فقد دعا موسى إلى الحق، وأقام

عليه البراهين العقلية والخوارق السماوية، وهذا دليل على كمال عقله وعلمه ومعرفته بربه.

آثار في المعنى:

١- وموقف مؤمن آل فرعون من موسى عليه السلام يشبه موقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه من النبي ﷺ حين أقبل عقبة بن أبي معيط، والنبي ﷺ يصلِّي بفناء الكعبة، فأخذ بمنكبه، ولوى ثوبه في عنقه وخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر يأخذ بمنكبه ورفع يد عقبة عن النبي ﷺ، ثم قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ (١).

٢- وسُئل عمرو بن العاص رضي الله عنه، عن أشد ما رآه من قريش، فقال: إنه مرَّ بهم ذات يوم، وهم يقولون للنبي ﷺ: أنت الذي تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ فقال: «**أنا ذاك**»، فقاموا إليه وأخذوا بمجامع ثيابه، فرأيت أبا بكر يحتضنه من ورائه وهو يصيح بأعلى صوته، وإن عينيه لتنضحان، وهو يقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ حتى فرغ من الآية(٢).

٣- وعن علي رضي الله عنه قال: اجتمعت قريش بعد وفاة أبي طالب بثلاث: فأرادوا قتل رسول الله ﷺ فأقبل هذا يجؤه -أي: يضربه- وهذا يُتْلِتُه - أي: يحركه تحريكًا شديدًا- فلم يُغِثْه أحد إلا أبو بكر وله ضفيرتان، فأقبل يَجَأُ هذا، ويُتلت ذا، ويقول بأعلى صوته: ويلكم ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ والله إنه لرسول الله، فقُطعت إحدى ضفيرتيْ أبي بكر يومئذ(٣).

٤- وعن عليٍّ أيضًا أنه قال: أيها الناس، .أخبروني بأشجع الناس؟ قالوا: أنت، قال: أمَا إني ما بارزتُ أحدًا إلا انتصفْتُ منه، ولكن أخبروني بأشجع الناس؟ قالوا: لا نعلم، فمن؟ قال: أبو بكر، لقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذتْه قريش، فهذا يَجَؤُه -أي: يضربه- وهذا يُتْلِتُه -أي: يسوقه بعنف- وهم يقولون: أنت الذي جعلتَ الآلهة إلهًا واحدًا؟ قال: فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضربْ هذا، ويَجَؤُ هذا، ويتْلت هذا، وهو يقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ ثم رفع عليٌّ بردة كانت عليه، فبكى حتى اخضلَّتْ

---

(١) «صحيح البخاري» برقم: (٣٦٧٨، ٣٨٥٦، ٤٨١٥) و«صحيح مسلم» (٢٣٨٩).

(٢) النسائي في «السنن الكبرى» برقم: (١١٤٦٢) وابن أبي شيبة (١٤/ ٢٩٧) والبيهقي (٢/ ٢٧٧) والحكيم الترمذي (٩١٣).

(٣) يُنظَر: «تفسير القرطبي» (١٥/ ٣٠٨).

لحيته، ثم قال: أنشُدكم بالله، أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر؟ فسكت القوم، فقال: ألا تجيبوني، فوالله لساعة من أبي بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه، وهذا رجل أعلن إيمانه[1].

٥- وكان موسى قد طلب من فرعون وقومه أن يتركوه ويوادعوه إن لم يؤمنوا به وبدعوته، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ [الدخان].

وهكذا طلب رسول الله ﷺ من قومه أن يتركوه يدعو إلى الله تعالى، وألَّا يمسُّوه بسوء، وأن يَصِلُوا ما بينه وبينهم من قرابة، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] أي: إني لا أطلب منكم أجرا على تبليغ الدعوة إلا أن تصِلوا ما بيني وبينكم من قرابة، فلا تؤذوني وتتركوا ما بيني وبين الناس حتى أبلغ دعوة ربي، ثم إن الرجل المؤمن حذر قومه ونصحهم وخوفهم عذاب الآخرة، ونهاهم عن الاغترار بما لديهم من الملك والسلطان، فقال:

٢٩- ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾

واستمر مؤمن آل فرعون في نصيحته لفرعون وقومه، فذكَّرهم بنعم الله عليهم، وحذَّرهم من نقمته، وكأنه يقول لهم: إن كنتم قادرين على قتل موسى، فإن الله تعالى قادر على إهلاككم، وذلك بعد أن أَمِنَ بأسهم، وتوسَّم تأثير كلامه فيهم، فانتهز انكسار قلوبهم، وأخذ يعظهم وينصحهم قائلًا: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي لكم السلطان والسيادة على أرض مصر في هذا الزمن ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي وأنتم سادة على بني إسرائيل تسيطرون عليهم، وتفعلون بهم ما تشاؤون.

أي: يا أهلي وعشيرتي، أنتم اليوم لكم السلطان، والسيادة، والغلبة على أرض مصر

---

(١) أخرجه البزار (٧٦١) وأبو نعيم في «فضائل الصحابة» (٢٣٧) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/٤٧): وفيه من لم أعرفه.

وما حولها، منتصرين على بني إسرائيل، ومع حصول هذه السيادة لكم، فمن يحمينا من عقاب الله إن وقع بنا؟ لأن ما أنتم فيه من سلطان وغلَبة لن ينفعنا في شيء، وهذا تذكير لهم بنعمة الله عليهم، وتمهيد لتخويفهم من غضبه تعالى.

وهو تعريض خاص بفرعون: ألَّا يغترَّ بملكه وعظمته، فإن ذلك مُعَرَّض للزوال إنْ هو أغضب الله عليه، وهذا معنى ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أي: من يدفع عنا عذاب الله إذا حل بنا؟ ومن ينقذنا وينجِّينا إذا حلَّت بنا مصيبة؟ وقد أدمج الرجل المؤمن نفسه مع قوم فرعون تطييبًا لقلوبهم، كأنه يرضى لهم ما يرضى لنفسه.

وهنا أدرك فرعون أنه المعرَّض به في كلامهم، فأخذتْه العزة بالإثم، واستبدَّ به الجبروت والطغيان ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي: ما أشير عليكم إلا برأي ذَكرْتُه من قبل، وهو قتل موسى حسمًا للفتنة ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: ولا أدعوكم إلا إلى الصلاح وطريق الحق والصواب، والرأى السديد قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ [طه].

وفي حديث معقل بن يسار ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من والٍ يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاشٌّ لهم إلا حرَّم الله عليه الجنة»**[1].

ولفظ مسلم: **«ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت، يوم يموت وهو غاشٌّ لرعيته، إلا حرَّم الله عليه الجنة»**[2].

وكرر الرجل المؤمن دعوة قومه غير آيس من هدايتهم:

٣٠- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ۝٣٠﴾

واسترسل الرجل المؤمن في نصحه لقومه يقول لهم: يا قوم إني أخاف إن تعرضتم لموسى بالقتل أو التكذيب أن ينزل بكم من العذاب مِثْل الذي نزل بالأمم التي تحزَّبت على أنبيائها، حين أعرضوا عن دعوتهم، وهذا معنى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ إن قتلتم موسى أن يحدُث لكم يومًا أسود فيحل بكم ﴿مِّثْلَ﴾ ما حدث ﴿يَوْمِ

(١) البخاري برقم: (٧١٥١).

(٢) مسلم برقم: (١٤٢).

﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾، للذين تحزبوا على أنبيائهم واجتمعوا على معارضتهم.

والمراد بالأيام: الوقائع والأحداث التي تقع فيها، والمراد بالأحزاب: الأمم التي تحزبت ضد رسلها؛ لأن كل أمة حزب، أي: إني أخاف أن يصيبكم ما أصابهم من عذاب الاستئصال، ثم فسر يوم الأحزاب بأنه:

٣١- ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١﴾

أي: مِثْل يوم قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، ومَنْ جاء بعدهم في الكفر والتكذيب، فإن الله تعالى قد أهلكهم بسبب ذلك، وكانوا يعرفونهم لقرب بلادهم منهم.

والمعنى: إني أخاف عليكم إن أصبتم موسى بأذى أن يكون حالكم كحال هذه الأمم، فإنهم لمَّا كذبوا رُسل الله وتآمروا عليهم أهلكهم الله، فاحذروا أن تكونوا مثلهم ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه، ولا جُرْمٍ فعلوه، تعالى الله عن الظلم علوًّا كبيرًا، وإن أعظم الظلم هو الشرك بالله، والله - سبحانه - لا يحب صدور الظلم من عباده، ولا يحب أن يظلم عباده.

ومن عدل الله تعالى أنه لا يترك عقاب الذين يظلمون أنفسهم باتباع قادتهم على غير بصيرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤﴾ [يونس: ٤٤].

وقد استوجب قوم فرعون عقاب الله تعالى بسببْ ظلمهم، فكان ذلك عدلًا وقسطًا.

وبعد أن خوَّف الرجل المؤمن فرعون وقومه عذاب الدنيا حذَّرهم من عذاب الآخرة، فقال:

٣٢، ٣٣- ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾

أي: يا أهلي وعشيرتي، إني أخاف عليكم عقاب يوم القيامة الذي يكثُر فيه نداء بعض الناس على بعض من هول الموقف، واليوم الذي ينادِي فيه أهلُ الجنة أهلَ النار، قائلين ﴿قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾ [الأعراف: ٤٤]

وينادي أهل النار أهل الجنة، ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف: ٥٠]

وتنادي فيه الملائكة أهل السعادة وأهل الشقاء، (يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا

أهل النار خلود بلا موت)، وينادي المجرمون على أنفسهم بالويل والثبور ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان].

وينادي أهل النار مالكًا ﴿يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف].

وينادي أهل النار ربهم: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون].

ويقال للمشركين ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٤].

وخوَّفهم الرجل المؤمن هَوْلَ ذلك اليوم إن ظلُّوا على شركهم فقال:

إني أخاف عليكم يوم تنصرفون من موقف الحساب إلى النار، فتحاولون الهرب منها فلا تستطيعون، ولا تجدون من يمنعكم من عذاب الله حين تفرُّون من هول ما تجدونه، فإنهم كلما ذهبوا هاربين من عذاب النار ردَّتْهم الملائكة؛ يضربون وجوههم وأدبارهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ [الحاقة: ١٧].

فلا يمكنهم الخروج من أية جهة من أقطار جهنم ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن: ٣٣].

وهذا إرشاد لكم في الدنيا، فإنْ هداكم الله وعملتم بطاعته وتركتم معاصيه، فإن نفع ذلك سيعود عليكم، وإن أعرضتم عنه فباختياركم طريق الضلال، فإن من يخذله الله ولم يوفقه إلى رشده، فما له من هاد يهديه إلى الحق والصواب، فإذا كان العبد غير لائق للهداية وغير مستعد لها فلا سبيل إلى هدايته.

دَلِيلُ رِسَالَةِ يُوسُفَ عليه السلام

٣٤- ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾

ثم إن الرجل المؤمن، لما رأى تصميمهم على تكذيب موسى ﷺ ذكَّرهم بأنه من ذرية قوم كذَّبوا نبي الله يوسف بن يعقوب عليهما السلام، مع أنه جاء لهم بالدلائل الواضحة التي تدل على صدق رسالته، فالأمر ليس مستغرَبًا فيكم؛ لأن آباءكم وأسلافكم كذَّبوا رسولهم

يوسف ﷺ، فأنتم تسيرون على نهجهم في الإعراض عن الحق، وكان بين موسى ويوسف أكثر من أربعة قرون.

والمعنى: ولقد أرسل الله إلى آبائكم النبي الكريم يوسف بن يعقوب ﷺ من قبل موسى، فأمركم بعبادة الله وحده، وجاءكم بالأدلة الواضحة، والمنطق السليم، فقال لكم: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠].

وقال لكم: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يوسف: ٣٧، ٣٨].

وكان يخبركم عن طريق الوحي، بما هو مغيَّب عنكم في تعبير الرؤى، وظهر لكم عصمته بشهادة امرأة العزيز، وشاهد أهلها، حتى استخلصه الملِك لنفسه، فكانت هذه دلائل واضحة على نبوته، ومع ذلك فلم تطيعوه إلا للجاه الدنيوي وتَولِّيه خزائن أرض مصر وأمور الوزارة ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ أي: لازلتم مُرْتابين في شأنه مدة حياته، وكان أسلافكم يشعرون بأن يوسف ﷺ على هدى من ربه، مما يجعلهم يفزعون إليه في مهامهم، ثم لم يعزموا على اتباع ما جاء به من الهدى، وانقضت مدة حياته وهم في شك من أمره ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ أي: مات يوسف ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ في المستقبل، فقد كنا مترددين في الإيمان بيوسف، وقد استرحْنا من هذا التردُّد، فلن يجيء بعده من يدَّعي الرسالة عن الله، وهذا ظن باطل، لأن الله تعالى لا يترك عباده سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يرسل إليهم رسلًا وينزل عليهم كتبًا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أي: بمثل ذلك الضلال يضل الله كل متجاوز للحق، شاك في وحدانية الله تعالى، فلا يوفقه إلى الهدى والصواب، وهذا هو الوصف الذي وصفوا به موسى ﷺ ظلمًا وعدوانًا، فهم المسرفون المتجاوزون للحق، وهم الذين كذَّبوا على الله ورسوله، لأن من رد الحق بعد معرفته يعاقبه الله بمنعه من الهدى ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الصف] ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة]

وقد ختمت الآية هنا بما يناسب ارتيابهم في رسالة يوسف ﷺ ﴿مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ وختمت في الآية ٢٨ بما يناسب افتراءهم على موسى ﷺ ﴿مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

ويحتمل أن تكون هذه الجملة من تتمة كلام مؤمن آل فرعون، ويحتمل أن تكون من كلام الله تعالى، فتكون والآية بعدها جملة معترضة بين كلام الرجل المؤمن وكلام فرعون، يُقصد بها الاعتبار من حال المكذبين بالرسل.

ثم بين سبحانه وصف المسرف المرتاب في الآية التالية:

الآيَةُ الثَّانِيَةُ عَنِ الْجَدَلِ فِي السُّورَةِ

٣٥- ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ(١) مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾

بيَّن ﷻ أن من يخاصم ويجادل في آيات الله تعالى وفي حججه الدالة على وحدانيته، والدالة على صدق الرسل، ومن يجادل في شرائع الله تعالى ليبطل شيئًا منها، أو يرُده بغير حجة ولا برهان، فإنه يكون قد فعل ذنبًا عظيمًا يوجب غضب الله تعالى وغضب عباد الله.

١- والمجادلة قد تكون لإبطال حجة الخصم، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

٢- وقد تكون من باب المكابرة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥].

٣- وقد تكون المجادلة لقطع الاستماع، كما قال عبد الله بن أُبيّ بن سلول للنبي ﷺ: ما أحسن ما تقول، ولكن لا تَغْشَنا في مجالسنا، واجلس في رحلك فمن جاءك فاقرأ عليه.

وهي هنا من باب المكابرة، فهو يجادل في آيات الله على وضوحها وضوح الشمس، ليدفع الحق ويبطله بغير حجة ولا برهان، إذ ليس عنده علم ولا دليل شرعي ولا عقلي على ما ذهب إليه، وقد عظمت هذه المخاصمة عند الله لقبحها وعند المؤمنين، ومقْتُ الله

(١) قرأ أبو عمرو وابن عامر بخلف عنه بتنوين (قلب) قطعًا عن الإضافة، وجعل التكبر والجبروت صفة للقلب؛ لأنه مدبر الجسد، وقرأ الباقون بترك التنوين على إضافة (قلب) إلى (متكبر) وجعل التكبر والجبروت صفة لموصوف محذوف، أي: على كل قلب شخص متكبر جبار.

للمكذبين بالحق المصدقين للباطل دليل على شناعة ما مقتوه، وهو الجدال في آيات الله بغير برهان، لأن الحق لا يُردّ ولا يعارَض.

ثم ذم الله سبحانه -غاية الذم- من يكابر، فيدفع أو يردُّ حجج الله تعالى الساطعة بغير حجة مقبولة، فقال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: أن الله تعالى مقت جدالهم مقتًا شديدًا، واشتد غضبه عليهم، وبذلك استحقوا العقاب الشديد.

وكما ختم الله بالضلال على قلوب هؤلاء المجادلين وصرَفهم عن الهدى، يختم الله على قلب كل مستكبر عن توحيد الله تعالى وطاعته، كثير الظلم والعدوان، والجدال بالباطل والاستكبار والتجبر، وكلها صفات متوفرة في فرعون.

فِرْعَوْنُ يَبْنِي صَرْحًا لِيَصِلَ -فِي زَعْمِهِ- إِلَى إِلَهِ مُوسَى

٣٦- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ[1] أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾﴾

ولما قال الرجل المؤمن ما قال، خاف فرعون أن يتمكن كلامه في قلوب القوم، وقد أعيته الحيل في مقاومة موسى ﷺ بحجة، وظهر للناس أن ما يدعو إليه موسى حق، فأراد أن يتصدى بنفسه لنفي أن يكون هناك إله آخر، فطلب من وزيره هامان أن يبني له بناء عاليًا شامخًا ليرقى عليه حتى يبلغ أبواب السموات، فينظر إلى إله موسى، بعد أن بحث عنه في الأرض فلم يجده -كما زعم- فلم يبق أمامه إلا السماء، ولا يُتوصل إليها إلا بسُلَّم.

أي: أن فرعون كذَّب موسى في دعوته إلى الإقرار برب العالمين والتسليم له، فقال لوزيره هامان: ابْنِ لي بناء عظيمًا شاهقًا حتى أصل إلى إله موسى، كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

والمراد بالظن: اليقين والجزم بسبب غروره وطغيانه.

وقال هنا: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ والسبب هو الذي يوصل إلى مكان بعيد.

وقد قصد فرعون ببناء الصرح أن يلبِّس على الناس ويشكِّكهم في شأن موسى ودعوته،

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر بفتح ياء الإضافة من (لعليَ أبلغ)، والباقون بإسكانها.

ويُثْبِتَ لهم أنه لا يوجد إله غيره، ولو وُجد لشاهده هو وغيره من الناس، فطلب من هامان بناء الصرح ليتوصل إلى السماء بعد الأخذ بالأسباب:

٣٧- ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ[١] إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ[٢] عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

أي: قال فرعون: أقمتُ هذا الصَّرْح لعلي أَصِلُ إلى أبواب السماء فأطرقها، وأنظر إلى إله موسى بنفسي ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ أي: وأنا أعتقد أن موسى كاذبًا في ادعائه أن له ربًّا وأنه فوق السماء، وإني سأفعل ذلك ليظهرَ كَذِبه، وقد فعل فرعون ذلك استخفافًا بعقول قومه ليوهمهم بما يريد، وكان فرعون قد قال لقومه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

وقال أيضًا: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وقد استدل فرعون على ربوبيته بقوله: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١].

وهكذا بلغ فرعون الغاية في التبجح والفجور والطغيان، والاستخفاف بالعقول، وشدة الخداع والمغالطة، ما لم يبلغ ذلك أحد من البشر، فزيَّن له الشيطان مِنْ قُبح عمله، وصَدَّه عن سبيل الهدى والرشاد ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فرآه حسنًا ودعا إلى مناظرته، كأنه على حق، وهو من أعظم المفسدين ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: حُجِب عن طريق الحق بسبب الباطل الذي زُين له، فاستحب العمى على الهدى ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ الذي يكيد به الحق، ويوهم الناس أنه محق فيه ﴿إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ أي: وما احتيال فرعون وتدبيره الكيد لموسى -لإيهام الناس أنه محق، وموسى مبطل- إلا في خسار وبوار، لا يفيده إلا الشقاء في الدنيا والآخرة، وقد خسر فرعون مُلْكه في الدنيا بالغرق، وخسر آخرته بالخلود في النار، فالتباب هو الخسارة والبوار وهما يجلبان الشقاء والتعاسة في الدنيا والآخرة.

---

(١) قرأ حفص بنصب العين من (فأطلع) على أنه منصوب بأن بعد فاء السببية، وقرأ الباقون بالرفع عطفًا على (أبلغ).

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بضم الصاد من (وصد) على البناء للمفعول، والباقون بفتحها على البناء للفاعل.

الرَّجُلُ المُؤْمِنُ يُوَاصِلُ نَصَائِحَهُ إِلَى قَوْمِ فِرْعَوْنَ

٣٨- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ(١) أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾

وبعد أن استمع مؤمن آل فرعون إلى مغالطة فرعون ومراوغته عاود نصائحه للقوم، فدعاهم في صراحة مكشوفة إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، وكشف لهم عن قيمة الحياة الزائلة، وشوقهم إلى نعيم الحياة الباقية، وحذَّرهم من عذاب الله، فقال لهم: يا قوم، امتثلوا نصحي لكم، فإن فيه طريق الرشد والصواب، والسعادة في الدارين، وقد ابتدأ الرجل المؤمن موعظته هذه المرة بنصيحة مجملة، هي اتباع سبيل الرشاد لتتوق النفوس إلى معرفة هذا السبيل.

ثم أخذ مؤمن آل فرعون يفصِّل دعوته إلى قومه بعد أن لاحت له بوارق إقبالهم عليه، فقال:

٣٩- ﴿يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾

يا أهلي وياعشيرتي: إن هذه الدنيا يتنعم فيها الناس قليلًا، فهي محدودة بأجل معيَّن غير طويل، ثم تنقطع وتزول، فمتاع الدنيا زائل، والخير في العمل لما بعد الموت، فإن فيه السعادة الأبدية، وإن الآخرة دار البقاء والدوام، فلا تركنوا إلى الدنيا؛ لأن وراءها حياة أبدية، فيها حقيقة السعادة والشقاء، وفيها الجزاء على الحسنات والسيئات، بالنعيم والعذاب.

ومن آمن وعمل صالحًا، فهو في نعيم مقيم يستقر فيه يوم القيامة، فينبغي لكم أن تُؤْثِروا الباقية على الفانية، وتعملوا الأعمال الصالحة التي تسعدكم في الآخرة.

قال بعض الصالحين: لو كانت الدنيا ذهبًا فانيًا، والآخرة خزفًا باقيًا، لكانت الآخرة خيرًا من الدنيا، فكيف والدنيا خزفٌ فانٍ، والآخرة ذهبٌ باقٍ؟

ويواصل مؤمن آل فرعون مواعظه وقد تكون الآية التالية كلامًا معترضا من الله تعالى لتقرير قاعدة الجزاء:

---

(١) قرأ قالون والأصبهاني عن ورش وأبو عمرو وأبو جعفر بإثبات الياء وصلًا من (اتبعون) وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا، والباقون بحذفها في الحالين.

قَاعِدَةَ الجَزَاءِ عَلَى الأَعْمَالِ وَالأَقْوَالِ

٤٠- ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ[1] ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾

قرر الرجل المؤمن قاعدة الجزاء على الأعمال في هذه الآية، كما سجلها القرآن، فبيَّن أن من عصى الله تعالى في حياته، وانحرف عن طريق الهدى، فلا يُجزى في الآخرة إلا عقابًا يساوي معصيته، ومن مات على الشرك فجزاؤه جهنم خالدًا مخلدًا فيها ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ من شرك أو فسق أو عصيان ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾، بما يسؤوه ويُحزنه، فيعاقب بمثل ما فعل من ذنوب، سواء أكان ذكرًا أم أنثى.

في صحيح البخاري: أن وهب بن منبه كان كثير الوعظ للناس فقيل له: إنك بوعظك تُقنِّط الناس، فقال: أأنا أقْدر أن أُقنِّط الناس؟! والله يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ ولكنكم تحبون أن تُبشَّروا بالجنة على مساوئ أعمالكم.

والكفر أو الشرك أكبر سيئة، وهذه السيئة أساس الشقاء، وقد كان العقاب عليها أبديًّا؛ لأن مقرها القلب والاعتقاد، وكل سيئة بعد الكفر، فيها فساد جزئي، ولذا كان العقاب عليها غير أبدي، ولا يعذب العبد إلا بقدْرها.

ومن أطاع الله تعالى، وعمل صالحًا، مْن أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان، فامتثل أمره واجتنب نهيه -ذكرًا كان أو أنثى- بشرط أن يكون مؤمنًا بالله تعالى، موحدًا له، فهؤلاء المؤمنون الصالحون، يدخلون الجنة يرزقون فيها رزقًا واسعًا من ثمارها ونعيمها ولذاتها، وتضاعَف لهم الحسنات دون السيئات، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء، وقد اهتم مؤمن آل فرعون بتقديم الأعمال؛ لأن القوم كانوا يهتمون بحُسْن الاعتقاد في الآلهة، ويتهاونون في الأقوال والأعمال.

ولم يهمل -الرجل المؤمن - ذكر الإيمان؛ لأن الإيمان هو أساس قبول الأعمال، وهو أساس النجاة، كما أن الكفر أساس الشقاء، ولا يُقبل معه أعمال صالحة.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وشعبة وأبو جعفر ويعقوب بالبناء للمفعول في (يدخلون)، والباقون بالبناء للفاعل.

واكتفى - مؤمن آل فرعون - بمساواة الذكر والأنثى في العمل الصالح، لينسحب هذا على العمل السيئ أيضًا، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل].

الرَّجُلُ المُؤْمِنُ يَسْتَنْكِرُ مَوقِفَ قَومِ فِرْعَونَ وَيُفَوِّضُ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ

ثم إن الرجل المؤمن استنكر موقف قومه من عدم إيمانهم بموسى ﷺ، فقال:

٤١- ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ[1] أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾

أي: ويا قوم ما لي أدعوكم إلى الإيمان بالله تعالى، واتباع رسوله موسى ﷺ، وهي دعوة توصلكم إلى الجنة، وتبعدكم عن النار، وأدعوكم إلى الخير وأسباب النجاة من العذاب، وأنتم تدعونني إلى الشر، وأسباب الوصول إلى النار؟! أنا أتعجب من حالكم هذه، وأعجب من دعوتي لكم، وأنا أحرص على دعوتكم للحق وهدايتكم، وأنتم على العكس من ذلك، وما بين الدعوتين بَوْن شاسع، فأنتم تدعون إلى الشرك والكفر، وأنا أدعو إلى التوحيد ومغفرة الذنوب، والدعوة الأولى سبب الهلاك، والدعوة الثانية سبب النجاة.

ثم وضَّح الرجل المؤمن هذه الدعوة وفسَّرها، فقال:

٤٢- ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠[2] أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾

أي: فأنتم تدعونني للكفر بالله، وإشراك إله مع الله، وأنا لا علم لي بصحة ذلك، ولا بوجود إله مع الله، والقول على الله بدون علم من أكبر الذنوب و أقبحها، فالذي تدعونني إليه -وهو فرعون- ليس بإله، وما ليس بإله كيف يُعقل أن يكون شريكًا للإله الحق؟! إن هذا من أكبر الذنوب وأقبحها، فلا يستحق العبادة إلا الله وحده، وهأنذا أدعوكم إلى طريق الله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه وانتقامه، ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ لمن تاب إليه من معاصيه.

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وهشام وابن ذكوان بخلف عنه وأبو جعفر بفتح ياء (ما لي أدعوكم) وصلًا، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ نافع وأبو جعفر بمد ألف (وأنا أدعوكم) وإثباتها في الحالين فتكون من قبيل المد المنفصل، وقرأ الباقون بحذف الألف وصلًا وإثباتها وقفًا.

قال الرجل المؤمن: ليس الأمر كما تزعمون من أنكم على حق في دعوتكم إليَّ، بل قد ثبت قطعًا أن ما أدعوكم إليه من عبادة الواحد القهار هو الحق الذي لا مرية فيه: قال مؤمن آل فرعون:

٤٣- ﴿لَا[1] جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾

لقد أكد لهم الرجل المؤمن -بصورة لا تقبل الشك ولا التردد- أن ما يدعونه إليه من الاعتقاد في شأن فرعون، لا يُنَجِّي من اتَّبعه في الدنيا، ولا يفيده في الآخرة لعجْزه ونقصه ولأنه لا يملك نفعًا ولا ضُرًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا ويقينًا لا يقبل الشك ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ من آلهتكم الباطلة ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾ أي: لا يستحق الدعوة ولا اللجوء إليه ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فهو لا يضر ولا ينفع، ولا يستجيب لنداء داعيه، ولا يقْدِر على تفريج كربته.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف].

واعلموا أن مصير الخلائق كلها إلى الله وحده، وهو سبحانه سوف يجازي كل عامل بعمله ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ﴾ في الدار الآخرة ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى غيره، فيجازي كل عامل بعمله.

أما الذين يستكثرون من المعاصي، ويتجاوزون حدود الله تعالى، ويكفرون ويسفكون الدماء، ويتمادون في الضلال والطغيان، فإنهم سيخلدون في النار ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ **والإسراف**: هو الإفراط في الكفر والقتل.

---

(١) قرأ حمزة بمد (لا) بخلف عنه أربع حركات للمبالغة، والباقون بالقصر.

استشعر الرجل المؤمن من ملامح القوم، أنهم لم يقبلوا نصائحه، وأنهم يضمرون به شرًّا، وقد حذّرهم وأنذرهم، فلم يطيعوه ولم يوافقوه، فأنهى كلامه مودعًا لهم وهو يقول:

٤٤- ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ[1] إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾

أي: ستذكرون صدق كلامي عند معاينة العذاب، وأني ذكَّرتكم ونصحت لكم، وسوف تندمون حين لا ينفع الندم، وترون مغبة عدم قبولها عندما يحل بكم العذاب في الدنيا، كما قلت لكم سابقًا: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ وعندما يحل بكم العذاب في الآخرة، وتحرمون جزيل الثواب، كما قلت لكم قبل ذلك: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾.

وفي النهاية فإني أسلِّم أمري إلى الله، فألجأ إليه، وأعتصم به، وأتوكل عليه، وألوذ بحماه.

وهذا يدل على أنهم هددوه وأرادوا قتله، فقال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ يرى أحوال خلقه، ويعلم ما يستحقونه من جزاء، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ويعلم حالي وضعفي، فيحفظني ويكفيني شركم، وهو أيضًا يعلم أحوالكم، فلا تصرّف لكم إلا بإذنه وإرادته، فإن سلّطكم عليّ، فلحكمة أرادها، وأمرٍ قضاه، ولما فوَّض الرجل أمره إلى الله نجاه من مكرهم، كما قال تعالى:

٤٥- ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾

أي: وَقَى الله ذلك المؤمن، ما دبَّره له فرعون وقومه من أذى وعدوان، بعد أن أظهر إيمانه بموسى، ودعاهم إلى ما دعا إليه، وهذا أمر لا يحتملوه، فاشتد غضبهم عليه، وأرادوا به كيدًا، فحفظه الله من مكرهم وكيدهم، وردّ الله كيدهم عليهم، فعاقبهم بالغرق في الدنيا، وبالعذاب في البرزخ، والنار الموقدة في الآخرة.

قيل: إن مؤمن آل فرعون خرج مع موسى وبني إسرائيل من مصر، ونجا معهم، ولم يعثروا عليه، وحل العذاب بفرعون وقومه، حيث أغرقهم الله جميعًا.

والغريق يعذَّب باحتباس النفَس فيه، وهو يطفُو أو يغُوص في الماء، ويُرْعبُه هول الأمواج، ويكون معرَّضًا لأكل الحيتان، وهلاكه محقق كما قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ في الدنيا، ولهم عذاب آخر في القبر وبعد البعث:

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء (أمريَ إلى) وصلًا، والباقون بإسكانها.

عَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ فِي الْبَرْزَخِ وَفِي الآخِرَةِ

أما في البرزخ فإنهم يعذبون في قبورهم صباح مساء إلى يوم الحساب، وعند قيام الساعة يدخلون جهنم داخرين؛ قال تعالى:

٤٦- ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟[١] ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾

أي: أن آل فرعون يُعرَضون على النار، فتشاهِد أرواحهم حال اتصالها بأجسادهم وهم في قبورهم المواضع التي أُعِدَّت لهم في جهنم، ويضمهم القبر فتختلف أضلاعهم:

أحاديث في عذاب القبر:

١- عن عبد الله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله عليه يوم القيامة»**[٢].

قال مجاهد وغيره: هذه الآية تدل على عذاب القبر في الدنيا، ألا تراه يقول سبحانه عن عذاب الآخرة: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة قال: يعرضون على النار صباحًا ومساء، ويقال لهم: يا آل فرعون هذه منازلكم، توبيخًا ونقمةً وصغارًا لهم.

وجمهور أهل العلم على أن العرْض على النار يكون في البرزخ، أي: بعد موتهم وقبل مبعثهم، واحتج بعضهم بالآية على عذاب القبر.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة بهمزة وصل في (أدخلوا) وضم الخاء والبدء بالضم، وقرأ الباقون بهمزة قطع مفتوحة وكسر الخاء، والأول فعل أمر من دخل والثاني من أدخل، والواو ضمير آل فرعون في الأول، وضمير الخزنة في الثاني.

(٢) البخاري برقم: (١٣٧٩، ٣٢٤٠، ٦٥١٥) ومسلم برقم: (٢٨٦٦) و«المسند» (٢/ ١١٣) برقم: (٥٩٢٦)، وهو في الموطأ (١/ ٢٣٩) وابن أبي شيبة (١٣/ ٢٣٧)، والنسائي في الكبرى (٢١٩٩) وفي المجتبى (٤/ ١٠٧) وابن حبان (٣١٣٠).

٢- وعن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم نصف النهار مشتملًا بثوبه، محمرة عيناه، وهو ينادي بأعلى صوته: **«أيها الناس: أظلتكم الفتن، كقطع الليل المظلم، لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرًا وضحكتم قليلًا، أيها الناس: استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق»**(١).

وفي لفظ آخر: **«وإنه أُوحِي إليَّ أنكم تفتنون في قبوركم»**(٢).

٣- وعن عائشة أيضًا ﵂ أن يهودية دخلتْ عليها فقالت: أعاذِك الله من عذاب القبر، فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر؟ فقال: **«نعم، عذاب القبر حق»**، قالت عائشة: فما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلى صلاة إلا تعوَّذ من عذاب القبر(٣).

وفيه دليل على أن عذاب القبر يتصل بالأجساد.

٤- وفي حديث الإسراء عن أبي سعيد الخدري ﵁ أن رسول الله قال فيه: **«ثم انطلق بي إلى خلْق كثير من خلق الله رجال، كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم، مصفَّدون على سابلة آل فرعون، وآل فرعون يعرضون على النار غدُوًّا وعشيًّا» ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ «وآل فرعون كالإبل المسومة، يخبطون الحجارة والشجر ولا يعقلون»**(٤).

٥- وأخرج الطبري بسنده عن الأوزاعي أن رجلًا سأله عن طيور بيض تخرج من البحر أفواجًا، متوجهة نحو الغرب، لا يعلم عددها إلا الله، فإذا كان العشي رجع مثلها سودًا، فقال: إن تلك الطير في حواصلها أرواح آل فرعون، تُعرَض على النار غدوًّا وعشيًّا، فترجع إلى وكْرها وقد احترقت رياشها، وصارت سوداء، فينبت عليها من الليل ريش

---

(١) جزء من حديث أحمد في «المسند» بإسناد صحيح على شرط الشيخين (٦/ ٨١) برقم: (٢٤٥٢٠) (محققوه) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٥٤) وقال: هو في الصحيح باختصار، رواه أحمد رجاله رجال الصحيح وذكره الحافظ في الفتح (٣/ ٢٣٦) وذكر أن إسناده على شرط البخاري وجاء مختصرًا في مواضع أخرى.

(٢) «المسند» (٦/ ٢٣٨).

(٣) «صحيح البخاري» برقم: (١٣٧٢).

(٤) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٣٩٠) والطبري (١٥/ ١٠) من حديث طويل.

أبيض، وتتناثر السود، ثم تغْدُو على النار غُدُوًّا وعشيًّا، ثم ترجع إلى وكرها، فذلك دأبهم في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ قال: وكانوا يقولون: إنهم ست مئة ألف مقاتل[1].

٦- قال ابن مسعود ﷺ: أرواح آل فرعون في أجواف طيور سود، يُعرَضون على النار كل يوم مرتين، تغدو وتروح إلى النار، ويقال: يا آل فرعون، هذه منازلكم حتى تقوم الساعة، وقيل: تُعرض روح كل كافر على النار بكرة وعشيًّا ما دامت الدنيا[2].

ويتضح من ذلك أن آل فرعون يدخلون النار يوم القيامة جزاء ما اقترفوه من الأعمال السيئة، ويعذبون قبل ذلك في قبورهم صباح مساء.

خلاصة نصائح مؤمن آل فرعون إلى قومه:

ومما سبق يتبين أن مؤمن آل فرعون نصحهم بما يلي:

أوَّلًا: نهاهم عن قتل موسى وتكذيبه.

ثانيًا: ذكَّرهم نعم الله تعالى عليهم بأنهم ﴿ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ثالثًا: خوَّفهم عذاب الدنيا كعذاب يوم الأحزاب.

رابعًا: خوَّفهم عذاب الآخرة، يوم التناد.

خامسًا: ذكَّرهم بارتيابهم في رسالة يوسف ﷺ من قبل.

سادسًا: بيَّن لهم سوء مصير المجادل في آيات الله تعالى.

سابعًا: بيَّن لهم أن في اتباع نُصحه لهم طريق الرشاد والسداد.

ثامنًا: ذكر لهم أن نعيم الدنيا زائل ونعيم الآخرة باقٍ.

تاسعًا: بيَّن لهم قاعدة الجزاء الأخروي.

عاشرًا: تعجب من دعوته لهم إلى الجنة ودعوتهم له إلى النار.

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٦) وابن أبي الدنيا (٤٨).

(٢) «تفسير الخازن» (٤/ ٧٣) وعبد الرزاق (٢/ ١٨١).

حادي عشر: بيَّن لهم أن غير الله تعالى لا يستحق أن يُدْعى؛ لأنه لا يملك شيئًا.

ثاني عشر: وادَعَهُم بتفويض أمره إلى الله تعالى، فنجاه الله من مكرهم.

تَلاوُمُ أَهْلِ النَّارِ

ولما ذَكَر سبحانه ما يحل بآل فرعون من عذاب النار في الآخرة، ناسب ذلك ذِكْر ما يدور بين أهل النار مِنْ تخاصُم وتلاوُم، واستغاثة أهل النار بخزنتها فلا يجابون.

٤٧- ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾

أي: واذكر -أيها الرسول- لأمتك الوقت الذي يتخاصمون فيه، فيعاتِب بعضهم بعضًا ويلوم بعضهم بعضًا وهم في النار ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ من عامة الناس الذين لا جاه لهم ولا مال، وهم المقلِّدون لغيرهم، يقولون لرؤسائهم ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ وهم سادة القوم، أصحاب المال والجاه، الذين أضلُّوهم وزينوا لهم طريق الشقاء، يقولون لهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ نترسَّم خطاكم، وننقاد إلى أوامركم، ونطيعكم فيما تدعوننا إليه من الكفر والضلال، ونقلِّدكم في التوجه لغير الله تعالى، فأنتم أغويتمونا وأضللتمونا، وزينتم لنا الشرك والشر ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ لو شيئًا قليلًا، أي: هل تتحملون عنا قسطًا من عذاب النار، أوْ تدفعون عنا شيئًا من العذاب المهين، فطالما دافعْنا عنكم، وسِرْنا وراءكم دون تفكير ولا معارضة، يقولون ذلك وهم يعلمون أنهم لا قدرة لهم على تخفيف العذاب عنهم، ولكنه تخجيل لرؤسائهم وتوبيخ لهم، وإيقاع الإيلام في قلوبهم، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾؟ [إبراهيم: ٢١].

٤٨- ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾

أي: قال الرؤساء المستكبرون جوابًا للضعفاء، مبينين لهم عجزهم بأنهم لا يمكنهم أن يتحملوا عنهم شيئًا من عذاب النار؛ لأنهم جميعًا في النار، ولو كانوا يقدرون على شيء لدفعوا عن أنفسهم العذاب من باب أولى ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ نحن وأنتم في النار نستوي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ فقسَّم العذاب بين أهل النار بقدر ما يستحقه كل منهم بقضائه العادل، لا يزاد عليه ولا يُنقص منه، ولا مطمع في التخلص من

حكمه تعالى، فقد جُوزِي كل فريق بعمله، ولا نستطيع أن نفعل لكم شيئًا، فإن هذا قضاء مبرم لا مردَّ له من الله.

٤٩- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾

وبعد أن يئس الجميع من نُصرة بعضهم بعضًا، وتنصَّل كل فريق من الآخر، توجهوا كلهم نحو خزنة جهنم، يطلبون منهم الشفاعة عند ربهم، أن يخفف عنهم من العذاب ولو يومًا واحدًا من العذاب المستمر؛ كي يُمْكِنهم أن يلْتقطوا أنفاسهم من حرِّ جهنم ولو ساعة من نهار! ولو لحظة واحدة!

وهنا تردُّ عليهم الملائكة موبخين لهم، ليُظهروا لهم سوء صنيعهم، فيندمون ويتحسرون على ما ضيَّعُوه في حياتهم الدنيا من وسائل النجاة من العقاب:

٥٠- ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾

أي: تقول لهم الخزنة تقريعًا وتوبيخًا: إن هذا الدعاء وهذه الشفاعة التي تطلبونها منَّا لا تنفعكم، فقد جاءتكم رسل الله بالحجج الواضحة، والمعجزات الدالة على صدقهم، فكذبْتُموهم.

وهنا يعترف أهل النار بذلك ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ قد جاءتنا الرسل بالآيات البينات والدلائل الواضحات، وقامت علينا الحجة البالغة، وبعد هذا الاعتراف يتبرأ خزنة جهنم منهم، ويقولون لهم: نحن لا ندعو لكم، ولا نشفع فيكم، فادعوا أنتم لأنفسكم، فإن هذا الدعاء لا يفيدكم شيئا لأنكم كافرون، فكما كنتم مستبدين بآرائكم في الدنيا، وتوليتم عن الرسل، فتولوا أمر أنفسكم اليوم، وهذا معنى ﴿قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾ أي قالوا لهم: ادعوا لأنفسكم فإن دعاءكم مردود عليكم، قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ لا يُقبل منهم دعاء، ولا يُستجاب لهم رجاء.

قال الرازي: إذا لم يُسمع دعاء الملائكة المقربين فكيف يُسمع دعاء الكفار؟[١].

---

(١) انظر آيات التلاوم في: سورة الأعراف وسورة سبأ وسورة ص وسورة إبراهيم، وغيرها.

وَعْدُ اللَّهِ تَعَالَى بِالنَّصْرِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ

٥١- ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾

هذا: والكلام من أول السورة إلى هنا كان في الملحدين المجادلين في القرآن، كما قال تعالى: ﴿مَا يُجَـٰدِلُ فِيٓ ءَايَـٰتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وامتدَّ الكلام إلى ضرب أمثلة لهم من الأمم السابقة، وبعد ذلك بيَّن الله تعالى لرسوله ﷺ أن العاقبة في النهاية أن ينصر الله رسله والمؤمنين.

وختمت هذه الجولة بوعد الله تعالى أن ينصر رسله والمؤمنين في الدنيا والآخرة، لبيان أن سُنَّة الله تعالى لا تتخلف، ونَصْرُ الله لرسوله وللمؤمنين في الدنيا يكون بإظهار دينه على الفريق المعاند لله ورسوله والمؤمنين، ونَصْرُه لهم في الآخرة، يكون بالنعيم في الجنة للمؤمنين، والعذاب في النار للكافرين.

ونَصْرُ الرسل السابقين على محمد ﷺ قد مضى وظهر.

ونَصْرُ محمد ﷺ والمؤمنين معه مترقب الحصول وقت التنزيل.

ووعد الله للمؤمنين بالنصر على من ظلمهم في الحياة الدنيا قد يكون مباشرًا، وقد يكون بأن يسلط الله عليهم من ينتقم منهم كما حدث لمن قتل أنبياء الله: يحيى، وزكريا، وأشعياء، فإن الله تعالى قد سلَّط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم.

وقد أخذ الله النمروذ أخذ عزيز مقتدر، وأهلك الله قوم: نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم لوط، وأهل مدين، وأصحاب الرسِّ، وأمثالهم.

وقد خرج رسول الله ﷺ من مكة، على إثر مؤامرة لقتله، وعاد إليها فاتحًا في عشرة آلاف مقاتل بعد ثماني سنوات، فنَصْرُ الله تعالى لرُسله قد يكون في حياة الرسول المنصور، كما نصر الله نبيه نوحًا، ونبيه موسى عليهما السلام، وقد يكون بعد موته، فقد سلط الله بختنصر لينتقم ممن قتل يحيى عليه السلام.

ونَصْرُ المؤمنين داخل في نصر الرسل، فالأنبياء والمؤمنون يُقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها.

قال السُّدِّي: لم يبعث الله رسولًا إلى قوم فيقتلونه، أو قومًا من المؤمنين يدعون إلى الحق فيُقتلون، فيذهب ذلك القرن، حتى يبعث الله من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك في الدنيا، قال: فكان الأنبياء يُقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها[1].

وهكذا لا تقوم الساعة حتى ينصر الله المسلمين على اليهود، كما صح بذلك الخبر، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ننصرهم ومن تبعهم من المؤمنين، ونؤيدهم على من أذاهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالحجة الدامغة التي تزهق باطل أعدائهم، وبالتغلب عليهم وإظهار دين الله على جميع الديانات، وإن كانت الغلبة في بعض الأحايين للكفار امتحانًا من الله تعالى وتمحيصًا للمؤمنين، ولكن العاقبة في النهاية للمؤمنين بإذن الله تعالى.

وكما وعد الله المؤمنين بالنصر في الدنيا وعدهم به في الآخرة، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ أي: وننصرهم أيضًا يوم القيامة، يوم تشهد الملائكة والأنبياء والمؤمنون على الأمم التي كذبت رسلها، فيشهدون بأن الرسل قد بلّغوا رسالات ربهم، وأن الأمم قد كذبتهم، وتشهد هذه الأمة على الأمم السابقة، ويشهد الرسول ﷺ على هذه الأمة، كما قال تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء].

كما أنه يومٌ تشهد فيه الحفظة، وتشهد فيه الأعضاء، وتتحدث فيه الأرض، فتنطق شاهدة بالأخبار التي حدثت على ظهرها.

ثم وصف الله - سبحانه - اليوم الآخر بأنه يوم لا يُقبل فيه العذر، فقال:

٥٢- ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ[2] ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾

أي: هو يوم لا ينفع فيه الجاحدون -الذين تعدَّوْا حدود الله تعالى- لا ينفعهم ما يعتذرون به

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (١٣/ ٤٨).

(٢) قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي وخلف بالياء في (لا ينفع) على التذكير وقرأ غيرهم بتاء التأنيث، وجاز تذكير الفعل وتأنيثه؛ لأن الفاعل مؤنث مجازيًا.

عن تكذيب رسل الله في الدنيا، كماقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [الروم: ٥٧].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦﴾ [المرسلات].

وهؤلاء الظالمون مطرودون من رحمة الله تعالى، ولهم في الآخرة عذاب النار.

و﴿لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥] فإن جهنم أسوأ مرجع ومصير.

الإِشَارَةُ إِلَى رِسَالَةِ مُوسَى وَكِتَابِهِ

هذا مثال على نصر الله تعالى لرسله ولعباده المؤمنين، قال تعالى:

٥٣، ٥٤- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ[1] ۝٥٣ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٥٤﴾

أي: ومن أوضح الأمثلة على نصر الله لرسله وللمؤمنين معه، نَصْرُ الله تعالى لموسى ﷺ على فرعون، وأيُّ نصر أعظم من الخلاص من العبودية والتبعيَّة لأمة أخرى، ثم تكوين شَعْب مستقل، له كتاب وشريعة ومُلك ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: آتيناه الوحي الذي يهدي إلى الحق، من التوراة والمعجزات والصحف والشرائع ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جعلنا ذرية نبي الله يعقوب يتوارثون التوراة خلفًا عن سلف، وهذا الكتاب مشتمل على العلم بالأحكام الشرعية، وعلى الترغيب والترهيب، وينتفع به أهل الفطر السليمة والعقول النيِّرة.

والمعنى: آتينا موسى الهدى والكتاب، وآتينا بني إسرائيل الكتاب، ولفظ الهدى يشمل الرسالة، ويشمل الشريعة التي في التوراة، وبنو إسرائيل ورثوا عن موسى شريعة التوراة، ولم يرثوا الرسالة، فقد انتقلت منهم إلى ذرية إسماعيل، والكتاب من الهدى، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

وجعلنا هذا الكتاب هاديًا إلى سبيل الرشاد، وموعظة لأصحاب العقول السليمة، وفي التوراة علم لمن يجهل، وتذكرة لمن يعلم، والقضاة والأحبار يختصون باستنباط الأحكام منها.

---

(١) لم يعد المدني الأخير والبصري وابن الجهم عن الشامي لفظ (والكتاب) آية، وعدها المدني الأول والمكي والكوفي والرواية الثانية عن البصري.

أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ بِالصَّبْرِ وَالاسْتِغْفَارِ وَالتَّسْبِيحِ آيَةُ الصَّبْرِ الأُولَى فِي السُّورَة

٥٥- ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾

في هذه الآية ثلاثة أوامر للنبي ﷺ وإلى كل داعية إلى الله تعالى، وهي: الأمر بالصبر والاستغفار والتسبيح، فلا تستبطئ النصر يا محمد، فإن ما وعدك الله به من نصر رسله والمؤمنين واقع لا محالة، وما عليك إلا الصبر ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

الأمر الأول: الصبر على الأذى، أي اصبر -أيها الرسول وأيها الداعية إلى الله - على أذى المكذبين، واصبر على ما يصيبك من أعدائك، فقد وعدك الله بإعلاء كلمتك، وإظهار دينك على كل دين، ووعد الله ثابت لا يتخلف، وقد تحقق نصر الله لنبيه في غزواته وسراياه، وفتح الخلفاء بعده البلاد، وانتشر الإسلام في الآفاق، وهو في انتشار دائم وصحوة مستمرة.

الأمر الثاني: المداومة على الاستغفار، ثم أمر الله رسوله أن يسأله دوام العصمة؛ لتدوم له المغفرة، فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ أي: دُم على طلب المغفرة لتقتدي بك أمتك، فإن استغفارك -وأنت المعصوم- يجعل أمتك تقتدي بك، وهذا الأمر بالاستغفار كان قبل أن يُخبره الله تعالى بما جاء في سورة (الفتح) من أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وبالتسبيح يحصل المحبوب، وبالاستغفار يُدفع المحذور.

أما أمرُ الله تعالى لنبيه ﷺ بالاستغفار في سورة (النصر) فهو بعد أن أخبره الله تعالى بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو إرشاد إلى شكر نعمة النصر وتمام النعمة، وكمال الدين، ومفارقة الدنيا، فاستغفار النبي ﷺ كان مستمرا قبل نزول سورتي الفتح والنصر وبعدهما.

وبعد نزول سورة (النصر) كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في سجوده: **«سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي»**[1] قالت عائشة ﵂: يتأول القرآن.

---

(١) في البخاري عن عائشة (٨١٧) وفي«المسند»(٢٥٥٦٧، ٢٥٩٢٨)وحديث ابن مسعود (٣٧١٩، ٤٣٥٦) وعبد الرزاق في «المصنف» (٢٨٧٨) والنسائي في الكبرى (٧٠٩) والبيهقي في السنن (٨٦/٢).

وكان النبي ﷺ يتوب إلى الله تعالى ويستغفره في اليوم الواحد مئة مرة.

وأَمْرُ الله تعالى لنبيه ﷺ بالاستغفار والتوبة، المراد منه: تعليم الأمة؛ لأن الرسول ﷺ معصوم من الذنوب جميعًا؛ صغائر وكبائر، قبل النبوة وبعدها على التحقيق.

الأمر الثالث: المواظبة على التسبيح، فقد أمر الله رسوله في الآية بتسبيحه صباحًا ومساء ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ أي: إلى جوار استغفارك من الذنوب نزِّه ربك عما لا يليق به في آخر النهار وهو وقت العشي، وأوله وهو وقت الإبكار، وهما أفضل الأوقات، وفيهما من الأوراد والأذكار ما ليس في غيرهما.

والمراد بذلك: المداومة على ذكر الله تعالى، وألا يفتر اللسان عنه، كحال الملائكة الأبرار ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء].

وهكذا نجد أن الله تعالى قد أمر رسوله ﷺ في هذه الآية بثلاثة أشياء هي:

١- الصبر على الأذى.

٢- والمواظبة على الاستغفار.

٣- والمواظبة على التسبيح.

قال الفخر الرازي: واعلم أن مجامع الطاعات محصورة في قسمين:

التوبة عما لا ينبغي، والاشتغال بما ينبغي، والأول مقدَّم على الثاني.

أما التوبة عما لا ينبغي، فنراها في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾.

وأما الاشتغال بما ينبغي فنراه في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾.

والتسبيح: عبارة عن تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به.

والعشي والإبكار، قيل: صلاة العصر وصلاة الفجر، وقيل: الإبكار عبارة عن أول النهار إلى النصف، والعشي عبارة عن النصف الثاني إلى آخر النهار، فيدخل فيه كل الأوقات.

وبالجملة فالمراد منه: المواظبة على ذكر الله تعالى وألَّا يفتر اللسان عنه.

الكِبْرُ سَبَبُ الجِدَالِ بِالبَاطِلِ: آيَةُ الجَدَلِ الثَّالِثَةُ فِي السُّورة

٥٦- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦﴾

وتمضي الآيات في الحديث عن المجادلين في آيات الله لتكشف عن السبب الدافع للكفار إلى المجادلة بالباطل، وما تكنُّه صدورهم في ذلك؛ ليعلم الرسول ﷺ أن تكذيبهم له ليس تنقيصًا لشأنه، ولا تجويزًا للكذب عليه، ولكن الذي يدفعهم إلى ذلك هو التكبُّر عن أن يكونوا تبعًا للرسول ﷺ ويكونوا وراء الذين سبقوهم بالإيمان ممن كانوا لا يعبؤون بهم في الدنيا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ أي: إن الذين يخاصمون في آيات الله، وفي دلائل قدرته ووحدانيته، وصِدْق رسوله وكتابه، ويَخْلطون الدلائل الواضحة بالباطل، من غير أن تكون لديهم حجة بينة، وبرهان صحيح على صحة دعواهم ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ أي: ما يحملهم على المجادلة في آيات الله بالباطل، إلا الكِبر على صاحب الرسالة ﷺ والحسد له، وليست مجادلتهم لوجود دليل لديهم، وهذا الكبر الذي في صدورهم هو الباعث لهم على تكذيبك -يا محمد- حسدًا منهم على ما خصَّك الله به من فضل، وهو شرف النبوة، وهم لن يبلُغوا هذه المرتبة، ولن يبلغوا مرادهم بإطفاء نور الله سبحانه ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ [فاطر: ٢].

فالتجئ إلى الله -أيها الرسول- واعتصم به من شرهم، فهو الذي يسمع أقوالهم، ويُبصر أفعالهم ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾ من التكبر على الحق، واستعذ بالله من شياطين الإنس والجن، واستعذ بالله من جميع الشرور ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ وهو المطَّلع على أقوالهم وأعمالهم، وهو القادر على إبطال ما يصنعون.

وفي الآية نص صريح، وبيان واضح بأن كل من جادل الحق فهو مغلوب، وكل من تكبر عليه فهو ذليل.

والجدال المذموم هو الجدال بالباطل، أما الجدل لإقامة الحق والكشف عنه فهو جدال محمود، كالجدال في آيات لتوضيح معناها وما يلتبس منها، وحل مشكلاتها، واستنباط

معانيها، ورد الزيغ عنها فهو جدال حسن، ومنه رد أهل الضلال إلى الهدى، وردُّ أهل الخطأ إلى الصواب.

وقد وردت آثار[1] تفيد أن هذه الآية نزلت في اليهود، وأنهم ادَّعوْا أن الدجال يكون منهم، وأنهم يملكون الأرض به، فأمر الله نبيه أن يستعيذ بالله من فتنة الدجال.

ومن هذه الآثار في أسباب النزول:

١- ما أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم بسند صحيح عن أبي العالية قال: إن اليهود أتوا النبي ﷺ، فقالوا: إن الدجال يكون منَّا في آخر الزمان، ويكون من أمره، فعظَّموا أمره وقالوا: يصنع كذا ويصنع كذا، فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ﴾ قال: لا يبلغ الذي يقول، فأمر الله نبيه أن يتعوَّذ من فتنة الدجال.

وقال كعب الأحبار: هم اليهود نزلت فيهم، فيما ينتظرون من أمر الدجال.

٢- وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما بُعث نبيٌّ إلا أنذر أمته الأعور الكذَّاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر»**[2].

٣- وعن جابر بن عبدالله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما كانت فتنة، ولا تكون، حتى تقوم الساعة، أعظم من فتنة الدجال، وما من نبي إلا وقد حذر قومه، ولأخبرنكم منه بشيء ما أخبره نبي أمته قبلي»** فوضع يده على عينيه، ثم قال: **«أشهد أن الله ليس بأعور»**[3].

٤- وجاء وصف الدجال أنه: **«جعْد، آدم، ممسوحُ العين اليسرى، وإن معه جنةً ونارًا،**

---

(١) انظرْها في: «الدر المنثور» (١٣/ ٤٩-٦٦).

(٢) البخاري (٧١٣١، ٧٤٠٨٢) ومسلم(٢٩٣٣) وهو من حديث طويل في «المسند» في مواطن كثيرة منها: (١٩/ ٦٣) (١٢٠٠٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققوه)، والطيالسي (١٩٦٣) وأبو داود (٤٣١٦) وأبو يعلى (٣٢٦٥).

(٣) «المسند» (٢٢/ ٩) (١٤١١٢) والحاكم (١/ ٢٤) وقال محققو المسند: حديث صحيح بطرقه وشواهده، وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الشيخين، إلا أن زيد، مولى عمر، لم يسمع من جابر، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٢١٨٦) وقد جاء في أول الحديث ذكر المدينة وأنها تنفي الخبث، وجاء ذكر اليهود أيضًا ولهذا المعنى قال بعضهم: إن هذه الآية مدنية، واستبعده ابن كثير. قلت: وعموم المعنى يشمله.

وإن معه نهرَ ماءٍ وجبلَ خبزٍ، وإنه يسلَّط على نفس فيقتلها ثم يحييها، لا يسلَّط على غيرها، وإنه يُمطر السماء ولا يُنبت الأرض، وإنه يمكث في الأرض أربعين صباحًا حتى يبلغ كل منهل، وإنه لا يقرب أربعة مساجد: المسجدَ الحرام، ومسجد الرسول، ومسجد القدس، والطور، وما شُبِّه عليكم من الأشياء، فإن الله ليس بأعور»[1].

بَعْثُ الأَمْوَاتِ أَدْنَى دَرَجَةً مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ

٥٧- ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

وإن أهم ما يجادل فيه المبطلون، آيات الله المثبتة للبعث بعد الموت، وهذا أكبر شبهة راجت بينهم، فقالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥] وكانوا يسخرون من النبي ﷺ لأجل ذلك، فيقولون: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: ٧، ٨].

ولَمَّا كان الكفار يقرون بأن الله تعالى هو خالق السموات والأرض، أقيمت عليهم الحجة، بأن بعث الأموات أدنى درجة من خلق السموات والأرض، فقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أن خلقهما وإنشاءهما من غير شيء أعظم وأهم من خلق البشر، فمن قدر على خلقهما مع عظمهما، فكيف يعجز عن خلق ما هو أدنى منهما، وهو إعادة الأجساد بعد فنائها؟ فالذي خلق الأجرام العظيمة وأتقنها، قادر على إعادة الناس بعد موتهم من باب أولى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون أن حجة إمكان البعث واضحة؛ لأنهم في لهو عن الأدلة المقنعة، والذين يعلمون ذلك هم المؤمنون، وعددهم أقل، وهذا الدليل من الأدلة العقلية الدالة على البعث والنشور دلالة قاطعة.

ويوضح المراد من هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف].

---

(١) ابن أبي شيبة (١٥/١٤٧) وهو عند أحمد بإسناد صحيح (٣٩/٨٩) (٢٣٦٨٤، ٢٣٦٨٥) عن جُنادة بن أمية الأزدى عن رجل من أصحاب النبي ﷺ.

لَا يَسْتَوِي عِنْدَ اللَّهِ مَنْ يُؤْمِنُ بِالبَعْثِ وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ

٥٨- ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ[1] وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ[2]﴾

في هذه الآية ضرب الله مثلًا للمؤمن بالبعث والنشور، وضربه أيضًا للكافر المجادل في أمر البعث، وضربه كذلك لمن آمن وعمل صالحا، ومن استكبر على عبادة الله وتجرأ على معاصيه فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩﴾ فالذي يجادل في البعث مع وضوح دلائله كالأعمى، والذي يؤمن به كالبصير، والأعمى والبصير لا يستويان، ولا يستوي الذين اهتدوْا والذين هم في ضلال، ﴿وَ﴾ لا يستوي ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ أي: لا يستوي المؤمنون المهتدون، المقرون بوحدانية الله تعالى العاملون للصالحات، والجاحدون المنكرون لوحدانيته تعالى وللبعث والنشور، ولا يعترفون بدلائله البينة ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ -أيها الناس- حججَ الله الواضحة، فتتعظون وتعتبرون.

فلو تذكرتم منازل الأخيار والأشرار، والأبرار والفجار، لكانت لكم همة عالية، وآثرتم النافع على الضار، والهدى على الضلال.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝٢١ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].

وبعد كشف شبهة منكري البعث تأتي النتيجة الحتمية، بتحقيق وقوعها في الوقت الذي يختاره رب العالمين:

٥٩- ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا[3] رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٩﴾

أي: إن الذي يجادل في قيام الساعة هم المبطلون، وهي واقعة لا محالة، فلا ريب ولاشك في قيام الساعة، كما أخبرتْ بذلك الرسل والكتب، فأيقنوا بمجيئها أيها

(١) عد الدمشقي والمدني الأخير (والبصير) آية، وتركها غيرهما.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب بالياء في (ما تتذكرون) على الغيب، والباقون بالتاء على الخطاب.

(٣) قرأ حمزة بمد (لا ريب) أربع حركات للمبالغة في النفي، والباقون بالقصر.

الشاكون، وأكثر الناس لا يصدقون بوقوعها ولا يعملون لها، ويمرون على أدلتها وهم معرضون، وأكثر الناس هم الكفار بالبعث والنشور ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية].

قلت: وليس للدار الآخرة كبير تفكير في حياة الناس اليوم، إلا من رحم ربي، فهم غارقون للأذقان في شؤون الحياة الدنيا إلى آخر رمق.

الدُّعَاءُ عِبَادَةٌ، فَلَا يُسْأَلُ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى

٦٠- ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ(١) أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ(٢) جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

ولَمَّا كانت المجادلة في آيات الله سبحانه، تشمل الجدال في وحدانيته تعالى، وتشمل الجدال في اليوم الآخر، فقد أعقب الاستدلال على إمكانية البعث، بالتحذير من الإشراك بالله تعالى، والأمر بالتوجه بالدعاء إليه وحده، دون اتخاذ واسطة ترفعه إلى الله تعالى.

قال ابن عطية: هذه آية تفضُّل، ونعمة، ووعْد لأمة محمد ﷺ بالإجابة عند الدعاء، وهذا الوعد مقيد بشرط المشيئة لمن شاء الله تعالى، لا أنَّ الاستجابة عليه حتم لكل داعٍ سِيَّمَا لمن تعدَّى في دعائه(٣).

والمراد بالدعاء: السؤال بجلب النفع ودفع الضر، والدعاء في نفسه عبادة، فإن الله تعالى قال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ أي: عن دعائي، وعلى هذا فإن مَنْ طلب مِنَ الموتى قضاء الحوائج وجلْب النفع ودفع الضر كان قد عبَدهم بدعائه لهم، وصَرفَ إليهم ما لا يجوز صَرْفُه إلا لله تعالى، إذ لا يقدر على إجابة الدعاء إلا الله سبحانه.

وفي الآية وعيد شديد لمن يستكبر عن دعاء الله تعالى، والمتكبرون يُحشَرون يوم القيامة أمثال الذر تطؤهم الناس بأقدامهم لهوانهم على الله تعالى.

---

(١) قرأ ابن كثير بفتح ياء الإضافة من (ادعوني أستجب)، والباقون بإسكانها.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو جعفر ورويس وشعبة بخلف عنه بالبناء للمجهول في (سيدخلون)، والباقون بالبناء للمعلوم وهو الوجه الثاني لشعبة.

(٣) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٥٦٦).

قال سفيان الثوري: يا من أحبُّ عباده إليه، مَنْ سأله فأكثر سؤاله، ويا من أبغضُ عباده إليه من لم يسأله، وليس أحد كذلك غيرك يا رب[1].

والدعاء على نوعين فقد تعنى كلمة الدعاء العبادة، أي أن العبد قد يسأل ربه لا لحاجة، وإنما يسأله تعبدًا، لأن الله تعالى، أمره بالدعاء.

وقد تعني سؤال الحاجة، أي أن العبد يسأل ربه ما فيه صلاح دينه ودنياه.

والعبادة أنواع كثيرة، وسؤال الله تعالى نوع من أنواعها، وهي تشمل: الصلاة والصيام والزكاة والحج، والنذر والذبح، والاستعانة والاستغاثة والاستعاذة، وطلب المدد وغير ذلك.

وفي حديث النعمان بن بشير ﷺ: فسَّر النبي ﷺ الدعاء بأنه العبادة، فقال ﷺ: **«الدعاء هو العبادة»** ثم قرأ الآية[2].

فإذا كان الدعاء هو العبادة فإن العبادة هي الدعاء، وذلك لأن الدعاء يطلق على سؤال العبد حاجته من الله تعالى، والعبادة لا تخلو من دعاء المعبود.

وقد علَّمنا الله - سبحانه - أن العبادة والدعاء شيء واحد، فجاء في صدر الآية ﴿ٱدْعُونِىٓ﴾ وفُسِّرَتْ آخر الآية بأولها حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ وقد أمر الله - سبحانه - العباد أن يخصُّوه بالدعاء، ورغبهم فيه وحثهم عليه، ثم بيَّن سبحانه أن الذين يتكبرون عن إفراد الله تعالى بالعبودية والألوهية- ومنها الدعاء -مصيرهم جهنم يدخلونها أذلاء حقراء، والمتكبرون عن عبادة الله تعالى يحشرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس.

وفي هذا تحذير وإنذار لمن يدعو غير الله - سبحانه - ممن ذكرهم الله تعالى في هذه السورة بقوله: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ [غافر: ١٢] وقوله سبحانه: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٥٠].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ١٥٣).

(٢) «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٣٢٤) (٣٠٨٦) و«سنن الترمذي» (٥/ ٤٥٦) (٣٣٧٢) و«صحيح سنن أبي داود» (١٣٢٩) وابن حبَّان (٨٩٠) «الإحسان» قال محققه: إسناده صحيح و«السنن الكبرى» للنسائي (١١٤٦٤) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (١/ ٤٩١) والبخاري (٧١٤) و«المسند» (١٨٣٥٢) بإسناد صحيح ورجال ثقات (محققوه) وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٠٠) والبغوي في شرح السنة (١٣٨٤٠) ومشكاة المصابيح (٢٢٣٠).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر].

وفي قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات].

وفي الآية بيان لسوء عاقبة المستكبرين عن إفراد الله تعالى بالعبادة.

وقد تكفل الله - سبحانه - بإجابة الدعاء فضلًا منه وكرمًا.

صور إجابة الدعاء:

وقد تكون الإجابة في صورتها المطلوبة للسائل، إن كان في ذلك خير له.

وقد يرفع الله عن العبد من البلاء ما لا يعلم.

وقد يدَّخر له الإجابة في الآخرة إن كان هذا أنفع له.

وشرط الدعاء: طيب المطعم، والمشرب، والملبس، والمسكن.

ويقدَّم للدعاء بحمد الله تعالى والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

ويكون العبد السائل من المؤمنين العاملين للصالحات.

ومن شروط الدعاء: الإخلاص فيه والانشغال به، وألا يكون فيه قطيعة رحم ولا إثم، وألا يستبطئ العبد الإجابة فيقول: يا رب، دعوت فلم تُجِب.

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن في الجمعة لساعة، لا يوافقها مسلم يسأل الله فيها خيرًا إلا أعطاه إياه**»(١).

وفي صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمر ﷺ أن هذه الساعة: «**هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة**»(٢).

(١) «صحيح مسلم» (٢/ ٥٨٤) برقم: (٨٥٢).

(٢) مسلم (٢/ ٥٨٤) برقم: (٨٥٣).

أَرْبَعَةُ أَدِلَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: نِعْمَةُ الزَّمَانِ

٦١- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾

وبعد أن بيَّن الله سبحانه أن التوجه بالدعاء والعبادة، لا يكونان إلا له جلَّ شأنه، أقام جملة من الأدلة على وحدانية الله تعالى، وانفراده بالخلق، مما يوجب انفراده تعالى بالعبادة، وبدأ ذلك بالليل والنهار؛ لأن فيهما مصالح العباد، وينشأ عنهما الظلمة والنور.

وذِكْرُ الليل والنهار يتضمن بالضرورة ذِكْرَ الشمس حيث ينشأ الليل من احتجاب أشعَّتها عن نصف الكرة الأرضية، وينشأ النهار من انتشار شعاعها على النصف المقابل من الكرة الأرضية.

والله تعالى جعل لكم الليل لتستريحوا فيه وتهدؤوا من عناء العمل بالنهار، وقد هيأه الله لتحقيق الراحة فيه، بأن جعله مُظلِمًا هادئًا ساكنًا لنومكم وراحتكم.

ومن رحمة الله تعالى بكم ونعمته عليكم، أن جعل لكم النهار مضيئًا مسفرًا لتتصرفوا فيه بطلب الرزق وأمور المعاش، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ [الإسراء: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص].

وهذا من فضل الله على خلقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فهو صاحب الجود والإحسان ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ربهم على فضله فيجحدون نعمه وعطاءه، والشاكرون المؤمنون هم القلة، كما قال تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ].

وهم الذين يقرون بنعمة ربهم، ويَصْرِفونها في طاعته ومرضاته.

والذي أعطانا هذه النعم هو الله - سبحانه - المتفرد بالخلق والإنعام:

٦٢- ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾﴾

أي: أن الذي أنعم عليكم بهذه النعم هو الله ربكم، الذي أوجد الأشياء كلها، هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، المستحق للعبادة دون سواه، فكيف تعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره -من الأوثان ونحوها- بعد أن تبينت لكم دلائل التوحيد ووجوب الشكر عليها وهذا معنى ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ وهذا تعجب من انصرافهم عن الحق إلى الباطل، وعن الشكر إلى الكفر، وعن التوحيد إلى الشرك، وفي هذا أمر بعبادته وحده، قال تعالى:

٦٣- ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾

أي: وكما صُرفتم عن الحق وكذَّبتم به -أيها المجادلون في آيات الله بالباطل- مع قيام الدليل والبرهان، يُصرف عن الحق والهدى والإيمان الذين جحدوا الحق وأنكروه، وصَرْفهم عن الحق عقوبة من الله تعالى، على جحودهم لآيات الله، وتكذيبهم رسل الله، كما قال تعالى ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة]

والإفك: هو الصرف والقلب والتحويل، كما قال تعالى ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢] أي: تَصْرِفنا عن عبادتها إلى غيرها.

الدَّلِيلُ الثَّانِي عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ: نِعْمَةُ الْمَكَانِ

وقد اشتمل هذا الدليل على أربع نعم وهي: الأرض، والسماء، وحُسْن الخلقة، والرزق من الطيبات:

٦٤- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

النعمة الأولى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ حيث يسَّر لكم الإقامة عليها لتستقروا فيها مدة حياتكم وتستقر عليها مبانيكم وأمتعتكم وهي ثابتة بكم، مهيأة لمصالحكم، تتمكنون من حرثها والغرس فيها، والبناء عليها، والسفر والإقامة فيها، وجعلها دارًا لكم بعد موتكم إلى أن تلقوْا ربكم، ففيها تحيَون وفيها تموتون.

النعمة الثانية: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي: سقفًا محفوظًا، كالقبة، مرفوعة فوقكم بغير عمد، وبث فيها من الكواكب والنجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢].

النعمة الثالثة: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي: خلقكم في أكمل هيئة، وأحسن تقويم، فجعل لكم أعضاء متناسبة مع اعتدال القامة، والتناول باليدين، ولم يجعلكم تمشون على أربع، كالبهائم وجعلكم في أجمل صورة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار] وقد خص الله الإنسان بالعقل والعلم والمعرفة، وأودع في قلبه الحب والبغض، وجعله صاحب حرية واختيار.

النعمة الرابعة: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: أنعم الله عليكم بالرزق الحلال، ولذيذ المطاعم والمشارب والملابس، وأحل لكم كل طيب وحرم عليكم كل خبيث، وخلق لكم ما في الأرض جميعًا.

والخالق لهذه الأشياء، المنعِم عليكم بها هو الله ربكم، فتعالى وتعاظم وتقدس في ذاته وصفاته، وتنزه عما لا يليق بجلاله، وتكاثر خيره وفضله، رب الخلق أجمعين.

وهي نعم توجب الشكر، وتدل على كمال قدرة الله تعالى، وعظيم سلطانه، وسعة ملكه، وتدبيره لشؤون خلقه في العالميْن: العلوي والسفلي.

وُجُوبُ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَالنَّهْيُ عَنِ الْإِشْرَاكِ بِهِ

٦٥- ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

أي: هو سبحانه وتعالى المتفرد بالحياة الدائمة، المستلزمة للصفات الذاتية، التي لا تتم الحياة إلا بها، كالسمع والبصر والقدرة، والعلم والكلام، وغير ذلك من صفات الكمال والجلال، وهو الباقي بعد فناء خلقه، لا إله غيره، ولا معبود بحق سواه، وليس له شبيه في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، له العلم التام، والقدرة التامة ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾

أي: توجهوا إليه وحده بالسؤال، وخصوه بالعبادة، كما قال تعالى ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥] وأخلصوا له دينكم وطاعتكم، ظاهرًا وباطنًا قائلين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾ فله الثناء والشكر، والمدح قولًا وفعلًا، مالك الملك، رب الخلق أجمعين.

قال ابن عباس ﷺ: من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها: الحمد لله رب العالمين(١).

وبعد الأمر بتوحيد الله تعالى يأتي النهي عن الإشراك به سبحانه في قوله:

٦٦- ﴿۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝﴾

وبعد أن أمر الله - سبحانه - بإخلاص العبادة له وحده، نهى، جلَّ شأنه - عن عبادة غيره، فقرر على لسان رسوله ﷺ إبطال عبادة غير الله تعالى في قوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ عن طريق الوحي الإلهي ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: نهيت عن عبادة غير الله في حدِّ نفسي، وأمرت أن أبلِّغ ذلك إليكم، فهو حكم الله فيكم، ولا عذر لكم في العدول عنه، وأنا أنصحكم بما أنصح به نفسي، وأريد لكم ما أريده لنفسي، وذلك بعدما قامت دلائل التوحيد المتضافرة من الأدلة العقلية والنقلية على تفرد الله - سبحانه - بالألوهية والربوبية، تفردًا مطلقًا لا تشوبه شائبة، وهي آيات واضحات لا مراء فيها، وهذا معنى ﴿لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ أي: أن النهي عن عبادة غير الله تعالى كان وقت مجيء آيات الوحي البينات ونزولها عليّ من عند ربي، وهي تنطق بوحدانيته تعالى، وتنهى عن الإشراك به، وهذه الآيات البينات تشمل دلائل التوحيد النقلية والعقلية.

وقد أمرني ربي أن أخضع وأنقاد له وحده، بالطاعة التامة وبعد أن نهاني ربي عن عبادة غيره، أمرني أن أسلم وجهي إليه بالطاعة والعبادة فقال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بأن أُخلص له ديني، بقلبي ولساني وجوارحي فتنقاد لطاعته وتستسلم لأمره، وأمرت أن أُطهِّر نفسي من عبادة غيره، فهو وحده رب العالمين، وكل الدلائل والبراهين تشهد بأن المستحق للعبادة هو الله وحده.

---

(١) ابن جرير (٢٠/ ٣٥٧) والحاكم (٢/ ٤٣٨) والبيهقي (١٩٤).

وهذه الآية، معترضة بين آيات دلائل الوحدانية، لتنبيه الغافل، وإيقاظ النائم، وتجديد سبب إيراد هذه الأدلة.

وفي آية أخرى ينهى الله تعالى رسوله ﷺ عن اتباع أهواء الضالين، فيقول: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنعام].

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: يَتَعَلَّقُ بِأَطْوَارِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ

٦٧- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا[1] وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

لقد أوجدكم الله -أيها الناس- من العدم، ومر خلقكم بأطوار مختلفة:

١- حيث خلق أباكم آدم من تراب، وأنتم فرعٌ منه.

٢- ثم خلق ذريته من نطفة، وهي المني الذي يخرج من الرجل، ويُصَبُّ في رحم المرأة ليمتزج بمائها، وقد نبهت الآية بالابتداء على بقية الأطوار.

٣- ثم يتحول المني إلى دم غليظ، أي: قطعة من الدم المتجمد كالعلقة.

٤- ثم تجري عليكم أطوار متعددة في الأرحام، إلى أن تُولَدوا أطفالًا صغارًا.

٥- ثم تنتقلون من مرحلة الطفولة إلى المرحلة التي تكتمل فيها أجسامكم وعقولكم، ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ وهو كمال العقل والبنية في سن الأربعين.

٦- ثم يتقدم بكم السن إلى أن تصلوا إلى سن الشيخوخة ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ فتتناقص قوتكم شيئًا فشيئًا.

أخرج ابن أبي حاتم عن الشعبيِّ قال: يُثْغِرُ الغلام لسبع، ويحتلم لأربع عشرة، وينتهي طوله لإحدى وعشرين، وينتهي عقله لثمان وعشرين، ويبلغ أشده لثلاث وثلاثين.

وهناك توضيح كامل لأطوار خلق الإنسان جاء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ

---

(١) قرأ ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي بكسر الشين من (شيوخا)، والباقون بضمها.

فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج].

ومثلها آيات سورة المؤمنون [١٢-١٤].

وقد رتب الله عمر الإنسان على ثلاث مراتب: الطفولة، وبلوغ الأشد، والشيخوخة، وهذا ترتيب مطابق للعقل، فإن الإنسان في أول عمره يكون في النماء والنشوء، وهو المسمى بالطفولة، إلى أن يبلغ إلى كمال النشوء من غير أن يحصل له ضعف، وهذا بلوغ الأشد، ثم يبدأ بالتراجع، ويبدأ فيه الضَّعْف والنقص وهذه مرتبة الشيخوخة(١).

ومنكم من يموت قبل بلوغ الأشد أو قبل سن الشيخوخة، وهو غالبًا ما بين الستين والسبعين ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ وقد فعل الله ذلك بكم لتبلغوا وقتًا محددًا تنتهي فيه آجالكم ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ ينتهي فيه عُمر كل منكم، ثم تبعثون جميعًا للحساب والجزاء يوم القيامة.

وقد بيَّن الله لكم هذه الأطوار لعلكم تدركون صنع الله تعالى في خلقه وتتدبرون آياته، فتعرفون أنه لا إله غيره، وتتوجهون له وحده بالعبادة دون سواه.

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: الإِحْيَاءُ وَالإِمَاتَةُ

٦٨- ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ(٢) ﴿٦٨﴾﴾

وأول ما يعقله الإنسان من أطوار خلقه، هو قدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة، إذ كيف يحيي الله تعالى الإنسان يوم القيامة، بعد أن كان جثة لا حياة فيها، تحلَّلتْ وتفتَّتت في التراب، وكيف يميته عند انتهاء أجله بعد أن كان حيًّا ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي هو سبحانه المتفرد بالإحياء والإماتة، فلا تموت نفس إلا بإذنه، بسبب أو بغير سبب ﴿وَمَا

(١) «التفسير الكبير» للفخر الرازي (٢٧/ ٨٥).

(٢) قرأ ابن عامر بنصب النون من (فيكون) على أنه منصوب بأن بعد فاء السببية، والباقون برفعها على الاستئناف.

يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر: ١١].

وإذا أراد الله إيجاد أمر من الأمور -تعلقت به قدرة الله تعالى- فإن هذا الأمر يكون، بلا تأخير ولا إعداد ولا معاناة، فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ صغيرًا أو كبيرًا، جليلًا أو حقيرًا ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: أنه يوجد فورًا من غير تأخير، وهذا تمثيل لكمال قدرة الله تعالى، وتصوير لسرعة وجودها من غير أن هناك آمرًا ومأمورًا[1].

الآيَةُ الخَامِسَةُ مِنْ آيَاتِ الجَدَلِ فِي السُّورَةِ

٦٩- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾

ولأن سورة (غافر) بُنيت على إبطال جدل الذين يجادلون في آيات الله، مما اشتمل عليه القرآن من إبطال الشرك وإنكار البعث وغيرهما، فقد ذُكِرت آيات الجدل في آيات الله، في هذه السورة خمس مرات، يعقُب كل منها إبطال جانب من جوانب جَدَلِهم.

وفي هذه الآية تعجب من انصرافهم عن التصديق بالقرآن بعد تلك البراهين الواضحة، كأن الله تعالى يقول: ألا تعجب -يا محمد- من هؤلاء المكذبين بآيات الله الدالة على وحدانيته وقدرته، والدالة على البعث بعد الموت، وهم يخاصمون فيها بدون علم ولا حجة، حيث أنكروا الحق الواضح، وانساقوا وراء الأوهام والأباطيل، فجادلوا في وحدانيته تعالى ودلائل قدرته وأنكروها، فكيف يعدلون عنها مع صحتها؟ وإلى أي شيء يذهبون بعد هذا البيان التام؟ هل وجدُوا بين آيات الله تعارضًا؟ هل وجدوا فيها شبهًا توافق أهواءهم؟ فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم.

لقد كان من المنتظر أن يهتدوا إلى الحق بعد وصوله إليهم، ولكنهم عموا وصموا لانطماس بصائرهم، واستحواذ الشيطان عليهم، فصرف الله عقولهم من الهدى إلى الضلال.

ثم عرَّف الله سبحانه هؤلاء المجادلين بأنهم:

٧٠- ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا[2] فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

(١) «تفسير أبي السعود» (٥/ ١٤).

(٢) سكَّن أبو عمرو السين من (رسْلنا)، والباقون بضمها.

أي: أن هؤلاء المشركين كذّبوا بالقرآن وما جاء فيه، بل كذبوا بسائر الكتب السماوية التي أنزلها الله تعالى على رسله لهداية البشر؛ لأن من كذّب رسولًا فقد كذب سائر الرسل، ثم توعَّد الله بسوء العاقبة على تكذيب الرسل فقال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: سوف يلْقون جزاء تكذيبهم، إذ لا جزاء لهم سوى النار الحامية.

ثم وصف الله سبحانه عذاب هؤلاء المكذبين بقوله:

٧١، ٧٢- ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ[1] ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ[2] ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾

بيَّن سبحانه تنوع تعذيب المكذبين بآيات الله ورسله في النار، حيث توضع القيود في أعناقهم، والسلاسل في أرجلهم، وتسحبهم زبانية جهنم في الماء الحار الذي اشتد غليانه، ثم يوقد بهم، فيُجعلون وقودًا لنار جهنم، وهذا معنى ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ أي: القيود في اليد والعنق ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾ الحديدية التي يُربط بها الجاني يسلسلون فيها، ثم ﴿يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ﴾ أي: في الماء البالغ أقصى درجات الحرارة ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي: يلقى بهم في النار بعنف وإهانة فيكونون وقودًا لها، كما قال تعالى عن النار: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

وطعامهم في جهنم: الزقوم والضريع والغسلين، **وشرابهم**: الماء الحار المنتن.

وقد وصف الله أهل الشمال بقوله سبحانه: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال تعالى في وصف عذابهم: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان]. وغير ذلك من الآيات.

---

(١) عد الدمشقي والمدني الأخير والكوفي (يسحبون) آية، وتركها غيرهم.

(٢) عد المدني الأول والمكي (في الحميم) آية، وتركها غيرهما.

أخرج ابن أبي شيبة[١] عن سعيد بن عبيد الطائي قال: سمعت سعيد بن جبير وهو يصلي في شهر رمضان يردد هذه الآية ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

سُؤَالُ المُشْرِكِينَ عَنِ الآلِهَةِ فِي سَاحَةِ العَرْضِ

وبعد وصف العذاب المهين لمن عبد غير الله تعالى يُسأل المشركون وهم في الموقف عن الآلهة التي عبدوها من دون الله؛ كي تشفع لهم عند الله، أو تدفع عنهم شيئًا من العذاب، كما كانوا يزعمون وهم في الدنيا:

٧٣، ٧٤- ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ[٢] ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

أي: يقال للمشركين يوم القيامة -تبكيتًا وتأنيبًا لهم، وهم في أتعس الحالات: أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله فقد كنتم تزعمون أنها تنصركم، وأنها تشفع لكم، فادعوهم لينقذوكم من هذا البلاء الذي أنتم فيه إن كانوا يستطيعون.

فيجيبون جواب المخدوع الذي ظهرت له الحقيقة ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي غابوا عن عيوننا فلم نرهم، ولم نعد نعرف لهم طريقًا، فلم ينفعونا بشيء.

ثم يعترفون بأنهم كانوا في أوهام باطلة، وجهالة من أمرهم، فيقولون: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ ليس هذا إنكارًا منهم أنهم كانوا يعبدون أصنامًا، وإنما هو اعتراف بأن عبادتهم إياها كانت باطلة، وأنهم كانوا على ضلال حين عبدوا ما لا يسمع ولا يبصر، ولا ينفع ولا يضر، فعبادتهم كانت باطلة، لا تساوي شيئًا، وهو عذر غير مقبول، وندم فات أوانه.

والآية تحتمل أن يكون المراد بقولهم ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ إنكار منهم بعبادة الأوثان، ظنًّا منهم أن هذا الإنكار ينفعهم ويفيدهم.

---

(١) ابن أبي شيبة (٢/ ٤٧٧).

(٢) عدّ الكوفي والشامي (كنتم تشركون) آية، ولم يعدها غيرهما.

ومثل إضلال هؤلاء المكذبين المشركين يضل الله الكافرين ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حيث عبدوا أصنامًا أوصلتهم إلى هذه النار، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف] وقال سبحانه: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]

السَّبَبُ فِي عَذَابِ المُشْرِكِينَ

ثم بيَّن سبحانه سبب العذاب الذي نزل بهم، فقال:

٧٥- ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ۝٧٥﴾

أي: ذلكم العذاب الذي أنتم فيه، بسبب فرحكم وبطركم في الأرض بالباطل، وبسبب مرحكم وغروركم فيها، فكنتم تفرحون بالمعاصي وتُسَرُّون بمخالفة الرسل.

والمراد بالفرح: السرور بالباطل، والفرح بالمعصية أثناء ارتكابها، وانشراح الصدر بها، ومن آثار الفرح بالباطل، التطاول على الرسول ﷺ.

ومن المرح بالباطل الاستهزاء بالإسلام، أو برسول الإسلام، أو الاستهزاء بالقرآن، أو بشيء من أحكامه، والسخرية بعباد الله الصالحين، وأكل لحوم العلماء، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١﴾ [المطففين].

ومن الفرح المذموم، فرح البطر بالغنى والجاه، كما قيل لقارون: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

ومن الفرح المذموم التمرد على رسل الله تعالى بما أوتي الإنسان من العلم والفهم، فيحكِّم عقله وعلمه فيما جاءت به رسل الله، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨٣﴾[غافر]

فليس كل فرح منهيًّا عنه، وقد امتنَّ الله على المؤمنين بالفرح في قوله تعالى:
﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الروم].

وقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]

والفرح المذموم، هو الفرح الذي يؤدي إلى الغفلة، والتوسع في اقتراف الذنوب والآثام، وإنفاق المال في المحرمات، والتطاول على خلق الله.

ويوم القيامة يقال لهذا الصنف من الناس:

٧٦- ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾

أي: أن الملائكة تقول لأهل النار: هذه هي أبواب جهنم فادخلوها، عقوبة لكم على كفركم بالله ومعصيتكم له ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ خلودًا أبديًّا وبئست جهنم دار إقامة ومنزلًا لمن تكبَّر في الدنيا على طاعة الله ورسوله.

الأَمْرُ الثَّانِي لِلنَّبِيِّ ﷺ بِالصَّبْرِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ

٧٧- ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ[1] ﴿٧٧﴾﴾

أمر الله رسوله بالصبر على أذى قومه وتكذيبهم له مرتين في السورة.

الأولى: بعد أن وعده الله بالنصر على المعارضين لدعوته في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر:٥٥] وكان ذلك بعد أن تم الكلام علىٰ ما عاقب الله به المكذبين في الدنيا من العذاب، وبعد ذِكْرِ ما يَلْقونه في الآخرة من الأغلال والسلاسل والحميم والتسجير في النار.

فلما تم ما وعد الله به رسوله ﷺ من عذابهم في الدنيا والآخرة، أمره بالصبر مرة أخرى في هذه الآية، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: اصبر يا محمد على تكذيب قومك، وامضِ في طريق الدعوة، فإن وعد الله بنصرك عليهم وإظهار دينك أمْرٌ كائنٌ لا محالة، وسيُنْجز الله لك ما وعدك به في حياتك أو بعد موتك، وهذا معنى ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ به من العذاب في الحياة الدنيا فتقرَّ به عينك، وقد تحقَّق وعد الله تعالى لنبيه ﷺ بنصره على أعدائه في غزواته، هذا هو الشق الأول من الوعد، أما الشق الآخر

---

(١) قرأ يعقوب بالبناء للمعلوم في (يرجعون)، والباقون بالبناء للمجهول.

فقد جاء في قوله تعالى:

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي قبل أن يحل بهم العذاب في حياتك ويذوقوه بعد مماتك، كما حدث في موقعة اليمامة وغيرها.

وجواب الشرط محذوف تقديره: فذلك هو المطلوب.

وهذا كله بخلاف عذاب الآخرة، حيث يرجعون إلينا فنجازيهم على أعمالهم، وهذا معنى: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فننتقم منهم أشد الانتقام، فالعذاب سينزل بهم على أي حال، إن عاجلًا أو آجلًا، ومهمتك هي البلاغ، والنتائج على الله، وهذا كقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد].

فهم غير مفلتين من العذاب على أي حال، سواء رأيته أم لا.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ﴾ [إبراهيم:٤٢]

مَوْكِبُ الرِّسَالَاتِ

٧٨- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

ومن صور جدال المكذبين بالقرآن، عدم اقتناعهم بأنه معجزة، فكانوا يقترحون أن يأتي النبي ﷺ بمعجزة أخرى تصدِّقه، وقصْدهم بهذا إفحام النبي ﷺ، ومنهم من يستبعد أن يكون الرسول بشرًا، وقبل الإجابة على ذلك، بيَّن سبحانه أنه أرسل رسلًا كثيرين قبل محمد ﷺ منهم من عرفْنا، ومنهم من لم نعرف، وليس بمقدور رسول منهم أن يأتي بمعجزة إلا بإذن الله، فالآيات يأتي بها الله، ولو علم الله أنهم سيؤمنون إذا جاءتهم الآيات المطلوبة لأيَّد رسوله بها.

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ يا محمد، رسلًا كثيرين، أرسلناهم إلى أقوامهم يدعونهم إلى الله تعالى، ويصبرون على أذاهم، وكلهم مأمورون بتبليغ وحي الله إليهم، وقد أيدناهم بالمعجزات البينات، فجادَلهم أقوامهم وكذبوهم، فتأسَّ بهم -أيها الرسول- في الصبر على أذى قومك، فإنَّ ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ وهم الذين قص الله

علينا أخبارهم في القرآن، وهم خمسة وعشرون نبيًا ورسولًا، هم:

نوح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وهود، وصالح، وشعيب، وموسى، وهارون، وعيسى، ويونس، وداود، وسليمان، وأيوب، وزكريا، ويحيى، وإلياس، واليسع، وإدريس، وآدم، وذو الكفل، ومحمد صلوات الله وسلامهم عليهم أجمعين.

وقد ذكرت سورة (الأنعام) منهم ثمانية عشر رسولًا في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام].

وجاء خمسة آخرون في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء].

ويبقى آدم ومحمد عليهما السلام، وقد جمعها القائل في قوله:

في تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهم

إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وما عدا هؤلاء الذين ذُكروا في القرآن الكريم نؤمن بهم إجمالًا لقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ﴾.

عن أنس بن مالك ﷺ: أن الله تعالى بعث ثمانية آلاف رسول(١).

وعن سلمان ﷺ: أن الله تعالى بعث أربعة آلاف نبي (٢).

وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: بعث الله عبدًا حبشيًا نبيًا، فهو ممن لم يقصص على محمد ﷺ(٣).

---

(١)، (٢) «تفسير ابن عطية» (٤/ ٥٧٠).

(٣) الطبراني في الأوسط (٩٣١٩) وابن مردويه كما في «تخريج الكشاف» (٣/ ٢٢٢).

وقيل: إن عدد الرسل نحو ثلاث مئة رسول.

قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء].

وقد جاءت آثار صحيحة بذكر بعضهم، كما في هذه الأحاديث:

١- «**أن الله تعالى بعث نبيًّا اسمه عبُود، عبد أسود**».

٢- وبعث «**حنظلة بن صفوان نبي أهل الرس**».

٣- وبعث «**خالد بن سنان من بني عَبس**».

٤- و«**إن نبيًّا لسعتْه نملة، فأحرق قرْيتها، فعوتب في ذلك**» ولم يُعرَف اسم هذا النبي(١).

وبعد هذه المقدمة في الآية، يأتي جواب الله تعالى على المكذبين الذين يطلبون خوارق العادات، غير مقتنعين بالقرآن، فيقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: وما كان ينبغي لأحد من رسل الله جميعًا أن يأتي بآية من الآيات الحسية أو العقلية إلا بإذن الله ومشيئته، فاقتراح الخوارق على الرسل، ظلم وتعنت وتكذيب، بعد أن أيدهم الله بالآيات الدالة على صدقهم وصحة ما جاؤوا به.

والآية التي يطلبوها هي المعجزة، كناقة صالح، أو عصا موسى، وهذا رد على المشركين في قولهم للنبي ﷺ: اجعل لنا الصفا ذهبًا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء]

قال تعالى في الرد عليهم: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٩].

(١) يُنظَر: «تفسير التحرير والتنوير» (٢٤/ ٢١٠).

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: فإذا جاء الوقت الذي حدده الله للفصل والقضاء بين خلقه، حيث يقضي فيه بهلاك المكذبين وعقابهم ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ والعدل بين الرسل والمكذبين، ويتبيَّن الصدق من الكذب، وحينئذ يخسر أهل الباطل والكذب، كما قال تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: هلك في ذلك الوقت المفترون على الله الكذب، الذين يعبدون غيره، ويجادلون في آياته، ويقترحون المعجزات على الرسل من باب التعنت، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية:٢٧].

فعليك بالصبر يا محمد تأسِّيًا بالأنبياء قبلك، وليحذر - المخاصبون - أن يستمروا على باطلهم، فيخسروا كما خسر أسلافهم.

الإِسَلَامُ يَدْعُو إِلَى النَّظَرِ وَالتَّأَمُّلِ فِي الكَوْنِ (الأَنْعَامُ وَالسُّفُنُ)

٧٩- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾

وجَّه الله - سبحانه - في هذه الآية من يطلبون خوارق العادات من الرسول الخاتم ﷺ أن ينظروا إلى آيات الله الحاضرة بين أيديهم، وهي شاهدة وناطقة بوحدانية الله تعالى، ولكنهم لطول عهدهم بها، وإلْفهم لها لا يفكرون فيها ولا يتدبرون، وخالق هذه الآيات هو منزل الوحي على رسوله ﷺ، وفيها ما يدعو إلى لفت النظر إليها.

ومن أجلِّ هذه الآيات أو النعم، الأنعام والسفن:

وخلْق الأنعام -وهي الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والغنم- كخلْق الإنسان، فتركيبها وتصويرها، وبثُّ الروح فيها وتذليلها، وتسخيرها للإنسان -كل ذلك- من صنع الله تعالى، ولم يدَّعِ أحد من خلق الله أن له يدًا في خلقها أوتذليلها.

والله تعالى يمنُّ على عباده بما سخَّره لهم من نعمة الأنعام، سِيَّمَا الإبل منها، ففيها منافع جمَّة بيَّن تعالى منها: الركوب عليها، وحمل الأمتعة عليها، وأكل لحومها وألبانها، والتنقل عليها في الأسفار، ومنافع أخرى كثيرة.

فالإبل تُركب وتُؤكل وتُحلب ويُحمل عليها الأثقال في الأسفار، وينتفع بأوبارها.

والبقر تُؤكل، ويُشرب لبنها، وتَحرث الأرض.

والغنم تُؤكل ويُشرب لبنها، ويُنتفع بصوفها وشعرها.

والجميع تُجزُّ أوبارها وأصوافها وأشعارها، فيتخذ منه الأثاث والثياب والأمتعة، ويُنتفع بجلودها في الصناعات والجلوس عليها، ويُنتفع بها في جمال المرأى في المرح والمراح.

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المؤمنون].

وقال عن الإبل: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس]. وقد أشار تعالى إلى هذه المنافع في قوله:

٨٠- ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾

أي: ولكم - أيها الناس - في الأنعام منافع أخرى غير الأكل منها والركوب عليها، وهي منافع عديدة في: الوبر، والصوف، والشَّعْر، واللَّبَن، والزبد، والسمن، والروث، وغير ذلك، وقد ذُكرت هذه المنافع مجملة، ثم خص بالذكر منفعتها في التنقل عليها، فقال تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ بحمل الأثقال في الأسفار البعيدة وغيرها.

وكما أن الإبل يُحمل عليها الناس والأثقال في البر، في أسفار البدْو وتنقلاتهم، فإن السفن تَحْمل الناس وأمتعتهم وسائر حوائجهم في البحر، وهذه نعمة ومنة من الله تعالى امتنَّ بها على عباده، فقال: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وامتنان الله تعالى بالفُلْكِ على خلقه، بما رَكَّب في الإنسان من العقل والذكاء الذي وصَّله إلى مثل هذه المخترعات، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ويقال عن البعير: سفينة البر، ولا زال يستعمله شريحة كبيرة من الناس في البوادي ونحوها، ثم وبَّخ سبحانه من لا ينتفعون بآيات الله المبثوثة في الكون الدالة على وحدانيته تعالى، فقال:

٨١- ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

أي: ويريكم الله تعالى دلائل قدرته ووحدانيته، وأسمائه وصفاته، كما يريكم آياته في الكون والنفس والآفاق، وفي سائر نعم الله الكثيرة، كي يعرفوا الله تعالى فيوحدوه

ويذكروه ويعبدوه ويشكروه، والأنعام والسفن بعض آيات الله المشاهدة في الكون، للدلالة على عجيب خلقه وكمال قدرته، وليس في وُسع أحد أن ينكرها ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الكثيرة الواضحة الدالة على قدرته وتدبيره في خلقه، ووجوب توحيده، وتصديق رسله وآياته، ولا عذر لأحد في عدم الاستفادة من هذه الآيات، وكلها تنطق وتُصرِّح بوجوب إخلاص العبادة لله تعالى، فأيةُ آيةٍ من آيات الله الساطعة تنكرونها ولا تعترفون بها مع وضوحها؟! وقد تقرر عندكم أن جميع النعم من الله تعالى، فلم يبق للإنكار موضع ولا مجال، وأنتم تقرون أن خالق الكون ورازقه ومدبر أمره هو الله تعالى، وفي هذا توبيخ للمجادلين في آيات الله المكذبين بها.

السِّيَاحَةُ النَّافِعَةُ

٨٢- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

ومن عوامل تحصيل الآيات الدالة على وجود الله تعالى ووحدانيته، السير في الأرض، وبالسير في الأرض، يتم التعرف على مَصارع المكذِّبين لأدلة التوحيد، والمكذِّبين لرسل الله - سبحانه -، فيعتبرون بهم، ويتعظون بما حدث لهم من سوء العاقبة ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أجلَس هؤلاء المكذبون في بيوتهم، فلم يسيروا في أقطار الأرض ليروْا بأعينهم مصارع الأمم المكذبة قبلهم؟ كيف كانت نهايتهم، فيعتبرون بما حدث لهم، حتى لا يصيبهم ما أصاب أمثالهم؟! وهذه الأمم السابقة كانوا أكثر منهم عددًا وعُدة، وكانوا أشد منهم قوة وآثارهم في الأرض باقية، من الأبنية، والمصانع، والغِراس، وغير ذلك، ولكن هذا العدد، وهذه القوة، وهذه الأبنية، والأموال لم تنفعهم عندما حلَّ بهم العذاب، فلم تُغنِ عنهم قوتهم البدنية، ولا حضارتهم العمرانية، ولا كثرة أموالهم، ولم تدفع عنهم شيئًا من بأس الله، بل أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

والآية تحث على السير في الأرض بالأبدان والعقول والقلوب، والنظر والتفكر في ملكوت الله، والاعتبار بما حدث لأمثال قوم عاد وثمود ممن كانوا أعظم منهم قوة وأكثر آثارا في الأرض، وأن هذه القوة وهذه الشدة، لم تُغن عنهم من الله شيئًا حين نزل بهم عقاب الله، ولم تدفع عنهم شيئًا من عذابه.

العِلْمُ المُنَاقِضُ لِلإيمَانِ وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ

٨٣- ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

أي: وظل المكذبون الجاحدون على حالهم من التكذيب، حتى جاءتهم رسل الله بالآيات البينات، والدلائل الواضحات فلم يصدقوهم، وفرحوا جهلًا منهم بما عندهم من العلم المناقض لِمَا جاءت به الرسل، فحلَّ بهم بأس الله.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ﴾ أي: جاءت الأمم المكذبة ﴿رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالة على وحدانية الله تعالى، وصدق الرسل، والإيمان بالبعث، ومن ذلك: الكتب الإلهية، والمعجزات الحسية، والعلم المبيِّن للهدى من الضلال، والحق من الباطل، عندئذ جادلوا رسل الله، وأعرضوا عن النظر في الأدلة، مكابرة وعنادًا و﴿فَرِحُوا۟﴾ أي: فرح المكذبون بآيات الله ﴿بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: من المعتقدات الموروثة عن أهل الضلال من أسلافهم، حيث قالوا لرسلهم: نحن أعلم منكم، لن نُبعث ولن نُعذَّب.

أو فرحوا بما عندهم من العلوم الدنيوية واغتروا بها، فنزل بهم عذاب الله الذي كانوا يسخرون منه، ويستهزئون به حين يتوعدهم به رسل الله، فيستعجلون وقوعه على وجه الاستبعاد، وذلك لأن العلم بغير إيمان فتنة تُعْمي صاحبها، وتوحي له بالغرور، فيظُن أنه يملك قُوى وقدرات عظيمة، فيتجاوز حدود نفسه، وينتفخ، فيأخذ أكثر من حقيقته، وينسى ما يجهلُه من علوم ومعارف، ولم يميز بين ما يقدر عليه وما يعجز عنه، ولو أدرك هذا لتطامن كِبْره، وخَفَّ فرحه بعلمه.

وفي الآية دليل على أن كل علم يناقض الإسلام، أو يقدح فيه، أو يُشكِّك في صحته، فإنه علم ظاهري مذموم ممقوت، ومعتقده ليس من أتباع محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم].

والعلم الظاهري هو العلم الدنيوي، الخالي من الإيمان، ومن نور الوحي والهداية، والفرح بهذا العلم يدل على شدة الرضا والتمسك به، ومعاداة الحق الذي جاءت به الرسل، وهكذا، كل علم يُردّ به القرآن أو يشكك فيه، أو يجعل أدلته اليقينية، ظنية لا

تفيد شيئًا، أو يشكك في سنة النبي ﷺ، أو يطرحها جانبًا نظرًا لوجود أحاديث ضعيفة فيها، أو منكرة أو موضوعة، وهو يجهل علم الجرح والتعديل، والدقة البالغة التي حظيت بها أحاديث النبي ﷺ حتى تميز الصحيح من الحسن والضعيف وما إلى ذلك والحمد لله رب العالمين.

الإِيمَانُ عِنْدَ رُؤْيَةِ العَذَابِ لَا يُفِيدُ صَاحِبَهُ

٨٤- ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾

أي: أن هؤلاء المكذبين لرسل الله، الجاحدين لآياته، حين عاينوا العذاب النازل بهم آمنوا واعترفوا بخطئهم حين لا ينفع الإيمان ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: لما شاهدوا بأعينهم شدة العذاب وأهواله ﴿قَالُوٓا ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ في الدنيا من عبادة غير الله، وتبرأنا من كل ما خالف الرسل من علم أو عمل. قال تعالى:

٨٥- ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ[1] ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

أي أن إيمان المضطر لا يُقبل، ولا يفيد صاحبه شيئًا بعد رؤية بوارق العذاب، وهو مِثْلُ الإيمان عند الغرغرة، وعند طلوع الشمس من مغربها؛ لأن الذي ينفع هو الإيمان الاختياري، وليس الإيمان الاضطراري، فالإيمان لا ينفع صاحبه عند مشاهدة العذاب، ولا عند قيام الساعة ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ لأن عذاب الاستئصال مشارفة للهلاك والخروج من الدنيا، وإيمان المضطر لا يصحبه اختيار ورغبة، ولا يتحقق المقصود منه.

وهذا تقدير قدَّرهُ الله - سبحانه - وسُنَّة سنَّها في الأمم القديمة، وهي: أن الكافر لا ينفعه إيمانه، إلا قبل ظهور العذاب النازل به، ولم يُستثْنَ من ذلك إلا قوم يونس عليه السلام، فقد نفعهم إيمانهم بعد معاينة العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ

(١) وقف بالهاء على (سنت) ابن كثير وأبو عمرو والكسائي، على الأصل في هاء التأنيث، ووقف الباقون بالتاء موافقة لرسم المصحف، وأمالها الكسائي وقفًا.

يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس].

وهذه سُنَّة الله وطريقته التي سنها في الأمم كلها، حيث يهلك الله الكافرين عند نزول العذاب بهم، ولا ينفعهم الإيمان عند معاينته، أو وجود قرائن تدل عليه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: هلك الكافر يوم القيامة، وخسر بذلك دنياه وأخراه.

وهكذا كان حال فرعون لم ينفعه إيمانه عند مشارفته للهلاك، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢].

فهي توبةُ فزعٍ، لا توبةُ إيمانٍ، وسُنَّة الله في خلقه ثابتة، لا تتغير ولا تختلف.

تم تفسير (**سورة غافر**) ولله الحمد والمنة.



الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٥٤	الشك في الرسالة والبعث يحرم من دخول الجنة	٨٠
	تَفْسِيرُ سُورَةِ فَاطِرٍ(٣٥) - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ - أغراض السورة	٨٢
	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - خَمْسَةُ أَدِلَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ	٨٦
١	الدَّلِيلُ الأَوَّلُ: ابْتِدَاءُ الخَلْقِ وَمِنْهُ المَلَائِكَةُ - وصف الملائكة بأنهم أولو أجنحة	٨٦
٢	العَطَاءُ وَالمَنْعُ بِيَدِ اللهِ وَحْدَهُ	٩٠
٣	ثلاث نداءات للناس: النِّدَاءُ الأَوَّلُ: وُجُوبُ شُكْرِ المُنْعِمِ سُبْحَانَهُ	٩٢
٤	لَا تَحْزَنْ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - عَلَى مَنْ لَمْ يَشْكُرْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ	٩٣
٥	النِّدَاءُ الثَّانِي لِلنَّاسِ فِي السُّورَةِ: وُجُوبُ العَمَلِ لِلدَّارِ البَاقِيَةِ	٩٣
٦	التَّحْذِيرُ مِنْ عَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ	٩٤
٧	عِقَابُ الكَافِرِ وَجَزَاءُ المُؤْمِنِ	٩٦
٨	أَسْبَابُ الْغِوَايَةِ وَأسباب الْهِدَايَةِ	٩٧
٩	الدَّلِيلُ الثَّانِي عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ: تَصْرِيفُ الْأَحْوَالِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ	١٠٠
١٠	عِزَّةُ المُؤْمِنِ فِي التَّمَسُّكِ بِدِينِهِ- اختراق الكلمة للموجات الهوائية	١٠٢
١١	الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: دَلِيلُ الخَلْقِ وَالنَّشْأَةِ	١٠٧
١٢	الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: مَشْهَدُ البَحْرَيْنِ وَمَا فِيهِمَا مِنْ نِعَمٍ - النعمة الأولى: الماء العذب والماء الملح:	١١١
	النعمة الثانية: الأسماك وما يشبهها الثالثة: الحليُّ والزينة: - الرابعة: حمل السفن في البحار	١١٢
١٣، ١٤	الدَّلِيلُ الخَامِسُ: تَصْرِيفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِالطُّولِ وَالقِصَرِ - الأثر المترتب على إقامة الأدلة السابقة ...	١١٤
١٥-١٧	النِّدَاءُ الثَّالِثُ لِلنَّاسِ عُمُومًا فِي السُّورَةِ يُذَكِّرُهُمْ بِعَدَمِ الِاسْتِغْنَاءِ عَنْ رَبِّهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ	١١٧
١٨	لَا تُعَاقَبُ نَفْسٌ بِذَنْبِ أُخْرَى - ثلاثة أوصاف لمن ينتفع بالموعظة	١١٩
١٩-٢٣	أَرْبَعَةُ أَمْثِلَةٍ لِلْكُفْرِ وَالإِيمَانِ	١٢٣
٢٤-٢٦	دَعْوَةُ اللهِ تَعَالَى عَمَّتِ الخَلَائِقَ جَمِيعًا عَلَى مَدَى التَّارِيخِ الإِنسَانِيِّ	١٢٦
٢٧، ٢٨	فِي رِحَابِ العِلْمِ التَّجْرِيبِيِّ - ١- ألوان الثمار: - ٢- ألوان الجبال - أحاديث في الخشية	١٢٩
٢٩-٣٥	فِي رِحَابِ القُرْآنِ وَنَعِيمِ أَهْلِهِ وصفاتهم - أصناف ورثة الكتاب الثلاثة	١٣٦
٣٦-٣٨	أَهْلُ الشَّقَاءِ وَعَذَابُهُمْ	١٤٦
٣٩	اسْتِخْلَافُ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ	١٥٠
٤٠	انْتِفَاءُ صِفَةِ الإِلَهِيَّةِ عَنْ غَيْرِ اللهِ تَعَالَى	١٥١
٤١	قَانُونُ الجَاذِبِيَّةِ	١٥٣
٤٢-٤٣	نَكْثُ العُهُودِ وَالوُعُودِ فِي الإِيمَانِ بِخَاتَمِ الرُّسُلِ ﷺ	١٥٤
٤٤	دَعْوَةٌ إِلَى الاسْتِفَادَةِ مِنَ التَّارِيخِ	١٥٧
٤٥	خِتَامُ السُّورَةِ فِي شُمُولِ الرَّحْمَةِ الإِلَهِيَّةِ	١٥٨
	تَفْسِيرُ سُورَةِ يَس (٣٦) - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ - أسماؤها - أغراض السورة- عناصرها	١٦١
١-٧	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - القُرْآنُ الحَكِيمُ بَيْنَ المُؤَيِّدِينَ وَالمُعَارِضِينَ وَجَزَاءُ كُلِّ فَرِيقٍ	١٦٥

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة
٧٩، ٨٠	النِّعْمَةُ الرَّابِعَةُ: تَحِيَّةٌ مِنَ اللهِ وَسَلَامٌ عَطِرٌ عَلَى نُوحٍ - الْخَامِسَةُ: ثُبُوتُ وَصْفِ الْإِحْسَانِ لِنُوحٍ ﷺ ..	٢٩٦
٨١، ٨٢	النِّعْمَةُ السَّادِسَةُ: ثُبُوتُ وَصْفِ الْإِيمَانِ لِنُوحٍ ﷺ - النِّعْمَةُ السَّابِعَةُ: هَلَاكُ الظَّالِمِينَ	٢٩٧
٨٣، ٨٤	القِصَّةُ الثَّانِيَةُ: طَرَفٌ مِنْ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ	٢٩٨
٨٥-٨٧	إِبْرَاهِيمُ يُوَبِّخُ قَوْمَهُ عَلَى عِبَادَةِ الأَصْنَامِ	٢٩٩
٨٨-٩٠	إِبْرَاهِيمُ يَعْتَذِرُ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَ قَوْمِهِ إِلَى عِيدِهِمْ	٣٠٠
٩١-٩٣	إِبْرَاهِيمُ يُكَسِّرُ الأَصْنَامَ	٣٠٢
٩٤-٩٦	إِبْرَاهِيمُ يُجِيبُ قَوْمَهُ فِي رَبَاطَةِ جَأْشٍ	٣٠٣
٩٧، ٩٨	نَجَاةُ إِبْرَاهِيمَ مِنَ النَّارِ	٣٠٥
٩٩	هِجْرَةُ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى فِلَسْطِينَ	٣٠٦
١٠٠، ١٠١	إِبْرَاهِيمُ يَسْأَلُ رَبَّهُ الْوَلَدَ، فَبَشَّرَهُ رَبُّهُ بِالْغُلَامِ الْحَلِيمِ - الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق	٣٠٧
١٠٢	قِصَّةُ الذَّبْحِ وَالفِدَاءِ	٣١١
١٠٣-١٠٥	إسماعيل يمكن أباه من الذبح	٣١٢
١٠٦، ١٠٧	البلاء والفداء	٣١٤
١٠٨-١١١	الثناء الحسن والجزاء العظيم	٣١٥
١١٢، ١١٣	الْبُشْرَى بِإِسْحَاقَ الْغُلَامُ الْعَلِيمُ	٣١٦
١١٤-١٢٢	القِصَّةُ الرَّابِعَةُ: طَرَفٌ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى وَهَارُونَ ﷺ - ست منن امتن الله عليهما بها	٣١٧
١٢٣-١٣٢	الْقِصَّةُ الْخَامِسَةُ: قِصَّةُ نَبِيِّ اللهِ إِلْيَاسَ ﷺ - صنم بعْل - إلياس يعهد إلى اليسع	٣٢١
١٣٣-١٣٨	الْقِصَّةُ السَّادِسَةُ: طَرَفٌ مِنْ قِصَّةِ لُوطٍ ﷺ	٣٢٥
١٣٩، ١٤٠	القِصَّةُ السَّابِعَةُ وَالأَخِيرَةُ: قِصَّةُ نَبِيِّ اللهِ يُونُسَ ﷺ - القرعة عادة قديمة	٣٢٦
١٤١-١٤٦	يُونُسُ فِي بَطْنِ الحُوتِ	٣٢٨
١٤٧، ١٤٨	يُونُسُ يَعُودُ إِلَى قَوْمِهِ دَاعِيًا إلى الله بَعْدَ نَجَاتِهِ مِنْ بَطْنِ الْحُوتِ	٣٣١
١٤٩-١٦٠	إِبْطَالُ دَعْوَى أَنَّ المَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ - لِلَفْظِ الْجِنَّةِ ثَلَاثَةُ مَعَانٍ	٣٣٢
١٦١-١٦٣	لَا يَحْدُثُ الضَّلَالُ إِلَّا لِمَنْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللهِ تعالى أَنَّهُ شَقِيٌّ ضَالٌّ	٣٣٧
١٦٤-١٦٦	الْمَلَائِكَةُ يُبَرِّئُونَ أَنْفُسَهُم مِمَّا قَالَهُ الْمُشْرِكُونَ - أحاديث في المعنى	٣٣٨
١٦٧-١٧٠	مَقَالَةُ الْكُفَّارِ قَبْلَ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ	٣٤١
١٧١-١٧٣	أَهْلُ النَّصْرِ عَلَى الْعَدُوِّ	٣٤٢
١٧٤-١٧٧	الأَمْرُ بِتَرَقُّبِ مَا سَيَحِلُّ بِالْكُفَّارِ مِنْ عَوَاقِبَ وَخِيمَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ	٣٤٣
١٧٨، ١٧٩	تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ مُؤَكَّدٌ لِلْمُكَذِّبِينَ بِخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ	٣٤٥
١٨٠-١٨٢	خِتَامُ السُّورَةِ بِثَلَاثَةِ مَقَاصِدَ هِيَ التَّسْبِيحُ وَالتَّسْلِيمُ وَالْحَمْدُ	٣٤٥
	تَفْسِيرُ سُورَةِ ص (٣٨) - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ - سبب النزول - قضايا السورة الثلاث	٣٤٩
١، ٢	تَفْسِيرُ السُّورَةِ - القُرْآنُ العَظِيمُ رَفِيعُ الشَّأْنِ، وَلَكِنَّ الكِبْرَ صَرَفَ الْكُفَّارَ عَنْهُ	٣٥٣
٣	الْعُقُوبَةُ الرَّادِعَةُ لِكُلِّ مَنْ أَبَى الْحَقَّ وَأَعْرَضَ عَنْهُ	٣٥٥

فهرس الموضوعات

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة